

جمع وترتيب
الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الثاني

الناشر
دار ماجد عسيري ــ جدة
٠٠٩٦٦٥٤٣٤٦١٥١


بسم الله الرحمن الرحيم

فرسَانُ النَّهَارِ

هذه سطور من نور لحياة الفرسان الربانيين نضعها هالة أمام رجال الأمة وشبابها مثلًا يُحتذى وقدوة تتطامن دونها أعناق الشجعان.

جهاد النبيين

وسيد المرسلين ﷺ

١

أشجع الفرسان، وأقواهم قلبًا، وأثبتهم جنانًا..

رجل الرجال، وبطل الأبطال..

قائد السادات وسيد القادات

رسول اللَّه ﷺ

أشجع الفرسان، وأقواهم قلبًا، وأثبتهم جنانًا..
رجل الرجال، وبطل الأبطال..
قائد السادات وسيد القادات
سيدنا رسول الله ﷺ

> قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

لما كان الجِهَادُ ذِروةَ سَنَامِ الإسلام وقُبَّتَهُ، ومنازِلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعةُ في الدنيا، فهم الأَعْلَوْنَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، كان رسولُ اللهِ ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ في الذروة العُليا منه، واسْتولى على أنواعه كُلِّها؛ فجاهد في اللهِ حقَّ جهاده بالقلب، والجَنَان، والدَّعوة، والبيان، والسيفِ، والسِّنَانِ، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده؛ ولهذا كان أرفعَ العَالَمِينَ ذِكْرًا، وأعظمَهُمْ عند اللهِ قدرًا.

وأمره اللَّه ـ تعالى ـ بالجهاد مِن حينَ بعثه، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢]، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحُجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلكَ جهادُ المنافقين، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فهم تحت قهر أهلِ الإسلام؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

فجهادُ المنافقين أصعب مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالم، والمشارِكُون فيه والمعاونون عليه ـ وإن كانوا هُم الأقلين

عددًا ـ فهم الأعظمون عند اللَّه قدرًا.

ولما كان مِن أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شدة المُعَارِضِ؛ مثلَ أن تتكلم به عند من تُخاف سَطوتَهُ وأذاهُ، كان لِلرسلِ ـ صلواتُ اللهِ عليهم وسلامُهُ ـ مِن ذلك الحظُّ الأوفَرُ، وكان لنبينا ـ صلواتُ اللَّه وسلامُهُ عليه ـ من ذلك أكملُ الجهاد وأتمُّهُ.

وأكملُ الخَلْقِ عند اللهِ مَن كَمَّلَ مراتِبَ الجِهَادِ كُلَّهَا، والخلقُ متفاوتونَ في منازلهم عند اللَّه تفاوتهم في مراتب الجهاد؛ ولهذا كان أكملَ الخلق وأكرمَهُمْ على اللهِ خاتمُ أنبيائهِ ورُسُلِهِ؛ فإنه كَمَّلَ مراتبَ الجهاد، وجاهد في اللَّه حقَّ جهاده، وشرع في الجهاد من حِينَ بُعِثَ إلى أن تَوَفَّاهُ اللَّه عَزَّقَجَلَّ؛ فإنَّه لما نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾ [المدثر: ١ ـ ٤]، شَمَّرَ عن ساق الدعوة، وقام في ذات اللَّه أَتَمَّ قيام، ودعا إلى اللَّه ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، وَلَمَّا نزل عليه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فصدع بأمر اللَّه لا تأخذه فيه لومةُ لائمٍ، فدعا إلى اللهِ الصغيرَ والكبيرَ، والحرَّ والعبدَ، والذكرَ والأنثى، والأحمرَ والأسودَ، والجنَّ والإنسَ.

ولما صَدَعَ بأمرِ الله، وَصَرَّحَ لقومه بالدَّعوة، وناداهم بِسَبِّ آلهتهم[١]، وَعَيْبِ

---

(١) لم يكن رسول الله ﷺ سبابًا، ولا شَتَّامًا، ولا فَحَاشًا؛ وإنما كان ينفي عن آلهة المشركين ما كانوا يتوهمونه لها من صفات لا تليق إلا بالله ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ، ويصفها بما وصفها الله به في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ۝١١٧﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ۝١٩٧﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، وغير ذلك مما أنزله الله عليه في تعرية آلهتهم المزعومة مما كانوا يعتقدونه فيها.

دينهم، اشتد أذاهم له وَلِمَن استجاب له من أصحابه، ونالوه ونالوهم بأنواع الأذى، وهذهِ سُنَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في خلقه؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فَعَزَّى اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ نبيَّهُ بذلك، وأن له أُسوةً بمن تقدَّمه من المرسلين، وَعَزَّى أتباعه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]

وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٧].

كان رسول اللَّه ﷺ أشجع الناس، وأقواهم قلبًا، وأثبتهم جَنانًا، وقد حضر المواقف الصعبة المشهورة، وفرّ الكماةُ والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومُقبل لا يدبر ولا يتزحزح. وهو نبي الملاحم، بأبي هو وأمي - صلوات ربي وسلامه عليه - مَن جعل رزقه تحت ظل رمحه.

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بُعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يعبد اللَّه - تَعَالَى - وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذُّلُّ**[1] **والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[2].

فكسبه أفضل الكسب، وظل رمحه ممدود إلى أبد الآباد. والمقصود بذكر الرمح الراية، فعادة العرب جرت بجعل الرايات في أطراف الرمح، فلما كان ظل الرمح أسبغ كان نسبة الرزق إليه أليق.

بأبي وأمي من قال: «**أنا المقَفى، ونبي التوبة، ونبي المرحمة - أو الرحمة -، ونبي الملحمة - أو الملاحم**»[3].

وقال ﷺ: «**أنا محمد، وأحمد، والمقَفى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة.**

---

(١) في رواية البخاري: «وجُعل الذلة والصغار على من خالف أمري»، والمقصود بذلك ذل الجزية.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وأبو يعلى، والطبراني في «المعجم الكبير»، وابن أبي شيبة، وعبد بن حُميد، والبيهقي في «الشعب». قال الهيثمي: فيه عبدالرحمن بن ثابت عن ثوبان، وثقة ابن المديني وأبو حاتم، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات، وذكره البخاري في «الصحيح» في الجهاد تعليقًا، باب ما قيل في الرماح، وقال الحافظ في «الفتح» (١١٦/٦): «وله شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن النبي ﷺ بتمامه. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٨٣١)، وفي «إرواء الغليل» رقم (١٢٦٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي موسى، وزاد الطبراني في «المعجم الكبير»: ونبي الملحمة. ورواه أحمد عن حذيفة، وقد خرجه أحمد عن حذيفة بلفظ: «ونبي الملاحم»، قال الزين العراقي: وإسناده صحيح.

ورواه بزيادة: «نبي الملحمة» الطيالسي، وأحمد، وابن سعد، والطحاوي، والطبراني في «المعجم الصغير»، والحاكم في «المستدرك». وصححه السيوطي «الجامع الصغير»، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٤٧٣).

[ونبي الملحمة]».

ونبي الملحمة: «أي: نبي الحرب. وسمي به؛ لحرصه على الجهاد، ووجه كونه نبي الرحمة ونبي الحرب أن اللَّه بعثه لهداية الخلق إلى الحق وأيَّده بمعجزات، فمن أبى عُذِّب بالقتال والاستئصال، فهو نبي الملحمة التي بسببها عمت الرحمة وثبتت المرحمة»[(١)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لولا أن رجالًا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددت أني أقتل في سبيل اللَّه ثم أحيا، ثم أُقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أُقتل**»[(٢)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من الناس من نفس مسلمة يقبضها ربها، تحب أن ترجع إليكم، وأن لها الدنيا وما فيها غير الشهداء، ولأن أُقتل في سبيل اللَّه أحب إلى من أن يكون لي أهل الوبر والمدر**[(٣)]»[(٤)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس. ولقد فزع أهل المدينة، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس، وقال: وجدناه بحرا[(٥)]»[(٦)].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل

---

(١) فيض القدير، للمناوي (٣/٤٥).
(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن أبي هريرة.
(٣) أهل البوادي والمدن والقرى والأمصار.
(٤) حسن: رواه أحمد في «مسنده» والنسائي عن عبدالرحمن بن أبي عميرة. وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٨٤)، و«الترغيب» (٢/١٩٠).
(٥) وجدناه بحرا: أي: وجدنا الفرس سريع الجري لا يجارى، وذلك من بركة النبي ﷺ؛ لكونه ركب فرس أبي طلحة وكان قطفًا؛ أي: بطيئًا ضيق المشي. انظر: البخاري حديث (٢٨٦٧).
(٦) رواه البخاري (٢٨٢٠) واللفظ له، ومسلم.

الصوت فتلقاهم رسول اللَّه ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي، وفي عنقه السيف، وهو يقول: «**لم ترُاعوا... لم تراعوا**»(١).

وفي لفظ للبخاري: قال: «فزع الناس، فركب رسول اللَّه ﷺ فرسًا لأبي طلحة قطفًا، ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه، فقال: «**لم تُراعوا؛ إنه لبحر**». قال: فما سُبق بعد ذلك اليوم.

وعن جبير بن مطعم أنه بينما هو يسير مع رسول اللَّه ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقت الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرة فخطفتْ رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «**أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العِضاه نَعَمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوبًا، ولا جبانًا**»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه «**استقبلهم النبي ﷺ على فرس عُرْي**(٣) **ما عليه سَرْج، في عُنقه سيف**»(٤).

قال ابن حجر في «**الفتح**» (٦/٨٢): «وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع والفروسية البالغة، فإن الركوب المذكور لا يفعله إلا من أحكم الركوب وأدمن على الفروسية».

وعن جندب بن سفيان رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ كان في بعض المشاهد قد دميت إصبعُه فقال:

هــل أنــت إلا إصبــع دَمِيــتِ ... وفي سبيل اللَّه ما لقيت»(٥)

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الشجاعة في الحرب، والجبن، «الفتح» (٦/٤٢) حديث (٢٨٢١).

(٣) عري: أي: ليس عليه سرج ولا أداة، ولا يُقال في الآدميين، إنما يُقال: عريان. قاله ابن فارس.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ركوب الفرس العُرْي «الفتح» (٦/٨٢) حديث (٢٨٦٦).

(٥) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب من يُنكبُ في سبيل الله (٢٨٠٢)، وفي «الأدب» باب «ما يجوز من الشعر»، بلفظ: «نُكبت أصبعه».

وعن علي رضي الله عنه قال: «كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول اللّه ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»[١] وعند أحمد: «فما يكون منا أحد أدنى إلى القوم منه».

وعن البراء بْنِ عَازِبٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ فَقَالَ: أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ مَا وَلَّى. وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ وَحُسَّرٌ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ، فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ؛ كَأَنَّهَا رِجْلٌ[٢] مِنْ جَرَادٍ فَانْكَشَفُوا. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ. فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ وَهُوَ يَقُولُ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ**». قَالَ الْبَرَاءُ: كُنَّا وَاللهِ، إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ ـ يَعْنِي: النَّبِيَّ ﷺ»[٣].

وعن عمران بن الحُصينْ قال: «ما لقي النبي ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب»[٤].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه سُئِل عن جُرْح رسول اللّه ﷺ يوم أحد فقال: أما والله، إني لأعرف مَن كان يغسل جُرح رسول اللّه ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِي، قال: كانت فاطمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ بنت رسول اللّه ﷺ تغسله، وعليّ يسكب الماء بالمِجن[٥]. فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم، وكُسِرت رباعيته يومئذ، وجُرح

---

(١) حسن لغيره: رواه أحمد في «مسنده» (١٥٦/١)، والبغوي في «شرح السنة» (٢٥٧/١٣)، وأبو الشيخ الأصبهاني في «أخلاق النبي وآدابه» (١٠٤)، واللفظ له، وقال د. صالح الونيَّان محقق الكتاب: «يرتقي إلى الحسن بشواهده».

(٢) رِجْل: أي: قطعة وجماعة.

(٣) رواه مسلم (١٧٧٦)، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (١٤٠١/٣).

(٤) رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي وآدابه» (١٠٩)، وهو حسن بشواهده.

(٥) المجن: الترس الذي يواري حامله أثناء القتال.

وجهه، وكُسِرت البيضة[1] على رأسه»[2].

ولما رآه أُبيّ بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا. وقد كان يقول للنبي ﷺ: عندي فرس، أعلفها كل يوم فرقًا من ذرة، أقتلك عليها. فقال له النبي ﷺ: «**أنا أقتلك إن شاء الله**»، فلما رآه يوم أُحد شد أبي فرسه على رسول الله ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي ﷺ هكذا؛ أيْ: خلوا طريقه، وتناول الحربة من الحارث بن الصِّمَّة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء[3] عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ وطعنه في عنقه طعنة تدأدأ[4] عنها عن فرسه مرارًا، وقيل: بل كسر ضلعًا من أضلاعه، فرجع إلى قريش، يقول: قتلني محمد. وهم يقولون: لا بأس. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس، لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك، والله، لو بصق علي لقتلني. فمات ـ لعنه اللَّه ـ بسرف في قفولهم إلى مكة.

ولله در أحمد محرم إذ يقول عن أُبي بن كعب ومقتله:

دلفوا إليه، وظن أكذبُهم مُنًى ... أن قدْ سَقَتْهُ يداه كأس حِمَامِهِ

أكذاك ينخدِعُ الغبيُّ وهكذا ... يتخبطُ المفتون في أوهامه؟

مهلًا أبيُّ لقد ركبتَ عظيمةً ... وأردتَ صرحًا لست من هُدَّامِهِ

صرحٌ بناه اللَّه أوَّلَ ما بنى ... وأطال من عِرْنينه وسنامِهِ

لا يبلغُ الباني ذراهُ، ولا يُرى ... في الداعمين بناؤه كدِعامِه

أقدم فخذها طعنةً من باسلٍ ... يغتالُ عزم الليث في إقدامِهِ

تلك المنية يا أبيُّ سُقِيتَها ... فانظر إلى الساقي وروعة جامِهِ[5]

(١) البيضة: الخوذة من المعدن يلبسها المقاتل.

(٢) رواه البخاري (٤٠٧٥)، واللفظ له، ومسلم (١٧٩٠).

(٣) الشُّعْر: بضم الشين وسكون العين: جمْع شعراء، وهي ذِبَّان حُمْر، وقيل: زُرق تقع على الإبل والحمير فتؤذيها أذى شديدًا.

(٤) دَأدَأ، وتدأدأ: تدحرج وسقط.

(٥) جامِه: كأسه.

خدش كوقعِ الظُّفْر، أو هو دونَهُ   لِمَ تشتكي وتضجُّ من آلامِهِ؟
أَأُبيّ أين العودُ والعلفُ الذي   أعددتَهُ، وجعلتَهُ لطعامِهِ؟
اذهب لك الويلاتُ من متمرِّدٍ   عادى الإلهَ، ولجَّ في آثامه(١)

وعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمْ نُفَارِقْهُ. وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا لَهُ فَرْوَةُ بنُ نُفَاثَةَ الجُذَامِيُّ. فَلَمَّا الْتَقَى الْمُسْلِمُون وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ. قَالَ عَبَّاسٌ: وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّه ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا يُسْرِعَ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رَسُولِ اللَّه ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**أَيْ عَبَّاسُ، نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ**»(٢).

فَقَالَ عَبَّاسٌ ـ: (وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا) ـ: فَقُلْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ؟ قَالَ: فَوَاللهِ، لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ عَلَى أَوْلادِهَا. فَقَالُوا: يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ. قَالَ: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ. وَالدَّعْوَةُ فِي الأَنْصَارِ يَقُولُونَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ. قَالَ: ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَقَالُوا: يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، يَا بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالْمُتَطَاوِلِ عَلَيْهَا إِلَى قِتَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا حِينَ حَمِيَ الْوَطِيسُ**»(٣) قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَصَيَاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الْكُفَّارِ. ثُمَّ قَالَ: «**انْهَزَمُوا، وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**». قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى. قَالَ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصَيَاتِهِ. فَمَا زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا(٤).

---

(١) ديوان مجد الإسلام، لأحمد محرم، ص (١٥٢، ١٥٣) مكتبة الفلاح.

(٢) السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، ناداهم يا أصحاب السمرة.

(٣) هذا حين حمي الوطيس: قيل: الوطيس هو التنور المسجور، وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يُسمع من أحد قبل النبي ﷺ.

(٤) رواه مسلم (١٧٧٥).

ولله در أحمد محرم حين يقول:

يا مولَعًا بالحرب، يستقصي المَدَى في وصفها منه البيان المُسْهَبُ
سلْ بغلةً حملتْ رسول اللّه هل حمدتْ فوارِسها العتاقُ الشُّزَّبُ؟[١]
طاروا عليها مدبرين، ولم يَطِرْ ومَضَوْا فلولًا، وَهْوَ راسٍ يرقُبُ
بطل يرى موج المنايا حولَهُ فعزيمة تطفو، وقلبٌ يَرْسُبُ
تجري ظنون القومِ في حركاتِه فيفوتُ غاية من يَظُنُّ ويحسَبُ
كل امرئٍ يأتي الأمور عظيمةً فإليه في الدنيا العريضة يُنسَبُ
ما العبقرية في مراتبها العُلَى هو في سماء العبقرية كوكبُ
متألِّقٌ، مَنْ لم يَسِرْ في نوره أودَى الظلام به وطاح الغيهبُ[٢]

عن بريدة رضي الله عنه قال: «غزا رسول اللّه ﷺ تسع عشرة غزوة قاتل في ثمان منهن»[٣].

وغزواته كلها وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدة عشر سنين، فالغزوات سبع وعشرون[٤]، وقيل خمس وعشرون، وقيل: تسع وعشرون، وقيل غير ذلك، قاتل منها في تسع: بدر، وأحدِ، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنينْ، والطائف، وقيل: قاتل في بني النضير، والغابة، ووادي القُرى من أعمال خيبر.

وأما سراياه وبعوثه، فقريب من ستين[٥]، والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر،

(١) الشُّزَّب: جمع شازب، وهو الضامر.
(٢) أودى: أَهْلَك، والغيهب: الظلمة.
(٣) رواه مسلم (١٨١٤).
(٤) قال اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتابه «قادة النبي ﷺ» ص (٥٩٠): «بمقارنة تعداد الغزوات وتوقيتها في المراجع المعتمدة للسيرة النبوية المطهرة، والمغازي، والتاريخ، وإحصاء الغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه، وجدتُ أن عدد الغزوات التي قادها بنفسه هي ثمان وعشرون غزوة، ويبدو أن قسمًا من المصادر أغفلت غزوة من الغزوات سهوًا، وقسمًا منها أغفلت أكثر من غزوة واحدة».
(٥) كانت سراياه التي بعث بها سبعًا وأربعين سرية. انظر: «طبقات ابن سعد» (٦/٢)، «وعيون الأثر» (٢٢٣/١)، «وقادة النبي» (٥٩٠).

وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك.

وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن، فسورة الأنفال سورة بدر، وفي أحد آخر سورة آل عمران من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى قُبيل آخرها بيسير، وفي قصة الخندق، وقريظة، وخيبر صدر «سورة الأحزاب»، وسورة الحشر في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة «الفتح» وأشير فيها إلى الفتح، وذُكِر الفتح صريحًا في سورة «النصر»، وجُرِح منها ﷺ في غزوة واحدة وهي أُحد، وقاتلت معه الملائكة منها في بدر وحنين. ونزلت الملائكة يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم، ورمى فيها الحصباء في وجوه المشركين فهربوا، وكان الفتح في غزوتين، وقاتل بالمنجنيق منها في غزوة واحدة وهي الطائف، وتحصَّن في الخندق في واحدة، وهي الأحزاب أشار به عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه[١].

❑ سِلَاحُهُ:

كان لنبي الملاحم ﷺ تسعة أسياف:

مأثور، والعضْب، وذو الفِقار، بكسر الفاء وفتحها، وكان لا يكاد يفارقه، والقلعي، والبتار، والحتف، والرَّسوب، والمِخْذَم، والقضيب، وكان سيفه ذوالفقار تنفَّله يوم بدر، وهو الذي أُرِي فيها الرؤيا.

وكان له سبعة أدرع:

ذات الفضول وكانت من حديد، وذات الوِشاح، وذات الحواشي، والسعدية، وفضة، والبتراء، والخِرْنِق.

وكانت له ست قِسي: الزوراء والروحاء، والصفراء، والبيضاء، والكتوم، كُسِرت يوم أحد، فأخذها قتادة بن النعمان، والسداد.

---

(١) زاد المعاد، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط (١/١٢٩-١٣٠) مؤسسة الرسالة.

وكان له ترس يقال له: الزَّلوق، وتُرس يُقال له: الفُتَق، وترس أبيض يسمى الموجز.

وكانت له خمسة أرماح، يُقال لأحدهم: المُثْوِي، والآخر: المُثْني، وحرْبة يقال لها: النبْعة، وأخرى كبيرة تُدعى: البيضاء، وأخرى صغيرة شبه العكاز يقال لها: العَنَزَة يمشي بها بين يديه في الأعياد، تركز أمامه، فيتخذها سترة يُصلي إليها، وكان يمشي بها أحيانًا.

وكان له مِغْفَر من حديد يقال له: الموشَّح، ومِغفر آخر يُقَال له: السبوغ، أو: ذو السبوغ.

وكان له ثلاث جباب يلبسها في الحرب.

وكان له راية سوداء يقال لها: العُقَاب.

وفي سنن أبي داود عن رجل من الصحابة قال: رأيت راية رسول اللَّه ﷺ صفراء، وكانت له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود.

وكانت له كنانة تُسمى: الجمع، وكان له مِحجن يُسمَّى: الدقن. وكان له فرس أدهم يسمى: السَّكْب. وكان له سرج يسمَّى: الداج.

ومن خيوله سبعة متفق عليها، جمعها الإمام محمد بن إسحاق بن جماعة الشافعي في بيت فقال:

والخيلُ سَكْبٌ لُحَيْفٌ سَبْحةٌ ظَربٌ ... لِزَازٌ مُرتَجَزٌ وَرْد لها اسرارُ

وقيل: كانت له أفراس أخر خمسة عشر، ولكن مختلف فيها، وكان دفتا سرجه من ليف.

❑ وانظر إلى شجاعة النبي ﷺ وتوكله على ربه.

عن جابر بن عبداللَّه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أنه غزا مع النبي ﷺ فأدركتهم القائلة في واد كثير العِضَاه، فتفرَّق الناس في العِضاه يستظلُّون بالشجر، فنزل النبي ﷺ تحت

شجرة فعلق بها سيفه ثم نام، فاستيقظ وعنده رجل وهو لا يشعر به، فقال النبي ﷺ: إنَّ هذا اخترط سيفي فقال: فمَن يمنعك؟ قلتُ: الله. فشام السيف، فها هو ذا جالسٌ. ثم لم يعاقبه[١].

❑ القائد الذي ليس له مثيل رسول اللّه ﷺ:

لقد أيد اللّه نبيه ﷺ وثبت قدمه ونصره على أعدائه بالملائكة المنزلة، ولكن الخوارق وحدها لم تكن أداة النصر والعامل الذي غلب به الرسول ﷺ، والذين يذهبون إلى هذا يسلبونه قوته قائدًا. ثم كيف يحتذي المسلمون سيرته، ويتبعون في الحروب نهجه وسنته، إذا لم يكن لفنه الحربي الأصيل، ومواهبه العسكرية النادر الأثر العظيم في ظفره ونصره؟ إن الخوارق كانت إيذانًا للنبي ﷺ بأن اللّه معه لا يتخلى عنه، حتى يشحذ همَّته ويثير عزيمته، وينبهه بكل ما فيه من حواس اليقظة والحذر إلى أعدائه المحاربين.

ونحاول في هذه الأسطر البسيطة أن نبرز للعيان سمات قيادة الرسول ﷺ[٢] التي يمكن أن تكون أسوة حسنة في الحروب لأتباعه.

لقد عمل الرسول ﷺ بكل مبادئ الحرب المعروفة، بالإضافة إلى مزاياه الشخصية الأخرى في القيادة، لهذا انتصر على أعدائه. ولم يغفل الرسول ﷺ شيئًا من الحذر والحيطة والاستعداد.

لماذا كان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها؟ ولماذا كان يأخذ بمبدإ «**الحرب خدعة**»؟

ما تردد قبل معركة بدر، وهو يرى المشركين متفوقين على أصحابه في العدد

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير، باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة والاستظلال بالشجر، حديث (٢٩١٣).

فشام السيف: رده في غِمده. يُقال: شام السيف إذا سلَّه وإذا أغمده؛ فهو من الأضداد، والمراد ـ هنا ـ: غمده.

(٢) انظر: التفصيل في كتاب «الرسول القائد»، للواء الركن محمود شيت خطاب، دار الفكر، بيروت.

والعُدَّة.

وثبت ثبات الأبطال وقد طوقته جيوش المشركين من كل جانب، وكسرت رباعيته[(١)] وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه.

وأي استعدادات بلغت من الإحكام والدقة في التفاصيل، ما بلغته استعدادات الرسول ﷺ لتجهيز جيش العسرة؟

لماذا كل هذا الحذر الشديد والاستعدادات الدقيقة، إذا كان انتصار الرسول ﷺ بالخوارق غير العادية لا بالأعمال العسكرية والمواهب الحربية؟

إن النصر من عند الله، ولكن اللَّه لا يهب نصره لمن لا يعد كل متطلبات القتال.

إن المسلم حقًّا، هو الذي يقدر الرسول ﷺ حق قدره، فيعترف بأن كفاية الرسول ﷺ قائدًا متميزًا، وكفاية أصحابه جنودًا متميزين، هي التي أمنت لهم النصر العظيم.

أما أن نستند على الخوارق وحدها في الحرب، ونجعلها السبب المباشر لانتصار المسلمين، فذلك يجعل هذا النصر لا قيمة له من الناحية العسكرية عند غير المسلمين.

إن أعمال الرسول ﷺ ومنها العسكرية ـ سُنَّةٌ متبعة في كل زمان ومكان، فهل يبقى أتباعه ينتظرون الخوارق؛ لينتصروا على أعدائهم، أم يعدون ما استطاعوا من قوة؛ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] لينالوا هذا النصر؟

إن سيرة الرسول ﷺ العسكرية تثبت بشكل جازم لا يتطرق إليه الشك أن انتصاره كان لشجاعته الشخصية، وثباته في أحلك الظروف، ولقراراته السريعة الجازمة في أخطر الظروف، ولعزمه الأكيد في التشبث بأسباب النصر، ولتطبيقه كل مبادئ الحرب المعروفة في كل معاركه، تلك العوامل الشخصية التي جعلته يتفوق على أعدائه في الميدان بعد قوة إيمانه باللَّه ـ تَعَالَى ـ.

(١) الرباعية: السن بين الثنية والناب، وهي أربع؛ رباعيتان في الفك الأعلى، ورباعيتان في الفك الأسفل.

يمتاز الرسول ﷺ عن غيره من القادة في كل زمان ومكان بميزتين مهمتين: -

الأولى: أنه كان قائدًا عصاميًّا.

والثانية: أن معاركه كانت لنشر الإسلام والدفاع عنه.

إن غيره من القادة العظام وجدوا أممًا تؤيدهم وقوات جاهزة تساندهم، ولكن الرسول ﷺ لم تكن له أمة تؤيده، ولا قوات تسانده، فعمل على نشر دعوته، وتحمل أعنف المشقات والصعاب، حتى كون له قوة بالتدريج ذات عقيدة واحدة وهدف واحد، هو التوحيد وإعلاء كلمة الله.

وعلى ذلك يمكن تقسيم حياة الرسول ﷺ من الناحية العسكرية إلى أربعة أدوار: دور الحشد، ودور الدفاع عن العقيدة، ودور الهجوم، ودور التكامل.

أما دور الحشد: فمن بعثته إلى هجرته إلى المدينة المنورة واستقراره هناك، وفي هذا الدور اقتصر ﷺ على الحرب الكلامية: يُبشر وينذر ويحاول جاهدًا نشر الإسلام، وبذلك كون النواة الأولى لقوات المسلمين، وحشدهم في المدينة المنورة بالهجرة إليها، وعاهد بعض يهود ليأمن جانبهم عند بدء الصراع.

أما دور الدفاع عن العقيدة: فمن بدء الرسول ﷺ بإرسال سراياه وقواته للقتال إلى انسحاب الأحزاب عن المدينة المنورة بعد غزوة الخندق، وبهذا الدور ازداد عدد المسلمين، فاستطاعوا الدفاع عن عقيدتهم ضد أعدائهم الأقوياء.

دور الهجوم: فهو بعد غزوة الخندق إلى بعد غزوة «**حُنيْن**»، وبهذا الدور انتشر الإسلام في الجزيرة العربية كلها، وأصبح المسلمون قوة ذات اعتبار وأثر في بلاد العرب، فاستطاعوا سحق كل قوة تعرَّضت للإسلام.

والدور الرابع هو دور التكامل: وهو من بعد غزوة «**حنين**» إلى أن التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى؛ فقد تكاملت قوات المسلمين بهذا الدور، فشملت الجزيرة العربية كلها، وأخذت تحاول أن تجد لها متنفسًا خارج شبه الجزيرة العربية، فكانت غزوة «**تبوك**» إيذانًا بمولد الإمبراطورية الإسلامية. بهذا التطور المنطقي تدرج الرسول القائد

العصامي ﷺ بقواته من الضعف إلى القوة، ومن الدفاع إلى الهجوم، ومن الهجوم إلى التعرض، وبذلك بزَّ كل قائد في كل أدوار التاريخ؛ لأنه أوجد قوة كبيرة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد من لا شيء.

والميزة الثانية لقيادته: هي أن معاركه كانت حروب عقيدة وفروسية بكل معنى الكلمة، الغرض منها حماية نشر الإسلام وتوطيد أركان الإسلام، ولم ولم ينقض عهدًا، ولم يمثِّل بعدوٍّ، ولم يقتل ضعيفًا، ولم يقاتل غير المحاربين.

وربما يتبادر إلى الأذهان أن القيادة في العصور الغابرة كانت سهلة التكاليف بالنسبة للقيادة في الحروب الحديثة؛ لقلة عدد القوات حينذاك بالنسبة إلى ضخامة عددها، وكثرة أسلحتها، ووسائلها في الجيوش الحديثة، ولكن العكس هو الصحيح. إن مهمة القائد في العصور الغابرة كانت أصعب من مهمته في العصر الحديث؛ لأن سيطرة القائد ومزاياه الشخصية كانت العامل الحاسم في الحروب القديمة؛ بينما يسيطر القائد في الحروب الحديثة على قواته الكبيرة بمعاونة عدد ضخم من ضباط الركن الذين يعاونونه في مهمته، ويراقبون تنفيذ أوامره في الوقت والمكان المطلوبين، كما يسيطر القائد على قواته بوسائط المواصلات الداخلية الدقيقة من أجهزة لاسلكية، وسلكية، ورادار وطيارات، وأقمار صناعية... إلخ.

بل إن هيئات الركن مسئولة حتى عن تهيئة خطط القتال قبل الوقت المناسب، ولا يقوم القائد إلا بمهمة الإشراف على التنفيذ.

إن القائد في الحرب الحديثة يحتاج إلى العقل وحده، والقائد في الحرب القديمة يحتاج إلى العقل والشجاعة.

القيادة الربانية العبقرية لسيد البشرية ﷺ:

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه القيم «**الرسول القائد**»:

«مزايا القائد الشخصية المثالية، كما ينص عليها كتاب: «**نظامات الخدمة**

السفرية»، وهو من أوثق المصادر العسكرية الحديثة: (ينحصر أهم واجب للقائد في إصدار القرارات».

«ولكي تكون قراراته صحيحة، لا تكفيه الشجاعة الشخصية، ولا الإرادة القوية الثابتة، ولا تحمل المسئولية بلا تردد، بل فضلاً عن ذلك عليه أن يكون واقفًا وقوفًا تامًّا على مبادئ الحرب، وقادرًا على إبداء الحكم السريع الواضح، وذا مخيلة مقرونة بمزاج لا تأخذه نشوة الفوز ولا تثبِّط عزيمته كارثة الخيبة، وأن يكون سابرًا غور الطبع البشري».

«ويتمكن القائد من المحافظة على معنويات قوته وتنفيذ أوامره، بالثقة والولاء اللذين يبعثهما في نفوس رجاله بقدر ما يتمكن من ذلك بوساطة الضبط».

«فالشخصية القوية، ومعرفة الطبع البشري، وأصالة الرأي الموزون، والتفاهم مع المرءوسين، عوامل أدبية جوهرية في تنشئة الكفاية العسكرية، فعلى القائد أن يغتنم كل فرصة سانحة للاتصال بمرءوسيه الآمرين وقطعاته، للوقوف على صفاتهم وما فيهم من جدارة».

هذه هي الصفات المثالية للقائد التي ينص عليها كتاب: «نظامات الخدمة السفرية».

وتضيف ـ إلى كل ذلك ـ بعض المصادر العسكرية الحديثة: ضرورة تحلي القائد بالقابلية البدنية؛ ليستطيع مشاركة قواته في تحمل مشاق القتال.

وهناك من يضيف إلى كل تلك المزايا: الماضي الناصع المجيد.

إن الصفات المثالية للقائد إذن؛ هي:

القابلية على إعطاء القرار السريع الصحيح، الشجاعة الشخصية، الإرادة القوية الثابتة، تحمل المسئولية بلا تردد، معرفة مبادئ الحرب، نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، سبق النظر، معرفة نفسيات مرءوسيه وقابلياتهم، ثقة قطعاته به وثقته بقطعاته، المحبة المتبادلة بينه وبين قواته، شخصية قوية نافذة، قابلية بدنية، ماضٍ

ناصع مجيد.

هذه هي الصفات المثالية للقائد المتميز، هي نتيجة لدراسة شخصيات أبرز القادة في التاريخ؛ لذلك فهي مجموعة من مزايا شخصيات كثيرة لا شخصية واحدة، فليس من الممكن أن تتوفر في شخص واحد، كما هو معروف.

ولكن كل هذه الصفات المثالية قليلة جدًّا بالنسبة لصفات الرسول ﷺ، إذ هناك صفات أخرى يتحلى بها رسول اللَّه ﷺ لم تتطرق إليها الكتب العسكرية؛ لأنها صفات يصعب على القادة الاعتياديين التحلي بها، بل هي فوق طاقة البشر بصورة عامة وذوي السلطان منهم بصورة خاصة.

وسنطبق كل هذه الصفات العسكرية على قيادة رسول اللَّه - صلوات اللَّه وتسليمه عليه - استنادًا إلى تاريخه العسكري الذي تحدثنا عنه في الفصول السابقة؛ لنرى بصورة جازمة أن هذه الصفات كلها بل أكثر من هذه الصفات كلها كانت من مزايا قيادة الرسول القائد - عليه أفضل الصلاة والسلام.

تفصيل الصفات

أ - قرار سريع صحيح:

لا بد للقائد أن يصدر قرارًا سريعًا صحيحًا؛ ليبني خطته العسكرية استنادًا إلى قراره هذا، ويعمل بموجب تلك الخطة في إدارة رحى القتال.

فكيف يكون القرار سريعًا صحيحًا؟

يستند إصدار القرار الصحيح السريع إلى عاملين: القابلية العقلية للقائد، والحصول على المعلومات عن العدو وعن الأرض التي ستدور عليها المعركة.

وليس هناك من ينكر القابلية العقلية التي كان يتميز بها الرسول ﷺ، تلك القابلية التي لا يختلف فيها المسلمون وغير المسلمين، فهو الذي بشر وأنذر وخاطب وناقش عقليات كبيرة ووحد أمة، فهل يمكن أن يتم ذلك إلا لعقلية راجحة ومنطق سليم؟!

أما الحصول على المعلومات عن العدو وعن الأرض، فيكون بوساطة دوريات القتال والاستطلاع، وبالعيون والإرصاد، واستنطاق الأسرى، والاستطلاع الشخصي، وباستشارة ذوي الرأي.

لقد كان هدف الرسول ﷺ من غزواته وسراياه التي أرسلها قبل غزوة «**بدر**» الكبرى هو الحصول على المعلومات عن المنطقة المحيطة بالمدينة، والطرق المؤدية إلى مكة، والتعرف على سكانها، وعقد الأحلاف معهم.

وفي معركة «**بدر**» الكبرى أرسل دورية استطلاعية؛ لمراقبة عودة قافلة أبي سفيان بن حرب، وأرسل دوريات استطلاعية أمام قواته المتقدمة باتجاه «**بدر**»، وأرسل دوريتي استطلاع قبيل وصول قواته إلى «**بدر**»، بل قام الرسول ﷺ بالاستطلاع الشخصي ليتأكد من قوة قريش والمواضع التي وصلت إليها.

كما استفاد الرسول ﷺ من استنطاق الأسرى الذين أسرتهم إحدى دوريات استطلاعه قبيل معركة «**بدر**»، فعلم منهم بأسلوبه الرائع في الاستنطاق الموضع الذي وصلته قريش، وعدد قواتها من الرجال.

واستفاد من خبرة أحد أصحابه بخواص مياه آبار «**بدر**» وأسلوب السيطرة على مياهها، فبدَّل معسكره الأول ليلًا إلى معسكر مناسب يهيئ له السيطرة الكاملة على مياه الآبار.

هذه أمثلة تشبث النبي ﷺ بالحصول على المعلومات من غزوة «**بدر**» وحدها، وكل غزواته أمثلة على تشبثه بالحصول على المعلومات.

لقد عرف الرسول ﷺ كل نيات أعدائه قبل وقت مبكر، واستطاع أن يقضي على تلك النيات العدوانية قبل أن يستفحل أمرها، فلم يبرم يهود ولا القبائل أمرًا إلا وعرف ما أبرموا فورًا، واتخذ التدابير الحاسمة للقضاء على نياتهم العدوانية في عقر دارهم، واستطاع في كل مرة أن يفرق شمل أعدائه قبل أن ينجزوا حشد قواتهم للتعرض بالمسلمين.

لقد كان الرسول ﷺ منتبهًا كل الانتباه لكل حركة داخلية وخارجية، ولم يتهاون لحظة عن جمع المعلومات، فلا عجب إذا كانت قراراته سريعة صحيحة، ولا عجب إذا كانت خططه التي يرسمها استنادًا إلى تلك القرارات ناجحة إلى أبعد حدود النجاح.

ب ـ شجاعة شخصية:

شجاعة الرسول ﷺ الشخصية بارزة للعيان في كل معاركه التي خاضها، وهي بارزة في كل أعماله العسكرية وغير العسكرية على حد سواء.

قراره قبول معركة «**بدر**» الكبرى وهي أول معركة حاسمة خاضها المسلمون شجاعة نادرة؛ لأن موجود قواته ثلث موجود قوات قريش؛ ولأن إخفاق المسلمين في هذه المعركة قد يقضي على مستقبل الإسلام.

وثباته تجاه عشرة آلاف من قوات الأحزاب في غزوة «**الخندق**» شجاعة نادرة ـ أيضًا ـ، خاصة بعد أن نكث يهود عهودهم، فأصبح الخطر يهدد قوات المسلمين من خارج المدينة ومن داخلها.

وقد نزل في غزوة «**بدر**» الكبرى ليباشر القتال بنفسه.

وفي «**أحد**» كافح مع جماعة قليلة من أصحابه للخروج من الطوق الذي طوقهم به المشركون، فاستطاع أن ينقذ المسلمين من فناء أكيد، ولم يكتف بذلك بل قام بمطاردة قريش إلى موضع «**حمراء الأسد**».

ولو لم يثبت الرسول ﷺ مع عشرة فقط من أصحابه يوم «**حنين**»؛ لاستطاعت هوازن وثقيف أن تبيد المسلمين.

تلك مواقف يتصدع منها قلب أشجع الشجعان، ومع ذلك فقد ثبت الرسول ﷺ فيها غير مكترث بما يحدق به من أخطار.

ولولا شجاعة الرسول ﷺ الشخصية التي أظهرها في هذه المواقف وفي غيرها لما

انتصر المسلمون أبدًا.

جـ إرادة قوية ثابتة:

إن صمودَ النبي ﷺ وحده تجاه التيار الجارف من المشركين منذ نزول الوحي عليه حتى التحاقه بالرفيق الأعلى دليلُ على إرادته القوية الثابتة التي لا تتزعزع.

لقد تحمل الإعراض والتكذيب والأذى والأخطار صابرًا محتسبًا، وهاجر من بلده إلى بلد آخر، واستمر يكافح حتى كون له قوة تسانده وتؤمن بالإسلام.

ثم جاهد بهذه القوة أعداءه في الداخل والخارج في داخل المدينة ضد يهود والمنافقين، وفي خارج المدينة ضد المشركين وعلى رأسهم قريش.

ولكنه صمد لكل هذا العناء مصرًا على مكافحة مَنْ حوله من الناس جميعًا حتى يظهر اللَّه دينه، غير مكترث بتفوق أعدائه على قواته فواقًا ساحقًا.

إن حياة النبي ﷺ كلها مثال رائع للإرادة القوية الثابتة.

د ـ تحمُّل المسئولية:

لم يكن هناك من يشارك الرسول ﷺ في تحمل المسئولية الضخمة في كل أعماله العسكرية وغير العسكرية، وما أعظمها من أعمال غيرت وجه التاريخ.

وأية مسئولية أخطر وأعظم من المسئولية التي كان يتحملها الرسول ﷺ منذ بعثه حتى التحاقه بالرفيق الأعلى!

إن أصحابه كانوا يعاونونه في كل شيء، ولكنه كان يتحمل وحده مسئولية كل شيء.

هـ ـ نفسية لا تتبدل:

لم تتبدل نفسية رسول اللَّه ﷺ في حالتي النصر والإخفاق. لقد كان مسيطرًا على أعصابه سيطرة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة في أشد المواقف حرجًا وفي أحلك الظروف.

لم يكن سهلًا السيطرة على الأعصاب عند تطويق المشركين له ولقسم من أصحابه في «**أُحُد**» من كل جانب، ومع ذلك سيطر على أعصابه وقاد سفينة المسلمين إلى ساحل الأمان.

ولم يكن سهلًا السيطرة على الأعصاب يوم «**الأحزاب**» خاصة بعد غدر يهود، ومع ذلك سيطر على أعصابه فصد «**الأحزاب**» وقضى على يهود.

ولم يكن سهلًا السيطرة على الأعصاب يوم «**حنين**» عند انهزام المسلمين، ولكنه ثبت مع عشرة فقط من أصحابه تجاه التيار الجارف من مطاردة المشركين، وسيطر على أعصابه حتى هزم أعداءه، فعاد أصحابه ليروا أسرى المشركين مكبلين بالأصفاد.

تلك أمثلة من سيطرته على أعصابه في وقت الشدة، أما في وقت الرخاء، فقد كانت سيطرته أروع بكثير مما هي عليه في وقت الشدة.

ومن أمثلة ذلك يوم فتح مكة، فقد رآه المسلمون يومذاك وقد أحنى رأسه على رحله وبدا عليه التواضع الجم، حتى كادت لحيته تمسُّ واسطة راحلته؛ وكلما استشعر بأهمية نصره ازداد تواضعًا وازداد على راحلته خشوعًا.

إن قيمة سيطرة الرسول ﷺ على أعصابه في مثل هذا الموقف الذي يعد أكبر نصر للمسلمين، تتضاعف إذا قارناها بمواقف العظمة والجبروت التي أظهرها غيره من القادة عند انتصارهم، فذهب بهم الطيش مذاهب أدت إلى كوارث من نتائجها هلاك ودمار كثير من الناس والأموال.

لقد بقي رسول اللّه ﷺ بعد وصوله إلى أعلى مراتب السيطرة والسلطان بسيطًا في مأكله، ومشربه، وملبسه. وفي حياته كلها، كما كان في أول أيامه يوم كان يتيمًا معدمًا، استمر يأكل نفس النوع البسيط من الطعام، ويلبس نفس الرداء الساذج، ويسلك في كل تفاصيل حياته نفس البساطة التي اعتادها في أيامه الأولى.

حقًّا إنه كان يمتلك نفسية لا تتبدل!

و ـ سبق النظر:

المخيلة التي تحسب حساب كل شيء، أو سبق النظر، أو بُعد النظر: كلها تعني ضرورة تفكير القائد في كل الاحتمالات القريبة والبعيدة، وإدخال أسوإ الاحتمالات في حسابه، وإعداد الخطط لكل موقف محتمل حتى يمكن تطبيق تلك الخطط عند الحاجة دون تردد ولا ارتباك.

لقد كان رسول اللَّه ﷺ يتحلى بمزية سبق النظر في كل أعماله العسكرية وغير العسكرية، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

أصرَّ الرسول ﷺ على قبول شروط هدنة «**الحديبية**»؛ لأنه فكر وسبق النظر، فعرف بفكره الثاقب أن قبول هذه الشروط نصر للمسلمين؛ فهي تهيئ لهم الاستقرار، وقد رأينا أن هذا الاستقرار جعل جيش المسلمين يصبح عشرة آلاف مقاتل في فتح مكة، وكان ألفًا وأربع مئة في غزوة «**الحديبية**» قبل سنتين.

وكانت كل الدلائل تبشِّر باستسلام قريش يوم الفتح، ومع ذلك اتخذ الرسول ﷺ كل التدابير الممكنة لمعالجة أسوأ الاحتمالات، فقسم قواته إلى أربعة أرتال، ودخل مكة من جهاتها الأربع بتشكيلات(١) القتال، حتى تستطيع قواته القضاء على كل مقاومة بكل سهولة دون أن تباغت من جهة غير متوقعة، فتكون العاقبة شرًّا على المسلمين وإحباطًا لمحاولات النبي ﷺ السلمية.

لقد كان الرسول ﷺ يفكر في كل كبيرة وصغيرة، ويُعد لكل أمر عدته، ويتخذ كل متطلبات الحذر، والحيطة، واليقظة؛ لذلك لم يستطع أعداؤه مباغتته في أي موقف من المواقف في غزواته كلها، واستطاع هو أن يباغت أعداءه في أكثر غزواته.

ز ـ معرفة النفسيات والقابليات:

عرف الرسول ﷺ نفسيات وقابليات أصحابه؛ لأنه ولد بينهم، وعاش وترعرع

---

(١) تشكيلات القتال: التدابير التعبوية للقتال.

بينهم، وكان يعيش بينهم فردًا منهم يشاركهم في السراء والضراء.

عرف مزايا الجميع، وكلف كل واحد منهم بواجب يتفق مع قابليته البدنية والعقلية؛ لذلك استطاع أكثر أصحابه إنجاز مهمتهم بكفاية وإتقان.

استمال قلوب المؤلفة قلوبهم بالمال بعد «**حنين**»؛ لأن المادة كانت تطغى على جوانب تفكيرهم، إذ لم يستشعروا بعد حلاوة الإيمان. قال صفوان بن أمية: «ما زال رسول اللَّه ﷺ يعطيني من غنائم «**حنين**» وهو أبغض الخلق إليَّ، حتى ما خلق اللَّه شيئًا أحب إليَّ منه!».

ولكنه حرم الأنصار من غنائم يوم «**حنين**»؛ لأنهم كانوا أغنياء بإيمانهم العظيم، وقد بكوا حتى أخضلوا لحاهم بالدموع حين قال لهم الرسول ﷺ: «**أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول اللَّه إلى رحالكم؟**».

قال الأنصار: «**رضينا باللَّه ورسوله قسمًا**».

وأمسك الرسول ﷺ يوم «**أُحد**» بسيف، وقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة، فقال: «**وما حقه يا رسول الله؟**».

قال الرسول ﷺ: «**أن تضرب به العدو حتى ينحني**».

قاتل أبو دجانة بهذا السيف قتالًا شديدًا، فلما دارت الدائرة على المسلمين ترس[1] بنفسه دون رسول اللَّه ﷺ، فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه.

لقد كان الرسول ﷺ يعرف أن بين أصحابه شجعانًا مغاوير، فكلفهم بواجبات تحتاج إلى الشجاعة؛ كأبي دجانة، وكان يعرف أن بين أصحابه من لا يقوى قلبه على الحرب؛ كحسان بن ثابت، فتركه مع النساء يوم «**أُحد**» والخندق، واستفاد من شعره البليغ، وكان يعرف أن من بينهم صاحب الرأي والمشورة، ومن بينهم من يستطيع

---

(١) كان له بنفسه ترسًا؛ أي: وقاه بنفسه.

قيادة غيره، ومن بينهم من لا يستطيع أن يكون أكثر من جندي بسيط، فكلف كل واحد من هؤلاء بواجب يستطيع إنجازه.

إنه لم يحمل شخصًا فوق ما يطيق، وهذا دليل على معرفته نفسيات وخواص وقابليات أصحابه جميعًا.

ولعل أهم ميزة يمتاز بها الرسول ﷺ على غيره من القادة والرسل هي أنه كان قديرًا على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب. إنه كان يعرف النفسية البشرية ويقدرها حق قدرها، ويعرف كيف يوجهها إلى ما يناسبها.

والمهم في الأمر أنه ـ صلوات اللَّه وتسليمه عليه ـ كان يذكر أصحابه بأفضل ما فيهم من صفات، ويغض النظر عما يعانونه من نواقص بشرية، ويأمر أصحابه بذكر أصحابه بأفضل ما فيهم.

وبذلك كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يبني الرجال ولا يحطم الرجال.

ح ـ الثقة المتبادلة:

كانت ثقة أصحاب الرسول ﷺ به عظيمة جدًّا؛ كما كانت ثقته بأصحابه عظيمة ـ أيضًا ـ، يكفي أن نذكر موقف المسلمين من صلح «**الحديبية**»، إذ لولا ثقتهم العظيمة به؛ لرفضوا هذا الصلح.

أما ثقته بأصحابه فيكفي للدلالة عليها أنه قبل زجَّ قواته في معركة «**بدر**»، بينما كانت قوات المشركين ثلاثة أمثال قوته؛ كما زجَّ بهم في معركة «**أُحد**»، بينما كانت قوات المشركين خمسة أمثال قواته... إلخ.

ولا يمكن أن يقبل القائد الاشتباك في معركة لا يعرف مصيرها ضد أعدائه المتفوقين على قواته فواقًا ساحقًا، إلا إذا كان ذلك القائد يثق بقواته ثقة عظيمة جدًّا.

ط ـ المحبة المتبادلة:

ظهرت محبة الرسول ﷺ لأصحابه، ومحبة أصحابه له في كل غزواته، بل في

كل موقف له في السلم والحرب.

حسبنا أن نذكر موقف أصحابه منه في معركة «**أُحد**» حين أحدق به المشركون من كل جانب وصوبوا عليه نبالهم؛ فأخذ المسلمون يصدون عنه النبال المصوبة عليه بأجسادهم. ولم يقتصر ذلك على الرجال، بل شمل النساء ـ أيضًا ـ، فقد ألقت نسيبة الخزرجية سقاءها، واستلت سيفًا وأخذت تذود به عن رسول اللَّهﷺ حتى خلصت الجراح إليها، فأصيبت يومذاك بثلاثة عشر جرحًا، وأغمي عليها من النزيف؛ فلما أفاقت لم تسأل عن زوجها الذي شهد «**أُحدًا**»، ولا عن ولديها اللذين كانا يقاتلان مع الرسول ﷺ، بل سألت أول ما سألت بعد أن عاد إليها وعيها: «**وكيف حال الرسول**»؟

ولما مرض مرضه الذي توفاه اللَّه فيه، اعتكف في بيت عائشة أم المؤمنين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها ـ، فرفع الرسول ﷺ الستر المضروب على منزل عائشة وفتح الباب وبرز للناس، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم ابتهاجًا برؤيته.

ولما قبض الرسولﷺ وتسرب النبأ الفادح، شعر المسلمون أن آفاق المدينة أظلمت عليهم، فتركتهم لوعة الثكل حيارى لا يدرون ما يفعلون.

لقد كان أصحاب الرسول ﷺ يحبونه أكثر من حبهم أنفسهم؛ لأن حبهم له دين، ولو لم يكن دينًا لأحبوه ـ أيضًا ـ؛ لأنه يستحق الحب والتقدير.

أما حب الرسولﷺ لأصحابه، فيكفي أن نذكر كيف نعى شهداء «**مؤتة**» وعيناه تذرفان، وكيف أنه رفض ما اقترحه عمر بن الخطاب حول قتل حاطب بن أبي بلتعة؛ لأنه أرسل كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه بحركة المسلمين لفتح مكة، بل على العكس، أمر الرسول ﷺ أن يذكر المسلمون حاطبًا بأفضل ما فيه.

لقد كان يحب أصحابه حبًّا لا مزيد عليه، فإذا سلَّمَ عليهم لا يكون البادئ أبدًا بسحب يده عن السلام، وكان يلقى الناس بوجه باسم متهلل حقًّا، وكان يمقت الغيبة، وكان البادئ دائمًا أصحابه بالتحية.

ما أعظم هذا الحب المتبادل بين القائد وجنوده! ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

ي ـ الشخصية:

أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي؛ لمفاوضة الرسول ﷺ يوم «**الحديبية**»، فعاد إلى قريش يقول: «يا معشر قريش! إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله، ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإنهم لن يسلموه لشيء أبدًا».

بهذا الوصف الرائع يصف مشرك من أعداء الرسول ﷺ شخصية النبي الكريم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

فما أسباب هذه الشخصية القوية النافذة التي كان يتحلى بها الرسول ﷺ؟

لقد كان الرسول ﷺ متواضعًا حليمًا، رءوفًا، رحيمًا؛ ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، ولا يستطيع أحد أن يديم النظر إلى وجهه المنير، ولا يستطيع أحد أن يرد له أمرًا أو يتردد في تنفيذه.

إن أسباب قوة شخصية الرسول ﷺ هي محبته للناس جميعًا، ورغبته الشديدة في خيرهم وهدايتهم، وخلقه العظيم.

تقول كتب علم النفس الحديث: «إن الذين يعملون على إفادة أكبر جزء ممكن من المجتمع الإنساني، يعتبرون أرقى الشخصيات جميعًا، وهم في الغالب أقربها إلى درجات التكامل.

إن درجة تكامل الشخصية تتناسب تناسبًا «**طرديًا**» مع اتساع دائرة المجتمع الذي يرمي الفرد إلى إسعاده، فأقلها تكاملًا التي يسعى صاحبها فقط لإسعاد ذاته، إذ لا بد من أن تتعارض نزعاته الذاتية مع نزعاته الاجتماعية في تحقيق غايته الذاتية.

ويليها من يسعى صاحبها لإسعاد أسرته وأولاده، ثم يليها من يعمل صاحبها على

إسعاد أقاربه، ويليها من يعمل على إسعاد هؤلاء وأصدقائه، ويليها من يعمل لإسعاد أهل بلده أجمعين.

وهكذا إلى أن تصل إلى من همه الأول والأخير إسعاد المجتمع بأوسع معانيه، وهنا قد نصل إلى مرحلة ربما تبدو «**مجردة**»؛ كالبحث عن الحقيقة ومناصرة العدل وخدمة المجتمع».

هذا نص ما تقوله كتب علم النفس الحديث. أرأيت كيف أنها تقرر استبعاد إمكان أن يكون هناك إنسان همه الأول والأخير إسعاد البشر؟

إن الرسول ﷺ فعل ذلك، بل فعل أكثر من ذلك، ومن حق هؤلاء العلماء أن يستبعدوا إمكان وجود إنسان مثالي كان همه إسعاد الناس بل إسعاد العالمين؛ لأنهم يجهلون سيرة الرسول ﷺ الذي يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه**».

فلا عجب أن تكون له كل هذه الشخصية الفذة بكل هذا النور والجلال.

ك ـ القابلية البدنية:

كانت للرسول ﷺ قابلية بدنية فائقة، وقد رأيت كيف كان يلجأ إليه أصحابه عند حفر الخندق، كلما استعصت عليهم صخرة، فيسرع إليها لتحطيمها؛ حيث تتفتت تحت وطأة مطرقته التي يهوي بها ساعده القوي.

شارك أصحابه في حراساتهم وفي استطلاعاتهم وفي مسيراتهم الطويلة الشاقة في كل فصول السنة، وأظهر في كل ذلك تحملًا وجلدًا يعجز عنه أقوى أصحابه.

لقد كان أروع مثال شخصي لأصحابه في تحمل الصعاب والمشقات.

ل ـ الماضي الناصع المجيد:

كانت العرب تعتد بالنسب، والرسول ﷺ من قريش أشرف العرب، ومن بني هاشم أشرف قريش؛ وكذلك هو أشرف العرب حسبًا وأفضلهم نسبًا من قبل أمه

آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن قبل أبيه عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

أما سيرته الشخصية قبل بعثته ﷺ، فلأترك سير وليم موير sir william muir يتحدث عن ذلك، وقد أوردت هذا الحديث عمدًا ـ على اعتبار أن كاتبه ليس مسلمًا ـ حتى أستبعد اتهام كاتبه بالتعصب والمغالاة... يقول موير: «تجمع كل مراجعنا وأسانيدنا ـ فيما ينسب إلى محمد في شبابه من سيرة التواضع والاحتشام وطهارة الخلق ـ على صورة نادرة الوجود بين المكيين». ثم يعود فيقول: «وبما وهب من عقل راجح، وذوق رفيع، وحرص دقيق، وعمق في التأمل، عاش منطويًا على نفسه طويلًا، متخذًا من تأملاته العقلية ـ دون ريب ـ شاغلًا لوقت الفراغ الذي كان يقتله غيره ـ من ذوي الطابع الخسيس ـ باللهو السمج، والفجور الماجن، والسلوك الخليع. وقد وقع خلق ذلك الشاب القويم ومسلكه الورع والعف موقع الحمد والثناء من قلوب قومه جميعًا، وبإجماعهم عن طيب خاطر نال لقب: «**الصادق الأمين**».

ويقول: «ولم يولع محمد بالثراء أبدًا، ولم تبد منه هذه الظاهرة في أية فترة من فترات حياته الرتيبة الهادئة الوادعة على جلبة الرحلة، وضوضاء التجارة، وهموم السفر، ولم يكن محمد ليفكر أبدًا من تلقاء نفسه في مثل هذه الرحلة، ولكن ما أن اقتُرح عليه ذلك حتى استشعر نفسه الكريمة على الفور ضرورة البذل لما في وسعه من جهد مساعدة لعمه».

ويقول واشنجتون آرفنج[1] عنه: «كانت طباع الرسول هادئة متلائمة، وكان يمرح أحيانًا ولكنه كان في معظم الأحوال جادًّا، وإن كانت له ابتسامة خلابة. كانت جميع تصرفات الرسول تدل على رحمة عظيمة، وكان سريع البديهة، قوي الذاكرة، واسع الأفق، عظيم الذكاء. كان الرسول عادلًا، فكان يعامل الأصدقاء،

---

(١) الحق هو أنني لا أحب أن أستشهد بأقوال المستشرقين وغيرهم لإثبات عظمة النبي ﷺ ولكنني اضطررت إلى إيراد هذين المثالين؛ لأن هذين الكاتبين غير مسلمين، والفضل ما شهدت به الأعداء.

والغرباء، والأغنياء، والفقراء، والأقوياء، والضعفاء، على قدم المساواة، وكان عامة الناس تحب الرسول، إذ كان يحسن استقبالهم، ويستمع إلى شكواهم، كان حسن الطباع حليمًا، رحيمًا، صبورًا.

كانت حياته لا سيما في فجرها المبكر تتميز بالحنو، والعطف على اليتيم، والفقير، والأرمل، والبائس، والضعيف، والرقيق، ولم يذق الخمر أبدًا، ولم يلعب الميسر،...».

يقول موير: «إن أوثق برهان على صدق محمد وإخلاصه، أن كان أسبق الداخلين في الإسلام من ذوي الاستقامة في خاصة أصفيائه وأهل بيته، الذين لا يستطيعون ـ مع معرفتهم الوثيقة بدقائق حياته الخاصة تفصيلًا ـ أن يفوتهم بحال من الأحوال إدراك ما تنطوي عليه أساليب الأفاكين في نفاقهم، من إسدال السُّجُف والأستار على ما يأتون من أعمال تتناقض حقائقها في سريرتهم مع ما يدعون إليه جهرًا».

واسمع إلى زوجه خديجة أم المؤمنين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ تقول له مشجعة عندما جاءه الوحي: «ابشر يا ابن العم واثبت! فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. والله، لا يخزيك اللَّه أبدًا. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

واسمع قول اللَّه ـ تَعَالَى ـ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

لقد كان ماضي الرسول ﷺ مجيدًا مشرفًا بإجماع أقوال أصحابه وأعدائه على حد سواء.

م ـ معرفة وتطبيق مبادئ الحرب[١]:

كان الرسول ﷺ يعرف مبادئ الحرب بالفطرة السليمة التي تدل على استعداده

---

(١) مبادئ الحرب: هي الجوهر الذي ينشئ في القائد «السجية» الصحيحة في تصرفاته في الحرب، وهي العنصر الذي يتكون منه مسلك القائد في أعماله بصورة طبيعية وغير متكلفة.
ومادئ الحرب: هي مبادئ ثابتة لا تتغير أبدًا، وهي الأسس القديمة التي ترتكز عليها الحروب في كل رمان ومكان.

الفطري الممتاز للقيادة.

وقد طبق الرسولﷺ هذه المبادئ في معاركه كلها، مما كان له أثر حاسم في انتصاراته.

لقد تطرقنا عند بحث أعمال الرسولﷺ العسكرية إلى أمثلة كثيرة من تطبيقه العملي لمبادئ الحرب العشرة: اختيار المقصد وإدامته، والتعرض، والمباغتة، وحشد القوة، والاقتصاد بالمجهود، والأمن، والمرونة، وإدامة المعنويات، والأمور الإدارية.

وسنذكر بعض هذه الأمثلة للدلالة على تطبيق هذه المبادئ بكفاية نادرة فذة تدعوان إلى الإعجاب والتقدير الشديدين.

أولًا: اختيار المقصد وإدامته[١]:

كان الرسولﷺ يختار مقصده بالضبط، ويفكر في أقوم طريقة للوصول إليه، ثم يقرِّر خطة مناسبة للحصول عليه.

لقد ظهر مبدأ «**اختيار المقصد**» في أول معاهدة عقدها الرسولﷺ بعد هجرته إلى المدينة، تلك المعاهدة المعقودة بين المسلمين من جهة والمشركين ويهود من أهل المدينة من جهة أخرى، فنصت على أنه لا يجير مشرك مالًا لقريش، ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

إن قريشًا أخرجت الرسولﷺ وأخرجت أصحابه من مكة ظلمًا وعدوانًا، فمن حقه أن تكون قريش «**مقصده**» الحيوي الذي يختاره.

ولعل من أبرز أمثلة «**اختيار المقصد**» ما فعله الرسول ﷺ في غزوة الحديبية. لقد كان «**مقصده**» من تلك الغزوة التأثير في معنويات قريش من غير قتال، فخرج

---

(١) اختيار المقصد وإدامته:
في كل حركة حربية من اللازم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح. إن المقصد النهائي هو تحطيم إرادة العدو على القتال. يجب أن توجه كل صفحة من الحرب، وكل صفحة منفردة نحو هذا المقصد الأعلى. ولكن لكل منها مقصد محدود يجب أن يعرف بوضوح.

محرمًا واستصحب أسلحة الراكب، فلما علم باقتراب قوات قريش من قواته، ترك الطريق العام إلى طريق فرعية وعرة للتملص من القتال، حتى وصل بقواته إلى «**الحديبية**»، وبقي هناك مصرًّا على «**مقصده**» هذا، فأفسح المجال للمفاوضات. وعندما هاجم قسم من المشركين معسكر قواته وألقى المسلمون القبض على المهاجمين، أطلق سراحهم دون أن يلحق بهم أذى.

وبقي مصرًّا على «**مقصده**» في عدم محاربة قريش، وفي إظهار نياته السلمية حتى تم له عقد صلح الحديبية، على الرغم من تذمر قسم من أصحابه من هذا الصلح.

إن الرسول ﷺ كان يختار «**مقصده**» بدقة تامة ولا ينساه أبدًا في كل أعماله العسكرية وغير العسكرية.

ثانيًا: التعرض[1]:

يمكن اعتبار كل غزوات الرسول ﷺ تعرضية ما عدا غزوتي «**أُحد**» و«**الخندق**»، إذ إن المشركين هم الذين حشدوا قواتهم في منطقة المدينة وتعرضوا بالمسلمين.

لقد استطاع الرسول ﷺ بشتى الأساليب الحصول على المعلومات عن نيات أعدائه قبل وقت مناسب، وبذلك استطاع أن يتعرض بأعدائه ويقضي على نياتهم العدوانية.

إن التعرض ليس معناه التحرش؛ بل معناه: الروح الهجومية التي يتحلى بها القائد؛ لأن الدفاع وحده لا يؤدي إلى النصر الحقيقي بل إلى نصر موضعي فقط في حالة نجاحه، أما التعرض فيؤدي في حالة نجاحه إلى النصر.

ومن المهم أن نذكر ـ هنا ـ أن مبدأ «**التعرض**» التي طبقه الرسول ﷺ كان دفاعًا عن الإسلام، وحماية للدين الحنيف، وحرصًا على حرية نشره، ولغرض إقرار السلام، وبذلك طبق المبدأ التعبوي القائل: إن التعرض هو أفضل وسيلة للدفاع.

---

(١) التعرض: هو الهجوم على العدو لسحقه، ولا يتم الحصول على النصر إلا بالتعرض وحده.

ثالثًا: المباغتة[(١)]

المباغتة هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعدًّا له، والكتمان من أهم الوسائل المهمة التي تؤدي للمباغتة.

إن الكتمان يتم إما بإخفاء استعداداتنا، أو بإخفاء نياتنا، أو باستعمال أسلحة جديدة، أو باستعمال الأسلحة الموجودة بطريقة جديدة.

والمباغتة إما أن تكون في المكان، أو في الزمان، أو في الأسلوب، ولقد طبق الرسول ﷺ مبدأ «**المباغتة**» بكل هذه الحالات، حتى يمكن اعتبار غزواته نماذج رائعة لتطبيق أساليب المباغتة.

كانت المدينة هي «**القاعدة الأمينة**» للمسلمين، ولكنها كانت تعج بـ «**الرتل الخامس**»[(٢)] الذين لا يريدون خير المسلمين، ويعملون على إحباط جهودهم بشتى الطرق والأساليب.

من هؤلاء «**الرتل الخامس**» اليهود، والمنافقون، وعيون قريش من الأعراب، وعيون الروم من الأنباط، وكان كل هؤلاء ينقلون أخبار المسلمين إلى أعدائهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

ولكنَّ الرسولَ ﷺ حرص على كتمان نياته حرصًا شديدًا، فكان إذا أراد غزوة ورىَّ بغيرها، فينقل «**الرتل الخامس**» تلك المعلومات الخاطئة إلى أعدائه، مما يؤدي إلى

---

(١) المباغتة: المباغتة أقوى العوامل وأبعدها أثرًا في الحرب، وتأثيرها المعنوي عظيم جدًّا، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شلل متوقع في تفكير القائد الخصم.

وفيما يلي بعض الوسائل التي يمكن الحصول بها على المباغتة:

١ـ بكتمان الاستعدادات للخطط الحربية، وبكتمان جسامة القوات الاحتياطية.

٢ـ بالتنقل السريع للقطعات من نقطة إلى أخرى تمهيدًا لإنزال الضربة على موضع لا يتوقعه العدو.

٣ـ باستخدام الأرض الوعرة، أو الصعبة، أو بعبور المواقع التي تعتبر غير قابلة للعبور.

٤ـ باستخدام أسلحة جديدة غير متوقعة، أو أساليب تعبوية جديدة.

(٢) الرتل الخامس: كناية عن الجواسيس، والوكلاء، والعيون، والأرصاد.

بلبلة أفكار أعداء المسلمين.

ومن أمثلة الكتمان الشديد، تلك «**الرسالة المكتومة**» التي أرسل بها مع عبداللَّه بن جحش.

لقد أمر الرسول ﷺ عبداللَّه بن جحش ألا يفتح تلك الرسالة إلا عند وصوله موضع «**نخلة**» بعد يومين من مسيره، فإذا فتحها وفهم مضمونها مضى في تنفيذها؛ وبهذه الطريقة لم يستطع أحد من أهل المدينة على اختلاف أهوائهم وميولهم أن يعرف نيات الرسول ﷺ، ولا واجب سرية عبداللَّه وهدفها.

وقد أخفى نياته في غزة الفتح حتى عن أهله الأقربين وصديقه الحميم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد دخل أبو بكر الصديق على ابنته عائشة زوج النبي ﷺ وهي تهيئ جهاز الرسول ﷺ، فقال لها: «**أي بنية! أأمركم رسول اللَّه ﷺ أن تجهزوه**»؟ قالت: «**نعم، فتجهز**». قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «**فأين ترينه يريد**»؟ قالت: «**والله، لا أدري**».

بهذا الكتمان الشديد، استطاع الرسول ﷺ أن يحرك جيشًا كبيرًا قوامه عشرة آلاف مسلم لفتح مكة، دون أن تستطيع قريش معرفة وقت حركته ولا نياته حتى وصل الجيش إلى ضواحي مكة، فاضطرت قريش على الاستسلام.

ومن أمثلة المباغتة في المكان: غزوة بني لحيان، فقد تحرك الرسول ﷺ بقواته شمالًا باتجاه الشام حتى لا تعرف قريش وبنو لحيان اتجاه حركته الحقيقي، فلما انتشرت أخبار حركة المسلمين إلى الشمال، عاد الرسول ﷺ بقواته فجأة باتجاه بني لحيان، وبذلك باغتهم في المكان.

وفي غزوة «**خيبر**» تحرك الرسول ﷺ إلى «**الرجيع**» قريبًا من ديار غطفان، وبعد أن أرسل مفرزة صغيرة من قواته إلى معسكر غطفان، عاد بقواته الرئيسة إلى خيبر، وبهذه الحركة أوهم غطفان بأنه يريدهم، وأوهم يهود خيبر بأنه لا يريدهم، فباغت الطرفين ومنع تعاونهما في قتال المسلمين.

ومن أمثلة المباغتة في الزمان: غزوة بني قريظة، إذ تحرَّك الرسول ﷺ إليهم في وقت

لا يتوقعونه، فشلَّ معنوياتهم، واحتفظ هو بالمبادأة حتى نهاية المعركة.

كما أن مسير الاقتراب الذي أجراه الرسول ﷺ في غزوة خيبر بهدوء وسكينة حتى وصل موضع خيبر ليلًا، وأكمل تطويقها في نفس الليلة دون أن يستطيع يهود معرفة وقت وصوله وتطويقه لقصبتهم، وهذا المسير يعتبر مباغتة في الزمان.

ومن أمثلة المباغتة في الأسلوب: قتال الرسول ﷺ بأسلوب «**الصف**» في غزوة «**بدر**» الكبرى تجاه قريش التي قاتلته بأسلوب «**الكرّ والفرّ**»، ومن الطبيعي أن أسلوب «**الصف**» له الأرجحية على أسلوب «**الكرّ والفرّ**» من الناحية العسكرية.

كما أن حفر الخندق في غزوة الأحزاب كان مباغتة في الأسلوب ـ أيضًا ـ؛ لأن العرب لم تكن تعرف إنشاء الخنادق لغرض الحماية في الحصار.

وقد استخدم المنجنيقات والدبابات في غزوة حصار الطائف، وهذا مباغتة في الأسلوب ـ أيضًا.

إن القائد العبقري هو الذي يطبق مبدأ المباغتة في معاركه، والرسول ﷺ قد طبق هذا المبدأ في كل معاركه، مما كان له أعظم الأثر على نتائجها الحاسمة.

رابعًا: حشد القوة[١]:

منذ نزل الوحي على رسول اللَّه ﷺ فأصبح رسول الله، وهو يعمل جاهدًا في سبيل نشر الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ وانتشار الدعوة معناه ازدياد قوة المسلمين وإكمال حشدهم؛ لاستخدام قواتهم في المكان والزمان المناسبين.

وهجرته إلى المدينة من الناحية العسكرية؛ معناها: حشد المسلمين في منطقة واحدة؛ ليكونوا تحت قيادة واحدة.

ولم يبدأ الجهاد في الإسلام إلا بعد إنجاز حشد المسلمين، إذ أصبح المسلمون بدرجةٍ من القوة يستطيعون معها الدفاع عن الإسلام.

---

(١) حشد القوة: هو حشد أعظم قوة أدبية، وبدنية، ومادية، واستخدامها في الزمان والمكان الجازمين.

لقد رأينا في بيعة «**العقبة الثانية**» كيف انكشف للمشركين أمر هذه البيعة، وكيف أظهر الأنصار في حينه عدم اكتراثهم بخطر انكشاف بيعتهم. قال سعد بن عبادة: «**يا رسول الله، واللَّه الذي بعثك بالحق، إن شئت لنحملنَّ على أهل «منى» غدًا بأسيافنا**».

ولكن الرسول ﷺ كان أبعد نظرًا وأعمق من أن تؤثر فيه العاطفة، فقال له: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**».

فلما أنجز الرسول ﷺ كل استعدادات حشد المسلمين في المدينة، وعاهد أهلها من يهود والمشركين، بدأ القتال «**فعلًا**»؛ لأن قوات المسلمين حينذاك أصبحت من الناحيتين المادية والمعنوية قادرة على حماية الدعوة وصيانة حرية الرأي.

إن الرسول ﷺ طبق مبدأ «**الحشد**» في كل غزواته، ولم يتردد أبدًا في حشد أكبر قوة مادية ومعنوية في كل معركة خاضها.

خامسًا: **الاقتصاد بالمجهود**[1]:

راعى الرسول ﷺ مبدأ «الاقتصاد بالمجهود» في كل غزواته، ولم يندب قوة لواجب ما إلا وهي كافية لذلك الواجب من كل الوجوه.

إن نظرة بسيطة على قوات المسلمين ومقارنتها بقوات أعدائهم، تُظهر بوضوح مقدار حرص الرسول ﷺ على تطبيق مبدإ الاقتصاد بالقوة.

سادسًا: الأمن[2]:

لقد أمَّن الرسول ﷺ حماية قواته في كل غزواته، وبذل غاية جهده لمنع العدو من

---

(١) الاقتصاد بالمجهود: هو استخدام أصغر القوات للأمن، أو لتحويل انتباه العدو إلى محل آخر، أو صد قوة معادية أكبر منها مع بلوغ الغاية المتوخاة.
إن الاقتصاد بالمجهود يدل على الاستخدام المتوازن للقوى والتصرف الحكيم بجميع المواد لغرض الحصول على حشد القوى المؤثر في الزمان والمكان الحاسمين.

(٢) الأمن: هو توفير الحماية للقوة ولمواصلاتها لوقايتها من المباغتة، ومنع العدو من الحصول على المعلومات.

الحصول على المعلومات، وبذلك طبق مبدأ الأمن.

إن دوريات الاستطلاع والطلائع والساقات التي كان يؤمنها الرسول ﷺ في مسير الاقتراب وعند العودة من غزواته، كان لغرض حماية قواته من مباغتة العدو لها.

كما أنَّ تأمين الحراسات والعسس هو لحماية قواته - أيضًا - من مباغتة العدو لها.

وكما حرص الرسول ﷺ على الحصول على المعلومات من أعدائه بشتى الوسائل كما رأينا - سابقًا -، فقد حرص على منع العدو من الحصول على المعلومات عن المسلمين بشتى الوسائل - أيضًا.

لقد طبَّق مبدأ الكتمان في كل أعماله، وحثَّ المسلمين على حفظ الأسرار وعدم إباحتها، وأمر أن يُسارع المسلمون بإخباره عن كل حادث مهم.

والحق أن المتتبع لحياة الرسول ﷺ يعجب أشد الإعجاب بمعرفته فورًا بكل المعلومات التي تهمه وتؤثر على المصلحة العامة للمسلمين.

كيف عرف برسالة حاطب بن أبي بلتعة تلك الرسالة التي حاول أن يخبر بها قريشًا عن حركة المسلمين لفتح مكة؟

كيف عرف بإزماع أبي سفيان بن حرب القدوم إلى المدينة لتمديد فترة الهدنة؟

كيف عرف كل حركات المنافقين وكل مؤامرات يهود وقضى عليها؟

كيف أحبط كل هذه المؤامرات ومنع افتضاح نيات المسلمين؟

كل ذلك يدل على حرصه الشديد على كتمان نيات المسلمين، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات عن أهداف ومقاصد حركات المسلمين.

سابعًا: المرونة[1]:

كانت قوات المسلمين تتحرك إلى أهدافها بكفاية وسرعة.

---

(١) المرونة: إن المبدأ الذي كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية مبدإ: «قابلية الحركة»، أصبح يسمى الآن مبدأ: «المرونة»، ذلك لأن «قابلية الحركة» تدل على الحركة المادية، وهي صنعة نسبية لا يعبر عنها تعبيرًا صحيحًا إلا بالمقارنة مع قابلية حركة العدو. =

لقد استطاعت قوات المسلمين أن تصل إلى أهدافها في الوقت المناسب، فتقوم بإحباط نيات العدو العدوانية، قبل أن يكمل العدو استعداداته التي تساعده على النجاح.

وصلت قوات المسلمين إلى «**دومة الجندل**»، وإلى «**تبوك**»، وإلى ربوع فلسطين وإلى الطائف، وكل هذه الأماكن بعيدة عن قاعدة المسلمين ـ المدينة ـ، وقد قُطِعت أكثر هذه المسافات ليلًا، وفي ظروف قاسية من ناحية المشاكل الإدارية والطقس، كما استطاع المسلمون أن يستمروا في الحركة ثلاثين ساعة متتابعة عند عودتهم من غزوة بني المصطلق.

وقد رأيت كيف كان الرسول ﷺ مرنًا في وضع خططه وفي تنفيذها، وكيف أنه يعدِّل تلك الخطط عند الحاجة حسب الظروف الراهنة.

كل ذلك يدل على تطبيق الرسول ﷺ مبدأ «**المرونة**»، وتحريك قواته بسرعة لا تقل سرعة وإتقانًا عن أقوى جيش حديث في هذا العصر؛ لأن المسيرات الليلية وقطع المسافات الطويلة والاستمرار في المسير ثلاثين ساعة كاملة دون استراحة يدل على تدريب راق وكفاية متميزة.

ثامنًا: التعاون[1]:

لقد رأينا كيف تعاون الرماة مع السيَّافة والرمَّاحة في غزوة «**بدر**» الكبرى، فقد نضح الرماة المشركين بنبالهم وأوقعوا فيهم خسائر فادحة سهلت مهمة هجوم السيافة والرماحة للقضاء نهائيًّا على مقاومة قريش.

كما رأينا تعاون الفرسان مع المشاة في الغزوات الأخرى.

= إن «المرونة» تعني أكثر من ذلك، إنها لا تتضمن قوة الحركة فحسب، بل قوة العمل السريع كذلك؛ فعلى القائد أن يكون مرن الفكر، وعليه أن يطبق تلك المرونة عند وضع الخطط لحملته، وأن تكون خططه بشكل يمكنه من أن يعدل سريعًا حركات قواته حين تضطره الظروف غير المنظورة وغير المتوقعة.

(١) التعاون: هو توحيد جهود كل الأسلحة، والقطعات العسكرية؛ لبلوغ الغرض المنشود، وهو النصر في الحرب.

لقد أمن الرسول ﷺ مبدأ: «**التعاون**» في غزواته كلها، وذلك بإعطاء كل سلاح [(١)] واجبًا يناسبه، كما أن تعاون «**الصفوف**» فيما بينها تمَّ في الوقت والمكان الملائمين، وبذلك أمَّن تسهيل مهمة الجميع للوصول إلى النجاح المطلوب.

كما أمَّن تعاون المسلمين من مختلف القبائل بشكل لم يسبق له مثيل في شبه الجزيرة العربية من قبل: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾[آل عمران: ١٠٣].

تاسعًا: إدامة المعنويات:

يمكن تعريف المعنويات: بأنها الصفات التي تميز الجيش المدرب عن العصابات، بها تظهر الطاعة القائمة على الحب، وتبرز الشجاعة في القتال والصبر على تحمل المشاق، وتبرز كل المزايا التي تجعل الجندي مطيعًا باسلًا صبورًا.

ولست بحاجة إلى التحدث عن طاعة جنود رسول اللَّه ﷺ له، تلك الطاعة القائمة على الحب المتبادل والثقة المتبادلة، ولا عن شجاعتهم وجلدهم في القتال وصبرهم على تحمل المشاق بعزم لا يعرف التخاذل والانهزام.

حسبي أن أذكِّر فقط بقصة الحدثَين الصغيرين اللذين قتلا أبا جَهْل في معركة «**بدر**» الكبرى والتي رواها عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وحسبي أن أُذكِّر - أيضًا - بقصة نسيبة الخزرجية «**أم عمارة**» في معركة «**أُحد**»، وهاتان القصتان معروفتان ورد ذكرهما في محلهما من هذا الكتاب.

فإذا كانت معنويات الفتيان الأحداث من المسلمين والنساء من المسلمات بهذا المستوى الرفيع، فكيف تكون معنويات الرجال؟!

---

(١) السلاح: هو الصف الذي كان يستعمل في قسم من الجيوش العربية سابقًا، فيقال: صنف المشاة، وصنف المدفعية... إلخ. وبعد توحيد المصطلحات العسكرية في الجيوش العربية من لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية الذي بدأت عملها في القاهرة من يوم (١٩٦٨/٥/٣٠)، أصبح يستعمل تعبير: سلاح، بدلًا عن: صنف، فيقال: سلاح المشاة، وسلاح المدفعية... إلخ.

إن مما يديم المعنويات هو وجود أهداف يؤمن بها الجنود بصورة خاصة والشعب بصورة عامة، وقد كانت أهداف المسلمين جميعًا حينذاك هي إعلاء كلمة الله، والعمل على حرية نشر الدعوة الإسلامية بدون تدخل أحد، ونشر لواء العدل والسلام بين الناس كافة، تلك الأهدف التي آمن بها المسلمون إيمانًا عميقًا وجاهدوا في سبيلها بكل ما يمتلكونه من غال ورخيص.

كما أن صفات القيادة الحقة هي التي تخلق المعنويات وتديمها، فإذا كانت الأمة محظوظة تهيأ لها قائد عظيم، حكيم، شجاع يبعث الثقة الحقيقية في الأمة.

ولست أعرف قائدًا لأمة قديمًا أو حديثًا امتلك صفات القيادة الحقة كما امتلكها الرسول ﷺ، إذ كان في صفاته ومزاياه رجلًا يعادل أمة أو هو أمة تعادل رجلًا كما يقولون.

فلا عجب أن يتحلى المسلمون بالمعنويات العالية عندما كانوا ضعفاء يتخطفهم الناس من كل جانب في مكة عقر دارهم، وعندما أصبحوا أقوياء يسيطرون على شبه الجزيرة العربية كلها دون منازع.

عاشرًا: الأمور الإدارية:

مهما تكن خطة العمليات دقيقة مرنة معقولة، فلا تؤتي ثمراتها المتوقعة إذا تعذر تنفيذها من الوجهة الإدارية، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك بالقول: إن كل خطة مرهونة بإمكاناتها الإدارية.

لقد اهتم الرسول ﷺ بالأمور الإدارية كثيرًا في معاركه، فتعاون المسلمون على تزويد المجاهدين بالأرزاق، والماء، والنقلية، والسلاح.

قرن الإسلام دائمًا الجهاد بالأرواح بالجهاد بالمال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الحديد: ١٠].
﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[الصف: ١١].

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾[النساء: ٩٥].

بل يلاحظ من تلك الآيات الكريمة، أن المال يُقدَّم على الأنفس دائمًا، مما يدل على اهتمام الإسلام بالأمور الإدارية.

ويقول القرآن الكريم عن الخيل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾[الأنفال: ٦٠].

ويقول: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾[العاديات: ١- ٥].

ويقول القرآن الكريم في الحديد الذي يعمل منه السلاح: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: ٢٥].

لقد أنفق المسلمون الأولون أموالهم في سبيل الله: مات الرسول ﷺودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير، وأنفق أبو بكر الصديق رضي الله عنهجميع ماله في سبيل اللّه وكان يوم أسلم من أغنياء قريش المعدودين، فمات متخللًا بعباءته. وأنفق عمر بن الخطاب رضي الله عنهنصف ماله، كما جهز عثمان بن عفان رضي الله عنهجيش العسرة في غزوة «**تبوك**» بالإضافة إلى الأموال الطائلة التي أنفقها على غيرها من الغزوات. أما آل محمد ﷺفقد روى الحسن عنهم قال: «**خطب رسول اللّه** ﷺ فقال: «**والله، ما أمسى في آل محمد صاع من طعام وإنها لتسعة أبيات**». واللّه ما قالها استقلالًا، ولكن أراد أن تتأسى به أمته!».

لقد أتعب الرسول ﷺوأصحابه من يريد التأسي بهم من المسلمين بعدهم. لقد ضحوا بكل شيء حتى بأبسط ضروريات الحياة في سبيل اللّه والمصلحة

العامة قبل أربعة عشر قرنًا، فأين منها تضحيات زعماء الشرق والغرب في القرن العشرين، أولئك الذين يتاجرون بالدفاع عن الفقير، والعامل، والفلاح بالظاهر وبالكلام فحسب، على حين يعيشون في الحقيقة مترفين في رخاء عظيم على حساب الفقير، والعامل، والفلاح!!

٣- مزايا أخرى إضافية:

أ - المساواة:

ساوى الرسول ﷺ نفسه بأصحابه في كل شيء، بل استأثر لنفسه دونهم بالخطر، ومضاعفة الجهد، وتحمل المسئولية والحرمان الشديد.

حمل الحجارة، والتراب، والجريد، واللَّبِن كأي فرد من المسلمين عند بناء المسجد في المدينة المنورة.

وفي مسير الاقتراب إلى «**بدر**» قسم الإبل المتيسِّرة وعددها سبعون بعيرًا بين أصحابه، وكان من نصيبه مع علي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما - بعير يعتقبونه، تمامًا كما يفعل أي فرد من أفراد قواته.

قال شريكا الرسول - صلوات اللَّه وتسليمه عليه - في البعير: «**نحن نمشي عنك**»، قال: «**ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**».

وفي غزوة «**الخندق**» حفر بيده وحمل الأحجار والأتربة على عاتقه. قال البراء بن عازب: «**كان رسول اللَّه ينقل التراب يوم الخندق حتَّى اغبرَّ بطنه**».

لقد وارى التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر.

وشارك أصحابه في طعامهم وشرابهم ولباسهم، بل آثرهم بالنفيس من كل ذلك واستأثر دونهم بالخشن.

وتحمل أخطر المواقف بنفسه، ولم يترك أصحابه يتعرضون للخطر وحدهم.

لقد سخر نفسه لخدمة أصحابه، بينما سخر القادة قواتهم لخدمتهم.

ب ـ الاستشارة:

كان الرسول ﷺ يستشير أصحابه في كل المواقف التي لها أثر في مصالح المسلمين عسكرية وغير عسكرية.

استشارهم في غزواته كافة عدا غزوة «**الحديبية**»، وأخذ بآرائهم حتى ولو كانت تخالف رأيه؛ كما حدث ـ فعلًا ـ في غزوة «**أحد**»، فقد كان يرى البقاء في المدينة المنورة بينما رأى أكثرية أصحابه الخروج.

أما أسباب عدم استشارتهم في غزوة «**الحديبية**»؛ فلأنه ـ كما ذكرنا سابقًا ـ كان يصر على نياته السلمية التي تؤمِّن له الاستقرار الضروري لانتشار الإسلام، وكان لبعد نظره المذهل حقًّا يعرف أن نتائج الصلح ستكون خيرًا شاملًا للدعوة الإسلامية، بينما كان أصحابه يريدون النصر العاجل قبل أوانه.

ج ـ أساليب جديدة:

طبق الرسول ﷺ أساليب جديدة في القتال.

طبق أسلوب القتال بـ «**الصفوف**» في «**بدر**»، فتغلب بهذا الأسلوب على قوات قريش التي بلغت ثلاثة أمثال قوته؛ لأنهم قاتلوا بأسلوب «**الكرِّ والفرِّ**».

وحفر «**الخندق**» في غزوة «**الأحزاب**»، ولم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب.

وطبق أسلوب قتال المدن والأحراش في غزوة بني النضير، وبني قريظة، وخيبر، ومن المدهش أن يطبِّق الرسول ﷺ نفس الأسلوب الذي يطبق في الحرب الحديثة في مثل هذا القتال.

واستخدم المنجنيقات والدبابات في غزوة حصار «**الطائف**»، وكان استعمال هذين السلاحين نادرًا عند العرب حينذاك.

وانتخب «**مقرًّا**» له في غزوة «**بدر**»، مراعيًا شروط انتخاب «**المقر**»، وأمَّن حراسته كما يجري في الحرب الحديثة.

وقسم الأعمال وأمَّن السيطرة على إنجازها؛ كما حدث في حفر الخندق.

وقام بالهجوم فجرًا، ذلك الهجوم الذي يحتاج إلى كفاية وتدريب متميزين؛ كما حدث في غزوة بني المصطلق.

وابتكر أسلوب «**الرسائل المكتومة**»، على حين يفاخر الألمان في العصر الحاضر بأنهم أول من ابتكر هذا الأسلوب.

بل إنه طبق الحرب الإجماعية بحذافيرها، فحشد كل القوى المادية والمعنوية للأغراض العسكرية، وذلك ليؤمن حماية الدعوة من أعدائها الكثيرين، بينما لم تعرف هذه الحرب إلا في الحرب العالمية الثانية فقط، واستأثر الألمان بالمفاخرة في ابتكارها.

٤ـ قيادة مثالية:

رأينا كيف كان الرسول ﷺ يتحلى بكل صفات القائد المثالي، كما تنص عليها أوثق المصادر العسكرية الحديثة.

ورأينا كيف طبق كل مبادئ الحرب بكل كفاية، ورأينا كيف أنه تحلى بمزايا أخرى لم تنص عليها المصادر العسكرية؛ لاستبعاد المفكرين العسكرين إمكان توفرها في القادة وهم بشر!

ورأينا كيف طبق أساليب جديدة مبتكرة، واستخدم أسلحة جديدة في القتال.

فأي قائد تحلى بكل هذه المزايا، وطبق كل مبادئ الحرب، وابتكر كل هذه الأساليب الحربية؟!

ذلك هو السبب الأول لانتصار المسلمين على أعدئهم، وقديمًا قالوا: «**لم يغلب الرومانُ الغالَ ولكن قيصر**»(١).

ونختم هذه الأسطر القليلة من بطولة رسول اللَّه ﷺ وفروسيته وقيادته بما قال أحمد محرم ـ رحمه اللَّه ـ:

---

(١) الرسول القائد ص (٤٣٣- ٤٦٣).

هـذا إمـام الـديـن في أعـلامِـهِ	والـديـن معـتـصـمٌ بـبـأس إمـامِهِ
يـحـمي حـقـيـقـتـه بـقـوة بـطـشـه	ويـصـون بـيـضـتـه بـحـد حـسـامـه
شيـخُ الجـهـاد يَـوَدُّ كـل مـجـاهِـدٍ	لوْ كانَ يُدعى في الوغى بِغُلاَمِه
عـالـي الـلـواءِ يقـيـمُـهُ بـحـدُودِه	ويُـبَـيِّنُ المأثـورَ مِـن أحـكـامِـهِ
المصلحون على الزمان سُيوفُه	وجـنـودُه في حـربـه وسَـلاَمِـه
عَـرفـوا الجهـاد بـه ومـنـه تعـلَّمـوا	مـا صـحَّ مـن دستورِه ونظـامِهِ
غضبتْ قريشُ أن جفا أصنامَها	ووفَـى بـعـهـد إلـهـهِ وذِمـامِـه
يـغـزو فـوارسُـهُ ويـقـتـل جـمـعَـهـم	حـتـى يـديـن مـرامـهـم لمرامِـه
ويـرى المحـجَّـة كـلُّ غـاوٍ مـنـهـمُ	فيكـفُّ عـن طـغـيـانـه وغُـرامِـهِ
ويثوبُ جاهلهم إلى دين الهدى	والنورِ من دين العَمَى وظلامه(١)

❑ رسول اللَّه ﷺ رائد الفتح وباني جيش المسلمين الأول:

لقد أنشأ رسول اللَّه ﷺ جيش المسلمين الأول، وسهر على رعايته ودرَّبه، وجهَّزه، ونظَّمه، وهيأ له القادة الحُماة القادرين، وأشاع فيه المعنويات العالية بالعقيدة الراسخة، حتى أصبح جيشًا لا يُقهر من قلة ولا بكثرة، حقَّق وحدة قوية، وأنشأ أمة عظيمة، وحمى عقيدة راسخة في حياة قائده ورائده، ومؤسس بنيانه ومشيد أركانه، ومرسِّخ إيمانه بقوة الله، وعزَّته، وإرادته، وهديه.

وبدأ رسول اللَّه ﷺ يخطط للفتح الإسلامي العظيم، فهو الذي رسم الخطة التمهيدية التي حملت جيش المسلمين على فتح أرض الشام.

وكان رسول اللَّه ﷺ إلى جانب تبليغه الدعوة لملوك عصره ككسرى وقيصر وغيرهما، كان قائدًا ماهرًا يقظًا لا يغض الطرف عن أي مظهر عدواني قد يحط من شأن دعوته، أو يعمل على النيل منها، أو يضع العراقيل في طريق انتشارها، فلم يقف ساكنًا أمام استشهاد رسوله الذي بعثه إلى أمير الغساسنة في بصرى، فأرسل في السنة

---

(١) ديوان مجد الإسلام، لأحمد محرم، ص (١٥٢).

الثامنة الهجرية «٦٢٩م» أحد قادته المقرَّبين إليه، وهو زيد بن حارثة الكلبي على رأس حملة تعدادها ثلاثة آلاف رجل إلى الحدود الشمالية الغربية من حدود بلاد العرب، وهناك عند «**مؤتة**» الواقعة على حدود البلقاء إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت التقى المسلمون بقوات الروم وحلفائهم الغساسنة.

وكانت سرية زيد إلى «**مؤتة**» غزوة لم تُقَدِّرْ إمبراطورية الروم أهميتها، فهي حرب منظمة كانت لها مهمة جديدة خاصة، جعلت المسلمين يتطلعون جدِيًّا لفتح أرض الشام.

وفي السنة التالية؛ أي: في السنة التاسعة الهجرية «٦٣٠م» قاد النبيﷺ بنفسه غزوة «**تبوك**»، فأظهر قوة المسلمين للروم المتربصين بهم، ثم عاد إلى المدينة المنورة، فكانت تلك الغزوة غزوة استطلاعية، بالإضافة إلى تأثيرها المعنوي في الروم وحلفائهم الغساسنة.

وفي السنة الحادية عشرة الهجرية «٦٣٢م» أعد النبيﷺ سرية بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي حب رسول اللَّه وابن حبه؛ لمهاجمة الروم.

وعقد النبيﷺ اللواء لأسامة بيده وأمره أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد، وأن يوطِّئ الخيل تخوم «**البلقاء والداروم**» من أرض فلسطين... عقد اللواء بيده في آخر يوم من صفر ١١هـ، وكان ذلك مع مبدإ شكواهﷺ من مرضه الذي توفي فيه، وخرج الجيش بقيادة أسامة بن زيد إلى ظاهر المدينة فعسكر بالجرف، وفي هذه الأثناء اشتدت وطأة المرض برسول اللَّهﷺ وتوفيﷺ وقد ولى وجوه المسلمين شطر أرض الشام عيَّنها لهم وأهداف واضحة جلية شرحها لهم، وأصدر إليهم أوامر حاسمة جازمه.

وهكذا وقف الرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بثاقب نظره على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحل بدعوته الإسلامية موطنها أرض الشام؛ حيث الروم وعمالهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي فيما بعد صدق هذه

الإشارة، فكان الروم أشد المحاربين عنادًا.

ولقد بشَّر النبي ﷺ المسلمين بفتح بلاد الشام ملك كسرى.

فعن البراء بن عازب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «لما كان حين أمرنا رسول اللَّه ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذها المعاول، فاشتكينا إلى رسول اللَّه ﷺ، فجاءنا، فأخذ المعول، فقال: «**بسم الله**»، فضربها ضربة فكسر ثلثها، وقال: «**اللَّه أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله، إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**»، ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر، فقال: «**اللَّه أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله، إني لأبصر قصر المدائن أبيض**»، ثم ضرب الثالثة، وقال: «**بسم الله**» فقطع بقية الحجر[١]، فقال: «**اللَّه أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله، إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة**»[٢].

ولله در أحمد محرم حين يقول عن هذا الحديث:

سلمان دعها كُدْيَةً تُوهي القُوَى ... وتودُّ كلَّ مُحدد مثلومًا[٣]

اضرب رسول اللَّه كم من صخرةٍ ... لم تألها صدعًا ولا تحطيمًا

من ليس يبلغ من جبابرة القوى ... ما أنت بالغه، فليس ملومًا

بشِّر جنودك بالفتوح ثلاثةً ... تدع العزيز من العروش مضيما[٤]

وصِفِ المدائن والقصور لمعشرٍ ... مثلتها صورًا لهم ورسوما

أبصرتها في نور ربك ما رأتْ ... عيناك آفاقا لها وتخوما[٥]

ما زلت تُحدِث كل أمرٍ مُعجِزٍ ... لولا النبوة لم يكن مفهوما

---

(١) لشدة بأسه وقوته.

(٢) حسن: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/٣٠٣)، والنسائي (٦/٤٣، ٤٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤١٧ـ ٤١٨)، ولقد حسن الحافظ ابن حجر إسناد الحديث في «الفتح» (٧/٣٩٧).

(٣) التلم: كسر في حدِّ المعول هنا.

(٤) المضيم: المقهور.

(٥) التحوم: الحدود.

لـلـه أسـرار تـريـك جـلالـه إن شاء فضَّ كتابها المختوما

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله استقبل بي الشام، وولّى ظهري اليمن، وقال لي: يا محمد، إني جعلتُ لك ما تجاهك غنيمة ورزقًا، وما خلف ظهرك مددًا، ولا يزال الله يزيد ـ أو قال: يعز ـ الإسلام وأهله، ويُنقِص الشرك وأهله، حتى يسير الراكب بين كذا ـ يعني البحرين ـ لا يخشى جوْرًا، وليبلغنَّ هذا الأمر مبلغ الليل**»(١).

بأبي وأمي نبي الملحمة الذي قال: «**عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى**»(٢).

وبأبي وأمي رسول الله ﷺ الذي قال مشجعًا أمته على فتح بلاد قيصر، فقال: «**أول جيش من أمتي يركبون البحر، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**»(٣).

بأبي وأمي نبي الملاحم الذي سيبلغ ملكه بالجهاد ما زوى الله له من الدنيا، وما بلغ الليل والنهار. قال ﷺ: «**عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار؛ عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/١٠٧، ١٠٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/١٧٠، ١٧١) رقم (٧٦٤٢). وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٥)، «وصحيح الجامع» رقم (١٧١٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن جابر بن سمرة.

(٣) رواه البخاري عن أم حرام بنت ملحان.

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، والنسائي، والضياء في «المختارة» عن ثوبان، وصححه.
قال المناوي في فيض القدير (٤/٣١٧):
من حديث محمد بن الوليد الزبيدي عن الجراح بن مليح عن ثوبان، ورواه عنه الديلمي والطبراني، وقال: لا يُروى عن ثوبان إلا بهذ الإسناد، تفرد به الزبيدي ا. هـ.
والجراح: قال الذهبي في «الضعفاء» عن الدارقطني: ليس بشيء.
وصححه السيوطي في «الجامع الصغير»، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٣٤)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٠١٢).

فصلوات ربي وسلامه على نبينا الشهيد ـ كما قال الذهبي ـ الذي نُصر بالرعب.

عن أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**بُعثت بجوامع الكلم ونُصِرت بالرعب...**» (١).

وفي حديث جابر عند البخاري: «**ونُصِرت بالرعب مسيرة شهر**».

بأبي وأمي رسول اللَّه ﷺ الذي ما ترك وخلَّف غير سلاحه وبغلته.

عن عمرو بن الحارث ﵁ قال: «ما ترك النبي ﷺ إلا سلاحه، وبغلةً بيضاء، وأرضًا بخيبر جعلها صدقة» (٢).

ونختم بهذا الحديث:

عن جابر بن عبداللَّه أنه غزا مع رسول اللَّه ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول اللَّه ﷺ قفل معه، فأدركتهم القافلة في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسول اللَّه ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول اللَّه ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: «**إن هذا اخترط على سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يديه صلتا، فقال: مَن يمنعك مني؟ فقلت:** «**اللَّه ـ ثلاثة ـ**». ولم يعاقبه وجلس (٣).

صلوات ربي على بطل الأبطال، ورجل الرجال، وأشجع الناس، قائد السادات، وسيد القادات.

❑ رسول اللَّه ﷺ أول واضع لأسس الحرب الإجماعية لأول مرة في التاريخ:

الحرب الإجماعية، أو الحرب الاعتصابية، أو الحرب الشاملة مصطلحات عسكرية معروفة، تدلُّ على معنًى عسكريٍّ واحد.

(١) رواه البخاري (٢٩٧٧)، كتاب الجهد، باب قول النبي ﷺ «نصرت بالرعب مسيرة شهر».
(٢) رواه البخاري (٢٩١٢)، كتاب الجهاد ـ باب من لم ير كسر السلاح عند الموت.
(٣) رواه البخاري (٢٩١٠)، كتاب الجهاد، باب من علق سيفه بالشجر في السفر.
العضاه: هي كل شجرة ذات شوك.
صلتا: بفتح الصاد وضمها؛ أي: مسلولًا.

ومعنى الحرب الإجماعية؛ هو حشد الطاقات المادية، والطاقات المعنوية كافة للأمة، لا للجيش النظامي وحده، أو للقوات العسكرية النظامية وحدها من أجل المجهود الحربي.

وهذا يعني ـ أيضًا ـ أن الطاقات المادية كلها ـ بشرية وطبيعية، سلاحًا وعتادًا، ومعامل، ومزارع، وحقولًا، ومستشفيات، ومخازن ـ التي تفيد المجهود الحربي قليلًا أو كثيرًا تُحشد من أجل إحراز النصر.

وهذا يعني ـ أيضًا ـ أن الطاقات المعنوية كلها ـ التوجيه المعنوي، خطباء المساجد، رجال الدين، وأجهزة الإعلام المكتوبة، والمسموعة، والمرئية حربًا نفسية، مكافحة للتجسس وغيرها ـ تحشد كلها للمجهود الحربي.

وحين صدر كتاب «**الأمة في الحرب**» الذي ألفه المشير «**لودندروف**» رئيس هيئة أركان حرب المشير «**هند نبرغ**» أبرز قادة ألمانيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ـ ١٩١٨م» وأصدره بعد الحرب العالمية الأولى، ظنَّ الناس أن «**لودندروف**» أول من وضع أسس الحرب الإجماعية في التاريخ العسكري، وسرى هذا الظن في الشرق والغرب قضية مسلمة بها.

وكان من الذين صدقوا هذا الظن الآثم العسكريون العرب والمسلمون، فدرسوا هذا الكتاب القيم ودرَّسوه في المدارس، والمعاهد، والكليات والجامعات العسكرية، وفي جامعات الدراسات العسكرية العليا.

والقول بهذا لا يمتُّ إلى الحقيقة التاريخية بصلة، ويدخل في عداد الجهل المطبق بالواقع التاريخي، أو في التزييف المتعمد لحقائق التاريخ.

إن الإسلام هو الذي وضع أسس الحرب الإجماعية بنص القرآن الكريم، وحديث رسول الله ﷺ، والمسلمون هم الذين طبقوا هذه الحرب عمليًّا في عهد الرسول القائد ﷺ، وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم في القرن الأول الهجري.

ميلادنا أقدم من ميلادهم   أمجادنا أنصع من أمجادهم

ولم تطبق الحرب الإجماعية في غير دول الإسلام إلا خلال الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩ـ ١٩٤٥م» تطبيقًا كاملًا، كما جرى في بعض دول الحلفاء؛ كبريطانيا والاتحاد السوفياتي السابق، وبعض دول المحور؛ كألمانيا الهتلرية واليابان، كما طُبقت هذه الحرب تطبيقًا جزئيًا في إيطاليا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية.

❑ **انظر إلى سبق الإسلام في الحرب الإجماعية.**

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

فمن يبقى من الأمة إذا شهد الحربَ الشبابُ والشيوخ، والركبان، والمشاة، والفقراء، والأغنياء، والأصحاء والمرضى، والمعيلون، وغير المعيلين؟!

ومعنى ذلك، أن النفير العام للجهاد الذي يطلق عليه الفقهاء مصطلح «**فرض عين**»، ويُطلق عليه العسكريون المحدثون: «**النفير العام**» يشمل جميع القادرين على حمل السلاح من المسلمين.

فكل قادر على حمل السلاح يجاهد بنفسه، وكل قادر على الجهاد بالمال يجاهد بماله، وكل قادر على الجهاد بماله ونفسه يجاهد بهما معًا.

وقد وردت في القرآن الكثير من الآيات في الجهاد بالمال والنفس، وفي كل آية من تلك الآيات تسبق كلمة «**الأموال**» كلمة «**الأنفس**»؛ لأن المال عصب الحرب.

أما الأحاديث في الحرب الإجماعية الإسلامية فكثيرة جدًّا.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم**»[1].

والجهاد باللسان هو الحث على الجهاد، وهو الحرب الدعائية، أو الحرب

---

(١) حديث صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك».

الإعلامية، وقال ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»(١) حثًّا على إعداد الخيل للجهاد، وهو جزء من إعداد القوة.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه يُدخِل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعه الخير، والرامي به، ومُنبِّله... وارموا واركبوا، وإن ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة تركها، أو قال: نعمة كفرها**»(٢)، حثًّا على التسليح، والتدريب واستمرارية التدريب.

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

❑ التطبيق العملي للحرب الإجماعية في الإسلام كأروع ما تكون الأمثلة:

كان التطبيق العملي للحرب الإجماعية في الإسلام على عهد النبي ﷺ في قرنه الذي كان خير القرون رائعًا حقًّا.

فقد شهد القتالَ في هذا القرن شبابٌ صغار السن، فقد ردَّ النبي ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة يوم أحد؛ لصغر سنه، وأجاز يومئذ سمرة بن جندب الفزاري، ورافع بن خديج من بني حارثة ولهما خمسة عشر سنة، ورد أسامة، وعبداللَّه بن عمر، وغيرهما؛ لصغر سنهم، ولكنه عاد فأجازهم عام «**الخندق**» بعد ذلك بسنة، وكان لعبداللَّه بن عمر يوم «**أحد**» أربعة عشر عامًا.

وشهد عُمير بن أبي وقاص غزوة بدر وهو أخو سعد بن أبي وقاص.

قال سعد: «رأيت أخي عميرًا قبل أن يعرض رسول اللَّه ﷺ للخروج إلى بدر يتوارى! فقلت: ما لك يا أخي؟! فقال: إني أخاف أن يراني رسول اللَّه ﷺ فيستصغرني، ويردني، وأنا أحب الخروج لعل اللَّه يرزقني الشهادة. قال: فعرض رسول اللَّه ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع! فبكى عمير! فأجازه رسول اللَّه ﷺ، فكنتُ

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه، والطبراني.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود والترمذي، والنسائي، وأحمد.

أعقد حمائل سيفه من صغره»، وقد استشهد يوم بدر وهو ابن ست عشرة سنة[١].

وشهد القتالَ في هذا القرن كبارٌ وشيوخ، وأصحاب عاهات مستدامة؛ كالعرج، وضعف البصر، والشيخوخة.

فقد خرج النبي ﷺ إلى «**أحد**» فرفع حِسْل بن جابر والد حذيفة بن اليمان وثابت بن وَقْش إلى الآكام مع النساء والصبيان، وكانا شيخين كبيرين، فقال أحدهما للآخر: «**لا أبا لك! ما ننتظر؟ إنما نحن هامة[٢] اليوم أو غد**» فلحقا بالمسلمين ليرزقا الشهادة، فلما دخلا في الناس قتل المشركون ثابت بن وقش، والتقت أسياف المسلمين على حِسْل والد حذيفة بن اليمان، فنادى حذيفة: «**أبي..أبي**» فقتلوه وهم لا يعرفونه، فقال حذيفة: «**يغفر الله لكم**» وتصدق بديته على المسلمين[٣].

وقُتل عمار بن ياسر يوم صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان عمره يومئذ أربعًا وتسعين سنة، وقيل: ثلاث وتسعون سنة، وقيل: إحدى وتسعون سنة[٤].

وعن صفوان بن عمرو أنه قال: «**كنتُ واليًا على «حمص»**، فلقيت شيخًا كبيرًا قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو، فقلت: يا عم! لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي! استنفرنا الله خفافًا وثقالًا، ألا إنه من يحبه الله يبتله»[٥].

وخرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضرر، فقال: «**استنفرنا الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع**»[٦].

---

(١) طبقات ابن سعد (١٤٩/٢)، وأسد الغابة (١٤٨/٤).

(٢) هامة: جثة هامدة.

(٣) فتح الباري (٩٩/٧)، والإصابة (٢٠٤/١).

(٤) أسد الغابة (٤٧/٤).

(٥) تفسير الكشاف (٣٤/٢).

(٦) المصدر السابق (٣٤/٢).

وشهد القتال في هذا القرن نساء ـ أيضًا ـ، قاتلن في صفوف المسلمين، ونهضن بواجبات إدارية في الميدان لا تقل أهمية عن الواجبات القتالية، فقد شهدت نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية غزوة أحد مع النبيﷺ قالت نسيبة: «خرجت يوم أحد ومعي سقاء وفيه ماء، فانتهينا إلى رسول اللهﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول اللهﷺ فكنت أباشر القتال، وأذبُّ عنهم بالسيف، وأرمي بالقوس حتى خلصت الجراح إليَّ»، وكان على عاتقها جرح أجوف له غور[١].

وشهدت نسيبة معركة اليمامة مع خالد بن الوليد، وعاهدت اللَّه أن تموت دون مسيلمة أو تُقتَل، فقاتلت حتى قُطِعت يدها، وجُرِحت اثنا عشر جرحًا[٢].

وركبت أم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت البحر مع زوجها سنة سبع وعشرين الهجرية في غزوة قبرص بقيادة معاوية بن أبي سفيان في عهد عثمان بن عفان ﷺ، فلما وصلت إلى أرض الجزيرة قُرِّبت لها بغلة، فركبتها، فصرعتها فماتت[٣].

وركبت في تلك الغزوة ـ أيضًا ـ زوج معاوية ـ فاختة بنت قرظة من بني نوفل بن عبد مناف ـ وقيل: كنود بنت قرظة ـ البحر مع زوجها[٤].

وأراد حبيب بن مسلمة الفهري أن يبيِّت «**المُوْرِيان**»[٥]، فسمعته امرأته أم عبداللَّه

---

(١) الإصابة (١٩٨/٨، ١٩٩).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الإصابة (٢٢٣/٨)، وفتح الباري (٥٧/٦).
(٤) الإصابة (١٥٤/٨)؛ وهو الأصح؛ لأنه ورد في «الصحيح». وانظر: ركوب كنود البحر في «الإصابة» (١٥٤/٨، ٢٢٣).
(٥) الموريان: صاحب أَرْمنياقس «البلاذري» (٢٧٣)، رجل من أرمنياقس (٢٧٧)، بطريق أرمنياقس «البلاذري» (٢٧٨)، والبطريق رتبة عسكرية تعادل رتبة اللواء في الجيوش العربية الحديثة، ومنصب قائد فرقة فيها. والموريان: هو حاكم أرمينية؛ كما جاء في «معجم البلدان» (٢٥٣/١ـ ٢٥٦).

بنت يزيد الكلْبية يذكر ذلك، فقالت له: «**وأين موعدك؟**»، فقال: «**سُرادق**» الموريان «**أو الجنة**»، ثم بيتهم، فقتل من أشرف له، وأتى السرادق، فوجد امرأته قد سبقت(١).

وفي صحيح البخاري: باب جهاد الناس، وباب غزو المرأة في البحر، وباب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه، وباب غزو النساء وقتالهن مع الرجال، وباب حمل النساء القراب إلى الناس في الغزو، وباب مداواة النساء الجرحى في الغزو، وباب ردِّ النساء الجرحى والقتلى(٢).

❑ التطبيق العملي للحرب الإجماعية الإسلامية بالأموال.

حث الإسلام على الإنفاق في سبيل الله وقرن بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال، فقال ـ تعالى ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠]، وقال ـ تعالى ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]

وقال ـ تعالى ـ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وقال ـ تعالى ـ ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ﴾ [النساء: ٩٥].

وجاهد أغنياء المسلمين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وجهزوا إخوانهم المجاهدين بما يحتاجون إليه من سلاح، ودواب، وأرزاق، وخلفوا المجاهدين من إخوانهم بالخير في عوائلهم وذويهم، وأنفقوا عليهم كما ينفقون على من يعولون من عوائلهم وذويهم، وواسوهم وسهروا على مصالحهم.

كانت غنائم «**حنين**» أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٢٤٨)، والبلاذري (٢٧٨).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٦/٥٨- ٦٠).

أوقية من الفضة[١].

فهل أبقى رسول اللَّه ﷺ لنفسه ولأهله شيئًا من هذا المال، أو من غيره من الأموال؟ بل هل أبقى لنفسه ولأهله شيئًا من المال الخاص؟

إنه لمن يفكر أبدًا في نفسه، كما لم يفكرٌ أبدًا في أهله، فعاش فقيرًا، ومات فقيرًا، وأنفق كل ما يملك في سبيل الله.

وأنفق أبو بكر ﵁ جميع ماله، وكان له أربعون ألفًا أنفقها كلها على رسول اللَّه ﷺ وفي سبيل الله، وقد أعتق سبعة كانوا يعذبون في اللَّه منهم بلال بن رباح[٢].

وأنفق عمر بن الخطاب ﵁ نصف ماله في سبيل الله.

وأنفق عثمان بن عفان أموالًا طائلة: جهز جيش العسرة[٣] بتسع مئة وخمسين بعيرًا، وأتم الألف بخمسين فرسًا[٤]، ولما قدم المهاجرون المدينة وكان لرجل من بني عفار عين يُقَال لها: «**رومة**»، وكان يبيع القربة منها بمدٍّ، فاشتراها عثمان بخمس وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين[٥].

وكان للزبير بن العوام ﵁ ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فما كان يُدْخِل منها بيته درهمًا واحدًا، وكان يتصدق بذلك كله، وباع دارًا له بست مئة ألف، فقيل له: يا أبا عبدالله، غُبِنْتَ! فقال: «**كلا! واللَّه لتعلمنَّ، لم أغبن... وهي في سبيل الله**»[٦].

وباع عبدالرحمن بن عوف أرضًا من عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك المال في بني زهرة، وأمهات المؤمنين، وفقراء المسلمين، وتصدق على عهد رسول اللَّه ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف

---

(١) سيرة ابن هشام (١٣٨/٤، ١٣٩).
(٢) الرياض النضرة، للمحب الطبري (١١٦/١).
(٣) جيش العسرة: جيش عزة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة.
(٤) الرياض النضرة (١١٨/٢).
(٥) الرياض النصرة (١٢٢/٢).
(٦) الرياض النضرة (٣٦٤/٢).

دينار، ثم حمل على خمس مئة فرس في سبيل الله، وقد وردت له قافلة من تجارة الشام فحملها إلى رسول اللَّه ﷺ(١).

وتصدَّق سعد بن أبي وقاص بثلث ماله على عهد رسول اللَّه ﷺ(٢)، وحين سار المسلمون لفتح الشام خرج أبو بكر رضي الله عنه يودع المجاهدين، فبصر بخباء عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يضم ثمانية أقواس، ورماحًا، وعدة ظاهرة، فسلم عليه أبو بكر، وجزاه خيرًا، وعرض عليه المعونة، فقال: لا حاجة لي فيها، معي ألفا دينار، فدعا له بخير»(٣).

ولما مات خالد بن الوليد رضي الله عنه، لم يترك إلا سلاحه، وفرسه، وغلامه(٤)، وهو القائد الفاتح الذي خاض خلال اثنتي عشرة سنة إحدى وأربعين معركة في اليمن، والحجاز، ونجد، والعراق، والشام لم ترتد له راية أبدًا، وما تركه حبسه في سبيل الله(٥).

قال رسول اللَّه ﷺ **«أما خالد فقد احتبس أدراعه في سبيل الله»**(٦).

ولما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ فقالوا: مَن؟ فقال: أبو عبيدة، قالوا: يأتيك الآن. فجاء أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه القائد العام في أرض الشام، والرجل الثاني بعد عمر أمير المؤمنين، على ناقة مخطومة بحبل فسلم عليه، فقال عمر للناس: انصرفوا عنا! وسار عمر مع أبي عبيدة حتى أتى منزله عليه، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه، فقال عمر: **«لو اتخذت متاعًا ـ أو قال: شيئًا»**، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! إن هذا سيبلغنا المقيل،

---

(١) الرياض النضرة (٢/٣٨٥).
(٢) الرياض النضرة (٢/٤٠٦).
(٣) أسْدُ الغابة (٤/٦).
(٤) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٨).
(٥) الإصابة (٢/١٠٠).
(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، وهو طرف من حديث لأبي هريرة أخرجه البخاري في كتاب الزكاة.

فقال عمر: غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة[١].

وكان عُمير بن سعد الأنصاري على حِمص لعمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فكتب عمر إلى أهل حمص: «**اكتبوا لي فقراءكم**»، فكتبوا إليه أسماء فقرائهم، وذكروا فيهم عمير بن سعد، فلما قرأ عمر اسمه، قال: «**من عُميْر بن سعد!!**» فقالوا: أميرنا! فقال: «**أو فقيرٌ هو!!**» فقالوا: ليس أهل بيت أفقر منه! فقال عمر: «**فأين عطاؤه**» فقالوا: يخرجه كله لا يُمسك منه شيئًا!! فوجه إليه عمر بمئة دينار، فأخرجها كلها للفقراء، فقالت له امرأته: «**لو كنت حبست لنا منها دينارًا واحدًا، فقال لها: لو ذكرتني فعلت**».

❑ الحرب الإجماعية الإسلامية والحرب الإجماعية الحديثة

وحَّد رسول اللَّه ﷺ لأول مرة في التاريخ شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، وامتد الفتح الإسلامي العظيم بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى خلال تسعين سنة «١١ - ١٠٠هـ» حتى شمل دولًا كثيرة لا تغرب عنها الشمس، هي أوسع من أي مملكة في التاريخ القديم والحديث.

ولكن شتان بين الحرب الإجماعية الإسلامية وبين الحرب الإجماعية الحديثة التي طبقتها الدول الحديثة في القرن العشرين الميلادي.

الحرب الإجماعية في الإسلام متفوقة فواقًا كاسحًا على الحرب الإجماعية الحديثة كمًّا ونوعًا.

أما تفوقها من ناحية «**الكم**»، فإن قاعدة النفير العام في الحرب الإجماعية الحديثة تنص على حشد عشرة بالمئة فقط من تعداد السكان للحرب، إذ تبدأ الجندية من سن ثمانية عشر عامًا غالبًا، وتنتهي خدمة الاحتياط في سن تسع وثلاثين سنة للرجل وأربع وثلاثين سنة للمرأة. أما المسلمون في حربهم الإجماعية، فقد استطاعوا حشد أربعين بالمئة من تعداد نفوسهم، إذ تبدأ الجندية من سن السادسة عشر أو الخامسة

---

(١) الإصابة (١٢/٤)، وأُسْد الغابة (٨٦/٣).

عشر عامًا، وتشمل كل قادر على الجهاد بماله، أو نفسه، أو بهما معًا، ولا تنتهي في سن معينة، ويبقى المسلم مجاهدًا ما دام قادرًا على حمل السلاح.

وكل قادر على حمل السلاح من المسلمين جندي أو قائد في جيش المسلمين، ولا أعلم مسلمًا حقًّا تخلف عن الجهاد في عهد النبي ﷺ إلا بأمر منه، أو لعذر مشروع، غير الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوك فقاطعهم المسلمون وهجرهم أهلهم، فلما تابوا تاب اللَّه عليهم. فإذا قارنا نسبة الطاقة البشرية في الحرب الإجماعية الإسلامية وهي أربعون بالمئة بالنسبة لتعداد المسلمين، بنسبة الطاقة البشرية في الحرب الحديثة وهي عشرة بالمئة وجدنا البون شاسعًا.

أما تفوقها من ناحية النوع فإن المجاهدين الصادقين الذين كانت الشهادة أغلى أمانيهم قدموا الشهداء الذين تساقطوا في ميدان القتال، فبلغت نسبة الشهداء - وبخاصة من الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ثمانين بالمئة، وهي نسبة عالية جدًّا لا مثيل لها في تاريخ الحرب قديمًا وحديثًا.

لقد شهد معركة اليمامة في حروب الردَّة ثلاثة عشر ألفًا بقيادة خالد بن الوليد، وكانت خسائر المسلمين ألفًا ومئتي شهيد؛ أي: عشرة بالمئة من مجموع المجاهدين.

فإذا أحصينا عدد المعارك التي خاضها المسلمون في الغزوات والسرايا على عهد النبي ﷺ وفي أيام الفتح الإسلامي العظيم، وجدنا العدد كثيرًا وعظيمًا.

وكمثال على ذلك، فإن الحارث بن هشام خرج في سبعين من أهل بيته، فرجع منهم أربعة فقط، ومات سائرهم بالطاعون.

وكان شهداء المهاجرين والأنصار أكثر من نصف الشهداء في معركة اليمامة، فقد استشهد منهم من سكان المدينة المنورة يومئذ ثلاث مئة وستون، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلاث مئة[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٢٩٦، ٢٩٧)، والكامل، لابن الأثير (٢/٣٦٥).

وكان شهداء المهاجرين والأنصار وشهداء التابعين لهم بإحسان ـ الذين كانوا ثلاث مئة شهيد تابعي ـ في تلك المعركة ثمانين بالمئة من مجموع الشهداء، إذ يبلغ عدد شهداء المهاجرين، والأنصار، والتابعين تسع مئة وستين شهيدًا من مجموع ألف ومئتي شهيد.

وهذا يدل على أثر الإيمان في تصاعد عدد الشهداء، ويكفي أن نذكر أن عدد الشهداء من القراء ـ حاملي القرآن وعلماء المسلمين حينذاك ـ في معركة اليمامة ثلاث مئة شهيد في رواية، وفي رواية أخرى: خمس مئة شهيد؛ أي: أن نسبة الشهداء من القراء في معركة واحدة فقط خمسة وعشرون بالمئة في رواية، وخمسة وأربعون بالمئة في رواية أخرى، وهي نسبة عالية جدًّا. والذين يبحثون في مصادر الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ يجدون واحدًا من كل خمسة منهم مات على فراشه، وأربعة استشهدوا في ميادين الجهاد، فلا تعجب من سرعة الفتوح المذهلة في القرن الأول الهجري، وثباتها، ودوامها، فقد كان السلف الصالح يحرصون على الموت؛ كحرص الخلف الطالح على الحياة.

فلا يقولن قائل ـ بعد اليوم ـ: إن الحرب الإجماعية من صنع الأجانب، فقد شرعها الإسلام يوم كان الإفرنج يغطون في سبات عميق.

❑ وأخيرًا:

«لقد قاتل رسول اللَّه ﷺ قومه وقبيلته، وعادى من عادى الإسلام، وسالم من سالمه، وعرَّض نفسه للموت في ساحات القتال مجاهدًا[١]، وضحَّى بالأقربين من أهله وبنفسه، وتحمَّل المسئوليات الجسام التي تنوء بحملها العصبة أولو القوة من أفذاذ الرجال، واستأثر لنفسه بالأخطار، وآثر رجاله بالأمن.

يا لله أيبذل بشر من ذات نفسه، ووقته، وجهده، مثل هذا البذل؟!

(١) قاد النبي ﷺ ثمان وعشرين غزوة، وقد نشب القتال بين المسلمين الذين بقيادته، وبين المشركين ويهود في تسع غزوات، بينما رجع المسلمون في تسع عشرة غزوة من تلك الغزوات بدون قتال.

أيضحي إنسان بماله، ونفسه، وأهله، وقومه، مثل هذه التضحية؟!

أيجاهد رجل بما يملك من مالٍ، ونفس، وغال،،ورخيص، مثل هذا الجهاد؟!

أيستطيع أحد أن يتحمل كل هذا البذل، والتضحية، والجهاد؟!

إن المرء حين يستوعب هذه الأمثلة الرائعة المذهلة من بذله، وتضحيته، وجهاده ﷺ يكاد يُصعَق بروعتها، وبهائها، وجلالها، فكيف به لو استوعب كل تفاصيل ما بذله من تضحية وجهادٍ في سبيل الله؟»[١]

ونختم بقول رسول اللَّه ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي**[٢]**، ولينفذن اللَّه أمره**»[٣].

قال ابن حجر في «الفتح» (٥/٣٩٩): «كنى بذلك عن القتل؛ لأن القتيل تنفرد مقدمة عنقه. وقال الداودي: المراد الموت؛ أي: حتى أموت وأبقى متفردًا في قبري. ويحتمل أن يكون أراد أنه يقاتل حتى ينفرد وحده في مقاتلتهم. وقال ابن المنير: لعلَّه ﷺ نبَّه بالأدنى على الأعلى؛ أي: إن لي من القوة باللَّه والحول به ما يقتضي أن أقاتل عن دينه لو انفردت، فكيف لا أقاتل عن دينه مع وجود المسلمين، وكثرتهم، ونفاذ بصائرهم في دين اللَّه ـ تَعَالَى».

❊ ❊ ❊

(١) بين العقيدة والقيادة، للواء الركن محمود شيت خطاب ص (١٥٢، ١٥٣) دار الفكر.

(٢) السالفة: هي صفحة العنق.

(٣) جزء من حديث البخاري عن المسور بن مخرمة، ومروان رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

٢

نبي بني إسرائيل وفتى موسى: يوشع بن نون، وعلو قدمه في الجهاد ﷺ، ونبأه العجيب

انظر إلى علو همة فتى موسى، ونبي اللَّه يوشع بن نون عليه السلام، وكم الفرق بينه وبين بني إسرائيل الذين قالوا لنبي اللَّه موسى: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ (٢٤)﴾. أما يوشع فكان له الخبر العجيب وأراد جمع همٍّ من يخرج معه من المحاربين على الجهاد فقط، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنمًا، أو ـ خلفات ـ وهو ينظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر، أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور؟ اللهم احبسها علينا، فحُبست حتى فتح اللَّه عليه، فجمع الغنائم، فجاءت النار لتأكلها، فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غُلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يدُ رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين ـ أو ثلاثة ـ بيده، فقال: فيكم الغُلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحلَّ اللَّه لنا الغنائم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**ما حُبست الشمس على بشر قط؛ إلَّا على يوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم.

(٢) إسناده جيد: رواه أحمد (٢/٣٢٥)، والخطيب (٩/٩٩)، وعنه ابن عساكر، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٢٦) (٥/٢٦٦، ٢٦٧): «وهذا إسناد جيد على شرط البخاري. وقد أخرجه هو ومسلم من طريق أخرى عن أبي هريرة بنحوه مطوَّلًا».

٣

نبي الله داود
من أشجع الرماة وهو أعبد البشر

قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

قال ابن كثير: لما واجه حزب الإيمان ـ وهم قليل من أصحاب طالوت ـ لعدوهم أصحاب جالوت ـ وهم عدد كثير ـ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أي: أنزل علينا صبرًا من عندك، ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

قال الله ـ تعالَى ـ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم، ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله...، ثم قال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين؛ كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا[١] ا.هـ.

وقال ﷺ: «**كان داود أعبد البشر**»[٢]، وهو بهذا يقيم الحجة على الذين فرقوا بين العبادة والجهاد في سبيل الله.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٢٣، ٤٢٤)، طبعة أولاد الشيخ.

(٢) حسن: رواه الترمذي، والحاكم في «المستدرك» عن أبي الدرداء، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٠٧)، و«صحيح الجامع» (٤٤٥٣).

٤

طلب نبي الله سليمان الولد للجهاد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ: «**لأطوفن الليلة على مئة امرأة ـ أو تسع وتسعين ـ كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق. والذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون**»[1].

فلم يشغله ملكه وسلطانه عن الجهاد في سبيل الله، بل تمنى الولد للجهاد في سبيل اللَّه؛ وليكونوا في ميزان حسناته، وهو حجة على أغنياء الأمة الذين ابتلوا بالترف وهم مع هذا لا يملكون من ملك داود جناح بعوضة، ومالوا عن الطريق القويم، ولم يحدثوا أنفسهم وهم على فرشهم الوثيرة بحديث الغزو الجهاد، فما بين الهمتين أبعد مما بين الثرى والثريا ـ بل معاذ اللَّه من مجرد المقارنة.

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب من طلب الولد للجهاد (٢٨١٩)، [٦/٤١ ـ الفتح].



صحابة رسول الله ﷺ

رهبان بالليل فرسان بالنهار

صحابة رسول الله ﷺ
رهبان بالليل فرسان بالنهار

صحابة رسول الله ﷺ هم الجيل القرآني الفريد الذي لا يجود الزمان بمثله أبدًا، وهم أفضل الناس بعد الأنبياء.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير أمتي القرن الذي بُعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يخلف قوم يحبون السَّمانة، يشهدون قبل أن يُستشهدوا»**(٢).

وقال رسول الله ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد**(٣) **أحدهم ولا نصيفه**(٤)**»**(٥).

وقال رسول الله ﷺ:

«يأتي على الناس زمان يغزو فئام(٦) **من الناس فيُقال: فيكم من صاحَب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيُقال لهم: هل فيكم من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم، ثم يأتي على**

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) هو مكيال؛ وهو: رطل وثلث عند أهل الحجاز، ورطلان عند أهل العراق.

(٤) نصيفه: أي: نصفه.

(٥) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي عن أبي سعيد، ومسلم، وابن ماجه عن أبي هريرة.

(٦) الفئام: أي: الجماعة الكثيرة.

الناس زمان، فيغزو فئام من الناس، فيُقال لهم: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب الرسول؟ فيقولون: نعم، فيُفتح لهم»[١].

قال ابن مسعود ﷺ: «إن اللَّه نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ»[٢]، هُم عباد اللَّه الذين اصطفى؛ كما قال سفيان: اختارهم اللَّه على الثقلين سوى النبيين والمرسلين، كانوا خير هذه الأمة: أبرها قلوبًا، أعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا.

عن عروة قال: **«لما تدانى العسكران يوم اليرموك بعث القبقلار رجلًا عربيًّا... فذكر الحديث وفيه: فقال: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان»**[٣].

ولله در ابن القيم:

القانتون المخبتون لربهم ... الناطقون بأصدق الأقوال
يحيون ليلهمُ بطاعة ربهم ... بتلاوة وتضرع وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم ... مثل انهمال الوابل الهطال
في الليل رهبانٌ وعند جهادهم ... لعدوهم من أشجع الأبطال
وإذا بدا علمُ الرِّهان رأيتهم ... يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود لربهم ... وبها أشعة نوره المتلالي
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم ... في سورة الفتح المبين العالي
وبرابع السبع الطِّوال صفاتهم ... قوم يحبهم ذو إدلال
وبراءة والحشر فيها وصفهم ... وبهل أتى وبسورة الأنفال[٤]

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي سعيد.
(٢) التبصرة، لابن الجوزي (١/٤٧٧).
(٣) تاريخ الطبري (٢/٦١).
(٤) إغاثة اللهفان، لابن القيم.

٥

الخليفة الأول

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

الصديق الأكبر ثاني اثنين في الشجاعة والرجولة

وهو من الدين السمع والبصر

صديق هذه الأمة قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَالَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ **[الزمر: ٣٣].**

٥

الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه

الصديق الأكبر ثاني اثنين في الشجاعة والرجولة وهو من الدين السمع والبصر صديق هذه الأمة قال اللَّه ـ تعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

«كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه **يحلف باللَّه أن اللَّه عز وجل أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق**»(١).

أنا مولاي إمامٌ ضحكت ... من ثنايا فضله آي الزُّمَرْ
صدَّق المرسل إيمانًا به ... ولحا في اللَّه من كان كفرْ
ثم بالغار له منقبةٌ ... خصه اللَّه بها دون البشرْ
ثاني اثنين وقول المصطفى ... معنا اللَّه فلا تُبدي الحذرْ

وهو الذي ذبَّ عُقبة شيطان قريش عن رسول اللَّه ﷺ، ودفعه عن النبي:

قال عروة بن الزبير ـ رحمه اللَّه ـ: سألت عبداللَّه بن عمرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن أشد ما صنع المشركون برسول اللَّه ﷺ، فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته؟

فقال عبدالله: بينا النبي ﷺ يُصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر، فقام دونه، وهو يبكي، حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾(٢) [غافر: ٢٨].

---

(١) التبصرة، لابن الجوزي (١/٣٩٨).

(٢) إسناده صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٧٨)، (٣٨٥٦)، وأحمد (٢/٢١٨)، وابن أبي شيبة (٨/٤٤١) في «مصنفه»، وابن حبان (٦٥٣٥)، والطبري (٢/٣٣٢، ٣٣٣)، وأبو نعيم في «الدلائل»، ص (٦٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٢٧٥، ٢٧٦)، وأبو يعلى، والطبراني.

وقيل لأسماء بنت أبي بكر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول اللَّه ﷺ؟

قالت: كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول اللَّه ﷺ، وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ أقبل رسول اللَّه ﷺ، فقاموا إليه بأجمعهم، فتشبثوا به، فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا، وإن له غدائر أربع، فدخل المسجد، وهو يقول: ويلكم، أتقتلون رجلًا أن يقول ربي اللَّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم.

قال: فلهوا عن رسول اللَّه ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئًا من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام[1]، فأبو بكر هو الرجل الكامل في الرجولية حين يغضب لله ولرسوله ﷺ.

❑ وهو ثاني اثنين

سبقت للصديق من ربه الحسنى، واختاره الرسول ﷺ لصحبته في الهجرة،قال ـ تَعَالَى ـ:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الشعبي: عاتب اللَّه أهل الأرض جميعًا في هذه الآية، غير أبي بكر.

قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر: «**إن اللَّه قد أذن لي في الخروج والهجرة**». قالت عائشة: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: «**الصحبة**»، قالت: فوالله، ما شعرت قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي.

---

(١) إسناده حسن: أخرجه الحميدي في «مسنده» (٣٢٤)، وأبو يعلى، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٣١، ٣٢).
وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/١١٧): رواه أبو يعلى بإسناد حسن.
والغدائر: جمع غديرة، وهي الذوائب من الشعر.

غلب السرور عليَّ حتى إنني   من فرط ما قد سرَّني أبكاني

هذا والله، بكاء الرجال. لقد كانت تحفة ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ مُدَّخرة للصديق، قال ابن حجر في «الفتح» (١٢/٧): «فُضِّل أبو بكر؛ لأنه انفرد بهذه المنقبة، حيث صاحب رسول اللَّه ﷺ في تلك السَّفرة، ووقاه بنفسه».

«فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن الرسول ﷺ مات من أثر السم، وأبو بكر مات، سُمَّ فمات، وقد كان الصديق ﷺ، ثاني اثنين في يوم بدر.

وقد جمع اللَّه بينهما في التربة؛ كما جمع بينهما في الحياة. فانظر إلى سر الاقتران: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] لفظًا وحُكمًا ومعنى، إذ يُقَال: رسول الله، وصاحب رسول الله، فلما مات قيل: خليفة رسول الله. ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل: أمير المؤمنين»[1].

تظهر جندية الصديق الرفيعة العالية في رفقته لرسول اللَّه ﷺ، وحبه البالغ لرسول اللَّه ﷺ، وشجاعته التي لا تدانيها شجاعة، وخوفه البالغ على الدعوة والإسلام ورسول اللَّه ﷺ أن يراه المشركون وهو في الغار، وما كان الصديق ساعتئذ بالذي يخشى على نفسه الموت، ولو كان كذلك ما رافق رسول اللَّه ﷺ في هذه الهجرة الخطيرة، وهو يعلم أن أقل جزائه القتل إن أمسكه المشركون مع رسول اللَّه ﷺ، ولكنه كان يخشى على حياة الرسول الكريم.

صاحب القائم المتوج بالفر   قان، بوركت صاحبًا ووزيرا
أنت واليته وعاديت فيه   من توخى الأذى وأبدى النفورا
أي رأس حملت يا حامل الإيمـ   ـان سمحًا، والبِرَّ صَفْوًا طهورًا؟

لمزايا أبي بكر التي لا يشاركه فيها أحد من البشر كان هو أحب الناس إلى المسلمين بعد الرسول ﷺ.

---

(١) الفوائد، لابن القيم ص (٢٧٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٨/٤).

فإذا أحب اللَّه باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد إليه بالأرواح

طار واللَّه صديق الأمة بعنائها، وفاز بحبائها، وذهب بفضائلها، وأدرك سوابقها، كانت فضائله مستورة بنقاب: «**ما سبقكم أبو بكر بصوم، ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره**» فهي مجانسة لمنقبة: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⑩﴾، قال رسول اللَّه ﷺ: هذان السمع والبصر؛ يعني: أبا بكر وعمر[1].

وقال ﷺ: «**هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين لا تخبرهما يا علي**»؛ يعني: أبا بكر وعمر[2].

❑ جهاد الصديق:

قال ابن كثير: «لم يختلف أهل السير في أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في مشهد من مشاهده كلها»[3].

وذكر أهل العلم بالتاريخ والسير أن أبا بكر شهد مع النبي ﷺ بدرًا والمشاهد كلها، ولم يفته منها مشهد، وثبت مع رسول اللَّه ﷺ يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه النبي ﷺ رايته العظمى يوم تبوك وكانت سوداء»[4].

أبو بكر في بدر الكبرى أشجع الناس بعد رسول اللَّه ﷺ

❑ مشورة الحرب

لما بلغ رسول اللَّه ﷺ نجاة القافلة، وإصرار زعماء مكة على قتال النبي ﷺ استشار

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، والحاكم في «المستدرك» عن عبدالله بن حنطب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠٠٤)، «والصحيحة» رقم (٨١٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أنس وعلي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠٠٥)، «والصحيحة» رقم (٨٢٢).

(٣) أسْد الغابة (٣/٣١٨)، والبداية والنهاية.

(٤) الطبقات الكبرى (١/١٢٤)، وصفة الصفوة (١/٢٤٢).

رسول اللَّه ﷺ أصحابه في الأمر[١]، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن[٢].

❑ دوره في الاستطلاع مع النبي ﷺ

كان للصديق لقربه البالغ من النبي الذي لم يشاركه أحد فيه دورًا هامًّا قبل نشوب القتال، فلقد قام بدور هام في الاستطلاع إذ قام مع النبي ﷺ يستكشف أحوال جيش المشركين، ولقياهما لشيخ من العرب أخبرهما بالمكان الذي فيه جيش المشركين[٣].

❑ ثاني اثنين في عريش بدر

عندما رتب النبي ﷺ الصفوف للقتال رجع إلى مقر القيادة، وكان عبارة عن عريش على تل مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر.

«**قال علي بن أبي طالب: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزني أحد إلا انتصفتُ منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول اللَّه ﷺ** عريشًا، فقلنا: من يكون مع رسول اللَّه ﷺ؛ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله، ما دنا منه أحد إلا أبا بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول اللَّه ﷺ لا يهوي إليه أحد من المشركين إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس»[٤].

وفي عريش بدر جعل النبي يدعو ربه ويستغيث به: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا**»، وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر وردَّه على منكبيه وهو يقول: يا

---

(١) صحيح البخاري رقم (٣٩٥٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٤٤٧).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٨).

(٤) البداية والنهاية، لابن كثير (٣/٢٧١، ٢٧٢).

رسول الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك»[١].

وقد خفق النبي ﷺ خفقة وهو في العريش، ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر اللَّه هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع[٢]. ثم خرج رسول اللَّه إلى الناس فحرَّضهم[٣].

وقد قاتل ﷺ بنفسه قتالاً شديدًا وكان بجانبه الصديق[٤].

وقد ظهرت من الصديق شجاعة وبسالة منقطعة النظير، وكان على استعداد لقتل كل كافر عنيد ولو كان ابنه، وقد شارك ابنه عبدالرحمن في هذه المعركة مع المشركين، وكان من أشجع الشجعان بين العرب، ومن أنفذ الرماة سهمًا في قريش، فلما أسلم قال لأبيه: لقد أهدفت لي[٥] يوم بدر فملتُ عنك ولم أقتلك، فقال له أبو بكر: ولكنك لو أهدفت لي لم أمل عنك[٦].

❑ الصديق في يوم أحد وحمراء الأسد

في يوم أحد تلقى المسلمون درسًا صعبًا، فقد تفرقوا من حول النبي ﷺ، وتبعثر الصحابة في أرجاء الميدان، وشاع أن الرسول ﷺ قُتِل، وكان ردُّ الفعل على الصحابة متباينًا، وكان الميدان فسيحًا وكل مشغول بنفسه، وشق الصديق الصفوف، وكان أول من وصل إلى رسول اللَّه ﷺ، واجتمع إلى رسول اللَّه ﷺ أبو بكر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعلي، وطلحة، والزبير، وعمر بن الخطاب، والحارث بن الصِّمة، وأبو دجانة، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم، وقصدوا مع رسول اللَّه ﷺ الشعب من جبل

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر رقم (١٧٦٣) (٣/١٣٨٤).

(٢) النقع: الغبار.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٤٥٧).

(٤) البداية والنهاية (٣/٢٧٨).

(٥) أي ظهرت أمامي كهدف.

(٦) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص (٩٤).

أحد في محاولة لاسترداد قوتهم المادية والمعنوية[١].

وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك يوم كله لطلحة، ثم أنشأ يحدِّث، قال: كنت أول من فاء يوم أحد، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل اللَّه دونه، قال: قلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني، وكان بيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول اللَّه ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه فإذا هو أبو عبيدة، فانتهينا إلى رسول اللَّه ﷺ وقد كُسِرت رباعيته وشُجَّ وجهه، وقد دخل في وجنتِه حلقتان من حلق المغفر، قال رسول اللَّه ﷺ عليكما صاحبكما - يريد طلحة - وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، قال: ذهبت لأنزع من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسم عليك بحقي لما تركتني فتركته، فكَرِه تناولها بيده فيؤذي رسول اللَّه ﷺ، فأرزم عليها بفيه، فاستخرج إحدى الحلقتين ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتمًا... فأصلحنا من شأن رسول اللَّه ﷺ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة، ورمية، وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه[٢].

وأمر الرسول ﷺ المسلمين مع ما بهم من جراحات أن يخرجوا في أثر المشركين في حمراء الأسد.

عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنها سُئِلت عن هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢]. فقالت لعروة بن الزبير: يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير، وأبو بكر، لما أصاب رسول اللَّه ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: **«من يذهب في إثرهم»**، فانتدب منهم سبعون رجلًا، كان فيهم أبو

(١) مواقف الصديق مع النبي ﷺ في المدينة، للدكتور عاطف لماضة ص (٢٧).
(٢) منحة المعبود (١٩/٢)، نقلًا عن تاريخ الدعوة الإسلامية في زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، لجميل عبدالله المصري ص (١٣٠). مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

بكر، والزبير[١].

❑ الصديق في غزوة بني المصطلق

أراد بنو المصطلق أن يغزوا المدينة، فخرج لهم رسول اللَّه ﷺ في أصحابه، فلما انتهى إليهم دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، ويُقال: إلى عمار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، ثم أمر عمر بن الخطاب، فنادى في الناس أن قولوا: لا إله إلا اللَّه تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فأبوْا، فتراموا بالنبل، ثم أمر رسول اللَّه ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم رجل واحد، وقُتِل منهم عشرة وأُسِر سائرهم، ولم يُقتَل من المسلمين سوى رجل واحد[٢].

❑ في الخندق وبني قريظة

كان الصديق في الغزوتين مرافقًا للنبي ﷺ، وكان يوم الخندق يحمل التراب في ثيابه، وساهم مع الصحابة للإسراع في إنجاز حفر الخندق[٣].

❑ في الحديبية لله در الصديق... وماذا قال لعروة بن مسعود الثقفي:

وفي الحديبية في سنة ست من الهجرة لما جمعت قريش جموعها؛ لصد النبي ﷺ والصحابة عن البيت، فقال النبي ﷺ: «**أشيروا عليَّ أيها الناس**»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد حربه أو قتل أحد، فتوجَّه له، فمن صدَّنا عنه قاتلناه. قال: «**امضوا على اسم الله**»، وقد ثارت ثائرة قريش، وحلفوا أن لا يدخل الرسول ﷺ مكة عنوة، ثم قامت المفاوضات بين أهل مكة ورسول اللَّه ﷺ وقبلها، قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّةً يعظمون فيها حرمات اللَّه إلا أعطيتهم إياها**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧)، ومسلم (٢٤١٨).
(٢) البداية والنهاية (١٥٧/٤).
(٣) مواقف الصديق مع النبي ﷺ في المدينة ص (٣٢).
(٤) جزء من حديث عند البخاري رقم (٢٧٣٢)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.

وانظر إلى غاية العزة الإيمانية والرد الصارم من البطل الصديق لما قال عروة بن مسعود لرسول اللَّه ﷺ حين أرسلته قريش إلى النبي ﷺ في الحديبية: «أيْ محمد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى، فإني والله، لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشوابًا [١] من الناس خليقًا [٢] أن يفِرُّوا ويَدَعوك [٣]. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات [٤]، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟ فقال: مَن ذا؟ قال: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزِك بها لأجبتك» [٥].

❑ كمال الصديقية عند صديق الأمة الأكبر يوم الحديبية وما قاله لعمر ابن الخطاب:

في يوم الحديبية عزَّ على عمر بن الخطاب أن يقبل رسول اللَّه ﷺ شروط قريش، وذلك لأنه قاس الأمر برأيه [٦]، وأتى عمر النبي ﷺ فقال: ألست نبي اللَّه حقًّا؟ قال:

---

(١) الأشواب: الأخلاط من أنواع شتى، والأوباش ـ وهي رواية في الحديث كما صرح القسطلاني ـ: الأخلاط من السفلة، فالأوباش أخصُّ من الأشواب.

(٢) خليقًا: أي: حقيقًا.

(٣) يدعوك: أي: يتركوك.

(٤) امصص بظر اللات: اللات: طاغية عروة الذي يعبد. والبظر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة. واللات: اسم أحد الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم بذلك، لكن بلفظ الأم، فأراد أبو بكر المبالغة في سبِّ عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة المسلمين إلى الفرار.
وفيه جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك.
وقال ابن المنير: في قول أبي بكر تخسيس للعدو، وتكذيبهم، وتعريض بإلزامهم من قولهم إن اللات بنت الله ـ تَعَالَى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ، بأنها لو كانت بنتًا لكان لها ما يكون للإناث.

(٥) جزء من حديث البخاري رقم (٢٧٣٢).

(٦) ولذا قال عمر رضي الله عنه بعد ذلك: «اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردُّ أمر رسول الله ﷺ برأي، وما ألوتُ عن الحق». وعند ابن إسحاق قال عمر: ما زلت أتصدق، وأصوم، وأصلي، وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به. وعند الواقدي: قال عمر: لقد أعتقت بسبب ذلك رقابًا وصمتُ دهرًا.

«**بلى**»، قلتُ: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «**بلى**»، قلت: فلم نعطي الدَّنية في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري**»، قلتُ: أوَ لَيسَ كنت تحدَّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أن نأتيه العام؟**»، قال: قلت: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطوِّف به**»، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي اللّه حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذًا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول اللّه ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرره[1]، فوالله، إنه على الحق. قلتُ: أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوَّف به»[2].

قال ابن حجر في «**الفتح**» (٥/٤٠٨): «لم يذكر عمر أنه راجع أحدًا في ذلك بعد رسول اللّه ﷺ غير أبي بكر الصديق: وذلك لجلالة قدره وسعة علمه عنده، وفي جواب أبي بكر لعمر بنظير ما أجابه النبي ﷺ سواء دلالة على أنه كان أكمل الصحابة، وأعرفهم بأحوال رسول اللّه ﷺ، وأعلمهم بأمور الدين، وأشدهم موافقة لأمر اللّه ـ تَعَالَى ـ. وقد وقع التصريح في هذا الحديث بأن المسلمين استنكروا الصلح المذكور، وكانوا على رأي عمر في ذلك، وظهر من هذا الفصل أن الصديق لم يكن في ذلك موافقًا لهم، بل كان قلبه على قلب رسول اللّه ﷺ سواء. وسيأتي في الهجرة أن ابن الدغنة وصف أبا بكر بنظير ما وصفت به خديجة رسول اللّه ﷺ من كونه يصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويعين على نوائب الحق، وغير ذلك، فلما كانت صفاتهما متشابهة من الابتداء استمر ذلك إلى الانتهاء».

كان جواب الصديق مثل جواب النبي ﷺ ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي

---

(١) الغرر للإبل بمنزلة الركب للفرس، والمراد التمسك بأمره، وترك المخالفة له؛ كالذي يمسك بركب الفارس فلا يفارقه.

(٢) جزء من حديث البخاري رقم (٢٧٣٢).

ﷺ، فكان أبو بكر أكمل موافقة لله وللنبي ﷺ من عمر، مع أن عمر رضي الله عنه مُحدَّث، ولكن مرتبة الصدِّيق فوق مرتبة المحدث؛ لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله[١].

قال الصديق ـ فيما بعد ـ عن الحديبية: «ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعْجلون، واللَّه لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد، ولقد نظرت إلى سهيل بن عمرو[٢] في حجة الوداع قائمًا عند المنحر يقرِّب إلى رسول اللَّه ﷺ بدنة، ورسول اللَّه ﷺ ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، وأنظر إلى سُهيل يلتقط من شعره، وأراه يضعه على عينه، وأذكر إباءه أن يُقِرَّ يوم الحديبية بأن يكتب: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»، ويأبى أن يكتب: محمد رسول اللَّه ﷺ، فحمدتُ اللَّه الذي هداه للإسلام»[٣].

❑ في غزوة خيبر:

ضرب رسول اللَّه ﷺ حصارًا على خيبر واستعدَّ لقتالهم، فكان أول قائد يرسله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه إلى بعض حصون خيبر، فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح، ثم فتح اللَّه على يد عليٍّ بن أبي طالب، وأشار الصديق على النبي بعدم قطع النخيل لما في ذلك من الخسارة للمسلمين سواء فُتِحت خيبر عُنوة أو صلحًا، فقبل النبي ﷺ مشورة الصديق، ونادى المسلمين بالكف عن قطع النخيل فرفعوا أيديهم[٤].

❑ في نجد:

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: بعث رسول اللَّه ﷺ أبا بكر إلى نجد وأمَّره علينا،

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية (١١/١١٧).
(٢) هو الذي فاوض رسول الله ﷺ في الحديبية، واشتد في شرطه.
(٣) كنز العمال (٣٠١٣٦).
(٤) المغاري، للواقدي (٢/٦٤٤).

فبيَّتنا ناسًا من هوازن، فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات، وكان شعارنا أمت أمت [١].

❏ سرية أبي بكر إلى بني كلاب بضُرِيَّة بنجد.

كانت هذه السرية بقيادة أبي بكر إلى بني كلاب بضُرِية بنجد في شعبان من السنة السابعة، وهرب المشركون، وسبي قسم منهم.

جرّد السيف أبا بكر فما ... طُبِع[٢] السيف ليبقى مُغمدا
تلك نجدٌ خيّم الكفر بها ... فاستعن باللَّه واذهب منجدا
جاهد القوم وزلزل دينهم ... أين دينُ الكفر من دين الهُدى؟
سرتَ في بأسٍ بعيد المرتمَى ... ما له في اللَّه حدٌّ أو مَدَى
إنها الحرب فسر لا تتَّئِد ... ودعِ السيف وأعناق العَدى
فارْمِ بابن الأكوع القوم فما ... خُلق المِخْلَبُ للَّيث سُدَى
هَدَّهم أسرًا وسَبْيًا وسقَى ... من سقى منهم أفاويق[٣] الرَّدَى
جال فيهم جولة عاصفة ... فهووا صرعى وأمسَوْا هُمَّدَا
صدفوا عن ربهم سبحانه ... وأبَوْا أن يُتَّقى أو يُعبَدا
فجزاهم من نكالٍ ما لقوْا ... وي كأن اللَّه يجزي المفسدا
كذب الجهّال فيما زعموا ... ما المباتير[٤] المواضي كالمُدى

❏ سرية أبي بكر إلى بني فزارة:

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: خرجنا مع أبي بكر بن أبي قحافة، وأمَّره النبي ﷺ علينا، فغزونا بني فزارة، فلما دنونا من الماء أمرنا أبو بكر فعرسنا، فلما صلينا الصبح أمرنا أبو بكر فشننا الغارة، فقاتلنا على الماء من مَرَّ قبلنا.

قال سلمة: ثم نظرت إلى عنق من الناس فيه الذرية والنساء نحو الجبل، فرميت

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (١/١٢٤)، وأبو داود في «سننه»، باب البيات (٣/٤٣).
(٢) طبع السيف: عمله وصاغه.
(٣) أفاويق: جمع فيقة؛ وهي: اللبن يجتمع بين الحلبتين.
(٤) المباتير: حمع مِبتار؛ وهي: صيغة مبالغة من الباتر؛ أي: القاطع.

بسهم فوقع بينهم وبين الجبل. قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر حتى أتيته على الماء، وفيهم امرأة عليها قشع من أدم، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلني أبو بكر، فما كشفت لها ثوبًا حتى قدمت المدينة، ثم بت فلم أكشف لها ثوبًا، فلقيني رسول اللَّه ﷺ في السوق، فقال لي: يا سلمة، هب لي المرأة، قال: فقلت: واللَّه يا رسول الله، لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوبًا، قال: فسكت رسول الله، وتركني حتى إذا كان من الغد لقيني رسول اللَّه ﷺ في السوق، فقال لي: يا سلمة، هب لي المرأة، قال: فقلتُ: واللَّه يا رسول الله، واللَّه ما كشفت لها ثوبًا، وهي لك يا رسول الله، قال: فبعث بها رسول اللَّه ﷺ إلى أهل مكة، وفي أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول اللَّه بتلك المرأة(١).

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزوتُ مع النبي ﷺ سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزوات: مرة علينا أبو بكر، ومرة علينا أسامة(٢).

قال ابن حجر في «الفتح» (٥٩١/٧): أما البعوث فسرية أبي بكر الصديق إلى بني فزارة كما ثبت من حديثه عند مسلم، وسريته إلى بني كلاب ذكرها ابن سعد، وبعثه إلى الحج سنة تسع.

❑ في سرية ذات السلاسل:

بعث رسول اللَّه عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر، وعمر، وسراة(٣) أصحابه.

عن عبداللَّه بن بريدة قال: «بعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل وفيهم أبو بكر وعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -. فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا يثوروا نارًا، فغضب عمر وهمَّ أن يأتيه فنهاه أبو بكر، وأخبره أن

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤٣٠/٤)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٦٤/٤).
(٢) رواه البخاري (٤٢٧٠)، كتاب المغازي، باب بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات.
(٣) سراة أصحابه: أي: شرفاء أصحابه.

الرسول ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، فهدأ عنه عمر»(١).

هنا تلوح جندية الصديق، وانضباطه، وطاعته لقائده، وتقديره واحترامه له.

❑ وقبل فتح مكة:

لما جاء أبو سفيان إلى رسول اللَّه ﷺ طالبًا تجديد العقد وزيادة المدة، وطلب ذلك من أبي بكر، قال أبو بكر: جواري في جوار رسول الله، والله، لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم(٢).

❑ الصديق يوم فتح مكة:

لما دخل النبي ﷺ مكة كان بجانبه أبو بكر، رأى النساء يلطمن وجوه الخيل، فابتسم إلى أبي بكر ﷺ، وقال: «**يا أبا بكر، كيف قال حسان؟**»

فأنشد أبو بكر:

عَدِمنا خيلنا إن لم تروْها ... تُثير النَّقْع موعدها كَدَاءُ

يبارِيْنَ الأسنَّة مُصغيات ... على أكتافها الأسلُ الظباءُ

تظل جيادُنا متمطِّرات ... تلطمهُنَّ بالخُمُرِ النساءُ

فقال النبي ﷺ: «**ادخلوها من حيث قال حسان**»(٣).

❑ في حنين:

لم يثبت مع النبي ﷺ إلَّا قلة، ولم تكن الفئة التي صبرت مع النبي ﷺ إلا فئة من الصحابة يتقدمها الصديق رضي الله عنه، ثم نصرهم اللَّه بعد ذلك نصرًا، عزيزًا، مؤزرًا(٤).

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك»، وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح. كتاب المغازي (٣/٤٢).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية ص (١٤٥).

(٣) الحاكم في «المستدرك» (٣/٧٢) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، والطبري في «تاريخه» (٣/ ٤٢).

(٤) مواقف الصديق مع النبي في المدينة (٤٣).

❏ وفي تبوك.

تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول اللَّه ﷺ، واختار رسول اللَّه ﷺ الأمراء والقادة، وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه[١].

ولما حثَّ رسول اللَّه على الانفاق في تبوك «تصدق عمر بن الخطاب بنصف ماله، وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، ونترك الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك؛ حيث قال: أمرنا رسول اللَّه ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم اللَّه ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا»[٢].

كان فعل عمر فيما فعله من المنافسة والغبطة مباحًا، ولكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل؛ لأنه خال من المنافسة مطلقًا، ولا ينظر إلى غيره[٣].

❏ الصديق أمير الحج سنة ٩هـ:

في عام ٨هـ كلِّف بإمارة الحج عُتَّاب بن أسيد، ولم تكن تميزت حجة المسلمين عن حجة المشركين[٤].

فلما حل موسم الحج في السنة التاسعة أرسل النبي ﷺ الصديق أميرًا على الحج، فخرج أبو بكر بركب الحجيج، ونزلت سورة براءة، فدعا النبي ﷺ عليًا رضي الله عنه، وأمَره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول اللَّه ﷺ العضباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي حليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور،

---

(١) صفة الصفوة (١/٢٤٣).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود في «سننه»، كتاب الزكاة (٢/٣١٢، ٣١٣)، (ح/١٦٧٨)، وحسنه الألباني.

(٣) الفتاوى، لابن تيمية (١٠/٧٢، ٧٣).

(٤) دراسات في عهد النبوة، لعماد الدين خليل، ص (٢٢٢).

ثم سار، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وعرف الناس مناسكهم في وقوفهم، وإفاضتهم، ونحرهم ونقرهم، ورميهم للجمرات.. إلخ، وعلي بن أبي طالب يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة، ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول اللَّه ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج بعد العام مشرك[١].

وكانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع[٢]، لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، فأخذت العرب ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد.

❑ **الشجاعة في ذروتها العليا وقمتها السامقة شجاعة الصديق وثباته يوم موت الرسول ﷺ، فثبت اللَّه به الأمة بأسرها:**

«من شاء أن يرى إيمان أبي بكر في أحفل ساعاته... من شاء أن يرى الإيمان العلوي الموصول بقيوم السماوات والأرض، فلير هذا الإيمان يوم دُعي الرسول إلى الرفيق الأعلى، يوم تلفَّت المسلمون فجأة، فلم يروا بينهم «**الأب**» الذي كان يملأ حياتهم حنانًا، والنور الذي كان يملأ وجودهم ضياء. يومئذ تكشف جوهر هذا الإيمان. إيمان رجل رباني، أعطى اللَّه موثقه مع محمد ﷺ، فإذا اختفى محمد ﷺ بالموت، فإن هذا الإيمان لا يضعف، بل يتفوَّق... ولا يجزع، بل يحتشد.. ولا ينوء تحت وقع الضربة، بل ينهض أيِّدًا، رشيدًا، ثابتًا؛ ليحمل مسئولياته وتبعاته..!!

وهكذا وقف «**أبو بكر**» أو بتعبير أحجى، وقف إيمان أبي بكر يوم وفاة الرسول وقفة ما كان يقدر عليها سواه..!!

---

(١) صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم صالح العلي ص (٦٢٥)، دار النفائس.
(٢) السيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/٥٤٠).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما تُوفيِّ رسول اللَّه ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول اللَّه ﷺ قد تُوفي، وإن رسول اللَّه ﷺ والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه؛ كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل، واللَّه ليرجعن رسول الله؛ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات!!

قال: وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول اللَّه ﷺ في بيت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، ورسول اللَّه ﷺ مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول اللَّه ﷺ، ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال:

بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب اللَّه عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا.

قال: ثم ردَّ البرد على وجه رسول اللَّه ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر، أنصِت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا يُنصت، أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن اللَّه حي لا يموت، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال: فوالله، لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها أبو بكر يومئذ، قال: وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم، قال عمر: فوالله، ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرت[1] حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت

(١) عُقِرت: أي: ذُهلْت وتحيرت.

أن رسول اللَّه ﷺ قد مات»[١].

وفي رواية عائشة قالت: «فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله، ثم بكى، فقال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع اللَّه عليك موتتيْن، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها»[٢] كُتب على الناس أن يسمعوا في لجج من الهول والأسى كلمة الموت مقترنة بالرسول، فطار منهم صوابهم، ولقد كان أبو بكر أحق الناس بأكبر قدر من الأسى والذهول. ولكن ثبات أبي بكر هو الثبات الذي ما بعده ثبات.

أفي هذه اللحظات الذاهلة، والفاجعة المزلزلة يكون مثل هذا الثبات؟

ولكن البديهة المؤمنة التي تشبه عين الصقر وقعت في أقل من لمح البصر على كلمة السر التي سترد الهمم المنسحقة تحت وطأة الفاجعة إلى وعي قدير يستقبل تبعاته الجسام، ويعبر أزمة الموت بسلام..!!!

ولم تكن كلمة السر سوى هذه الصيحة الحاسمة الفاصلة: «**من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات.. ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت..**»

إذن يا خيل اللَّه اركبي.. ويا راية اللَّه ارتفعي، ويا حملة الراية قوموا.. انهضوا.. واصلوا رحلة الشمس المشرقة، والدين الجديد[٣].

وعن هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

يقول القرطبي: «هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق، وجراءته، فإن الشجاعة والجراءة حدُّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من

(١) حديث صحيح: أخرجه ابن إسحاق (٢٠٩٥)، وأحمد (١/٢٣٤)، والطبري في «تاريخه» (٣/٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤١)، (١٢٤٢)، وأحمد (٦/٢٢٠)، والنسائي (٤/١١)، وابن سعد (٢/٢٦٥).

(٣) خلفاء الرسول، لخالد محمد خالد ص (٦٤، ٦٥)، دار الجيل.

موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه.

قال الناس: لم يمت رسول اللَّه ﷺ، منهم عمر، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

قال عمر: فكأني لم أقرأها إلا يومئذ، ورجع عن مقالته التي قالها.

وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر أبي بكر، وتفوهه بهذه الآية، تنبَّه وتثبت، وقال: كأني لم أسمع بالآية إلا من أبي بكر، وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم»[١].

❑ الصديق الرجل الشاهق الباهر نسيج وحده في الشجاعة، وموقفه من بعث أسامة

لما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وتولى أبو بكر الخلافة، فكان أول أمر أصدره بعد أن تمت له البيعة بالخلافة: «**أنفذوا بعث أسامة**».

«ولكن أسامة رضي الله عنه طلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يرجع إلى المدينة؛ ليستأذن أبا بكر في رجوع الناس قائلًا: «**ارجع إلى خليفة رسول الله، فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس وحدَّهم، ولا آمن على خليفة رسول الله، وثقل رسول اللَّه يتخطفهم المشركون**»[٢].

وأبلغ ابن الخطاب رضي الله عنه رسالة أسامة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائرة وقال: «**لو خطفتني الكلاب والذئاب، لم أرد قضاء قضى به رسول اللَّه ﷺ**».

---

(١) تفسير القرطبي (١٤٤/٤).

(٢) حدُّ الناس: أصحاب النجدة والبأس منهم. وحدُّ الرجل: بأسه ونفاذه في نجدته. الثقل: المتاع، والثقل: الشيء النفيس الخطير. ويريد: أمهات المؤمنين، وآل النبي ﷺ.

كما رفض أبو بكر الصديق رضي الله عنه رفضًا قاطعًا أن يُؤمر على الجيش غير أسامة قائلًا لعمر بن الخطاب: «**استعمله رسول اللَّه ﷺ وتأمرني أن أنزعه؟!**»[١].

وقال الناس لأبي بكر: «**إن هؤلاء جند المسلمين، والعرب على ما ترى، فقد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرِّق جماعة المسلمين عنك**» فأجابهم أبو بكر: «**والذي نفسي بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني، لأنفذت جيش أسامة؛ كما أمر النبي ﷺ**»[٢].

لقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يريد أن يعلم المسلمين أهمية الطاعة وضرورة التحلي بالضبط المتين، فطبق ذلك على نفسه أولًا ملتزمًا بالطاعة إلى أقصى الحدود حتى يستطيع مطالبة غيره بالطاعة.

وكان بعث أسامة العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية، هي في ذلك الحين خير السياسات.

كان قوام تلك السياسة طاعة ما أمر به رسول اللَّه ﷺ، وكانت الطاعة ـ جد الطاعة ـ مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطإ الأكبر في ذلك الحين.

وحيث يكون التمرد الخطأ الأكبر، فالطاعة ـ بل الطاعة الصارمة ـ هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام.

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين بلا مراء!

كان النفاق يطلع رأسه، وكانت القبائل في البادية تتسابق إلى الردة في أنحاء الجزيرة العربية، وكان جند أسامة يودون لو استبدل به أميرًا غيره، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم إياه، ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه.

طاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يُطاع، وهنا تسعف الصديق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه، فيقول وقد خوفوه الخطر على المدينة المنورة، وجيش أسامة يفارقها: «والله، لا أحل عقدة عقدها رسول اللَّه ﷺ! ولو أن

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٦٢).
(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/١٢٧).

الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين؛ لأجهزن جيش أسامة».

لقد رأى أبو بكر رضي الله عنه أن العصمة ـ حق العصمة ـ في رأي واحد لا رأي قبله ولا بعده، وهو الطاعة في غير تردد، ولا هوادة، ولا إبطاء[1].

إن المسألة حين تُقاس بالرأي المجرد لا يبدو الصواب إلا في هذا الرأي الذي تبناه عمر وأسامة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.

ولكن أبا بكر يستمد منطقه من الاتباع الكامل.. وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم اللَّه فيها حكمًا، أو أصدر الرسول فيها أمرًا.

ولقد أمر الرسول عليه السلام قُبيل وفاته أن يُنفذ بعث أسامة، فليكن ما أمر الرسول به، مهما تكن مستحدثات الظروف، ومهما تكن الأخطار التي تهدد المدينة...!!.

وأبو بكر يُؤثر أن تتخطفه الذئاب على أن يرد للرسول ﷺ قضاء، أو يُعطِّل مشيئة.

إن بين الصديق وبين اللَّه عهدًا وموثقًا يتمثلان في إيمانه الراسخ الصامد، والاتباع في أسمى مراتبه للنبي ﷺ.

وإنه لمصمم على أن يحمل حتى الموت كافة الالتزامات التي يفرضها هذا الاتباع الكامل، ولو تخطفته الذئاب!!

وهو على يقين أن الإيمان يحمل معه بصيرته التي تهدي إلى الحق وإلى الصواب.

وفي قصة أسامة بالذات تجلى صدق هذا اليقين.

فإصرار أبي بكر على إنقاذ بعث أسامة لم يُفئ عليه مثوبة الطاعة فحسب، بل أفاء عليه الرشد والمنهج الصواب.

فهناك صوب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تَذِرُّ قرنيْها، ولكن لم تكد القبائل التي مر بها جيش أسامة وهو في طريقه إلى الشام.. لم تكد تبصر هذا الجيش اللجب

---

(١) بين العقيدة والقيادة، للواء الركن محمود شيت خطاب ص (٢٠٣ـ ٢٠٦).

حتى عاد إليها صوابها، وقال بعضهم لبعض: «**والله، لو كانت المدينة تئن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا، ما كان بِوُسعها أن تبعث هذا الجيش في هذه الأيام لتقاتل الروم...!!**».

وهكذا كان مجرد تحرك الجيش إلى غايته مثبِّطًا أي مثبط لكثير من القبائل التي كانت فتنة الردة تتسلل إليها..!!

لقد ضرب الصديق أروع مثال للجندية، والطاعة، ونبل القيادة، فشيع جيش أسامة وهو ماشٍ على قدميه، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يقود دابته بجواره، فقال أسامة: «**يا خليفة رسول الله؛ والله لتركبن أو لأنزلن**» فقال: «**والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة**». ثم يقول الفارس ذو المروءة أبو بكر الصديق لجنده وقد وقف فيهم خطيبًا: «**أيها الناس، أوصيكم بعشر، فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا**[١]**، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا**[٢]**، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرِّقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقوامًا قد فحصوا**[٣] **أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا... اندفعوا باسم الله**».

وقال لأسامة: «اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ: «ابدأ ببلاد قضاعة، ثم ائت آبل[٤]»، ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله، ولا تعجلن لما خلفت عن

---

(١) غلَّ: خان في المغنم.
(٢) مَثَّل بفلان: نكَّل به بجدع أنفه، أو قطع أنفه، أو غيرها من الأعضاء.
(٣) فحصوا أوساط رءوسهم: كشفوها بحلق شعرها.
(٤) تُسمى آبل الزيت؛ وهي: مدينة بالأردن من مشارف الشام.

عهده»[١].

وسار أسامة في ثلاثة آلاف رجل يقطع البيد في أيام شديدة الحر من شهر حزيران «يونيو»، وبعد مسيرة عشرين يومًا نزل بجيشه، فأغار على «**آبل**» الواقعة شمال «**مؤتة**»، وبث خيوله في قبائل قضاعة وأحلافهم، تلك القبائل التي ظاهرت الروم على جيش المسلمين في غزوة «**مؤتة**»، فبث خيوله في تلك القبائل، وقضى على كل مقاومةٍ صادفها هناك، فما رُئي جيش كان أسلم من ذلك الجيش»[٢].

وعاد أسامة إلى المدينة بجيشه الظافر، فتلقاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في جماعة من الصحابة وتلقاه أهل المدينة، فدخل المدينة والناس حوله يرددون قول النبي ﷺ «**إنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها**»[٣].

لقد كان أثر هذه الغزوة عظيمًا في المرتدين وغيرهم، فقد شاع في الجزيرة العربية خبرها، فكانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا، وقالوا فيما بينهم: «**لو لم يكن المسلمون على قوة، لما خرج من عندهم هؤلاء!**».

وكان أثرها في تأديب القبائل العربية القاطنة على الحدود الشمالية لجزيرة العرب واضحًا، فلم يحركوا ساكنًا بعدها أبدًا، حتى جاءتهم جيوش المسلمين في سنة ثلاث عشرة الهجرية، فدخلوا في الإسلام وأصبحوا من حماته.

ولكن أثرها في إبراز الطاعة والحرص على متطلباتها كان عظيمًا جدًّا، فما من جيش يُكتب له النصر، وما من أمة يُكتَب لها النصر، إلا إذا كانت الطاعة الحقة طبيعة من طبائعها وسجية من سجاياها».

وكان المثال الشخصي الذي ضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الحرص على الطاعة من أعظم الدروس التي ضربها للمسلمين في بداية حياته العملية في الخلافة.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٦٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٦٨).

(٣) بين العقيدة والقيادة ص (٣٠٦- ٣٠٨).

❑ الردة أعظم فتنة مرت بالمسلمين وتصدى الصديق لها

عن أم المؤمنين عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «تُوفِّي رسول اللَّه ﷺ فنزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال لهاضها[١]، اشرأب[٢] النفاق بالمدينة، وارتدت العرب، فواللَّه، ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظها وفنائها في الإسلام»[٣].

❑ أعز اللَّه بالصديق الدين يوم الردة:

لقد كان قلب الصديق في تلك النازلة العظمى التي اهتزت لها الدنيا بأجمعها ـ وهي موت رسول اللَّه ﷺ لو وزِن بقلوب الأمة لرجحها.

وكان عزمه في قتال من ارتد لو فُرِّق على قلوب الجبناء من أهل الأرض لشجعهم إلى أن قام بمهمة قناة الإسلام بعد اعوجاجها، وجرت الملة الشهباء على سننها ومنهاجها.

وأذن مؤذن الإيمان: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وتولى حزب الشيطان وهم خاسرون، فتلك ـ لعمر اللَّه ـ الشجاعة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمة التي تنازلت لها أعالي الهمم، فرضوان اللَّه عليه أبدًا ما شُهِرَ بارق، وقهر مارق، وعلى بقية الصحابة أجمعين»[٤].

ولنبدأ بالقصة من أولها لترى شجاعة الصديق شاخصة أمام عينيك:

عندما نعيش مع المصادر التاريخية التي سجلت أحداث تلك الأيام الفاصلة يأتلق

---

(١) هاضها: الهضُّ، والهضض: كسر دُون الهَدِّ، وفوق الرضِّ، وقيل: هو الكسر عامة، وقيل: الكسر للعظم.

(٢) اشرأب النفاق: أي: ارتفع وعلا، يُقال: اشرأب الرجل إلى الشيء اشرئبابًا: إذا مدَّ عنقه إليه، وارتفع إليه وعلا.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (٨/٥٧٤) في «مصنفه»، وأخرجه أبو القاسم البغوي، وأبو بكر الشافعي في «فوائده»، وابن عساكر، كما في «تاريخ الخلفاء»، للسيوطي ص (١٢٠)، وأخرجه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» من طرق، ورجال أحدهما ثقات، كما في «المجمع» (٩/٥٠).

(٤) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، لابن النحاس (٢/٩٦٥، ٩٦٦).

حتى يملأ الأفق سؤال أكيد هو: أي مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذ هناك..؟؟

لقد كان ابن مسعود يُبسِّط الحقيقة الكبرى في قولته: «لقد قمنا بعد رسول اللَّه ﷺ مقامًا كدنا نهلك فيه، لولا أن مَنَّ اللَّه علينا بأبي بكر».

أجل، لقد كان «**أبو بكر**» يومئذ نعمة اللَّه ومثوبته للدين، وللناس.

فقد تضرمت الأرض نارًا في الجهات النائية من المدينة والتي كان معظم أهلها حديثي العهد بإسلام، لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المهرة الذين كانوا يتربصون بالإسلام كل سوء.

لقد انشقت الأرض فجأة عن كل الموتورين به والمتربصين، وعن أنبياء كذبة قادوا ببراعة الإفك، جميع الذين كانت الغفلة ترشحهم لأن يكونوا ضحايا أكاذيبهم، لا سيما أولئك البعيدين من المدينة والداخلين في الإسلام من قريب.

وقف طليحة الأسدي يعلن نبوة كاذبة، وتبعه الكثيرون من قبائل أسد، وغطفان وطيِّئ، وعبس، وذبيان.

ثم اشتعلت نيران الردة في بني عامر، وهوازن وسليم.

ثم شبت في بني تميم، وجاءتهم المرأة «**سجاح**» تزعق فيها بنبوتها الضالة المهرجة..!!

ثم تمرد أهل اليمامة رافعين لواء أخطر مُدَّعي النبوة جميعًا مُسيْلمة الكذاب.

وهكذا، بعد أن كان أبو بكر يواجه فلولًا صغيرة أصبح أمام جيوش جرارة، قوامها عشرات الألوف من المقاتلين.

وسرت العدوى إلى أهل البحرين، وعُمان، والمهرة، وصار هؤلاء وأولئك يتغنون ببيت من الشعر أطلقه أحد شعرائهم.

أطعنا رسول اللَّه ما دام بيننا ... فيا لِعبادِ اللَّه مَا لأبي بكر؟؟

ولكنْ، لله من خَلْقِه رجال تتحول المحن بين أيديهم إلى مِنَح، والكوارث إلى ربيع تملؤه روح الحياة!! وأبو بكر سيد هؤلاء الرجال..!!

فخلال هذه المحنة الصاهرة التي ألمت بالإسلام، هب الرجل الحكيم القوي من فوره، فرأب الصَّدْع، وحول الصف إلى تماسك واقتدار.

وكانت حظوظ الإسلام وافية، ومقاديره عظيمة إذ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية وقائد الأمة.

وبفضل من اللَّه ورحمة تفوق الرجل الكبير، والخليفة المؤمن على أخطار كانت حريَّةً بأن تُداعِي بناء إمبراطورية شامخة راسخة، فما البال ببناء غض جديد؟!

وكانت تلك الأيام المزلزلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول اللَّه وأخصبها، وأكثرها بركة عليه، وخيرًا لمصيره.

لقد سقطت الأقنعة عن الوجوه المتنكِّرة، وتقيأت الصدور الموتورة كل أحقادها الدفينة، وأقبلت النار تصهر الأمة الجديدة، وتنفي خبثها بصورة شاملة.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «**لما تُوفي رسول اللَّه ﷺ**، وكان أبو بكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول اللَّه ﷺ «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه**[١]**، وحسابه على الله**».

فقال أبو بكر: واللَّه لأقاتلن من فرق[٢] بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللَّه لو منعوني عناقًا[٣] كانوا يؤدونها إلى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم على منعها.

---

(١) أي بحق الإسلام.

(٢) المراد بقوله: فرّق: من أقرّ بالصلاة، وأنكر الزكاة جاحدًا أو مانعًا مع الاعتراف، وإنما أطلق في أول القصة الكفر؛ ليشمل الصنفين، فهو في حق من جحد حقيقة، وفي حق الآخرين تغليبًا، وإنما قاتلهم الصديق، ولم يعذرهم بالجهل؛ لأنهم نصبوا القتال، فجهز إليهم من دعاهم إلى الرجوع، فلما أصروا قاتلهم، انظر: «فتح الباري» (١٢/٢٧٧).

(٣) العناق: الأنثى من ولد المعز.

وفي رواية أخرى: واللَّه لو منعوني عقالًا[١] كانوا يؤدونه إلى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم على منعه. قال عمر: فواللَّه ما هو إلا أن قد شرح اللَّه صدر أبي بكر، فعرفتُ أنه الحق[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**لما كانت الردة، قال عمر لأبي بكر: أتقاتلهم، وقد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول كذا وكذا؟!!**

فقال أبو بكر: والله، لا أفرِّق بين الصلاة والزكاة، ولأقاتلن من فرَّق بينهما.

قال عمر: فقاتلنا معه، فرأينا ذلك رشدًا[٣].

ولله در أبي بكر ما أشد غيرته على الإسلام حين يقول كلمة نورانية فاض بها لسانه، ونطق بها جنانه؛ وكأنما تحدثت السكينة على لسانه، كلمة تساوي خطبة بليغة طويلة، وكتابًا حافلًا: «**قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص وأنا حي؟!**»[٤].

وفي رواية قال عمر: فقلت: يا خليفة رسول الله، تألف الناس وارفق بهم، فقال لي: أجبار في الجاهلية خوَّار في الإسلام، قد انقطع الوحي، وتم الدين، أينقص وأنا حي؟!![٥].

كان موقف أبي بكر رضي الله عنه الذي لا هوادة فيه، ولا مساومة فيه، ولا تنازل، موقفًا ملهمًا من الله، يرجع إليه الفضل الأكبر ـ بعد اللَّه ـ تَعَالَى ـ في سلامة هذا الدين، وبقائه على نقائه، وصفائه، وأصالته، وقد أقرَّ الجميع وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد

---

(١) العقال: هو الحبل الذي يعقل به البعير.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٢٤، ٦٩٢٥)، ومسلم (٢٠)، وأحمد (١/١٩، ٤٨) (٢/٤٢٣)، وعبدالرزاق في «مصنفه» (١٨٧١٨)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٧٣٤)، والنسائي (٧/٧٦، ٧٨، ٧٩)، وابن حبان (٢١٧)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (٤/١٠٤).

(٣) إسناده صحيح: أخرجه النسائي (٧/٧٧)، وأحمد (١/١١)، (٢/٤٢٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/٥٧٨).

(٤) المرتضى سيرة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، لأبي الحسن الندوي ص (٧٠)، دار القلم.

(٥) مشكاة المصابيح، كتاب المناقب رقم (٦٠٣٤). رواه رزين، وسكت عنه الألباني.

وقف في مواجهة الردة الطاغية، ومحاولة نقض عرى الإسلام عروة عروة موقفًا اقتدى فيه بالأنبياء والرسل في عصورهم، وهذه خلافة النبوة التي أدى أبو بكر رضي الله عنه حقها، واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث اللَّه الأرض وأهلها.

عن أبي رجاء العطاردي قال: «دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلًا يقبل رأس رجل وهو يقول: أنا فداؤك! لولا أنت لهلكنا. فقلتُ: من المقبِّل ومَن المقبَّل؟ قالوا: عمر يقبِّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوْا بها صاغرين»[١].

الصديق القائد

لو لم يكن للصديق قدر كبير من الكفاءة القيادية، لكان له في ملازمة الرسول ﷺ خير مدرسة لتعلم مبادئ الحرب وفنونها، فلقد كانت حياة الرسول القائد جهادًا متصلًا، وصراعًا متلاحقًا، ومعارك وغزوات متتالية. وكانت مدرسة الحرب هذه حافلة في كل يوم بالدروس القيمة والتجارب القتالية الثمينة، فكيف وقد توافرت للصديق كفاءة عالية في مجال السياسة الاستراتيجية وإدارة الحرب كما سنبين.

❑ خطة الصديق لحماية المدينة:

جاءت وفود بعض القبائل التي امتنعت عن دفع الزكاة للصديق محاولة إقناعه بالتنازل عن أخذ الزكاة، وأصرَّ الصديق على موقفه، وقرأ الصديق في وجوه القوم الغدر، ورأى فيها الخسة، وتفرس فيها اللؤم، فقال لأصحابه: «إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون أليلًا تؤتون أم نهارًا؟! وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم، وقد أبيْنا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا»[٢].

---

(١) المرتضى لأبي الحسن الندوي ص (٧٢).
(٢) تاريخ الطبري (٤/٦٤).

ووضع الصديق رضي الله عنه خطته على النحو التالي:

١ـ ألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد حتى يكونوا على أكمل استعداد للدفاع.

٢ـ نظم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة ويبيتون حولها حتى يدفعوا أي غارة قادمة.

٣ـ عين على الحرس أمراءهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وعبد اللَّه بن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ـ[1].

٤ـ بعث أبو بكر رضي الله عنه إلى من كان حوله من القبائل التي ثبتت على الإسلام، من أسلم وغفار، ومزينة، وأشجع، وجهينة، وكعب؛ يأمرهم بجهاد أهل الردة، فاستجابوا له حتى امتلأت المدينة المنورة بهم، وكانت معهم الخيل والجمال التي وضعوها تحت تصرف الصديق، ومما يدل على كثرة رجال هذه القبائل وكبر حجم دعمها للصديق: أن جهينة وحدها قدمت إلى الصديق في أربع مئة من رجالها ومعهم الظهر والخيل، وساق عمرو بن مرة الجهني مئة بعير لإعانة المسلمين، فوزعها أبو بكر في الناس[2].

٥ـ ومن ابتعد من المرتدين عن المدينة، وأبطأ خطره، حاربه بالكتب يبعث بها إلى الولاة المسلمين في أقاليمهم؛ كما كان رسول اللَّه ﷺ يفعل، يحرضهم على النهوض لقتال المرتدين؛ ومن ذلك رسالته لأهل اليمن حيث المرتدة من جنود الأسود العنسي التي قال فيها: «أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجدوا معه، فإني قد وليته».

٦ـ وأما من قرب منهم من المدينة واشتد خطره؛ كبني عبس وذبيان، فإنه لم ير بدًّا

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٤).

(٢) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة، للدكتور مهدي رزق الله ص (٢١).

من محاربتهم على الرغم من الظروف القاسية التي كانت تعيشها مدينة رسـول اللَّه ﷺ، فكان أن آوى الذراري والعيال إلى الحصون والشعاب محافظة عليهم من غدر المرتدين، واستعد للنزال بنفسه ورجاله[١].

فشل أهل الردة في غزو المدينة:

بعد ثلاثة أيام من رجوع وفود المرتدين طرقت بعض قبائل أسد، وغطفان، وعبس، وذبيان، وبكر المدينة ليلًا، وخلفوا بعضهم بذي حُسَي؛ ليكونوا لهم ردءًا، وانتبه حرس الأنقاب لذلك، وأرسلوا للصديق بالخبر، فأرسل إليهم أن الزموا أماكنكم، ففعلوا، وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم فانفش العدو، فأتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حُسَي، فخرج عليهم الردء بأنحاء[٢] قد نفخوها، وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها[٣] بأرجلهم في وجوه الإبل، فتدهده كل نحْي في طوله[٤]، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ـ ولا تنفر الإبل في شيء نفارها من الأنحاء ـ، فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة، فلم يُصرع مسلم، ولم يُصب[٥]، فظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذي العقبة بالخبر، فقدموا عليهم اعتمادًا في الذين أخبروهم، وهم لا يشعرون لأمر اللَّه عَزَّ وَجَلَّ الذي أراده وأحب أن يبلغه فيهم.

روى الطبري في تاريخه (٣/٢٤٥ـ ٢٤٨): «بات أبو بكر ليلته يتهيأ، فعبّئ الناس، ثم خرج على تعبية من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمنته النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته عبداللَّه بن مقرن، وعلى الساقة[٦] سويد بن مقرن معه الرُّكاب، فما

(١) الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، للدكتور علي محمد محمد الصلابي ص (٢١٦)، مكتبة الصحابة.
(٢) الأنحاء: هي القِرَب.
(٣) أي دفعوها.
(٤) أي في حمله.
(٥) تاريخ الطبري (٤/٦٥).
(٦) أي المؤخرة.

طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين همسًا ولا حسًّا حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقُتل حبال - أخو طليحة الأسدي -، وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي قصة، وكان أول الفتح، ووضع بها النعمان بن مقرن في عدد من المسلمين، فذل بها المشركون، ورجع أبو بكر المدينة، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين، فقتلوهم كل قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، وعز المسلمون بوقعة أبي بكر، وحلف أبو بكر ليقتلن في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة».

وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي:

غداة سعى أبو بكر إليهم ... كما يسعى لموتته جلالُ

أراح على نواهقها عليا ... ومج لهن مهجته حبال

وصمم الصديق على أن ينتقم للشهداء، وأن يؤدب هؤلاء الحاقدين، ونفذ قسمه، وازداد المسلمون في بقية القبائل ثباتًا على دينهم، وازداد المشركون ذلًّا وضعفًا، وهوانًا، وبدأ صدقات القبائل تفد على المدينة، فطرقت المدينة صدقات نفر: صفوان، ثم الزبرقان، ثم عدي، صفوان في أول الليل، والثاني وسطه، والثالث في آخره، وفي ليلة واحدة أثرت المدينة بأموال زكاة ستة أحياء من العرب، وكان كلما طلع على المدينة أحد جباة الزكاة قال الناس: نذير، فيقول أبو بكر: بل بشير، وإذا بالقادم يحمل معه صدقات قومه، فيقول الناس لأبي بكر: طالما بشرتنا بالخير[1].

وفي هذه الأثناء عاد أسامة بن زيد بجيشه، فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وقال له ولجنده: أريحوا وأريحوا ظهركم[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٧).

(٢) تاريخ الطبري (٤/٣٧).

❑ خروج الصديق إلى أهل الرَّبذة بالأبرق:

خرج الصديق في الذين خرجوا إلى ذي القصة والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر، فقال له المسلمون: ننشدك اللَّه يا خليفة رسول الله، ألا تُعرِّض نفسك! فإنك إن تُعَب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد من العدو، فابعث رجلًا، فإن أصيب أمَّرت آخر.

فقال: لا والله، لا أفعل، ولأواسينكم بنفسي[1]. وظهر معدن الصديق النفيس.. القائد الذي يفتدي قومه بنفسه، لقد خرج الصديق على تعبيته إلى ذي حُسَى وذي القصة، والنعمان، وعبدالله، وسويد على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق، فهزم اللَّه الحارث وعوفًا، وأُخذ الحطيئة أسيرًا، فطارت عبس وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أيامًا، وقد غلب بني ذبيان على البلاد، وقال: حرام على ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غنَّمناها اللَّه وأجلاها. فلما غُلب أهل الردة ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه، وسامح الناس جاءت بنو ثعلبة، وهي كانت منازلهم لينزلوها، فمنعوا منها، فأتوه في المدينة، فقالوا: علام تُمنعُ من نزول بلادنا! فقال: كذبتم، ليست لكم ببلاد، ولكنها مَوْهبي ونَقَذي[2]. ولم يُعتبهم[3]، وحمى الأبرق لخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الربذة الناس على بني ثعلبة، ثم حماها كلها لصدقات المسلمين؛ لقتال كان وقع بين الناس وأصحاب الصدقات، وقال في يوم الأبرق زياد ابن حنظلة:

ويوم بالأبارق قد شهدنا ... على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهية نَسُوفٍ[4] ... مع الصديق إذ ترك العتابا[5]

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٧).

(٢) النقذ: ما اسْتنقذ من الأعداء.

(٣) أي: لم يُقِل عثرتهم.

(٤) أي: شاقة.

(٥) تاريخ الطبري (٤/٦٧)، إذ ترك العتابا؛ أي: ترك إقالة العثرات.

فخروج الصديق رضي الله عنه للجهاد ثلاث مرات متتالية ـ وهو الشيخ الذي بلغ الستين من عمره ـ يدل على فدائية الصديق وفروسيته.

قال ضرار بن الأزور وهو من هو حينما أخبر أبا بكر الصديق بخبر تجمع طليحة الأسدي، قال: فما رأيت أحدًا ـ ليس رسول اللَّه ـ أملأ بحرب شعواء من أبي بكر، فجعلنا نخبره بما له، ولا عليه[1].

وهذا وصف بليغ لما كان يتصف به أبو بكر من اليقين الراسخ، والثقة التامة بوعد اللَّه ـ تَعَالَى ـ لأوليائه بالنصر على الأعداء والتمكين في الأرض، فأبو بكر لم يَفُقِ الصحابة بكبير عمل، وإنما فاقهم بحيازة الدرجات العلى من اليقين.

❑ الصديق القائد

إن الأسطر القليلة التي كتبناها ونقلناها عن المصادر التاريخية عن معركة ذي حُسَى وذي قصة التي قادها الصديق بنفسه لَتَدُلُّ أعظم دلالة على ما توافر للصديق من كفاءة في قيادة العمليات، ومن قدرة لتطبيق مبادئ الحرب بصورة رائعة؛ فقد جمع الصديق المعلومات الكافية عن تحرك المرتدين، وحدد حجم قواتهم بدقة، كما أنه حدد مواقع تمركزهم في ذي حُسَى وذي قصة، وقامت قوات المسلمين بما يشبه الغارة الاستطلاعية، واستخدم الصديق ستار ظلمة الليل بعد اتخاذ تدابير الحيطة والأمن للتحرك، لقد استخدم الصديق مبدأ «**المبادأة**» ولم يتركه في قبضة أعدائه، فأسرع للقائهم، وفرض عليهم المواقف التي يريدها، فدمر تجمعهم، ثم طاردهم إلى ذي قصة، ومزق جمعهم فيها. فقد صمم الصديق على حرمان أعدائه باستمرار من المبادأة، فوجه جيوش الردة في كل اتجاه، وفرض على أعدائه المواقف التي يريدها، وحرمهم من حرية العمل العسكري، وعندما انتهت حروب الردة، أسرع إلى توجيه الجيوش لحرب الشام والعراق، فكان ذلك تطويرًا للمبادأة، وعندما حاول الفرس

---

(١) التاريخ الإسلامي، للحُميدي (٩/٤٨).

والروم استعادة المبادأة بخلق مواقف متطورة سواء عن طريق تجميع جيوشهم، أو عن طريق محاولة تدمير كل جيش بمعزل عن جيوش المسلمين الأخرى، تصدى لمعالجة الموقف بتطوير المبادأة، واتخاذ الإجراءات التي تحفظ لقادة جيوش المسلمين حرية عملهم على ميادين القتال.

ولم يكن حرص الصديق على «**تحقيق المباغتة**» أقل من حرصه على المبادأة - كما سنبين - في حروب الشام والعراق بطريقة أذهلت قادة الفرس والروم على حد سواء.

❏ إرسال الجيوش لقتال المرتدين في كل أنحاء جزيرة العرب:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبي شاهرًا سيفه راكبًا راحلته إلى وادي ذي القصة، فجاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بزمام راحلته، فقال: «**إلى أين يا خليفة رسول الله** ﷺ؟! أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد[1]: شم[2] سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة؛ فوالله، لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا فرجع»[3].

قسم الصديق الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء أميرًا، وأمر كل أمير جند باستنفار من مر به من المسلمين التابعين من أهل القرى التي يمر بها، وهم:

١- جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى بني أسد، ثم إلى تميم، ثم إلى اليمامة.

٢- جيش عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه إلى مسيلمة في بني حنيفة، ثم إلى عمان والمهرة، فحضرموت، فاليمن.

٣- جيش شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه إلى اليمامة في إثر عكرمة، ثم حضرموت.

٤- جيش طريفة بن حاجز رضي الله عنه إلى بني سليم من هوازن.

---

(١) لما أراد أن يبارز ابنه عبدالرحمن، فقال له: «شم سيفك، وارجع إلى مكانك».

(٢) شم سيفك: أغمده، ويقال: سله، وهو من الأضداد.

(٣) الكامل، لابن الأثير (٢/١٣٠)، والبداية والنهاية (٦/٣١٩).

٥- جيش عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى قضاعة.

٦- جيش خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه إلى مشارق الشام.

٧- جيش العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه إلى البحرين.

٨- جيش حذيفة بن محصن الغلفاني رضي الله عنه إلى عمان.

٩- جيش عرفجة بن هرثمة رضي الله عنه إلى مهرة.

١٠- جيش المهاجر بن أبي أمية رضي الله عنه إلى اليمن «**صنعاء ثم حضرموت**».

١١- جيش سويد بن مقرن رضي الله عنه إلى تهامة اليمن[١].

وقد اتُخذت قرية «**ذي القصة**» مركز انطلاق، وقاعدة تحرك للجيوش المنظمة التي ستقوم بالتحرك إلى مواطن الردة للقضاء عليها. وتنبئ خطة الصديق رضي الله عنه عن عبقرية فذة، وخبرة جغرافية دقيقة، ومن خلال تقسيم الألوية، وتحديد المواقع يتضح: أن الصديق رضي الله عنه كان جغرافيًا دقيقًا خبيرًا بالتضاريس والتجمعات البشرية، وخطوط مواصلات جزيرة العرب، فكأن الجزيرة صورت نصب عينيه في غرفة عمليات مجهزة، فمن يتمعن تسيير الجيوش ووجه كل منها، واجتماعها بعد تفرقها، وتفرقها لتجتمع ثانية، يرى تغطية سليمة رائعة صحيحة مثالية لجميع أرجاء الجزيرة، مع دقة في الاتصالات مع هذه الجيوش، فأبو بكر في كل ساعة يعلم أين مواقع الجيوش، ويعلم دقائق أمورها وتحركاتها، وما حققت، وما عليها في غد من واجبات، والمراسلات دقيقة وسريعة، تنقل أخبار الجبهات إلى مقر القيادة في المدينة حيث الصديق، وكان على صلة مستمرة مع جيوشه كلها، وبرز من المراسلين العسكريين ما بين الجبهات وبين مقر القيادة: أبو خيثمة النجاري الأنصاري، وسلمة بن سلامة، وأبو برزة الأسلمي، وسلمة بن وقش[٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٨).

(٢) في التاريخ الإسلامي، لشوقي أبو خليل ص (٢٢٦، ٢٢٧).

ولقد جمعت تلك الجيوش بين مهارة القيادة، وبراعة التنظيم، فضلًا عن الخبرة في القتال، ولقد رأى الصديق بثاقب فكره وعسكريته أن المرتدين لا زالوا متفرقين كلٌّ في بلده، ولم يحصل منهم تحزب ضد المسلمين بالنسبة للقبائل الكبيرة المتباعدة في المكان:

أولًا: لأن الوقت لم يكن كافيًا للقيام بعمل كهذا؛ حيث لم يمض على ارتدادهم إلا ما يقرب من ثلاثة شهور.

وثانيًا: لأنهم لم يدركوا خطر المسلمين عليهم وأنهم باستطاعتهم أن يكتسحوهم جميعًا في شهور معدودة؛ ولذلك أراد الصديق أن يعاجلهم بضربات مفاجئة أخذًا بالمبادأة وتطبيقًا للمباغتة تقضي على شوكتهم وقوتهم قبل أن يجتمعوا في نصرة باطلهم، فعاجلهم قبل استفحال فتنتهم.

وكتب الصديق كتابًا واحدًا إلى قبائل العرب من المرتدين، فدعاهم إلى العودة إلى الإسلام وتطبيقه كاملًا كما جاء من عند اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وحذرهم سوء العاقبة فيما لو ظلوا على ما هم عليه في الدنيا والآخرة، وكان قويًّا في إنذارهم، وهذا هو المناسب لشدة انحرافهم.

وكتب إلى قواده وجيوشه وللمرتدين: إني بعثت إليكم فلانًا في جيش من المهاجرين، والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحدًا، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له، وأقر، وكف، وعمل صالحًا قبل منه، وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يُبقي على أحد منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتلة، وأن يسبي النساء والذراري، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن تبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم...[(١)].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦٩، ٧٠، ٧١).

❏ الْحَطَّةُ الْمُخْزِيَةُ أَوِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ

لقد قابل الصديق فتنة الردة بأحزم ما تُقَابَلُ به من بدايتها إلى منتهاها، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها؛ فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى، وتعقبها بالحزم يومًا بعد يوم حتى أسلمت مقادها وتابت إلى قرارها.

ولقد ثبت الصديق ثباتًا عجيبًا أمام تيار المرتدين الجارف، وَقَاوَمَ بصبر وتصميم كلَّ فكرة تدعو لمهادنتهم، وما رضي من المرتدين إلا بالحطة المخزية أو الحرب المجلية[١].

عن طارق بن شهاب ﷺ قال: «لما قدم وفدُ بزاخة وأسد وغطفان على أبي بكر بعد رسول اللَّه ﷺ يسألونه الصلح - وفي رواية: جاء أهل الردة من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح -، خيرهم أبو بكر بين حرب مجلية[٢] أو حطة مخزية[٣]؛ فقالوا: يا خليفة رسول الله، أما الحرب فقد عرفناها، فما الحطة المخزية؟

قال: تؤخذ منكم الحلقة[٤] والكراع[٥]، وتتركون أقوامًا تتبعون أذناب الإبل[٦]، حتى يُرِيَ اللَّه خليفة نبيه ﷺ والمؤمنين أمرًا يعذرونكم به، وتؤدون ما أصبتم منا، ولا نؤدي ما أصبنا منكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة، وأن قتلاكم في النار، وتدون قتلانا، ولاندي قتلاكم[٧].

فقال عمر: أما قولك «**تدون قتلانا**» فإن قتلانا قُتلوا على أمر الله؛ لا ديَّات لهم[٨].

---

(١) عبقرية الصديق (١٤٩).

(٢) حرب مجلية؛ أي: حرب مُخرجة عن الدار والمال. فالجلاء: الخروج عن البلد.

(٣) حطة مخزية: الحطة: الوضع والإنزال. والمخزية: المُذِلَّة، والمراد: أو سلم يُخزيكم، ويذلكم.

(٤) الحلقة: اسم لجملة السلاح والدروع، وغُلب هذا النوع من السلاح على الدروع.

(٥) الكراع: اسم يجمع الخيل.

(٦) وفي رواية: البقر. وفيه إنزال الذلة بهم.

(٧) يعني: تدفعون إلينا دية قتلانا، ولا ندفع إليكم دية قتلاكم.

(٨) أي: حسابهم على الله ﷻ؛ ليوفي لهم الأجر في الآخرة.

فَاتَّبَعَ عمر، وقال عمر في الباقي: نِعْمَ ما رأيت.

وفي رواية: فقال عمر: يا خليفة رسول الله، القول كما قلت، غير أن قتلانا قُتِلوا في سبيل الله؛ لا دية لهم[١].

لقد تمزق المرتدون، وَتَمَّ القضاء على فتنة طليحة الأسدي والأسود العنسي، وقُتِلَ مسيلمة الكذاب.

تمزق المرتدون بددًا؛ كبقايا زوبعة ضالة، وَوَلَّوْا أمام الحق نائحين بشعر:

ألا فاسقياني قبل خيل أبي بكر   لعلَّ منايانا قريبٌ ولا ندري

«خيل أبي بكر»؟!! لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهول في أسماع الذين أرادوا أن يخضعوا الحق للباطل[٢].

ولم تَحِلَّ سنة اثنتي عشرة الهجرية (٦٣٣م) أي بعد عام من وفاة النبي ﷺ إلا وكانت طلائع الجيوش الإسلامية تُهَدِّدُ ملك كسرى في العراق وملك قيصر في أرض الشام، وتهاجم الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في عقر داريهما.

لم يَمُتِ الصديق إلا وجيوشه تحاصر أعظم إمبراطوريتين وتُنْزِلُ بهما أفظع الهزائم، وأنجز الصديق القائد ما ظنه الناس خيالًا لا يُنْجَزُ.

❏ الصِّدِّيقُ وَالْقَضَاءُ عَلَى «حَرَكَةِ الْبَغَايَا»

لما مات رسول اللَّه ﷺ، قامت بعض بنات اليمن من يهود ومَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ في حضرموت، وَطِرْنَ فرحًا بموت رسول اللَّه ﷺ؛ فأقمن الليالي الحمراء مع المجان والْفُسَّاقِ، يشجعن على الرذيلة، ويزرين بالفضيلة، فقد رقص الشيطانُ فيها معهن وأتباعُهُ طربًا؛ لنكوص الناس عن الإسلام والدعوة إلى التمرد عليه وحرب أهله.

لقد حَنَّتْ تلك البغايا إلى الجاهلية وما فيها من المنكرات، وانجذبن إليها انجذاب

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٩٧٤)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣/٣٢)، وابن كثير في «البداية» (٦/٣٥٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/٥٧٤).

(٢) خلفاء الرسول، لخالد محمد خالد ص (٧٨- ٨٠)، دار الجيل.

الذباب إلى أكوام من الأقذار؛ فما إن سمعن بموت النبي ﷺ حتى أظهرن الشماتة؛ فخضبن أيديهن بالحناء وقمن يضربن بالدفوف، وكان معظمهن من عِلْيَةِ القوم هناك، ولقد عُرِفَتْ هذه الحركة في التاريخ (بحركة البغايا) وكن نَيِّفًا وعشرين بغيًّا متفرقات في قرى حضرموت، وأشهرهن «**هر بنت يامن**» اليهودية التي ضُرِبَ المثلُ بها في الزنا؛ فقيل: أزنى من هر.

ويذكر التاريخُ أن الْفُسَّاقَ كانوا يتناوبونها لهذا الغرض في الجاهلية، ولكن هؤلاء السواقط لم يُتْرَكْنَ وشأنهن يُفْسِدْنَ المجتمع كما يَحْلُو لهن؛ فقد وصل الخبر إلى الصديق؛ حيث أرسل رجل من أهل اليمن إليه هذه الأبيات:

أبلغْ أبا بكرٍ إذا ما جئته ... أن البغايا رُمْنَ أي مرامِ
أظهرن من موت النبي شماتةً ... وخضبن أيديهن بالعُلَّام[١]
فاقطع هُدِيتَ كُفهن بصارمٍ ... كالبرق أمضى من متون غمام[٢]

فكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى عامله المهاجر بن أبي أمية كتابًا كله الحزم والصرامة، جاء فيه: «فإذا جاءك كتابي هذا فسر إليهن بخيلك وَرَجْلِكَ حتى تقطع أيديهن، فإن دَفَعَكَ عنهن دافعٌ فأعذر إليه باتخاذ الحجة عليه وأعلمه عظيم ما دخل فيها من الإثم والعدوان، فإن رجع فاقبل منه، وإن أتى فَنَابِذْهُ على سواء، إن اللَّه لا يهدي كيد الخائنين»، فلما قرأ المهاجر الكتاب جمع خيله وَرَجْلَهُ وسار إليهن؛ فَحَالَ بينه وبينهن رجالٌ من كندة وحضرموت، فأعذر إليهم فَأَبَوْا إلا قتاله، ثم رجع عنه عامتهم فقاتلهم فهزمهم، وأخذ النسوة فقطع أيديهن، فمات عامتهن، وهاجر بعضهن إلى الكوفة. لقد نِلْنَ جزاءهن في محكمة الإسلام العادلة؛ إذ أخذهن عامل أبي بكر على تلك البلاد وطبق عليهن حد الحرابة[٣].

---

(١) العلَّام: الحناء.

(٢) عيون الأخبار، للدينوري (١٣٣/٣).

(٣) انظر: حركة الردة، للدكتور علي العتوم ص (١٨٤)، مكتبة الرسالة الحديثة بعمان، والانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق ص (٢٤٥، ٢٤٦).

الصديق وإدارة حرب العراق

ما إن أصبحت للمسلمين قاعدتهم الصلبة بالقضاء على المرتدين حتى شرع لفتح العراق، وأقبل إليه المثنى بن حارثة الشيباني، وقال له: «**أمِّرني على من قبلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي**»، ففعل ذلك، فأقبل فجمع قومه، وأخذ يغير بناحية كسكر مرة، وفي أسفل الفرات مرة، حتى إذا ما فرغ خالد بن الوليد من حرب اليمامة، وصلته رسالة من الخليفة: «**سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند، وهي الأبلة، وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم**»[1].

وسار المثنى حتى لقي خالدًا وبقية الأمراء: مذعور، وسلمى، وحرملة، وصارت عدة الجيش الإسلامي ثمانية عشر ألفًا.

وكتب الصديق إلى عياض بن غنم: «سر حتى تأتي المصيخ فابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها، وعارق حتى تلقى خالدًا، وأذنا لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكاره، ولما استمده خالد وعياض كتب إليهما: «استنفرا من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي».

وكتب الخليفة إلى قائديه خالد بن الوليد وعياض بن غنم: «**على خالد بن الوليد أن يدخل العراق من أسفلها، وعلى عياض بن غنم أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة، فأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه**». وقال لهما: إذا اجتمعتما بالحيرة، وقد فضضتما مسالح فارس، وأمنتما أن يُؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما ردءًا للمسلمين ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن».

ولم تمض سنة على بداية التحرك ناحية العراق حتى أصبح خالد مسيطرًا على البلاد من شمالها إلى جنوبها يصعد فيها ويصوب حتى قال الصديق: «**يا معشر**

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٤٣-٣٤٦).

قريش! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله[١]، أعجزت النساء أن ينسلن ـ أو ينشئن ـ مثل خالد».

ولما أتت السنة الثانية عشرة للهجرة، صمم خالد على أداء فريضة الحج، فخرج حاجًّا من الفراض لخمس بقين من ذي القعدة، متكتمًا حجه، ومعه عدة من أصحابه، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا رئبال، إذ سلك طريقًا من طرق أهل الجزيرة، لم ير طريق أعجب منه، ولا أشد على صعوبته منه، فكانت غيبته عن الجند يسيرة، فما وصل إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع قائد الساقة ـ المؤخرة ـ الذي عينه قبل ذهابه للحج، فدخل خالد معه إلى الحيرة، وعلم الصديق بذلك، ولم يعلم الجيش فكتب إليه: «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون اللّٰه شجاك، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك، فليهنك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم اللّٰه لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن اللّٰه له المنُّ، وهو ولي الجزاء».

وأمره أن يستخلف المثنى بن حارثة الشيباني على حرب العراق في نصف الناس، وأسرع خالد لتنفيذ ما أمر به، وتوجه إلى الشام ومعه عشرة آلاف مجاهد في سبيل الله.

* * *

---

(١) الخراذين: حمع، ومفردها: خرذولة؛ وهي: «قطعة اللحم».

وقفات مع فتوحات العراق ومعاركه

❑ الحس العسكري العالي عند الصديق الغالي:

لقد شهد ببراعة أبي بكر في التخطيط الحربي أَخْبَرُ الناس بالحروب آنذاك وهو خالد بن الوليد، فإنه لما نهض للقيام بمهمة عياض في فتح شمال العراق، ونزل بكربلاء واشتكى إليه المسلمون ما وقعوا فيه من التأذي بذبابها الكثيف، قال لعبدالله بن وثيمة: اصبر فإني إنما أريد أن استفرغ المسالح التي أمر بها عياض، فنُسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يُؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب آمنة وغير متعتعة، وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة»[(١)].

وكانت خطة الصديق رضي الله عنه عدم الإيغال في بلاد العدو حتى تدين للمسلمين، وقد سار على هذه الخطة قادة الجيش في العراق، فقال المثنى بن حارثة القائد الفذ: «قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، ولا تقاتلوهم بعقر دارهم، فإن يظهر اللَّه المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم، يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد اللَّه الكرة عليهم[(٢)].

ومما يدل على ذلك ـ أيضًا ـ تحديد الصديق الحيرة كموقع استراتيجي لأهميتها العسكرية، وهي عقد مواصلات تتصل بها الطرق من جميع الاتجاهات، فقد كانت الحيرة قلب العراق، وأقرب منطقة مهمة إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية.

إن تخطيط الصديق للوصول إلى الحيرة في الفتوحات يُعرف في الخطط العسكرية للجيوش الحديثة بحركة فكي الكماشة، أو عملية الالتفاف الدائري بأكثر من جيش، ويظهر هذا عظمة التخطيط الجهادي، وعلوه عند الصديق.

ولله در الصديق وهو يحتاط الجهاد، فيقول: «**لا يغزون معكم أحد ارتدَّ حتى أرى**

---

(١) تاريخ الطبري (١٨٩/٤).

(٢) الإصابة، لابن حجر (٥٦٨/٥) رقم (١٧٧٣٦).

رأيي، **فلم يشهد الأيام مرتد**»[١].

ومن الفراسة، والحس العسكري، وعلم الصديق بطاقات وكفاءات الأبطال: أن الصديق أمد خالد بالقعقاع بن عمرو التميمي، فقيل له: أتمد رجلًا قد ارفضَّ عنه جنوده برجل؟

فقال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا![٢].

❑ فتوحات وانتصارات على جبهة العراق في أيام الصديق القائد:

انتصر المسلمون تحت قيادة الصديق وبتوجيهاته بقيادة خالد بن الوليد في معركة ذات السلاسل، وفي معركة المذار «**الثَّنى**»، ومعركة الولجة، ومعركة أليس، وفُتحت إمغيشيا، ثم كان الفتح الأكبر «**فتح الحيرة**»؛ حيث اتخذت قاعدة للجيوش الإسلامية، وفتحت الأنبار في معركة ذات العيون، ثم الانتصار على نصارى العرب بقيادة عقَّة بن أبي عقَّة، والفرس في معركة عين التمر، ثم دومة الجندل، ثم وقعة الحصيد، ووقعة المصيَّخ، ثم المعركة الكبرى وهي معرك الفراض بين الروم وفارس، ونصارى العرب وبين المسلمين، وهذه المعركة تعتبر من المعارك التاريخية الفاصلة، ولها الأثر العظيم في تحطيم معنويات الفرس، والروم، ونصارى العرب، ثم نصر المثنى على قوات فارس بقيادة «**هرمز جاذوية**» عند عدوة الصراة الأولى، وقُتل الفرس قتلًا ذريعًا، وغنم المسلمون منهم مالًا عظيمًا، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شر حالة، ووجدوا الملك قد مات[٣]، وعاد الاضطراب إلى بلاد فارس، وطارد المثنى أعداء اللَّه حتى بلغ أبواب المدائن، ثم كتب للصديق بانتصاره على الفرس.

---

(١) تاريخ الطبري (٤/١٦٣).
(٢) تاريخ الطبري (٤/١٦٣).
(٣) البداية والنهاية (٧/١٨).

❑ **جهاد حتى الممات، وأوامر عسكرية على فراش الموت:**

استأذن المثنى الصديق في الاستعانة بمن تابوا من أهل الردة، لكن انتظاره لطال؛ لتشاغل الخليفة بحرب الشام، فسار المثنى بنفسه إلا الصديق، واستناب على العراق بشير بن الخصاصية، وعلى المسالح سعيد بن مرة العِجلي، فلما وصل إلى المدينة وجد الصديق على فراش الموت، واستقبله أبو بكر واستمع إليه، فأرسل الصديق إلى عمر بن الخطاب ـ، وكان قد استخلف عمرا ـ، وعندما جاء عمر قال له:

«اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم، وقد رأيتني متوفى رسول اللَّه ﷺ وما صنعت، ولم يُصَبِ الخلق بمثله، وبالله، لو أني قصرت عن أمر رسوله؛ لخذلنا ولعاقبنا، فاضطرمت المدينة نارًا، وإن فتح اللَّه على أمراء الشام، فاردد أصحاب خالد إلى العراق، فإنهم أهله، وولاة أمره وجده، وأهل الضراوة والجراءة عليهم»[١].

ومات الصديق مع الليل، فدفنه عمر ليلًا، وندب الناس مع المثنى بعدما سُوي على أبي بكر رضي الله عنه.

* * *

(١) تاريخ الطبري (٣/٤١٤).

فتوحات الشام زمن الصديق

كان الصديق يفكر في فتح الشام، ويجيل النظر يقلبه في ذلك، وأتاه شرحبيل بن حسنة أحد قواد المسلمين في حروب الردة، فقال: يا خليفة رسول الله، أتحدث نفسك أنك تبعث إلى الشام جندًا؟ فقال: نعم، قد حدَّثت نفسي بذلك، وما أطلعت عليه أحدًا، وما سألتني عنه إلا لشيء، قال: أجل، إني رأيت يا خليفة رسول الله فيما يرى النائم؛ كأنك تمشي في الناس فوق خَرْشفة[١] من الجبل حتى صعدت قُنَّة من القنات العالية، فأشرفت على الناس ومعك أصحابك، ثم إنك هبطت من تلك القنات إلى أرض سهلة دمثة[٢] فيها الزرع، والقرى، والحصون، فقلت للمسلمين: شنوا الغارة على أعداء الله، وأنا ضامن لكم بالفتح والغنيمة، وأنا فيهم معي راية، فتوجهت بها إلى أهل قرية، فسألوني الأمان فأمنتهم، ثم جئت فأجدك قد انتهيت إلى حصن عظيم، ففتح اللَّه لك، وألقوا إليك السَّلَم، ووضع اللَّه لك مجلسًا، فجلست عليه، ثم قيل لك: يفتح اللَّه عليك، وتُنصر، فاشكر ربك واعمل بطاعته، ثم قرأ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر كاملة]، ثم انتبهت. فقال له أبو بكر: نامت عينك، خيرًا رأيت وخيرًا يكون إن شاء الله. ثم قال: بشَّرت بالفتح، ونعيت إليَّ نفسي، ثم دمعت عينا أبا بكر، وقال: أما الخرشفة التي رأيتنا فيها حتى صعدنا إلى القنة العالية فأشرفنا على الناس؛ فإنا نكابد من أمر هذا الجند والعدو مشقة ويكابدونه، ثم نعلو بَعْدُ ويعلو أمرنا، وأما نزولنا من القنة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة، والزرع، والعيون، والقرى، والحصون؛ فإنا ننزل إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش، وأما قولي للمسلمين: شنُّوا على أعداء الله

---

(١) يعني: مسلكًا وعرًا.

(٢) دمثة: لينة.

الغارة، فإني ضامن لكم الفتح والغنيمة؛ فإن ذلك دنو المسلمين إلى بلاد المشركين، وترغيبي إياهم على الجهاد، والأجر، والغنيمة التي تُقسَّم لهم وقبولهم، وأما الراية التي كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم ودخلتها فاستأمنوا فأمنتهم؛ فإنك تكون أحد أمراء المسلمين، ويفتح اللَّه على يديك، وأما الحصن الذي فتح اللَّه لك؛ فهو ذلك الوجه الذي يفتح اللَّه لي، وأما العرش الذي رأيتني عليه جالسًا؛ فإن اللَّه يرفعني ويضع المشركين، قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وأما الذي أمرني بطاعة الله، وقرأ عليَّ السورة؛ فإنه نعى إلى نفسي، وذلك أن النبي ﷺ نعى اللَّه إليه نفسه حين نزلت هذه السورة، وعلم أن نفسه قد نُعيت إليه، ثم سالت عيناه، وقال: لآمرن بالمعروف ولأنهين عن المنكر، ولأجهدن فيمن ترك أمر الله، ولأجهزن الجنود إلى العادلين بالله[1] في مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا: اللَّه أحد، أحد لا شريك له، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، هذا أمر اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، فإذا توفاني اللَّه ﷻ لا يجدني اللَّه عاجزًا، ولا وانيًا، ولا في ثواب المجاهدين زاهدًا»[2].

❑ الصديق وترغيبه في جهاد الروم:

لما أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر، وعثمان، وعليًّا، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه، فقال: «إن اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ لا تُحصى نعمه، ولا تبلغ الأعمال جزاءها، فله الحمد كثيرًا على ما اصطنع عندكم من جمع كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يُطْمَعُ أن تشركوا بالله، ولا أن تتخذوا إلهًا غيره، فالعرب أمة واحدة، بنو أب وأم، وقد أردت أن استنفركم إلى الروم بالشام، فمن هلك هلك

---

(١) يعني: المشركين به.
(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٦١/٢، ٦٢).

شهيدًا، وما عند اللَّه خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين، مستوجبًا على اللَّه ﷻ ثواب المجاهدين»(١).

ووجد الصديق في إخوانه ما يتمناه: الدعم المطلق، والتأييد الكامل، ووقف الخليفة يخاطب المسلمين في المسجد: «يا أيها الناس، إن اللَّه قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضلكم بهذا الدين على كل دين، فتجهزوا عباد اللَّه إلى غزو الروم بالشام، فإني مؤمر عليكم أمراء، وعاقد لكم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، لتحسن نيتكم، فإن اللَّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»(٢).

❑ استنفار الصديق لأهل اليمن:

وكتب الصديق إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم: من خليفة رسول اللَّه إلى من قُرِئَ عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن: سلام عليكم. فإني أحمد اللَّه إليكم اللَّه الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافًا وثقالًا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والجهاد فريضة مفروضة، والثواب عند اللَّه عظيم، وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وقد حسنت بذلك نيتهم، وعظمت حسنتهم، فسارعوا عباد اللَّه إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه؛ فإنكم إلى إحدى الحسنيينْ: إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة، فإن اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ لم يرض من عباده بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق، ويقروا لحكم الكتاب، حفظ اللَّه دينكم، وهدى قلوبكم، وزكي أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين»(٣)، وبعث الصديق هذا الكتاب مع أنس بن مالك.

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢/٦٣، ٦٤).

(٢) تهذيب ابن عساكر (١/١٢٦ـ ١٢٩).

(٣) تاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (٨)، وتهذيب تاريخ دمشق (١/١٢٩).

❑ عقد الصديق الألوية للجيوش الأربعة الذاهبة للجهاد في الشام

عقد الصديق الألوية لأربعة جيوش أرسلها لفتح الشام، وهي:

١- جيش يزيد بن أبي سفيان.

وهو أول الجيوش التي تقدمت إلى بلاد الشام، وكانت مهمته الوصول إلى دمشق، وفتحها، ومساعدة باقي الجيوش عند الضرورة. عززه الخليفة بالإمدادات حتى صار معه بحدود السبعة آلاف رجل، وشيعه ماشيًا، وأوصاه بوصية من أحسن الوصايا، وأكثرها نفعًا، فقال: «إني قد وليّتك؛ لأبلوك، وأجربك، وأُخرِّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليًا له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربًا بعمله، وقد وليتك عمل خالد[١]، فإياك وعبية[٢] الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإن وعظتهم فأوجز؛ فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها، وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم، وأقْلل لُبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينهم فيروا خللك[٣]، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة[٤] عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم[٥]، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك، فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تَخْزُن عن المشير خبرك، فتُؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك، وبدِّدهم في

---

(١) أي: خالد بن سعيد بن العاص.

(٢) أي: عصبية.

(٣) أي: لا تطلعهم على دخيلة أمرك، فيطلعوا على عيوبك.

(٤) يعني: ليروْا قوة المسلمين.

(٥) الكامل، لابن الأثير (٢/٦٤، ٦٥).

عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل من محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربهما من النهار، ولا تَخَف من عقوبة المستحق، ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعًا، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العَبَّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول؛ فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له»[1].

٢ـ جيش شرحبيل بن حسنة:

حدَّد الصديق ﷺ لمسير شرحبيل بن حسنة ثلاثة أيام بعد مسير يزيد، وأمره أن يسير إلى تبوك، والبلقاء، ثم بصرى، وهي آخر مرحلة.

٣ـ جيش أبي عبيدة بن الجراح:

ودع الصديق أبا عبيدة ثم قال: «... إنك تخرج من أشراف الناس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين، وفرسان الجاهلية كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة، والنية الحسنة، أحسن صحبة من صحبك، وليكن الناس عندك في الحق سواء، واستعن بالله وكفى بالله معينًا، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا»[2].

وكان جيشه ما بين: ٣ ـ ٤ آلاف مجاهد، وهدف ذلك الجيش حمص.

وكان قيس بن هبيرة المراد في جيش أبي عبيدة، فأوصى الصديق أبا عبيدة به؛ لأنه من فرسان العرب المشهورين، وقال له: إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف، فارس من فرسان العرب، ليس بالمسلمين غناء عن رأيه، ومشورته، وبأسه في الحرب، فأدنه،

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (١٧).

(٢) فتوح الشام، للأزدي ص (٢٦، ٢٧).

وألطفه، وأره أنك غير مستغن عنه، ولا مستهين بأمره، فإنك تستخرج بذلك نصيحته لك، وجهده وجدَّه على عدوك.

وقال الصديق لقيس: «اجعل بأسك، وشدتك، ونجدتك في الإسلام على المشركين، وعلى من كفر بالله وعبد معه غيره، فقد جعل الله في ذلك الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والعزَّ للمسلمين، فقال قيس: إن بقيت وأبقاك الله فسيبلغك عني من حيطتي على المسلم، وجهدي على الكافر ما تحب، ويسرك، ويرضيك. فلما بلغ أبا بكر مبارزة قيس بن هبيرة للبطرقين بالجابية، وقتله إياهما، قال: صدق قيس وبرَّ، ووفَّى»[1].

٤- جيش عمرو بن العاص:

سار الصديق مودعًا لجيش عمرو بن العاص، وقد خرج فيه عدد من أشراف قريش منهم الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وقال الصديق لعمرو: يا عمر، إنك ذو رأي وتجربة بالأمور، وبصر بالحرب، وقد خرجت مع أشراف قومك، ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك، فلا تألهم نصيحة، ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فربَّ رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور[2].

وكان هدف الجيش فلسطين، وسلك طريق ساحل البحر الأحمر حتى وادي عربة بالبحر الميت.

محاولة هرقل تدمير جيش المسلمين بالشام، وكتاب الصديق إلى قادة الجيوش، ومدُّهم بالمجاهدين:

كان للروم في الشام جيشان كبيران أحدهما في فلسطين والآخر في إنطاكية،

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٤٨- ٥١).

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، للرائد نهاد عباس الجبوري ص (١٤٧)، دار الحرية، بغداد.

وتمركز الجيشان في ستة مواضع؛ هي: إنطاكية، وقنسرين، وحمص، وعمان، وأجنادين، وقيسارية. وأصدر هرقل أوامره إلى قواته بالتوجه لتدمير الجيوش الإسلامية كل على انفراد كالآتي:

يتراجع الروم أمام المسلمين ويتخلوا لهم عن الحدود الشامية الحجازية.

تتجمع وحدات الجيش الأول في فلسطين بعد تقريرها بقيادة «**سرجون**».

تتجمع وحدات الجيش الثاني في إنطاكية بقيادة «**تيدور**».

تتحرك هذه الجيوش وتهاجم أمراء الإسلام الأربعة الواحد بعد الآخر، وذلك لتسهيل تصفية جيوش الإسلام على انفراد، وعلى أساس هذه الخطة التي وضعها هرقل تحركت جيوش الروم حسب الترتيب الآتي:

توجيه أخاه «**تذراق**» في تسعين ألفًا للقضاء على جيش عمرو بن العاص.

توجيه «**ابن توذر**» إلى يزيد بن أبي سفيان.

توجيه «**القبقار بن نسطوس**» في ستين ألفًا إلى جيش أبي عبيدة.

توجيه «**الدارقص**» نحو شرحبيل بن حسنة[١].

استطاع المسلمون الحصول على المعلومات الدقيقة عن هذه الجيوش ونواياها بكل تفاصيلها، وعن تفاصيل الخطة الرومية لتدمير الجيوش الإسلامية كل على انفراد، وراسل قادة الجيوش الخليفة بالمدينة يخبروه بخبر هرقل؛ ليرى الصديق رأيه.

وكتب أبو بكر إلى أبي عبيدة:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغني كتابك، وفهمتُ ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بإنطاكية فهزيمة له ولأصحابه، وفتح من اللَّه عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته، وجمعه لكم الجموع، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٠، ٣١).

ويخرجوا عن ملكهم بغير قتال، وقد علمت والحمد لله قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم للحياة، ويرجون من اللَّه في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل اللَّه أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فألقهم بجنودك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين، فإن اللَّه معك، وأنا مع ذلك مُمدُّك بالرجال حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته[١].

ورد الصديق على كتاب يزيد، وهذا نص الجواب:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه تحول ملك الروم إلى إنطاكية، وأن اللَّه ألقى الرعب في قلبه من جموع المسلمين، فإن اللَّه ـ وله الحمد ـ قد نصرنا ونحن مع رسول اللَّه ﷺ بالرعب، وأمدنا بملائكته الكرام، وإن ذلك الدين الذي نصرنا اللَّه به بالرعب هو هذا الدين الذي ندعوا الناس إليه اليوم، فوربك لا يجعل اللَّه المسلمين كالمجرمين، ولا من يشهد أن لا إله إلا اللَّه كمن يعبد معه آلهة آخرين، ويدين بعبادة شتى، فإذا لقيتموهم فانهد إليهم بمن معك، وقاتلهم، فإن اللَّه لن يخذلك، وقد نبأنا اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ أن الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، وأنا مع ذلك مُمدك بالرجال في إثر الرجال، حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان، إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

وبعث الصديق بهذا الكتاب مع عبداللَّه بن قرط الثمالي، فقرأه يزيد على المسلمين، ففرحوا به وسُرُّوا[٢].

وشرع الصديق في إمداد الجيوش الإسلامية ببلاد الشام بالرجال.

فأرسل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص بألف من المجاهدين إلى أبي عبيدة، وقال لهاشم: يا هاشم، إن من سعادة جدِّك، ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين بهم

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٠- ٣٣).
(٢) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٣- ٣٥).

الأمة على جهاد عدوها من المشركين، وممن يثق الوالي بنصيحته، ووفائه، وعفافه، وبأسه، وقد بعث إليّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار، فسِرْ إليهم فيمن تبعك فإني نادب الناس معك.

وقام الصديق، وخطب في الناس، وحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم من المسلمين معافون، مدفوع عنهم، مصنوع لهم، وقد ألقى اللَّه الرعب في قلوب عدوهم منهم، وقد اعتصموا بحصونهم، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم، وقد جاءتني رسلهم يخبرونني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل بقرية من قرى الشام في أقصى الشام، وقد بعثوا إليّ يخبرونني أنه قد وجه إليهم هرقل جندًا من مكانه ذلك، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم، يشدد اللَّه بهم ظهورهم، ويكبت بهم عدوهم، ويلقي بهم الرعب في قلوبهم، فانتدبوا ـ رحمكم اللَّه ـ مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واحتسبوا في ذلك الأجر والخير، فإنكم إن نُصرتم فهو الفتح والغنيمة، وإن تهلكوا فهي الشهادة والكرامة، وقال لهاشم: «يا هاشم، إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه، ومشورته، وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشاب بصبره، وبأسه، ونجدته، وإن اللَّه ﷻ قد جمع لك الخصال كلها وأنت حديث السن، مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر، واعلم أنك لن تخطو خطوة، ولا تنفق نفقة، ولا يصيبك ظمأ، ولا نصب، ولا مخمصة في سبيل اللَّه إلا كتب اللَّه لك به عملا صالحًا، إن اللَّه لا يضيع أجر المحسنين»[1].

❑ توجيه خالد إلى الشام ومعركة أجنادين واليرموك:

«رأى قادة جيوش الشام أن يتجمعوا في مكان واحد؛ ليتمكنوا من إحباط خطة الرومان وإجبارهم على خوض معركة فاصلة تخوضها كل الجيوش الإسلامية، واقترح عمرو بن العاص أن يكون مكان التجمع باليرموك، وجاء رأي الصديق موافقًا

---

(١) فتوح الشام، للأزدي ص (٣٣ـ ٣٥).

لرأي عمرو، وأرسل الصديق إلى أبي عبيدة: بث خيلك في القرى والسوداء، وضيق عليهم بقطع الميرة والمارة، ولا تحاصروا المدائن حتى يأتيك أمري، فإن ناهضوك فانهض لهم، واستعن بالله عليهم، فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثلهم»[١].

وجاء في رواية: «إن مثلكم لا يؤتى من قلَّة، إنما يؤتى العشرة الآلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليُصَلِّ كل رجل منكم بأصحابه»[٢].

لله در الصديق: «إنما يؤتى العشرة آلاف إذا أوتوا من تلقاء الذنوب»، هذا الكلام العظيم يأتي موافقًا ومتابعًا لقول رسولنا ﷺ:

«خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قِلة»[٣].

وكتب الصديق إلى جنده: «**إنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من خذله**»[٤].

وكتب الصديق إلى خالد ـ كما قلنا من قبل ـ يأمره أن ينتقل بنصف جيشه إلى الشام، وأن يتولى قيادة الجيوش بها.

نعم، لله در الصديق، فالأمر يحتاج إلى قائد يجمع بين قدرة أبي عبيدة، ودهاء عمرو، وحنكة عكرمة، وإقدام يزيد.

ووصل خالد بجيشه إلى الشام بعد رحلة عبر الصحراء لم يذكر التاريخ شبيهًا

---

(١) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين ص (١٤٨).

(٢) تاريخ الطبري (٤/٢١١).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وعبد بن حُميد، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحه»، والدارمي في «سننه»، وابن عدي، وقال الترمذي: حسن غريب. ولم يصححه؛ لأنه يروى مسندًا، ومرسلًا، ومعضلًا، قال ابن القطان: لكن هذا ليس بعلة والأقرب صحته. وصححه السيوطي في «الجامع الصغير»، والألباني في «الإرواء» (١٩٨٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٨٦)، و«صحيح الجامع» (٣٢٧٨).

(٤) تاريخ الطبري (٤/٢١١).

لها، وكانت إمدادات الصديق تتواصل على الشام، ولما قال قادة الروم: «**والله، لنشغلن أبا بكر بنفسه عن أن يورد الخيول إلى أرضنا**»[١]، كان ردُّ الصديق: «**والله، لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**»، وفي رواية: «**والله، لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**»، وكتب الصديق إلى أبي عبيدة بتولية خالد، وقال: «أما بعد، فإني قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره، فإني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد اللَّه بنا وبك سبيل الرشاد والسلام عليك ورحمة اللَّه وبركاته»[٢].

❑ معركة أجنادين

كانت أجنادين أول المعارك الكبيرة في بلاد الشام بين المسلمين والروم، وانتصر المسلمون فيها انتصارًا عظيمًا، وكتب خالد بالنصر إلى الصديق، فلما وصل الكتاب إلى أبي بكر ـ رحمه اللَّه ـ فرح به، وأعجبه، وقال: «**الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقرَّ عيني بذلك**»[٣].

❑ اليرموك ونهاية وجود الروم بأرض الشام:

كانت معركة اليرموك الخالدة، وأيد اللَّه المجاهدين في سبيله بنصره، وكان نصرًا عزيزًا وحاسمًا حول مجرى التاريخ، وأذهل عقول الباحثين والمؤرخين في القديم والحديث، ولعل من بعض الحقيقة القول بأن النصر كان ثمرة من ثمار جُهد تلك القوات التي خاضت الحروب بتجرد وإخلاص لا مثيل لهما ولا نظير. فكان ذلك نصرًا لفضائل المجاهدين في سبيل الله. ولعل من بعض هذه الحقيقة ـ أيضًا ـ القول بأن

---

(١) البداية والنهاية (٧/٥).

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله ص (٣٩٢، ٣٩٣)، دار النفائس.

(٣) فتوح الشام، للأزدي ص (٩٣).

النصر كان ثمرة من ثمار جهد أولئك القادة الذين أمكن لهم بسرعة مذهلة الانتقال من قيادة المجموعات القتالية الصغرى التي لا تتجاوز بضع مئات إلى قيادة الآلاف وعشرات الآلاف، مع استخدام أساليب قتالية متقدمة لم يتمكن من فهمها قادة العدو.

وقد يكون من هذه الحقيقة القول بأن النصر لم يكن إلا نتيجة طبيعية لتلك العقيدة القتالية الإسلامية التي التحمت في سداها ولحمتها بالعقيدة الدينية.

غير أن هناك حقيقة لا يمكن إغفالها، أو تجاوزها، فقد عمل الخليفة أبو بكر الصديق على إدارة الحرب بعزيمة صلبة، وقبضة قوية، وكفاءة عالية، وكانت الثقة المتبادلة بينه وبين القوات هي أساس العمل الناجح الذي أثمر تلك الانتصارات الخالدة.

غير أن صاحب النصر لم يعمر حتى يعيش حلاوة النصر، فقد قضى ومضى إلى الرفيق الأعلى يوم سطر المجاهدون في سبيل الله أروع الملاحم البطولية على ضفاف اليرموك الخالد[١].

❏ الصديق القائد العسكري الفذُّ

إن استنباط مبادئ الحرب لم يكن إلا ثمرة من ثمار الجهد الإنساني، والتجارب القتالية عبر التاريخ.

إن الأعمال القتالية التي قادها الخليفة الصديق في البداية، ثم كلَّف من يتولى قيادتها بعد ذلك من خلال تحديد أهداف معينة، وحشد القوى والوسائط اللازمة، قد حققت من النتائج ما لا يتناسب أبدًا، مع حجم القوات التي قامت بالتنفيذ، ولا مع الأبعاد الزمنية والمكانية التي جرت في حدودها أحداث الفتح، لقد كانت المنجزات التي أمكن تحقيقها أقرب إلى الإعجاز، أو أنها الإعجاز ذاته. فهل كان

---

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (٧٠، ٧١)، دار النفائس.

باستطاعة القوات لو تحركت دونما هدف واضح، ودونما تخطيط محكم، ودونما تنسيق رائع أن تحقق ما أنجزته؟ إن ذلك وحده كافيًا لحمل كل مكابر أو معاند على الاعتراف بقدرة تلك القيادة التي حققت ذلك الإنجاز الخالد خلال فترة قياسية من عمر الزمن، وبإمكانات وقوات تكاد تكون رمزية بالمقارنة مع تلك الجيوش الجرارة التي تصدت لحربها.

* * *

لقد كان للصدّيق دورُهُ الحاسمُ والأساسيُّ فيما أمكن إنجازه، وكان هذا الدور يستند في قسم منه إلى ما توافر للصديق من الكفاءة والخبرة، كما يستند في قسم منه - أيضًا - إلى مبادئ فن الحرب الإسلامي ومذهبه العسكري، ويستند - أيضًا - إلى اختيار الصديق لمجموعة القادة الذين تخرجوا من مدرسة الإسلام وأتقنوا فن الحرب في مدرسته من أمثال: أبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وأخيه معاوية، وشرحبيل بن حسنة، والمثنى بن حارثة الشيباني، وعياض بن غنم، والنعمان بن مقرن وأخويه، والقعقاع بن عمرو التميمي، وعشرات بل مئات من أمثالهم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ -، وقد يندر في عصر من العصور العثورُ على مجموعة كبيرة من القادة الذين توافرت لهم جميعهم مثل تلك الكفاءات القيادية النادرة الذين تَرَبَّوْا في مدرسة الحرب الإسلامية، وهم جميعًا على قدر كاف من الكفاءة لوضعهم على مستوى القادة العالميين، فهل من غرابة أن تنجح قيادة الصديق ذلك النجاح الذي لم يعرف له التاريخ شبيهًا أو نظيرًا؟!

❑ لله در الصديق ودوره الحاسم في دنيا الفتوح:

لقد أولى الصديق إدارة الحرب كل جهده، فحشد للحرب الحشود، وأطلق الجيوش، وتابع تحركاتها وأعمالها، واستمر في توجيهها، حتى بدأت بواكير النصر في الظهور، وعندما مضى الصديق إلى الرفيق الأعلى، وألقى بثقل المسئولية على عاتق خليفته أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسار على نهج الرسول ﷺ وخليفته،

وبهذا يكون جهد الصديق رضي الله عنه هو الذي حدد معالم الطريق لمن خلفه من خلفاء المسلمين، وبذلك يظهر دور الصديق الحاسم في دنيا الفتوح.

وفي طرائق الصديق رضي الله عنه لإدارة الحرب تمثلت بوضوح كافة أسس القتال، ومبادئ الحرب التي حددها واستخدمها الرسول الأعظم، ليس ذلك فحسب، وإنما عمل الصديق على تطوير تلك الأسس والمبادئ وفقًا لما تطلبته الظروف المستجدة والمواقف الطارئة، ونظرًا للاتباع العظيم للصديق لهدي رسولنا ﷺ فقد كان كل اجتهاد وكل تطوير وكل إبداع يسير ضمن الاتجاه العام لإرادة الحرب وفقًا لتعاليم القرآن والسنة.

وبات باستطاعة العقيدة القتالية الإسلامية أن تكتسب غناها وثراءها من تجاربها الذاتية، وكانت هذه التجارب في حد ذاتها وما وافقها من نجاحات رائعة، تصديقًا لما تحمله تلك الأسس والمبادئ من الصحة، الأمر الذي عزَّز من قيمتها ودعَّم من أهميتها، وبذلك نشأت العلاقة الثابتة بين نظرية الحرب الإسلامية المستندة إلى تعاليم القرآن والسنة النبوية الشريفة وبين التجارب القتالية المتكاملة والمتتالية، فكان فن الحرب الإسلامي هو فن الحرب الرائد عبر التاريخ، والذي ربط بين النظرية والتطبيق، وبين المبدإ والظروف المحيطة بالمعركة، ويكفي هنا القول بأن مبادئ المذهب العسكري الإسلامي قد ظهرت بشكلها الواضح قبل أن يستنبط قادة الحرب وَمُنَظِّرُوهَا وأساتذتها مبادئ الحرب ـ المتعارف عليها حديثًا ـ بأكثر من اثني عشر قرنًا.

❑ ميلادنا أقدم من ميلادك:

إن التسميات الحديثة لمبادئ الحرب والاستراتيجية هي من نتاج الفكر الحربي المعاصر، ولكن هذه التسميات في حد ذاتها ليست مفصولة عن جذورها الموغلة في عمق التاريخ وتجاربه، فالأشياء تُخلق قبل معرفتها، ويتم التعرف عليها بأشكالها وألوانها قبل إطلاق الأسماء عليها؛ ولذا نقول ـ بكل ثقة ـ: إن الصديق رضي الله عنه مارس قيادته العسكرية بنجاح رائع اعتمادًا منه على «**مبادئ الحرب**» و«**أسس السياسة**

الاستراتيجية»، لقد فعل الصديق ذلك كله بمعرفة تامة وإدراك عميق، غير أنه لم يكن يعرف يقينًا التسميات الحديثة لمبادئ الحرب والاستراتيجية، وإلَّا بماذا يمكن تسمية إعطاء الصديق الأفضلية لحروب الردة والانطلاق منها إلى الفتوح؟

هل هناك تسمية أفضل من **«بناء القاعدة الصلبة» ـ وهو اصطلاح عسكري حديث ـ؟**.

وهل يمكن تسمية قيادة الخليفة الصديق لقوات المسلمين في بهمة الليل ومع التحرك بصمت ـ لا همسًا ولا حِسًّا ـ حتى أصبحوا والعدو على صعيد واحد ولما يشعر بهم، هل يمكن تسميتها بغير **«المباغتة»**؟

وما الاسم المناسب لحركة جيوش المسلمين، وقد ضجَّت بها أرض الجزيرة كلها من أقصاها إلى أقصاها، وكيف يمكن وصفها وهي تنتقل من هدف إلى هدف ومن منطقة إلى منطقة؟ أليس اسم **«حرب الحركة»** هو الاسم الأفضل والأمثل؟

❑ أسس الانضباط «قواعد الضبط والربط»:

قبل ظهور هذه التسمية في الجيوش الحديثة بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا كانت وصايا الخليفة الصديق إلى قادته تمثل غاية أسس الانضباط، وقواعد الضبط والربط في أسمى صورها «**كن والدًا لمن معك، واقتصد بالمسلمين، وارفق بهم في السير والمنزل وتفقدهم، واستوص بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول**»، وما أعظم العلاقة التي كانت تشد مجاهدي المسلمين بعضهم إلى بعض.

❑ «وحدة القيادة» و«القاعدة الصلبة»:

لقد كان أهم ما عمل الصديق هو **«إعادة توحيد المسلمين»** وتوجيههم في تيار واحد، لا انحراف فيه، ولا حيدان عنه مما ضمن بذلك القدرة للعمل تحت قيادة واحدة، أو ما هو معروف باسم مبدإ **«وحدة القيادة»**، وكان لزامًا دعم القاعدة الصلبة بالإنسان المسلم، هدف الدولة الإسلامية ووسيلتها في آن واحد، وصمدت القاعدة

الصلبة للردة.

❏ حرب الحركة:

في حروب الردة كان الصديق في سباق مع الزمن، ويمكن تشبيه حركة الصديق مع المرتدين بما هو معروف اليوم باسم «**الضربات الإجهاضية المسبقة**»، وكان لا بد للصديق من توجيه ضربة حاسمة لإجهاض استعدادات المرتدين وحرمانهم من استثمار عامل الوقت.

فلأن تنطلق قوات المسلمين بنصف استعداد وبإيمان كامل، خير من أن تنطلق باستعداد كامل يقابله استعداد مماثل من قبل الأعداء.

ولعل الخليفة الصديق قد أدرك بصادق حسه أن القوة هي محصلة لضرب الكتلة بالسرعة فكان يسرع في تكتيب الكتائب وتنظيم كتل المجاهدين ويوجهها بتسارع مذهل؛ ليضاعف من قوتها وقدرتها.

والصديق هو ابن الصحراء وهي المنبت الأساس لحرب «**الحركة**»، وكان عظيم الإلمام بالصحراء ودروبها وطرقها ومحيطًا بكل صغيرة وكبيرة في «**العامل الجغرافي**» لشبه جزيرة العرب، وهو التلميذ الأول لرسول اللَّه ﷺ، وهو الذي لم تكن وقائعه وغزواته إلا النموذج الأعلى لحرب الحركة.

لقد تعرضت «**حرب الحركة**» في الأزمنة الحديثة لكثير من الأبحاث والدراسات؛ نظرًا لأهميتها المتعاظمة، وقد شملت تلك الأبحاث والدراسات محاولات لتطبيق قوانين الفيزياء والرياضيات على حركات الجيوش وتوزيع كتلها وزيادة قوتها وقدرتها.

وبالتعرض لنتائج حرب الحركة في عهد الصديق يشهد القادة العسكريون بتفوق المسلمين في تلك الحرب، وبالعبقرية العسكرية الفذة للصديق.

ولعلَّ أول ما يستدعي الانتباه في هذا المجال هو الانتقال المباغت من قيادة

مجموعات لا تتجاوز البضعة آلاف إلى مجموعات تتجاوز عشرات الآلاف، ولا ريب أن هذا الانتقال الكمي «**العددي**» قد تطلَّب تطورًا نوعيًا مماثلًا في حشد القوى وتوزيعها، وإعطاء الأفضليات للأهداف المتعددة والمنتشرة على مساحات جغرافية متباعدة، وقد يكون هذا وحده أمرًا كافيًا لإبراز مدى الكفاءة القيادية العالية التي توافرت للخليفة الصديق.

لقد أخذ الصديق بعامل «**الأرض والعدو وقوات الصديق**» في إرادته للحرب، فقد وجه الصديق لحرب العراق جيشين بقيادة خالد وعياض بن غنم، وطلب من خالد الدخول إلى العراق من أسفله، ومن عياض الدخول إلى العراق من أعلاه، وحدد لهما الحيرة كنقطة التقاء، ومن الملاحظ في هذا التوجيه أن محوري العمليات قد تحركا على شكل «**كماشة**» وفقًا للمصطلحات الحديثة، وكان تحركهما مستندًا إلى حاجز جغرافي «**نهر الفرات**» حيث كانت تنتشر على ضفافه مسالح الفرس «**مراكزها التقدمية للمراقبة والإنذار**»، وكانت الصحراء تحمي ظهور المسلمين.

وظهرت نتائج حرب الحركة كأوضح ما تكون في حروب الصديق؛ مثل:

- حرمان العدو من حرية العمل العسكري.

- حرمان قيادة العدو من المبادأة ووضعها أمام مواقف تعجز عن إيجاد حلول لها.

- الإفادة من العامل النفسي الذي يتمتع به المهاجم من خلال الشعور بتفوقه المعنوي، ومن خلال امتلاكه للمبادأة وحرية العمل، وإخضاع قيادة الخصم وقواته لضغوط نفسية قاسية.

- إبعاد ويلات الحرب وما يتبعها من تخريب ودمار عن بلاد المسلمين وتحميلها إلى بلاد الأعداء، وكان ذلك ذروة الإبداع وقمة الكفاءة القيادية للتلميذ الأول لمدرسة الإسلام.

❑ الصديق و«الحروب التشتيتية»:

إن إرسال الصديق لأحد عشر جيشًا لمحاربة المرتدين، وإرساله لجيشين يعملان على محورين لحرب العراق، وأربعة جيوش للحرب في أربعة أقاليم من بلاد الشام هو ما يسمى بالمصطلحات الحربية الحديثة بـ «**الحروب التشتيتية**»، لقد كان الصديق في سباق مع الزمن، وكان حجم القوى والوسائط المتوافرة له غير متكافئ مع قوات العدو على كافة الجبهات، فكان هدف الصديق الأول «حرمان قوات الأعداء من تنسيق الجهد فيما بينهما، وإشغال كل قوة من القوى بأمور نفسها، وضرب القوى الأكثر ضعفًا وتدميرها، ثم الانتقال للقوى الأشد بأسًا وأكثر منعة».

لقد تلقى قائد كل جيش من جيوش المسلمين أوامر واضحة من الصديق بالتعامل مع أهداف متتالية بحيث كانت كل قوة تنتقل لدعم قوة أخرى من المسلمين، أو تتعامل مع هدف جديد بمجرد فراغها من تنفيذ واجبها الأول، فكانت قوة المسلمين في حركة دائمة وقتال مستمر، وكانت حرب الحركة بأساليبها وطرائقها التشتيتية أشبه ما تكون بحركة السيل الجارف المندفع من الأعالي «**من المدينة المنورة**» يسير بتؤدة وتمهل في السهول، حتى إذا ما اصطدم بمقاومة تجمعت مياهه وهدرت صاخبة وهي تدمر السد الذي جابهها، ثم يعود السيل إلى سيره الهويني في السهول، معاودًا مسيرته الأولى إذا ما اصطدم بسد جديد.

نجحت خطة الصديق نجاحًا رائعًا خلال مرحلة قياسية من عمر الزمن - في حدود السنة تقريبًا - ثم أطلق الخليفة جيوش المسلمين لفتح الشام والعراق مستخدمًا الخطة ذاتها - خطة الحروب التشتيتية -، فكان تحرك الجيوش على محاور متباعدة وفي مناطق مختلفة عائقًا حَرَمَ قوات الفرس والروم من توجيه ضربة حاسمة لجيوش المسلمين، وعندما قرر الروم حسم الصراع، فحشدوا حشودهم في اليرموك، عادت قوات السيل الجارف فتجمعت لتدمر بصدمة واحدة سَدَّ اليرموك، وكان الانتصار الحاسم الذي ضمن لمياه السيل التحرك بمرونة وسهولة عبر السهول، وتكررت العملية ذاتها

في العراق، فقد تمكن خالد بن الوليد من تحقيق النصر في كافة أيام العراق، مستفيدًا من تشتت قوات الفرس على المسالح وحاميات المدن، حتى إذا ما قرر الفرس بدورهم حسم الصراع بمعركة رئيسية يتم فيها حشد كل القوى المتوافرة تجمعت قوات المسلمين في القادسية فدمرت سَدَّ الفرس، وانطلقت عبر سهول بلاد الفرس وشعابها معاودة سيرتها الأولى(١).

لقد عجز قادة الفرس بقدر ما عجز قادة الروم ـ أيضًا ـ عن فهم ما صنعه الإسلام بأمة العرب، فوقفوا ذاهلين وهم يشهدون تقدم جيوش لا تعتبر أكثر من فصائل أو طلائع في جيوش الفرس والروم من حيث حجمها، فدفع هؤلاء وأولئك قوات متفوقة ظنًّا منهم أن باستطاعة هذه القوات تدمير قوات العرب المسلمين، غير أن هؤلاء نجحوا في تدميرها.

لقد خاض الفرس والروم معاركهم الأولى وهم لا يزالون يتمسكون بمعادلات وموازين القوى المادية، في حين كان المسلمون يخوضون معاركهم بمعادلات وموازين مختلفة تعتمد في أساسها على الصلة بالله، ثم القوى المعنوية والفضائل الحربية.

اضطرَّ قادة الفرس والروم أن يزيدوا في حجم قواتهم، غير أن قوات المسلمين استمرت في تدمير القوى الجديدة، فكانت حرب استنزاف حقيقية، غير أن خسائر الفرس والروم كانت أكبر بكثير من تلك التي كان يفقدها العرب المسلمون، وانعكس ذلك بصورة سلبية على الحالة المعنوية ـ النفسية ـ لقوات الفرس والروم، حتى إذا ما جاءت المعارك الحاسمة كانت نتائجها مقررة مسبقًا؛ إذ من المحال على الجيش بلوغ النصر وهو في حالة نفسية متردية، فكيف وقد بلغ التدهور المعنوي درجة حملت قادة الفرس والروم على الاقتناع بحتمية انتصار العرب المسلمين وفقًا لما تؤيده

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (١٠٧ ـ ١٠٩).

الشواهد التاريخية، وبدلالة انضمام أحد قادة الروم لجيش اليرموك ـ واسمه جرجة ـ، وبدلالة عَصْبِ أحد قادة الفرس رأسه بعصابة، وإعداد متاعه للهرب حتى لا يرى النهاية ـ المأساة ـ التي كان قد رسمها في خياله.

لقد خاض العرب المسلمون معاركهم بمزيج من أساليب «**الحروب الثورية**» وفقًا للتصانيف والمصطلحات الحديثة، والحروب النظامية ـ التقليدية ـ، وتلك هي الظاهرة التي أذهلت قادة الفرس والروم وجعلتهم يقفون حيارى أمام هذا اللغز الغامض والسر المغلق على مداركهم وعقولهم.

وقد اختارت جيوش الصديق من أساليب القتال ما يمكنها من إحراز النجاحات الحاسمة؛ الإغارات والكمائن، والضربات السريعة، والظهور في كل مكان، والاختفاء من كل مكان، ثم الصدق عند اللقاء، فكانت ضربات الفرس والروم تقع في فراغ في حين كانت ضربات العرب المسلمين تأتي مسدَّدة، محكمة، قاتلة، وكانت هذه الأساليب كافية لإحراز النصر على القوات المعادية.

❏ «**استراتيجية التقرب غير المباشر**»:

لقد كان البحث عن «**الحسم في الصراع المسلح**» بهدف الحدِّ من ويلات الحرب هو الحافز الأساسي الذي دفع الصديق لتبني ما أصبح معروفًا في الأزمنة الحديثة باسم «**استراتيجية التقرب غير المباشر**» وذلك للوصول إلى مؤخرات العدو، أو بلوغ العمق الاستراتيجي لمسرح العمليات، ويظهر هذا التوجه واضحًا عند الصديق من خلال دفعه الجيوش إلى عمق بلاد الشام «**حمص**» وعمق بلاد العراق «**أعالي الفرات**»، ولقد أصبح لاستراتيجية التقرب غير المباشر في الحروب الحديثة أهداف واحدة وطرائق مميزة، أهمها الوصول إلى عمق مسرح العمليات والاستناد إلى حاجز العمليات؛ لعزل مسرح العمليات وتدمير التجمعات القتالية الموجودة فيه، والعاملة على أرضه، غير أن هدف استراتيجية التقرب غير المباشر عند الصديق كان في أساسه تطوير الاتصالات مع جماهير سكان البلاد، وتعريفهم بفضائل المسلمين، وما تحمله رسالة الإسلام من

خير للإنسانية، واستثارة مشاعر الخير لدى الناس واكتساب الأنصار، مع العمل في الوقت ذاته على إعداد الظروف المناسبة لحسم الصراع المسلح مع كتلة جيوش الأعداء، فكانت استراتيجية التقرب غير المباشر تعالج ما يمكن تسميته وفقًا للمصطلحات الحديثة بـ«**الحرب النفسية**» جنبًا إلى جنب مع البحث عن «**الحسم في الصراع المسلح**».

❏ حروب الإيمان و«عدالة قضية الحرب».

لقد حملت حروب الإيمان كل الفضائل والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، ولابد من أن يحمل المجاهد في سبيل اللَّه الفضائل الحربية من إقدام وشجاعة وصبر وقدرة احتمال واستعداد دائم للجهاد حتى يستطيع أداء واجبه على أكمل وجه، وقد كان هذا الدور يفرض على كل مجاهد في سبيل اللَّه أن ينظر وهو يقاتل إلى عالم ما وراء الحرب، فاقتصر القتال على ميدان الحرب ولم يتجاوزه إلا لقتل حاملي السلاح ضد المسلمين، وبالتزام المجاهدين في سبيل الله، بداية من أكبر القادة وحتى آخر مقاتل، فقد كانت «**غاية السلم**» تطغى على «**هدف الحرب**» حتى في ذروة الصراع المسلح، وكانت توصيات الصديق لقادة جيوش المسلمين في حروب الردة تؤكد باستمرار عدم التعرض إلا لمن يجهر بالخلاف سواء في أداء الصلاة أو الامتناع عن دفع الزكاة، أما التوصيات في حروب الفتح فكانت محدَّدة: بالدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وفي الحالات كلها كان العنف في الحرب مقيدًا بحدود ميدان القتال[١].

❏ الروح المعنوية:

تشمل حروب الإيمان بديهيًا ما يُطلق عليه اسم «**الروح المعنوية**»، وهي الناحية التي كان الصديق يركز عليها جلَّ اهتمامه، فقد كان الصديق يرافق الجيوش عند

---

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (٨٩).

مغادرتها للمدينة المنورة، ويوصي قادتها بالعمل بإخلاص لوجه الله، ويحذر من ارتكاب المعاصي والذنوب، فقضية الحروب من وجهة الإسلام هي «**قضية الفضائل**»، وسيسير النصر في ركاب الجيوش المؤمنة التي تخلص الجهاد لوجه الله.

لقد أخذت الجيوش الحديثة في وضع مقاتليها أمام مواقف تتساوى فيها الحياة والموت، فيندفع المقاتلون بحثًا عن الحياة من خلال الفضائل الحربية؛ كالشجاعة، وعدالة الحرب، والدفاع عن الوطن... إلخ.

أما في حروب الإيمان فقد كان البحث عن الشهادة متقدمًا على الحرص على الحياة؛ ولهذا فقد كان الرصيد المعنوي للمجاهدين في سبيل اللَّه مرتفعًا إلى الذروة، بحيث كان معادلًا باستمرار ـ أو يزيد ـ على ما كان يمتلكه الأعداء من رصيد مادي، أو تفوق في القوى.

ومما قدمنا من سيرة الصديق يظهر بوضوح حرص الصديق على بقاء الجيوش مترفعة عن الدنيا، متمسكة بالفضائل، لا تغل ولا تغدر، ولم يكن حرمان من تاب من المرتدين من الانضمام إلى جيوش الفتح إلا حرصًا على بقاء هذه الجيوش نقية من كل الريب والشكوك، وإلا تأكيدًا على أن الجهاد في سبيل اللَّه هو شرف لا يناله إلا المؤمنون الصادقون الذين خرجوا إلى الفتح وهم لا يبحثون إلا عن النصر أو الشهادة.

لقد كانت الحروب في الإسلام لنشر راية الإسلام وإعزاز المسلمين، في حين بقيت الحروب في منظور قادة الحروب الحديثة غاية للتوسع أو النهب أو للاثنين معًا على نحو ما عرفه تاريخ جيوش العالم عبر التاريخ ـ قديمه وحديثه ـ، وبهذا انتصر الإسلام[١].

❑ عزل ميدان المعركة:

عندما بدأ الصديق رضي الله عنه باستنفار القوات لحرب الروم والفرس أرسل خالد بن سعيد إلى تبوك بمهمة إلى مناطق الحشد، ومحاور التقدم، وأمره أن يكون ردءًا

---

(١) الصديق القائد، لبسام العسلي ص (٩٠ - ٩٢).

للمسلمين، وعندما فشل في هذا الواجب وتجاوزه قام عكرمة بن أبي جهل به[١].

❑ **سلامة خطوط الاتصال مع القادة:**

كانت خطوط الاتصال بين الصديق وقادة المعارك منظمة ومنتظمة بحيث تصل المكاتبات من القادة في أمان، وتصل ردود الخليفة في سرية تامة وسرعة متقدمة لا تسمح للعدو أن يفاجئ المسلمين بشيء لا يتوقعونه، وهكذا كانت الخطط الحربية عند المسلمين دقيقة محكمة مما كان عاملًا من عوامل دحر الأعداء والتغلب عليهم بفضل في حركة الفتوح.

❑ **نقل محاور العمليات وتحقيق التوازن على مسارح العمليات:**

تحركت جيوش المسلمين لحروب الردة على محاور مختلفة للعمل على مناطق مختلفة ومتباعدة، ولكنها كانت تلتقي وتجتمع إما لمعالجة قوات كبيرة، أو للعمل في مناطق واسعة وكل ذلك وفقًا لأوامر الخليفة أبي بكر وتنفيذًا لتعليماته، وكان ذلك يعني ببساطة تحقيق أهم مبدإ من مبادئ العمل على مسارح العمليات وهو: نقل محاور العمليات غير أن هذه الظاهرة لم تأخذ شكلها الواضح تمامًا إلا في عمليات فتوح الشام والعراق.

فعندما أطلق الخليفة أبو بكر جيوش العرب المسلمين وضع في اعتباره تحقيق نوع من «**التوازن في القوى على مسارح العمليات**» فكان عدد جند العراق في حدود عشرين ألفًا يقابلهم سبعة وعشرون ألفًا ـ تقريبًا ـ على مسرح عمليات الشام، غير أن إقدام الروم على حشد جميع قواتهم جعل مسرح عمليات الشام للمسلمين يجابه مأزقا حرجًا فما كان من الصديق إلا أن أعطى مسرح عمليات الشام «**الأفضلية الأولى**»، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد للتحرك بنصف جيش العراق لنجدة إخوانه في الشام، وتم تنفيذ الحركة التاريخية الشهيرة.

---

(١) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين ص (١٤٨).

وفي اليوم الأخير من حياة الخليفة الصديق جاءه المثنى بن حارثة الشيباني، وشرح له المأزق الخطير الذي يجابهه مسرح عمليات العراق من جرَّاء حشد الفرس لجميع قدراتهم بهدف حسم الصراع مع المسلمين، فما كان من الصديق إلا أن استدعى عمر بن الخطاب وطلب إليه العمل لإرجاع جيش العراق إلى العراق مع استنفار كل القوى وتوجيهها إلى العراق، فعاد العراق ليحتل مرتبة «**الأفضلية الأولى**» على مسرح الأعمال القتالية، وتمت إعادة «**التوازن المفقود**» من خلال نقل محور العمليات من الشام إلى العراق.

لقد اكتسبت حركة خالد بن الوليد من دومة الجندل إلى «قراقر فسوى» شهرةً تاريخية واسعة؛ إذ اعتبرت النموذج الأمثل والشكل الأفضل لحرب الحركة في الصحراء، وعولجت على أنها إعجاز خارق للطبيعة، وهي بحق حركة رائعة تستحق كل ما نُسب إليها، غير أن أهمية هذه الحركة لا تبلغ في كل الأحوال مستوى ذلك الفكر الاستراتيجي الذي أبدعها وأمر بتنفيذها، وعند معالجة العملية من هذه الزاوية يصبح الفضل كل الفضل للصديق، ثم لبراعة وفدائية وجندية خالد بن الوليد، ويتزايد الإعجاب بذلك الفكر الاستراتيجي المتألق عند متابعة الوقوف على مسيرة الأعمال القتالية للوصول إلى الحركة المضادة من الشام إلى العراق والتي أصدر الخليفة الصديق الأمر بتنفيذها يوم وفاته.

ومما يؤكد هذه الحقيقة وجود ما يشبه الإجماع على أن تحرك خالد بن الوليد بنصف جيش العراق إلى الشام كان هو العامل الحاسم في نجاح المسلمين في معركة اليرموك، وكذلك في أن التحرك المضاد من الشام إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو التميمي هو العامل الحاسم فيما أحرزه المسلمون من انتصار حاسم في معركة القادسية.

ذلك هو الخليفة الصديق رضي الله عنه يمكث على بعد مئات الكيلو مترات وراء رمال الجزيرة وهو يمسك بقبضته الرحيمة والحازمة خيوط التحرك لمجموعات من المجاهدين

في سبيل اللَّه ينقلها إلى حيث مواطن البلاء والخطر، ويحقق التوازن على مسارح الأعمال القتالية، ويحرك محاور الثقل للقوات إلى حيث تتطلبه أفضليات القتال.

لقد باتت عملية تحقيق التوازن على مسارح العمليات، ونقل ثقل محاور العمليات من قطاع إلى قطاع ومن جبهة إلى جبهة هي مقياس الإدارة الناجحة للأعمال القتالية في الحروب الحديثة؛ ذلك لأنها تبرهن على مدى المرونة المتوافرة لدى القائد في مواجهته للمواقف الطارئة، ليس ذلك فحسب، بل إنها تؤكد توافر مجموعة المعطيات المطلوبة لنجاح المعركة؛ مثل: التقدير الصحيح للمواقف، والقدرة الحركية العالية للقوات، والبحث عن المعركة الحاسمة.

❑ **التصرف بالقوى والوسائط المتوافرة لبلوغ أعلى الأهداف يبرز في مثاله الرائع الذي لا يبارى في قيادة الصديق رضي الله عنه:**

نأتي إلى المؤشر الثابت لكفاءة الصديق في مجال إدارة الحرب؛ ذلك أن مقياس الكفاءة ـ القيادة ـ هو في التصرف بالإمكانات والقوى والوسائط المتوافرة لبلوغ الهدف، ولم تكن الإمكانات والقدرات عند الصديق متكافئة أبدًا لا مع اتساع مسارح العمليات، ولا مع الأهداف التي تقرَّر بلوغها.

كان لا بد من توافر إمكانات جبارة لدى من يتصدى للتعامل مع تلك الأهداف الضخمة بمثل تلك الإمكانات الزهيدة، وقد وجدت تلك القدرات والإمكانات ذاتها في شخص الخليفة الصديق رضي الله عنه، فأمكنه بذلك فرض التحدي على عالمه متجاوزًا بذلك كل المقاييس المعروفة والموازين المعهودة.

لقد اعتبرت قضية «**التوازن بين الهدف والوسائل المتوافرة لبلوغه**» هي مقياس الكفاءة القيادية، ولقد حفظ تاريخ الحروب أسماء عباقرة الحرب الذين أمكن لهم تحقيق انتصاراتهم الضخمة بقوات تنقص بنسب كبيرة أحيانًا عن قوات أعدائهم، غير أن تاريخ الحروب لم يحفظ لنا نموذجًا ينافس أو يضاهي هذا النموذج الرائع في استخدام القوى والوسائط لبلوغ مثل ذلك الهدف لا سيما عند وضع الحدث في

إطاريه الجغرافي والزمن.

هنا وفي هذا المجال على وجه التحديد تظهر عبقرية الصديق العسكرية.

❑ الصديق من كبار القادة العسكريين والمفكرين الاستراتيجيين:

لقد تجلت بصورة مدهشة تثير الذهول والإعجاب المتناهي سعة الفكر الاستراتيجي والقدرة المميزة في إدارة الحرب.

فلو تمَّ الأخذ بكل واحد من الأسس الاستراتيجية التي استخدمها الصديق بوضوح تام؛ كالأخذ بالمبادأة، والمباغتة، وحرب الحركة، والحرب التشتيتية، وتحقيق التوازن في القوى بنقل مسرح العلميات لكان ذلك وحده كافيًا لوضعه على مستوى المفكرين الاستراتيجيين العالميين، فكيف وقد وضع - أو بالأحرى حدد وأوضح - مجموعة من الأسس الاستراتيجية بصورة متكاملة، يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا وثيقًا بحيث يمكن اعتبارها في حد ذاتها مذهبًا عسكريًّا مستقلًا.

ويكفي دليلًا على تكامل الفكر الاستراتيجي لدى الخليفة أن المسلمين في عهده لم تنتكس لهم راية، ولم يهزم لهم جمع، ولم ينكبوا إلا مرة واحدة يوم خالف «**خالد بن سعيد**» أوامر الصديق وتعليماته فوقع في فخ الروم، وقد كان هذا الفشل في حد ذاته برهانًا على كفاءة الصديق - واتساع فكره الاستراتيجي - في معالجة المواقف الطارئة ومجابهة ما هو معروف باسم مآزق الحرب، ولعل أهم ما في الموقف لدى التعرض لهذا المأزق هو تجاوز الانتكاسة بسرعة مذهلة، والانتقال منها إلى إعداد الظروف المناسبة لإحراز النصر، بل إن هذه الحادثة في حد ذاتها تبرز بدعم القدرة المادية لهم؛ فلقد منع الصديق قائده المهزوم «**خالد بن سعيد**» من دخول المدينة حتى لا يفت ذلك من عزيمة المسلمين، وعندما انتهت كافة الإجراءات الوقائية سمح الصديق لخالد بن سعيد بدخول المدينة.

ولقد فَصَلَ الصديق القائد بين السياسة الاستراتيجية وبين إدارة العمليات أو قيادة الأعمال القتالية، وترك لقادته حرية العمل العسكري لإدارة العمليات القتالية

بالأساليب التي يرونها مناسبة، وظاهرة الفصل بين ممارسة القيادة الاستراتيجية وبين قيادة العمليات سبق كبير في مجال «**فن الحرب**» لم تعرفه إلا الجيوش الحديثة.

ونختم بما قال الصديق المجاهد: «**ألا وإن في كتاب اللَّه من الثواب على الجهاد في سبيل اللَّه لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يُخَصَّ به، هي التجارة التي دل عليها ونجَّى بها من الخزي وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة**»(١).

وهو الذي يخص الليث سيف اللَّه المسلول على القتال فيقول: «**احرص على الموت توهب لك الحياة**».

واللَّه إن شعارات جيوش الصديق تنقلك إلى عوالم نورانية ربانية اشتاق المرء منا إليها. انظر:

كان شعار جيش أسامة: يا منصور أمت(٢).

وشعار خالد في مسيره نحو مسيلمة الكذاب: يا محمداه.. يا محمداه(٣).

وفي فتوح الشام كان شعار أبي عبيدة: أمت أمت.

وشعار خالد بن الوليد ومن معه: يا حزب الله.

وشعار اليمن: يا أنصار الله.

وشعار حمير: الفتح.

وشعار دارم: الصبر الصبر.

وشعار بني مراد: يا نصر الله.

ما أحوجنا إلى نفحات هذا العصر المبارك.. عصر البطل المجاهد صديق الأمة الأكبر خليفة رسول اللَّه ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الطبري (٢٠٨/٤).
(٢) طبقات ابن سعد (١٩١/٢).
(٣) تاريخ الطبري (١١١/٤).

٦

الفاروق الشهيد
عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الذي تَفِرُّ شياطينُ الإنس والجن منه..
أَعَزَّ اللَّه به الإسلام وَأَذَلَّ به قيصر الروم وملوك بني ساسان .

الفاروق الشهيد عمر بن الخطاب

قال رسول اللَّه ﷺ: «**إيهًا يابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط، إلا سلك فجًا غير فجِّك**»(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر**»(٢).

❑ إنه عمر الذي دعا رسول اللَّه ﷺ ربه أن يُعز الإسلام به:

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اللهم أعِزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب**» قال: وكان أحبهما إليه عمر(٣).

وعن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر(٤).

وعن ابن مسعود: أن عمر صارع جِنِّيًّا ثلاث مرات فصرعه(٥).

وانظر إلى شجاعته:

عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم تعلم قريش بإسلامه، فقال: أيُّ أهل مكة أفشى للحديث؟ فقالوا: جميل بن مَعْمَر الجُمحي، فخرج إليه وأنا أتبعُ أثره، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه فقال: يا جميل، إني قد أسلمت. قال: فواللَّه ما ردَّ عليه كلمة، حتى قام عامدًا إلى المسجد، فنادى أندية قريش فقال: يا معشر قريش، إن

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) **حسن**: رواه الترمذي عن عائشة، وقال: «حديث حسن صحيح»، وعزاه المزي للنسائي.

(٣) **صحيح لشواهده**: أخرجه أحمد، والترمذي، وابن حبان، وعبد بن حميد.

(٤) **صحيح**: رواه البخاري في (صحيحه) (٣٦٨٤)، وأخرجه أحمد في (فضائل الصحابة) (٣٦٨)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/١٩٣)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٠٢٢).

(٥) **صحيح لشواهده**: رواه الهيثمي عنه، وقال: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود، والطريق الثاني فيه المسعودي وقد اختلط، فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي.

ابن الخطاب قد صبأ. فقال عمر: كذب، ولكني أسلمتُ، وآمنت بالله، وصدقت رسوله. فثاوروه فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رءوسهم، حتى فتر عمر، وجلس فقال: افعلوا ما بدا لكم، فواللَّه لو كنا ثلاث مئة رجل، لقد تركتموها أو تركناها لكم. فبيْنا هم كذلك قيام إذ جاء رجل عليه حلة حرير، وقميص مُوَشّى، فقال: ما لكم؟ فقالوا: إن ابن الخطاب قد صبأ.قال: فَمَه، امرؤ اختار دينًا لنفسه، أفتظنون أن بني عدي تُسْلِمُ إليكم صاحبهم. قال: فكأنما كانوا ثوبًا انكشف عنه. فقلتُ له بعدُ بالمدينة: يا أبهْ، من الرجل الذي ردَّ عنك القوم يومئذ؟ قال: يا بني، ذاك العاص بن وائل(١).

قال عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نطوف بالبيت ونصلي، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا وطفنا(٢).

وقال ـ أيضًا ـ: كان إسلام عمر فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي ونطوف بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلناهم حتى تركونا نصلي(٣).

وقال صهيب: لما أسلم عمر بن الخطاب، ظهر الإسلام، ودعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا ورددنا عليه(٤). إنه عمر وما أدراك ما عمر.

أعني به الفاروق فرَّق عنوةً ... بالسيف بين الكفر والإيمان

---

(١) **حسن**: رواه ابن حبان في (موارد الظمآن) (٢/٢١٨)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١/٣٤٦)؛ **وانظر**: ابن إسحاق (٣٣٤) كما في (السيرة النبوية)، وابن الأثير عن طريقه في (أُسْد الغابة) (٤/١٥٠)، وخبره صحيح.

(٢) **إسناده حسن**: رواه أحمد في (فضائل الصحابة) (١/٣٤٤).

(٣) الشيخان أبو بكر وعمر برواية البلاذري ص (١٤١).

(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/٢٦٩)، وصفه الصفوة (١/٢٧٤).

هو أظهر الإسلام بعد خفائه ومحا الظلام وباح بالكتمان[١]

قال ابن الجوزي: «قويت شدة عمر في الدين فصلبت عزائمه، فلما حانت الهجرة، تسللوا تسلل القَطَا، واختال عمر في مشية الأسد، فقال عند خروجه: ها أنا أخرج إلى الهجرة، فمن أراد لقائي فليلقني في بطن هذا الوادي»[٢].

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة، تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يده أسهمًا، واختصر عترته[٣]، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام، فصلى متمكنًا، ثم وقف على الحِلق واحدة واحدة فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يُرغم اللَّه إلا هذه المعاطس[٤]، من أراد أن تثكله أمه ويوتم ولده أو يرمل زوجه فيلقني وراء هذا الوادي. قال علي رضي الله عنه: فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه»[٥].

إنه عمر رضي الله عنه الذي قال عنه رسول اللَّه ﷺ: «... **فلم أرَ عبقريًّا يفري فريه**»[٦].

إنه عمر هادمُ دولة بني ساسان، في عهده زال ملك المجوس، وذهبت إمبراطورية كسرى، ولا يزال التاريخ يذكر لرستم قائد قوات الفرس مقولته الشهيرة: «أكل عمر كبدي، أحرق اللَّه كبده. وإنما هو عمر الذي يُكلِّم الكلاب فيعلمهم العقل، كلَّم

---

(١) نونية القحطاني ص (٢٢).

(٢) التبصرة، لابن الجوزي (٤١٩/١، ٤٢٠).

(٣) عترته: العترة: عصا في قدر نصف الرمح.

(٤) المعاطس: الأنوف.

(٥) **خبر لا بأس به**: أخرجه ابن عساكر في (تاريخه) (٤٥/٥٢)، وابن الأثير في (أُسْد الغابة) (٤/ ١٥٢)؛ **انظر**: صحيح التوثيق في سيرة الفاروق، لمجدي السيد ص (٣٠).

(٦) جزء من حديث عبدالله بن عمر عند البخاري، ومسلم، وأحمد، وابن أبي شيبة. وفي بعض روايات الصحيح: «فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ». والعبقري: هو السيد، قاله النووي (٢٥٣/٥).

هؤلاء حتى علموا»(١).

يهتز كسرى على كُرْسِيِّه فَرَقًا مِن خوفه وملوك الروم تخشاهُ

❑ الفارس الماهر

ذكر الطبري في تاريخه، أن عمر بن الخطاب كان يمسك أذنه اليسرى بيده اليمنى، وَيَثِيبُ، فيصير على ظهر الفرس، من غير أن يُمسك شيئًا بيده.

«كان عمر يأخذ بأذن الفرس ويأخذ بيده الأخرى أذنه، ثم ينزو على متن الفرس»(٢) وكان يصارع في سوق عكاظ وكان ضخمًا طويلًا جسيمًا(٣).

وكان فارسًا ماهرًا، قال أبو مسعود الأنصاري: «كنا جلوسًا في نادينا، فأقبل رجل على فرس يركضه يجري حتى كاد يوطئنا، فارتعنا لذلك وقمنا، فإذا عمر بن الخطاب، فقلنا: فمن بعدك يا أمير المؤمنين! قال: وما أنكرتم؟ وجدت نشاطًا، فأخذت فرسًا فركضته»(٤).

❑ جهاده:

قال ابن الجوزي: «اتفق العلماء على أن عمر رضي الله عنه شهد بدرًا، وأحدًا، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ لم يغب عن غزاة غزاها رسول الله ﷺ»(٥) وعن ابن سعد قال: «قالوا: شهد عمر رضي الله عنه بدرًا، وأحدًا والمشاهد كلها»(٦)، كما أشار إلى ذلك ابن إسحاق.

في بدر الكبرى: «قتل عمر بن الخطاب خاله العاص بن هشام بن المغيرة»(٧)،

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٣٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/٢٩٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٣٢٥).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/٣٢٦).
(٥) مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي ص (٨٩).
(٦) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/٢٧٢)، قالوا: يعني العلماء بالسير.
(٧) موسوعة الغزوات الكبرى (غزوة بدر الكبرى)، لمحمد أحمد باشميل ص (١٦٩) (المكتبة السلفية)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/٣٨٨).

وهذا من أعظم صور التجرد لله.

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبعد انتهاء المعركة أشار عمر بقتل أسارى المشركين.

عن ابن عمر قال: قال عمر رضي الله عنه «وافقتُ ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر»[(١)].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر... قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكر وعمر: **«ما ترون في هؤلاء الأسارى؟»** فقال أبو بكر: يا نبي الله: هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى اللَّه أن يهديهم للإسلام. فقال رسول اللَّه ﷺ **«ما ترى يا ابن الخطاب؟»** قلت: لا واللَّه يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان ـ نسيبًا لعمر ـ، فأضرب عنقه[(٢)]، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول اللَّه ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول اللَّه أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال رسول اللَّه ﷺ «أبكي

(١) أخرجه مسلم (٢٣٩٩)؛ واس أبي عاصم في (السنة) (١٢٧٧).

(٢) وعند أحمد (١/ ٣٠، ٣١): «وتُمكن حمزة من فلان أخيه، فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوسا هوادة للمشركين».

للذي عَرَضَ عَلَيَّ أصحابكُ من أخذهم الفداء عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة[١]، وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فأحل اللَّه الغنيمة لهم»[٢].

وانظر إلى الحسِّ الأمني عند عمر رضي الله عنه وحمايته لرسول اللَّه ﷺ عندما جاء عمير بن وهب إلى المدينة قبل إسلامه في أعقاب بدر يريد قتل رسول اللَّه ﷺ «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم اللَّه به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحًا سيفه، فقال: هذا الكلب عدو اللَّه عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وَحَزَرَنَا للقوم يوم بدر. ثم دخل على رسول اللَّه ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو اللَّه عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه. قال: «**فأدخله عليَّ**»، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول اللَّه ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول اللَّه ﷺ فلما رآه رسول اللَّه ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: «**أرسله يا عمر...**»[٣].

فمسك عمر بحمالة سيف عمير الذي في عنقه عطَّله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ[٤].

- **وفي أُحُد:**

كان عمر بن الخطاب من القلائل الذين ثبتوا ثبات الأبطال مع رسول اللَّه ﷺ وانظر إلى فرط شجاعته وإبائه الصغار ورده المفحم على أبي سفيان.

---

(١) شجرة قريبة من نبي الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ.

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣)، وأبو داود مختصرًا جدًّا، وكذلك الترمذي مختصرًا (٣٠٨١)، وأخرجه أحمد مطولًا (١/٣٠، ٣١).

(٣) صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم صالح العلي ص (٢٥٩) (دار النفائس ـ الطبعة الثالثة).

(٤) المصدر السابق ص (٢٦٠).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلس النبي جيشًا من الرماة، وكانوا خمسين رجلًا، وأمَّر عليهم عبداللَّه بن جبير، وقال: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم، فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا».

فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة.

فقال عبداللَّه بن جبير: عهد إليَّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صُرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: **«لا تجيبوه»**.

فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: **«لا تجيبوه»**.

فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا! فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت عدو الله، أبقى اللَّه عليك ما يُخزيك، إن الذي عددت لأحياء كلهم.

قال أبو سفيان: اعلُ هُبل.

فقال النبي ﷺ: **«أجيبوه»** قالوا: ما نقول؟ قال: **«قولوا: اللَّه أعلى وأجل»** قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عُزى لكم. فقال النبي ﷺ: **«أجيبوه»** فقالوا: ما نقول؟ قال: **«قولوا: اللَّه مولانا ولا مولى لكم»**[(١)].

وفي رواية ابن إسحاق: «ثم إن أبا سفيان صرخ بأعلى صوته: اعلُ هُبل، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«قم يا عمر فأجبه»**، فقال: اللَّه أعلى وأجلُّ، لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار».

فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك اللَّه يا عمر، أقتلنا محمدًا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٣)، وابن إسحاق كما في (السيرة) (١١٦٠)، وأحمد (٢٩٣/٤)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والنسائي في (تفسيره) (٩٩)، والطيالسي (٧٢٥)، وابن سعد (٤٧/٢)، وسعيد بن منصور في (سننه) (٢٨٥٣)، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٨/١، ٣٩).

فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر، لقول ابن قمئة لهم: إني قد قتلت محمدًا».

❑ سرية عمر بن الخطاب إلى تُربة في السنة السابعة من الهجرة:

ولجدارة عمر وفروسيته وشجاعته أرسله النبي ﷺ قائدًا على سرية إلى تُربة، قال ابن سعد: «**بعث رسول الله** ﷺ عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة سبع من مهاجرة رسول الله ﷺ في ثلاثين رجلًا إلى عُجز هوازن بتربة - وهي بناحية العَبلاء -، على أربع مراحل من مكة، فخرج ومعه دليل من بني هلال، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر محالهم فلم يلق منهم أحدًا فانصرف راجعًا إلى المدينة رضي الله عنه»[١].

«وفي هذه السرية يظهر أخذ عمر بمبدإ المباغتة، وهي أهم مبادئ الحرب، وإن عمر ينفذ أوامر قائده ونبيه ﷺ نصًا وروحًا لا يحيد عنها، وهذا هو روح الضبط العسكري وروح الجندية في كل زمان ومكان»[٢].

ففي رواية: أن الدليل الهلالي قال له بعد أن هرب القوم: هل لك في جمع آخر تركته من خثعم سائرين قد أجدبت بلادهم؟ فقال عمر: لم يأمرني رسول الله بهم، إنما أمرني أن أعمد لقتال هوازن بتربة[٣].

❑ عمر رضي الله عنه يوم حُنين:

في غزوة حنين كمنت هوازن بين جنبتي وادي حنين، وذلك في عماية الصبح؛ فحملوا على المسلمين حملةَ رجلٍ واحدٍ، فولَّى المنهزمون لا يَلْوِي أحدٌ على أحدٍ؛ فناداهم رسولُ الله ﷺ فلم يرجعوا، وَثَبَتَ مع رسول الله ﷺ عشرةٌ فقط من أصحابه

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٢٧٢)، مناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي ص (٨٩).

(٢) الفاروق القائد، لمحمود شيت خطاب ص (١١٧، ١١٨).

(٣) السيرة لنوية، لابن هشام (٢/٢٢٨).

وآل بيته، كان أحدهم عمر بن الخطاب[١].

❑ في غزوة بني المصطلق:

كان للفاروق موقف متميز؛ فعن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: «**كنا في غزاة فكسع**[٢] **رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار؛ فقال الأنصاري: ياللأنصار، وقال المهاجري: ياللمهاجرين، فسمع ذلك رسولُ اللّه ﷺ**؛ فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**»، قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار. فقال النبي ﷺ: «**دعوها؛ فإنها منتنة**»، فسمع بذلك عبداللّه بن أُبَيٍّ فقال: فعلوها؟ أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «**دعه؛ لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[٣].

وفي رواية: قال عمر بن الخطاب: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله. فقال له رسول اللّه ﷺ: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا ﷺ** يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل»[٤].

❑ مجاهد يَسْعَدُ ويُسَرُّ لسقوط أعمدة الكفر:

هذا ما حدث من الفاروق رضي الله عنه، وذلك إن دَلَّ، فإنما يَدُلُّ على الحب الغامر الكامل الذي يفيض به قلب ابن الخطاب لله ورسوله، وكمال إيمان عمر رضي الله عنه.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: لَمَّا نزل رسول اللّه ﷺ بِمَرِّ الظهران، قلتُ: واصباح قريش، واللّه لئن دخل رسول اللّه ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك

---

(١) جوامع السيرة، لابن حزم ص (٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) كسع: ضربه برجله.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، للدكتور أكرم ضياء العمري (٢/٤٠٩) (مكتبة المعارف والحكم بالمدينة المنورة).

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام (٣/٣١٩).

قريش إلى آخر الدهر.

فجلستُ على بغلة رسول اللَّه ﷺ البيضاء، فخرجتُ عليها حتى جئت الأراك[1]، فقلت: لعلي ألقي بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول اللَّه ﷺ ليخرجوا إليه، فيستأمنوا قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال: فوالله، إني لأسير عليها، وألتمسُ ما خرجتُ له، إذْ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا ولا عسكرًا. قال: ويقول بديل: هذه واللَّه خزاعة حمشتها[2] الحرب. قال: ويقول أبو سفيان: خزاعة أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال: فعرفتُ صوته؛ فقلتُ: يا أبا حنظلة؛ فعرف صوتي.

فقال: أبو الفضل؟! قال: قلت: نعم.

قال: مَا لَكَ، فداك أبي وأمي؟!

قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول اللَّه ﷺ في الناس، واصباح قريش والله!! قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟!

قال: قلت: والله، لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتِيَ بك رسول اللَّه ﷺ فأستأمنه لك.

قال: فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، كلما مَرَّ بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟! فإذا رأوا بغلة رسول اللَّه ﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول اللَّه ﷺ على بغلته. حتى إذا مَرَّتْ بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟! وقام إليَّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقدٍ ولا عهد. ثم

---

(١) يعني: شجر الأراك.

(٢) حمشتها: اشتدت عليها وأحرقتها.

خرج يشتد نحو رسول اللَّه ﷺ، وركضتِ البغلة فسبقته بما تسبق الدابةُ البطيئةُ الرجلَ البطيءَ.

قال: فاقتحمتُ عن البغلة، فدخلتُ على رسول اللَّه ﷺ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن اللَّه منه بغير عقد ولا عهد، فدعني لأضرب عنقه.

قال: قلتُ: يا رسول الله، إني قد أجرتُهُ.

ثم جلستُ إلى رسول اللَّه ﷺ، فأخذتُ برأسه، فقلتُ: والله، لا يناجيه الليلة دوني رجل.

فلما أكثر عمر في شأنه، قال: قلتُ: مهلًا يا عمر؛ فواللَّه أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال عمر: مهلًا يا عباس؛ فواللَّه لَإسْلَامُكَ يوم أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ وما بي إلا أني قد عرفتُ أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول اللَّه ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم...». [1]

❑ الفاروق المجاهد يغضب لمحارم اللَّه إذا اسْتُحِلَّتْ؛ كما يغضب النمر إذا حُرِبَ:

عن جابرٍ رضي الله عنه أن رجلًا أَتَى رسول اللَّه ﷺ بالجعرانة[2]، منصرفه من حُنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول اللَّه ﷺ يقبض منها، يعطي الناس، فقال: يا محمد، اعدل! قال: «**ويلك، وَمَنْ يعدل إذا لم أكن أعدل؟! لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل**»[3]

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن إسحاق (١٦٦٢)، والطبراني في (المعجم الكبير) (٧٢٦٤)، والطبري في (تاريخه) (٣/٥٠)، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٥/٢٧).

(٢) الجعرانة: موضع قريب من مكة.

(٣) خبت وخسرت: بالضم والفتح، ومعنى الضم ظاهر، وتقدير الفتح: خبتَ أنت أيها التابعُ إذا كنتُ لا أعدل؛ لكونك تابعًا ومقتديًا بمن لا يعدل. والفتح أشهر. أفاده النووي في (شرحه على مسلم) (٩/ ١٥٩).

فقال عمر بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق.

فقال: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه؛ كما يمرق السهم من الرمية**»[1].

❑ أبو الفتوحات العظيمة:

عمر الذي أذلَّ وديَّخ كسرى الفرس وهرقل الروم.. عمر أبو الفتوحات العظيمة «فتح العراق كله، السواد والجبال وأذربيجان وكور[2] البصرة وأرضها، وكور الأهواز وفارس، وكور الشام كلها ما خلا أجنادين فإنها فُتحت في خلافة أبي بكر، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل، ومصر والإسكندرية، وقتل ﷺ وخيله على الري قد فتحوا عامتها»[3].

يقول اللواء محمود شيت خطاب ـ رحمه الله ـ:

«عهد الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ هو عهد الفتح الإسلامي الذهبي، فقد حالف النصر فيه أعلام المسلمين، فامتدت دولتهم حتى جاوزت أفغانستان إلى حدود الصين شرقًا، والأناضول وبحر قزوين شمالًا، وتونس وما وراءها من أفريقية الشمالية غربًا، وبلاد النوبة جنوبًا، لقد فتح عمر العراق وإيران وأكثر مناطق أرمينية وأرض الشام بما فيها سورية ولبنان وشرقي الأردن وفلسطين، ومصر وليبيا والنوبة، وخاضت جيوش المسلمين في أيامه ثلاث معارك حاسمة من معارك الفتح الإسلامي؛ معركة «**القادسية**» التي فتحت للعرب المسلمين أبواب العراق والأهواز، ومعركة «**بابليون**» التي فتحت لهم أبواب مصر وليبيا والنوبة، ومعركة «**نهاوند**» التي فتحت

---

(١) رواه مسلم (١٠٦٣)، واللفظ له، والبخاري مختصرًا (٣١٣٨)، وأحمد (٣/٣٥٣، ٣٥٤)، وابن ماجه (١٧٢)، وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/٤٦٠)، والطبراني في (المعجم الكبير) (١٧٥٣).

(٢) الكورة: المدينة والصقع، جمعه: كور.

(٣) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي ص (٦١، ٦٢)، تحقيق د/زينب القاروط (دار الكتب العلمية).

لهم أبواب بلاد فارس كلها، كل هذ الفتح العظيم أنجز خلال عشر سنوات من سنة ثلاث عشرة الهجرية (٦٣٣م) إلى سنة ثلاث وعشرين الهجرية (٦٤٣م)، فقد قُبض أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد مغيب الشمس من مساء الاثنين لإحدى وعشرين ليلة خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة من الهجرة[١]، فتولى عمر الخلافة، وتوفى ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين الهجرية فكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام[٢].

في هذه المدة القصيرة فتح عمر كل هذه الفتوح، فلا عجب أن يذهل هذا الفتح عالم يومئذٍ ويدهش المؤرخين الذين فصلوا حوادثه وحاولوا استقصاء أسبابه[٣].

❑ **وهذا تفصيل لسجل الفتوحات[٤] في عصر العبقري عمر رضي الله عنه:**

سنة أربع عشرة: فيها فُتحت دمشق، وحمص، وبعلبك، والبصرة، والأُبُلَّة، ووقعة جسر أبي عبيد بأرض نجران، ووقعة فحل بالشام[٥].

سنة خمس عشرة: في أولها افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن كلها عنوة إلا طبرية فإنهم صالحوه، وذلك بأمر أبي عبيدة.

وكانت وقعة مشهودة، هي يوم اليرموك في شهر رجب، وكانت موقعة القادسية في آخر السنة[٦].

سنة ست عشرة: فيها فُتحت الأهواز، ودخل المسلمون مدينة بَهُرسير، وافتتحوا

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٢٦٥)، وأُسْد الغابة، لابن الأثير (٣/٢٠).

(٢) أُسْد الغابة، لابن الأثير (٣/٢٠).

(٣) الفاروق القائد، للواء الركن محمود شيت خطاب ص (٩٣، ٩٤) (دار الفكر - بيروت).

(٤) **انظر:** صحيح التوثيق في سيرة وحياة الفاروق عمر بن الخطاب، لمجدي فتحي السيد ص (٢٣٠ - ٢٣٣) (دار الصحابة بمصر).

(٥) **انظر:** تاريخ الطبري (٣/٤٣٥)، تهذيب تاريخ دمشق (١/١٤٧)، تاريخ خليفة (١٢٧).

(٦) **انظر:** تاريخ الطبري (٣/٣٩٤، ٣٩٥) وتاريخ خليفة (١٣١)، وتاريخ الإسلام (٤/١٣٩)، وتهذيب تاريخ دمشق (١/١٦).

المدائن، وكانت وقعة جَلُولاء، وقِنَّسْرين(١).

وعن تلك السنوات القليلة يقول مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي ـ رحمه اللَّه ـ:

استولى المسلمون في ثلاثة أعوام على كرسي مملكة كسرى، وعلى كرسي مملكة قيصر، وعلى أُمَّي بلادهما، وغنم المسلمون غنائم لم يُسمع بمثلها قط من الذهب والجوهر، والحرير، والرقيق، والمدائن، والقصور. فسبحان اللَّه العظيم الفتاح(٢).

سنة سبع عشرة: سار الفاروق إلى الشام، وزاد في عمارة المسجد النبوي، وافتتح أبو موسى الأشعري الأهواز صلحًا وعنوة، فقد نقضوا عهدهم بعد الفتح الأول(٣).

سنة ثماني عشرة: افتتح أبو موسى رضي الله عنه جُند يسابور، والسوس صلحًا، ثم رجع إلى الأهواز.

وفيها: افتتح أبو موسى رامَهرمز ثم سار إلى تُستر(٤).

سنة تسع عشرة: فيها فُتحت قيسارية، وأمير العسكر معاوية بن أبي سفيان وسعد بن عامر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ كلٌّ أمير على جنده، فهزم اللَّه المشركين، وقُتِل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها: كانت وقعة صُهاب ـ قرية بفارس ـ وعلى المسلمين الحكم بن أبي العاص، فقُتل شَهْرك مقدَّم المشركين.

وفيها: فُتِحت تكريت.

وفيها: وجه عمر عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة(٥).

---

(١) تاريخ الطبري (١٤/٤، ١٥، ١٦)، وتاريخ خليفة (١٣٤)، وتاريخ الإسلام (١٥٧/٤).

(٢) تاريخ الإسلام (١٥٩/٤).

(٣) تاريخ الطبري (٦٩/٤)، أُسْد الغابة، لابن الأثير (٥٤٠/٢)، وتاريخ خليفة (١٣٥، ١٣٦)، وتاريخ الإسلام (١٦٥/٤)، وتاريخ ابن عساكر (٣٣٦/٥٢، ٣٣٧).

(٤) تاريخ الطبري (٩٦/٤)، وتاريخ خليفة (١٣٩، ١٤٠)، وتهذيب تاريخ دمشق (١٧٦/١).

(٥) تاريخ الطبري (٥٣/٤)، وتاريخ خليفة (١٤١)، وتاريخ الإسلام (١٨٧/٤، ١٩٠).

سنة **عشرين:** وفيها افتتحت مصر.

وفيها: افتتح المغرب كله عنوة.

وفيها: سار أبو موسى الأشعري إلى تُستر، وحاصرها طويلًا.

وفيها: أجلى عمر يهود خيبر ونجران[١].

سنة **إحدى وعشرين:** فيها فتح عمر بن العاص رضي الله عنه الإسكندرية عنوة.

وفيها: نزل عثمان بن أبي العاص توَّج، ومصَّرها، وهي مدينة فارسية.

وفيها: بعث عمر سوار بن المثنى العبدي إلى سابور، فاستُشهد، وأغار عثمان بن أبي العاص على سيف البحر والسواحل، وبعث الجارود بن المعلى فاستشهد.

وفيها: كانت وقعة نهاوند، وافتتحت نهاوند.

وفيها: سار عمرو بن العاص إلى برقة فافتتحها.

وفيها: وصل أبو هاشم بن عتبة إلى أنطاكية، وقِلقِيَّة، وصالح أهلها[٢].

سنة **اثنين وعشرين:** فيها فُتحت أذربيجان على يد المغيرة بن شعبة.

وفيها: غزا حُذيفة ماسبذان، فافتتحها عنوة، وغزا همذان فافتتحها عنوة، وافتتح عمرو بن العاص طرابلس الغرب.

وفيها: افتتحت جرجان.

وفيها: افتتح سويد بن مُقرِّن الري، ثم عسكر وسار إلى قوس فافتتحها[٣].

سنة **ثلاث وعشرين:** وفيها كان فتح كرمان، وأمير الفتح سهل بن عدي.

وفيها: فُتحت سجستان، وأمير فتحها هو عاصم بن عمرو.

وفيها: فتحت مُكران، وهي من بلاد الجبل، وكان أمير الفتح الحكم بن عثمان.

---

(١) تاريخ الطبري (٤/١١٢)، وتاريخ خليفة (١٤٣، ١٤٤)، وتاريخ الإسلام (٤/١٩٧، ٢٠٠)، وتاريخ ابن عساكر (٥٣/٣٣٦، ٣٣٧).

(٢) تاريخ الطبري (٤/١١٥، ١٤٤)، وتاريخ خليفة (١٤٨، ١٤٩)، وتاريخ الإسلام (٤/٢٢٨).

(٣) تاريخ الطبري (٤/١٤٦، ١٦٣)، وتاريخ الإسلام (٤/٢٤٢)، وتاريخ خليفة (١٥٠).

وفيها: غزا معاوية بن أبي سفيان الصائفة حتى بلغ عمورية(١).

هذا هو السجل الحافل بالجهاد في عهد الإمام الرباني عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -.

كلُّ يومٍ مجد وفخر يشادُ وطريف(٢) من المُنى وتلاد
وكِرامٌ من المساعي حِسانٌ عجزت عن طِلابها الحُسَّادُ

❑ **ومن أهم المعارك التي انتصر فيها المسلمون في عهد عمر ﷺ:**

وقعة النمارق سنة ١٣هـ، ومعركة السَّقَّاطية بكسْكَر، ومعركة باروسما سنة ١٣هـ، ومعركة البويب سنة ١٣هـ، والقادسية «**يوم أرمات، ويوم أغواث، ويوم عماس، ويوم القادسية**» وفتح المدائن، ومعركة جلولاء، وفتح رامهرمز، وفتح تستر، وفتح مدينة جُنْدَى وسابور، ثم معركة نهاوند «**فتح الفتوح**»، وفتح همذان ثانية سنة ٢٢هـ، وفتح الري سنة ٢٢هـ، وفتح قوميس وجرجان سنة ٢٢هـ، وفتح أذربيجان سنة ٢٢هـ، وفتح الباب ٢٢هـ، وغزو خراسان سنة ٢٢هـ، وفتح اصطخر سنة ٢٣هـ، وفتح فساودار بجْرد سنة ٢٣هـ، وفتح كرمان وسجستان سنة ٢٣هـ، وفتح مُكران سنة ٢٣هـ، وغزو الأكراد.

وفتوحات الشام «فتح دمشق - وقعه فحل - فتح بيسان وطبرية - وقعة حمص سنة ١٥هـ، ووقعة قنسرين سنة ١٥هـ، ووقعة قيسارية سنة ١٥هـ، وفتح القدس سنة ١٦هـ»، ثم فتوحات مصر وليبيا «فتح الفرما، فتح بلبيس، معركة أم دنين، معركة حصن بابليون، فتح برقة وطرابلس».

❑ **الفاروق القائد:**

هذا النهر من الفتوحات والانتصارات كان بفضل قيادة عمر الفذة بالإضافة إلى

---

(١) ناريخ الطبري (٤/١٨٠، ١٨٦)، وتاريخ الإسلام (٤/٢٥٠)، وتاريخ دمشق، لابن عساكر (٥٣/ ٣٣٧).

(٢) الطريف: الجديد. والتلاد: القديم.

العوامل الأخرى، تلك القيادة التي امتازت بميزتين ظاهرتين:

الأولى: مقدرته المدهشة على اختيار القادة العامين والقادة المرءوسين.

والثانية: الموهوبة والمكتسبة على القيادة العليا والقيادة التعبوية - أيضًا[١].

اختيار القادة:

لقد نجح قادة عمر في مهمة قيادة الجيوش الإسلامية نجاحًا كان ولا يزال وسيبقى أُعجوبة من أعاجيب تاريخ الحرب.

ولقد كان للفاروق طريقة متميزة في اختيار قادة الفتح؛ منها:

١- أن يكون القائد صحابيًا؛ لأنهم كانوا لا يُؤَمِّرُونَ في الفتح إلا الصحابة[٢]، فكان عمر لا يُوَلِّي إلا الصحابة ولا يرضى أبدًا أن يعمل صحابي بإمرة غير صحابي.

فقد كان للصحابة - بصورة عامة - تجارب طويلة مفيدة في القتال تحت لواء الرسول القائد ﷺ، واقتبسوا خلالها أعلى وأسمى ضروب التضحية والفداء، وأنبل وأرفع آداب الحرب والسلام[٣].

٢- وكان عمر رضي الله عنه يفضِّل السابقين الأولين من الصحابة على غيرهم إلا أن يقصر بهم عملهم، فكان يفضل عليهم حينذاك من برز بأعماله.

لقد كان أول ما عمل عمر بعد موت أبي بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن ندب الناس مع المثنى كل يوم، يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق، فكان أولَ منتدب أبو عبيد بن مسعود، ثم ثنَّى سعد بن عبيد، وسليط بن قيس، فلما تكامل حشد ذلك البعث قال قائل لعمر: «أمِّر عليهم رجلًا من السابقين من المهاجرين والأنصار» فقال عمر:

---

(١) الفاروق القائد، لمحمود شيت خطاب ص (٩٥).

(٢) الإصابة، لابن حجر العسقلاني (١/٣٠٩، ٢/١٩٤، ٤/٢٣٥).

(٣) الفاروق القائد ص (٩٦).

إنما أؤمر عليهم من استجاب[١]. وفي رواية: «**لا والله! لا أفعل، إنما رفعكم الله بسيفكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابًا**»[٢]، ثم دعا أبا عبيد[٣] وسليطًا وسعدًا فقال مخاطبًا سعدًا وسليطًا: «**أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما**»، ثم قال لأبي عبيد: «**اسمع من أصحاب النبي** ﷺ وأشركهم في الأمر، ولا تجتهد حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[٤] الذي يعرف الفرصة والكف»[٥].

٣- وكان عمر يفضل أن يكون القائد مكيثًا غير متهور، يعرف الفرص وينتهزها، ويعرف كيف ومتى يقاتل ومتى يكف عن القتال»[٦]. قال عمر لسليط: «**لولا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث**»[٧].

٤- وكان عمر يريد أن يكون القائد قويًّا مسيطرًا ذا شخصية نافذة، فإذا وجد رجلًا أقوى من رجل فضل الأقوى على القوي، فقد استعمل معاوية بن أبي سفيان على الشام، وعزل شرحبيل بن حسنة وقام يعذره في الناس، فقال: «**إني لم أعزله عن سخطة، ولكن أريد رجلًا أقوى من رجل**»[٨]، وكان يقول: «**إني لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه**»[٩].

٥- واستعمل عمر القادة الشجعان الرماة: فحين وجه سعد بن أبي وقاص إلى

---

(١) البداية والنهاية (٧/٢٦).
(٢) تاريخ الطبري (٢/٦٣١)، وابن الأثير (٢/١٦٦)، ومناقب عمر بن الخطاب، لابن الجوزي (٦٧).
(٣) وكان من التابعين.
(٤) المكيث: الرزين المتأني، جمعها مكثاء.
(٥) تاريخ الطبري (٢/٦٣١).
(٦) أسد الغابة، لابن الأثير (٢/١٦٦).
(٧) البلاذري (٢٥١).
(٨) ابن الأثير (٢/٢١٧).
(٩) طبقات ابن سعد (٣/٣٠٥).

العراق قائدًا عامًا قال: «**إنه رجل شجاع رام**»[١].

ولما أراد عمر أن يولي قائدًا لجيوش المسلمين لفتح نهاوند واستشار الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق وجندك قد وفدوا عليك، ورأيتهم وكلمتهم. فقال: أما والله لَأُوَلِّيَنَّ أمرهم رجلاً؛ ليكونن أول الأسنة[٢] إذا لقيها غدًا. فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن. فقالوا: هو لها[٣].

٦ـ وكان ﷺ يختار قواده من ذوي الدهاء والفطنة والحنكة:

لما نزل عمرو بن العاص وجنده على الروم بموقعة أجنادين لفتحها، وكان قائد الروم الأرطبون، وهو أدهى الروم، وأبعدها غورًا، وأنكاها فعلًا، ووضع جندًا عظيمًا بإيلياء والرملة، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر، فلما جاءه كتاب عمر قال: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج[٤]. ولما أراد عمرو أن يجمع المعلومات عن الأرطبون وجيشه حتى يضع خطته الحكيمة لمهاجمته والانتصار عليه، دخل ابن العاص معسكر قائد الروم وكاد أن يقتل إلا أن الله نجاه، وخدع عمرو بن العاص أرطبون الروم، ولما وصل الأمر إلى عمر بن الخطاب قال: غلبه عمرو، لله عمرو[٥].

٧ـ وكان عمر إذا اجتمع إليه جيش من المسلمين، أمَّر عليهم أميرًا من أهل العلم والفقه[٦]، ولا يرضى أن يؤمر أهل الوبر على أهل المدر[٧].

فقد قال عمر لعتبة بن غزوان: «**من استعملت على أهل البصرة؟**» فقال: «**مجاشع**

---

(١) البلاذري ص (٢٥٥).
(٢) الأسنة: واحده سنان؛ أي: سن الرمح.
(٣) تاريخ الطبري (٥/١٠٩).
(٤) تاريخ الطبري (٤/٤٣١).
(٥) المصدر السابق (٤/٤٣٢).
(٦) أُسْد الغابة، لابن الأثير (٣/١٩).
(٧) أهل الوبر هم أهل البادية، والحضر؛ أي: المدن.

ابن مسعود»، قال: «**تستعمل رجلًا من أهل الوبر على أهل المدر؟!!**».

ولما أرسل إلى سعيد بن عامر ليستعمله على بعض الشام، فأبى عليه، فقال عمر: «كلا والذي نفسي بيده، لا تجعلونها في عنقي وتجلسون في بيوتكم»[1].

القائد الفذ الذي ليس له نظير في عصره وبعد عصره

أهم صفات القائد المثالي كما يقول اللواء محمود شيت خطاب:

«**العقيدة ـ الشورى ـ الحصول على المعلومات ـ الحرص الشديد ـ الفطنة وبعد النظر ـ الشجاعة ـ القابلية البدنية ـ تحمل المسئولية ـ معرفة مبادئ الحرب ـ القابلية السوقية «الاستراتيجية» ـ الشخصية النافذة ـ الثقة المتبادلة ـ المحبة المتبادلة ـ الماضي الناصع المجيد.**

وبالطبع لا تتوفر كل هذه الصفات في قائد واحد ـ كما قال نابليون ـ؛ لأنها مجموعة من سير عدد عديد من القادة العظام.

وهذه الصفات كلها ـ على الرغم من قول نابليون ـ كانت متوفرة في قيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. [وذلك كالتالي:]

❑ الفاروق القائد واستشارته في أمور الحرب:

عندما علم عمر باجتماع الفرس على يزدجرد، فكتب عمر إلى المثنى بن حارثة ومن معه من المسلمين بالخروج من بين العجم والتفرق في المياه التي تلي العجم، واجتمع الناس إلى عمر فخرج من المدينة المنورة حتى نزل على ماء يدعى «**ضرار**»، فعسكر به ولا يدري أحد ما يريد أيسير أم يقيم! وأحضر عمر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق، فقال العامة: «**سِرْ وسِرْ بنا معك**»، ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح، وإلا أعاد رجلًا

---

(١) مصنف عبدالرزاق (١١/٣٤٨).

وبعث آخر، ففي ذلك غيظ العدو، فجمع عمر الناس وقال لهم: «إني كنت عزمت على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلًا، فأشيروا علي برجل. وأخيرًا استقر الرأي على تولية سعد بن أبي وقاص»[١].

وكان عمر لا يوافق على انسياح الجيش الإسلامي في بلاد فارس ويقول: «وددت لو أن بين السواد والجبل سدًّا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم! حسبنا من الريف السواد»[٢] وقال لما فُتحت الأهواز وما يليها: «وددت أن بيننا وبين فارس جبلًا من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا»[٣].

واستشار عمر أهل الرأي في ذلك، فقال الأحنف بن قيس: «يا أمير المؤمنين! إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأن ملك فارس بين أظهرهم، ولا يزالون يقاتلون ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم، وإن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح، فنسيح في بلادهم، ونُزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس. فقال عمر: **«صَدَقَنِي والله»**، وأذن في الانسياح في بلاد فارس»[٤].

وعندما حشد الفرس جيوشهم في **«نهاوند»** حتى بلغ الجند مئة وخمسين ألفًا بإمرة الفيرزان[٥]، أخبر سعد بن أبي وقاص عمر بهذا الحشد العظيم، فقرر عمر أن يسير بنفسه لمعالجة الموقف هناك، ولكن أصحاب الشورى وعلى رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه نصحوه أن يبقى في المدينة المنورة ويرسل قائدًا يعتمد عليه ليفرق شمل

---

(١) ابن الأثير (٢/١٧٢، ١٧٣).
(٢) ابن الأثير (٢/٢٠١).
(٣) ابن الأثير (٢/٢٠٨).
(٤) تاريخ الطبري (٣/١٨٤، ١٨٥)، وأُسْد الغابة، لابن الأثير (٢/٢١٣).
(٥) ابن الأثير (٣/٣).

القوات الفارسية[١].

إن القائد الذي يحسن الاستشارة تكون قراراته غالبًا أقرب إلى الكمال.

❑ الحرص على الحصول على المعلومات:

كان عمر يحرص على الحصول على المعلومات من الوافدين عليه، ومن القادة والأمراء وأفراد الناس الذين يحضرون الحج، ومن منابع المعلومات الأخرى.

كان يطالب قادته دائمًا بإطلاعه على تفاصيل المعلومات عن العدو وعن الأرض التي يقاتلون عليها.

كتب إلى سعد بن أبي وقاص قُبيل معركة القادسية يقول «... اكتب إليَّ أين بلغك جمعهم ومن يلي مصادمتكم، فإنه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين «**المدائن**» صفةً كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية..»، فكتب إليه سعد يذكر تفاصيل دقيقة عن طبيعة الأرض وعن العدو وقائده[٢].

إن الذين يقرءون رسالة عمر إلى سعد بن أبي وقاص وجواب سعد من العسكريين المختصين لا يسعهم إلا أن يُبْدُوا إعجابهم الشديد بهاتين الرسالتين، فلن يستطيع قائد أعلى في القرن العشرين بعد أن أصبحت الدراسات العسكرية دراسات أكاديمية أن يكون أكثر دقة من عمر في رسالته هذه، ولن يستطيع قائد عام من ضباط الركن اللامعين أن يكتب تفاصيل أدق وأوفى من رسالة سعد بن أبي وقاص.

وكان جواب عمر على رسالة سعد هذه: «جاءني كتابك وفهمته، فأقم بمكانك حتى ينغض[٣] اللَّه لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك اللَّه أدبارهم فلا

(١) الطبري (٣/٢١٢).

(٢) تاريخ الطبري (٣/١١).

(٣) نغض الشيء نغضًا ونغضانًا؛ أي: تحرك في ارتجاف واضطراب. ويقال: نغضوا إلى العدو؛ أي: =

تنزع حتى تقتحم عليهم «المدائن»، فإنه خرابها - إن شاء الله»[١].

لقد كان عمر رضي الله عنه يحيط علمًا بتفاصيل ودقائق المعلومات عن جيوشه وعن جيوش عدوه وعن طبيعة الأرض، فكان يصدر قراراته العسكرية على هدى وبصيرة[٢].

❏ الحرص على مصير الجيوش:

كان عمر يحرص غاية الحرص على مصائر جيوشه، فقد كان يخشى اللَّه أن يسأله عن كل إهمال يؤدي إلى ضياع الأرواح، فكان - رحمه اللَّه - نموذجًا رفيعًا للحرص على مصائر الناس، بعث عمر بن الخطاب جرير بن عبداللَّه البجلي على الجيش، فسقطت رِجْل رجل من المسلمين من البرد، فأرسل إليه: «يا جرير مستمعًا! إنه من يسمع يسمع اللَّه به»؛ يعني: أنك خرجت في البرد ليُقال: قد غزا في البرد[٣].

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر، فذكر جموعًا من الروم وشدة، فكان يوقظ أحد أصحابه فيقول: «قم فصل، فإني لأقوم فأصلي وأضطجع فما يأتيني النوم»[٤].

وكان عمر يخلف الغزاة في أهليهم[٥]، فيقوم على أمرهم كلهم، وكان يقدر المجاهدين حق قدرهم، ويُكبر المضحِّين منهم أعظم الإكبار، قال عبداللَّه بن عمر: «بينما الناس يأخذون أعطياتهم بين يدي عمر، فرفع رأسه فنظر إلى رجل في وجهه ضربة، فسأله، فأخبره أنه أصابته في غزاة كان فيها، فقال: عُدُّوا له ألفًا. فَأُعْطِيَ الرجلُ ألف درهم، ثم قال: عُدُّوا له ألفًا. فَأُعْطِيَ له ألفًا أخرى، ثم قال له ذلك أربع مرات، كل مرة يعطيه ألف درهم، فاستحي الرجل من كثرة ما أعطي، فخرج فسأل

= بهضوا. **انظر**: المعجم الوسيط (٢/٩٤٥).

(١) تاريخ الطبري (٣/١٢).

(٢) الفاروق القائد ص (١٠٨).

(٣) مناقب عمر، لابن الجوزي ص (٨٨).

(٤) المصدر السابق ص (٥٥).

(٥) المصدر السابق ص (٤٧).

عنه، فقيل له: إنا رأينا أنه استحي من كثرة ما أُعطي. فخرج. فقال: أما واللَّه لو أنه مكث ما زلت أعطيه ما بقي منها درهم، رجلُ ضرب ضربة في سبيل الله، حفرت وجهه»[١].

بل شمل حرصه حتى الحيوانات، قال الأحنف بن قيس التميمي: «وفدنا إلى عمر بفتح عظيم، فقال: أين نزلتم؟ فقلت: في مكان كذا، فقام معي حتى انتهينا إلى مناخ ركائبنا، فجعل يتخللها ببصره ويقول: ألا اتقيتم اللَّه في ركائبكم هذه؟؟ ألا علمتم أن لها عليكم حقًّا؟؟ ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟؟».

ولقد بلغ من حرصه على أرواح المسلمين أنه لم يوافق على الانسياح في بلاد العجم إلا في الوقت المناسب، وبعد تأكده من ضرورة الانسياح الملحة. كما لم يوافق على ركوب البحر، وعاقب العلاء بن الحضرمي على ركوبه خلافًا لأوامره الصريحة[٢].

وقد كان معاوية بن أبي سفيان لجَّ على عمر في ركوب البحر، فكتب عُمر إلى عمرو بن العاص أن يصف له البحر، فلما كتب إليه عمرو وصف البحر كتب إلى معاوية: «والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق، لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا.. فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر[٣]، وباللَّه لمسلم أحب إلي مما حوت الروم، وإياك أن تعرض إليَّ، فقد علمت ما لقي العلاء مني».

وانظر إلى هذا الخبر العظيم الذي يبين لك الحرص العالي لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: قال السائب بن الأقرع الثقفي: «... قدمت على عمر، وكان قد قدر الوقعة، فبات يتململ ويخرج ويتوقع الأخبار.. فخرج عمر من الغد يتوقع الأخبار، فأتيته فقال: ما وراءك؟ فقلت: خيرًا يا أمير المؤمنين، فتح اللَّه عليك وأعظم الفتح، واستشهد النعمان

---

(١) المصدر السابق ص (٥٢، ٥٣).

(٢) تاريخ الطبري (١٧٨/٣).

(٣) يعني: البحر.

ابن مقرِّن. فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه.. فلما رأيت ذلك وما لقي، قلت: يا أمير المؤمنين! ما أصيب بعده رجل تعرف وجهه. فقال: أولئك المستضعفون من المسلمين، ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم، وما يصنع أولئك بمعرفة عمر؟؟![1].

❑ لله در عمر... يا سارية . . . الجبل الجبل، من استرعى الذئب ظلم.

وانظر إلى حرص عمر الشديد.. وهذه الكرامة الغالية لفاروق الإسلام المجاهد الذي يشفق على إخوانه المجاهدين ويحرص عليهم غاية الحرص.

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: كان عمر يخطب على منبر رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فعرض له في خطبته أن قال:

يا سارية[2]... الجبلَ الجبل، مَنْ استرعى الذئب ظلم، فالتفت الناس بعضهم إلى بعض، فقال علي: ليخرجن مما قال، فلما فرغ من صلاته قال له علي: ما شيء سنح لك في خطبتك؟! قال: وما هو؟ قال: قولك: يا سارية الجبل الجبل من استرعى الذئب ظلم.

قال: وهل كان ذلك مني؟ قال: نعم. قال: وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا مَنْ وجدوا، وقد ظفروا، وإن جازوا هلكوا، فخرج مني ما تزعم أنك سمعته.

قال: فجاء البشير بالفتح بعد شهر، فذكر أنه سمع في ذلك اليوم، في تلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتًا يشبه صوت عمر: يا سارية الجبل الجبل. قال: فعدلنا إليه، ففتح الله علينا.

---

(١) أُسْد الغابة، لابن الأثير (٣/٦)، والخراج، ليحيى بن آدم القرشي ص (٤١).

(٢) ذكر العقاد في كتابه (عبقرية عمر) ص (٣١): أنه سارية بن حصن. والحقيقة أنه سارية بن زنيم الكناني..

انظر: الإصابة (٣/٥٢)، وأُسْد العابة (٢/٢٤٤)، وتهذيب ابن عساكر (٦/٤٣).

وفي رواية أخرى: ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، هُزِمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتًا ينادي: يا سارية... الجبل ـ ثلاثًا ـ فأسندنا ظهورنا بالجبل، فهزمهم الله»[١].

لقد كان عمر في حرصه نسيج وحده... إنه كان لا ينام ولا يُنيم حرصًا على مصائر المسلمين.

معرفة الفاروق القائد الفذ بمبادئ الحرب:

وعملًا بقول الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، نكتب هذا الفصل من كتاب اللواء الركن / محمود شيت خطاب: «**الفاروق القائد**» فأهل مكة أعلم بشعابها[٢]:

«كان عمر أحد خريجي مدرسة الرسول القائد ﷺ في ممارسة فنون الحرب ومعاناة أهوالها.

كان عمر قبل إسلامه كأي عربي ليس غريبًا على ساحات الوغى وأخبار الحروب، ولكن هذه المعلومات الابتدائية عن المعارك صَقَلَهَا وهذبها بالممارسة الفعلية وبالتوجيه العملي والنظري لسيد القادة وقائد السادة ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ولقد كان لعمر طبيعة موهوبة للجندي الممتاز ـ كما أسلفنا ـ؛ فاجتمع لديه بعد تجاربه الطويلة للحرب بعد إسلامه الطبع الموهوب والعلم المكتسب، وبذلك أصبح قائدًا مثاليًّا له مزايا القائد المثالي علمًا وعملًا.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبري في (تاريخه) (١٧٨/٤)، وابن الأثير في (أُسْد الغابة) (٣٠٦/٢)، وابن عساكر في (تاريخه) (٢٨٦/٥٢)، وأخرجه البيهقي في (الدلائل)، وأبو نعيم، والزين العاقولي في (فوائده)، وابن الأعرابي في (كرامات الأولياء)، كما في (الإصابة) (٥٣/٣)، وقال ابن حجر: إسناده حسن، ورواه ابن مردويه، والواقدي، وأبو عمرو بن العلاء؛ كما قال ابن حجر في (الإصابة) (٣/ ٥٣).

(٢) من ص (١٤٦ ـ ١٩٧) باختصار.

شهد عمر مع رسول اللَّه ﷺ بدرًا وأُحدًا والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وحنينًا وغيرها من المشاهد، وكان أشد الناس على الكفار، وأراد رسول اللَّه ﷺ أن يرسله إلى مكة يوم الحديبية، فقال: «**يا رسول الله! قد علمت قريش شدة عداوتي لها، وإن ظفروا بي قتلوني**»، فتركه وأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه[(١)].

وقد ولاه النبي ﷺ قيادة سرية من المسلمين؛ فقد بعثه في شعبان سنة سبعٍ من مهاجر رسول اللَّه ﷺ في ثلاثين رجلًا إلى «**عجُز**»[(٢)] هوازن بـ «**تُربة**»[(٣)]، فخرج وخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا، وجاء عمر محالهم فلم يَلْقَ منهم أحدًا فانصرف راجعًا إلى المدينة[(٤)]، فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل: هل لك في جمع آخر من خثعم؟»، فقال عمر: «لم يأمرني رسول اللَّه ﷺ بهم، إنما أمرني بقتال هوازن»[(٥)].

هذه السرية تدلنا على ثلاث نتائج عسكرية:

الأولى أن عمر أصبح مؤهلًا للقيادة؛ إذ لولا ذلك لما ولاه النبي الكريم ﷺ قيادة سرية من سرايا المسلمين تتجه إلى منطقة بالغة الخطورة وإلى قبيلة من أقوى القبائل العربية وأشدها شكيمةً.

والثانية: أن عمر الذي كان يكمن نهارًا ويسير ليلًا، مشبع بمبدأ المباغتة؛ أهم مبادئ الحرب على الإطلاق، مما جعله يباغت عدوه ويجبره على الفرار، وبذلك انتصر بقواته القليلة على قوات المشركين الكثيرة.

---

(١) أُسْد الغابة (٤/٥٩).

(٢) عجز: محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء يقال له: (تربة) بضم العين. **انظر**: السيرة الحلبية (٣/٢١٠)، وفي (معجم البلدان) (٢/٣٧٤): أن تربة على مسافة يومين من مكة.

(٣) تربة: واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٢/٣٧٤)، وفي (طبقات ابن سعد) (٢/١١٧): أنها بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة، طريق صنعاء ونجران.

(٤) طبقات ابن سعد (٢/١١٧)، والسيرة الحلبية (٣/٢١٠).

(٥) السيرة الحلبية (٣/٢١٠).

والثالثة: أن عمر ينفذ أوامر قائده الأعلى نصًّا وروحًا، ولا يحيد عنها، وهذا هو روح الضبط العسكري؛ روح الجندية في كل زمانٍ ومكان.

وبعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وتولي أبي بكر الصديق كان عمر أحد جنود بعث أسامة بن زيد[١]، وحين أراد أبو بكر الصديق إنفاذ هذا البعث إلى واجبه حسب أوامر النبي ﷺ شَيَّعَ هذا الجيش فقال لقائده أسامة: «**إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل**» فأذن له[٢]، فكان عمر أبرز عضو من أعضاء المجلس الأعلى للقيادة العامة في عهد أبي بكر الصديق.

كان أبو بكر يستشير عمر في تعيين القادة الذين يوليهم قيادة جيوش المسلمين؛ فقد عقد أبو بكر أول لواء إلى أرض الشام لخالد بن سعيد بن العاص، ولكنه عزله قبل أن يسيره، وكان سبب عزله أنه تربص ببيعة أبي بكر شهرين، ولقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان، فقال: «**يا أبا الحسن! يا بني عبد مناف! أغلبتم عليها؟**» فقال علي: «**أمغالبة ترى أم خلافة؟!**»... أما أبو بكر فلم يحقدها عليه، وأما عمر فاضطغنها عليه، فلما ولاه أبو بكر لم يزل به عمر حتى عزله عن الإمارة وجعله ردئًا للمسلمين بـ (تيماء)[٣]، وأمره ألا يفارقها إلا بأمره وأن لا يدعو من حوله من العرب إلا من ارتد، وأن لا يقاتل إلا من قاتله[٤].

وكان يستشيره في تسيير الجيوش إلى الجهاد؛ فقد دعا أبو بكر أهل الرأي، وفي مقدمتهم عمر، وذكر لهم أن رسول اللَّه ﷺ عول أن يصرف همته إلى الشام، فقبضه اللَّه إليه واختار له ما لديه، وطلب رأيهم في ذلك، فكان عمر أسبقهم إلى إجابته

---

(١) ابن الأثير (٢/١٢٧)، والطبري (٢/٤٦٢).

(٢) الطبري (٢/٤٦٢)، وابن الأثير (٢/١٢٧).

(٣) تيماء: بلد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٢/٤٤٢)، وتهذيب الأسماء واللغات القسم الثاني (١/٤٤).

(٤) ابن الأثير (٢/١٥٤)، والطبري (٢/٥٨٦)، وفي البلاذري ص (١١٦): أن عمر كلم أبا بكر في عزل خالد؛ لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب؛ فعزله.

فقال: «... **سر بالخيل في أثر الخيل وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود...**»، فلما لم يتحمس الحاضرون لهذه الدعوة، لأن هيبة الروم أخذتهم صاح فيهم عمر: «**ما لكم يا معشر المسلمين لا تجيبون خليفة رسول اللَّه إذا دعاكم لما يحييكم؟!**» فهزت هذه الصيحة الحاضرين، فرضوا بالجهاد [1]، فكتب أبو بكر إلى اليمن وأهل مكة [2] يستنفرهم للجهاد في أرض الشام.

وكان يستشيره عند إعداد الخطط السوقية (الاستراتيجية) لجيوشه، فكان عمر يعاونه في ذلك أعظم المعاونة.

ولما حضرت أبا بكر الوفاة دعا عبدالرحمن بن عوف فقال: «**أخبرني عن عمر**» فقال: إنه أفضل من رأيت، ولكن فيه غلظة»، فقال أبو بكر: «**ذلك لأنه يراني رقيقًا**»، ولو أفضي الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه، وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه».

ودعا عثمان بن عفان وقال له: «**أخبرني عن عمر**»، فقال: «**سريرته خير من علانيته، وليس فينا مثله**». ودخل طلحة بن عبيد اللَّه على أبي بكر فقال: «**استخلفتَ على الناس عمر، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك**»، فقال أبو بكر: «**أجلسوني**»، ثم قال: «**أباللَّه تخوِّفوني؟ خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول اللهم استخلفت عليهم خيرَ أهلك**» [3]

وأصبح عمـــر بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه القائد الأعلى لقوات المسلمين المسلحة، فكان أول ما عمل، أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس، وذلك قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات بها الصديق أبو بكر. ثم أصبح فبايعه

---

(۱) الفاروق عمر، لمحمد حسين هيكل (۱/۸٥).
(۲) فتوح الشام، للواقدي (۱- ۲).
(۳) الكامل لابن الأثير (۲/۷۹).

الناس، فعاد فندب الناس لقتال الفرس. وتتابع الناس على البيعة ثلاثة أيام، كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، فأمَّره على الجيش؛ لأنه كان أول الناس انتدابًا[١].

وأمر المثنى بن حارثة الشيباني بالتقدم إلى أن يقدم عليه أصحابه، وأمر باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة[٢]، فكان بعث أبي عبيد أول جيش سيره عمر[٣].

لقد طبق عمر بذلك مبدأ (التحشد) تطبيقًا رائعًا.

وكان عمر قد قال لأبي عبيد: «إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية... تقدم على قوم تجرءوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون، واحرز لسانك، ولا تفشينَّ سرك، فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن ولا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة[٤]».

وهذا يدل على أن عمر كان يعرف تفاصيل دقيقة عن الحالة الاجتماعية لعدوه؛ لذلك أوصى قائده بالحذر واليقظة، وأرشده إلى مفتاح كل ذلك؛ وهو كتمان السر حتى لا يعرف عدوه نياته قبل الأوان، فيباغته عدوه قبل أن يباغت هو عدوه، وقبل معركة (البويب)[٥] ندب عمر الناس إلى المثنى بن حارثة الشيباني، وكان فيمن ندب قبيلة «**بجيلة**»[٦]، فجعل الناس يتحامون العراق ويتثاقلون عنه، حتى هَمَّ أن يغزو

---

(١) الطبري (٢/٦٣١)، وابن الأثير (١/٦٦٢)، وتاريخ عمر ص (٦٧).

(٢) ابن الأثير (٢/١٦٦).

(٣) ابن الأثير (٢/١٦٦).

(٤) ابن الأثير (٢/١٦٨).

(٥) نهر كان بالعراق مَوْضعَ الكوفة، فمه عند دار الرزق، يأخذ من الفرات. **انظر**: معجم البلدان (٢/ ٣١٠).

(٦) **انظر**: جمهرة أنساب العرب ص (٣٨٧ - ٣٩٠).

بنفسه، وَقَدِمَ عليه خلقٌ من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق[١]، وكتب إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا رمى به المثنى[٢].

لقد طبق عمر في ذلك مبدأين من مبادئ الحرب المهمة:

مبدأ «التحشد»؛ وذلك بحشد أكبر عدد من القوات في ربوع العراق، **ومبدأ «توخي الهدف»؛** وذلك بالإصرار على فتح العراق مهما يكلفه الأمر ومهما تكن الظروف والأحوال.

وقبل معركة «**القادسية**» الحاسمة ـ حين علم عمر باجتماع الفرس على «**يزدجرد**» بعد توليه عرش أجداده الأكاسرة وتجهزهم؛ مما أثار قرى العراق ومدنه على المسلمين ـ قال: «والله، لأضربن ملوك العجم بملوك العرب»، ثم كتب إلى عماله: لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليَّ... والعجل العجل[٣]...»، فلم يدع رئيسًا، ولا ذا رأي وذا شرف وبسطة، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم، وكتب إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج من بين العجم، والتفرق في المياه التي تَلِي العجم، وأن لا يَدَعُوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحدًا من أهل النجدات إلا أحضروه إما طوعًا أو كرهًا[٤].

وأراد عمر أن يغزو بنفسه وعسكر لذلك خارج المدينة المنورة، فاستخلف علي بن أبي طالب على المدينة، وجعل طلحة بن عبيدالله على المقدمة، والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف على المجنبتين[٥]، ولكن وجوه أصحاب النبي ﷺ أشاروا عليه أن يبعث رجلًا من أصحاب النبي ﷺ ويرميه بالجنود، فإذا كان الذي يشتهي فهو الفتح، وإلا أعاد رجلًا وبعث آخر، ففي ذلك غيظ العدو»، فجمع عمر الناس وقال

---

(١) البلاذري ص (٢٥٣)، **وانظر:** الطبري (٢/٦٤٦).
(٢) وابن الأثير (٢/١٦٩).
(٣) الطبري (٣/٦٦٠)، وابن الاثير (٢/١٧٢).
(٤) ابن الأثير (٢/١٧٢).
(٥) ابن الأثير (٢/١٧٣).

لهم: «إني كنت عزمت على المسير، حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا، فأشيروا علي برجل»[(١)].

وَأَمَّرَ عمرُ سعد بن أبي وقاص على حرب العراق بعد مشاورات طويلة أجراها عمر مع خاصة المسلمين وعامتهم[(٢)]، فسرحه فيمن اجتمع إليه من الرجال، وأمده بعد خروج سعد بألفي يماني وألفي نجدي، وأمر عمر بني أسد أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحزن والبسيطة؛ فنزلوا في ثلاثة آلاف، ولم يدع عمر ذا رأي ولا شرف، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا، ولا وجيهًا من وجوه الناس إلا سَيَّرَهُ إلى سعد[(٣)].

وكتب عمر إلى سعد يأمره: «أن يقاتل المسلمون الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، ولا يقاتلوهم في عقر دارهم، فإن يظفر اللَّه المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد اللَّه الكرة عليهم»، وكتب عمر - أَيْضًا - إلى أبي عبيدة بن الجراح؛ ليصرف أهل العراق ومن اختار أن يلحق بهم من أرض الشام إلى العراق[(٤)].

وكتب عمر إلى سعد ومن معه من الجنود: «أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى اللَّه على كل حال؛ فإن تقوى اللَّه أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب[(٥)]، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا

---

(١) ابن الأثير (٢/١٧٢)، وابن خلدون (٢/٩١)، **وانظر**: البلاذري ص (٢٥٥).

(٢) **انظر**: كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٢٣٢).

(٣) ابن الأثير (٢/١٧٣ - ١٧٤).

(٤) كان هؤلاء قد أرسلوا من العراق إلى أرض الشام مع خالد بن الوليد في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه. **انظر**: قادة فتح العراق والجزيرة ص (١١٩ - ١٢٦).

(٥) **انظر**: الباب الأول من كتاب (مختصر سياسة الحروب، للهرثمي) ص (١٥، ١٦)، وهو: في أن نظام الأمر تقوى الله والعمل بطاعته.

كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا؛ فَرُبَّ قوم سلط عليهم شر منهم؛ كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرةُ المجوسِ ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، واسألوا الله العون على أنفسكم؛ كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم جام الأنفس والكراع، وأقم بمن معك كل جمعة يومًا وليلة، حتى تكون لهم راحة يجمون فيها أنفسهم وَيَرُمُّون ـ أي يصلحون ـ أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأ أحدًا من أهلها شيئًا، فإن لهم حرمة وذمة، ابتليتم بالوفاء بها؛ كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم ففوا لهم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أدنى أرض العدو، فاذكِ العيون بينك وبينهم ـ أي بثها ـ ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينًا لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحدًا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عاينت

العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك وَمَقَاتِلَهُ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعته بك، ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتحفظ من البيات جهدك، ولا تُؤْتَى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه؛ لترهب بذلك عدوك وعدو الله، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان»[١].

إن إجراءات عمر قبل معركة القادسية تمثل ذروة تطبيق مبدإ «**التحشد**»؛ كما أن وصيته لسعد بالقتال على حدود بلاد العرب تطبيق لمبدإ «**الأمن**» ومبدإ «**المرونة**»[٢].

أما وصيته لسعد ولرجاله بتقوى الله وطاعته والابتعاد عن المعاصي فتمثل أسمى غاية لتطبيق مبدإ «**إدامة المعنويات**».

أما وصاياه لسعد من الحذر واليقظة، والمسير، والاستراحة الأسبوعية وإدامة سلاح الجيش وخيوله، والمحافظة على أهل الذمة، وإذكاء العيون واختيارهم، واتخاذ التدابير التعبوية للأمن، والحصول على المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة، والحذر من مباغتة العدو لجيشه، والحزم... إلخ، فتعتبر من ألمع ما كتب في هذا الموضوع، كما أنها دليل على معرفة عمر لتفاصيل ودقائق التعبئة الصغرى واهتمامه الشديد بتطبيق مبدإ «**الأمور الإدارية**» ومبدإ «**الاقتصاد بالمجهود**»[٣].

ووجَّه عتبة بن غزوان[٤] إلى البصرة وقال له: «يا عتبة! إني قد استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من أحومة العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك

---

(١) نهاية الأرب نقلًا عن كتاب (عمر بن الخطاب، لمحمد صبيح) ص (١٤٨ - ١٥٠).

(٢) مبدأ المرونة الذي كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية (قابلية الحركة) أصبح الآن يسمى (مبدأ المرونة)، ومعناه: قوة العمل السريع وقوة الحركة. **انظر**: الرسول القائد ص (٣١٩).

(٣) هو استخدام أصغر القوات للأمن، أو لتحويل انتباه العدو إلى آخر، أو صد قوة معادية أكبر منها، مع بلوغ الغاية المتوخاة. **انظر**: الرسول القائد ص (٣١٧).

(٤) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٣٧٧ - ٣٨٦).

عليها، وقد كتبت إلى الحضرمي يمدك بعرفجة بن هرثمة، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو، فإذا قدم عليك فاستشره، وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية، وإلا فالسيف، واتق اللَّه فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر مما يفسد عليك إخوتك، وقد صحبت رسول اللَّه ﷺ فعززت به بعد الذلة، وقويت بعد الضعف، حتى صرت أميرًا مسلطًا مطاعًا، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيا لها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك على من دونك، واحتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم... أعيذك باللَّه ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى اللَّه حتى رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فَأَرِدِ اللَّه ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين»[١].

هذه الوصية نموذج رفيع من الوصايا؛ تقدم معلومات عن المنطقة، وتؤكد على الخطر المحدق، وتحث على تجميع للقوة درءًا لذلك الخطر، وتحث على الاستشارة، وتوضح تعاليم الفتح في الإسلام، وتأمر بالتقوى والعدل، وتنهى عن الكبر والبطر...

وفي هذه الوصية دليل على معرفة عمر لرجاله فردًا فردًا، من هو الرجل المناسب للعمل المناسب، وتلك مزية لعمر جعلته لا يخطئ في اختيار الرجال لمعاونته في تحمل أعباء الحكم في الحرب وفي السلم، هذه المزية التي لم يكتب التاريخ لرجل دولة أن ينجح بدونها.

وسمع عمر بأعمال خالد بن الوليد في أرض الشام بعد عزله، وكان حينذاك يعمل قائدًا مرءوسًا لأبي عبيدة بن الجراح، فهتف من أعماق قلبه: «أمَّر خالد نفسه! يرحم اللَّه أبا بكر، هو كان أعلم بالرجال مني!»، وقال عن خالد والمثنى: «إني لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما»[٢].

---

(١) الطبري (٣/٩٢)، وابن الأثير (٢/١٨٨).
(٢) ابن الأثير (٢/١٩١).

إنه أراد أن يبذل المقاتلون أقصى جهودهم لنيل النصر وأن يحسبوا في الظروف الحربية أسوأ الاحتمالات، وأن يعدوا لكل احتمال عدته، فلا يتواكلوا معتمدين على كفاية قادتهم أو على عددهم وعُدَدِهم مما يؤدي إلى نكبتهم؛ كما حدث ذلك يوم «**حنين**» إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا.

قال عمر: «لأعزلن خالد بن الوليد والمثنى مثنى بني شيبان، حتى يعلما أن اللَّه إنما كان ينصر عباده، وليس إياهما كان ينصر[(١)]»، فلم يكن عمر يرضى عن غرور القائد ولا عن غرور الجنود.

وبعد فتح «**أنطاكية**» من أرض الشام، كتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح: «رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعل بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء»[(٢)]، وهذا تطبيق عملي لمبدإ «**الأمن**» ولمبدإ «**الأمور الإدارية**».

ولما فرغ سعد بن أبي وقاص من أمر القادسية، أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى «**المدائن**»[(٣)]، وأن يخلف النساء والعيال بـ «**العتيق**»[(٤)]، وأن يجعل معهم جندًا كثيفًا[(٥)]، وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم، وفي هذا الأمر المختصر، طبق عمر مبدأ «**اختيار المقصد وإدامته**»، ومبدأ «**التعرض**»[(٦)]، ومبدأ «**تحشيد القوة**»، ومبدأ «**الاقتصاد بالجهود**»، ومبدأ «**الأمن**»، ومبدأ «**إدامة المعنويات**»، ومبدأ «**الأمور الإدارية**»، ولا أعلم

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٢٨٤).

(٢) ابن الأثير (٢/١٩٢).

(٣) المدائن: هي طيسفون على دجلة، بينها وبين بغداد ستة فراسخ. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٧/٤١٣ - ٤١٥)، وهي مدينة سامان باك في الوقت الحاضر، ناحية من نواحي بغداد.

(٤) العتيق: قرية بين القادسية وبغداد، استولت عليها دجلة. **انظر**: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (٢/٢٣٥)، الطبعة الأولى، ولم أجد ذكرًا لهذه القرية في (معجم البلدان).

(٥) ابن الأثير (٢/١٩٦).

(٦) التعرض: هو الهجوم على العدو لسحقه. **انظر**: الرسول القائد ص (٣١٣).

رسالة عسكرية قليلة الكلمات كثيرة الفائدة مثل هذه الرسالة الموجزة.

وبعد فتح «**المدائن**»، انسحب الفرس باتجاه «**جلولاء**»[(١)]، وعسكرت قواتهم الضاربة هناك، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: «**سرح هاشم بن عتبة**[(٢)] **إلى «جلولاء» في اثني عشر ألفًا، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي، وعلى ميمنته مسعر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك، واجعل** على ساقته عمرو بن مرة الجرمي»[(٣)]، وهذا يدل على معرفة عمر بالرجال وبالأساليب التعبوية التي تحقق لجيشه مبدأ «**الأمن**».

كما كتب إلى سعد عندما علم بتجمع العدو في «**تكريت**» يقول: «سرح إليه عبدالله بن المعتم[(٤)]، واستعمل على مقدمته ربعي بن الأفكل[(٥)]، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة[(٦)]»، وهذا يدل على معرفة عمر بالرجال ـ أيضًا ـ، وبالأساليب التعبوية السائدة في الجيوش حينذاك.

وَعَبَرَ العلاء بن الحضرمي من البحرين إلى فارس بغير إذن عمر؛ فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم؛ فلم يجدوا إلى الرجوع سبيلًا، وأخذت الفرس طرقهم، فعسكروا وامتنعوا، ولما بلغ عمرَ صنيعُ العلاء، أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا؛ فأرسل عتبة جيشًا في اثني عشر ألف مقاتل؛ فهزموا الفرس، وأنقذوا جيش العلاء، وعادوا إلى البصرة[(٧)].

---

(١) جلولا: موضع على نهر ديالي على بعد سبعة فراسخ من خانقين، تقع بين خانقين ويعقوبا. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (١٢٩/٣).

(٢) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٢٩١ ـ ٣٠٠).

(٣) ابن الأثير (٢٠٢/٢).

(٤) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٣٠١ ـ ٣٢٣).

(٥) الطبري (١٣٢/٣)، والبلاذري ص (٢٦٤)، وابن الأثير (٢٠١/٢).

(٦) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٣٤٣ ـ ٣٤٩).

(٧) الطبري (١٨٧/٣)، وابن الأثير (٢٠٨/٢، ٢٠٩).

وقد عزل عمرُ العلاء بن الحضرمي عن «**البحرين**»؛ لمخالفته الأوامر[١].

لقد طبق مبدأ «**الأمن**» في منعه العلاء من العبور إلى فارس بحرًا، وطبق مبدأ «**التحشيد**» في إرسال المدد إليه؛ لإنقاذ جيشه من الورطة التي وقع فيها، وكان عزل العلاء دليلًا على تمسك عمر بتنفيذ أوامره، وعدم إفساح المجال لمخالفتها، وعدم السكوت عن المخالفين.

وفي «**الأهواز**» استطاع «**يزدجرد**» أن يحشد جيشًا ضخمًا، فجاءت الأخبار حرقوس بن زهير وصحبه، فكتبوا إلى عمر بالخبر، فكتب عمر إلى سعد أن: «ابعث إلى الأهواز جندًا كثيفًا مع النعمان بن مقرن المزني، وعجل، فلينـزلوا بإزاء «**الهرمزان**» ويتحققوا أمره»، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن: «ابعث إلى «**الأهواز**» جندًا كثيفًا، وَأَمِّرْ عليهم سعد بن عدي أخا سهيل، فابعث معه البراء بن مالك، ومجزأة بن ثور، وعرفجة بن هرثمة، وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعًا أبو سبرة بن أبي رهم»[٢].

وهذا يدل على أن عمر كان يعرف رجاله ومزاياهم معرفة دقيقة، وأنه طبق مبدأ «**التحشد**» تطبيقًا رائعًا.

لقد كان عمر جنديًّا ممتازًا وقائدًا مجربًا، يعرف تفاصيل التعبئة الصغرى، ويتحلى بمزية الضبط المتين، ويعرف مزايا رجاله، ويوليهم المناصب استنادًا لتلك المزايا فقط، ويطبق جميع مبادئ الحرب المعروفة بشكل مثالي وبكل حرص في الحرب.

لقد كان قائدًا فذًّا لا يتكرر على تعاقب الأيام والعصور إلا نادرًا... وقد لا يتكرر

---

(١) **انظر**: تفاصيل ذلك في ترجمة العلاء بن الحضرمي في كتاب (قادة فتح بلاد فارس) ص (٢٤٧-٢٧٦).

(٢) ابن الأثير (٢/٢١١)، **وانظر**: كتاب الولاة وكتاب القضاة (٨) حول تحشيد قوات المسلمين لفتح مصر، **وانظر**: ترجمة أبي موسى الأشعري في كتاب (قادة فتح بلاد فارس) ص (١٧٨ - ١٩١)، **وانظر**: ترجمة أبي سبرة بن أبي رهم في كتاب (قادة فتح بلاد فارس) ص (١٥٥ - ١٦٠).

أبدًا.

❑ الخطط السوقية[١]

١ـ الخطط التعبوية:

هي الخطط التي يُعِدُّهَا القادة المرءوسون في منطقة العمليات[٢] والقادة العامون في «الجبهة»[٣] وفي «ساحات العمليات»[٤] لإدارة الحرب في معارك معينة.

وكمثال على ذلك:

كان في أيام عمر ساحات عمليات عديدة: ساحة عمليات العراق، وساحة عمليات أرض الشام، وساحة عمليات فارس، وساحة عمليات مصر.. إلخ.

وكان في ساحة عمليات العراق ـ مثلًا ـ عدة جبهات: جبهة محور نهر «**ديالي**»، وجبهة محور نهر «**دجلة**» حتى مدينة الموصل، وجبهة عمليات محور نهر «**الفرات**»، وجبهة عمليات جنوبي العراق.. إلخ.

وكان في كل جبهة من الجبهات مناطق عمليات؛ فمثلًا: ساحة عمليات دجلة حتى الموصل شمالًا، كان هناك منطقة عمليات تكريت ومنطقة عمليات الموصل... إلخ.

كان القائد العام في العراق ـ مثلًا ـ سعد بن أبي وقاص مسئولًا عن ساحة عمليات العراق كله، وكان في جبهة دجلة حتى الموصل قادة مرءوسون: عبدالله بن المعتم

---

(١) هناك نوعان من الخطط:

(أ) **الخطط التعبوية**: هي خطط معركة معينة في ميدان قتال معين. ومن ذلك يتضح لنا أن الخطط التعبوية تعني نتائج معركة واحدة محلية.

(ب) **الخطط السوقية (الاستراتيجية)**: هي الخطط التي لها نتائج حاسمة على نتيجة الحرب كلها في ميادين القتال كافة.

(٢) منطقة العمليات: هي قسم من ساحة العمليات.

(٣) الجبهة: هي عدة مناطق عمليات داخلة في حدود جغرافية معينة.

(٤) ساحة العمليات: هي الساحة التي يتمكن أحد الخصمين من القتال فيها.

مسئولًا عن هذه الجبهة كلها، وربعي بن الأفكل مسئولًا عن منطقة عمليات الموصل[١]، وهكذا كان للعراق ساحة حركات فيه عدة جبهات في كل جبهة مناطق عمليات عديدة.

٢ـ أما الخطط السوقية:

فهي الخطط التي يُعِدُّهَا القائد الأعلى لإدارة الحرب في «**ساحة الحرب**»[٢] كلها، ويكون لهذه الخطط السوقية تأثير على نتائج الحرب في مختلف ساحات العمليات والجبهات ومناطق العمليات.

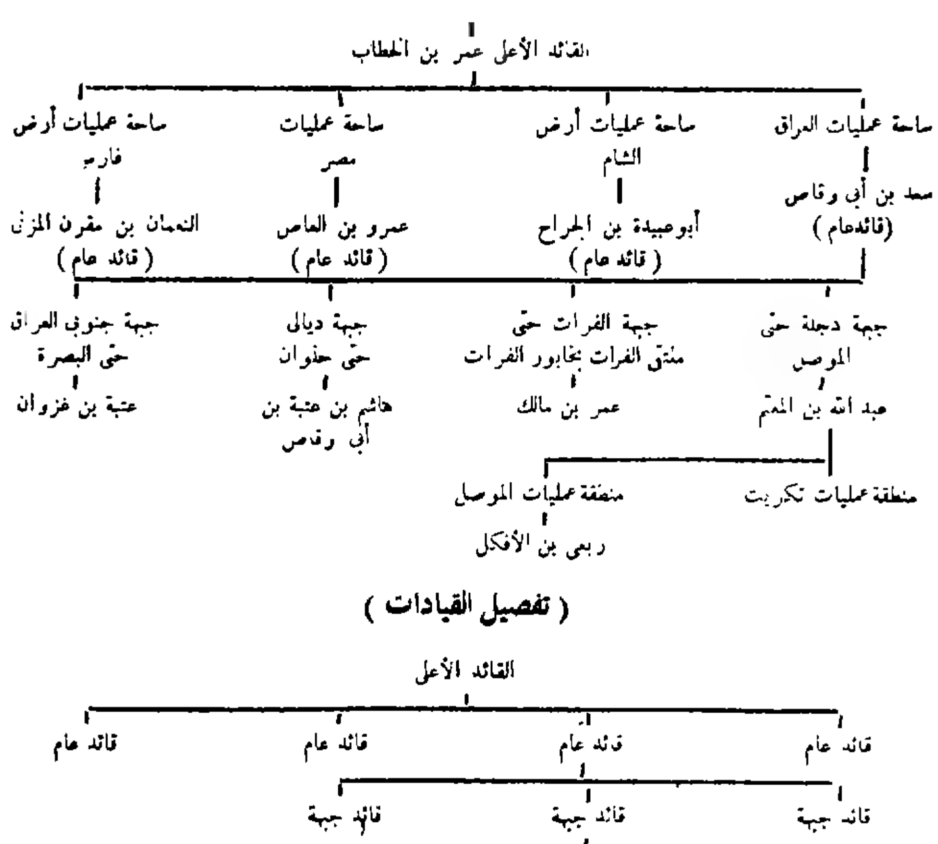
«انظر المخطط الإيضاحي في الصفحة التالية عن ساحات الحرب والقيادات، وعن تفصيل القيادت، وعن تفصيل ساحة الحرب»[٣] :

---

(١) **انظر**: كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة).

(٢) ساحة الحرب: هي جميع البلاد التي يحتمل أن يتقابل فيها الفريقان المتخاصمان في البر والبحر.

(٣) نقلا عن كتاب «الفاروق القائد» للواء الركن محمود شيت خطاب، ص ١٦٤



إن القائد الأعلى «**عمر بن الخطاب**» كان هو المسئول الأول عن إعداد الخطط السوقية، ويشمل ذلك: إعداد هذه الخطط من الناحية العسكرية، وإصدار الوصايا أو

الأوامر لتنفيذها، وإعداد جيوشه بالإمدادات من الرجال والمعدات لإدامة الحرب، وتزويد تلك الجيوش بالأمور الإدارية، ومراقبة وصول تلك المواد الإدارية إلى جيوشه، والعمل على رفع معنويات رجاله في ساحة الحرب وفي كل مكان، واختيار القادة العامين والقادة المرءوسين القادرين على تنفيذ أوامره ووصاياه نصًّا وروحًا.

٣ـ لقد أنجز عمر بن الخطاب كل واجباته قائدًا أعلى بشكل يدعو إلى التقدير العميق والإعجاب الشديد.

تهيأت له الأسباب الجوهرية لإنجاز تلك الواجبات بكل جدارة، وقد مرَّ بنا بعض تلك الأسباب:

ـ كان يؤمن بالشورى؛ فلا يستقل برأيه، ولا يبالي أن يأخذ الحكمة من أي وعاء؛ وهذا يقلل من فرص الخطإ والإهمال.

ـ وكان يحرص على جمع المعلومات من منابعها بشتى الطُرق والأساليب؛ وهذا يجعله يعمل على هدًى وبصيرةٍ، ولا يسير أبدًا وهو مغمض العينين.

ـ وكان يَتَّسِمُ بالحرص الشديد على الأرواح؛ وهذا يؤدي إلى عدم زَجِّ جيوشه في المهالك دون مُسَوِّغٍ.

ـ وكان فطنًا عالـمًا بعيد النظر؛ ومن نتائج ذلك: استكمال دراساته العسكرية بدقة وإتقان حين وضع الخطط العسكرية مع إدخال أسوإ الاحتمالات في الحساب.

ـ وكان شجاعًا يُعِدُّ لكل أمر عُدَّتَهُ، ثم لا يُحْجِمُ عن تنفيذ خططه، ولا يتردد، ولا يتراجع.

ـ وكانت له قابلية بدنية ممتازة تُعِينُهُ على تحمل المشاقِّ والصعابِ بصبر وحزم وإقدام.

ـ وكان يعرف عِظَمَ مسئوليته وضخامة عبئها؛ فلا يتردد في تحمل أعبائها، ولا يتهرب من نتائجها، ولا يُلْقِي بأعباء تلك النتائج على الآخرين.

ـ وكان له تجارب طويلة في الحرب جنديًّا وقائدًا مرءوسًا ومستشارًا خبيرًا للرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ولخليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه من بعده؛ كما كان خبيرًا بمبادئ الحرب مطبقًا لها عالـمًا بتفاصيلها حريصًا على مراعاتها.

تلك هي الأسس الموضوعية التي تهيئ لكل قائد أنسبَ فرصة للنجاح في إعداد الخطط السوقية، والتي تهيأت لعمر بشكل واضح ملموس قَلَّ أن تجد له مثيلًا في تاريخ الحروب بكل زمان ومكان.

فلا عجب ـ بعد ذلك ـ أن تكون خططه السوقية دقيقة متكاملة عملية بعيدة عن المخاطر.

ولا عجب أن تكون نتائجها فتحًا مستدامًا، لم تتراجع راياته منذ أربعة عشر قرنًا حتى اليوم.

لقد كان عهد عمر عهدًا ذهبيًّا للفتح الإسلامي العظيم.

٤ـ كان دستوره في الحرب أن يضع الأسس العامة، ويعهد في تنفيذها إلى ذي خبرة وأمانة، ولا يتخلى عن تَبِعَتِهِ العظمى في مصائر الحرب كل التخلي اعتمادًا على القائد وحده؛ إذ ليس القائد المحلي هو المسئول الوحيد عن المصير.

فإذا رأى القائدُ العامُّ رأيًا وخالفه هو في رأيه، أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأي الذي دعاه إليه، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه.

ولقد كان إلى جانب السهر على الميادين ـ عامة ـ لا يُغِلُّ يد القائد فيما يُحْسِنُ أن تنطلق فيه، فإذا تجاوز الأمرُ سياسةَ الحربِ العامةِ من فتح الميادين، وفكِّ الحصار، وانتظار الهجوم، فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه، ولا ينتظر الرجوع إليه، وأن يجري في إدارة المعركة على الوجه الذي تمليه ضرورةُ الساعة.

استشاره أبو عبيدة في دخول الدروب خلف العدو؛ فكتب إليه: «أنت الشاهد، وأنا الغائب، والشاهد يَرَى ما لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك، وعيونك يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابًا، فابعث إليهم السرايا،

وادخل معهم بلادهم، وَضَيِّقْ عليهم مسالكهم، وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم...».

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها، وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة، وهو ـ بعد هذا ـ لا يُعْفِي نفسه من التبعية، ولا يُعْفِي القائد من واجب الرجوع إليه في المواقف الحاسمة، ولا يُغِلُّ يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه، ولا ينسى أن يعينه إذا خالفه في الرأي؛ ليتفق الرأيان المختلفان، فإذا رجع القائد إلى الحصار الذي أزمع أن يتركه مثلًا، رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدي عملًا يخالف الصواب في تقديره.

وهذه السياسة هي التي جرى عليها عمر في جميع بعوثه وغزواته وسراياه ـ وهي السياسة التي لا يستطيع الحاكم أن يجري على غيرها في حرب قديمة أو حديثة، وقد جرى عليها ـ جعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد في الميدان، وجعلت بطل الفرس «**رستم**» المشهور في التواريخ والأساطير يقول: «إن عمر هو هازمه في الميدان» و«أنه هو الذي يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! أكل كبدي، أحرق اللَّه كبده»[1].

وربما يتبادر إلى الأذهان أن عمر كان مركزيًّا في قيادته، يشل أيدي قادته العامين وقادته المرءوسين، وهذا وَهْمٌ ليس له من الحق نصيب.

إنه رضي الله عنه يضع الخطط العامة ويترك لقادته التفاصيل بعد أن يبذل قصارى جهده في اختيارهم لتحمل تبعاتهم بجدارة وقوة وإيمان... إنه يضع الخطط السوقية، ويترك لقادته أمر وضع الخطط التعبوية.

كان يشتد اغتباطه حين يرى قادته وعماله يتجرَّدون لخير الرعية، ويُثْنِي عليهم لذلك أعظم الثناء؛ فقد كتب إلى عمير بن سعد الأنصاري الأوسي[2] وهو على

---

(١) عبقرية عمر ص (١٥٥ ـ ١٥٧).

(٢) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٤٦٩ ـ ٤٧٥).

حمص: «أقبل بما جبيت من فيء المسلمين»، فلما أقبل عمير سأله عما صنع، فقال: «بعثتني حتى أتيت البلد، فجمعت صلحاء أهلها، فوليتهم جباية فيئهم، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به!»، فقال عمر: «فما جئتنا بشيء؟!»، فلما أكد له أنه أنفق كل شيء على أهل حمص، قال: «جددوا لعمير عهدًا»[١].

لقد كان عمر قائدًا سوقيًا، يُعِدُّ الخطط السوقية ويصدر أوامره ووصاياه إلى قادته العاملين وقادته المرءوسين مبينًا لهم السياسة العامة للحرب، ثم يترك لهؤلاء القادة تحمل أعباء كل التفاصيل التنفيذية.

٥ـ إن التاريخ لَيَذْكُرُ لنا نماذج حية رائعة من خطط عمر السوقية أصدرها إلى قادته؛ أوامر جازمة صريحة، ووصايا حاسمة واضحة، كان من نتائجها العصر الذهبي للفتح الإسلامي في أيام عمر الفاروق.

أـ بعد معركة «**اليرموك**» في أرض الشام استخلف أبو عبيدة بن الجراح على «**اليرموك**» بشير بن كعب الحيري، وسار حتى نزل بـ«**الصفر**»[٢]، فأتاه الخبر أن الروم وحلفاءهم المنهزمين اجتمعوا بـ «**فحل**»[٣]، وأتاه الخبر ـ أيضًا ـ بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص؛ فكتب إلى عمر في ذلك؛ فأجابه يأمره بأن يبدأ بدمشق؛ فإنها حصن الشام وبيت ملكهم، ويشغل أهل «**فحل**» بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق، سار إلى «**فحل**»، فإذا فتحت عليهم، سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص بالأردن وفلسطين[٤].

تلك هي الخطة السوقية لعمر التي بموجبها فُتحت أرض الشام «سورية، والأردن،

(١) بقي عمير واليًا على حمص وقنسرين طيلة أيام عمر بن الخطاب؛ **انظر**: ابن الأثير (٣/٨، ٣٠)، والطبري (٣/٢٢٧، ٣٠٤، ٣٣٩).

(٢) الصفر: موضع بين دمشق والجولان. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٥/٣٦٧).

(٣) فحل: اسم موضع بالشام. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٦/٣٤٠).

(٤) ابن الأثير (٢/١٦٤).

ولبنان، وفلسطين»، ومنها يتضح أن عمر بدأ بـ «**هدف العمليات الخطير**»[١]؛ وهو: مدينة دمشق عاصمة البلاد، وبعد فتحها تتوجه الجيوش إلى الأهداف الثانوية، ولكي يحرم الروم وحلفاءهم من تعاون قواتهم في مختلف مناطقها عند فتح دمشق أَمَرَ عمر بتخصيص قوات من الفرسان لمشاغلتهم أثناء محاولة المسلمين فتح دمشق.

لقد أدى تطبيق هذه الخطة السوقية إلى فتح أرض الشام بسهولة ويسر.

ب ـ وقبل معركة «**القادسية**» الحاسمة أَمَرَ عمر أبا عبيدة بن الجراح أن يصرف جند العراق الذين كانوا في أرض الشام إلى العراق ـ وهم الذين شهدوا معركة «**اليرموك**» ـ، وأمرهم بالحث إلى سعد بن أبي وقاص[٢]؛ وذلك لتحشيد أكبر قوة ممكنة في الزمان والمكان المناسبين، فكان لحضور هؤلاء معركة «**القادسية**» أثرٌ كبيرٌ في انتصار المسلمين في هذه المعركة على جيوش الفرس الجرارة.

إن مهمة القائد الأعلى هي أن يحشد أكبر عدد من الرجال قبل المعركة الحاسمة؛ ليضمن لجيوشه النجاح والنصر، فإذا كانت قوات العراق قد شهدت معركة «**اليرموك**» الحاسمة، فلا مسوغ لبقائها في أرض الشام بعد انتصار المسلمين في تلك المعركة وبعد فتح دمشق، ومن الضروري أن تعمل تلك القوات في ساحة أخرى أكثر أهمية من ساحات أرض الشام؛ خاصة بعد انكشاف الموقف في تلك الساحات؛ لأن المعارك المتوقعة فيها لا تزيد على معارك تعبوية هي من أجل استثمار الفوز الذي حققه المسلمون في «**اليرموك**» وبعد فتح دمشق.

وكتب إلى سعد بن أبي وقاص بعد اختياره لحرب فارس: «إذا انتهيت إلى القادسية، وهو منزل رغيب خصيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك[٣]

---

(١) هدف العمليات الخطير: هو الهدف الذي متى ما تَمَّ الاستيلاء عليه تنتهي الحرب، أو أن العدو يضطر إلى قبول الصلح؛ وتؤلف عواصم البلاد هدف العمليات الخطير.

(٢) الطبري (٦٢٧/٢).

(٣) المسالح: جمع مسلحة؛ وهي: الحامية الأمامية أو المركز الذي تقيم فيه قوة عسكرية، وهما كالمخافر الحديثة التي فيها قوة عسكرية مناسبة.

على أنقابها[١]، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات المدر والجراع[٢] بينها، ثم الزم مكانك فلا تبرحه؛ فإنك إذا أحسوك[٣] أنغصتهم، ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله وقويتم الأمانة، رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدًا، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنت عليهم أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتي اللَّه بالفتح»[٤].

ونلاحظ في هذه الخطة السوقية الفذة أمورًا عسكرية كثيرة؛ **أهمها:**

أولًا: أن عمر أصاب في معرفة المنطقة التي ستدور عليها المعركة الحاسمة؛ وهي: «**القادسية**».

ثانيًا: أن معلوماته عن طبيعة أرض المعركة دقيقة جدًّا.

ثالثًا: أنه أعطى خطة واضحة للعمل؛ تُرسَلُ المسالح؛ لتطوق منطقة «**القادسية**»، وتستطلع أخبار العدو، وتمنعه من التسرب إلى مواضع المسلمين الأصلية، وتقوم هذه المسالح بواجب حماية القوات الضاربة للمسلمين، وتبقى قوات المسلمين الضاربة في منطقة قريبة من الصحراء؛ لكي تنسحب إليها عند الضرورة بسهولة ودون خسائر في الأرواح والمواد.

رابعًا: أن العدو إذا اندحر، كانت هذه المعركة قاضيةً على قواته الضاربة، أما إذا انتصر العدو، كان من السهولة على المسلمين الانسحاب إلى الصحراء التي يعرفونها ويطيقون القتال عليها، ولا يعرفها العدو ولا يطيق القتال في مجاهلها، وعند ذلك

---

(١) أنقاب: جمع نقب؛ وهو: الطريق في الجبل؛ **انظر:** ترتيب القاموس المحيط (٤/٣٧٦)، والمعجم الوسيط (٢/٩٥٢)، وهي تعني: الطرق التقريبية للعدو إلى قوات المسلمين.

(٢) الجراع: جمع أجرع؛ هي: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل؛ **انظر:** المعجم الوسيط (١/١١٨).

(٣) **حَسَّ:** حس الشيء حسًّا: استأصله، وحسوهم: استأصلوهم قتلًا.

(٤) **انظر:** عبقرية عمر ص (١٤٥).

يخفق العدو حتمًا في مطاردته المسلمين؛ فيعيد المسلمون على عدوهم الكرة حتى يأتي اللَّه بالفتح.

إنها خطة سوقية سليمة مضمونة النجاح في حالتي النصر أو الاندحار.

ج - وفي سنة سبع عشرة هجرية (٦٣٨م) قصد الرومُ أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بـ «**حمص**»؛ فقد أرسل أهل الجزيرة إلى إمبراطور الروم يحثونه على إرسال الجنود إلى الشام، ويذكرون له أنهم سيعاونونه.

وحين علم المسلمون باجتماع الروم وأهل الجزيرة، سحب أبو عبيدة مسالحه من مواضعها وعسكر بفناء مدينة حمص، وأقبل خالد من «**قنسرين**»(١) إليهم، فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أو التحصين إلى مجيء الغياث؛ فأشار خالد بالمناجزة، وأشار آخرون بالتحصين ومكاتبة عمر؛ فأطاعهم أبو عبيدة، وكتب إلى عمر بذلك، وقد كان عمر اتخذ في كلِّ مِصْرٍ خيولًا على قدره من فضول أموال المسلمين عُدَّةً للحوادث الطارئة؛ فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيمَ عليها سلمانُ بنُ ربيعةَ الباهليُّ ونفرٌ من أهل الكوفة، وكان في كل مصر من الأمصار الثمانية على قدره، فإن تأتها آتية ركبها الناس وساروا إلى أن يتجهز الناس، فلما سمع عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص: «اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص؛ فإن أبا عبيدة قد أحيط به، وتقدم إليهم في الجد والحث»، وكتب إليه - أيضًا -: «سرح سهيل بن عدي إلى الجزيرة في الجند، وليأت «**الرقة**»؛ فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وسرح عبداللَّه بن عبداللَّه بن عتبان إلى «**نصيبين**»، ثم ليقصد «**حران**» و«**الرها**»، وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وسرح عياض بن غنم، فإن

---

(١) قنسرين: مدينة تقع في ديار ربيعة، منها إلى حلب مرحلة صغيرة، ومنها إلى معرة النعمان مرحلة كبيرة. **انظر**: تقويم البلدان ص (٢٦٦، ٢٦٧)، ومعجم البلدان (٦٦٨/٧)، والمسالك والممالك، لابن خرداذبة ص (٧٥)، وأحسن التقاسيم ص (١٥٤)، والبلدان، لابن الفقيه ص (١٧٩).

كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعًا إلى عياض بن غنم»[١] ، فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص، وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على «**الفراض**»[٢] وغير «**الفراض**»، وتوجه كل أمير إلى الكورة التي أُمِّرَ عليها، وخرج عمر بنفسه من المدينة مغيثًا لأبي عبيدة يريد «**حمص**» حتى نزل «**الجابية**»[٣] ، ولما بلغ أهلَ الجزيرةِ الذين أعانوا الروم على أهل حمص ـ وهم معهم ـ خبرُ الجنود الإسلامية، تفرقوا إلى بلادهم وفارقوا الروم، عند ذاك استشار أبو عبيدة خالدًا في الخروج أو البقاء، فأشار عليه خالد بالخروج؛ فخرج إليهم وقاتلهم؛ ففتح الله عليهم، وقدم القعقاع بن عمرو بعد الوقعة بثلاثة أيام، فكتب أبو عبيدة بالفتح وبقدوم المدد عليهم والحكم في ذلك؛ فكتب إليه: «أشركوهم؛ فإنهم نفروا إليكم وانفرق لهم عدوكم»، وقال: «جزى الله الكوفة خيرًا؛ يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار»[٤] .

أول ما نلاحظ من خطة عمر السوْقية هذه: أنه كان قد أعد في الأمصار خيولًا للطوارئ تتحرك بإنذار قصير إلى الأماكن المهددة بالخطر من دار الإسلام، وقد حمى عمر بعض المراعي لتلك الخيول؛ فحمى «**الربذة**»[٥] ـ مثلًا ـ لخيول المسلمين[٦] ، وكان عنده خيل موسومة على أفخاذها: «**حبيس في سبيل الله**»[٧] ،

---

(١) الطبري (١٥٤/٣)، وابن الأثير (٢٠٥/٢).

(٢) الفراض: جمع فرضة؛ وهي: المشرعة، والأصل في الفرضة الثلمة في النهر. والفراض تخوم العراق والشام والجزيرة. **انظر:** التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٠/٦).

(٣) الجابية: قرية من أعمال دمشق، ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمالي حوران. التفاصيل في معجم البلدان (٣٣/٣).

(٤) الطبري (١٥٤/٣)، وابن الأثير (٢٠٥/٢).

(٥) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال على طريق ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من قيد تريد مكة. **انظر:** التفاصيل في معجم البلدان (٢٢١/٤).

(٦) ابن الأثير (٢٠٣/٢).

(٧) طبقات ابن سعد (٣٠٦/٣).

يحمل الغزاة عليها.

ونلاحظ ثانيًا: أن عمر أمر بمشاغلة قوات الروم في «**حمص**» بعد أن حرم الروم من معاونة أهل الجزيرة الأشداء لهم؛ وذلك بمهاجمتهم في عقر دارهم.

ونلاحظ ثالثًا: أن الإمدادات تحركت بسرعة هائلة من العراق ومن الحجاز باتجاه «**حمص**»؛ لضرب القوات الرومية؛ مما جعل التفوق بالعدد إلى جانب المسلمين.

ونلاحظ رابعًا: أن هذه الإجراءات السريعة الحاسمة رفعت معنويات المسلمين وحطمت معنويات أعدائهم.

إن حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلًا.. إنه يكاد يكون مستحيلًا حتى في أيامنا الحاضرة هذه، فكيف أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرنًا؟!

وهذا يدلنا على ما بلغته الجيوش الإسلامية حينذاك من دقة ومتانة في التنظيم، وهو بعض الجواب على تساؤل المؤرخين قديمًا وحديثًا: كيف تَمَّ الفتح الإسلامي بالسرعة التي تَمَّ بها؟!

إن عمر ـ شخصيًا ـ كان يتدخل في أدق تفاصيل تنظيم هذه الجيوش حسب خطة مرسومة وتفكير عميق؛ قال السائب بن يزيد: «رأيت عمر بن الخطاب يصلح أداة الإبل التي يحمل عليها في سبيل اللَّه براذعها وأقتابها، فإذا حمل الرجل على البعير جعل معه أداته»، وكان عمر يُغَزِّي الأعزبَ عن ذي الحليلة، ويُغَزِّي الفارسَ عن القاعد، وكان يعقب بين الغزاة[١]... فما أروع دقة تفاصيل هذا التنظيم، وما أحرى أن تنتصر مثل هذه الجيوش التي على رأسها مثل عمر قائدًا أعلى.

د ـ وحين قدم الأحنف بن قيس التميمي على رأس وفد على عمر بعد فتح «**تُستَر**» كما ذكرنا، سأل عمر الْوَفَدَةَ قائلًا: «لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة، فلهذا ينتقضون

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٠٦/٣).

بكم؟!»، وكان يشير إلى انتقاض الهرمزان الذي كان مع الوفد بعد صلحه مع المسلمين، فقال الأحنف: «يا أمير المؤمنين، إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وإن ملك فارس بين أظهرهم، ولا يزالون يقاتلون ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئًا بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم، وإن ملكهم يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح، فنسيح في بلاهم ونزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس»؛ فقال عمر: «**صدقتني والله**»، وأذن في الانسياح في بلاد فارس(١).

واطمأن عمر إلى انتصار جنده في معركة «**نهاوند**» الحاسمة؛ فذكر نصيحة الأحنف له بالانسياح في أرض فارس؛ فأمر أبا موسى الأشعري أن يسير من البصرة إلى نهر منقطع ذمة البصرة، فيكون هناك حتى يأتيه أمره، ودفع لواء «**خراسان**» إلى الأحنف بن قيس، ولواء «**أردشير خرَّة**» إلى مجاشع بن مسعود السلمي، ولواء «**أصطخر**» إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء «**فسا**» و«**دار ايحرد**» إلى سارية بن زنيم الكناني، ولواء «**كرمان**» إلى سهيل بن عدي، ولواء «**سجستان**» إلى عاصم بن عمرو، ولواء «**مكران**» إلى الحكم بن عمير التغلبي، وأمدهم عمر بنفر من أهل الكوفة؛ فأمد سهيل بن عدي بعبد اللَّه بن عبداللَّه بن عتبان، وأمد الأحنف بعلقمة بن النضر، وبعبداللَّه بن أبي عقيل، وبربعي بن عامر، وأمد عاصم بن عمرو بعبد اللَّه بن عمير الأشجعي، وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق في جموع(٢).

هذه الخطة السوقية لعمر، التي بدأ تنفيذها بعد معركة «**نهاوند**» الحاسمة، هي خطة؛ لاستثمار الفوز؛ من أجل القضاء على مقاومات الفرس التعبوية في بلادهم، وتطهير أرض فارس من الجيوش المعادية للمسلمين.

إن هذه الخطة الرصينة حرمت الفرس من تعاون قواتهم في منطقة معينة في وقت

---

(١) الطبري (٣/١٨٤، ١٨٥)، وابن الأثير (٢/٢١٣).
(٢) ابن الأثير (٢/٢١٤).

معين تحت قيادة موحدة، وجعلت أهل كل منطقة يدافعون عن منطقتهم وحدهم أمام تيار المسلمين الجارف الذي حشد له عمر أكبرَ عدد ممكن من الرجال بقيادة ذوي الكفايات من القادة البارزين المجربين الذين تسلموا مناصبهم بجدارة تامة وبدون محاباة، أو عاطفة، أو محسوبية، أو منسوبية، أو صلة قربى أو صداقة.

ثم فتح فارس بموجب هذه الخطة؛ فوجد الفرسُ أن حكم العرب المسلمين أكثر إنصافًا وعدلًا، وأقل إرهاقًا من حكم الأكاسرة؛ فقد تركهم المسلمون لم يزعجوهم عن دينهم، ولم يتدخلوا في شئونهم، ثم جعلوا لأمراء الولايات من الاستقلال أكثر مما كان لهم في عهد «**يزدجرد**» وأسلافه، كما تركوا لهم المناصب العامة ولم يحاولوا استغلالها لأنفسهم، مكتفين بالجزية يقتضونها وفاقًا للمعاهدات المعقودة بينهم وبين مختلف الولايات[١].

هـ- وفي فتح مصر أشفق عمر على جيش عمرو بن العاص؛ فبعث الزبير بن العوام في اثني عشر ألفًا[٢]، وبذلك استطاع عمرو فتح بلاد وادي النيل.

هذه هي بعض خطط عمر السوقية: خطة لفتح العراق، وخطة لفتح أرض الشام، وخطة لفتح بلاد فارس، وخطة لفتح مصر الذي امتد من أرض الكنانة إلى ليبيا وأرض النوبة.

تلك أمثلة رائعة من خططه السوقية للفتح، تُصَوِّرُ لك كيف نهض عمر بتبعات قيادته قائدًا أعلى لجيوش المسلمين في عصر الفتح الذهبي، إنها تكشف لك عن السر في قدرته الممتازة على الاضطلاع بأعبائه الجسام على نحو لا يزال مَثَارًا لعجب الناس وإعجابهم، كما تبين لك كيف كانت قابليات عمر القيادية من أهم الأسباب التي هيأت لامتداد الفتح شرقًا وغربًا، ودفعت المسلمين إليه، ورغبتهم فيه؛ لقد كانوا يرون أمير المؤمنين خير كفيل بحقوقهم وبمن يخلفون وراءهم من عيالهم وذويهم، وكانوا

---

(١) الفاروق عمر (٥٨/٢).

(٢) **انظر:** فتوح مصر والمغرب ص (٩٢)، **وانظر:** كتاب الولاة وكتاب القضاة ص (٨).

يرونه يؤثر على نفسه وأهله، ويؤدي لكل ذي حق حقه؛ فلا جَرَمَ أنهم لَيَنْدَفِعُونَ إلى ميادين القتال وكلهم الطمأنينة إلى غدهم وإلى مصير أبنائهم وذويهم، وما ضَرَّ أحدهم أن يُقتل في سبيل اللَّه وفي سبيل الفتح الإسلامي، وهو على يقين أن بنيه سَيُجْزَوْنَ إذا استشهد بخير مما كانوا يجزون به إذا ظل حيًّا، وأنه سَتُفتح له أبواب الجنة مما وهب اللَّه نفسه مجاهدًا في سبيله[(١)].

٦- وإذا كُتِبَ لخطط عمر السوقية النجاحُ الفذُّ؛ فلأنه بناها على أسس قويمة، ولعل من أهم هذه الأسس هو تطبيقه مبدأ «**التحشد**» تطبيقًا بَلَغَ حَدَّ الروعةِ عَدَدًا وعُدَدًا؛ فكان قادته لا يخوضون غمار معركة قبل أن تتوالى عليهم إمدادات عمر؛ الخيل تتبعها الخيل، والرجال تتبعها الرجال، كما يقول عمر عن تلك الإمدادات.

لقد حرم أبو بكرٍ الصديقُ المرتدين من شرف مشاركة المجاهدين في شرف الجهاد من أجل نشر الإسلام ولتكون كلمة اللَّه هي العليا؛ فقد كتب إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم: « استنفروا من قاتل أهل الردة وَمَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول اللَّه ﷺ، ولا يَغْزُوَنَّ أحدٌ ارتدَّ حتى أرى رأيي»، فلم يشهدِ الأيامَ مرتدٌ[(٢)].

أما عمر، فقد استفتح خلافته بقوله: «إنه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضًا، وقد وسع اللَّه ﷻ وفتح الأعاجم»، واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والإسلام إلا امرأة ولدت لسيدها، وجعل فداء كل إنسان سبعة أبعرة وستة أبعرة إلا حنيفة وكندة؛ فإنه خَفَّفَ عنهم لقتل رجالهم، فتتبع النساء بكل مكان وَفَدُوهُنَّ[(٣)].

كما أمر عمر باستنفار من حَسُنَ إسلامه من أهل الردة[(٤)]، وندب أهل الردة فأقبلوا سراعًا من كل أوب فرمى بهم الشام والعراق[(٥)].

---

(١) **انظر**: الفاروق عمر (٢/٢٢٦).

(٢) الطبري (٢/٥٥٠، ٥٥٤).

(٣) الطبري (٢/٥٤٩)، وابن الأثير (٢/١٤٧).

(٤) ابن الأثير (٢/١٦٦).

(٥) الطبري (٢/٦٣٤).

لقد كان عمر يرى أن العرب مادة الإسلام، وأنهم هم مادة الفتح الإسلامي قادة وجنودًا؛ لذلك كتب عمر إلى ملك الروم حين أخبره الوليد بن عقبة عن دخول بعض القبائل العربية من أهل الجزيرة ديار الروم: «بلغني أن حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك، فواللَّه لتخرجنه إلينا أو لنخرجن النصارى إليك»، فأخرجهم ملك الروم، فخرج منهم أربعة آلاف وتفرق بقيتهم فيما يلي الشام والجزيرة وبلاد الروم، فكل إيادي في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف، وأبي الوليد بن عقبة أن يقبل من «**تغلب**» إلا الإسلام، فكتب فيهم إلى عمر، فكتب إليه عمر: «إنما ذلك بجزيرة العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام، فدعهم على ألا ينصروا وليدًا ولا يمنعوا أحدًا منهم من الإسلام»[1]، وأضعف عمر الصدقة عليهم عوضًا عن الخراج[2]، فقد أراد عمر أن يأخذ الجزية منهم فانطلقوا هاربين في أرض اللَّه الواسعة، فقال عبادة بن النعمان التغلبي[3]: «يا أمير المؤمنين! إن بني تغلب قد علمت شوكتهم، وأنهم بإزاء العدو، فإذا ظاهروا عليك العدو اشتدت مئونتهم، فإن رأيت أن تعطيهم شيئًا، فافعل»، فصالحهم عمر على مضاعفة الصدقة عليهم عوضًا عن الجزية[4].

إنه استمال قلوب العرب بكل ذلك وأراد أن يشعروا كل الشعور بعزتهم وكرامتهم، وبذلك استطاع أن يطبق مبدأ «**التحشد**» على العرب كافة، وبعثهم إلى ساحات القتال جيوشًا ومددًا.

٧ـ وكانت الوحدة السياسية لبلاد العرب بعض ما شُغِلَ به عمر في خلافة أبي بكر الصديق، فلما استُخلف كان تثبيتُ هذه الوحدة وتوطيدُ دعائمها أولَ ما اتجه إليه هَمُّهُ، وقد هداه تفكيره إلى أن هذه الوحدة لن تكون سليمة إلا أن تصفوا من كل

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٦).

(٢) الخراج ص (١٤٤).

(٣) هكذا ورد في الخراج ص (١٤٣)، وفي البلاذري ص (١٨٥) وَرَدَ اسمه: النعمان بن زرعة أو زرعة بن النعمان.

(٤) الخراج ص (١٤٣)، والبلاذري ص (١٨٥، ١٨٦).

شائبة، وذلك بأن يكون الجنس العربي كله متحدًا في موطنه وعقيدته كاتحاده في لغته، واليهودية والنصرانية لا تزالان قائمتين في شبه الجزيرة العربية، أتراه يستطيع إجلاءهما عنها من غير أن يخالف كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ؟

لقد وادع رسولُ اللّهﷺ اليهودَ أول ما نزل بيثرب، فلما نقضوا عهدهم وحاولوا الغدر به أجلاهم عن المدينة المنورة، ثم إنه أجلاهم عن أكثر مواطنهم في شبه الجزيرة العربية لَمَّا ناصبوه العداوة، ألا يدل ذلك على أن بقاء اليهود في موطنهم لم يكن حقًّا لهم يجب احترامه، وإن موادعتهم، كانت سياسة قضت بها مصلحة الدولة أو العهد بيثرب، فلما رأى الرسول ﷺ مصلحة الدولة العليا لا تستقيم بها عدل عنها إلى سياسة غيرها؟! ومصلحة الدولة العليا توجب في رأي عمر أن توحد العقيدة في شبه الجزيرة العربية كلها؛ لذلك كان من أول ما استفتح به عهده أن أجلى نصارى «**نجران**» عن شبه الجزيرة العربية، فأمر يَعْلى بن أمية ألا يفتنهم عن دينهم وأن يخرج معهم من أقام على نصرانيته، وأن يعطوا بالعراق أرضًا كأرضهم بنجران، وأن تحسن معاملتهم[(١)]، كذلك فعل بمن بقي من اليهود بخيبر أو بفَدك: أجلاهم عن أرضهم إلى الشام، وعوضهم عنها بمال يعدل قيمتها، ولم يسئ إلى أحد منهم؛ بذلك خلصت شبه الجزيرة العربية من كل عقيدة إلا الإسلام، فتوطدت فيها قواعد الوحدة

---

(١) **انظر**: الخراج، لأبي يوسف ص (٨٧، ٨٨).

وفيه ما كتب لهم عمر: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران؛ مَنْ سار منهم آمِنٌ بأمان الله، لا يضره أحد من المسلمين، وفاء لهم بما كتب لهم محمد النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه.

أما بعد: فَمَنْ مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق، فليوسقهم - الوسق ستون صاعًا. قال الخليل: الوسق حمل البعير. وَأَوْسَقَ البعيرَ: حَمَّلَهُ حِمْلَهُ - من حرث الأرض، فما احتملوا من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله، وعقبة لهم مكان أرضهم، لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم.

أما بعد. فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم؛ فإنهم أقوام لهم الذمة، وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرًا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا إلا من صنعهم البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم).

التي قصد إليها أمير المؤمنين.

هذا تصوير واضح للباعث الذي دفع إلى إخراج اليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية، وهو في ذلك لم يخالف سنة ولم يخرج عليها، فعهد رسول اللَّه ﷺ مع اليهود والنصارى لم يكن سنة تثبت حكمًا، بل كان سياسة تغيرت في عهد الرسول ﷺ، فلا بأس أن تتغير بعده، وإنما غيرها عمر؛ لأن أحداث الوقت وامتداد الفتح وشدة الحرص على تمكين أواصر الوحدة في شبه الجزيرة العربية قضت بتغييرها، وما كان عمر ليجمد على عهد تغير عليه العهد وأصبح مضرًّا بمصلحة الدولة وسياستها العليا، فكيف به وهو موقوت بطبيعته، ينقضي بانقضاء مدته، ولا يتجدد إلا إذا رَضي أمير المؤمنين بتجديده؟

لقد استند عمر في إجلاء اليهود والنصارى إلى ما روي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**لا يجتمع ببلاد العرب دينان**»، وأن عمر خافهم على المسلمين[1] وأن نصارى نجران بعد أن استخلف عمر أصابوا الربا وكثروا، فخافهم على الإسلام فأجلاهم[2]، ولكن عمر أمر عماله بالعراق والشام أن يعوضوهم عن أرضهم وأن يحسنوا معاملتهم، ولو أنه أجلاهم لأنهم نقضوا عهدهم لما لطف بهم كل هذا اللطف، ولما أحسن معاملتهم كل هذا الإحسان.

ولكن لا يكفي لتثبيت دعائم الوحدة في بلاد العرب ألا يبقي بها دين غير الإسلام، إذا بقي من الفوارق بين أهلها من العرب ما يجعلهم يشعرون بأن بعضهم أكثر حرية من بعض أو أوفر كرامة من بعض، وإذا لم تقم المساواة الصحيحة الكاملة بينهم عَلَمًا على سلامة تضامنهم، وقد بقيت بعض الفوارق بينهم بسبب الردة والحروب التي قضت عليها، أما وعمر يريد الوحدة الصحيحة الكاملة فلا بد من القضاء على هذه الفوارق بإزالة أسبابها؛ لذا رفع عن أهل الردة ما كان أبو بكر قد

---

(١) الخراج ص (٨٧)، وسنفرد لها عنوانًا هو (إخراج اليهود من جزيرة العرب).
(٢) البلاذري ص (٧٧).

فرضه عليهم ألا يحاربوا في صفوف المسلمين، كما أمر برد السبي من العرب إلى عشائرهم ورد حريتهم إليهم؛ لأنه كره أن يكون السبي سُنَةً في العرب؛ بذلك استفتح عهدًا سرى معه في نفوس العرب جميعًا روح أشعرهم - على اختلاف مواطنهم من شبه الجزيرة العربية - بأنهم أمة واحدة، لها هدف واحد مشترك، وتوجهها سياسة عامة ومصلحة عليا يهيمن عليها عمر.

هده هي المصلحة العليا التي أملت على عمر ما قدمت تحقيقًا لوحدة العرب تحت ظل الإسلام[1]؛ وبذلك أصبح العرب المسلمون قوة جبارة وجدت لها متنفسًا في الفتح الإسلامي العظيم، واستطاعت تحمل أعبائه الجسام بكل جدارة واندفاع.

إن قرار توطيد أركان الوحدة العربية في شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام - وذلك بالاستناد على مبدأين: لا يجتمع ببلاد العرب دينان، ولا فرق بين العرب في الحقوق والواجبات - هو قرار مصيري ما كان الفتح الإسلامي في عهد عمر ليتم بمثل ما تم عليه من قوة وسعة وشمول وسرعة، لو لم يتخذه عمر هدفًا حاسمًا ويعمل على وضعه في حيز التنفيذ بحزم وحكمة؛ لأن الفتح لا بد أن يستند على قاعدة أمينة، وشبه الجزيرة العربية كانت قاعدة[2] الفتح التي انطلق منها مكتسحًا الحدود والسدود والعقبات.

٨- ولكن هذه القاعدة الأمينة وهي الجزيرة العربية كانت **«قاعدة عمليات»**[3] بالدرجة الأولى، عليها تستند الجيوش الإسلامية في الفتح الإسلامي الأول، ومنها تنطلق إلى واجباتها، وعلى سكانها تعتمد في تكوينها وتزويدها بالرجال، وإدامة سيل إمدادها بالمجاهدين.

---

(١) الفاروق عمر (٢/٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) القاعدة: هي البلاد التي يستند إليها الجيش قبل شروعه في العمليات. **انظر:** الجغرافية العسكرية ص (١١).

(٣) قاعدة العمليات: هي القاعدة التي يشرع منها الجيش أو تشرع منها الجيوش في العمليات الفعلية وتستند عليها.

ولم تكن هذه القاعدة الأمينة «**قاعدة تموين**»[١] للجيوش الإسلامية بالمعنى الواسع لقاعدة التموين؛ لأن المسلمين كانوا يأخذون منها السلاح الضروري والذخيرة الضرورية لخوض معاركهم، ويتزودون منها بما يبلغهم مناطق عملياتهم من الأرزاق، وهي المنبع الأول لإبلهم وخيولهم، ولكنهم إذا وصلوا إلى مناطق العمليات تزودوا من هناك بمتطلباتهم الإدارية من سلاح وذخيرة وأرزاق وإبل وخيل وتجهيزات، ويكون اعتمادهم الأول على ما يفيء اللَّه به عليهم منها نتيجة للمعارك التي يخوضونها، وعلى الجزية والخراج والغنائم والأنفال... إلخ التي يحصلون عليها نتيجة لتلك المعارك.

هذا هو الفرق بين قاعدة الجيوش الإسلامية الأمينة، وبين قواعد الجيوش الغازية الأخرى: قاعدة المسلمين قاعدة عمليات، وقاعدة غير المسلمين قاعدة عمليات وقاعدة تموين على حد سواء.

من هنا جاءت الفروق بين التشريعات الإسلامية التي وضع عمر أكثر أسسها وبين التشريعات غير الإسلامية، فما هي تلك التشريعات والأسس التي قررها المسلمون الأولون وعلى رأسهم أمير المؤمنين؟

شُغِلَ عمر بكثرة الأموال التي كان عماله يبعثون بها، ورأى أن لا بد من وضع نظام لإحصائها وتوزيعها، ولم تكن هذه الأموال ما يؤديه المسلمون في شبه الجزيرة العربية من الزكاة والصدقات، فتلك كانت توزع على الذين نزل فيهم قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠][٢]، وكان الكثير من هذه الصدقات لا يرسل إلى

---

(١) قاعدة التموين: هي البلاد أو المدينة التي يأخذ الجيش مهماته وأرزاقه منها.

(٢) **انظر**: تفسيرها في (تفسير ابن كثير) (٤/١٨٥) و(البغوي بهامش ابن كثير) (٤/١٨٦)، و(تفسير الكشاف) (٢/٣٨)، و(أنوار التنزيل) (٣/٧٢)، و(فتح الباري بشرح البخاري) (٨/٢٤٨).

المدينة المنورة، بل يوزع على الفقراء والمساكين من أهل القبائل والأمم التي تؤديها، فأما ما كان يرسل منها إلى المدينة المنورة - ومعظمه من الإبل والماشية -، ثم يفيض بعد التوزيع عن حاجة مَنْ وَرَدَ ذكرهم في آية الصدقات، فكان يوسم بميسم خاص ويوضع على مقربة من المدينة المنورة بمكان أطلق عليه اسم: الحمَى، فإذا غزا المسلمون أعانوا بهذه الإبل والأموال من لا يجد دابة تحمله أو سلاحًا يقاتل به، وعالوا فقراء المسلمين بما بقي منها.

وأما ما كان المسلمون يغنمونه في غزوات رسول الله ﷺ من الفيء، فكان هو يوزعه بعد المعركة ولا يُبْقِي منه شيئًا، وقد سار أبو بكر سيرته وصنع صنيعه، فكان ما يرد من فيء العراق - مثلًا - يوزع بين أهل المدينة المنورة ولا يَبْقَى منه شيء.

وجرى الأمر على ذلك في العهد الأول من خلافة عمر، ولكن اتساع رقعة الفتح زاد في أموال الفيء، كما فتح موردًا آخَرَ أغزر مادة وأبقى، ذلك هو مورد الخراج والجزية، فقد صالح المسلمون أهل البلاد التي فتحوها في العراق وفارس وفي أرض الشام ومصر على أن يدفعوا جزية كان متوسطها على كل رأس دينارين [١]، وذلك فضلًا عن الخراج الذي كان الزراع يدفعونه عن أرضهم، فينفق جانب منه على مرافقهم وعلى تنظيم الحكم فيهم، ويرسل ما بقي منه بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وقد بلغت غزارة هذا المورد قبل أن يتم فتح فارس وقبل أن يبدأ غزو مصر مبلغًا حمل الخليفة على التفكير في إقامة نظام مالي للدولة الناشئة.

قدم أبو هريرة من «**البحرين**»، فسأله عن الناس، ثم قال: «ما جئت به؟»، قال: «جئت بخمس مئة ألف درهم»، فدهش عمر وقال: «هل تدري ماذا تقول؟»، فأعاد أبو هريرة أنه جاء بخمس مئة ألف درهم، وظن عمر أن الرجل يبالغ، فكرر عليه السؤال: فلما سمع الجواب الأول قال له: «إنك ناعس، فارجع إلى أهلك فنم، فإذا أصبحت فأتني». فلما غدا عليه أبو هريرة وأكد له أنه جاء بخمس مئة ألف درهم،

---

(١) **انظر**: تفصيل ذلك في (الخراج) ص (٢٨ - ٣٢).

قال عمر للناس: «إنه قدم علينا مالٌ كثيرٌ، فإذا شئتم أن نعده لكم عدًّا، وإن شئتم أن نكيله كيلًا»، فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين! إني رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانًا يعطون الناس عليه»، فدوَّن عمر الديوان(١).

وقيل: إن عمر استشار الناس في تدوين الديوان، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «تقسم كل سَنَةٍ ما اجتمع عليك من مال ولا تبق منه شيئًا»، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «أرى مالًا كثيرًا يسع الناس، وإن لم يُحصَوا حتى نعرف مَنْ أخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر»، فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: «**يا أمير المؤمنين! قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديوانًا وجنَّدوا جنودًا، فَدَوِّنْ ديونًا وَجَنِّدْ جنودًا**»، فأخذ بقوله، فدعا عقيل بن أبي طالب، ومحرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم وكانوا من نساب قريش، فقال لهم: «**اكتبوا الناس على منازلهم**»(٢)، وقال: «ابدءوا بقرابة الناس منه صلى الله عليه وسلم، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله»(٣).

بدأ ببني هاشم، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الناس إذا استووا في القرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم قدم أهل السابقة حتى أتى إلى الأنصار، فقالوا: «**بمن نبدأ؟**» فقال عمر: ابدءوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي، ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ، وفرض عمر لأهل الديوان، ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، فبدأ بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار، ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهد «**أحدًا**» أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم، وفرض لأبناء البدريين ألفين إلا حسنًا وحسينًا فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما برسول الله صلى الله عليه وسلم، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبدالمطلب

---

(١) **انظر**: طبقات ابن سعد (٣/٣٠٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٢٩٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٢٩٥).

خمسة آلاف درهم لقرابته برسول اللّه ﷺ، ولم يفضل أحدًا على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ، فإنه فرض لكل امرأة منهن اثني عشر ألف درهم، وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل ثلاثة آلاف درهم، وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم، فقال عبداللّه بن عمر: «فرضت لي ثلاثة آلاف وفرضت لأسامة أربعة آلاف، وقد شهدت ما لم يشهد أسامة، فقال عمر زدته لأنه كان أحب إلى رسول اللّه ﷺ منك، وكان أبوه أحب إلى رسول اللّه ﷺ من أبيك»، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس بابًا واحدًا، فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة المنورة في خمسة وعشرين دينارًا لكل رجل، وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ألفين إلى ألف إلى تسع مئة إلى خمس مئة إلى ثلاث مئة، لم ينقص أحدًا عن ثلاث مئة، وقال: «لئن كثر المال، لأفرض لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألف لسفره، وألف لسلاحه، وألف يخلفها لأهله، وألف لفرسه وبغله»، وفرض لنساء مهاجرات: فرض لصفية بنت عبدالمطلب ستة آلاف، ولأسماء ابنة عميس ألف درهم، ولأم كلثوم بنت عقبة ألف درهم... إلخ.

وكان عمر يفترض للمنفوس مئة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مئتي درهم، فإذا بَلَغَ زَادَهُ، وكان إذا أُتِيَ باللقيط فرض له مئة درهم، وفرض له رزقًا يأخذه وليه كل شهر ما يصلحه، ثم ينقله من سنة إلى سنة، وكان يوصي بهم خيرًا ويجعل رضاعتهم ونفقتهم من بيت المال.

قال حزام بن هشام الكلبي: «رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل «قُديدًا»[1] فتأتيه بقُديَد، فلا تغيب عنه امرأة بِكْرٌ وثيب، فيعطيهن في أيديهن، ثم

---

(١) قديد: اسم موضع قرب مكة.

انظر: التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٨).

يروح فينزل «**عسفان**»[١] فيفعل مثل ذلك، حتى توفي»[٢].

وقال عمر: «**والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه**»؛ يعني: في طلبه[٣]...

وكتب عمر إلى حذيفة بن اليمان: أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم، فكتب إليه: «**إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير**» فكتب إليه عمر: «**إنه فَيْؤُهُمُ الذي أفاء الله عليهم وليس هو لعمر ولا لآل عمر، اقسمه بينهم**»[٤].

عن سالم بن عبدالله قال: «فرض عمر بن الخطاب للناس حتى لم يدع أحدًا من الناس إلا فرض له، حتى بقيت بقية لا عشائر لهم ولا موالي، ففرض لهم ما بين المئتين إلى ثلاث مئة»[٥].

قال عمر: «لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم»[٦]، وقال: «لئن عشت لأجعلن عطاء المسلمين ثلاثة آلاف[٧]، وَرِزْقَ الناس جريبين كل شهر: المرأة والرجل والمملوك جريبين جريبين كل شهر»[٨].

وكان عمر يحمي «**النقيع**»[٩] لخيل المسلمين، ويحمي «**الربذة**» و«**الشرف**»[١٠] لإبل الصدقة، وكان يحمل على ثلاثين ألف بعير في سبيل الله كل سنة[١١]

---

(١) عساف: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة. **انظر:** معجم البلدان (١٧٤/٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٢٩٥/٣، ٢٩٨).
(٣) طبقات بن سعد (٣٠٠/٣).
(٤) طبقات ابن سعد (٩٩٩/٣).
(٥) طبقات ابن سعد (٣٠٤/٣).
(٦) طبقات ابن سعد (٣٠٣/٣).
(٧) طبقات ابن سعد (٣٠٤/٣).
(٨) طبقات ابن سعد (٣٠٥/٣).
(٩) النقيع: واد من أودية الحجاز، يدفع سيله إلى المدينة المنورة، والنقيع موضع قرب المدينة. **انظر:** التفاصيل في معجم البلدان (٣١٢/٨).
(١٠) الشرف: موضع في الربذة. **انظر:** معجم البلدان (٢٥٣/٥).
(١١) طبقات ابن سعد (٣٠٥/٣).

دوَّن عمر الديوان وفرض العطاء؛ ليتفرغ العرب للجهاد في سبيل الله، وقد أعان تدوين الديوان وفرض العطاء أولئك العرب الأولين على أداء الرسالة التي فرضت الأقدار عليهم أداءها.

والديوان كلمة فارسية معربة معناها: مجتمع الصحف، يُكْتَبُ فيها رجال الجيش ومن فُرض لهم العطاء، وقد تطور مدلول هذه الكلمة من بعد، فصارت تطلق على الأمكنة التي يجلس فيها القائمون على هذه السجلات؛ كما تطلق على السجلات نفسها، وبديهي أنها لم تتعد في عهد عمر معناها الأول، فكان الديوان سجلًا أحصي فيه من فرض لهم العطاء من رجال الجيش ومن غيرهم، وذكر فيه أمام كل اسم عطاءُ صاحبه[1].

إن تدوين الديوان جعل لكل جندي يقاتل في الجبهة عطاء مضمونًا يجعله قرير البال على أهله وذويه في مدينته أو في قريته أو في صحرائه، له تأثير معنوي كبير فيه؛ لأن الجندي الذي لا يطمئن كل الاطمئنان إلى الحالة المعيشية لأهله وذويه لا يقاتل كما ينبغي.

٩- ولكن لا بد للجيوش من موارد ثابتة تديم الأمور الإدارية لهم في أيام الفتح وبعده؛ لذلك أبى عمر أن يقسم أرض «**السواد**»[2] على الفاتحين، سأل بلال بن رباح وأصحابهُ عمرَ قسمة ما أفاء اللَّه عليهم من العراق والشام وقالوا: «اقسم الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر»، فقال عمر: «لقد أشرك اللهُ الذين يأتون

(١) الفاروق عمر (٢/٢٢٧، ٢٣١)، **وانظر**: ما جاء عن تدوين الديوان وفرض العطاء في (الطبري) (٣/ ١٠٨، ١١٣)، و(ابن الأثير) (٢/١٩٤، ١٩٥)، و(مقدمة ابن خلدون) ص (٢٤٣، ٢٤٤)، و(الأحكام السلطانية، للماوردي) ص (١٩٩، ٢٠٣)، و(كتاب الوزراء والكتاب) ص (١١)، و(الإدارة الإسلامية في عز العرب) ص (٤٤، ٤٦)، و(الخراج) ص (٤٩، ٥٦) إلخ.

(٢) أرض السواد: أرض العراق وضياعها، سماه العرب: سوادًا؛ لخضرته بالزروع والأشجار. وحد السواد من حديثة الموصل طولًا إلى عبادان، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية شرق خانقين وبالقرب منها عرضًا. **انظر**: التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٥٩).

من بعدكم في هذا الفيء، فلو قسمته لم يبقَ لمن بعدكم شيء، ولئن بقيت ليبلغن الراعي بصنعاء نصيبه من هذا الفيء ودمه في وجهه» وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص حين افتتح العراق: «أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء اللَّه عليهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال، فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرض والأنهار لعمالها؛ ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء، وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وله سهم في الإسلام، ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة، فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام؛ لأنهم قد أحرزوه قبل إسلامه، فهذا أمري وعهدي إليك».

وأصاب سعد مئة ألف فلاح في بعض غزواته، فأرسل إلى عمر يستأذنه، فأجابه: «إن ما جاءكم من الفلاحين ممن لم يعينوا عليكم فهو أمانة، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به»، فخلى سعد عنهم، وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة، فلم يبقَ غربيَّ دجلة إلى أرض العرب سواديٌّ إلا آمن واغتبط بملك الإسلام[1].

وبعد فتح مصر كتب عمرو بن العاص إلى عمر يعلمه بفتحها وشأنها وأن المسلمين طلبوا قسمها، فكتب إليه عمر: «لا تقْسمها وذرهم يكون خراجها فيئًا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم»[2].

وبذلك أصبح خراج الأراضي وجزية الرءوس وما كان بمعناها موارد ثابتة للدولة تصرف إلى عمارة الدِّين والمصالح العامة، ومنها رواتب الولاة والقضاة وأهل الفتوى

---

(١) الخراج ص (٢٨، ٢٩)، وانظر: البلاذري ص (٤٣٣).

(٢) ابن الأثير (١٧/٢٩).

من العلماء والجيش وإصلاح الطرق وعمارة المساجد والرباطات «**للجهاد**» والقناطر والجسور وسد الثغور وإصلاح الأنهار العامة[(١)].

لم يسترح بعض الفاتحين إلى رأي عمر في تأميم الأرض المفتوحة، فلما ألح عليه بعضهم بقسمة الأرض استشار المهاجرين الأولين فاختلفوا، فأرسل إلى عشرة من الأنصار؛ خمسة من الأوس، وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق: خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبنوا هذا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، فوالله لئن كنت نطقت بأمر ما أريد به إلا الحق[(٢)]»، قالوا: «قل نسمع يا أمير المؤمنين!»، فقال: «قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، لئن كنت ظلمتهم شيئًا هو لهم وأعطيته غيرهم، لقد شقيت! ولكن رأيت أنه لم يبقَ شيء يفتح بعد أرض كسرى، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم[(٣)]، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله، وأخرجت الخمس فوجهته على وجه وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها، فتكون فيئًا للمسلمين: المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم، أرأيتم هذه الثغور[(٤)]، لا بد لها من رجال يلزمونها! أرأيتم هذه المدن العظام، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش، ولا بد من إدرار العطاء عليهم! فمن أين يعطى هؤلاء إذا قُسِمَتِ الأرضون والعلوج؟!»، فقالوا جميعًا: «الرأي رأيك، فَنِعْمَ ما قلتَ وما رأيتَ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه

---

(١) فتوح مصر والمغرب ص (١٢٤).

(٢) اشتراكية الإسلام، لسباعي ص (٢٠٨) الطبعة الثانية، **وانظر**: النزعة الاشتراكية في الإسلام ص (١٨٧).

(٣) علج: يورن العجل؛ اواحد من كفار العجم، والجمع: علوج وأعلاج وعلجة.

(٤) الثغور: جمع ثغر؛ موضع المخافة من فروج البلدان.

المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم»، فقال: «بان لي الأمر، فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون؟»، فاجتمعوا على عثمان بن حُنيف وقالوا: «**تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصرًا وعقلًا وتجربة**»، فأسرع إليه عمر وولاه مساحة الأرض، فأدت جبايةُ سوادِ الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئةَ ألف ألف درهم، والدرهمُ يومئذٍ درهم ودانقان ونصف، وكان وزن الدرهم يومئذٍ وزن المثقال[١].

وقال عمر للذين أرادوه أن يقسم أرض الشام: «**إذن أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم**»[٢]، ولم يقسم الأرض، بل تركها لعمالها؛ ليكون خراجها في أعطيات المسلمين.

ولم يقسم أرض مصر ـ كما أسلفنا ـ؛ ليكون خراجها في أعطيات المسلمين ـ أيضًا.

وكان عمل عمر هذا كما يقول الإمام أبو يوسف في كتابه «**الخراج**»: «والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها ـ عندما عرَّفه اللَّه ما كان في كتابه من بيان ذلك ـ توفيقًا من الله، كان له فيما صنع فيه الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته عموم النفع لجماعتهم؛ لأن هذا لو لم يكن موقوفًا على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن بالثغور ولم تَقوَ الجيوشُ على السير في الجهاد، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة»[٣].

١٠ـ ولم تقف همة عمر على تأمين ركوب المقاتلين ورواتبهم وتأميم الأرض

---

(١) الخراج ص (٣٠، ٣١) **وانظر**: الخراج، لقدامة بن جعفر ملحق بالمسالك والممالك (٢٣٧، ٢٣٩) حول تفاصيل واردات السواد.

(٢) الخراج ص (٣١).

(٣) الخراج ص (٣٢).

المفتوحة لتكون رصيدًا لا ينضب لرواتب الجيوش وتسليحهم وتنقلهم ولإعداد قضاياهم الإدارية كافة، بل ذهبت همته إلى أبعد من ذلك: تأمين السكن لهم.

ففي سنة سبع عشرة الهجرية «٦٣٨م» أرسل سعد بن أبي وقاص وفدًا إلى عمر بفتوح العراق، فلما رآهم عمر سألهم عن تغير ألوانهم وحالهم فقالوا: «**لوخومة البلاد عندنا**»، فأمرهم عمر أن يرتادوا منزلًا ينزله الناس[1].

وقيل: بل كتب حذيفة بن اليمان إلى عمر: «إن العرب قد رقَّت بطونها، وجفت أعضادها، وتغيرت ألوانها»، وكان حذيفة مع سعد، فكتب عمر إلى سعد: «أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم»، فكتب إليه سعد: «إن الذي غيرهم وخومة البلاد، وأن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان»، فكتب إليه عمر: «أن ابعث سلمان[2] وحذيفة[3] رائدين، فليرتادا منزلًا بريًّا بحريًّا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر»، فأرسلهما سعد، فخرج سلمان حتى أتى «**الأنبار**»، فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة، وسار حذيفة بن اليمان في شرقي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة ـ وكل رملة وحصباء مختلطين فهو كوفة ـ فأتيا عليهما فأعجبتهما البقعة، فلما رجعا إلى سعد وقدم كتاب عمر إليه ـ أيضًا ـ، كتب سعد إلى القعقاع بن عمرو وعبدالله بن المعتم أن يستخلفا على جندهما ويحضرا عنده، وارتحل سعد من «**المدائن**» حتى نزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة الهجرية، فكتب إلى عمر: «إني قد نزلت بالكوفة منزلًا فيما بين الحيرة والفرات بريًّا وبحريًّا، تنبت الحلفاء[4] والنصيّ[5]، وخيرت المسلمين بينها وبين المدائن فمن أعجبه المقام في المدائن تركته فيها كالمسلحة»، ولما استقروا بها رجع إليهم ما كانوا فقدوا من قوتهم،

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٣).

(٢) سلمان الفارسي.

(٣) حذيفة بن اليمان.

(٤) الحَلْفاء: نبات حمله قصب النشاب؛ **انظر**: التفاصيل في (لسان العرب) (١/٤٠٢).

(٥) النصي: نبت سبط من أفضل المراعي، واحده نصية.

فاستأذن أهل الكوفة في بنيان القصب، واستأذن فيه أهل «**البصرة**» - أيضًا - التي استقر منزل المسلمين فيها في الشهر الذي نزل فيه أهل الكوفة مدينتهم، فكتب إليهم: «**إن العسكر أشد لحربكم وأذكر لكم، ما أحب أن أخالفكم**»، فابتنى أهل المصرين بالقصب، ولكن الحريق وقع في الكوفة والبصرة، فبعث سعد نفرًا منهم إلى عمر يستأذنونه في البنيان باللبن، فقال: «**افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة**»، وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان وأهل البصرة بمثل ذلك، وقدر المناهج أربعين ذراعًا ما بين ذلك عشرين ذراعًا، والأزقة سبع أذرع ليس دون ذلك شيء، والقطائع ستين ذراعًا، وأول شيء خط في البصرة والكوفة مسجداهما، وقام في وسطهما رجل شديد النزاع فرمى في كل جهة بسهم وأمر أن يبنى ما وراء ذلك، وبنى ظلة في مقدمة مسجد الكوفة على إحاطين من رخام، فبنى المسجد في مربعة لاجتماع الناس فيها؛ لئلا يزدحموا، وبنوا لسعد دارًا بحياله وهي قصر الكوفة [١].

وعزل عمر عتبة بن فرقد السلمي [٢] عن الموصل وولاها عرفجة البارقي، وكان بها الحصن وبيع النصارى ومنازل لهم قليلة عند تلك البيع، فحصرها عرفجة وأنزل العرب منازلهم واختط لهم ثم بنى المسجد الجامع [٣]، كما أن عرفجة نزل «**حَدَيْثه الموصل**» [٤] وكانت قرية فيها بيعتان، فحصرها واختطها قبل الموصل الحدباء [٥].

وبنى أبو مدلاج التميمي «**حديثه الفرات**» [٦] في أيام عمر، وكان قد بعثه عمر

---

(١) الطبري (١٤٧/٣، ١٥١)، وابن الأثير (٢٠٣/٢، ٢٠٥).

(٢) **انظر**: ترجمته في كتاب (قادة فتح العراق والجزيرة) ص (٤١٥ - ٤٢٢).

(٣) البلاذري ص (٣٢٧)، ومعجم البلدان (٢٣٤/٣).

(٤) حديثة الموصل: بُلَيْدَةٌ كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٢٣٤/٣)، و(المشترك وضعًا) ص (١٢٣).

(٥) معجم البلدان (٢٣٤/٣).

(٦) حديثة الفرات: مدينة على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات، والماء محيط بها. **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٢٣٥/٣) و(المشترك وضعًا) ص (١٢٣).

على رأس جيش يستقرئ ما فوق الفرات[١].

ولما فتحت الإسكندرية رأى عمرو بن العاص بيوتها وبناءها مفروغًا منها، فَهَمَّ أن يسكنها، وقال: «**مساكن قد كفيناها**»، فكتب إلى عمر يستأذنه في ذلك، فسأل عمر الرسول: «**هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟**»، قال: «**نعم يا أمير المؤمنين، إذا جرى النيل**»، فكتب عمر إلى عمرو: «**أن لا أحب أن تُنزل المسلمين منزلًا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا في صيف**»، فتحول عمرو من الإسكندرية إلى «**الفسطاط**»[٢]، فاختطها عمرو وأسكنها المسلمين[٣].

وبنى معاوية بن أبي سفيان في عهد عمر «**جبلة**»[٤] بعد خرابها وإجلاء أهلها عنها، وكانت حصنًا للروم جلوا عنه عند فتح المسلمين «**حمص**»، وشحنها معاوية بالرجال وبنى حصنًا خارجًا عن الحصن الرومي، وسكن المسلمون هذه المدينة[٥].

وبنى عثمان بن أبي العاص «**توج**»[٦]، وبنى فيها المساجد وجعلها دارًا للمسلمين، وأسكنها عبد القيس وغيرهم وذلك في أيام عمر بن الخطاب[٧].

---

(١) معجم البلدان (٣/٢٣٥).

(٢) الفسطاط: سميت الفسطاط؛ لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يمام قد فرخ؛ فقال عمرو: (لقد تحرم منا بمتحرم)؛ فأمر به فأقر كما هو، وأوصى به صاحب القصر. فلما قفل المسلمون من الإسكندرية، قالوا: (أين ننزل؟) فقالوا: الفسطاط (لفسطاط عمرو الذي خلفه)، وكان مضروبًا بموضع الدار التي تعرف اليوم بدار الحصى عند دار عمرو الصغيرة اليوم. **انظر:** فتح مصر والمغرب ص (١٣٣)، ومعجم البلدان (٦/٣٧٩، ٣٨٠).

(٣) فتح مصر والمغرب ص (١٣٣، ١٣٤)، ومعجم البلدان (٦/٣٧٩ ـ ٣٨٤)، والمسالك والممالك، لابن خرداذبة ص (٨٤)، وأحسن التقاسيم ص (١٩٧)، **وانظر:** زبدة كشف الممالك ص (٣٠)، والبلدان، لابن الفقيه ص (٥٩).

(٤) قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية. **انظر:** التفاصيل في (معجم البلدان) (٣/٥٣).

(٥) **انظر:** التفاصيل في (معجم البلدان) (٣/٥٣)، و(المشترك وضعًا) ص (٩٥، ٩٦).

(٦) توج: مدينة بفارس قريبة من كازرون. **انظر:** التفاصيل في (معجم البلدان) (٢/٤٢٦).

(٧) معجم البلدان (٢/٤٢٦).

لقد كانت شبه الجزيرة العربية قاعدة الفتح الإسلامي التي انطلقت منها جيوش المسلمين لفتح العراق وأرض الشام، فلما فتحت العراق والشام، كان لا بد من إنشاء قواعد متقدمة لانطلاق الفتح منها شرقًا وغربًا، فكانت الكوفة والبصرة القاعدتين الأماميتين لانطلاق الفتح نحو الشرق، وكانت مدن أرض الشام ومنها دمشق وجبلة القواعد الأمامية لانطلاق الفتح نحو الغرب.

وبعد فتح مصر، كانت الفسطاط القاعدة المتقدمة لانطلاق الفتح منها إلى إفريقية، وكانت «**توج**» وبعض مدن فارس القواعد المتقدمة لانطلاق الفتح إلى حدود الصين شرقًا وإلى السند جنوبًا وإلى حدود سيبيريا شمالًا، كما كانت مدينة الموصل القاعدة الأمامية لانطلاق الفتح منها إلى شمال العراق وإلى أذربيجان.

ولكن هذه المدن الجديدة كانت بالإضافة إلى ذلك معسكرات كبيرة للجيوش الإسلامية سكنها المسلمون واستقروا فيها وعوائلهم وذويهم، فأصبحت مواطن لهم بعد نزوحهم عن مواطنهم الأولى في الصحراء أو في حواضر شبه الجزيرة العربية.

لقد ضمن عمر أمر سُكْنَى الجنود وعوائلهم، فكان المسلمون في صدر الإسلام إذا فتحوا بلدًا جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه أو في مواضع مناسبة يختارونها، وكانوا يسمون هذه المراكز «**ثُكنًا**»[1]، وكان المسلمون إذا فتحوا مدينة قريبة من العدو أو عند ساحل وضعوا فيها حامية من الرجال لحمايتها، ولم تكن هذه المراكز العسكرية إلا معسكرات ومضارب خيام في بادئ الأمر، مَصَّرَهَا القواد فتحولت إلى مدن كبيرة على مر السنين: زاهرة بالعلوم والفنون والآداب، زاخرة بالمقاتلين من الجنود وبالسلاح والمؤن والتجهيزات، حافلة بالعيال، مواجة بالأيدي العاملة: فلاحين يعدون الغلات، وعمالًا يصنعون الأسلحة، وأرباب حرف يعدون النسيج ويخيطونه[2].

---

(١) ثكنة: اللواء ومجمع الجند، جمعها: ثكن وثكنات.

(٢) **انظر**: مقال (جيش المسلمين في عهد بني أمية) في المجلد الرابع، الجزء الثاني من مجلة المجمع العلمي =

١١- إن عمر ذهب إلى مدى أبعد من ذلك في الحرص على راحة المجاهدين وأمورهم كافة، فقد كتب ألا تحبس الجيوش بعيدة عن عوائلها أكثر من أربعة أشهر، فبينما كان يطوف في أرجاء المدينة ليلًا سمع امرأة تقول:

«**تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا خليل ألاعبه**
فوالله لولا الله إني أراقبه لزحزح من هذا السرير جوانبه»

فقال عمر: «**مالك؟!**»، فقالت: «**أغزيت زوجي منذ أشهر، وقد اشتقت إليه**»، فقال: «**أردت سوءًا؟!**»، فقالت: «**معاذ الله**»، فقال: «فاملكي عليك نفسك، فإنما هو البريد إليه»، فبعث إليه، ثم دخل على حفصة أم المؤمنين ابنته فقال: «إني سائلك عن أمر قد أهمني، فافرجيه عني، كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟»، فخفضت رأسها واستحيت، فقال: «**إن الله لا يستحي من الحق**»، فأشارت بيدها ثلاثة وإلا فأربعة أشهر، فكتب عمر ألا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر[١].

بل كان عمر يخلف الغزاة في أهليهم[٢] يسهر على خدمتهم، ويكثر من رعايتهم.

ذلك هو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين والقائد الأعلى للجيوش الإسلامية: يعد الخطط السوقية لجيوشه، ويسهر على مراقبة تنفيذ تلك الخطط، ويحشد أكبر عدد ممكن من الرجال قبل خوض المعارك ليضمن لهم النصر، ويمد جيوشه بالإمدادات المتعاقبة، ويوحد العرب في شبه الجزيرة العربية ليطمئن إلى سلامة قاعدته الأمينة، ويؤمن العطاء للمجاهدين ولذويهم، ويجعل الأرض المفتوحة كلها رصيدًا لبعض هذا العطاء، ويضمن السكن للجنود ولعوائلهم، ولا يترك الجنود بعيدين عن عوائلهم أكثر من أربعة أشهر حفاظًا على معنوياتهم ومعنويات عوائلهم، ويخلُف الغزاة

- العراقي الصادر في (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

(١) تاريخ الخلفاء ص (٩٦)، هناك رواية أن مدة بقاء المجاهد ستة أشهر.

(٢) تاريخ عمر ص (٤٧).

بأهليهم... ولست أعرف قائدًا أعلى كانت القيادة العليا بعض واجباته فَعَلَ أكثر مما فعله عمر في سبيل جيوشه ماديًّا ومعنويًّا.

لقد طبق عمر الحرب الاجتماعية[١] قبل أربعة عشر قرنًا، فلا يزعم أحد أن الألمان أول من طبقها في الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩- ١٩٤٥م».

لقد وضع المسلمون «**الضمان الاجتماعي**» للجنود موضع التنفيذ قبل أن تحلم به أوروبة وأميركا بأربعة عشر قرنًا، فلا يقولن قائل: إن من مزايا هؤلاء ضمان الرواتب للجنود ولأسرهم في حياتهم وبعد موتهم، وضمان سكناهم وراحتهم في كل أرض يحلونها، فقد كان نصيب المسلمين من كل ذلك في عهد عمر أوفر نصيب[٢].

إن أعمال عمر العسكرية يمكن أن تكون مثلًا أعلى لكل قائد أعلى، ويمكن أن تكون أعماله دروسًا في الكليات العسكرية وكليات الأركان في كل مكان.

إنها أروع ما سجله التاريخ العسكري في صفحاته للأمم كافة، وستبقى نموذجًا حيًّا ومثلًا أعلى يحتذيه كل قائد في أية أمة بكل زمان ومكان.

من وصايا القائد الفذ المجاهد الفاروق

كان رضي الله عنه يرشد قواده وجنوده من خلال رسائله ووصاياه الدرر ومن أهمها:

١ـ مصابرة العدو: قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وكان مما قاله عمر رضي الله عنه في الصبر لسعد بن أبي وقاص من بعث به إلى العراق: «واعلم أن لكل عدة عتادا، فعتاد الخير الصبر، فالصبر على ما أصابك أو نابك، يجتمع لك خشية

---

(١) الحرب الاجتماعية أو الحرب الاعتصابية: من التعابير العسكرية الحديثة؛ ومعناها: تحشيد الأمة ومرافقها المادية والمعنوية للحرب. **انظر:** الأمة في الحرب، للمارشال لودندروب.

(٢) **انظر:** مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الرابع، الجزء الثاني ص (٦٥٠) مقال (جيش المسلمين في عهد بني أمية).

الله»[١]، كما كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح وهو بالشام قائلًا: «لقد أثنى الله على قوم بصبرهم، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨] فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة، واقرأ كتابي هذا على الناس، ومرهم فليقاتلوا في سبيل الله وليصبروا؛ كيما يؤتيهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة»[٢].

وكان مما قاله رضي الله عنه: «ائتزروا وارتدوا وانتعلوا واحتفوا، وارموا الأغراض، وألقوا الركب، وانزوا على الخيل وعليكم بالمعدية - أو قال العربية -، ودعوا التنعُّم وزيَّ العجم، ولن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسي»[٣].

٢- الرفق بجند الإسلام وحسن الرعاية من قِبل الفاروق المجاهد:

كتب الفاروق إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائلًا: «وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيرًا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح[٤]، وحين بعث الخليفة عمر رضي الله عنه بمدد إلى جند الشام حمل ضعيفهم وزودهم وَأَمَّرَ عليهم سعيد بن عامر، وعندما هَمَّ بالمسير قال عمر: على رسلك حتى أوصيك، ثم سار عمر نحو الجيش راجلًا

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٣٠٦).

(٢) تاريخ فتوح الشام ص (١٨٣).

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري (٦/١٦٨).

(٤) المصدر السابق (٦/١٦٩).

وقال له: يا سعيد وليتك هذا الجيش ولست بخير رجل فيهم إلا أن تتقي الله، فإذا سرت فارفق بهم ما استطعت، ولا تشتم أعراضهم، ولا تحتقر صغيرهم، ولا تؤثر قويهم، ولا تتبع سواك، ولا تسلك بهم المغاور، واقطع بهم السهل، ولا ترقد بهم على جادة[١] الطريق، والله ـ تعَالَى ـ خليفتي عليك وعلى من معك من المسلمين[٢].

٣ـ أن يتصفحهم عند مسيرهم: فقد كان الفاروق يتصفح الجيوش عند مسيرهم ويوصيهم بالأخلاق الرفيعة والقيم العظيمة، فقد أَمَرَ سعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنه بالوفاء مع الأعداء حين طلبهم للأمان، وأن لا يغدروا، وبين له أن الخطأ في الغدر هلكة ووهن له وقوة للأعداء، وَحَذَّرَهُ أن يكون شيئًا على المسلمين وسببًا لتوهينهم[٣].

٤ـ عدم التعرض عند اللقاء لمن خالفه منهم؛ لئلا يحصل افتراق الكلمة والفشل: ومن وصايا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمرائه وقادته في هذا الباب قوله: لا يجلدن أميرُ جيش ولا سرية أحدًا الْحَدَّ حتى يطلع الدرب؛ لئلا يحمله الشيطان أن يلحق بالكفار[٤].

وعندما بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالقائد سلمان بن ربيعة الباهلي على رأس جيش كان برفقته عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد الأسدي وحدثت بين عمرو بن معدي كرب وسلمان بن ربيعة أمورٌ بلغت عمر رضي الله عنه، فكتب إليه عمر قائلًا: أما بعد: فقد بلغني صنيعك بعمرو، وإنك لم تحسن بذلك ولم تجمل فيه، فإذ كنت بمثل مكانك في دار الحرب فانظر عمرًا وطليحة وقربهما منك واسمع منهما فإن لهما بالحرب علمًا وتجربة، وإذا وصلت إلى دار السلم فأنزلهما منزلتهما التي أنزلا

---

(١) الجادة: معظم الطريق، والجمع: جواد.
(٢) تاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (١٨٦).
(٣) الإدارة العسكرية (١/١٧٦).
(٤) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص (١٣١).

أنفسهما بها، وقرب أهل الفقه والقرآن[١] . وكتب إلى عمرو بن معدي كرب: أما بعد فقد بلغني إفحامك لأميرك وشتمك له، وإن لك لسيفًا تسميه الصمصامة، وإن لي سيفًا أسميه المصمم، وإني أحلف باللَّه لو قد وضعته على هامتك لا أرفعه حتى أقدك به، فلما جاء الكتاب لعمرو قال: واللَّه إن هَمَّ ليفعلن[٢] .

يتجلى من النصين السابقين فقه الفاروق فيما ينبغي أن يتحلى به القائد في دار الحرب من الائتلاف للقلوب وخاصة وهم بإزاء العدو، وأن على القائد أن يستشير من له خبرة بالحرب، وهذا لا يعني انقطاع العلاقة والمودة بينهما حين عودة العسكر إلى دار السلام، وفي فتح الرها[٣] على يد عياض بن غنم قدم عليه مدد من الشام بقيادة بسر بن أبي أرطأة العامري، وجه به يزيد بن أبي سفيان بأمر من عمر ﵁ وحدث بينهما خلاف وهم في دار الحرب، وكان عياض مستغنيًا عن المدد، فطلب إليه الرجوع إلى الشام، فكتب عمر ﵁ إلى عياض طالبًا منه أن يوضح له سبب إرجاعهم وخاصة وهم ما قدموا إلا لمساندتك ولإعلام العدو أن الأمداد متواترة إليك، فتنكسر قلوبهم ويسارعوا إلى طاعتك، فأجابه عياض قائلًا: خشيت أن يحصل شيء من التمرد وتختلف قلوب العساكر، ولما كنت غنيًا عن مدده اعتذرت إليه وأمرته بالعودة، وهذا هو السبب في إعادته[٤]، عندها صوبه عمر ﵁ ودعا له خاصة وهم بإزاء العدو حتى لا تتفرق الكلمة ويتناحروا فيما بينهم ويحصل الفشل[٥] .

٥ـ حراستهم من غرة يظفر بها العدو في مقامهم ومسيرهم:

اهتم الفاروق بأمر الحراسة؛ ولذلك أمر قادته بالحرص والحذر من بيان العدو

(١)، (٢) الأوائل، للعسكري (٢/٤٥).
(٣) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام.
(٤) فتوح الشام، لابن أعثم (١/٢٥٣ - ٢٥٥).
(٥) الإدارة العسكرية (١/١٨٨).

وأخذهم على غزة، وطلب منهم إقامة الحرس في حلهم وترحالهم، فمن ذلك قوله لسعد بن أبي وقاص: أذك حراسك على عسكرك، وتيقظ من البيان جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه؛ لترهب بذلك عدو الله وعدوك(١). وكان رضي الله عنه يوصي قادته باتخاذ العيون وبث الطلائع عند بلوغ أرض العدو حتى يكونوا على علم ودراية بحالهم وبنواياهم، فمما كتبه إلى سعد بن أبي وقاص قوله: وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخفى عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تثق به وتطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاشُ عينٌ عليك ليس عينًا لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإذا لقوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك(٢).

ويتضح لنا من هذه الوصية القيمة أن الخليفة عمر رضي الله عنه لم تقتصر عنايته باتخاذ العيون على الأعداء، بل اتخذها ـ أيضًا ـ في الجيوش الإسلامية في الرقابة الإدارية على الولاة والعمال والقادة والجند؛ ليتعرف أحوالهم وسيرتهم ومعاملتهم وسير أعمالهم العسكرية، فقد كانت له عيون في كل جيش ومعسكر ترفع إليه تقريرًا عما يدور فيه(٣)، وعندما شكا عمير بن سعد الأنصاري إلى الخليفة عمر حين قدم عليه وكان على طائفة من أهل الشام قائلًا: يا أمير المؤمنين إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها: عرب سوس(٤)، وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئًا ولا يظهروننا على

---

(١) نهاية الأرب (٦/١٧٠).
(٢) نهاية الأرب (٦/١٦٩).
(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية نشأتها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجري، للدكتور صالح بن سليمان آل كمال، جامعة أم القرى (١/٣٩٦).
(٤) مدينة بالثغر من ناحية الحدث.

عوراتهم. فقال له عمر: فإذا قدمت فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بعير بعيرين ومكان كل شيء شيئين، فإن رضوا بذلك فأعطهم وَخَرِّبْهَا، فإن أبوا فأنب إليهم وأجلهم سنة ثم خربها[1]. ثم لما قدم عليهم عمير بن سعد عرض عليهم ذلك فأبوا فأجلهم سنة ثم خربها[2].

٦ـ اختيار موضع نزولهم لمحاربة العدو: فقد كان الفاروق يوصي سعد بن أبي وقاص بأن لا يقاتل حتى يتعرف على طبيعة أرض المعركة كلها مداخلها ومخارجها ووفرة الماء والكلإ بها وما يجري مجرى ذلك[3]، كما كتب إليه قبل القادسية بأن يكون أدنى حجر من أرضهم؛ لأنهم أعرف بمسالكها من عدوهم، فمتى كانت الهزيمة استطاع التمكن من الانسحاب بالجند فينجوا من القتل فلا يستطيع العدو اللحاق بهم لجبنه من اتباعهم وعدم معرفتهم بطرقها[4]، وبالإضافة إلى ذلك فقد ولى الفاروقُ سعدَ بن أبي وقاص، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان ريادة الجيش في اختيار موقع وموضع نزوله وإقامته، فقد قام الفاروق بتوزيع المهام الإِدارية بين القادة[5]، وكان الفاروق يشترط في إدارته العسكرية على قادته عند اختيارهم لموضع نزولهم وإقامة معسكراتهم الحربية أن لا يفصلهم عن مقر القيادة العسكرية العليا ماءٌ؛ وذلك لما لها من مركزية في التخطيط ولتسهيل الإمداد والتموين[6]، كما كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح قائلًا: ولا تنزلهم منزلًا قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه[7].

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (١/١٨٥).
(٢) المصدر نفسه (١/١٨٥)، والإدارة العسكرية (١/٣٩٧).
(٣) نهاية الأرب (٦/١٧٠)، والإدارة العسكرية (١/٢٠٥).
(٤) الإدارة العسكرية (١/٢٠٥).
(٥) المصدر نفسه (١/٢٠٦).
(٦) الإدارة العسكرية (١/٢٠٦).
(٧) الإدارة العسكرية (١/٢٠٧) نقلًا عن تاريخ الطبري.

٧ـ إعداد ما يحتاج إليه الجند من زاد وعلوفة: كان عمر رضي الله عنه يبعث لجند المسلمين بالعراق من المدينة المنورة بالتموين من الغنم والجزور[١]، وحمى النقيع والربذة[٢] للنعم التي يحمل عليها في سبيل الله، كما اتخذ في كل مصر على قدره خيولًا من فضول أموال المسلمين عدة لما يعرض، فكان من ذلك بالكوفة أربعة آلاف فرس، وبالبصرة نحو منها، وفي كل مصر من الأمصار على قدره[٣]، ثم حين قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالشام لمصالحة أهل بيت المقدس أنشأ إدارة لتموين الجيش عرفت باسم الأهراء[٤]، وكان عمر بن عبسة أول موظف عين لإدارة تموين الجيش[٥].

٨ـ تحريضهم على القتال: كتب الفاروق إلى أبي عبيدة يحرضه على الجهاد قائلًا: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من عبداللَّه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك، فإني أحمد اللَّه عز وجل سرًّا وعلانية، وأحذركم من معصية اللَّه عز وجل وأحذركم وأنهاكم أن تكونوا ممن قال اللَّه في حقهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، وصلى اللَّه على خاتم النبيين وإمام المرسلين والحمد لله رب العالمين[٦].

فلما وصل الكتاب إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين فعلموا أن أمير المؤمنين يحرضهم على القتال، ولم يبق أحد من المسلمين إلا بكى من كتاب عمر بن الخطاب، كما كتب إلى سعد بن أبي وقاص بالعراق ومن معه من الأجناد يحرضهم على القتال

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري (٣١٤/٢).

(٢) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز.

(٣) الإدارة العسكرية (٢١٧/١).

(٤) الهرى: بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان، والجمع أهراء.

(٥) الإدارة العسكرية (٢١٧/١).

(٦) فتوح الشام، للواقدي (١١٧/١).

ويمنيهم ويأمرهم الالتزام بالفضائل ويحذرهم من ارتكاب المعاصي[١]، هذا وكان من مهام أمراء الأعشار في إدارة الفاروق رضي الله عنه التحريض في القتال[٢].

٩- أن يذكرهم بثواب اللَّه وفضل الشهادة: ففي عصر الفاروق قام سعد بن أبي وقاص في القادسية يُذَكِّرُ جُنْدَهُ بثواب اللَّه - تَعَالَى - وما أعد لهم في الآخرة من النعيم، ورغبهم في الجهاد، وأعلمهم ما وعد اللَّه نبيه من النصر وإظهار الدين، وبيَّن لهم ما سوف يكون بأيديهم من النفل والغنائم والبلاد، وأمر القراء أن يقرءوا سورة الجهاد «**الأنفال**»[٣]، كما قام أبو عبيدة بن الجراح في جند الشام خطيبًا وَمُذَكِّرًا إياهم بثواب اللَّه - تَعَالَى - ونعيمه ومخبرًا إياهم أن الجهاد خير لهم من الدنيا وما فيها[٤]، كما اشتهر عن عمرو بن العاص قوله لجند فلسطين: من قُتل كان شهيدًا ومن عاش كان سعيدًا. وأمر الجند أن يقرءوا القرآن وحثهم على الصبر ورغبهم في ثواب اللَّه وجنته[٥].

١٠- أن يلزمهم بما أوجبه اللَّه من حقوق: فقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد يوصيه بقوله: أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى اللَّه على كل حال، فإن تقوى اللَّه أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي من احتراسكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله[٦].

١١- أن ينهاهم عن الاشتغال بتجارة وزراعة ونحوهما: فقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد في أن يبلغوا العسكر أن عطاءَهم قائمٌ وأن

---

(١)، (٢) الإدارة العسكرية (٢٣٩/١).
(٣) تاريخ الطبري (٣٥٦/٤).
(٤) الإدارة العسكرية (٢٤٣/١).
(٥) فتوح الشام (١٨/١، ٢٠).
(٦) الفاروق عمر بن الخطاب، محمد رشيد رضا ص (١١٩).

رزقَ عيالهم سائلٌ، وأن ينهوهم عن الزراعة، حتى إنه عاقب من لم يمتثل ذلك [١]، كل ذلك حرصًا من الفاروق رضي الله عنه بتفريغ الجند للجهاد ونشر الإسلام؛ ولئلا يلتصقوا بالأرض حين يزرعون فيركنون إلى ذلك ويصبح قلبهم منشغلًا؛ ولذلك استطاع عمر رضي الله عنه أن يوجد جندًا متفرغًا للقتال جاهزًا لوقت الحاجة والطلب، وضمن عدم انتشارهم لجني الثمار والزراعة وما يتبعها من حصاد وحرث وتسويق [٢].

❑ القائد الفاروق المجاهد يدعو قوّاده للعدل مع المجاهدين:

عن جرير رضي الله عنه أن رجلًا كان ذات صوت ونكاية على العدو مع أبي موسى الأشعري فغنموا مغنمًا، فأعطاه أبو موسى نصيبه ولم يفه، فأبى أن يأخذه إلا جميعًا فضربه عشرين سوطًا، وحلق رأسه، فجمع شعره وذهب به إلى عمر رضي الله عنه.

قال جرير: وأنا أقرب الناس منه، فأخرج شعرًا من جيبه، فضرب به صدر عمر، فكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى: سلامٌ عليك، أما بعد:

فإن فلان بن فلان أخبرني بكذا وكذا، وإني أقسم عليك إن كنتَ فعلتَ ما فعلتَ في ملإ من الناس، جلست له في ملإ من الناس فاقتص منك، وإن كنت فعلت ما فعلت في خلاء، فاقعد له في خلاء فليقتص منك. قال له الناس: اعف عنه، قال: لا والله لا أدعه لأحد من الناس. فلما دَفَعَ إليه الكتاب قعد للقصاص، رفع رأسه إلى السماء، وقال: قد عفوت عنه لله ـ تَعَالَى ـ [٣].

❑ اهتمام الفاروق القائد المجاهد بحدود دولته:

كان عمر رضي الله عنه من خوفه على المسلمين وحدود الدولة الإسلامية لاتساعها وكرهه لقتال الروم يقول إذا ذكر الروم: والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم،

---

(١) الإدارة العسكرية (١/٢٥٦).

(٢) المصدر السابق (١/٢٥٧).

(٣) خبر حسن: أخرجه ابن شبة في (تاريخ المدينة) (٣/٨٠٩)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/٥٠).

لنا ما دونه وللروم ما وراءه[١]. وقال الشيء نفسه حول حدود الدولة الإسلامية نحو الفرس: لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدًّا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد، وإني أوثر سلامة المسلمين على الأنفال[٢]. فأمر بإقامة قواعد عسكرية إسلامية لها عدة وظائف ومهام، والتي سبق وأشرنا إلى بعض منها، بالإضافة إلى كونها مراكز حربية في مواضع استراتيجية متقدمة على الحدود بينها وبين البلاد المفتوحة لترد أي عدوان خارجي، وكمراكز تجمع للجند ولنشر الإسلام، وكان في طليعتها مدينتا البصرة والكوفة في مجاورة الدولة الفارسية والفسطاط بمصر[٣]، وثغور أخرى بسواحلها وسواحل الشام لرد هجمات الروم من البحر، وَجَنَّدَ أربعة أجناد فيما بعد، فيقال: جند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، حيث كانت لاختصاصهم حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند أمرائهم؛ لتسهيل عملية إدارتهم في المهمات العسكرية، ولرعاية شئونهم والتي كانت منها العطاء[٤]، هذا إلى جانب المعسكرات والتحصينات التي بالثغور والتي سبق إجلاء العدو عنها واستولى عليها المسلمون واتخذوها قواعد عسكرية لهم وأسكنوا بها جندهم لحماية حدود الدولة الإسلامية[٥]، ثم صار المسلمون كلما تقدموا في الفتح أقاموا في نهاية توسعهم ثغرًا يحرس الحدود يشحن بالجند المرابطين ويتولى أمره قائد من أكفأ القواد[٦]، ومن أهم تلك الإجراءات التي اتخذها الفاروق ﷺ بإقليم العراق والمشرق المسالح التي أقيمت بين المسلمين والفرس، فحينما بلغ اجتماع الفرس على يزدجرد للقائد المثنى

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/١٥٥).
(٢) تاريخ الطبري نقلًا عن الإدارة العسكرية (١/٣٥٢).
(٣) الإدارة العسكرية (١/٤٥٢).
(٤) فتوح البلدان (١/١٥٦).
(٥) تاريخ التمدن، جرجي زيدان (١/١٧٩).
(٦) الإدارة العسكرية (١/٤٥٣).

بن حارثة والمسلمين، كتبوا إلى الخليفة عمر بذلك فجاءهم الرد بقوله: أما بعد، فاخرجوا بين ظهراني الأعاجم، وتفرقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم.. فنفذ المثنى الأمر[١]، كما أوصى الخليفة عمر رضي الله عنه سعدًا قبل القادسية بقوله: وإذا انتهيت إلى القادسية فتكون مسالحك على أنقابها[٢].

وفي جلولاء كتب عمر رضي الله عنه إلى سعد: إن هزم اللَّه الجندين، جند مهران وجند الأنطاق فقدم القعقاع بن عمرو بثغر حلوان بجنود المسلمين لحماية المنطقة والحفاظ عليها من تقدم الأعداء وحتى يكون ردءًا لإخوانه من جند المسلمين الغازي منهم والمقيم[٣]؛ لذا كان القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالعراق يطلب من الجند ويحثهم على التقدم نحو الفرس مخبرًا إياهم أن الثغور والفروج قد سدت بقوله: ليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذاتهم[٤]. والملاحظ أن هذه المسالح في عهد الفاروق لا تنشأ إلا بأمر من القيادة العليا المركزية للإدارة العسكرية وذلك في قول الخليفة عمر لقادة المسالح: اشغلوا فارس عن إخوانكم وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتيكم أمري[٥]. وقد بلغت ثغور الكوفة وحدها في عهد الفاروق أربعة ثغور هي: ثغر حلوان وعليه القعقاع بن عمرو التميمي، وثغر ماسبذان وعليه ضرار بن الخطاب الفهري، وثغر قرقيسيا[٦] وعليه عمر بن مالك الزهري، وثغر الموصل وعليه عبداللَّه بن المعتم العبسي، وكان لكل قائد من هؤلاء من ينوب عنه في ثغره لإدارته إذا توجه لمهمة ما.

ومن الجدير بالذكر أن جند المسلمين لا يبنون الثغور حصنًا ولا يمصرون مدينة إلا

---

(١) ، (٢) الإدارة العسكرية (١/٤٥٣).
(٣) المصدر نفسه (١/٤٥٤) نقلًا عن الطبري.
(٤) المصدر نفسه (١/٤٥٤).
(٥) المصدر نفسه (١/٤٥٤)
(٦) بلد على نهر الخابور، قرب مالك بن طوق، وعندها مصب الخابور في الفرات.

وأقاموا المسجد في المقدمة لما له من دور دعوي وتربوي وجهادي كما هو معروف[1]، وأما فيما يتعلق بحماية الحدود بين الروم والمسلمين في الجبهة الشامية في عهد عمر رضي الله عنه، فقد بدأت عنايته بها - أيضًا - منذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام؛ حيث اتخذ لذلك إجراءات دفاعية كثيرة ومتعددة لحماية المنطقة، **منها**: بناء المناظر، وإقامة الحرس، واتخاذ المسالح بها، وتحصين المدن الساحلية إلى جانب الرباطات الدائمة، بالإضافة إلى الحصون المفتوحة وترتيب المقاتلة فيها - أي الجند الغازي - وسياسة التهجير أو النوافل، وجمعه الساحل الشامي كله تحت إدارة عسكرية موحدة، ففي السنة التي سار فيها عمر بنفسه إلى بلاد الشام لتوقيع الصلح مع أهل بيت المقدس تفقد بعض الثغور الشامية ووضع بها الحاميات والمسالح ورتب بها أمراء الأجناد والقادة، وسد فروجها ومسالحها وأخذ يدور بها ليرى احتياجاتها الدفاعية[2]، ثم رجع إلى المدينة وخطب الناس قبل رجوعه قائلًا: ألا قد وليت عليكم وقضيت الذي عليَّ في الذي ولاني الله من أمركم إن شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا ما لديكم، فجندنا لكم الجنود هيأنا لكم الفروج وبوأنا لكم، ووسعنا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شامكم، وسمينا لكم أطماعكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومغانمكم، فمن عَلمَ عِلْمَ شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله[3].

وعندما فتح أبو عبيدة بن الجراح ثغر إنطاكية بالحدود الشامية الشمالية كتب إليه الخليفة عمر رضي الله عنه قائلًا: أن رتب بإنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء[4]، فنقل أبو عبيدة قومًا من أهل حمص وبعلبك بها مرابطة بها لحماية حدود المنطقة من أي عدوان خارجي، وَعَيَّنَ على الثغر

---

(١) الإدارة العسكرية (١/٤٥٥).

(٢) الإدارة العسكرية (١/٤٥٧).

(٣) تاريخ الطبري (٤/٤٠).

(٤) فتوح البلدان (١/١٧٥).

حبيب بن مسلمة الفهري الذي اتخذ من ثغر إنطاكية قاعدة لانطلاقه لغزو ما خلف الحدود الإسلامية، فمنها كان يأتي المدد للخطوط الأمامية في الجبهة الرومية، وكان منها غزوه للجرجومة(١) التي صالح أهلها على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح في جبل اللكام ضد الروم(٢)، وكذلك عندما سار أبو عبيدة إلى ثغر بالس(٣) رتب به جماعة من المقاتلين، وأسكنه قومًا من عرب الشام الذين أسلموا بعد قدوم المسلمين لحفظ الثغر وضبطه من هجمات الروم(٤).

ومن التحصينات والوسائل الدفاعية التي اتخذها الوالي معاوية بن أبي سفيان لحماية الحدود الإسلامية لسواحل الشام في نهاية عهد عمر بن الخطاب وبداية عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ هو قيامه ببناء عدة حصون مثل أطرسوس(٥)، ومرقية(٦)، وبلنياس(٧)، وبيت سليمة، بالإضافة إلى قيامه بتطوير الحصون التي استولى عليها الجند المسلمون بسواحل الشام وشحنها جميعًا بالجند المقاتلة وأقطعهم القطائع بها وبنى المناظر ووضع بها الحرس لمراقبة اقتراب العدو، فتقوم كل منظرة بإشعال النار لإخبار الأخرى التي تليها إلى أن يصل الخبر إلى المدينة والثغر والمسلحة في زمن قليل فيسرعون نحو الجبهة التي أقبل منها العدو للتصدي له ومنعه من التسلل(٨).

وفيما يتعلق بحماية الحدود بين المسلمين والروم في الجبهة المصرية لإدارة عمر رضي الله عنه، فقد شملتها الرعاية والعناية كمثيلاتها من الجبهات الأخرى، فقد أَمَرَ

---

(١) الجرجومة: يقال لأهلها: (الجراجمة)، على جبل اللكام بالثغر الشامي.

(٢) معجم البلدان (٢/١٢٣).

(٣) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة.

(٤) فتوح البلدان، للبلاذري (١/٢٢٤).

(٥) بلد من سواحل بحر الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية.

(٦) مرقية: قلعة حصينة في سواحل حمص.

(٧) بلنياس: كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر.

(٨) فتوح البلدان (١/١٥٠ ـ ١٥٨).

عَمْرَو بن العاص ببناء الفسطاط كقاعدة عسكرية أولى لإيواء جند المسلمين بالمنطقة، وجعل لكل قبيلة محرسًا وعريفًا، فمنها كان المنطلق في الفتوحات الإسلامية لشمال أفريقيا بالإضافة إلى كونها إحدى الحاميات الدفاعية المهمة للثغر المصري إلى ما هنالك من مهام تضطلع بها، واشترط عمر رضي الله عنه في موقعها، كما اشترط في مواقع القواعد السابقة، بأن لا يفصل بينها وبين القيادة العليا المركزية بالمدينة ماء حتى يكون الاتصال بينهما مستمرًا وميسرًا[1]، وكان عمرو بن العاص يُذَكِّرُ جنوده بأن مقامهم بمصر عبارة عن رباط وذلك في قوله: اعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة؛ لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية. وفي الفترة التي استولى فيها جند المسلمين على الحصون والمسالح التي بالثغر المصري قاموا بتجديدها وترميمها والاستفادة منها في مرابطتهم؛ حيث شحنوها بالجنود، وكان العريش أول مسالح مصر وأعمالها[2]، وقد أَمَرَ الفاروق بإقامة المسالح على سواحل مصر كلها[3]، وحينما فتح عمرو بن العاص ثغر الإسكندرية جعل به ألف رجل من أصحابه مسلحة به لحفظه وحمايته، وكان عددهم لا يفي بالغرض المطلوب مما جعل الروم يعودون إليهم من البحر، فقتلوا من قتلوا من أصحاب المسلحة وهرب من هرب، فرجع إليهم عمرو بن العاص مرة أخرى وفتح الثغر، وجعل من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الجيش؛ كما جعل في السواحل الربع الآخر وأبقى معه بالفسطاط النصف الآخر[4]، وكان الفاروق يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة المنورة بثغر الإسكندرية ويكاتب الولاة بأن لا تغفل عنها، وأن تكثف رابطتها إضافة إلى من جعل بها عمرو بن العاص من المرابطين[5]؛

---

(١) فتوح مصر، لابن عبدالحكم، والإدارة العسكرية (٤٦٢/١).

(٢) تاريخ اليعقوبي ص (٣٣٠).

(٣) البداية والنهاية (١٠٣/٧).

(٤) البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، سعاد ماهر ص (٧٧).

(٥) فتوح مصر ص (١٩٢)، الخطط، للمقريزي (١٦٧/١).

وبذلك استكمل عمر رضي الله عنه فقهه البعيد في حماية الحدود البرية وتحصينها في الجبهات الثلاث العراقية والشامية والمصرية[١]، ولم يقتصر الأمر على هذه الوسائل الدفاعية لحماية الحدود الإسلامية، بل أنشأ عمر رضي الله عنه نظام الصوائف والشواتي؛ وهي الحملات التي كانت تخرج بانتظام سنويًّا كالدوريات المنظمة في فصل الصيف وفي فصل الشتاء[٢]، ولم تقتصر حملات الشواتي والصوائف على ثغور بلاد الشام بل شملت جميع حدود الدولة الإسلامية حينئذٍ، وكان يتولاها كبار القادة أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاوية بن أبي سفيان، والنعمان بن مقرن، وغيرهم كثير[٣]، وكان الفاروق يزيد في الأرزاق والأعطيات للجنود الذين يبعثون إلى الثغور للمرابطة بها؛ حتى تعينهم على تحمل بعدهم، ويقطعهم القطائع بها[٤]، ونرى قادة الفاروق رضي الله عنه في إدارتهم العسكرية للمعارك يقسمون لأهل المسالح من الفيء مثل الذي يقسم لهم؛ لأنهم كانوا ردءًا للمسلمين؛ لئلا يؤتوا من وجه من الوجوه[٥]، وحين حضرت الخليفة عمر رضي الله عنه الوفاةُ قال موصيًا الخليفة من بعده: وأوصي الخليفة من بعدي بأهل الأمصار خيرًا فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم[٦].

❑ الفاروق القائد يستنصر لجنده:

لما أبطأ على عمر رضي الله عنه خبر نهاوند والنعمان بن مقرن، كان عمر رضي الله عنه يستنصر، وكان الناس يرون من استنصاره.

قال جُبير بن حيَّة: «كان عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ بالمدينة يدعو الله، وينتظر مثل

---

(١) ، (٢) الإدارة العسكرية (٤٦٤/١).
(٣) فتوح البلدان، للبلاذري (١٩٤/١، ١٩٥).
(٤) الفن الحربي في صدر الإسلام، عبدالرءوف عون ص (٢٠١)، الإدارة العسكرية (٤٦٥/١).
(٥) الإدارة العسكرية (٤٦٥/٢)، تاريخ الطبري (١٣٤/٤).
(٦) مناقب أمير المؤمنين، لابن الجوزي ص (٢١٩، ٢٢٠).

صيحة الحُبلى»(١)، وانظر إلى حزنه العميق عندما علم باستشهاد أئمة المجاهدين وصالحيهم في نهاوند، كما جاء في خبر جبير بن حية: «... فكتب حذيفة بالفتح مع رجل من المسلمين، فلما قدم عليه قال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتحٍ أعزَّ اللَّه فيه الإسلام وأهنه، وأذل فيه الشرك وأهله.

قال عمر: النعمان بعثك؟ قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين. فبكى عمر، واسترجع، وقال: ومَنْ وعك؟ فقال: فلان، وفلان، وفلان. حتى عَدَّ الناس، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم. فقال عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ وهو يبكي: لا يضرهم أن لا يعرفهم عمر ولكن اللَّه يعرفهم»(٢). هذا الحزن الصادق عرفه القاصي والداني وأرخت به الأيام حتى يقول سعيد بن المسيب: «إني لأذكر عمر بن الخطاب حين نعى النعمان بن مقرن»(٣).

❑ وانظر إليه وهو يؤدب جنده ويعلمهم صدق التوكل على اللَّه ﷻ واستنصاره:

عن عياض الأشعري ـ رحمه اللَّه ـ قال: شهدت اليرموك، وعلينا خمسة أمراء؛ أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض ـ وليس بعياض الأشعري ـ. قال: قال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة، قال: فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه، فكتب إلينا:

إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرًا وأحصن جندًا، اللَّه ﷻ فاستنصروه، فإن محمدًا ﷺ قد نُصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم، ولا تراجعوني.

قال: فقاتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربع فراسخ، وأصبنا أموالًا»(٤).

---

(١) **حسن**: رواه ابن حبان (٤٧٣٦)، وفيه ابن فضالة، وهو صدوق.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤/٨)، وابن حبان (٤٧٣٦)، والطبري في (تاريخه) (١٤٣/٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢١/٨)، والبخاري في (التاريخ الصغير) (٥٦/١).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤٩/١)، وابن أبي شيبة (٣٥/٨)، وابن حبان (٤٧٤٦)، والطبري في (تاريخه) (١٢٦/٣).

❐ الفاتح المجاهد في الشام يلقي الدرر على مسامع جنده:

قال طارق بن شهاب: «لـمّـا قدم عمر الشام أتته الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة، وأخذ برأس بعيره يخوض الماء، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذه الحال؟! قال: فقال عمر: إنا قوم أعزَّنا اللَّه بالإسلام، فلن نلتمس العزَّ بغيره»(١).

وفي رواية أخرى يقول ابن شهاب:

لما قدم عمرُ الشام عَرَضَتْ له مخاضةٌ، فنزل عن بعيره، ونزع مُوقيه فأمسكهما بيده، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا. فصكَّ عمر في صدره، وقال: أوه! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلَّ الناس وأحقر الناس، وأقلَّ الناس، فأعزكم اللَّه بالإسلام، فمهما تطلبون العز بغيره يذلكم اللَّه ﷻ»(٢).

❐ فارس الإسلام وفاروقه يُخرج اليهود من جزيرة العرب:

كان مما أوصى به رسول اللَّه ﷺ قبل موته إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وقد قام بتنفيذ هذه الوصية الغالية فاروقُ الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أوصى النبي ﷺ عند موته فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»(٣).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا»(٤).

وجزيرة العرب: هي مكة والمدينة، واليمامة واليمن.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (٣٩/٨)، وابن عساكر (٢/٥٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن عساكر في (تاريخه) (٣/٥٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٥/٤، ١٢١)، ومسلم (١٦٣٧)، وأبو داود (٣٠٢٩)، والحميدي (٥٢٦)، وأحمد (٢٢٢/١)، وعبدالرزاق في (مصنفه) (١٩٣٧١)، والبغوي (٢٧٥٥).

(٤) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٦٧)، وأبو داود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦٠٧)، وأحمد (٢٩/١)، وعبدالرزاق (٩٩٨٥)، (١٩٣٦٥)، والبغوي (٢٧٥٦).

وقال الأصمعي: جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جُدَّة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام[١]، فكيف تم إخراج اليهود في عهد عمر رضي الله عنه.

عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وكان رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها، فسألت اليهودُ رسولَ الله ﷺ أن يقرهم بها على أن يكفوه عملها، ولهم نصف الثمر. فقال رسول الله ﷺ: **«نقركم على ذلك ما شئنا»**، وفي رواية أخرى: **«نقركم ما أقرَّكم الله»**[٢].

فأقروا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء[٣] وأريحاء[٤].

فلما كان زمان عمر غشوا المسلمين، وألقوا ابن عمر من فوق بيت، ففدعوا[٥] يديه، فلما فدع أهل خيبر عبدالله بن عمر، قام عمر خطيبًا، فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال: **«نقركم ما أقركم الله»**، وإن عبدالله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعُدي عليه من الليل، ففُدعت يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم، هم عدونا وتهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم.

فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بني أبي الحقيق وهو رئيسهم فقال:

يا أمير المؤمنين، أتخرجنا، وقد أقرنا محمد، وعاملنا على الأموال، وَشَرَطَ ذلك لنا؟! فقال عمر: أظننت أني نسيتُ قولَ رسول الله ﷺ: **«كيف بك إذا أُخرجت من**

---

(١) شرح السنة، للبغوي (١١/١٨١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣/١٤١، ٢٥٢)، ومسلم (١٥٥١)، وأحمد (٢/١٤٩)، وعبدالرزاق في (مصنفه) (٩٩٨٩)، والبغوي في (شرح السنة) (٢٧٥٧)، والبيهقي في (الدلائل) (٤/٢٣٤)، و(السنن الكبرى) (٩/٢٠٧)، وابن عبدالبر في (التمهيد) (٦/٤٦٤).

(٣) تيماء: بلدة معروفة بين الشام والمدينة على سبع أو ثمان مراحل من المدينة.

(٤) أريحاء: هي مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس.

(٥) الفدع: هو زيغ في الكفِّ بينها وبين الساعد، وفي الرجل بينها وبين الساق.

خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة؟»[١].

فقال: كان ذلك هُزيلة من أبي القاسم!

فقال: كذبت يا عدو الله. فأجلاهم عمر، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من التمر مالًا، وإبلًا، وعُروضًا من أقتاب، وحبال، وغير ذلك.

فأين نحن من عمر.. بل من شسع عمر... يهود ولا عمر لهم؟!

أهذه القدسُ والأقصى يزّينها مسرى النبي أفيها ساجدٌ عمُر
أم أورشليمُ يهوذا بات يحكمها وهيكل الظلم في أحضانها نضِرُ

لعل اللّه أن يمنّ على المسلمين بمن يسير بهم على درب الفاروق فيخرج اليهود من بيت المقدس وفلسطين.

❏ تمني الفاروق للشهادة ونيله إياها:

عن أم المؤمنين حفصة بنت عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ أنها سمعت أباها يقول: اللهم ارزقني قتلًا في سبيلك، ووفاة في بلد نبيك. قالت: قلتُ: وأَنى ذلك؟! قال: إن اللّه يأتي بأمره أنى شاء. وفي رواية: يأتي به اللّه إن شاء[٢].

فاستجاب اللّه للفاروق، ونال ثواب الشهادة.

وفي رواية زيد بن أسلم ـ رحمه اللّه ـ عن أبيه عن عمر رضي الله عنه قال: «**اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد نبيك**»[٣].

❊ ❊ ❊

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٥٢/٣)، والبيهقي في (الدلائل) (٢٣٤/٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه مالك في (الموطإ) (١٠٢١)، والبخاري في (صحيحه) (١٨٩٠)، وابن سعد في (الطبقات) (٣٣١/٣) وابن شبة في (تاريخ المدينة) (٨٧٢/٣).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن سعد (٣٣١/٣)، وابن شبة (٨٧٨/٣).



كانت الفتوحات في عصره كالماء المنهمر

المجاهد الشهيد ذو النورين عثمان بن عفان

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أحدًا، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فقال: «**اثبت أُحد، فإنما عليك نبيّ وصدِّيق وشهيدان**»[(١)].

ذو النورين المجاهد بنفسه وماله في سبيل الله... يقوم رضي الله عنه بتجهيز جيش العسرة كله، حتى لم يتركه بحاجة إلى خِطام أو عقال، قال ابن شهاب: «**قدَّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسع مئة وأربعين بعيرًا، وستين فرسًا أتمَّ بها الألف**»، إنه عثمان المهاجر من ماله.

عن أبي عبدالرحمن السلمي أن عثمان رضي الله عنه حين حُوصِر أشرف عليهم وقال: «أَنْشُدُكُمُ الله، ولا أَنْشُدُ إلا أصحاب النبي ﷺ: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «**من حفر رومة فله الجنة**»، فحفرتُها؟ ألستم تعلمون أنه قال: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**»، فجهزته؟ قال: فصدقوه بما قال»[(٢)].

وفي رواية أخرى: «**أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ قال في جيش العسرة**: «**من ينفق نفقة متقبلة، والناس مجهدون معسرون**»، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم»[(٣)].

ومن حديث الأحنف بن قيس «... **أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أن رسول الله** ﷺ نظر في وجوه القوم فقال: «**من يجهز هؤلاء غفر الله له**»؛ يعني: جيش

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٣٦٧٥)، وأبو داود (٤٦٥١)، والترمذي (٣٦٩٧)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (٣٢)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (٢٤٦)، وفي (المسند) (١١٢/٣)، وأبو يعلى (٢٨٩/٥، ٢٩٠).

(٢) **صحيح لشواهده**: رواه البخاري معلقًا (٢٧٧٨)، وذكر ابن حجر في (الفتح) (٤٠٧/٥): أنه موصول عند الإسماعيلي، ورواه الدارقطني موصولًا (١٩٩/٤).

(٣) عند النسائي (٢٣٦/٦، ٢٣٧)، والدارقطني (١٩٩/٤)، والترمذي (٣٦٩٩)، وابن حبان في (الموارد) (٢١٩٨).

العسرة، فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالًا ولا خطامًا؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد»(١).

وعن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن عثمان بن عفان جاء إلى النبي ﷺ بألف دينار في كُمِّهِ حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره، فرأيت النبي ﷺ يُقلبها في حجره، ويقول: **«ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»**(٢).

«ما»: نافية بمعنى ليس؛ أي: ليس عليه ولا يضره الذي يعمل في جميع عمره بعد هذه الحسنة، والمعنى أنها مكفرة لذنوبه الماضية والآتية.

رضِي اللَّه عن عثمان ذي النورين، لقد جهز جيش العسرة بأكمله في زمان القيظ، وقلة الماء، والحاجة إلى العدة والعتاد.

يسرت للعسرة العشواء غزوتها	بالخيل والعير فيها كل قرحان
وجئت بالمال في حِجْر النبي ولم	تكن على الملة الكبرى بمنانِ
ومن يعن ملة الإسلام في حرج	يكن له اللَّه حسبًا غير معوان
كأن مالك مال المسلمين متى	شاءوا فلست على شيء بخزان
فكنت عند رسول اللَّه ناصره	يجللك العرب من قاصٍ ومن دان(٣)

❏ الفتوح في عهد عثمان كماء منهمر:

لله در الخليفة الكهل الذي بلغ السابعة والسبعين من عمره يوم يفكِّر ويخطط، ويعزم ويحزم، وكأنما قد حل داخل إهابه شباب التاريخ!!

---

(١) **حسن لغيره:** أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (٤٨٦/٧)، وابن حبان (٦٨٨١)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٠٣).

(٢) **حسن:** أخرجه الترمذي (٣٧٨٥)، وأحمد (٦٣/٥)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٢٧٩)، والحاكم (١٠٢/٣) وصححه، وأقره الذهبي، والبيهقي في (الدلائل) (٢١٥/٥)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق).

(٣) نقلا عن (أحسن القصص، لعلي فكري) (١٥٨/٣).

هذا الخليفة العظيم الكهل الذي يبهر بمضاء عزمه حتى يجهز الجيوش للبحر، وركب جنوده ثبج البحر مثل الملوك على الأسِرَّة في غزو قبرص، وفي غزوة ذات الصواري.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**أول جيش من أمتي يركبون البحر، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**»(١).

وقال ﷺ: «**عجبت من قومٍ من أمتي يركبون البحر؛ كالملوك على الأسرة**»(٢).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**رأيت قومًا ممن يركب ظهر هذا البحر؛ كالملوك على الأسرة**»(٣).

وقال ﷺ: «**ناس من أمتي عُرِضُوا عليَّ غزاةً في سبيل الله، يركبون ثبج(٤) هذا البحر ملوكًا على الأسرة**»(٥).

وقال ﷺ: «**غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البرِّ، ومن أجاز(٦) البحر فكأنما أجاز الأودية كلها، والمائد(٧) فيه؛ كالمتشحط(٨) في دمه**»(٩).

❑ سارت جيوش الخليفة تحت راياتها المنتصرة إلى كل مكان:

فمعاوية يُوغل في بلاد الروم حتى يقرع أبواب «**القسطنطينية**» ذاتها، وإلى فارس،

---

(١) رواه البخاري عن أم حرام بنت ملحان.

(٢) رواه البخاري عن أم حرام.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود عن أم حرام، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٣٤٧٣).

(٤) ثبج: وسط.

(٥) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن أنس، وأحمد في (مسنده)، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه عن أم حرام.

(٦) أجاز: اخترق.

(٧) هو الذي يدار برأسه من ريح البحر واضطراب السفينة.

(٨) المذبوح المسطخ بدمه.

(٩) **صحيح**: رواه الحاكم في (المستدرك) عن ابن عمرو، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٤١٥٤).

وكرمان، وسجستان، ومرو، يزحف ابن عامر، والأحنف بن قيس، والأقرع بن حابس، ومُهِّدت الأرض لزحف المسلمين حتى بلغوا السودان والحبشة في الجنوب، والهند والصين في المشرق، وخلال عهده ﷺ بلغت الفتوحات أبعد الآماد، وأرحب الآفاق[١].

سجل الفتوحات في عهد الشهيد ذي النورين

❑ سنة أربع وعشرين:

فيها افتتح أبو موسى الأشعريُّ الريَّ، وكانت قد فُتحت على يد حذيفة، وسويد ابن مقرن، فانتقضوا[٢].

وفيها: غزا الوليد بن عقبة أذربيجان، وأرمينية؛ لمنع أهلها ما كانوا صالحوا عليه، فسبى وغنم ورجع[٣].

وفيها: استمد أمراء الشام من عثمان ﷺ مددًا، فأمدهم بثمانية آلاف من العراق، فمضوا حتى دخلوا إلى أرض الروم مع أهل الشام، وعلى أهل العراق سلمان بن ربيعة الباهلي، وعلى أهل الشام حبيب بن مسلمة الفهري، فشنوا الغارات، وسبوا وافتتحوا حصونًا كثيرة[٤].

❑ سنة خمس وعشرين:

فيها سار الجيش من الكوفة عليهم سلمان بن ربيعة إلى بَرْذعة، فقتل وسبى[٥].

وفيها: انتقض أهل الإسكندرية فغزاهم عمرو بن العاص أمير مصر وسباهم، فردَّ

---

(١) **انظر**: رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد.

(٢) **انظر**: تاريخ خليفة (١٥٧)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (٣/٣٠٧).

(٣) **انظر**: تاريخ الطبري (٤/٢٤٦)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٠٩).

(٤) **انظر**: تاريخ الطبري (٤/٢٤٧)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٠٩).

(٥) تاريخ خليفة (١٥٨)، وتاريخ الإسلام (٣/٣١٢).

عثمان السبي إلى ذمتهم، وكان ملك الروم بعث إليها منويل الخَصيُّ في مراكب فانتقض أهلها - غير المقوقس - فغزاهم عمرو في ربيع الأول، فافتتحها عنوة غير المدينة، فإنها صلح[١].

وفيها: استأذن ابن أبي سرح عثمان في غزو إفريقية فأذن له[٢].

❑ **سنة ست وعشرين:**

فيها: فُتحت سابور وأميرها عثمان بن أبي العاص[٣].

❑ **سنة سبع وعشرين:**

فيها غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص، فركب البحر بالجيوش، وأكمل ابن أبي سرح غزو إفريقية[٤].

❑ **سنة ثمان وعشرين:**

فيها: غزا حبيب بن مسلمة سورية من أرض الروم[٥].

وفيها: غزا الوليد بن عقبة أذربيجان مرة أخرى، فصالح أهلها مثل صُلح حذيفة[٦].

❑ **سنة تسع وعشرين:**

فيها: افتتح عبدالله بن عامر إصطخر عنوة فقتل وسبى كثيرًا.

وفيها: انتقضت أذربيجان فغزاهم سعيد بن العاص فافتتحها[٧].

وفيها: غزا ابن عامر وابن بديل الخزاعي أصبهان[٨].

---

(١) تاريخ خليفة (١٥٨)، وتاريخ الطبري (٤/٢٥٠).

(٢) تاريخ الإسلام (٣/٣١٢).

(٣) تاريخ خليفة (١٥٨)، وتاريخ الإسلام (٣/٣١٥).

(٤) تاريخ خليفة (١٦٤)، وتاريخ الإسلام (٣/٣١٧، ٣١٩).

(٥) تاريخ الطبري (٤/٢٦٣)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٢٤).

(٦) تاريخ خليفة (١٦٠)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٢٤).

(٧) (٨) تاريخ خليفة (٦٣)، وتاريخ الإسلام (٣/٣٢٦).

❏ سنة ثلاثين:

فيها فُتحت جور من أرض فارس على يد ابن عامر، فغنم كثيرًا.

وفيها: افتتح ابن عامر بلادًا كثيرة من أرض خراسان[١].

وسار الأحنف بن قيس في أربعة آلاف، فَجُمِعَ له أهل طخارستان، وأهل الجوزجان، والفارياب فاقتتلوا قتالًا شديدًا، ثم هزم اللَّه المشركين وكان النصر، ثم سار الأحنف بن قيس على بلخ فصالحوه، ثم أتى خوارزم فلم يُطقها ورجع، وفتحت هراة، وفتح ابن عامر مرو صلحًا[٢].

❏ سنة إحدى وثلاثين:

وفيها: فُتحت نيسابور صلحًا.

وفيها: معركة الأساور، فغزا عبداللَّه بن أبي سرح من مصر في البحر، وسار فيه إلى ناحية مصيصة[٣].

❏ سنة اثنين وثلاثين:

وفيها: كانت وقعة المضيق بالقرب من القسطنطينية، وأميرها معاوية رضي الله عنه[٤]

❏ سنة ثلاث وثلاثين:

فيها: غزا معاوية ملطية وحصن المرَّة من أرض الروم[٥].

وفيها: غزا ابن أبي سرح الحبشة[٦].

---

(١) تاريخ خليفة (١٦٣)، وتاريخ الإسلام (٣٢٩/٣).
(٢) تاريخ خليفة (١٦٥، ١٦٦)، وتاريخ الطبري (٢٦٩/٤، ٣٠١)، وتاريخ الإسلام (٣٣٠/٣).
(٣) تاريخ الطبري (٢٨٨/٤)، وتاريخ الإسلام (٣٦٣/٣، ٣٦٤).
(٤) تاريخ الإسلام (٣٧١/٣).
(٥) تاريخ خليفة ص (١٦٧)، وتاريخ الإسلام (٤١٥/٣).
(٦) تاريخ الإسلام (٤١٦/٣).

❑ سنة أربع وثلاثين:

فيها كانت غزوة ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية وأميرها ابن أبي سرح[١].

❑ سنة خمس وثلاثين:

فيها: غزوة ذي خُشب، وأميرها معاوية رضي الله عنه.

وفيها: استشهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بمقتله؛ لينال أجر الشهادة رضي الله عنه.

* * *

(١) تاريخ خليفة (١٦٨)، وتاريخ الإسلام (٣/٤٢٠).



البطل الشهيد.. حيدرة الأبطال
الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ «اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»[1].
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» «٧/ ٧٤»: «وقد روينا عن الإمام أحمد قال: ما بلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن علي».

---

(١) رواه مسلم (٢٤١٧)، والترمذي (٣٦٩٦)، وقال: (هذا حديث صحيح)، وأحمد في (المسند) (٢/ ٤١٩) وفي (فضائل الصحابة) (١٠٦١)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١٠٣).

البطل الشهيد.. حيدرة الأبطال
الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

روى البخاري عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يَجْثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾الآية. قال: «**هم الذين تبارزُوا يوم بدرٍ: حمزةُ، وعليٌّ، وعبيدة ـ أو أبو عبيدة ـ بن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعُتبة بن ربيعة، والوليد بن عُتبة**»[1].

«**وعن علي قال: تقدم ـ يعني عُتبة بن ربيعة ـ وتَبِعَه ابنه وأخوه، فنادى: مَن يُبارز؟ فانتُدب له شبابٌ من الأنصار، فقال: مَنْ أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردْنا بني عمنا. فقال رسول الله ﷺ «قُمْ يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث»، فأقبل حمزة إلى عُتبة، وأقبلتُ إلى شَيْبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتانِ، فأثخن كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، ثم مِلْنَا على الوليد، فقتلناه واحتملنا عُبيدة**»[2].

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» «٧/٢٩٨»: فيه فضيلةٌ ظاهرةٌ لحمزة وعليٍّ وعبيدة بن الحارث ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ.

وانظر ـ بربك ـ إلى الفارس الشاب.. علي بن أبي طالب، وإلى قتلاه يومَ بدرٍ، فقد قتل بعد شيبةَ، والوليد: العاصَ بن سعيد بن العاص، وعامر بن عبدالله النمري، وطعيمة بن عدي بن نوفل، وزمعة بن الأسود بن المطلب، ونوفل بن خُويْلد بن أسد وهو أخو أم المؤمنين خديجة ـ وكان من شياطين قريش ـ، وعقيل بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث قتله صَبْرًا بعد المعركة، وعُمير بن عثمان بن عمرو،

(١) أخرجه البخاري (٣٩٦٥)، وعزاه المزي للنسائي.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٦٥)، وأحمد (١/١١٧).

ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة، وأبا قَيس بن الفاكهة بن المغيرة، وحاجِبَ بن السائب بن عُوَيْمر، وعبدالله بن المنذر بن أبي رفاعة، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجَّاج، وأَوْس بن مِعْيَرَ بن لَوْذَان؛ خمسة عشَرَ رجلًا قتلهم حَيْدَرَةُ.. علي بن أبي طالب في يوم بدر.

عن أبي إسحاق: «**سأل رجل البراء ـ وأنا أسمع ـ قال: أَشَهِدَ عليٌّ بدرًا؟ قال: بارز وظاهر**[1]»[2].

❑ وفي أحد:

ثبت علي رضي الله عنه مع النبي ثبات الأبطال، وقتل علي أبا أمية بن حذيفة بن المغيرة، وعبدالله بن حميد بن زهير.

❑ قتل عليٍّ لعمرو بن عبد ود فارس قريش في يوم الأحزاب:

كان عمرو بن عبد ود العامري كبش الكتيبة؛ قد حضر معركة بدر الكبرى، وذاق مرارة الهزيمة بعد أن جرح في المعركة، فنذر أن لا يَمَسَّ رأسه دُهنًا حتى يقتل محمدًا؛ ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخنْدق نحو المسلمين، ومعه فوارس من قريش، وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تُعْنِق[3] نحوهم.

قال ابن إسحاق: «كان عمرو بن ود العامري ـ وهو كبش الكتيبة ـ قد قاتل يوم بدرٍ حتى أثبتتْهُ الجراحةُ فلم يشهد أُحُدًا، فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلَمًا ليُرَى مكانُه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فبرز إليه علي بن أبي طالب».

وعند البيهقي في «**دلائل النبوة**»: «خرج عمرو بن عبد ود وهو مُقنَّع بالحديد، فنادى: مَنْ يبارز؟ فقام علي بن أبي طالبٍ فقال: أنا لها يا نبي الله. فقال: «**إنه عمرو، اجلسْ**»، ثم نادى عمرٌو: ألا رجلٌ يبرز؟ فجعل يُؤنِّبهم ويقول: أين جنتكم التي

---

(١) ظاهر: أي لبس درعًا على درع.
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧٠).
(٣) تُعْنِقُ؛ أي: تُسرع.

تزعمون أنه مَنْ قُتل منكم دخلَهَا، أفلا تبرزون إليَّ رجلًا؟! فقام عليٌّ فقال: أنا يا رسول الله. فقال: «اجلسْ»، ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بُححْتُ من النداء ... لجَمْعِهم هلْ منْ مُبارِزْ
ووقفتُ إذْ جَبُنَ المشجَّعُ ... موقِفَ القرنِ المناجِزْ
ولذاك إني لم أزلْ ... متسرِّعًا قبلَ الهزَاهِزْ
إنّ الشجاعةَ في الفتى ... والجود من خيْرِ الغرائِزْ

قال: فقام عليٌّ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أنا. فقال: «إنه عمرٌو»، فقال: وإن كان عمرًا. فأذن له رسول اللّٰه ﷺ، فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

لا تعْجلنّ فقدْ أتاكَ ... مُجيبُ صَوْتِكَ غيرُ عاجزْ
في نيّةٍ وبصيرةٍ ... والصدقُ مَنْجَى كلِّ فائزْ
إني لأرجُو أن أُقيـ ... ـمَ عليكَ نائِحَةَ الجنائِزْ
مِن ضربةٍ نجلاءَ يَبْـ ... ـقَى ذكرُها عندَ الهزاهُز[1]

ولما مشى علي إلى عمرو ليبارزه قال له: يا عمرُو، إنك كنتَ تقول: لا يدعوني أحدٌ إلى واحدةٍ من ثلاثٍ إلا قبلتُها. قال له: أجل. فقال له: إني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول الله، وتُسلِمَ لرب العالمين. فقال عمرو: يابن أخي، أخِّرْ عني هذه. قال علي: وأخرى: ترجع إلى بلادك، فإنْ يكُ محمد رسول اللّٰه صادقًا كنت أسعد الناس به، وإن يكُ كاذبًا كان الذي تريد. فقال عمرٌو: هذا ما لا تتحدث به نساءُ قريش أبدًا، كيف وقد قدرتُ على استيفاءِ ما نذرتُ؟! ثم قال عمرٌو: فالثالثة، ما هي؟ فقال علي: البرازُ. فضحك فارسُ قريش عمرٌو - وكان فارسًا مشهورًا مُعَمَّرًا قد جاوز الثمانين -، ثم قال لعليٍّ: إن هذه الخصْلة ما كنت أظنُّ أحدًا من العرب يروِّعني بها. ثم قال لعليٍّ: مَنْ أنت؟ قال له: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟ فقال عليٌّ: أنا علي بن أبي طالب. فقال عمرٌو: يا ابن أخي مِنْ أعمامك مَن هو أسنُّ

---

(١) الهزاهز: الحروب والشدة.

منك؛ فواللهِ ما أحب أن أقتلك. فقال علي: ولكني ـ واللَّه ـ أحبُّ أن أقتلك. فعند ذلك غَضِبَ عمرٌو غضبًا شديدًا، ونزل فسل سيفَه، كأنه شُعْلةُ نارٍ، ثم أقبل نحو عليٍّ مُغضَبًا، واستقبله عليٌّ بدَرَقَته فضربه عمرو في دَرَقَته فقدها، وأثبت السَّيْف فيها، وأصابَ رأسَه فشجه، وضربه عليٌّ على حبل عاتِقِه فسقط، وثار العَجَاجُ، وَسَمِعَ رسول اللَّه ﷺ التكبير، فعرف الناس أنَّ عليًا قد قتل عمرًا، فثمَّ يقول عليٌّ:

أعليَّ تقتحم الفوارسَ هكذا ... عني وعنهم أخروا أصحابي

اليوم يمنعني الفرارَ حفيظتي ... ومُصَمّمٌ في الرأسِ ليسَ بنابي

وألقى عكرمة رمحه يومئذٍ وهو منهزم عن عمرو، فقال حسان بن ثابت:

فـر وألــقـى لـنـا رمـحَـه ... لـعـلَّـك عِـكْـرِمُ لم تـفـعـلِ

ووليْت تعدو كعدْو الظّليـ ... ـم ما أن يحور عن المعدِلِ

ولم تـلـوِ ظـهـرك مستأنسًا ... كأنَّ قـفـاك قـفـا فَـرْعَـلِ[1]

قال عمر بن الخطاب: هَلا استلبت درعَه، فإنه ليس للعرب درعٌ خير منها. فقال: ضربته فاتقاني بِسَوْءَتِهِ فاستحيَيْتُ ـ ابنَ عمي ـ أن أسلبه.

وبعث المشركون إلى رسول اللَّه ﷺ يشترون جيفتَه بعشرة آلافٍ، فقال: «**ادفعوا إليهم جيفتَهُ؛ فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية**»، فلم يقبل منهم شيئًا.

❑ عليٌّ رضي الله عنه صاحب الراية يوم خَيْبَر الذي يفتح اللَّه عليه:

عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم خيبر: «**لأُعطينَّ هذه الراية رجلًا يحب اللَّه ورسوله، يفتح اللَّه على يديْه**». قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ. قال: فتساورت لها رجاءَ أن أُدْعَى لها. قال: فدعا رسول اللَّه ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأعطاه إياها. وقال: «**امش ولا تلتفتْ، حتى يفتح اللَّه عليك**»، فسار عليٌّ شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول اللَّه على ماذا أقاتلُ الناس؟ قال: «**قاتِلْهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك**

(١) الفرعل: صغار الضباع.

دماءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابُهم على الله»[١].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم خيبر: «**لأعطينّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح اللَّه على يديْه، يحبُّ اللَّه ورسوله ويحبُّه اللَّه ورسوله**»، قال: فبات الناس يدركون ليلتهم، أيُّهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوْا على رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**» فقيل: هو يا رسول اللَّه يشتكي عينيْه.

قال: فأرسَلوا إليه فأتي به، فبصق رسول اللَّه ﷺ في عينيْه ودعا له، فبرأ حتى كأنَّه لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ اللَّه فيه، فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**»[٢].

وعند البخاري عن سلمة، قال: «كان عليٌّ قد تخلَّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان به رمدٌ، فقال: أنا أتخلَّف عن رسول اللَّه ﷺ؟! فخرج عليٌّ فلحِقَ بالنبي ﷺ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها اللَّه في صباحها، قال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ: «**لأُعطينَّ الراية ـ أو ليأخذنَّ الراية ـ غدًا رجلًا يحبُّه اللَّه ورسوله ـ أو قال: يحبُّ اللَّه ورسوله ـ يفتح اللَّه عليه**»، فإذا نحن بعلي، وما نرجوه، فقالوا: هذا علي. فأعطاه رسول اللَّه ﷺ الراية، ففتح اللَّه عليه»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٥)، وأخرجه أحمد (٢/٣٨٤)، وفي (الفضائل) (١٠٣٠، ١٠٣١)، والنسائي في (الخصائص) (١٨، ١٩، ٢٠)، والقطيعي في (زيادات الفضائل) (١٠٤٤، ١٠٥٦، ١١٢٢)، والطيالسي (٢٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦)، والنسائي في (فضائل الصحابة)، وأحمد في (المسند) (٥/٣٣٣)، وفي (فضائل الصحابة) (١٠٣٧)، والنسائي في (الخصائص) (١٦)، وأبو يعلى (١/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٠٢)، ومسلم (٢٤٠٧).

وعن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول اللَّه ﷺ أخذ الراية فهزَّها، ثم قال: «**مَنْ يأخذها بحقِّها؟**» فجاء فلان فقال: أنا. قال: «**أمط**»، ثم جاء رجلٌ فقال: «**أَمِطْ**»، ثم قال النبي ﷺ: «**والذي كَرَّم وجهَ محمدٍ، لأعطينَّهَا رجلًا لا يفرُّ، هاك يا عليُّ**»، فانطلَقَ حتى فتح اللَّه عليه خيبر وفَدَك، وجاء بعجْوتهما وقديدهما[١].

وفي حديث سلمة بن الأكْوع عند مسلم: «ثم أرسلني رسول اللَّه ﷺ إلى عليٍّ وهو أرمد، فقال: «**لأُعطينَّ الراية رجلًا يحبُّ اللَّه ورسوله، أو يحبه اللَّه ورسوله**». قال: فأتيتُ عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد، حتى أتيتُ به رسول اللَّه ﷺ، فبصق في عينيْه فبرأ، وأعطاه الراية، وخرج «**مرحب**» فقال:

قد علمتْ خيبرُ أني مرحَبُ ... شاكي السلاح بطلٌ مجربُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تلهَّبُ

فقال عليٌّ:

أنا الذي سمَتْني أُمي حَيْدَرهْ[٢] ... كلَيْثِ غاباتٍ كريهِ المنْظَرهْ
أُوفِّيهمْ بالصاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

قال: فضرب رأسَ «**مرحب**» فقتله، وكان الفتح على يديْه»[٣].

ومَرْحب هذا: فارس فرسان اليهود، وكان مكتوبًا على سيفه بالعبرية:

هذا سَيفُ مَرحَبْ ... من يذُقهُ يعطبْ

فضربه عليٌّ فقدَّ الحجر والمغفر رأسَه، ووقع السيف في الأضراس.

وقبله قتل علي أخا مَرحَب، وهو الحارث، وبارز عليٌّ قائدًا يهوديًّا ـ بعد مبارزة الزبير لياسر ـ وكان هذا القائد الفارس يُسمَّى عامرًا، فقتله عليٌّ أمام الحصن، قال رسول اللَّه ﷺ حين طلع عامرٌ: «**ترَوْنه خمسةَ أذرع؟**» وكان طويلًا جسيمًا، فلما دعا

(١) **حسن**: أخرجه أحمد في (المسند) (٣/١٦)، وأخرجه أحمد في (فضائل الصحابة) (٩٨٧، ١٠٥٤).
(٢) حيدَرَة: الأسد.
(٣) أخرجه مسلم (١٨٠٧).

للبراز، وخطر بسيفه، وعليه دِرعانِ، وهو مُقَنَّعٌ في الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه، فبرز إليه عليٌّ فضربه ضرباتٍ، كل ذلك لا يصنعُ شيئًا، حتى ضرب ساقيْه فبرك، ثم ذفَّف[1] عليه فأخذ سلاحه»[2].

وفتح اللَّه على يد عليٍّ بن أبي طالب حصن «**ناعم**» أقوى حصون خيبر.. فيا لعليٍّ مِن حَيْدَرة!!

وعن البراء قال: بعث النبي ﷺ جيشين وأمرَّ على أحدهما علي بن أبي طالب، وعلى الآخر خالد بن الوليد، وقال: إذا كان القتال فعليٌّ، قال: فافتتح عليٌّ حصنًا فأخذ منه جارية، فكتب معي خالد كتابًا إلى النبي ﷺ يَشي به، قال: فقدمت على النبي ﷺ فقرأ الكتاب فتغير لونه، ثم قال: «**ما ترى في رجل يحب اللَّه ورسوله ويحبه اللَّه ورسوله**»، قال: قلت: أعوذ باللَّه من غضب اللَّه وغضب رسوله الله، وإنما أنا رسول. فسكت»[3].

«وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: «**لأعطين الراية رجلًا يحبه اللَّه ورسوله ـ أو قال: يحبه اللَّه ورسوله**»، فدعا عليًا وهو أرمد ففتح اللَّه على يديه»[4].

وعن جابر بن عبداللَّه رضي الله عنه قال: «كان أمام هوازن رجل جسيم على جمل أحمر في يده راية سوداء، إذا أدرك طعن بها، وإذا فاته شيء من بين يديه دفعها من خلفه فأنفذه، فصمد له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار كلاهما يريده، قال: فضربه عليٌّ على عرقوبيْ الجمل فوقع على عَجُزِه. قال: وضرب الأنصاري ساقه. قال فطرح قدمه بنصف ساقه فوقع واقتتل الناس»[5].

---

(١) ذفّف عليه؛ أي: أجهز عليه.

(٢) موسوعة الغزوات الكبرى (خيبر)، لمحمد أحمد باشميل ص (١٢٢).

(٣) **صحيح بشواهده**: أخرجه الترمذي (٣٧٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢١٦٨).

(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي في (الخصائص) (٢١) وفي (فضائل الصحابة) (٤٧).

(٥) **حسن**: أخرجه أبو يعلى (٣/٣٨٨)، وأحمد (٣/٣٧٦).

❑ **السرايا التي بعثها النبي ﷺ تحت إمرة علي رضي الله عنه:**

هذه السرايا تدل على شجاعة عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقيادته الفذة:
ولذا اختاره النبي قائدًا على هذه السرايا:

سرية علي بن أبي طالب إلى فَدَك في السنة السادسة من الهجرة:

هذه السرية كانت مكونة من مئة رجل على رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه أرسلها النبي إلى فَدَك إلى بني سعد بن بكر في شعبان من السنة السادسة من الهجرة، وكان قائد الأعداء هو رئيس القبيلة، وكانت النتيجة إحباط حشدهم مددًا ليهود خيبر، فهرب بنو سعد، وخلفوا خمس مئة بعير وألفي شاة غنمها المسلمون[١].

سرية علي بن أبي طالب إلى الفلْس صنم طيئ في السنة التاسعة من الهجرة:

أرسل النبي ﷺ هذه السرية من مئة وخمسين رجلًا بإمرة علي بن أبي طالب على مئة وخمسين بعيرًا إلى محلة آل حاتم الطائي بأرض طيئ على جبلهم «**أجأ**» في ربيع الآخر من السنة التاسعة إلى الفلْس صنم طيئ، وكان قائد المشركين عدي بن حاتم الطائي قبل إسلامه، وهدم علي بن أبي طالب الفُلْس وعاد بالسبي والنَّعم والشاء[٢].

سرية علي بن أبي طالب إلى مَذْحِج في رمضان من السنة العاشرة:

وكانت قوة السرية ثلاث مئة فارس إلى مَذْحِج باليمن، وقاتلهم علي وانتصر عليهم، وغنم منهم النَّعَم والشاء وأسر الأسرى، ثم أعلنوا إسلامهم[٣].

❑ **قتال علي للمتأولين والمارقين والمبتدعة من الخوارج كلاب أهل النار:**

قال رسول الله ﷺ: «**الخوارج كلاب أهل النار**»[٤].

---

(١) قادة النبي ﷺ لمحمود شيت خطاب ص (٦٥١).
(٢) المصدر السابق ص (٦٥٥).
(٣) المصدر السابق ص (٦٥٦).
(٤) **صحيح**: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم عن ابن أبي أوفى، وأخرجه أحمد والحاكم عن أبي أمامة، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٣٣٤٧)، و(تخريج المشكاة) (٣٥٥٤).

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: كنا جلوسًا ننتظر رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه فانقطعت نعله فتخلَّف عليها علي يخصفها، فمضى رسول اللَّه ﷺ ومضينا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه، فقال: «**إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن؛ كما قاتلت على تنزيله**» فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر فقال: «**لا، ولكنه خاصف النعل**»، قال: فجئنا بنشره، قال: وكأنه قد سمعه[١].

وعن زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي ﵁ الذين ساروا إلى الخوارج.

فقال علي ﵁: أيها الناس إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمية**»، لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قُضي لهم على لسان نبيهم ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ لاتَّكلوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلًا له عضد، وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض، فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخْلفونكم في ذراريكم وأموالكم، واللَّه إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله. قال سلمة بن كهيل: فنزَّلني زيد بن وهب منزلًا حتى قال: مررنا على قنطرة فلما التقينا وعلى الخوارج يومئذٍ عبداللَّه بن وهب الراسبي، فقال لهم: ألقوا الرماح وسُلُّوا سيوفكم من جفونها فإني أخاف أن يناشدونكم كما ناشدوكم يوم حروراء. فرجعوا فَوَحَّشوا برماحهم وسَلُّوا السيوف وشجرهم الناس برماحهم، قال: وقُتِل بعضهم

---

(١) **حسن**: رواه أحمد في (مسنده) (٨٢/٣)، وله شاهد عند الترمذي (٣٧١٥) من حديث علي بن أبي طالب ﵁ مرفوعًا.

على بعض، وما أصيب من الناس يومئذٍ إلا رجلان، فقال لهم علي رضي الله عنه: التمسوا فيهم المخدج. فالتمسوه فلم يجدوه، فقام علي رضي الله عنه بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتِل بعضهم على بعض، قال: أخروهم. فوجدوه مما يلي الأرض، فكبر ثم قال: صدق اللَّه وبلَّغ رسوله، قال: فقام إليه عبيدة السَّلْماني فقال: يا أمير المؤمنين: اللَّه الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ؟ فقال: أي واللَّه الذي لا إله إلا هو. حتى استحلفه ثلاثًا وهو يحلف له»[١].

وعن علي رضي الله عنه: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يأتي في آخر الزمان قوم حُدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة**»[٢].

وفي أكثر روايات الصحيحين: «**فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا**».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول اللَّه ﷺ وهو يقسم قسمًا؛ إذ أتاهُ ذو الخويصرة ـ وهو رجل من بني تميم ـ، فقال: يا رسول اللَّه اعدل. فقال: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل**»، فقال عمر: يا رسول اللَّه ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: «**دَعْه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يُنظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظر إلى رِصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيه ـ وهو قدحه ـ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيَتُهُمْ رجل أسود**

---

(١) أخرجه مسلم ص (٧٤٨)، وأبو داود (٤٧٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦)، وأبو داود (٤٧٦٧)، والنسائي (١١٩/٧)، وأحمد (٨١/١، ١١٣، ١٣١) وفي (الفضائل) (١١٩٨)، وأبو يعلى (٢٢٥/١، ٢٢٦)، والنسائي في (الخصائص) (١٧٣، ١٧٤).

إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البَضْعة تدردر، ويخرجون على حين فُرقة من الناس». قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتُمِس فأُتِيَ به حتى نظرت إليه على نعت النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ الذي نَعَتَه»[1].

وقال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ: «**إن من ضئضئ**[2] **هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز**[3] **حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون**[4] **أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[5].

وقال ﷺ: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم؛ يتلون كتاب اللَّه رطبًا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**»[6].

اجتمع الخوارج بعضهم إلى بعض في منزل عبداللَّه بن وهب الراسبي في الكوفة، وقال عبداللَّه بن وهب الراسبي: «**اخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أَهْلُهَا إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن، منكرين لهذه البدع المضلة**»، وقال حمزة بن سنان الأسدي: «**وَلُّوا أَمْرَكُمْ رجلًا منكم؛ فإنه لا بد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون إليها**»، فتولى عبداللَّه بن وهب القيادة، وتقرر الخروج إلى جسر النهراون، والكتابة إلى خوارج البصرة للانضمام إليهم، فاستجاب لهم خمس مئة من

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤)، وعزاه المزي للنسائي، وأخرجه ابن ماجه مختصرًا (١٦٩)، وأحمد (٣/٥٦).

(٢) أي: صلبه ونسله.

(٣) يتعدَّاها.

(٤) أي: يسالمونهم، من الموادعة.

(٥) **صحيح**: رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي سعيد.

(٦) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي سعيد.

خوارج البصرة، تولى قيادتهم مسعر بن فدكي التميمي، والتحق بهم آخرون، وهددوا أمن البلاد بشكل خطير، فلم يعد باستطاعة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه تجاهلهم.

كانت خوارج الكوفة قد سبقت إلى «**جسر النهر**»، وأقامت معسكرها هناك، ثم سارت خوارج البصرة للانضمام إلى خوارج الكوفة، وعندما اقتربت من النهر، خرجت عصابة منهم، فإذا هم برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه، فدعوه فتهددوه وأفزعوه، وقالوا له: من أنت؟

قال: أنا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ.

ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض ـ وكان سقط عنه لما أفزعوه ـ فقالوا له: أفزعناك؟ قال: نعم. قالوا له: لا روع عليك! فحدثنا عن أبيك بحديث سمعه عن رسول الله ﷺ، لعل الله ينفعنا به! فقال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ قال: «**تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي فيها مؤمنًا ويصبح فيها كافرًا، ويصبح فيها كافرًا ويمسي فيها مؤمنًا**»، فقالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيرًا، وعادوا فسألوه: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقًّا في أولها وفي آخرها. وسألوه: فما تقول في عليٍّ قبل التحكيم وبعده؟ فرد عليهم عبدالله بن خباب: «**إنه أعلم بالله منكم، وأشد توقيًا على دينه، وأنفذ بصيرة**»، فقالوا له: «**إنك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدًا**»، فأخذوه، فكتفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متمٌّ حتى نزلوا تحت نخل قد كَثُرَ حمله فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم فقذفها في فمه، فقال له أحدهم: بغير حِلِّها أخذتها وبغير ثمن. فلفظها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه، فمر به خنزير لأهل الذمة، فضربه بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير، فأرضاه من خنزيره، فلما رأى ذلك منهم عبدالله بن خباب، قال: «**لئن كنتم صادقين فيما أرى فما عَلَيَّ منكم بأس، إني لمسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثًا، ولقد أمنتموني عندما قلتم: لا روع عليك!**»، فجاءوا به

فأضجعوه فذبحوه، وسال دمه في الماء، وأقبلوا إلى المرأة، فقالت: «**إني إنما امرأة، ألا تتقون الله!**»، فبقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيئ، وقتلوا أم سنان الصيداوية.

علم أمير المؤمنين علي بما فعله الخوارج، فأرسل إليهم الحارث بن مرة العبدي لمعرفة حقيقة ما حدث، فلما جاء الحارث إلى الخوارج قتلوه، وأتى الخبر أمير المؤمنين والناس، وأرسل علي رضي الله عنه إلى الخوارج: «**ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام، فلعل اللَّه يقلب قلوبكم، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم**»، فبعثوا إليه ردهم: «**لكنا قتلناهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم**».

ولما خرجت الخوارج على عليٍّ وكانوا ثمانية آلافٍ من قُرَّاء الناس، ونزل بحروراء فناظرهم علي، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبداللَّه بن الكواء، فبعث عليٌّ إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا، فأرسل إليهم: كونوا حيث شئتم، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمً حرامًا، ولا تقطعوا سبيلًا، ولا تظلموا أحدًا، فإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب.

قال عبداللَّه بن شدَّاد: فواللَّه ما قتلهم حتى قطعوا السبيل، وسفكوا الدم الحرام، وذلك بقتلهم عبداللَّه بن خباب بن الأرت، وبقروا بطن سُرِّيَّتِهِ.

«وفي «**الأوسط، للطبراني**»: عن جندب بن عبداللَّه البجَلي، قال: لما فارقت الخوارجُ عليًا، خرج في طلبهم، فانتهينا إلى عسكرهم، فإذا لهم دَوِيٌّ كدويِّ النحل من قراءة القرآن، وإذا فيهم أصحاب البرانِس. أي: الذين كانوا معروفين بالزهد والعبادة. قال: فدخلني من ذلك شِدَّة، فنزلتُ عن فرسي، وقمتُ أصلي، فقلتُ: اللهمَّ إنْ كان في قتال هؤلاء القوم لك طاعة فائذنْ لي فيه، فمرَّ بي عليٌّ، فقال لما حاذاني: تعوَّذْ باللَّه من الشكِّ يا جندب. فلما جئتُه أقبل رجلٌ على بِرْذَوْنٍ يقول: إنْ كان لك بالقوم حاجة، فإنهم قد قطعوا النهر. قال: ما قطعوه. ثم جاء آخر كذلك، ثم جاء آخر كذلك. قال: لا، ما قطعوه، ولا يقطعونه، ولَيقتلنَّ مَن دُونه عهدٌ من اللَّه

ورسوله. قلتُ: اللَّه أكبر. ثم ركبنا فسايرته، فقال لي: سأبعث إليهم رجلًا يقرأ المصحف يدعوهم إلى كتاب اللَّه وسنة نبيهم، فلا يُقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبْل، ولا يقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة. قال: فانتهينا إلى القوم، فأرسل إليهم رجلًا فرماه إنسان، فأقبل علينا بوجهه فقعد، وقال علي: دونكم القومَ. فما قُتل منَّا عشرة ولا نجا منهم عشرة».

وفي رواية زيد بن وهب: «فقال عليٌّ: الْتمسوا فيهم المُخْرَج. فالتمسوه فلم يجدوه، فقام عليٌّ بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتل بعضُهم على بعضٍ، قال: أخِّروهم. فوجده ممَّا يلي الأرض، فكبَّر، ثم قال: صدَقَ اللَّه وبلَّغ رسولهُ».

وفي رواية عبيداللَّه بن أبي رافع: «فلمَّا قتلهم عليٌّ قال: انظروا. فنظروا، فلم يجدوا شيئًا، فقال: ارجعوا؛ فواللَّه ما كُذِبت، ولا كَذبتُ. مرتين أو ثلاثًا، ثم وجدوه في خَرِبة، فأتوا به حتى وضعوه بين يديْه»، [أخرجها مسلم].

وفي رواية للطبري من طريق زيد بن وهب: «فقال عليٌّ: اطلبوا ذا الثدية. فطلبوه فلم يجدوه، فقال: ما كُذبتُ ولا كَذبتُ، اطلبوه. فطلبوه، فوجدوه في وَهْدةٍ من الأرض، عليه ناس من القتلى، فإذ رجل على يده مثل سبلات السِّنَّور، فكبَّر عليٌّ والناس، وأعجَبَه ذلك»[1]. وفرح الناس حين رأوه واستبشروا وذهب عنهم ما كانوا يجدونه.

وفي رواية أخرى: «تَوَجَّهَ قيس بن سعد بن عبادة في محاولة لتجنب سفك الدماء، وخاطب الخوارج فكان مما قاله لهم: عباد الله! أخرجوا إلينا طلبتنا منكم، وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتم عظيمًا من الأمر، تشهدون علينا بالشرك، والشرك ظلم عظيم، وتسفكون دماء المسلمين وَتَعُدُّونَهُمْ مشركين!. فرد عليه عبداللَّه بن شجرة السلمي: إن الحق قد

---

(١) فتح الباري (١٢/٣١٠، ٣١١).

أضاء لنا؛ فلسنا نبايعكم أو تأتونا بمثل عمر. فقال لهم سعد: ما نعلمه فينا غير صاحبنا، فهل تعلمونه فيكم؟ نشدتكم باللَّه في أنفسكم أن لا تهلكوها؛ فإني لأرى الفتنة قد غلبت عليكم!».

وخاطبهم أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، فقال لهم: «**عباد الله! إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنَّا عليها، ليست بيننا وبينكم فرقة، فَعَلَامَ تقاتلوننا؟ فقالوا: إنا لو بايعناكم اليوم حكمتم غدًا. فأجابهم أبو أيوب: أنشدكم اللَّه أن لا تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في قابل**».

وعاد أمير المؤمنين علي للتحدث إلى الخوارج فلما فشل في إقناعهم، وعجزوا عن مقارعته بالحجة والمنطق، تداعوا إلى السلاح، فكان لا بد من خوض المعركة، ولكن وقبل بدء الاشتباك رفع أمير المؤمنين علي «**راية الأمان**»، وأرسلها مع أبي أيوب الأنصاري، فقال أبو أيوب للخوارج: «**من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم**».

فقال فروة بن نوفل الأشجعي: واللَّه ما أدري على أي شيء نقاتل عليًّا، لا أرى إلا أن أنصرف حتى تنفد لي بصيرتي في قتاله أو اتِّباعه. وانصرف في خمس مئة فارس.

وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلت الكوفة، وانضم إلى أمير المؤمنين علي منهم نحو من مئة، وهكذا لم يبق من الأربعة آلاف مقاتل الذين كانوا مع «**عبداللَّه بن وهب**» سوى ألفين وثمان مئة.

كان أمير المؤمنين عليٌّ قد نظم قواته، فجعل على ميمنته حجر بن عدي، وعلى ميسرته شبث بن ربعي، - أو معقل بن قيس الرياحي -، وعلى الخيل - الفرسان - أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة - المشاة - أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة - وهم سبع مئة أو ثمان مئة رجل - قيس بن سعد بن عبادة.

وبالمقابل فقد نظم الخوارج قواتهم، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي،

وعلى ميسرتهم شريح بن أوفى العبسي، وعلى خيلهم ـ فرسانهم ـ حمزة بن سنان الأسدي، وعلى الرجالة ـ المشاة ـ حرقوص بن زهير السعدي.

وضع أمير المؤمنين عليٌّ قوة الفرسان في المواجهة، وصف الناس وراء الفرسان صفين، ووضع صفًّا ـ نسقًا ـ من الرماة أمام الصف الأول، وأصدر أمره: كفوا عنهم حتى يبدءوكم، فإنهم لو شدوا عليكم ـ وَجُلُّهُمْ من المشاة ـ لم يصلوا إليكم إلا وهم مرهقين ـ لاغبين ـ وأنتم رادون حامون.

وانطلق الخوارج بالهجوم، فتراجعت قوة فرسان أمير المؤمنين علي، ثم انقسمت إلى فرقتين؛ فرقة نحو الميمنة، وفرقة نحو الميسرة، وأقبلوا نحو نساق المشاة، فاستقبلهم الرماة بالنبل، وعطفت عليهم الخيل من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم المشاة بالرماح والسيوف، وما هي إلا جولة سريعة وخاطفة حتى أبيدت قوة الخوارج إبادة شبه تامة بعد أن أحيط بها من كل مكان، وجمع الجرحى فكان عددهم أربع مئة رجل، فأمر بهم أمير المؤمنين علي فدفعوا إلى عشائرهم، وقال: احملوهم معكم فداووهم، فإذا برئوا فوافوا بهم الكوفة، وخذوا ما في عسكرهم من شيء[1].

ومما قاله أمير المؤمنين يحضُّ على الجهاد:

«أيها الناس! استعدوا للمسير إلى عدوكم، ففي جهاده القربة إلى الله، ودرك الوسيلة عنده، حيارى في الحق، جفاة عن الكتاب، نُكُبٌ عن الدِّين، يعمهون في الطغيان، ويعكسون في غمرة الضلال، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله، وكفى بالله وكيلًا، وكفى بالله نصيرًا».

وقال: «عباد الله! ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وبالذل والهوان من العز؟ أو كلما ندبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة، وكأن قلوبكم مألوسة ـ منزوعة ـ فأنتم لا تعقلون! وكأن

---

(١) الإمام القائد، لبسام العسلي ص (١١٩ ـ ١٢١) (دار النفائس).

أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون، لله أنتم! ما أنتم إلا أسود الشرى في الدَّعة، وثعالب رواغة حين تُدعون إلى البأس، ما أنتم لي بثقة أبدًا، وما أنتم بركب يصال بكم، ولا ذي عز يعتصم إليه، لعمر الله، لبئس حُشاش الحرب أنتم، إنكم تُكادون ولا تكيدون، وينتقص أطرافكم ولا تتحاشون، ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون، إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل، وبات لذل من وادع، وغلب المتجادلون، والمغلوب مقهور ومسلوب».

فلقد أرسل علي بن أبي طالب معقل بن قيس لقتال الخرِّيت بن راشد ومن معه من الخوارج من بني ناجية وأتباعهم، فقتلوا الخريت، وقُتل معه سبعون ومئة، ومزِّق من بقي منهم شر ممزق.

لقد كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من أهل الشجاعة والإقدام، حتى قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لقد رأيته ـ يعني عليًا ـ يخطر بالسيف هام المشركين يقول: سنحنح الليل كأني جني[1].

وفي رواية أخرى لهذا الخبر قال: «**سمعمع كأنني من جني**».

❑ إذا جالت الخيل يا أبا الحسن فأين نطلبك؟

قيل لعلي رضي الله عنه: «**إذا جالت الخيل فأين نطلبك؟ قال: حيث تركتموني**»[2].

قال الأبشيهي وهو يعدد الشجعان: «منهم علي بن أبي طالب، آية من آيات الله،

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن الأثير في (أُسْد الغابة) (٩٧/٤).

يخطر: يقال: خطر بسيفه ورمحه يخطر خطرانًا: إذا رفعه مرة، ووضعه أخرى.

والهام: الرءوس.

والمعنى: أن عليًا رضي الله عنه يقول: لا أنام الليل أبدًا، فأنا متيقظ.

فالسنحنح: العريض الذي يسنح كثيرًا، وأضافه إلى الليل، على معنى أنه يكثر السنوح فيه لأعدائه، ولتعرض لهم لجلادته.

والسمعمع: السريع الخفيف، وهو في وصف الذئب أشهر.

والسمعمع: الصغير الرأس والجثة، الداهية.

(٢) المستطرف (٣١٦/١).

ومعجزة من معجزات رسول اللَّه ﷺ، مؤيَّد بالتأييد الإلهي، مثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدِّم على ذوي الشجاعة كلهم بلا مِرْية ولا خلاف، وكان يقول: والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهونُ عليَّ من موتة على فراش.

وقال بعض العرب: «ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض»[1].

❑ شجاعة أبي الحسن وثبات قلبه:

ليس أدل على شجاعة أبي الحسن رضي الله عنه وثبات قلبه من أنه حمى الدعوة في شخص نبيها ﷺ، ونام في فراشه ليلة الهجرة في أصعب ليلة مرت بها الدعوة، رجل ينام في الفراش، وهو يعلم أن على الباب رجالًا معهم سيوفهم الصوارم لا يريدون إلا رأس النائم في الفراش.. فأي شجاعة ورباط جأش يفوق هذا.

فلن ينسى النبي له صنيعًا ... عشية ودع البيت الحراما
عشية سامه[2] في اللَّه نفسًا ... لغير اللَّه تكبر أن تُساما
فأرخصها فدى لأخيه لما ... تسجى في حظيرته وناما
وأقبلت الصوارم والمنايا ... لحرب اللَّه تنتحمُ انتحاما[3]
فلم يأبه لها أنَفًا عليٌّ ... ولم تقلق بجفنيه مناما
وما زأموا الفتى ولربَّ بأسٍ ... لهم يقضي به الليث ازوئاما[4]
وأغشى اللَّه أعينهم فراحتْ ... ولم تر ذلك البدر التماما

ويرحم اللَّه من قال:

---

(١) المستطرف (٣١٤/١، ٣١٥).

(٢) سامه الشيء: طلبه منه.

(٣) الانتحام والانتهام بمعنى؛ وهو: علو النَّفَس من غضب أو خوفٍ أو نحوهما، ومنه صوت الأسد والهر الذي يشبه الغطيط.

(٤) زأمه: أفزعه، والازوئام افتعالٌ منه.

وبـــاتَ دُوِّيـــنـــهُ في الـــفـــراشِ مُـوطِّـنَ نـفْـسٍ عـلـى الأصـعـبِ

□ الراية مع علي يوم بدر، ومعه جبريل وميكال:

عقد النبي يوم بدر لواءً أبيض ودفعه إلى مصعب بن عمير، وكان أمامه رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب، والثانية مع سعد بن معاذ، وقيل: مع الحباب بن المنذر.

هـذا عـلـيٌّ في الـلـواء ومـصـعـبٌ والنـصـر في عِطفيهما يترنـحُ
حـمـلا لِـوائَـيْـهِ فـلـو صـدح الـهـدى في مشهد جللٍ لأقبل يصدحُ

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «قيل لعليٍّ[١] ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال أو قال: يشهد الصف».

يا لجلال هذا المشهد الوضيء.. وانظر إلى الحديث الآخر الذي لا يقوم لجماله أي جمال، عن هبيرة بن مريم قال: سمعت الحسن بن علي قام فخطب الناس فقال: «يا أيها الناس لقد فارقكم أمس رجل ما سبقه الأولون، ولا يدركه الآخرون لقد كان رسول اللَّه ﷺ يبعثه البعث فيعطيه الراية، فما يرجع حتى يفتح اللَّه عليه، جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره»[٢].

ما ترك بيضاء ولا صفراء إلا سبع مئة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادمًا»[٣].

---

(١) القائل: هو رسول الله ﷺ كما هو واضح في رواية أبي يعلى والحاكم.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/١٤٧)، وأبو يعلى (١/٢٨٣، ٢٨٤)، والحاكم (٣/١٣٤)، وقال: (هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، وأشار الذهبي إلى أنه على شرط مسلم، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٢١٧)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/١٢٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٠٠٢).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٢٢١١)، وأحمد (١/١٩٩)، والبزار (٢٥٧٤ـ الكشف)، والطبراني في (المعجم الكبير) (١/١٣١/١)، والنسائي في (الخصائص) رقم (٢٥) نحوه، وابن عساكر (١٢/ ١/٢١٥ - ٢).

❏ **قتل علي لأحد حملة اللواء العبدري:**

بعد أن قُتل من حملة اللواء العبدري «**لواء المشركين**» ستة من بيت واحد - وهو بيت أبي طلحة عبداللَّه بن عثمان بن عبد الدار - صُرعوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمل اللواء بعدهم - من بني عبدالدار - أرطاة بن شرحبيل فلم يمهله علي بن أبي طالب بل قتله[١].

❏ **حامل لواء المسلمين يوم بني قريظة هو علي رضي الله عنه:**

عندما اعتزم الرسول ﷺ التحرك بجيشه نحو بني قريظة أعطى اللواء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان هذا اللواء هو نفس اللواء الذي قاتل المسلمون تحته أيام الخندق، لم يُحَلَّ من ساريته[٢].

❏ **ويضرب أعناق بني قريظة بعد حكم سعد بن معاذ بضرب أعناقهم:**

لقد تولى علي رضي الله عنه والزبير - كما سيأتي ذكره فيما بعد - عملية قتل يهود بني قريظة، وتوليا قتل جميع هؤلاء الخونة في ليلة واحدة على ضوء مشاعل سعف النخل وكان عددهم ما بين ست مئة إلى سبع مئة أو ثمان مئة إلى التسع مئة.

❏ **وفي سريته إلى طيئ لهدم «الفلس» قال أحمد محرم في ديوانه «مجد الإسلام»:**

إلى طَيّئٍ يابن عمّ النبي ... إلى معشر يعبدون الصّنَمْ
إلى الفُلسِ في جُندِك الغالبين ... فلن يَلبثَ الشّركُ أن يُصطلَمْ[٣]
أضل العُقول وأعْمَى القلوب ... وأشقى النّفوسَ وهدّ الهِمَمْ
أرى طَيئًا خذلتْ ربَّها ... فما من مَلاذٍ، ولا مُعتصَمْ
فيا لكَ ربّا يذوقُ الهوان ... فيُغضى عليه ولا يَنْتقِمْ

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (أحد) ص (١٠٢).
(٢) موسوعة الغزوات (قريظة) ص (١٤٥).
(٣) اصطلم الشيء: استأصله.

مـضـى عـزُّه وانْـطَـوى مـجـده فَـزالَ الجلالُ وبَـادَ الـعـظَـمْ
وأصـبـح تـذْروه هُـوجُ الـريـاح فَـتـلـك تَـفـارِيـقُـه مـا تُـلَـم
وهـاتـيـك أسـلابُـه أطـلِـقَـتْ وكـانـت حبائـسَ منذُ الـقِـدَمْ
سُـيـوفٌ بـقِـينَ طـوال الـعُـصـور ودائـعَ لـلـوارثـيـنَ الأُمَمْ
مَلَلْن لدى الفُلسِ عهدَ الظلام فأصبحن مِيراثَ ماحي الظُّلَمْ
أضـاء الـرّسُـوبُ بـه والـيـمـانـي وأشـرقَ في راحـتَـيْـهِ الخَذِمْ
ومـا نَـظـرتْ أعـيُنُ الـدَّراعـين كـأدراعـه الـغـالـيـاتِ الـقِـيَـمْ
رَجعْـتَ بـهـا يـابـن عـمّ الـنـبـيّ وبـالـشـاء مـجـلـوبـة والـنَّـعـمْ
وبـالـسّـبْـي مُـغـتـنمًا ما رأى حُـمـاةُ المحـارم إذ يُـغْـتَـنَم

❑ **وفي سرية علي ﷺ إلى «مِذحج» قال أحمد محرم:**

بني مِذْحجٍ ما ثَمَّ من مُتردَدٌ هُو الدينُ أو حدُّ الحُسامِ المُهنَّدِ
ألا فانظروا سيفَ الإمامِ وبأسهُ ترَوْا عجبًا من مشهدٍ ليس بالدّدِ[١]
بُليتُمْ بمعقودِ اللواء على يدٍ يَشُدُّ عليها مالكُ المُلكِ باليدِ
بني مِذْحجٍ ما ظنُّكم بمُدجَّجٍ تُعممهُ للحرب كفُّ مُحمَّد
غزاكم بمن لا تَعرِفُ الحربُ غيرهم إذا انتسب الأبطالُ في كل مشهدِ
أصابوا من الأسلاب والسَّبْي ما ابْتغوا وأنتم بمنأى بين صَرْعى وهُجّدِ
فلما لَقُوكم قال صاحبُ أمرهم هوُ الحقُّ من يُؤثِرْهُ يَرشَدْ ويهتدِ
فإن تُسلِمُوا فاللَّه بيني وبينكم وإن تُعرِضُوا فالسيفُ عَضْبُ المجرَّدِ
صددتم صُدودَ الجاهلينَ وَردَّكم عنِ الحقِّ رأيٌ طائشٌ لم يُسدَّدِ
جَرى النبلُ يهوي واسْتطارَتْ حِجارةٌ تتابعُ شتّى بين مَثنى ومؤحَدِ
رمَيْتُم بها جُندَ النبيِّ وإنَّما رميتم بأحلام عَوازِبَ شُرَّدِ[٢]
مضى السيفُ يجزيكم على الشرّ مِثلهُ فلا دَمُكم بَسْلٌ ولا هُو مُعتدِ[٣]

(١) الدَّد: اللعب.

(٢) أحلام عوارب؛ أي: عقول خالية أو زاهية، من عزب: غاب وبعد وذهب.

(٣) البسل: الحرام.

فـوليـتـمُ الأدبـار وارتـدَّ جَـمـعُـكـم شرادمَ شتَّى كالشَّعاعِ المُبدَّدِ[١]
وآمنَ منـكـم معشرٌ عادَ جَدُّهـم سعيدًا ومن يرغبْ إلى اللهِ يَسْعَدِ
وجـاءوا فـقـالـوا هـذه صـدقـاتـنـا فَخُذْها بإحسانٍ وإن شئتَ فازْدِدِ
نَـديـنُ بـأنَّ الـبـرِّ لا شـيءَ مـثـلـه ونبذلُ حقّ اللهِ غيرَ مُنَكَّدِ[٢]
وأنّا لكم عَونٌ على ما وراءنا نناجزُ منهم كلَّ غاوٍ ومُفْسِدِ
ونـدعـو إلـى الإسـلام نـنـشـرُ نَـورَهُ ونُـورِدُ مـنـه قـومَـنـا خـيـر مَـورِدِ
لك الشكر فارْجِعْ يا عليّ مظفَّرًا وبَشِّرْ رسولَ اللّه يَشكُرْ ويَحْمَدِ

❑ ولله در الشاعر محمد عبد المطلب إذ يقول:

فـكـمْ طـابـت بـه لـلـحـق نـفْـسٌ بـطـيّـبـة حـين أوطـنـهـا مُـقـامـا
وكـم شـهـدتْ لـه الـزَّوراء يـومـا وكـم حـمـد الحنيفُ له مَقَاما
فـسـائـل في المواطـن عـن فـتـاهـا إذا حَبكَتْ عواصفُهَا القتَاما[٣]
إذا لمعـتْ سـيـوفُ الـلّـه فيهـا تَـقُـطُّ خَـواصـرًا وتَـقُـدُّ قـامـا[٤]
وخـيـل الـلَّـه في الجلبـات شعـثٌ تدكُّ السهلَ أو تطسُ الرضاما[٥]
سـل الـرايـات كـمْ رَاءتْ عـلـيًّـا يصرف تحتها الجيشَ اللهاما[٦]
كـأنـي بـابـن عـتـبـة يـوم بـدر يُعاني تحت مجْثَمه جُثاما[٧]
ولـو عـلـم الـولـيـد بمنْ سيـلـقـى لألقَى قبل مصرعه السلاما
زُوَيْـد بـنـي ربـيـعـة قـد ظـلَـمْـتُـم بنـي الأعـمـام والـرَّحـم الحراما
وصـلـنـاكُـمْ بـهـا وقـطـعـتـمـوهـا فكان الحزمُ أن تَردوا الحمَاما

(١) شرادم: جماعات ممزقة، والشعاع المتفرق من كل شيء.
(٢) المنكد: القليل العسر.
(٣) القتام: الغبار.
(٤) الخواصر: جمع خاصرة. والقام: القامات.
(٥) الجلبة: صوت الناس في الحرب ونحوها. وشعث: جمع أشعث؛ أي: أغبر. وتطس: تضرب بحوافرها. الرضام: الحجارة.
(٦) راءت: رأت. واللهام: الغزير.
(٧) ابن عتبة: هو الوليد، وهو قرن علي يوم بدر. والجثام ـ بالضم ـ: الكابوس.

فهل ينسون للفرقان يومًا ... سقاهُمْ من صوارمنَا سماما[١]
لقد ظنوا بنا الظنونَ فخابُوا ... وكان عليهمْ يومًا عُقاما[٢]
وهل وجدُوا كفتيتهم عليًّا ... إذا لَبسُوا القَوانس والعماما[٣]
وما صهْر النبي إذا تنادوا ... كمن يدعُو ربيعة أو هشاما
ومن تُهدي البتولُ له عروسا ... بَنى في النَّجْم بيتًا لا يُسَامى

❑ يوم أحد

فسائلْ عنه في أحُد العَوالي ... وقد حَلك العَجَاجُ بها وآما[٤]
وجاءت في زمازمها قريش ... يهزُّون المثقِّف والهُذاما[٥]
فقَطر كبشَها وهوى صريعًا ... على الدّقعَاء يلتهم الرَّغَامَا[٦]
هوى من تحت رايتهم فخرت ... بأم الأرض ترتطمُ ارتطاما[٧]
وحطّم غمْدَهُ وهَوى إليهم ... هُوي الباز يعتبطُ الحمَاما[٨]
فطاروا عن مواقفهم شَغَاعًا ... وطاحُوا في مصارعهم حُطاما[٩]
وألفى ثمَّ أحمد في رحاها ... بجند الكفر يصطدمُ اصطداما

❑ يوم الخندق

فذاك ولَوْ ترى إذ جاب قوم ... على الإسلام خندقه اقتحاما

---

(١) الفرقان: يوم بدر.

(٢) يوم عُقام ـ بالضم ـ: شديد.

(٣) القوانس: جمع قونس؛ وهو: أعلى البيضة، مجاز فيها. والعمام: جمع عمامة.

(٤) حلك: أسود. والأوام والإيام: الدخان، وآم فعل منه.

(٥) الزمازم: جمع زمزمة ـ بالفتح ـ؛ وهي: الصوت البعيد ذو الدوي. والمثقف: الرمح. والهذام ـ بالضم ـ: السيف.

(٦) قطر الفارس: صرعه. والكبش: حامل اللواء، وكان من بني عبد الدار في أحد. والدقعاء: الأرض. والرغام: التراب.

(٧) أم الشيء: أصله. وارتطم: اصطدم؛ كارتضم، يقال: أم رأسه، والمجرة أم النجوم، ونحوه كثير.

(٨) اعتبطه الموت: غشيه.

(٩) طاروا شَغاعًا ـ بالفتح ـ: تفرقوا مع التلاشي. وطاحوا: هلكوا. والحطام: الكُسَارة.

وأقبل في لباس البأس عَمْرُو يزيدُ على مخيلته عُمَرانا
يدافع نفسه ولها غطيطٌ حَذَارَ الموت تنتهمُ انتهاما
ردى حسبي هَنَاةٌ يوم بدر بها ألبستني ذمًّا وذاما[1]
لقد أكلت نساء الحي عرضي فلا لحمًا تَركْن ولا عظاما
ملأنَ بطاحَ مكة بي حديثا مسحْنَ به مناقبي القدما[2]
فثارو للأسنة والمواضي ودوي الهوْلُ بينهُمُ ودَاما[3]

❑ قتله مَرْحَبَ بن منسية

أقبل مرْحَبُ في البأس يحبو وكان البأس صاحبه الأزاما[4]
يميلُ إذا انتمى صَلَفًا وكبرًا كراكب لجة يشكو الهُدَاما[5]
ألم أكُ مرحبًا يوم التنادي إذا ما الليثُ من فزَع ألاما[6]
ألست لآل إسرائيل غوثا إذا نَشَدوا بي البطل الهُذَاما[7]
وما علم الفتى أنَّ المنايا خَططْنَ بذي الفقار له مَناما
وأن له من الكرار يوما عَبُوسَ الجو يحتبكُ الإياما[8]
سلا ابن الخيبرية يوم وافى وليت اللَّه يرقُبهُ رَعَاما[9]
ضفا خَلَقُ الحديد عليه مَثْنَى وظاهَرَ فوق بيْضته الرخاما[10]

---

(١) الدام: العيب.
(٢) القدام ـ بالكسر ـ: جمع قديم.
(٣) دوّى بالتضعيف لا غير. ودام: استمر.
(٤) الصحب الأزام ـ بضم الهمزة ـ: الملازم.
(٥) الصلف: كالكبر. والهدام ـ بالضم ـ: دوار البحر.
(٦) ألام: فعل ما يلام عليه.
(٧) الهذام: الشجاع.
(٨) الإيام ـ بالكسر ـ: الدخان. واحتبك: عقد.
(٩) المراد به مرحب بن منسية المشار إليه. والرَّعَام ـ بالفتح ـ: حدة النظر.
(١٠) ضف: سبغ وطال. وظاهر بين الدرعين: جعل بطن إحداهما على ظهر الأخرى؛ أي: لبسها فوقها. جاء مرحب إلى علي، وقد لبس درعين، وتقلد سيفين ورمحين، ولبس فوق البيضة أخرى من الرخام.

ولم أر قبل مَرْحب من كميّ ... يُثَنى في الوغى يفا ولاما[١]
فشد على الإمام بذي سطام ... نضاهُ لكل جاحمة سطاما[٢]
فزال مَجنّ حيدر لا لوَهْن ... ولا ضعفتْ لحمله سُلَامى[٣]
ومال بطرفه فإذا رتاجٌ ... هناك تخالُهُ جبلًا تسامى[٤]
فسلْ يُسراه كيف تلقفتْهُ ... وقد أعْيا تحمّلُهُ الفئاما[٥]
يُقبله بها ترسًا ويغشى ... بيمنا الفتى مرنا زؤاما[٦]
يُقبله بها ترسًا ويغشى ... بيمناهُ لعادَ بها هَيَاما[٧]
فلم يعصمه من حينْ رُخام ... ولم يجد الحديدَ له عصاما
وليس أخو اللثام وإن تزكى ... لسيف اللّه في الهيجا لثاما[٨]
رأى ابن الخيبرية كيف لاقى ... بحيدر ذلك الأسد الرزاما[٩]
وعادت خيبرُ للّه فيئًا ... يُقَسّمُ في كتائبه اقتساما[١٠]

☐ زعامته في المواطن

فدع عنك المواطنَ والمغازي ... ومن سلَ الظُبا فيها وشاما[١١]

---

(١) اللَّامُ بتسهيل الهمزة: جمع اللَّأْمَةِ؛ وهي: أداة الفارس وشكته.

(٢) السطام الأولى: حد السيف، والثانية: ما يُقلَّبُ به الحداد نار الكير. ونضاه: جرده.

(٣) السلامى: أصول الأصابع في الراحة.

(٤) الرِّتاجُ ـ بالكسر ـ: الباب العظيم.

(٥) لفئام ـ بالكسر ـ: الجماعة من الناس. (٦) الزؤام ـ بالضم ـ: الشديد.

(٧) رضوى: جبل. والْهَيَام ـ بالفتح ـ: الرمل المهيل.

(٨) لئام الأولى: جمع لئيم، والثانية: المثلُ.

(٩) الرَّزام ـ بالفتح ـ: البروك على فريسته.

وحاصل القصة: أن مرحبًا لمَّا اشتد على الإمام، طار مجنُهُ من يده؛ فمال إلى باب كبير هناك، لم يستطع حمله بعد ذلك إلا سبعون رجلًا، وتترس به لمرحب، ثم صعقه بالسيف صعقةً فَلَقَ بها البيضتين، وما وقف السيف إلا في فكه الأسفل، وَخَرَّ صريعًا، وكان قد رأى في رُؤًى في المنام أن ليثًا افترسه، فلما سمع عليًّا يقول: (أنا الذي سمتني أمي حيدرة)، تحقق تأويل رؤياه.

(١٠) الفيء: المغنم.

(١١) شَامَ السيف: هنا أغمده، فهو ضد.

فَجبه لـلطغَاة بها وجوها ... وجَدَع للضلال بها حثاما[(١)]
ومن أجرى عتاق الخَيلْ قَبًا ... فأوطاها المتالعَ والحثاما[(٢)]
يخوضُ بها المواطن مُعْلمات ... ونصر اللَّه كان لها عَلاما
فما وجدت كحيدرة إماما ... غداة الروع يقدمها إذاما[(٣)]

وَلَقِيَ أميرُ المؤمنين عَلِيّ اللهَ شهيدًا على يد عبدالرحمن بن ملجم الخارجي أشقى الآخرين كما قال رسول اللَّه ﷺ.

وقال أبو الأسود الدؤلي:

أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طرًا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا ... ورحّلها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثاني والمبينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين ... رأيت البدر راع الناظرينا
لقد علمتْ قريش حيث كانت ... بأنك خيرُها حسبًا ودينًا

وقال بكر بن حسان الباهري:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة ... هدمت للدين والإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم ... وأعظم الناس إسلامًا وإيمانًا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما ... سن الرسول لنا شرعًا وتبيانًا
صهر النبي ومولاه وناصره ... أضحت مناقبه نورًا وبرهانًا
وكان منه على رغم الحسود له ... مكان هارون من موسى بن عمرانا
قد كان يخبرهم هذا بمقتله ... قبل المنية أزمانًا فأزمانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر ... فقلتُ سبحان رب العرش سبحان

---

(١) جَبّة وَجَبَة بالتضعيف والتخفيف: ضرب الجبهة. والحثمة: أرينة الأنف، يأتي الأكمه. والجدع: قطع الأنف.

(٢) قبأ؛ أي: ضوامر. والمتالع: التلال ونحوها.

(٣) الروع: الخوف. والإدام: قدوة القوم الذي به يُعْرَفُونَ.

إني لأحسبه ما كان من إنس كلا ولكنه قد كان شيطانا
فلا عفا اللَّه عنه سوء فعلته ولا سقى قبر عمران بن حطان
يا ضربة من شقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوي أوردته لظى وسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدًا بضربته إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا[١]

* * *

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (١٩٩/٣).

٩

عبدالرحمن بن عوف الزهري

صاحب رسول الله ﷺ

وأحد العشرة المبشرين بالجنة وقائد إحدى سرايا النبي ﷺ

عبدالرحمن بن عوف الزهري

صاحب رسول الله ﷺ وأحد العشرة
المبشرين بالجنة وقائد إحدى سرايا النبي ﷺ

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا للإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق، وصلى خلفه النبي ﷺ في غزوة تبوك، وكان رضي الله عنه من المهاجرين الأولين إلى الحبشة، وإلى المدينة المنورة، وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة فيهم، وأخبر أن رسول الله ﷺ تُوفي وهو عنهم راض، وهو الذي أخرج نفسه من الخلافة، واختار للمسلمين خليفتهم عثمان.

❑ جهاده

١- في غزوة بدرٍ الكبرى:

خرج المسلمون من المدينة إلى موقع «بَدْرٍ» يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية الهجرية [١]، وكانت إبل المسلمين سبعين بعيرًا، فكانوا يتعاقبون عليها البعير بين الرجلين والثلاثة والأربعة، فكان بين أبي بكر وعمر وعبدالرحمن بعير يعتقبونه [٢]، قال عبدالرحمن: «عَبَّأنا رسول الله ﷺ بليلٍ، فصنَّفنا، فأصبحنا ونحن على صفوفنا [٣]، وبينما أنا واقف في الصف يوم بدرٍ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار، حديثة أسنانهما، فتمنَّيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عمُّ! أتعرف أبا جَهْل؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه يابن أخي؟ قال: أُنْبِئْتُ أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده، لو رأيته لا يفارق سواده

---

(١) طبقات ابن سعد (١٢/٢).
(٢) مغازي الواقدي (٢٤/١)، والدرر (١١١)، وجوامع السيرة (١٠٨)، وابن الأثير (١١٨/٢).
(٣) مغازي الواقدي (٨٨/١).

سواده[١] حتى يموت الأعجل منا. وغمزني الآخر، فقال مثلها، فلم ألبث أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان! هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتداره بأسيافهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. قال: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا. فنظر في السيفين، فقال: «**كلاكما قتله**»[٢]، وقد استُشهد هذان البطلان الصغيران يوم بدرٍ، وهما ابنا عَفْراء: عَوْف بن الحارث الخزرجي الأنصاري[٣]، ومُعَوِّذ بن الحارث الخزرجي الأنصاري[٤].

كما روى عبدالرحمن قصة قتل أُميَّة بن خلف فقال: «كان أُمية بن خلف لي صديقًا بمكة، وكان اسمي: عَبْد عَمْرو، فتسميت حين أسلمت: عبدالرحمن ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عَبْد عَمْرو، أرغبتَ عن اسم سماكه أبواك؟ فأقول: نعم. فيقول: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. فكان إذا دعاني يا عبدَ عَمْرو لم أُجبه! فقلت: يا أبا عليٍّ! اجعل ما شئت! قال: فأنت عبدالإله، قلت: نعم! فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله. فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدرٍ مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أُمية آخذ بيده، ومعي أدراع لي قد استلبتها، فأنا أحملها. فلما رآني قال لي: يا عبد عمرو! فلم أجبه! فقال: يا عبدالإله! فقلت: نعم. قال: هل لكَ فيَّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط!!!

---

(١) السواد: الشخص أو الشبح.

(٢) الاستبصار (١٥٦).

(٣) **انظر**: تفاصيل سيرته في (طبقات ابن سعد) (٤٩٢/٧)، و(الإصابة) (٤٢/٥)، و(أُسْد الغابة) (٤/ ١٥٥)، و(الاستيعاب) (١٢٢٥/٣).

(٤) **انظر**: تفاصيل سيرته في (طبقات ابن سعد) (٤٩٢/٧)، و(الإصابة) (١٢٩/٦)، و(أُسْد الغابة) (٤/ ٤٠٢)، و(الاستيعاب) (١٤٤٢/٤).

أما لكم حاجة في اللَّبن [١]؟! وقال لي أُميَّة بن خلف: يا عبدَالإله! مَنْ الرَّجلُ المُعْلَمُ بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبدالمطلب! قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل! فواللَّه إني لأقودهما؛ إذ رآه بلالٌ معي، وكان هو الذي يُعَذِّب بلالًا بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رَمْضاء [٢] مكة إذا حميت، فَيُضْجِعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد. فيقول بلال: أَحَدٌ أَحَدٌ! فلما رآه قال: رأسُ الكفر أُمية بن خلف، لا نجوتُ إن نجا! فقلت: أيْ بلال! أبأسِيْرِي؟ قال: لا نجوتُ إن نجا! ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله! رأس الكفر أُميَّة بن خَلَف، لا نجوتُ إن نجا. فأحاطوا بنا، حتى جعلونا كالمَسَكَة [٣]؛ وأنا أَذبُّ عنه، فأخلف رجل السِّيف [٤]؛ فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أُميَّة صيحة ما سمعتُ بمثلها قط، فقلت: انْجُ بنفسك ولا نجَاء بك، فواللَّه ما أُغني عنك شيئًا! فَهَبرُوهما [٥] بالسُّيوف حتى فرغوا منهما، فكان عبدالرحمن يقول: يرحم اللَّه بِلالًا! ذهبت أدراعي، وفَجَعَني بأسِيري» [٦].

وقد أسر السَّائبَ بن أبي حُبَيْش الأسدي يوم بدر [٧]؛ كما قتل السائب بن أبي رفاعة من بني أُمية بن المُغِيْرة من بني مَخْزوم [٨].

لقد كان عبدالرحمن بدريًّا [٩] من البدريين الفاعلين، قاتل وقَتَل وأسر وغنم مما

---

(١) يريد باللبن: أنَّ مَنْ أسرني افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللبن؛ **انظر**: سيرة ابن هشام (٢٧٢/٢).

(٢) الرمضاء: الرمل الشديد الحرارة من الشمس.

(٣) المسكة: السوار من عاج أو دبل. والذبل: جلدة السلحفاة البرية.

(٤) يقال: أخلف الرجل إلى سيفه: إذا رَدَّ يده إليه فسله من غمده.

(٥) هبروهما: قطعوا لحمهما؛ تقول: هبرت اللحم: إذا قطعته قطعًا كبارًا.

(٦) سيرة ابن هشام (٢٧١/٢ - ٢٧٣)، **وانظر**: مغازي الوقدي (٨٢/١، ٨٣)، وابن الأثير (١٢٧/٢).

(٧) مغازي الواقدي (٧٩/١)، وأنساب الأشراف (٣٠٢/١)، والسائب بن عبد العزى من بني أسد.

(٨) مغازي الواقدي (١٥٠/١)، وأنساب الأشراف (٣٠٠/١).

(٩) سيرة ابن هشام (٣٢٧/٢)، ومغازي الواقدي (١٥٥/١)، وجوامع السيرة (١١٧)، والدرر (١٢٣)، وطبقات ابن سعد (١٢٨/٣).

يدل على أثره البارز في هذه الغزوة الحاسمة.

٢ـ في غزوة أُحُد:

وكانت هذه الغزوة في شهر شَوال من سنة ثلاث الهجرية[١].

وثبت رسول اللَّه ﷺ يوم أُحُد في عصابة صبروا معه: أربعة عشر رجلًا؛ سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، وكان عبدالرحمن أحد السبعة المهاجرين الذين ثبتوا يوم أُحُد مع رسول اللَّه ﷺ[٢]، فجُرح يومئذٍ إحدى وعشرين جُراحة، وجرح في رجله وسقطت ثنيتاه[٣]، وجُرح في رجله فكان يعرج منها، وسقطت ثنيتاه فكان أَهْتَم[٤]، وقتل أَسِيْد بن أبي طلحة[٥]، وهو من بني عبد الدار من قريش، فكان مَنْ قُتل في هذا اليوم من بني عبد الدار عشرة نفرٍ ومولى لهم[٦]، وقيل: إنه قتل كلاب بن أبي طلحة ـ أيضًا ـ من بني عبدالدار[٧]، وعرج عبدالرحمن من جراحة برجله إلى أن مات[٨].

لقد كان عبدالرحمن بحق أحد أبطال المسلمين في غزوة «**أُحُد**»، فقد استقتل في الدفاع عن النبي ﷺ وثبت ثبات الرواسي في المعركة في موقف خطير للغاية، فأدى واجبه في الدفاع عن النبي ﷺ وفي الثبات على أحسن ما يكون عليه الدفاع البطولي والثبات العنيد.

---

(١) جوامع السيرة (١٥٦)، والدرر (١٥٣).

(٢) مغازي الواقدي (١/٢٤٠)، وأنساب الأشراف (١/٣١٨).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠١).

(٤) أُسْد الغابة (٣/٣١٤).

(٥) المعارف (١٦١).

(٦) المعارف (١٦٠، ١٦١)، والدرر (١٦٥).

(٧) الدرر (١٦٥).

(٨) الدرر (١٥٨)، وهكذا تركت عاهة مستدامة منه.

٣ـ في الغزوات الجديدة:

أ ـ شهد غزوة الحُدَيْبِيَّة التي كانت في ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية، فساق قوم من أصحاب رسول اللَّه ﷺ الهَدْيَ[١] من أهل الغنى، منهم عبدالرحمن[٢]، وكان أحد شهود صلح الحُدَيْبِيَّة بين المسلمين وقريش[٣]، ثم نحر بَدَنات له ساقها من المدينة[٤]، وعاد مع النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

ب ـ وشهد غزوة خَيْبَر التي كانت في شهر المحرم من السنة السابعة الهجرية[٥]، فوقع سهم عبدالرحمن مع قسم من الصحابة في «الشِّقِّ»[٦] من خيبر، وقد جعل على كلِّ مئة رأس من المسلمين رأس يُعْرَف يَقْسِم على أصحابه ما خرج من غلتها، فكان عبدالرحمن أحد الرؤساء[٧].

ج ـ وشهد غزوة فتح مكة التي كانت في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية[٨]، فلما طلعت كتيبة رسول اللَّه ﷺ الخضراء، ومر رسول اللَّه ﷺ على ناقته القَصواء بين أبي بكر وأُسَيْد بن حُضَيْر وهو يحدِّثهما، فقال العباس لأبي سفيان بن حرب: هذا رسول اللَّه ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، فيها الرايات والألوية، مع كل بطن من الأنصار راية ولواء، في الحديد لا يُرى منهم إلا الحَدَق. ويقال: كان في الكتيبة ألف دارع. وأعطى رسول اللَّه ﷺ رايته سعد بن عُبادة وهو

---

(١) الهَدْي: ما يُهْدى إلى الحرم من النَّعَم، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾

(٢) مغازي الواقدي (٥٧٢/٢، ٥٧٣).

(٣) مغازي الوقدي (٦١٢/٢)، وسيرة ابن هشام (٣٦٨/٣)، وابن الأثير (٢٠٥/٢).

(٤) مغازي الواقدي (٦١٤/٢)، والبدنات: جمع بَدَنَة؛ ناقة أو بقرة تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمونها لذلك.

(٥) الدرر (٢٠٩)، وجوامع السيرة (٢١١).

(٦) مغازي الواقدي (٦٨٩/٢)، وسيرة ابن هشام (٤٠٤/٣)، والدرر (٢١٧)، وجوامع السيرة (٢١٤).

(٧) مغازي الوقدي (٦٨٩/٢).

(٨) الدرر (٢٢٧).

أمام الكتيبة، فلما مر سعد براية النبي ﷺ نادى: يا أبا سفيان! اليوم يوم المَلْحَمَة[١]، اليوم تُسْتَحلُّ الحُرمة! اليوم أذل اللَّه قريشًا! فأقبل رسول اللَّه ﷺ حتى إذا حاذى أبا سفيان ناداه: يا رسول الله! أمرتَ بقَتْل قَوْمك؟! زعم سعد ومَنْ معه حين مر بنا قال: يا أبا سفيان! اليوم يوم المَلْحمة! اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرمة! اليوم أذلَّ اللَّه قريشًا! وإني أنشدك اللَّه في قومك، فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس. قال عبدالرحمن بن عوف وعُثمان بن عفان: يا رسول الله! ما نأمن سعدًا أن يكون منه في قريش صولة. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اليوم يوم المَرحمة! اليوم أعز اللَّه فيه قريشًا**»، وأرسل رسول اللَّه ﷺ إلى سَعْدٍ فعزله، وجعل اللِّواء إلى قيس بن سعد بن عُبادة[٢].

د ـ وبعد فتح مكة بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد على سرية داعيًا لا مقاتلًا[٣]، إلى بني جَذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كِنانة، فلما رآه القوم أخذوا السِّلاح، فقال خالد: «**ضعوا السِّلاح فإن الناس قد أسلموا**»[٤].

٤ـ في الغزوات الأخرى:

شهد عبدالرحمن تحت لواء النبي ﷺ المشاهد كلها[٥]، فشهد غزوة بني النَّضِير من يهود التي كانت في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة الهجرية[٦]، فأعطى له رسول اللَّه ﷺ «**سُؤَالَة**» وهو الذي يقال له: مال سُلَيْم[٧].

كما شهد غزوة الخندق[٨] التي كانت في شهر شوال من السنة الخامسة

---

(١) الملحمة: الحرب الشديدة وموضعها، والجمع: مَلَاحِم.
(٢) مغازي الواقدي (٢/٨٢١، ٨٢٢).
(٣) سيرة ابن هشام (٤/٥٣).
(٤) سيرة ابن هشام (٤/٥٣)، وطبقات ابن سعد (٢/١٤٧).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/١٢٨)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠٠).
(٦) الدرر (١٧٤).
(٧) مغازي الواقدي (١/٣٧٩).
(٨) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠١).

الهجرية[١]، وشهد غزوة بني المُصْطَلِق «**غزوة المُرَيْسِيع**» التي كانت في شعبان من السنة الخامسة الهجرية، وكان فارسًا[٢].

وشهد غزوة بني قُرَيْظَة من يهود التي كانت في شهر ذي القعدة من سنة خمس الهجرية، وكان فارسًا[٣]، فأعطى النبي ﷺ يومئذٍ للفرس سهمين ولصاحبه سهمًا واحدًا[٤]، ولما سُبِيَ بنو قُرَيْظة، باع رسول اللَّه ﷺ منهم من عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف طائفة[٥].

وشهد غزوة «**ذي قَرَد**»[٦] التي كانت في شهر جمادى الأولى من السنة السادسة الهجرية[٧]، وكان لعبد الرحمن إبل ترعى في «**الغابة**»[٨]، كما كانت لرسول اللَّه ﷺ لِقَاح[٩] ترعى في الغابة ـ أيضًا ـ، فأغار عُيَيْنَة بن حِصْن في أربعين فارسًا على سَرْح المدينة، فأخطأ مكان إبل عبدالرحمن بن عوف واهتدى إلى لقاح رسول اللَّه ﷺ فاستاقها، فطارده المسلمون[١٠] وهرب المشركون[١١].

٥ـ قائد سرية دُومَة الجَنْدَل[١٢].

كانت في شهر شعبان من سنة ست الهجرية، فقد دعا النبي ﷺ عبدالرحمن بن

---

(١) الدرر (١٧٩).
(٢) مغازي الواقدي (١/٤٠٤ ـ ٤٠٥).
(٣) مغازي الواقدي (٢/٤٩٦ ـ ٤٩٨).
(٤) مغازي الواقدي (٢/٥٢٢).
(٥) مغازي الواقدي (٢/٥١٣).
(٦) ذو قرد: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان، وقيل: على مسافة يوم منها.
(٧) سيرة ابن هشام (٣/٣٢٣).
(٨) الغابة: موضع شمالي المدينة.
(٩) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات الألبان.
(١٠) مغازي الواقدي (٢/٥٣٩).
(١١) **انظر**: التفاصيل في (الدرر) (١٩٨، ١٩٩)، و(جوامع السيرة) (٢٠١ ـ ٢٠٣).
(١٢) دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة؛ **انظر**: التفاصيل في (معجم البلدان) (٤/١٠٦ ـ ١٠٩).

عوف، فأقعده بين يديه وعمَّمَه بيده، وقال: «**اغزُ بسم اللَّه وفي سبيل الله، فقاتل مَنْ كفر بالله، لا تَغُلْ، ولا تغدر، ولا تقتل وليدًا**».

وبعثه إلى بني كَلْبٍ بِدُوْمَة الجَنْدَل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإِسلام، فأسلم الأَصْبَغ بن عمرو الكلبي، وكان رأسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام مَنْ أقام على إعطاء الجزية، وكان الأَصْبَغ نصرانيًّا.

وكان النبي ﷺ قد قال لعبد الرحمن: «**إن استجابوا لك، فتزوج ابنة ملكهم**»، فتزوج عبدالرحمن تُمَاضر بنت الأَصْبَغ، وقدم بها إلى المدينة، وهي أم أبي سَلَمَة بن عبدالرحمن بن عوف(١).

ولا نعلم شيئًا عن عدد أفراد هذه السرية، وهي على كلِّ حال من سرايا الدعوة، أدى فيها عبدالرحمن واجبه أداءً كاملًا.

ولكن خالدًا وجد السِّلاح على بني جَذِيمة، فسألهم: ما أنتم؟ قالوا: مسلمون، قد صلينا وصدقنا بمحمد، وبَنَيْنَا المساجد في ساحاتنا، وأَذَّنَّا فيها. قال: فما بال السِّلاح عليكم! فقالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوةً، فخفنا أن تكونوا هم، فأخذنا السِّلاح! قال: فضعوا السِّلاح! فوضعوه، فأسرهم وفرقهم في أصحابه، فلما كان في السَّحَر نادى خالد: مَنْ كان معه أسير، فَلْيُدافِّه. والمدَّافة الإِجهاز عليه بالسيف، فأما بنو سُلَيْم فقتلوا مَنْ كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فبلغ النبي ﷺ ما صنع خالد فقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»، وبعث علي بن أبي طالب، فودى لهم قَتْلاهم وما ذهب منهم، ثم انصرف إلى رسول اللَّه ﷺ فأخبره(٢).

وقد كان بين خالد وبين عبدالرحمن بن عوف كلام في ذلك، فقال له عبدالرحمن: عَمِلتَ بأمر الجاهلية في الإسلام. فقال: إنما ثأَرْتُ بأبيك. فقال

---

(١) طبقات ابن سعد (٨٩/٢)، وسيرة ابن هشام (٣٢٧/٣).
(٢) طبقات ابن سعد (١٤٧/٢ - ١٤٨).

عبدالرحمن: كذبتَ، قد قتلتُ قاتل أبي، ولكنَّك ثأرتَ بعمِّك الفاكه بن المغيرة، حتى كان بينهما شرٌّ، وبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال: **«مَهْلًا يا خالد! دَعْ عنك أصحابي، فواللَّه لو كان لك أحُدٌ ذهبًا، ثم أنفقته في سبيل الله، ما أدركتَ غدوةَ رجلٍ من أصحابي ولا رَوْحَتهُ»**[١].

وكان الفاكه بن المغيرة بن عبداللَّه بن عمر بن مخزوم، وعوف بن عبد عوف، وعَفَّان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس قد خرجوا تجارًا إلى اليمن، ومع عفان ابنه عثمان، ومع عوف ابنه عبدالرحمن، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بني جَذيمة بن عامر هلك باليمن إلى ورثته، فادعاه رجل منهم يقال له: خالد بن هشام، ولقيهم بأرض بني جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت، فأبَوْا عليه، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه، وقاتلوه، فَقُتِلَ عوف بن عبد عوف، والفاكه بن المغيرة، ونجا عفان بن أبي العاص وابنه عثمان، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة، ومال عوف بن عبد عوف، فانطلقوا به، وَقَتَلَ عبدُ الرحمن بن عوف خالد بن هشام قاتل أبيه، وهمت قريش بغزو بني جَذيمة، فقالت بنو جذيمة: ما كان مصاب أصحابكم على مَلإٍ منا، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم، ولم نعلم، فنحن نَعْقِلُ[٢] لكم ما كان لكم قِبَلنا من دم أو مال، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب[٣].

هـ ـ وشهد غزوة حُنَيْنٍ التي كانت في شهر شوال من السنة الثامنة الهجرية وحصار الطائف التي كانت في شوال من السنة الثامنة الهجرية ـ أيضًا ـ، فنال عبدالرحمن امرأة من سبي هوازن[٤]، فلما أمر النبي ﷺ بإعادة السبي إلى هوازن أعاد عبدالرحمن المرأة التي كانت عنده إلى أهلها[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام (٥٦/٤)، **وانظر**: أيضًا في الواقدي (٨٨٠/٣، ٨٨١).

(٢) عقل القتيل: وَدَاهُ، فعقل ديته بالعُقُل في فناء ورثته، وكانت في الجاهلية من الإبل. والعقل: الدية.

(٣) سيرة ابن هشام (٥٦/٤، ٥٧).

(٤) معازي الواقدي (٩٤٣/٣).

(٥) مغازي الواقدي (٩٥٢/٣).

و ـ وشهد غزوة تبوك التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية [(١)]، فحض رسول اللَّه ﷺ المسلمين على القتال والجهاد وأمرهم بالصدقة، فحمل عبدالرحمن من جملة من حمل إلى النبي ﷺ مالًا، مئتي أوقية [(٢)]، وهي أربعة آلاف درهم [(٣)] ـ كما يبدو.

وفي طريق النبي ﷺ من المدينة إلى تبوك صلَّى رسول اللَّه ﷺ خلفه في سفرة [(٤)] سافرها ركعة من صلاة الفجر [(٥)].

قال المغيرة بن شعبة: «كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر، فلما كان في السَّحَرِ، ضَرَبَ عُنُقَ راحلتي؛ فظننت أن له حاجة، فعدلت معه، فانطلقنا حتى تبرزنا عن الناس، فنزل عن راحلته ثم انطلق فتغيب عني حتى ما أراه، فمكث طويلًا ثم جاء. فقال: «**حاجتك يا مُغِيْرَة!**» قلت: ما لي حاجة! قال: «**فهل معك ماء؟**» قلت: نعم، فقمت إلى قربة أو قال: سطيحة [(٦)] معلقة في آخر الرحل، فأتيته بها، فصَبَبْتُ عليه، فغسل يديه فأحسن غسلهما، وأشُكُّ دَلَكَهُمَا بتُراب أم لا، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يحسر عن يديه وعليه جُبَّة شامية ضيِّقة الكم، فضاقت، فأخرج يديه من تحتها إخراجًا، فغسل وجهه ويديه، ثم مسح بناصيته ومسحَ على العمامة ومسح على الخُفَّين، ثم ركبنا، فأدركنا الناس وقد أُقيمت الصلاة، فتقدمهم عبدالرحمن بن عَوْف، وقد صلَّى ركعة وهم في الثانية، فذهبت أُوذنه فنهاني،فصلينا الركعة التي أدركنا، وقضينا التي سَبَقَتْنا»، وكان هذا في تبوك، وكان المغيرة يحمل وضوء رسول اللَّه ﷺ وقال النبي ﷺ حين صلَّى خلف عبدالرحمن بن عَوْف: «**ما قُبض نبي قط،**

---

(١) طبقات ابن سعد (١٦٥/٢).

(٢) مغازي الواقدي (٩٩١/٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٢١٠/٤).

(٤) أسْد الغابة (٣١٤/٣)، والإصابة (١٧٧/٤).

(٥) الإصابة (١٧٧/٤)، والبداية والنهاية (١٦٤/٧).

(٦) السطيحة: المزادة تكون من جلدين لا غير.

حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته»[١].

❑ جهاده بالمال

كان عبدالرحمن كثير الإنفاق في سبيل الله[٢]، وقد تصدق على عهد رسول اللهﷺ بشطر ماله أربعة آلاف درهم، ثم تصدق بأربعين ألفًا من الدراهم، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمس مئة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمس مئة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة[٣]، وكان كثير المال محظوظًا بالتجارة[٤].

وحين حمل إلى النبيﷺ أربعة آلاف درهم قال: كان عندي ثمانية آلاف، فأمسكت أربعة آلاف لنفسي وعيالي، وأربعة آلاف أقرضها ربيﷻ. فقال رسول اللهﷺ: «**بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**»[٥]، فنزلت في عثمان بن عفان وفي عبدالرحمن الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢].

هذا هو مبلغ جهاد عبدالرحمن المُعْلَن بالمال الذي كان معروفًا في أيام النبيﷺ، وهو مبلغ جسيم ولا شك، وبخاصة في تلك الأيام، ولا بد أن يكون له جهاد غير مُعْلَن بالمال، لا يعلمه غير الله، لقد أدى عبدالرحمن واجبه مجاهدًا بالأموال والنفس.

وما تقول في ابن عوفرضي الله عنه وسقاه من سلسبيل الجنة، الذي ذكروا عنه أنه أعتق

---

(١) طبقات ابن سعد (١٢٨/٣، ١٢٩)، **وانظر**: مغازي الواقدي (١٠١٢/٣).
(٢) أُسْد الغابة (٣١٤/٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (٣٠١/١).
(٣) أُسْد الغابة (٣١٦/٣)، والإصابة (١٧٧/٤).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٣٠١/١).
(٥) الرياض النضرة، للمحب الطبري (٣٧٩/٢).

ثلاثين ألف نسمة في حياته؟![1].

❑ عبدالرحمن بن عوف القائد

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب عن الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه:

أثبت عبدالرحمن بن عوف كفاية قتالية متميِّزة في كلِّ غزوة خاضها تحت لواء الرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، فأسر في بعض تلك الغزوات أسرى من المشركين، وقتل منهم قتلى، وباشر القتال في الصفوف الأمامية، وثبت مع عدد قليل من المسلمين ثبتوا إلى جانب الرسول ﷺ واستقتل في الدفاع عن النبي ﷺ حتى أصيب بأكثر من عشرين جرحًا، أحدها في ثنيتيه فهُتم، وفي رجله فعرج كل حياته، فكان عَرَجُهُ بعد إصابته برجله يوم أُحُد شاهدًا على ثباته العنيد ووسامًا على شجاعته وبطولته.

لقد أبلى بلاءً حسنًا في كل غزوة خاضها، وبخاصة غزوة أُحُد، وأبدى شجاعة نادرة في تلك الغزوة وفي غيرها من الغزوات حتى أصبح معدودًا من شجعان المسلمين المعدودين الذين يشار إليهم بالبنان، ويرشحون لقيادة السرايا على عهد النبي ﷺ، وقيادة الجيوش بعد انتقاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الرفيق الأعلى.

ولم يكن مجاهدًا من الطراز الأول بنفسه فحسب، بل كان مجاهدًا من الطراز الأول بماله ـ أيضًا ـ، وقد ذكرنا جهاده بالمال نقدًا وإبلًا وخيولًا.

«كان عارفًا بمبادئ الحرب، مطبِّقًا لها، يختار مقصده اختيارًا دقيقًا، وكان قائدًا تعرضيًّا، يطبق مبدأ المباغتة على خصمه، ويحرمه من تطبيق هذا المبدإ على رجاله، يحشد قوته قبل المعركة، ويقتصد بالمجهود ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويحرص على أمن رجاله حرصًا بغير حدود، خططهُ مرنة، يتعاون تعاونًا وثيقًا مع القيادة من جهة

---

(١) الإصابة (١٧٧/٤)، وحلية الأولياء (٩٩/١).

ومع رجاله من جهة أخرى، ويديم معنويات قواته، ويؤمِّن لها أمورها الإِدارية.

يتحلى بالطاعة والضبط المتين، ولا يخالف الأوامر التي تصدر إليه، ولا يحب الفتنة ولا يحب أهلها، ولا يسعى إليها بسيفه أو يده أو لسانه أو بها جميعًا، فمصلحة المسلمين ووحدة كلمتهم وصفوفهم هي هدفه الأعلى الذي يسعى إلى تحقيقه بكلِّ ما يستطيع من قوة وتصميم وعزم.

ولم يكن يحب الإمارة ولا يسعى إليها، ولكنه لا يمتنع عن تولِّيها باعتبارها تكليفًا لا تشريفًا[1].

---

(١) قادة النبي ﷺ ص (٢٩٥، ٢٩٦).

١٠

الصحابي الجليل
أبو محمد طلحة بن عُبيدالله التيمي، الشهيد

أحد العشرة المبشرين بالجنة، المقاتل دون رسول الله ﷺ قتال جيش كامل في أحد، فيوم أحد كله لطلحة رضي الله عنه

الصحابي الجليل أبو محمد
طلحة بن عُبيدالله التيمي، الشهيد

«قاتل طلحة بن عُبيدالله التيمي يوم أحد دون رسول الله ﷺ قتالَ جيشٍ كاملٍ، ولعل قتال طلحة - يوم انهزم الناس عن النبي - كان أروع وأصدق قتال؛ فقد روى البيهقي في الدلائل عن أبي الزبير عن جابر، قال: «**انهزم الناس عن رسول الله** ﷺ يوم أحد، وبقي معه أحد عشر رجلًا من الأنصار، وطلحة بن عبيدالله، وهو يصعد في الجبل، فقال النبي ﷺ : «**أَلَا أَحَدٌ لِهَؤُلَاءِ؟!**» فقال طلحة: أنا يا رسول الله. فقال: «**كما كنت يا طلحة**»، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله. فقاتل عنه، وصعد رسول الله ﷺ ومن بقي معه، ثم قُتِلَ الأنصاري، ولحقوا رسول الله، فقال: «**أَلَا رَجُلٌ لِهَؤُلَاءِ؟**» فقال طلحة مثل قوله، فقال له رسول الله مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله. فقاتل وأصحابه يصعدون، ثم قتل؛ فلحقوا رسول الله، فَيَزَلُ يقول مثل قوله الأول، وطلحة يقول: أنا يا رسول الله. فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار، فيأذن له، فيقاتل مثل مَنْ كان قبله، حتى قُتلوا جميعًا، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا طلحة حتى غشيهم المشركون، فقال رسول الله ﷺ : «**من لهؤلاء؟**»، فقال طلحة: أنا. فقاتل قتال جميع من كان قبله»[1].

وفي رواية أخرى: «عن جابر قال: لما كان يوم أحد، وَوَلَّى الناس، كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثني عشر رجلًا، منهم طلحة، فأدركهم المشركون، فقال النبي ﷺ : «**مَنْ للقوم؟**»، قال طلحة: أنا. قال: «**كما أنت**»، فقال رجل: أنا. قال: «**أنت**»، فقاتل حتى قُتل، ثم التفت فإذا المشركون، فقال: «**مَنْ لهم؟**»، قال طلحة: أنا. قال: «**كما أنت**»، فقال رجل من الأنصار: أنا. قال: «**أنت**»، فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي الله طلحةُ، فقال: «**مَنْ للقوم؟**»، قال طلحة: أنا. فقاتل

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (أُحُد)، لمحمد أحمد باشميل ص (١٤٢).

طلحة قتال الأحد عشر، حتى قُطعت أصابعه، فقال: «**حَسِّ**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لو قلت: «بسم الله»، لرفعتْك الملائكة، والناسُ ينظرون**»، ثم رَدَّ اللَّه المشركين.

وعند الطبراني: «**لو قلتَ: «بسم الله»**، لطارت بك الملائكة، والناس ينظرون إليك»[(١)].

وعند النسائي والبيهقي في الدلائل: «**حتى تَلِجَ بك في جوِّ السماء**».

لِلَّهِ دَرُّ أَبِي مُحَمَّدٍ.. مَا فَعَلَ، حتى لو نطق بـ «**بسم الله**»، لطارت به الملائكة، حتى تَلِجَ به السماءَ؟!

«وقد جُرِحَ طلحة البطل وهو يذود المشركين عن رسول اللَّه ﷺ أكثر من سبعين جُرْحًا».

فقد روى أبو داود الطيالسي عن أم المؤمنين عائشة، قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد، قال: ذاك كله لطلحة. ثم أنشأ يحدث... قال: «**كنتُ أول مَنْ فاء يوم أحد، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل اللَّه دون رسول الله، فقلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني. وكان بيني وبين المشركين رجل لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول اللَّه منه، وهو يخطف المشي خطفًا، لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول اللَّه** ﷺ وقد كُسِرت رباعيته وشُجَّ في وجهه، ودخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر؛ فقال ﷺ: «**عليكما صاحبكما ـ يريد طلحة ـ**»، وقد نزف، فأتينا طلحة في بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون بين طعنة وضربة ورمية، وإذا به قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه»[(٢)].

---

(١) **حسن**. أخرجه النسائي، والطبراني، والحاكم، وابن شاهين، والبيهقي في (الدلائل)، وقال الذهبي: رواته ثقات. وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٥/٢٠٤): (ورجال إسناده ثقات، كلهم على شرط مسلم، لَكِنْ أبو الزبير مدلس، وقد عنعنه، وبالجملة: فالحديث حسن بمجموع هذه الطرق. والله أعلم).

(٢) البداية والنهاية (٤/٣٠)، وموسوعة الغزوات (أُحد) ص (١٤٢، ١٤٣).

ومن المواقف العظيمة لطلحة رضي الله عنه قتله لحامل لواء المشركين الجلاس بن طلحة بعد مقتل إخوته حملة اللواء من قبله، فقد طعنه طلحة بن عبيد الله طعنة أودت بحياته[١].

عن قيس بن أبي حازم قال: «**رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ قد شُلَّتْ**»[٢].

وعند البخاري[٣]: «**رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد**».

وعن المعتمر ـ وهو ابن سليمان ـ قال: سمعت أبي، عن أبي عثمان، قال: «لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام[٤] التي قاتل فيهن غير طلحة وسعد. عن حديثهما[٥]»[٦].

«وعن عائشة وأمِّ إسحاق بنتَي طلحة، قالتا: جُرح أبونا يومَ أحدٍ أربعًا وعشرين جراحة، وقع منها في رأسه شجة مربعة، وقطع نساه ـ يعني العِرْق ـ، وشُلَّتْ إصبعه، وكان سائر الجراح في جسده، وغلبه الغشْيُ، ورسول الله ﷺ مكسورةٌ رباعيتُه، مشجوجٌ في وجهه، قد علاه الغشي، وطلحة مُحتَمِلُه، يرجع به القَهْقَرَى، كلما أدركه أحد من المشركين قاتل دونه، حتى أسنده إلى الشِّعْب»[٧].

---

(١) موسوعة الغزوات(أُحُد) ص (١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٤)، وابن ماجه (١٢٨)، وابن سعد في (الطبقات) (١٥٥/١/٣)، وأحمد في (المسند) (١٦١/١) وفي (فضائل الصحابة) (١٢٩٤).

(٣) البخاري (٤٠٦٣).

(٤) قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٣٦٠/٧): المراد يوم أحد.

(٥) قال النووي في (شرح مسلم) (٢٨٠/٥): معناه: وهما حدثاني بذلك. وبنحوه قال الحافظ في الفتح (٣٦٠/٧).

(٦) أخرجه البخاري (٣٧٢٢، ٣٧٢٣)، ومسلم (٢٤١٤).

(٧) سير أعلام النبلاء (٣٢/١).

❑ طلحة ممن قضى نحبه

قال ـ تعالى ـ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

عن طلحة أن أصحاب رسول اللَّه ﷺ قالوا لأعرابي جاء يسأله عمَّنْ قضى نَحْبَه: من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ﷺ، ويوقِّرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني اطلعتُ من باب المسجد ـ وعليَّ ثيابٌ خُضْر ـ، فلما رآني رسول اللَّه ﷺ قال: «**أين السائل عمن قضى نحبه؟**» قال الأعرابي: أنا. قال: «**هذا ممن قضى نَحْبَه**»(١).

وقال ﷺ: «**طلحة ممن قضى نحبه**»(٢).

وعن طلحة رضي الله عنه، قال: عُقرتْ يوم أحد في جميع جسدي، حتى في ذَكَري(٣).

ولله در حسان بن ثابت حين يقول في طلحة:

وطلحة يومِ الشِّعْب واسى محمدا ... لدى ساعة ضاقتْ عليه وسُدَّت
وقاهُ بكفَّيْه الرماح فقُطِعتْ ... أصابعُهُ تحت الرماح فشُلَّتِ

❑ قتله لحامل لواء المشركين في أحد «الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة»

لما حمل لواءَ المشركين الجلاسُ بن طلحة بن أبي طلحة بعد مقتل إخوته لم يمهله طلحة بن عبيداللَّه حتى طعنه طعنة أودت بحياته(٤).

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي في (المناقب) (٣٧٤٢)، وقال: (حسن غريب)، وأبو يعلى (٢/٢٦، ٢٧)، والطبراني في (الكبير)، وابن سعد، والطبري في (التفسير) (٢١/٩٣)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٩٩)، وسنده حسن.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي وابن ماجه عن معاوية، وابن عساكر عن عائشة، وابن سعد والترمذي وأبو يعلى والضياء عن طلحة، وصححه الألباني في (صحيح الجامع) رقم (٣٩١٦)، و(الصحيحة) رقم (١٢٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١/٣٩).

(٤) موسوعة الغزوات الكبرى (أُحد)، لباشميل ص (١٠٢).

قال موسى بن طلحة: «إن طلحة رجع بسبع وثلاثين أو خمس وثلاثين بين ضرْبة وطعنة ورمية، تَرصَّع جبينه، وقُطِعت سَبَّابته، وشَلت الإصبع التي تليها»[١].

قال طلحة بن عُبيد اللَّه رضي الله عنه لما كان يوم أحد ارتجزت بهذا الشعر:

نحنُ حُماةُ غالبٍ ومالك ... نَذبُّ عن رسولنا المبارك

نضربُ عنه اليوم في المعارك ... ضرْب صفاح الكُوم[٢] في المبارك

فلما انصرف النبي ﷺ يوم أحد، قال لحسان: **«قلْ في طلحة»** فأنشأ حسان وقال:

وطلحة يوم الشِّعْب آسى محمدا ... على ساللٍك ضاقت عليه وشَقَّتِ

يقيه بكفَّيه الرماح وأسلمتْ ... أشاجِعُهُ تحت السيوفِ فشلَّتِ

وكان إمام الناس إلا محمدا ... أقام رحى الإسلام حتى استقلَّت[٣]

❑ «أَوْجب طلحة حين صُنع برسول اللَّه ﷺ ما صنع»

عن الزبير رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول يومئذٍ: **«أوجب طلحة حين صُنع برسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - ما صنع»**[٤] ومعنى أوجب؛ أي: عمل عملًا أوْجب له الجنة.

ولفظ الترمذي: «**كان على رسول اللَّه** ﷺ يوم أحد درعان، فنهض إلى صخرة فلم يستطع: فأقعد تحته طلحة فصعد النبي ﷺ حتى استوى على الصخرة، فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«أوجب طلحة»**[٥].

---

(١) رواه الحاكم (٣/٢٥، ٢٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) الكوم: الضراب، وأصله من الارتفاع.

(٣) الحاكم (٣/٢٥).

(٤) **حسن**: رواه أبو يعلى، واللفظ له في (مسنده) (٢/٢٣)، والترمذي (٣٧٣٨)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب)، وأخرجه أحمد (١/١٦٥)، وابن حبان (موارد الظمآن) (٢/٢٢)، والحاكم في (المستدرك) (٣/٣٧٤)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/١٥٥)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٩٧، ١٣٩٨)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١٢٩١)، وابن أبي شيبة (١٢٢٠٩).

(٥) وهي عند ابن حبان أيْضًا، وإسناده حسن.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**طلحة شهيد يمشي على الأرض**»[١]، وقال ﷺ: «**من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبدالله**»[٢].

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه عن جابر، وابن عساكر عن أبي هريرة وأبي سعيد، وأخرجه الطيالسي، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم (١٢٥)، و(صحيح الجامع) رقم (٣٩١٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي، والحاكم في (المستدرك) عن جابر، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم (١٢٦)، و(صحيح الجامع) رقم (٥٩٦٢).

١١

أول من سل سيفه في الإسلام

الزبير بن العوام

حواري النبي ﷺ

أول من سل سيفه في الإسلام
الزبير بن العوام حواري النبي ﷺ

هو أول من سل سيفًا في الإسلام، بأبي هو وأمي، من فَدَّاه النبي ﷺ بأبويه.

ولله در أحمد محرم حين يقول عن الزبير يوم أحد:

ألا بـرز الـزبـيـر فـأيُّ وصـفِ حواريُّ الرسول يفي ويكفي

بـرزت لخالـدٍ حـتـفًـا لحتـفِ تـصـد قـواهُ عـن كـرٍّ وزحـف

وتـدفـعـه إذا ابـتـعـث الـرعـيـلا[1]

جاء الزبير بسيفه في بداية الدعوة بمكة، فقال له الرسول ﷺ: ما لك؟ قال: أخبرت أنك أُخذت. قال: «فكنت صانعًا ماذا؟!»، قال الزبير: كنت أضرب به من أخذك. فدعا له ولسيفه؛ وكان أول سيف سُلَّ في سبيل الله ـ تعالى ـ[2].

❑ في يوم بدر

كان الزبير أحد مغاوير الإسلام وأبطاله في يوم الفرقان، وكان على الميمنة، وقد قَتَلَ الزبير في هذا اليوم العظيم عبيدة بن سعيد بن العاص، كما قَتَلَ السائب بن أبي السائب بن عابد[3]، ونوفل بن خويلد بن أسد عَمَّهِ. وفلَّ فلة في سيفه وجُرح جرحين غائرين، بأبي وأمي فارس رسول الله ﷺ وحواريه، مَنْ نزلتْ بسِيمَاهُ الملائكة في يوم بدر، وجمع له رسول الله ﷺ بين أبويْه.

(١) ديوان مجد الإسلام ص (١٢٨).

(٢) حلية الأولياء (٨٩/١) والمستدرك (٤٠٧/٣) ومختصر تاريخ دمشق (١٣/٨، ١٤)، والأوائل ص (٤٦)، وسير أعلام النبلاء (٤٥/١).

(٣) موسوعة الغزوات الكبرى ص (١٧٨، ١٨١).

وفي رواية ابن هشام (٧١١/١): أن السائب هذا أسلم وحسن إسلامه.

أخرج الحاكم بسنده (٤٠٧/٣) عن علي بن أبي طالب قال: «كانت أولَ غزوة في الإسلام بدرٌ، ما كان معنا إلا فَرَسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد»، وكان فرس الزبير يوم بدر يقال له: اليعسوب. انظر: الكامل (٨٢/١).

عن عروة بن الزبير قال: كانت على الزبير يوْم بدرٍ عمامةٌ صفراءُ، فنزل جبريل على سيماء الزبير.

وفي هذا يقول عامر بن صالح بن عبداللّه بن الزبير:

جَدِّي ابنُ عمةِ أحمدٍ ووزيرُهُ   عند البلاءِ وفارسُ الشَّقْراءِ
وغداة بدرٍ كان أوَّلَ فارسٍ   شَهِدَ الوغَى في اللَّامَةِ الصَّفراءِ
نَزلتْ بسِيمَاهُ الملائكُ نُصْرةً   بالحوْضِ يَوْمَ تألُّبِ الأعداءِ

عن الزبير قال: لقيتُ يوم بدر عُبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مُدجَج لا يُرى إلا عيناه، وكان يُكنى: أبا ذات الكرش، فحملتُ عليه بالعنزة، فطعنتُه في عينه، فمات. فأُخْبرت أن الزبير قال: لقد وضعتُ رجلي عليه، فكان الجهْدُ أن نزعتُها ـ يعني الحربة ـ، فلقد انثنى طرفُها. رواه البخاري.

❑ وفي أُحُد فدَّاه النبي ﷺ بأبويْه

كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، وقد كان حملته الواحد تلو الآخر من بني عبد الدار من صناديد قريش، وكانت الإطاحة باللواء ـ وخاصة في ذلك العصر ـ تُعَجِلُ بالهزيمة؛ ولهذا كان لا يتحمل مسئولية حمل اللواء في تلك المعارك إلا الأبطال المغاوير، كما قال أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة أحدُ حملة لواء قريش.

إن على أهل اللواء حقًّا   أن تخضب الصعدة[1] أو تندقا

وقبيل المعركة بلحظات قال أبو سفيان قائد المشركين: «**يا بني عبد الدار قد وُليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه**»، فغضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان هذا أشد الغضب، وهمُّوا به وتواعدوه، وقالوا له: «**نحن نسلم إليك لواءنا؟؟ ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع**»[2].

---

(١) الصعدة: نوع من الرماح.
(٢) موسوعة الغزوات الكبرى (أُحُد) لباشميل ص (٩٠).

وبرزت نساء قريش أمام حملة لواء مكة العبدريين وهن يُنْشِدْنَ الأشعار المحرضة الموجهة إليهم بصفتهم الخاصة والتي منها.

ويــهــا بــنــي عــبــد الــدار ويــهًــا حــمــاة الأدبــار
ضــربًــا بــكــل بــتــار[1]

لـ مصرع قائد حملة لواء مكة بيد الحواري

كان أول وقود المعركة قائد حملة لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، وكان يوم أحد راكبًا جملًا ومعه لواء مكة، وكان المسلمون لشجاعته يسمونه كبش «**كبش الكتيبة**»، فقد دعا طلحةُ العبدري هذا المسلمين إلى البراز، فأحجم الناس عنه، ولكن الزبير بن العوام أجابه إلى البراز، ولما كان طلحة راكبًا جملًا لم يمهله الزبير حتى ينزل إلى الأرض، بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض وبرك عليه، ثم عاجله بطعنة من سيفه فصلت رأسه عن جسده.

وكان النبي القائد يرقب صراع الزبير مع قائد حملة لواء مكة، فلما قَتَلَ الزبيرُ طلحةَ بن أبي طلحة ـ وهو كبش الكتيبة كما يقول ابن سعد في «**طبقاته**» ـ سُرَّ النبي ﷺ سرورًا عظيمًا، ورفع صوته بالتكبير، فكبر المسلمون لتكبيره، وذكر ابن كثير في «**البداية والنهاية**» أن النبي ﷺ أثنى على الزبير بن العوام لقتله حامل لواء المشركين، فقال في حقه: «**إن لكل نبي حواريًّا، وحواريي الزبير**»[2]، وأنه ﷺ قال ـ أيضًا ـ بعد أن صرع الزبير حامل اللواء: «**لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت أنا إليه، لما رأيت من إحجام الناس عنه**»[3].

---

(١) المصدر السابق ص (٩٥).

(٢) أخرجه البخاري، والترمذي عن جابر، والترمذي، والحاكم في (المستدرك) عن علي.

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٢٠)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (المغازي) ص (١٧٢، ١٧٣)، والسيرة الحلبية (١٨/٢)، وموسوعة الغزوات (أُحُد) ص (١٠٠، ١٠١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«الزبير ابن عمتي، وحواريي من أمتي»**[(١)]، والحواري: الناصر كما قال سفيان.

وفي هذا يقول أحمد محرم:

من الداعي يصيحُ على البعير أما لي في الفوارس من نظير
أروني همَّة البطل المغير إليّ فما بمثلي من نكير
أنا الأسد الذي يحمي الشُّبولا
تحدَّاه الزبيرُ وفي يديْه قضاءٌ خفَّ عاجلُه إليهِ
رمى ظهر البعير بمنكبيْهِ وجرَّعه منيَّته عليه
فأسلم نفسه وهوى قتيلَا
ألا بُعْدًا لطلحة حين يهذي فيأخذه الحواري[(٢)] شرَّ أخذِ
أُصيب بقسْوري البأس فذٍّ يُعَدُّ لكل طاغي النفس مُؤذِ[(٣)]
يُعالج داءه حتى يزولا[(٤)]

وبعد قتل حملة اللواء أبي شيبة، وأبي سعيد ومسافع حمل اللواء بعدهم كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقضَّ عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله[(٥)].

«ورأى النبيُّ يوم «**أحد**» رجلًا يقتل المسلمين قَتْلًا عنيفًا، فقال: «**قمْ إليه يا زبير**» فَرَقِي إليه الزبير، حتى إذا عَلا فوقه اقتحم عليه فاعتنقه، فأقبلا ينحدران حتى وقعا إلى

---

(١) أخرجه أحمد في (مسنده)، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) رقم (١٨٧٧) و(صحيح الجامع) رقم (٣٥٨٣).

(٢) في ديوان (مجد الإسلام): (فيأخذه علي) أبدلناها بـ(الحواري)؛ فهو قاتل طلحة. وفي ديوان (مجد الإسلام) ص (١٣٠): (طلحة بن أبي طلحة، من بني عبد الدار، حامل لواء المشركين، طلب المبارزة وجعل يهذي بكلام منه: (يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار)، وفي رواية: (إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار، أو أعجله بسيفي إلى الجنة، كذبتم واللات والعزى)، خرج إليه الزبير؛ فقتله).

(٣) القسوري نسبة إلى القسور؛ وهو: الأسد.

(٤) ديوان مجد الإسلام ص (١٣٠).

(٥) موسوعة الغزوات (أُحد)، لباشميل ص (١٠٢).

الأرض، فوقع الزبيرُ على صدره وَقَتَلَه»[1].

❏ ومن شجاعته وبطولته الفذّة يوم أحد فدّاه بأبويه

عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه قال: «**جمع لي رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ أبويه يوم أحد**»[2].

❏ الزبير رضي الله عنه من الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح

عن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢]، قالت لعروة: يابن أختي كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ ما أصاب يوم أُحُد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: «**من يذهب في إثرهم؟**»، فانتدب منهم سبعون رجلًا كان فيهم أبو بكر والزبير»[3].

وعند مسلم عن عروة قال: «**قالت لي عائشة كان أبواك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح**»[4].

❏ شجاعة الزبير وبطولته يوم الأحزاب وتفدية الرسول له بأبويه في هذا اليوم

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «**من يأتينا بخبر القوم؟**»، فقال الزبير أنا. ثم قال: «**مَنْ يأتينا بخبر القوم؟**»، فقال الزبير: أنا. ثم قال: «**من يأتينا بخبر القوم؟**»، فقال الزبير: أنا. ثم قال: «**إن لكل نبي حواريًا، وإن حواريي الزبير**»[5].

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٥/٣٥٨).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/١٦٤)، وفي (فضائل الصحابة) (١٢٦٧)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٢١١)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١١٠).
وعند ابن أبي شيبة أيضًا أن ذلك كان يوم قريظة.

(٣) رواه البخاري (٤٠٧٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤١٨)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/٧٣).

(٥) أخرجه البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٤١٤)، والترمذي (٣٧٤٥)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه (١٢٢)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١٠٧)، وأخرجه أحمد (٣/٣٠٧،

وعن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه قال: «**كنت يوم الأحزاب جُعلتُ أنا وعُمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلفُ. قال: أو هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله** ﷺ قال: «**من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟**»، فانطلقت فلما رجعتُ جمع لي رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ أبويه فقال: «**فداك أبي وأمي**»[1]، وما أحلاه من تاج يرصِّع به النبيُّ ﷺ هَامَ وجبين الزبير الفارس المقدام الجسور في يوم زاغت فيه الأبصار وبلغت القلوب الحناجر.

وعن ابن أبي الزناد قال: ضرب الزبير يوم الخندق عثمان بن عبدالله بن المغيرة بالسَّيف على مِغْفَره، فقطعه إلى القَرَبُوس[2]، فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب الزبير، يريد أن العمل ليده لا للسيف[3].

❏ ويل ليهود بني قريظة من عليٍّ والزبير

لما حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة بحكم الله من فوق سبع سماوات عاد النبي إلى المدينة في اليوم السابع من ذي الحجة سنة خمس للهجرة، وقد أمر النبي ﷺ بيهود بني قريظة فأُدخلوا إلى المدينة.. دخلت بهم جميعًا قوة من الحرس النبوي بقيادة محمد بن مسلمة وعبدالله بن سلام.

وقد أمر النبي ﷺ بحبس الرجال في دار أسامة بن زيد، وشرع النبي ﷺ في إجراءات تنفيذ حكم الإعدام في هؤلاء اليهود، فأمر بحفر خنادق عميقة لتدفن

٣١٤، ٣٣٨، ٣٦٥)، وأبو يعلى (٤/١٩، ٦٣)، وعبد بن حميد في (المنتخب) (١٠٨٦)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١٢٦٤)، وابن سعد في (الطبقات) (٣/١/٧٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف) (١٢٢١٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٧٢٠)، ومسلم (٢٤١٦)، والترمذي مختصرًا (٣٧٤٣)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) مقدم السرج ومؤخره.

(٣) سير أعلام النبلاء (١/١٥)، وتاريخ الإسلام، للذهبي (المغازي) ص (٣٠١).

جثث هؤلاء الخونة بعد إعدامهم، وكان المكان الذي اختير لإعدامهم ودفنهم هو سوق المدينة الذي يغلب على الظن أنه المُسمَّى اليوم بـ«**سوق المناخة**».

وبعد أن انتهت عملية حفر الخنادق المعدَّة لدفن اليهود جلس النبي ﷺ في المكان المُعدِّ لإعدامهم ومعه كبار الصحابة، ثم أمر بإحضار الرجال من بني قريظة المحكوم عليهم، فأمر بإعدامهم، فأعدموا دفعة بعد دفعة حتى لم يبق منهم أحدٌ، وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا بهم في الخنادق وواروهم بالتراب حتى انتهوا منهم.

وقد اختلف المؤرخون في عدد اليهود الذين تم إعدامهم، فالبعض يقول: إنهم ما بين ست مئة إلى سبع مئة. والبعض الآخر يقول: إنهم ما بين الثمان مئة إلى التسع مئة[١]. ولقد أُعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة، وقد جرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخيل، وكان الذي تولى عملية قتل هؤلاء اليهود والخونة هو علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ[٢].

لله در سعد بن معاذ، وعلي، والزبير.. واللَّه إن الأمة اليوم في حاجة إلى شسع نعالهم.. أو طيف من خيالهم.

أتى[٣] فأقرَّ حكم اللّه فيهم ... وآل الأمرُ أحسن ما يئولُ
عليٌّ والزبير لكلِّ عضبٍ ... صقيل منهما عَضْبٌ ثقيلُ
هما استبقا نفوس القوم نهبًا ... ورُوح اللَّه بينهما رسيلُ[٤]

* * *

تقدَّمْ يا حُييُّ فلا محيصٌ ... ورِدْ يا كعبُ ما ورد الزميلُ

---

(١) سمط النجوم العوالي، لعبد الملك بن حسين العصامي (١٣٨/٢).
(٢) السير الحلبية، لابن برهان الدين (١٢٠/٢).
(٣) أي: سعد بن معاذ رضي الله عنه.
(٤) الرسيل: المرسل، والموافق في النضال وغيره.

لبئس السيدان لشرٍّ قوم ... هُمُ البُرَحاء والداء الدخيلُ[١]
منابت فتنة خبثت وساءتْ ... فلم تطب الفروع ولا الأصولُ
قلوبٌ من سواد القوم عُمْيٌ ... وألباب من الزعماء حُولُ
لعمرُ الهالكين لقد تأذَّى ... ترابٌ في حفائرهِمْ مهيلُ
طوى رجسًا تكادُ الأرض منه ... تمورُ بمن عليها أو تزولُ

واللَّه إن ذكر هذا اليوم الأغرّ الذي أطاح فيه سيف الزبير وسيف علي بهذه الرقاب النجسة ليجدد الأمل في المستقبل الزاهر لهذه الأمة، لقد أطاح سيف الزبير بثلاث مئة أو أربع مئة تولى تنفيذ حكم اللَّه فيها الحواري النَّبِيلُ.

إذا ذُكِرَت مناقبه الغوالي ... تعالت أمةٌ واعتز جيلُ
مناقب ما يزالُ لها طلوعٌ ... إذا الأقمارُ أدركها الأفولُ
لها من نابه الأدبِ انبعاث ... فما يُخفي زواهرَها الخمولُ
لعل اللَّه يجعلها ربيعًا ... لألباب أضرَّ بها المحولُ
فوا أسفا أتُطعمني القوافي ... فيُخلِفُ مَطمعٌ ويخيب سولُ
وواحربا أما يُرجى فِكاكٌ ... لأسرى ما تفارقها الكبولُ[٢]؟

❑ الزبير يقتل ياسر أخا مرحب بطل خيبر أمام حصن ناعم

أعنف قتال شهدته خيبر هو القتال الذي دار حول حصن ناعم وهو حصن آل مرحب، وبلغ من اعتداد اليهود المرابطين في هذا الحصن بأنفسهم أنهم خرجوا أكثر من مرة وهاجموا المسلمين حتى كشفوهم وطاردوهم حتى ألجئوهم إلى مقر قيادة النبي ﷺ، وبالرغم من تمكن علي رضي الله عنه من قتل مرحب بطل خيبر وكبير القادة المدافعين عن الحصن، فإن الحصن لم يستسلم للمسلمين في الحال، بل ظل اليهود محتفظين به يدافعون عنه بضراوة.. يدلنا على ذلك أن ياسر الذي خلف أخويه ـ

---

(١) البرحاء: الأذى الشديد.

(٢) ديوان مجد الإسلام ص (٢٣٦ ـ ٢٣٩). يقصد الأمم الإسلامية المغلوبة على أمرها في أيامنا هذه.

مرحبًا والحارث في القيادة ـ ظل يدافع عن الحصن بضراوة، بل قد ذهبت به الشجاعة والجرأة ـ بعد أن لقي أخواه مصرعهما ـ إلى أن يتحدى المسلمين؛ حيث خرج من الحصن تحرسه قوات كثيفة من اليهود، وركز رمحه أمام الحصن، وأخذ يجول بفرسه وهو يطلب المبارزة قائلًا.

قد علمت خيبر أني ياسرُ شاكي السلاح بطل مغامرُ
إذا الليوث أقبلت تبادرُ وأحجمت عن صولتي المخاطِرُ
إنَّ حماتي فيه موت حاضر

وكان اليهودي ياسر من أشجع قادتهم وأشدهم بأسًا، وكانت معه حربة يحوش[1] بها المسلمين حوشًا، فبرز له علي فقال الزبير: أقسمتُ عليك إلَّا خلَّيت بيني وبينه. ففعل عليٌّ، وأقبل ياسر يسوق بها الناس، فبرز له الزبير، فخشيت عليه صفية عمة رسول اللَّه ﷺ فقالت: يا رسول اللَّه ـ إنه يقتل ابني. فقال النبي ﷺ: «**بل ابنك يقتله إن شاء الله..**»، وقد ردَّ الزبير على شعر ياسر بقوله:

قد علمت خيبر أني زبَّار قِرْم لقِرْم غيرُ نِكْس فوَّار
وابن حماة المجد وابن الأخيار ياسر لا يغررك جمع الكفَّارِ
فجمعهم مثل السراب الجرَّار

فتجاولا برهة بعدها تمكن الزبير من قتل خصمه ياسر[2]، وبقتله فقد المدافعون عن حصن ناعم قادتهم الكبار الثلاثة، فأثر ذلك تأثيرًا كبيرًا في معنوياتهم الأمر الذي يَسَّرَ للمسلمين اقتحام الحصن وفتحه بقيادة علي بن أبي طالب، وبعد أن قَتَلَ الزبيرُ قائدَ اليهودِ ياسرًا، قال النبي ﷺ للزبير: «**فداك عمٌ وخالٌ، لكل نبي حواري، وحواريي الزبير**».

---

(١) يحوش: يسوق.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٣٣٤)، وإمتاع الأسماع ص (٣١٦)، والسيرة الحلبية (٢/١٦٣)، وزاد المعاد (٢/٣٢٩).

قال ابن كثير في «**البداية والنهاية**»: فكان الزبير إذا قيل له: إن كان سيفك يومئذٍ لصارمًا، فيقول: ما كان صارمًا، ولكنني أكرهته[١].

ولله در القائل:

تـوثَّـب يـاسـرٌ فـتـلـقَّـفـتـهُ مـخـالِبُ فـاتـكٍ أَلِف الـوثـابـا
أما سـمـعـتهُ خـيـبـر حين يـهـذي فـصـدَّتْ عـنـه تُـوجـعُه عـتـابًـا
ولـو تَـسـطـيـعُ لاتَّـخَـذَت حيـاءً مِن البيض الرقاقِ لها نقابا
غُـرَابُ الـشُّـؤْمِ يَـفـزعُـهـا نـعـيـبًـا فيا لـك بـومَـةً وَلَـدتْ غُـرابـا
فتًـى شـاكـي الـسـلاح ولا سلاحٌ لِمَنْ يـبـغـي مـن الموت اقـتـرابـا
ألا إن الـــزبــــيـــــر لــذو بـــلاءٍ وإن خـشـيـتْ صـفـيَّةُ أن يُـصـابـا
حــواريُّ الـرسـولِ يـكـون مـنـه بحيث يريدُ صبرًا واحتسابًا[٢]

❏ شهود الزبير لفتح مكة

عن عروة بن الزبير ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن الزبير قال: والله! ما خرج رسولُ اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ مخرجًا في غزوةٍ غزاها ولا سرية إلا كنت فيها[٣].

وفي فتح مكة كان الزبير على مجنبة الجيش اليسرى وكان معه إحدى رايات المهاجرين الثلاثة[٤]، وفي رواية: أنه كان على كل المهاجرين والأنصار[٥].

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد قادة المسلمين في فتح مكة، وكان المقداد بن الأسود على المجنبة اليمنى، فلما دخل رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ مكة، وهدأ الناس، جاء الزبير والمقداد بفرسيهما، فقام رسول اللَّه ﷺ يمسحُ الغبار عن وجوههما بثوبه وقال: «**إني جعلت للفرس سهمين، وللفارس سهمًا، فمن نقصهما نقصه الله**»[٦].

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى (خيبر) ص (١١٦، ١١٧).
(٢) ديوان مجد الإسلام ص (٣٠٣).
(٣) المستدرك على الصحيحين (٣/٤٠٧).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/١٠٤، ٤/٢٦)، والطبري (٢/٣٣٤).
(٥) تاريخ الطبري (٢/٣٣١).
(٦) طبقات ابن سعد (٣/١٠٤).

❑ ويوم حنين يخشى قائد هوازن مالك بن عوف النصري أسر الزبير له فيفرُّ منه في الشعاب:

كان الزبير بن العوام ممن ثبت مع رسول اللَّه ﷺ حين فرَّ الناس، وكان عثمان بن عفان، وعلي، وأبو دجانة، وأيمن يقاتلون بين يدي رسول اللَّه ﷺ، واستبسل قائد قبيلة هوازن وملكها مالك بن عوف النصري وقبيلته بني نصر، وقاتلوا بشراسة وشجاعة وثبات، حتى كادوا أن يفنوا عن آخرهم، ولم ينسحب مالك بن عوف من الميدان إلا بعد أن رأى أن الهزيمة ماثلة أمام عينيه، وانسحب من الميدان في كوكبة من الفرسان هم كبار قادته وهيئة أركان حربه وحرسه، وكان الذي تولى مطاردة مالك وصحبه الزبير بن العوام في الخيل، وقد ذكر المؤرخون أن القائد العام مالكًا لما رأى أن الزبير هو الذي يتولى مطاردته نزل عن فرسه واختفى بين الأشجار في الشعاب؛ لئلا يقع أسيرًا في يد الزبير؛ لأن مالكًا يعلم أن الزبير لن يتركه يفلت من يده.

فقد جاء في كتب التاريخ والسير أن مالك بن عوف ـ عقب انهزامه ـ وقف على مرتفع من الأرض ومعه فُرسَانٌ من أصحابه، فأمرهم أن يقفوا مكانهم حتى يمرَّ الضعفاء من استطاع النجاة من الذراري قائلًا: قفوا حتى يمضي ضعفاؤكم حتى تلتئم أخراكم.

وبعد أن مرَّ الضعفاء وأصبحوا بمنجى في مرتفعات الجبال قال لأصحابه ـ طالبًا الاستطلاع ـ: انظروا ماذا تروْن؟ قالوا: نرى قومًا على خيولهم واضعين رماحهم على آذان خيولهم. قال ـ وكان خبيرًا عسكريًّا واسع الاطلاع على عادات القبائل ـ: أولئك إخوانكم بنو سليم وليس عليكم منهم بأس. ثم قال: انظروا ماذا ترون؟ قالوا: نرى رجالًا أكفالًا[1] قد وضعوا رماحهم على أكفال خيولهم. قال: تلك الخزرج، وليس عليكم منهم بأس، وهم سالكون طريق إخوانهم. ثم قال: انظروا ماذا ترون؟

(١) قال في لسان العرب: الكفل من الرجال الذي يكون في مؤخر الحرب. والأكفال جمع كفل ـ بالتحريك ـ وهو العجز. وقيل: ردف العجز.

قالوا: نرى قومًا كأنهم الأصنام على الخيل. قال: تلك كعب بن لؤي وهم مقاتلوكم. ثم قال: انظروا ماذا ترون؟ قالوا: نرى رجلًا بين رجلين معلمًا بعصابة صفراء، يخبط برجليه الأرض واضعًا رمحه على عاتقه. قال: ذلك ابن صفية، الزبير بن العوام، وأيم اللَّه لينزلنكم عن مكانكم.

وفي رواية: «**هذا الزبير بن العوام، وأحلف باللَّه ليخالطنكم، فاثبتوا. فلما انتهى الزبير إلى أسفل الثنية، أبصر القوم، فعمد إليهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزالهم عنها**»[1].

وفعلًا هاجم الزبير مالكًا وأصحابه حتى كاد يطوقهم، فلما غشيت مالكًا الخيلُ نزل عن فرسه مخافة أن يقع في الأسرى، ثم أخذ يلوذ ويتستر بالشجر كي لا يراه أحد من أصحاب الزبير، ثم سلك في يسوم «**جبل بأعلى نخلة**» فأعجزهم هربًا، وما زال ملك هوازن وقائدهم موغلًا في الهرب، حتى وصل وادي لية[2]، وهناك تحصن في قصر له، وبلغ النبيَ ﷺ تحصنُ مالك بن عوف في قصر لية فلم يأمر بتعقبه أو إزعاجه؛ لأنه كان يطمع في أن يهديه اللَّه للإسلام، وفعلًا بعث الرسول ﷺ إلى ملك هوازن مبعوثًا خاصًّا يبلغه أن الرسول ﷺ سيعفو عنه وسيعيد إليه أهله وأمواله إن هو دخل في الإسلام، فأسلم مالك وحسن إسلامه وصار خير عون للإسلام في محاربة من تبقى على الشرك[3].

❑ انظر إلى الزبير ومنزلته العظيمة عند رسول اللَّه ﷺ:

كان الزبير يقول: «**جمع لي رسول اللَّه ﷺ** أبويه مرتيْن: في أُحد وفي قريظة»[4]

---

(١) **انظر:** مختصر تاريخ دمشق (٩/١٨).

(٢) بكسر أوله وثانيه (لية).

(٣) مغازي الواقدي (٣/٩١٧)، وسيرة ابن هشام (٤/٩٧)، وتهذيب ابن عساكر (٥/٣٥٩)، والبداية والنهاية (٤/٣٣٦، ٣٣٧)، وموسوعة الغزوات (حنين) (١٢٨ - ١٣٠).

(٤) الرياض النضرة، للمحب الطبري (٢/٣٥٧) والاستيعاب (٢/٥١٣)، وأُسْد الغابة (٢/١٩٧).

وكان الزبير أحد ثمانية تُوفي النبي وهو عنهم راض كما قال عمر بن الخطاب.

❏ جهاده مع الصديق

بعد أن ارتدت العرب، أنذر أبو بكر أهل المدينة بالخطر، وحشد المقاتلين بعدة القتال في المسجد، وجعل على مداخل المدينة علي بن أبي طالب، والزبير، وعبدالله بن مسعود[١]، ولم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثة أيام حتى زحف عليهم مانعو الزكاة، فأحس العسس[٢] المقيمون على مداخل المدينة قدوم القبائل، فأرسل علي بن أبي طالب، والزبير، وطلحة بن عُبيد اللَّه بالخبر إلى أبي بكر، فأجابهم: «**الزموا أماكنكم**»، وخرج في أهل المسجد على الإبل حتى بلغ مواقع القبائل المهاجمة[٣]، فاستطاع التغلب عليهم ودفع خطرهم عن المدينة[٤].

❏ ثبات الزبير في يوم اليمامة وحسن بلائه وشجاعته

عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا لِلزُّبَيْرِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ: أَلَا تَشُدُّ فَنَشُدَّ مَعَكَ. فَقَالَ: إِنِّي إِنْ شَدَدْتُ كَذَبْتُمْ. فَقَالُوا: لَا نَفْعَلُ. فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى شَقَّ صُفُوفَهُمْ، فَجَاوَزَهُمْ وَمَا مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ رَجَعَ مُقْبِلًا فَأَخَذُوا بِلِجَامِهِ فَضَرَبُوهُ ضَرْبَتَيْنِ عَلَى عَاتِقِهِ بَيْنَهُمَا ضَرْبَةٌ ضُرِبَهَا يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ عُرْوَةُ: كُنْتُ أُدْخِلُ أَصَابِعِي فِي تِلْكَ الضَّرَبَاتِ أَلْعَبُ وَأَنَا صَغِيرٌ. قَالَ عُرْوَةُ: وَكَانَ مَعَهُ عَبْدُاللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، فَحَمَلَهُ عَلَى فَرَسٍ وَوَكَّلَ بِهِ رَجُلًا[٥].

قال الذهبي في السِّير معلقًا: «هذه الوقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله؛ فإن عبداللَّه كان إذْ ذاك ابن عشر سنين»[٦].

---

(١) الطبري (٤٧٦/٢، ٤٧٧)، وابن الأثير (١٣١/٢).

(٢) العسس: الحفراء والحراس الليليون. وعَسَّ: طاف بالليل. وَعَسَسٌ: جمع عاسس.

(٣) الطبري (٤٧٧/٢).

(٤) الطبري (٤٧٧/٢ - ٤٧٩)، وابن الأثير (١٣١/٢، ١٣٢).

(٥) رواه البخاري (٣٩٧٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (٦٢/١، ٦٣).

وذكر ابن كثير أن الموقعة هي «**اليرموك**»، ولا مانع من وقوع ذلك في الموقعتين.

ويا لروعة إقدام الزبير حين يحجم الأبطال من صحابة رسول اللَّه ﷺ ولا يصبرون معه.

❑ الزبير أحد الذين أشاروا على الصديق بغزو أرض الشام

كان الزبير أحد كبار المهاجرين من أمثال عمر، وعلي، وطلحة، وعبدالرحمن بن عوف، الذين كانوا يؤلفون هيئة شورى أبي بكر، وكان مركز القيادة العامة قويًّا بهم وبما يضعون من خطط ويدبرون من أمور، فكان الزبير أحد الذين أشاروا على أبي بكر بغزو الشام[١].

❑ في يوم اليرموك يحمل الزبير على الروم ويشق صفوفهم

سار الزبير مع المجاهدين في أيام أبي بكر إلى أرض الشام، فشهد معركة اليرموك الحاسمة قائدًا لأحد الكراديس[٢]، فحمل على الروم حتى شق صفوفهم، ثم عاد أدراجه وقد جُرح جرحًا غائرًا[٣].

قال ابن كثير: «وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبيرُ بن العوام، وهو أفضل مَنْ هناك مِنَ الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ، فقالوا: ألا تحملُ فنحمل معك؟ فقالوا: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوفَ الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجُرح يومئذٍ جُرحَيْنِ بين كتفيْه. وفي رواية: جُرْحٌ»[٤].

ويقول ابن كثير مرة أخرى: «خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليَرْمُوك،

---

(١) قادة فتح الشام ومصر، لمحمود شيت خطاب ص (٢٠٧).

(٢) الطبري (٥٩٤/٢)، وتهذيب ابن عساكر (٣٥٥/٥).

(٣) فتح الباري (٢٣٣/٧، ٢٣٤).

(٤) البداية والنهاية (١١/٧).

فتشرَّفوا بحضوره، وكانت له بها اليد البيضاء، والهمة العليا، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتَيْنْ، مِن أولهم إلى آخرهم»[١].

❑ الزبير قائد جيش المدد لفتح مصر، وفاتح حصن بابليون[٢]، والساعد الأيمن لفتح مصر

«ولما قصد عمرو بن العاص مصر لفتْحها كانت معه قوَّات تبلغ ثلاثة آلافٍ وخمس مئة رجل[٣]، كتب إلى عمر بن الخطاب يستمدُّه[٤]، فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفًا[٥]، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومَسْلمة بن مُخَلَّد. وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع[٦]. وكتب إليه: إني أمددتك بأربعةِ آلافٍ، على كل ألفٍ منهم رجل مقام ألفٍ. وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال»[٧].

وكان الزبير قد هَمَّ بالغزو وأراد إتيان إنطاكية، فقال له عمر: «يا أبا عبدالله! هل لك في ولاية مصر؟ فقال: لا حاجة لي فيها، ولكن أَخْرُجُ مجاهدًا، وللمسلمين معاونًا، فإن وجدت عَمْرًا قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به، وإن وجدته في جهاد كنت معه. فسار على ذلك»[٨].

وحين قدم الزبير على عمرو وجده مُحاصِرًا حصن «**بابليون**»، فلم يلبث الزبير أن

---

(١) البداية والنهاية (٧/٢٦٠).

(٢) بابليون: اسم عام لديار مصر بلغة القدماء، وقيل: هو اسم لموضع الفسطاط خاصة، وهذا الحصن هو موضع مدينة الفسطاط يقع في القاهرة القديمة.

(٣) البلاذري ص (٢١٤).

(٤) فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم ص (٩١).

(٥) البلاذري (٢١٤)، وفتوح مصر والمغرب ص (٩٢).

(٦) فتوح مصر والمغرب ص (٩٢)، ومعجم البلدان (٦/٣٨٧).

(٧) فتوح مصر والمغرب ص (٦١)، ومعجم البلدان (٦/٣٧٦).

(٨) البلاذري ص (٢١٤).

ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرق الرجال حول الخندق[(١)]، وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهرٍ، فقيل للزبير: «إن بها الطاعون»، فقال: «إنما جئنا للطعن والطاعون»[(٢)].

«وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبير: «إني أهِبُ نفسي لله، أرجو أن يفتح اللَّه بذلك على المسلمين»، فوضع سُلَّمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سُوق الحمَّام ثم صَعِد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فتحامل الناس على السُّلم حتى نهاهم عمرو؛ خوْفًا من أن ينكسر، فلما رأى الرُّوم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فَتَحَ حصنُ بابليون أبوابه للمسلمين؛ فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر»[(٣)].

«وكانت شجاعة الزبير النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المُقَوْقِس في معركة «**بابليون**» الحاسمة التي فتحت للعرب المسلمين أبواب مصر على مصراعيها»[(٤)].

ولله دَرُّ حسان حين يقول:

أقام على عهْد النبِّي وهَدْيِهِ ... حواريُّه والقوْلُ بالفعلِ يُعْدَلُ

أقام على منهاجه وطريقِهِ ... يوالي وليَّ الحقِّ والحق أعْدَلُ

هو الفارِسُ المشهورُ والبطلُ الذي ... يصولُ إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ

إذا كشفتْ عن ساقها الحربُ حَشَّهَا ... بأبيض سباق إلى الموت يُرْقل[(٥)]

وإنَّ امرأ كانت صفيةُ أمَّهُ ... ومِن أسَدٍ في بيتها لَمُؤَثَّل

---

(١) فتوح مصر والمعرب ص (٩٢).

(٢) طبقات ابن سعد (١٠٧/٣)، والبلاذري ص (٢١٥).

(٣) فتوح مصر والمغرب ص (٩٤)، ومعجم البلدان (٣٧٨/٦)، والبلاذري ص (٢١٥).

(٤) قادة فتح الشام ومصر ص (٢٠٩، ٢٢٧).

(٥) يقال: أرقل القوم إلى الحرب إرقالًا: أسرعوا. والإرقال: ضرب من الخبب؛ وهي: سرعة سير الإبل.

له من رسول اللّه قربى قريبةٌ ... ومن نُصْرة الإسلام مجْدٌ مُؤثَّلُ
فكمْ كُرْبَةٍ ذَبَّ الزبيرُ بسيفِهِ ... عن المصطفَى واللهُ يُعْطي فيُجزلُ
ثناؤُكَ خيرٌ من فَعالِ معاشرٍ ... وفعلُكَ يابنَ الهاشِمِيةِ أفضلُ
فما مثله فيهم ولا كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبُلُ[1].

❏ الزبير وسيفه

قال الإمام سفيان الثوري: نجدة الصحابة: حمزة، وعليٌّ، والزبير.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الزبير ركن من أركان الدين[2].

وقال عامر الشعبي: «أدركت خمس مئة أو أكثر من الصحابة يقولون: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير في الجنة»[3].

قال الإمام الذهبي معلقًا بقوله: **«لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، من البدريين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذين أخبر ـ تَعَالَى ـ أنه رَضِيَ عَنْهُمْ ورضوا عنه؛ ولأن الأربعة قتلوا، ورزقوا الشهادة، فنحن محبون لهم، باغضون للأربعة الذين قَتَلُوا الأربعة»**.

وقيل لعلي بن أبي طالب وهو في مسجد الرسول ﷺ: **«من أشجع الناس يا أبا الحسن؟»**، فقال: **«ذاك ـ وأشار إلى الزبير ـ الذي يغضب كالنمر وَيَثِبُ وُثُوبَ الأسد»**[4].

وسأل أبو بكر الصديق عمرو بن العاص عن الزبير فقال: **«شجاعٌ جَسِرٌ»**[5].

قال عروة بن الزبير: وقال لي عبدالملك بن مروان حين قُتل عبداللّه بن الزبير: يا عروة هل تعرف سيف الزبير؟ قلت: نعم. قال: فما فيه؟ قلت: فَلَّة فُلَّها يوم بدر. قال:

---

(١) ديوان حسان (١٩٩، ٢٠٠) (ط/ دار صادر البيروتية). ويذبل: جبل مشهور بنجد.
(٢) الكامل (١٠٥/٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٦٢/١).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٣٦٢/٥).
(٥) اليعقوبي (١٠٧/٢).

صدقت «**بِهِنَّ فلول من قراع الكتائب**»، ثم ردَّه على عروة[١].

«وهو من المدح في معرض الذم؛ لأن الفلَّ في السيف نقص حِسِّيٌّ، لكنه لما كان دليلًا على قوة ساعد صاحبه كان من جملة كماله».

وكان في صدره أمثال العيون من الطعن والرمي[٢]. كما قال علي بن زيد عمن رأى الزبير: لقد تحمَّل الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في سبيل اللَّه ما تحمَّل حتى لم يبق عضو من أعضائه إلا وقد جُرِح مع رسول اللَّه ﷺ حتى انتهى إلى فرجه[٣].

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب: «إن شجاعة وإقدام الزبير كانا مضرب الأمثال، وهما المزيتان البارزتان من بين مزايا قيادته، والحق أنه كان جنديًّا ممتازًا يتحلى بكل مزايا الجندي الممتاز: عقيدة راسخة، وضبط متين، وعقلية متزنة، وشجاعة شخصية، وتدريب جيد، وقابلية بدنية، ومعنويات عالية، وبهذه المزايا برز الزبير بطلًا في كل معركة خاضها في أيام النبي ﷺ وبعده. وقد تولى منصب قيادة المدد في أيام عمر، فكان لشجاعته أثر حاسم في انتصار المسلمين في معركة بابليون الحاسمة»[٤].

❑ حبه للشهادة وتمنيه لها، وشهادة النبي له بأنه شهيد

عن عروة بن الزبير قال: قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عُبيد اللَّه التيمي يُسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد عُلم أن لا نبي بعد محمد، وإني أُسمِّي بَنِيَّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يُسْتَشْهَدُوا. فسمى عبداللَّه بـ«عبداللَّه بن جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، والمنذر بـ«المنذر بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، وحمزة بـ«حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، وجعفرًا بـ«جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، ومصعبًا بـ«مصعب بن عمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، وعبيدة بـ«عبيدة بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، وخالدًا بـ«خالد بن سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، وعَمْرًا بـ«عمرو بن سعيد بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» قُتل يوم

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، حديث رقم (٣٩٧٣).
(٢) صفة الصفوة (١/١٣٤).
(٣) أُسْد الغابة (٢/١٩٧).
(٤) قادة فتح الشام ومصر ص (٢٢٧، ٢٢٨).

اليرموك(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اهدأ فما عليك إلا نبي، أو صِّديق، أو شهيد**»(٢).

رجع الزبير لم يشهد معركة الجمل، فقال له رجل من كلب: أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذهما، فإن أحدًا من الناس لا يقدم عليك وأنت فارس أبدًا. فتعقبه عمرو بن جرموز التميمي، وطعنه من خلفه وهو متوجه يصلي وقتله.

ولما أتى قاتل الزبير عليًّا برأسه يستأذن عليه، لم يأذن له.

عن زر بن حبيش قال: استأذن ابن جرموز على علي رضي الله عنه وأنا عنده، فقال علي رضي الله عنه: بشر قاتل ابن صفية بالنار. ثم قال علي رضي الله عنه سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن لكل نبي حواريًّا، وحواريي الزبير**»(٣).

قال: قال أبي: سمعت سفيان يقول: الحواري: الناصر.

وحين أدخلوا على علي سيف الزبير، قبلَّه الإمام علي وأمعن في البكاء وهو يقول: «**سيفٌ طالما واللَّه جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله..!!**»، أو «**إن هذا سيف طالما فرج الكرب عن رسول اللَّه ﷺ**»(٤). وقال بنو تميم قوم ابن جرموز يخاطبونه: «**فضحت واللَّه اليمن بأسرها؛ قتلت الزبير رأس المهاجرين، وفارس رسول الله،**

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠١/٣).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٧)، والترمذي (٣٦٩٦)، وقال: (هذا حديث صحيح)، وأحمد (٤١٩/٢)، والنسائي في (فضائل الصحابة) (١٠٣).

(٣) **حسن**: رواه أحمد (٨٩/١)، وأخرجه الترمذي مختصرًا مقتصرًا على المرفوع (٣٧٤٤)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وأخرجه أيضًا أحمد (١٠٢/١، ١٠٣)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٣٨٨)، والطيالسي (١٦٣)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١٢٧٢، ١٢٧٣)، وابن سعد في (الطبقات) (٧٣/١/٣).

(٤) أُسْد الغابة (١٩٩/٢).

وحواريه، وابن عمته، واللَّه لو قتلته في حرب لعزَّ ذلك علينا وَلَمَسَّنَا عارُك، فكيف وهو في جوارك وذمتك؟! واللَّه ليزيدنك عليٌّ أن يشرك بالنار».

وقالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوجة الزبير ترثيه وتذكر غدر ابن جرموز به:

غدر ابن جرموز بفارس بُهْمة — يوم اللقاء وكان غير معرِّد[1]
يا عمرو لو نبَّهته لوجدته — لا طائشًا رعش الجنان ولا اليد
إن الزبير لذو بلاءٍ صادق — سمح سجيته كريم المشهد[2]

ولقد أوصى الزبير بثلث ماله يُنْفَقُ في سبيل الله، وكان جَمِيعَ مالِ الزبيرِ خمسون ألف ألف ومئتا ألف[3].

سَلَامٌ عَلَى الزُّبَيْرِ فِي مَمَاتِهِ بَعْدَ مَحْيَاهُ... سَلَامٌ عَلَيْهِ وَقَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ الشَّهَادَةَ وَمَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ... سَلَامٌ ثُمَّ سَلَامٌ عَلَى حَوَارِيِّ رَسُولِ اللَّه.

* * *

(١) بهمة: الجيش، وفلان فارس بهمة؛ أي: شديد البأس.
(٢) خزانة الأدب (٤/٣٥٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/١٠٨، ١٠٩)، وصفة الصفوة (١/١٣٥).

١٢

أمين الأمة

أبو عبيدة بن الجراح القرشي

فاتح أرض الشام

أمين الأمة
أبو عبيدة بن الجراح القرشي

فاتح أرض الشام

أمين الأمة..

أول من لقب بـ «أمير الأمراء»..

مَنْ أَمَّرَهُ رسولُ اللَّه ﷺ في حياته على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات، على جيش فيه أبو بكر وعمر.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إنَّ لكلِّ أمةٍ أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلًا أمينًا. فقال: **«لأبعثن إليكم رجلًا أمينًا حقَّ أمين»**، فاستشرف له الناسُ، فبعث أبا عبيدة بن الجراح[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩)، وأحمد (٣/١٣٣، ١٨٩، ٢٤٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٣٤٥)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٩٦)، وأبو يعلى (٥/١٩٠، ١٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٧٥).

وفي رواية لمسلم عن أنس: أن أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلًا يعلمنا السُّنة والإسلام. قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة»، وأخرجها ابن سعد (٣/١/٣٩٩)، وأحمد في «مسنده» (٣/١٢٥)، وفي «فضائل الصحابة» (١٢٧٩)، والحاكم (٣/٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨١)، ومسلم (٢٤٢٠)، والترمذي (٣٧٩٦)، وابن ماجه (١٣٦)، والنسائي في «فضائل الصحابة»، وأحمد في «المسند» (٥/٤٠١)، وفي «فضائل الصحابة» (١٢٧٦)، والطيالسي (٤١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٧٦)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٢٩٩، ٣٠٠)، وابن أبي شيبة (١٢٣٤٧، ١٢٣٤٨).

(٣) **حسن:** أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٣٠٠).

«وكما عاش أبو عبيدة مع الرسول ﷺ أمينًا، عاش بعد وفاة الرسول ﷺ أمينًا... يحمل مسئولياته في أمانةٍ تكفي أهل الأرض لو اغترفوا منها جميعًا»[1].

ولو لم يكن له إلا موقفه في سقيفة بني ساعدة لكفاه، وهو يجمع شمل المسلمين على أبي بكر.

وعن عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ قال: **«أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»**[2].

❑ أُنْزِلَ في فضله قرآن يُتلى إلى يوم القيامة:

فلقد كان له الموقف الزاهر الباهر في يوم بدر يوم أن قَتَلَ أباه؛ من أجل العقيدة.

عن عبدالله بن شوذب قال: «جعل أبو أبي عبيدة يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجرَّاحُ، قصده أبو عبيدة؛ فقتله؛ فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]»[3].

ما يمكن أن يَعْزِمَ أبو عبيدة هذه العزمة إلا بروح من الله تَنْفُضُ عن قلبه الطاهر

---

(١) رجال حول الرسول، لخالد محمد خالد ص (٢٦٢)، دار الريان للتراث.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (١/١٩٣)، وفي «فضائل الصحابة» (٢٧٨)، والترمذي (٣٧٤٧) وأبو يعلى (٢/١٤٨).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٢٦٥)، وسكت عنه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «سننه الكبرى» (٩/٢٦) «كتاب السير - باب المسلم يتوقى في الحرب قتل أبيه، ولو قتله لم يكن به بأس»، وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر. **انظر**: الدر المنثور (٦/١٨٦).

السليم كلَّ عرض من أعراض الدنيا الفانية، وتجرده من كلِّ رابطة وآصرة إلا رابطة العقيدة.

هذه صورة أمين هذه الأمة، صورة وضيئة للذي فعل ما لم يفعله أي بشر.

هذا مقام الأمين، وهو مقام عال رفيع .. انقطع عن كل شيء، ووصل نفسه بالله؛ فتقبله في كنفه، وكتب الإيمان في قلبه، وأفسح له في جنابه، وأشعره برضاه فرضي .. رضيت نفسه بهذا القرب، وَأَنِسَتْ به، واطمأنت إليه.

قال ابن كثير: «نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح حين قَتَلَ أباه يوم بدر»[(١)].

لله دَرُّك يا أبا عبيدة.. هذا موقف منك لا يشاركك فيه أحد.

اللَّـه لا ولـد أحـبُ ولا أبٌ ... منـه، فـأين المنـتـأى والمنـزَحُ[(٢)]
أفـمـا رأيتَ أبـا عـبـيـدةَ ثـائـرًا ... وأبـوه في يـده يُـتَـلُّ ويُـسـطَـحُ[(٣)]

هل قتل أبو عبيدة أباه يوم بدر؟! رأي آخر لشُرَّاب:

يقول الأستاذ محمد محمد حسن شُرَّاب: «لقد تناقلت كتب المغازي، والتاريخ، والتفسير: أن أبا عبيدة قَتَلَ أباه يوم بدر كافرًا، وَتَمَسَّكَ بهذا الخبر كثيرٌ من الوعاظ، وخطباء المساجد، ورجال الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، وأذاعوه شاهدًا لجواز أو وجوب خروج الابن على أبيه إذا اختلفا في الاتجاه السياسي أو المشرب الحزبي مع اتفاقهما في أصل الدين.

فهل يصح شيء من الطرق القائلة بأن أبا عبيدة قَتَلَ أباه يوم بدر؟!

الجواب: أن أبا عبيدة لم يقتل أباه يوم بدر، وليس في هذا خبر صحيح، أو حسن، أو ضعيف؛ فقد نُقِلَ الخبر في «**تاريخ دمشق**»، قال: وأخرج الحافظ من طريق البيهقي

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٧٣/٨)، **وانظر**: الإصابة (١١/٤، ١٢)، والسيرة الحلبية (١٧٨/٢).

(٢) المنتأى: محل البعد. والمنزح: مِنْ نَزَحَ إِذَا بَعُدَ.

(٣) يتل ويسطح بمعنى: يصرع.

عن عبدالله بن شوذب. وقال ابن حجر في «**الإصابة**»: وهو فيما أخرجه الطبراني عن عبدالله بن شوذب. وقال السيوطي في «**أسباب النزول**»: وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة حين قَتَلَ أباه يوم بدر ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وأخرجه الحاكم من طريق ضمرة بن ربيعة الفلسطيني عن عبدالله بن شوذب.

فكل طرق الخبر تنتهي عند عبدالله بن شوذب، وعبدالله بن شوذب وُلِدَ سنة (٨٦هـ)، وتوفي سنة (١٥٧هـ)، قالوا: إنه ثقة في رواية الحديث. وَلَكِنَّهُمْ يوثقون روايته عندما تكون مسندة متصلة الإسناد إلى الصحابي الذي سمع من رسول الله، ولو أنه قال: قال رسول الله... دون إسناد، ما قَبِلَ أحدٌ روايتَهُ؛ فهو ليس تابعيًّا صغيرًا، ولا تابعيًّا كبيرًا، وهم لا يقبلون مرسل التابعي الكبير؛ فكيف يقبلون معضل تابع التابعين؟! وإذا كانوا يتشددون في الأحاديث التي تتعلق بالحلال والحرام، ويتساهلون فيما عداها، فإن هذا الخبر يتصل أيضًا بِسُنَّةٍ جهاديةٍ، وهو متصل بالسيرة النبوية؛ لأن القصة حصلت في معركة بدر التي شهدها رسول الله ﷺ؛ وكل ما حصل في المعركة عَلِمَ به رسول الله ﷺ، وسكوته عليه يجعله سُنَّةً، ومن الحق ألا نقبل مثل هذا الخبر إلا إذا كان صحيحًا، وهذا الخبر لا يصح سندًا ولا متنًا.

أما السند: فهو معضل؛ لأن عبدالله بن شوذب بعيد جدًّا عن زمن الحدث، وهو رجل خراساني بصري شامي، لم يرحل إلى المدينة منبتِ الأخبار التي حصلت في العصر النبوي.

ولا يصح متنًا؛ لأن ابن عساكر نقل عن المفضل بن غسَّان أن الواقدي كان ينكر أن يكون أبو أبي عبيدة أدرك الإسلام، ويُنكر قول أهل الشام أن أبا عبيدة لقي أباه في زحفٍ؛ فقتله، وقال: سألت رجالًا من بني فِهْرٍ[1]؛ منهم: زفر بن محمد وغيره فقال:

(١) قوم أبي عبيدة بن الجراح.

توفي أبوه قبل الإسلام.

فالخبر ـ إذن ـ نشأ في الشام، وذاع في الشام، ولم يعرفه أهل الحجاز، ومثل هذا الخبر لو كان حصل، لتناقله أهل المدينة، ولكان ذاع بين قبيلة بني فهر؛ لأنه خبر غريب، وتميل النفوس إلى سماع الغرائب وروايتها.

قد يُقَالُ: إن الواقدي غير موثوق عند المحدثين.

قلتُ: ولكنه إخباري واسع الاطلاع، وينقلون عنه؛ لترجيح الآراء، وقد وُصِلَ خبره بسؤال بني فهر عن شيخهم.

فعبد اللَّه بن شوذب ثقة، خبره منقطع معضل، والواقدي ضعيف، خبره موصول، فإذا جعلنا الخبرين سواء في المنزلة، نخلص إلى القول: إن الخبر لا أصل له»[١].

«ثم ينقل قول الزمخشري في سبب نزول الآية وقوله: إنها نزلت في أبي بكر حين صَكَّ والده لما سَبَّ رسول اللَّه ﷺ كما زعموا.

وقوله: إنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح؛ قتل أباه الجراح في يوم أحد.. وليس في يوم بدر...

وقال شراب: «وقد فهم بعض العلماء أن الآية ترسم المنهج في التعامل مع الفاسقين الذين ينتمون إلى المسلمين، ولا يطبقون تعاليم الإسلام، فَنُقِلَ عن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان. وعن عبدالعزيز بن أبي رواد أنه لقيه المنصور ـ الخليفة العباسي ـ في الطواف، فلما عرفه هرب منه، وَتَلَا الآية... لقد عرض عبدالرحمن الباشا قصة أبي عبيدة في «صور من حياة الصحابة» عرضًا أدبيًّا، ومن شأن الأدباء أن يختاروا العناصر المثيرة في ترجماتهم، وأن لا يتحروا صحة

(١) أبو عبيدة عامر بن الجراح، لمحمد محمد حسن شراب ص (٧١- ٧٤) «دار القلم ـ سلسلة أعلام المسلمين».

الأخبار، فلما وصل إلى قوله: «فلما ضاق به ذرعًا ضرب رأسه بالسيف ضربة فلقت هامته فلقتين؛ فخرَّ الرجل صريعًا بين يديه».

وقال الباشا: «لا تحاول أيها القارئ الكريم أن تخمن من يكون الرجل الصريع؟! أما قلت لك: إن عنف التجربة فاق حسبان الحاسبين وجاوز خيال المتخيلين، ولقد يتصدع رأسك إذا عرفت أن الرجل الصريع هو عبداللَّه بن الجراح والد أبي عبيدة»، ثم قال الباشا: «لم يقتل أبو عبيدة أباه، وإنما قتل الشرك في شخص أبيه...» إنه تبرير أدبي، لا يمنع انغلاق رأس قارئ قصة أبي عبيدة، يستوي في ذلك المؤمن والكافر[1].

❑ جهاده في أحد، وثباته مع النبي ﷺ:

شهد أبو عبيدةَ أُحُدًا، وثبت مع رسول اللَّه ﷺ حين انهزم الناس وولوا؛ قال أبو بكر الصديق: «لما كان يوم أحد، ورُمِيَ رسول اللَّه ﷺ في وجهه حين دخلت في وجنتيه حلقتان من المِغْفَر[2]، فأقبلت أسعى إلى رسول اللَّه ﷺ، وإنسان قد أقبل من قِبَل المشرق يطير طيرانًا، فقلت: اللهم اجعله طاعة، حتى توافينا إلى رسول اللَّه ﷺ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بدرني، فقال: أسألك باللَّه أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجنة رسول اللَّه ﷺ. فتركته؛ فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتي المِغْفَرِ؛ فنزعها، وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى، فسقطت؛ فكان أبو عبيدة في الناس أثرم»[3].

وثبت أبو عبيدة في ميدان المعركة وأبلى بلاء حسنًا[4].

---

(١) المصدر السابق ص (٧٦، ٧٧، ٧٨).

(٢) المغفر: زرد يلبس فوق الرأس عند الحرب.

(٣) طبقات ابن سعد (١٣/٤١٠). والثرم ـ بالتحريك ـ: سقوط الثنية؛ وهي: واحدة الأسنان الأربع، **وانظر:** سيرة ابن هشام (٣/٢٨)، ونقل ابن عساكر عن الواقدي: أن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول الله هو عقبة بن وهب بن كلدة، ورجحه، ونقل ذلك عن ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٢/٤٩٢).

(٤) مغازي الواقدي (١/٢٤٠).

❑ سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصَّة في ربيع الآخر من السنة السادسة من الهجرة:

لما أجمع «**بنو محارب**» و«**ثعلبة**» وأغاروا على مواشي المدينة وهي ترعى بـ«**هيفاء**»[١]، بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة في أربعين رجلًا، فساروا حتى وصلوا إلى «**ذي القصة**»[٢]، فأغاروا على أولئك القوم، وأخذ أبو عبيدة بعض ما لديهم من النعم، ولكن المشركين أعجزوهم هربًا في الجبال، وَأَسَرَ أبو عبيدة رجلًا واحدًا من المشركين؛ فأسلم[٣].

❑ بَعْث النبي لأبي عبيدة على رأس مدد فيهم الصديق والفاروق:

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة في المهاجرين الأولين ـ فيهم أبو بكر وعمر ـ مددًا لعمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل، وقال له: «**لا تختلفا**»، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم على عمرو، قال له عمرو: «إنما جئت مددًا لي»؛ قال أبو عبيدة: «لا، ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه»؛ فقال عمرو: «بل أنت مدد لي»؛ فقال أبو عبيدة: «يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك»[٤].

❑ سرية أبي عبيدة في رجب من السنة الثامنة من الهجرة إلى القَبَلِيّةِ:

بعث رسول الله أبا عبيدة في ثلاث مئة رجل من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى حي من «**جهينة**» بـ «**القَبَلِيّة**» مما يلي ساحل البحر؛ فأصابهم في الطريق جوع شديد حتى أكلوا الخبط[٥]، فابتاع لهم قيس بن سعد جزرًا، ونحرها لهم،

---

(١) هيفاء: موضع على بعد أربعة أميال من المدينة.

(٢) ذو القصة: موضع عل بُعْدِ أربعة وعشرين ميلًا من المدينة.

(٣) طبقات ابن سعد (٨٦/٢، ٤١١/٣)، وعيون الأثر في فنون المغازي والسير (١٠٥/٢).

(٤) سيرة ابن هشام (٢٩٩/٣)، وطبقات ابن سعد (١٣١/٢)، والإصابة (١٢/٤).

(٥) الخبط: ورق الشجر.

وألقى لهم البحرُ حوتًا عظيمًا فأكلوا منه، ثم انصرفوا دون أن يلقوا كيدًا[١].

☐ غزوة سِيفِ[٢] البحر أو غزوة الْخَبَطِ[٣]:

عن جابر بن عبدالله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثًا قِبَلَ الساحل، وَأَمَّرَ عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاث مئة؛ فخرجنا وكُنَّا ببعض الطريق فَنِيَ الزادُ؛ فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فَجُمِعَ؛ فكان مِزْوَدَيْ[٤] تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلًا قليلًا حتى فَنِيَ، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة[٥]؛ فقلتُ: ما تغني عنكم تمرة[٦]؟ فقال: لقد وجدنا فَقْدَهَا حين فَنِيَتْ. ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظَّرِبِ[٧]؛ فأكل منه القوم ثماني عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فَنُصِبَا، ثم أمر براحلة فَرُحِلَت، ثم مَرَّتْ تحتهما، فلم تصبهما»[٨].

وقال جابر بن عبدالله: بعثنا رسول الله ﷺ ثلاث مئة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عير قريش، فأقمنا بالساحل نصف شهر؛ فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط؛ فسُمي ذلك الجيش جيش الخبط، فألقى لنا البحر دابة يُقال لها:

---

(١) طبقات ابن سعد (١٣٢/٢)، وسيرة ابن هشام (٣٠٩/٣)، وفتح الباري (٢٦/٨).

(٢) سيف البحر؛ أي: ساحل البحر. بعث الجيش يتلقون عيرًا لقريش ويقصدون حيًّا من جهينة.

(٣) الخَبَط: ورق السَّلم.

(٤) المِزْود: ما يُجْعَلُ فيه الزاد.

(٥) للجمع بين رواية البخاري ورواية مسلم يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦٧٩/٧): «ويمكن الجمع بأن الزاد العام كان قدر جراب. فلما نفد وجمع أبو عبيدة الزاد الخاص اتفق أنه ـ أيضًا ـ كان قدر جراب، ويكون كل من الراويين ـ عند البخاري ومسلم ـ ذَكَرَ ما لم يذكره الآخر، وأما تفرقة ذلك تمرة تمرة فكان في ثاني الحال».

(٦) عند مسلم من رواية أبي الزبير ـ أيضًا ـ: أنه سُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد وجدنا فقدها حين فنيت»؛ أي: مؤثرًا. وفي رواية أبي الزبير «فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصُّها كما يمصُّ الصبي الثدي، ثم نشرب عليها الماء؛ فتكفينا يومنا إلى الليل».

(٧) الظَّرِب: الجبل الصغير.

(٨) رواه البخاري ومسلم، وزاد مسلم في رواية أبي الزبير: «فأخذ أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا فأقعدهم في وقب عينه»، والوقب: حفرة العين في عظم الوجه.

«**العنبر**»؛ فأكلنا منه نصف شهر، وَادَّهَنَّا من وَدَكِهِ[١] حتى ثابت إلينا أجسامنا، فأخذ أبو بريدة ضلعًا من أضلاعه فنصبه، فعمد إلى أطول رجل معه ـ قال سفيان مرة: ضُليعًا من أضلاعه فنصبه، وأخذ رجلًا وبعيرًا فَمَرَّ تحته ـ قال جابر: وكان رجل من القوم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نَهَاهُ»، وكان عمرو بن دينار يقول: «أخبرنا أبو صالح أن قيس بن سعد قال لأبيه: كنتُ في الجيش فجاعوا؛ قال: انحرْ. قال: نحرتُ. قال: ثم جاعوا؛ قال: انحر. قال: نحرتُ. قال: ثم جاعوا؛ قال: انحر. قال: نحرت. ثم جاعوا؛ قال: انحرْ. قال: نُهيتُ»[٢].

وعن جابر ﷺ قال: غزونا جيش الخبط، وَأُمِّرَ أبو عبيدة فَجُعنا جوعًا شديدًا، فألقى البحر حوتًا ميتًا لم نر مثله يقال له: «**العنبر**»؛ فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه، فمرَّ الراكب تحته. فأخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرًا يقول: قال أبو عبيدة: كلوا. فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبي ﷺ؛ فقال: «**كلوا رزقًا أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم**»؛ فأتاه بعضهم بعضو فأكله»[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث مشروعية المواساة بين الجيش عند وقوع المجاعة».

وفي هذه السرية وشأنها العجيب يقول أحمد محرم:

هُمْ سادة الحرب من شيب وَشُبَّان ... ساروا سِراعًا فما في القوم من وَانِ[٤]

(١) ودكه؛ أي: شحمه.
وفي رواية أبي الزبير: «فلقد رأينا نعترف من وقب عينه بالقلال الدهنَ، ونقطع منه الفِدَرَ كالثور».
والوقب: هي النقرة التي تكون فيها الحدقة. والفِدَر ـ بكسرة الفاء وفتح الدال ـ: جمع فَدْرة ـ بفتح ثم سكون ـ: وهي: القطعة من اللحم ومن غيره.

(٢) رواه البخاري واللفظ له، وأخرجه مسلم.

(٣) رواه البخاري واللفظ له، وأحمد، وابن أبي عاصم في كتاب الأطعمة.

(٤) وَان: ضعيف.

حيدي جُهينةُ أو بِيدي مُذَمَّمَةً ... حُمَّ القضاءُ وخَفَّتْ أسْدُ خفَّانِ[١]

سريّةُ الله ترمى عن يَدَيْ بطلٍ ... عالي اللواءِ رفيعِ القدر والشَّانِ

أبا عُبيدةَ أوْرِدْها مُظَفَّرَةً ... مواردَ النصر تشفِي كلَّ حَرّانِ

ما للحفيظةِ إن جاشَتْ مَراجِلُهَا ... إلا القواضِبُ تُسْقى بالدَّم القاني

خانت قريش وأمسى عهدها كذبًا ... فَبَادِرِ العيرَ واضرب كل خوان

لا يعجبنَّ جُناة الشرِّ إنْ حَصدوا ... ما يزرعُ الشؤمُ من بَغْيٍ وعدوانِ

لا تبتئسْ بجرابِ التَّمْرِ يحملُهُ ... أولو الحمية من صَحْبٍ وإخوانِ

أعجوبةٌ مالها في الدهر من مَثَلٍ ... لكنَّ ربك ذو فضل وإحسانِ

إنْ ينفدِ الزادُ أغناكم وزوَّدَكُمْ ... ما ليس ينفدُ من تقوى وإيمان

كُلُوا من الخَبْط نعم الخَبْطُ من أُكُلٍ ... لكل ذي سغَبٍ في اللّه طَيَّانِ[٢]

حيّاكُمُ اللّه من صِيدٍ غطَارِفةٍ ... يلقون في البؤس عيش النَّاعم الهانِي

هِيَ النفوسُ بناها اللهُ من شمم ... نِعمَ البناءُ وجَلَّتْ قدرةُ الباني

إذا تدفق دين المرء في دمه ... سَرَتْ معانيه في رُوحٍ وجُثمانِ

رمتْ جُهينةُ بالأبصار من فزعٍ ... فلم تجد غير أبطالٍ وفرسانِ

لاذت بأكنانها القُصوى ولو قدرتْ ... لاذتْ من الزاخر الطامي بأكنان[٣]

وولَّتِ العير يُخشى أن يُحاط بها ... من الألى هم ذووها كلُّ شيطانِ

ماذا على القوم يرضى البأسُ إن غَضبوا ... أن لا يفوزوا بأكفاءٍ وأقرانٍ؟

أبوا بخيرٍ وآبَتْ كلُّ طائفةٍ ... من الأولى كَرِهوا الحسنى بخسران[٤]

❑ جهاده بعد رسول اللّه ﷺ

استعمل أبو بكر الصديق أبا عبيدة على جيش من جيوش المسلمين، وأمره

---

(١) موضع أشب الغياض كثير الأُسْد، وقال الجوهري: هو مأسدة.

(٢) جوعان.

(٣) أكنان: جمع كنٍّ؛ وهو: البيت ووقاء كل شيء وستره.

(٤) ديوان «مجد الإسلام، لأحمد محرم» ص (٥٥٧ - ٥٦٠).

بحمص، وكان نص أمر أبي بكر الذي أصدره لقادة الشام: «**إذا اجتمعتم على قتالٍ، فأميركم أبو عبيدة**»[(١)]، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك[(٢)]، ولكن أبا بكر أصر على رأيه؛ فسلك أبو عبيدة طريق «**المُعْرِقة**» حتى نزل «**الجابية**»، وكان عدد جيشه سبعة آلاف وخمس مئة رجل.

وما كادت جيوش المسلمين تصل إلى أرض الشام، حتى بعث هرقل قادته وجيوشه باتجاه قادة وجيوش المسلمين[(٣)]؛ ليشغل جيوش المسلمين بعضهم عن بعض، وليحول دون تعاون قادة المسلمين فيما بينهم، ولتضعف كل فرقة من المسلمين عمن بإزائها من الروم، ولكن قادة المسلمين فَوَّتُوا على الروم هذه الفرصة باجتماعهم في اليرموك؛ استعدادًا لمواجهة الروم جيشًا واحدًا يقوده قائد واحد.

❑ **في اليرموك:**

استمد أبو عبيدة بعد اجتماع المسلمين في اليرموك أبا بكر؛ فقال أبو بكر: «**خالد لها!!**»؛ فبعث إليه وهو بالعراق، وعزم عليه، واستحثه في السير[(٤)].

وطلع خالد على المسلمين؛ ففرحوا به فرحًا شديدًا؛ فكان خالد قائدًا عامًّا في معركة اليرموك الحاسمة، وكان أبو عبيدة في القلب[(٥)]، فهاجم خالد «**القلب**» الرومَ حتى كان بين مشاتهم وفرسانهم، وكان هجوم القلب صاعقًا، فلما وجدت خيول الروم منفذًا لها للهرب، تركت ساحة المعركة هاربة[(٦)]؛ وبذلك قضى المسلمون على مشاة الروم؛ فانتهت معركة اليرموك الحاسمة بانتصار المسلمين.

---

(١) البلاذري (١١٦)، وفتوح الشام، للواقدي (٨/١).

(٢) البلاذري (١١٦).

(٣) الطبري (٥٩٠/٢)، وابن الأثير (١٥٥/٣).

(٤) الطبري (٥٩١/٢).

(٥) الطبري (٥٩٣/٢)، وابن الأثير (١٥٨/٢). والقلب: هو القسم الأكبر من الجيش كما يطلق عليه في الاصطلاحات العسكرية الحديثة.

(٦) الطبري (٥٩٦/٢)، وابن الأثير (١٥٨/٢).

❑ بعد اليرموك:

تولى أبو عبيدة بعد اليرموك منصب القيادة العامة في أرض الشام[١]؛ وذلك لأن عمر عهد إليه بمنصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر، وكان يقول: «**لا أمير على أبي عبيدة**»، ويصير تحت إمرته أكثر جيوش الإسلام طولًا وعرضًا.. عتادًا وَعُدَّةً.

استخلف أبو عبيدة على «**اليرموك**» بشير بن كعب الحميري، وسار حتى نزل بـ«**الصُفَّرِ**»، وهناك أتاه الخبر بأن المنهزمين من الروم اجتمعوا بـ«**فحل**»، وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل دمشق من «**حمص**»؛ فكتب إلى عمر في ذلك؛ فأجابه بأن يبدأ بدمشق؛ لأنها حصن الشام وعاصمتها، وأن يشغل أهل «**فِحْل**» بخيل تكون بإزائهم، وإذا فتح دمشق صار إلى «**فِحْل**»، وكان نَصُّ وصايا عمر - كما ورد في الطبري (٢/ ٦٢٥) -: «أما بعد: فابدءوا بدمشق، فَانْهَدُوا لها؛ فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل «**فحل**» بخيل تكون بإزائهم في نحورهم، وأهل فلسطين وأهل حمص، فإنْ فتحها اللَّه قبل دمشق، فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح اللَّه دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تُغِيرَ على «**فحل**»، فإن فتح اللَّه عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرًا وأجلهما بالأردن وفلسطين، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته».

❑ في دمشق:

سار أبو عبيدة بالناس من «**المرج**» وعلى مقدمته خالد بن الوليد، وعلى المجنبتين عمرو بن العاص وأبو عبيدة نفسه، وعلى الخيل عياض بن غنم، وعلى الرجال شرحبيل بن حسنة، فقدموا على دمشق، وحصروا أهلها، وطوقوها؛ فكان أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية الباب الشرقي، فحاصروا أهل دمشق نحوًا من سبعين

---

(١) ابن لأثير (١٥٨/٢)، وطبقات ابن سعد (٣٩٧/٣)، واليعقوبي (١١٧/٢).

ليلة حصارًا شديدًا بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون وصول الإمدادات، فلما أيقن أهل دمشق أن الإمدادات لا تصل إليهم، فشلوا، ووهنوا، وازداد المسلمون طمعًا فيهم.

وانتهز خالد فرصة انشغال أهل المدينة في احتفالهم بمولد طفل للبطريق؛ فاعتلى هو وأصحابه السور وفتحوا الباب، فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح؛ فقبل منهم وفتحوا له الباب، وقالوا له: ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب. فدخلها خالد عنوة ودخلها أبو عبيدة صلحًا(١).

حياك اللَّه أبا عُبيدة.. وحيا اللَّه دينًا أنجبك، ورسولًا علمك..

كان عمر رضي الله عنه يقول: «**لا أمير على أبي عبيدة**»(٢)؛ ولذا عزل خالد بن الوليد وَوُلِّيَ أبو عبيدة إمرة جيش المسلمين، وذلك في أثناء حصارهم لدمشق، الذي لم يتم فتح دمشق فيه، وكتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه، ولم يخبر خالدًا بعزله؛ إكرامًا له وإجلالًا(٣).

كتم أبو عبيدة هذا الخبر في نفسه، طاويًا عليه صدر زاهدٍ فطنٍ أمينٍ، حتى انتهت المعركة، وعلم خالد بأمر عزله؛ فأقبل حتى دخل على أبي عبيدة؛ فقال: «يغفر الله لك؛ أتاك كتاب أمير المؤمنين بالولاية فلم تُعلمني، وأنت تصلي خلفي، والسلطان سلطانك؟!» فقال أبو عبيدة: «وأنت يغفر اللَّه لك، ما كنتُ لِأُعْلِمَكَ ذلك حتى تَعْلَمَهُ من عند غيري، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله، ثم قد كنتُ أُعْلِمُكَ إن شاء الله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وإنَّ ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوانٌ وقُوَّامٌ بأمر اللَّه عز وجل، وما يضرُّ الرجلَ أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد أن يكون أدناهما إلى الفتنة

(١) الطبري (٢/٦٢٤ - ٦٢٧).
(٢) فتوح الشام، للواقدي (١/٨).
(٣) ابن الأثير (٢/٢٧٨).

وأوقعهما في الخطيئة؛ لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله ﷻ وقليل ما هم».

وقام خالد وقال للناس: «**بُعث عليكم أمين هذه الأمة**»، وقال أبو عبيدة للناس عن خالد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة**»[١].

لقد سار أمين هذه الأمة تحت راية الإسلام أنى سارت جنديًا؛ كأنه بفضله وإقدامه الأمير.. وأميرًا؛ كأنه بتواضعه وإخلاصه واحدًا من عامة المقاتلين.

❏ بعد دمشق:

سار أبو عبيدة بعد فتح دمشق إلى «**فِحْل**» بعد أن استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق؛ فشهد انتصار المسلمين في هذه المعركة التي كان من نتائجها فتح الأردن على يد شرحبيل بن حسنة[٢]، وبينما كان أبو عبيدة يخوض معركة «**فحل**»، كان يزيد بن أبي سفيان يخوض معارك فتح ساحل دمشق: صيدا، وعِرْقَة، وبيروت[٣].

❏ إكمال فتح سورية:

انصرف أبو عبيدة بخالد بن الوليد ومن معه إلى «**حمص**»، وفي طريقه إليها اصطدم بقوات الروم في «**مرج الروم**»، وأرسل خالدًا؛ ليضرب من الخلف قوات الروم التي قصدت دمشق؛ فاستطاع خالد كما استطاع أبو عبيدة الانتصار على الروم.

واستمر أبو عبيدة في مسيره باتجاه هدفه «**حمص**»، فسلك طريق «**بعلبك**»؛ فطلب أهلها الأمان؛ فأمنهم، وصالحهم، وسار عنهم، فنزل على «**حمص**» ومعه خالد؛ ففتحها بعد حصار طويل على مثل صلح دمشق[٤]، ثم مضى إلى «**حَماة**»؛ فتلقاه

---

(١) الإصابة (٥٩٥/٢)، وأُسْد الغابة (٥٨/٣)، والاستيعاب (٧٩٤/٢).
(٢) الطبري (٦٢٨/٢ - ٦٣٠)، وابن الأثير (١٦٥/٢، ١٦٦).
(٣) ابن الأثير (١٦٥/٢).
(٤) الطبري (٩٧/٣)، وابن الأثير (١٩٠/٢)، والبلاذري ص (١٣٦).

أهلها مذعنين؛ فصالحهم على الجزية لرءوسهم والخراج على أرضهم، ومضى نحو «شَيْرز»؛ فخرجوا إليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل **«حماة»**، فسار أبو عبيدة إلى **«معرة حمص»** وهي **«معرة النعمان»**؛ فأذعنوا بالصلح على ما صالح عليه أهل «حمص».

وسار أبو عبيدة إلى **«اللاذقية»**، وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحها إلا بجماعة كبيرة من الناس، فعسكر المسلمون على بُعْدٍ منها، ثم أمر فحفرت حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبًا، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون عنها ورحلوا، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر، وأصبح أهل **«اللاذقية»** وهم يرون أن المسلمين قد انصرفوا عنهم؛ فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة؛ ففتحوها عنوة[١].

وأرسل أبو عبيدة خالدًا إلى **«قنسرين»** وفي **«الحاضر»**[٢] اصطدم خالد بقوات الروم؛ فاقتتلوا قتالًا لم يقتتلوا مثله من قبل، وكانت نتيجة المعركة انتصار المسلمين على الروم، فسار خالد حتى نزل على **«قنسرين»**، فتحصن أهلها منه، ولكنهم صالحوه على مثل صلح حمص، فأتى إلا على خراب المدينة[٣].

ولما فرغ أبو عبيدة من قنسرين، سار إلى حلب؛ فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا؛ فوجه إليها السمط الكندي؛ فأعاد فتحها.

ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب، فصالح أصنافًا من العرب على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك، وأتى حلب فتحصَّن أهلها، ولكنهم لم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم، فأعطوا ذلك[٤].

وسار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية، وقد تحصن بها خلق كثير من قنسرين

---

(١) ابن الأثير (٢/١٩٠)، وفي البلاذري ص (١٣٧): أن الذي فتح هو عبادة بن الصامت.

(٢) الحاضر خلاف البادي، وهو بقرب قنسرين، وهو حاضر قنسرين.

(٣) الطبري (٣/٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩١)، والبلاذري ص (١٥٠).

(٤) ابن الأثير (٢/١٩١)، والبلاذري ص (١٥٠).

وغيرها، فحصرها من جميع نواحيها، فصالحوه على الجلاء أو الجزية؛ فَجَلَا بعضهم وأقام بعضهم، فأمَّنهم[١].

وبلغ أبا عبيدة أن جمعًا من الروم بين «**معرة مَصْرين**» و«**حلب**»؛ فقصدهم وقاتلهم وفتح «**معرة مَصْرين**» على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت «**يوقا**»، وفتحت قرى «**الجومة**»، و«**سَرْمين**»، و«**مَرْتَحْوان**»، و«**تيزين**» من نواحي حلب، وغلبوا على جميع أرض «**قنسرين**» و«**أنطاكية**».

وسار أبو عبيدة يريد «**قُورُس**»[٢]؛ فصالحها على صلح «**أنطاكية**»، وبث خيوله فغلب على جميع أرض «**قورس**»، وفتح «**تل عزاز**»[٣]، ثم فتح «**منبج**»، و«**دُلُوك**»، و«**رَعْبان**» صلحًا، واشترط على أهلها أن يخبروا المسلمين بخبر الروم، ووجه أبو عبيدة خالدًا وهو بـ«**منبج**» إلى «**مرْعش**»[٤]؛ ففتحها وأجلى أهلها وأخربها، كما أنه فتح حصن «**الحَدَث**»؛ وبذلك أكمل أبو عبيدة فتح «**أرض الشام**» من هذه الناحية إلى الفرات؛ فولي على كل كورة فتحها عاملًا، وضم إليه جماعةً من الإداريين يعاونونه في إدارة منطقته، وجيشًا يدافع عنها، ثم عاد إلى فلسطين[٥].

وبينما كان أبو عبيدة يعمل جاهدًا لإكمال فتح سورية، كان عمرو بن العاص يعمل جاهدًا لفتح فلسطين، فجاءه أبو عبيدة، وحاصروا «**إيلياء**» وهي بيت المقدس؛ فطلب أهلها أن يصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح أهل الشام، وأن يكون المتولي لعقد الصلح عمر بن الخطاب؛ فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك؛ فقدم عمر وفتح مدينة القدس[٦].

---

(١) ابن الأثير (٢/١٦٢)، والبلاذري ص (١٥٢).
(٢) كورة من نواحي حلب.
(٣) شمال حلب.
(٤) مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم.
(٥) ابن الأثير (٢/١٩٢)، والبلاذري ص (١٥٥).
(٦) ابن الأثير (٢/١٩٣)، والبلاذري ص (١٤٥).

❑ الدفاع عن حمص:

عاد أبو عبيدة إلى «**حمص**» بعد فتح القدس؛ فقصده الروم، وكان المهيج لهم هم أهل الجزيرة[١]؛ فقد راسلوا ملك الروم وحثُّوه على إرسال الجيوش؛ لاسترداد الشام، وتطوعوا من أجل ذلك لمعاونته.

وسمع أبو عبيدة باجتماع الروم وحلفائهم؛ فضم إليه مسالح المسلمين، وعسكر في داخل مدينة حمص، وأقبل خالد من «**قنسرين**» إليهم، فاستشاره أبو عبيدة في مهاجمة الروم أو التحصين إلى مجيء الإمدادات، فأشار خالد بالمناجزة، وأشار غيره بالتحصين، فأطاع أبو عبيدة الأكثرية، وكتب بذلك إلى عمر.

وكان عمر قد أعد في كل مصر من أمصار المسلمين الكبيرة ـ ومنها الكوفة ـ قوة احتياطية سريعة من الفرسان؛ فكان بالكوفة وحدها أربعة آلاف فارس، وكان واجب هذه القوات الاحتياطية السريعة مساندة مواقع المسلمين التي يتهددها الخطر إسنادًا فوريًّا حتى يتجهز الناس، فلما سمع عمر الخبر، كتب إلى سعد بن أبي وقاص: «اندب الناس مع القعقاع بن عمرو، وسرحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص؛ فإن أبا عبيدة قد أُحِيطَ به، وتقدَّم إليهم في الجد والحث»، وكتب إليه أيضًا: «أن يسرح سهيل بن عدي إلى «**الرقة**»؛ لأن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص، وأمره أن يسرح عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى «**نصيبين**»[٢]، ثم ليقصد «**حرَّان**» و«**الرَّها**»، وأن يسرح الوليد بن عقبة على عرب «**الجزيرة**» من ربيعة وتنوخ، وأن يُسرِّح عياض بن غنم، فإن كان قتال فأمرهم إلى عياض».

ومضى القعقاع من يومه على رأس أربعة آلاف فارس إلى حمص[٣]، وخرج

---

(١) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات، مجاورة أرض الشام، تشمل على ديار مضر وديار بكر.

(٢) مدينة عامرة كبيرة في بلاد الجزيرة.

(٣) يقول اللواء الركن محمود شت خطاب معلقًا على هذا: حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلًا؛ إنه يكاد يكون مستحيلًا في أيامنا الحاضرة؛ فكيف أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرنًا؟!

عياض وأمراء «**الجزيرة**»، وأخذوا طريق «**الجزيرة**»، وتوجَّه كل أمير إلى المنطقة التي أُمِّرَ عليها، وخرج عمر بن الخطاب بنفسه، فأتى «**الجابية**» يريد حمص مغيثًا لأبي عبيدة.

وبلغ أهل «**الجزيرة**» الذين أعانوا الروم على أهل حمص أن جنود المسلمين قد تحركوا من الكوفة دون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لهم ـ أي: هل يتجهون صوب الجزيرة أم يتجهون إلى حمص؟ ـ؛ لذلك تفرق أهل الجزيرة إلى بلدانهم؛ لحمايتها والدفاع عنها من الخطر المباشر الذي داهمها، وبقي الروم وحدهم حول حمص؛ فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم بسهولة قبل أن يبلغ القعقاع حمص بثلاثة أيام؛ فكتب عمر إلى أبي عبيدة؛ كي يشرك أهل الكوفة في العطاء، وقال: «جزى اللَّه أهل الكوفة خيرًا؛ يكفون حوزتهم، ويمدون أهل الأمصار»[1]؛ وبذلك استطاع أبو عبيدة ترصينَ ما فتحه من أرض الشام، وإكمالَ فتح كل أرض الشام «سورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن».

أبو عبيدة بن الجرَّاح القائد.. وأي قائد!!

❑ رزق اللّه أمين الأمة بخصال مثالية؛ منها:

١ـ الشجاعة:

وقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه من شجعان قريش الذين لا يُشَقُّ لهم غبار.

ومن أبرز المواقف التي ظهرت فيها شجاعته ثباته يوم أحد وهو موقف لا يثبت فيه إلا من أوتي حظًّا عظيمًا من الشجاعة[2].

٢ـ المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح:

وقد قال عمر رضي الله عنه: «الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[3] الذي يعرف

---

(١) الطبري (٣/ ١٥٠)، وابن الأثير (٢/ ٢٠٥).

(٢) أبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (١٥٨) «طبع دار النفائس».

(٣) المكيث: هو الرزين الذي لا يعجل في أمره. **انظر**: لسان العرب (٣/ ٥١٤).

الفرصة والكف»[١].

وقد أخذ بعض الصحابة على أبي عبيدة سريته الشديدة قبل خوض أي حرب، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه هاشم بن سعد عن زيد عن أبيه قال: «**بلغني أن معاذًا سمع رجلًا يقول: لو كان خالد بن الوليد ما كان بالناس دوك**[٢]. **وذلك في حصار أبي عبيدة دمشق؛ فقال معاذ: «فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة لا أبًا لك، واللَّه إنه لخيرُ مَنْ بقي على الأرض**»[٣].

وَيُفهم من إنكار معاذ رضي الله عنه على مَن أخذ على أبي عبيدة سريته قبل إصدار قراراته أن هذه الصفة تعد خصلة محمودة في القائد العسكري.

٣ـ الثقة والمحبة المتبادلتان بينه وبين قادته، وبينه وبين جنوده:

كان رضي الله عنه من أحب الناس إلى قلب رسولنا ﷺ وأبي بكر وعمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فعن عبداللَّه بن شقيق قال: «قلت لعائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ: أي أصحاب النبي أحبُّ إليه؟ قالت: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قالت: ثم عمر. قلت: ثم من؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح. قلت: ثم من؟ فسكتت»[٤].

وعن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضي الله عنه: «**أنه قال لأصحابه: «تَمَنَّوْا»**؛ فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل اللَّه وأتصدق. وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا وجوهرًا فأنفقه في سبيل اللَّه وأتصدق. ثم قال عمر:

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٤٤٥).

(٢) الدّوك: دقُّ الشيء وسحقه وطحنه، وَتَدَاوَكَ القوم؛ أي: تضايقوا؛ ويريد القائل بذلك ما حدث للمسلمين من شدة ومعاناة... **انظر**: لسان العرب (١/١٠٣٤).

(٣) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للدكتور محمد الرشيد ص (٥٦٤) «شركة الرياض».

(٤) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٧٦٠)، وقال: «حسن صحيح»، وأخرجه ابن ماجه في «المقدمة» ح (١٠٢) (١/٣٨)، والنسائي في «السنن الكبرى»، وأحمد (١٢٨١)، وفي «فضائل الصحابة» (٢/٧٤٠)، والإسناد صحيح، وفيه سعيد الجريري، وهو مختلط؛ وَثَّقَهُ أحمد بن حنبل، وَضَعَّفَهُ يحيى القطان.

«تَمَنَّوْا»؛ فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وحذيفة بن اليمان»[1].

وقال عمر ﷺ أيضًا: «لو أدركت أبا عبيدة لاستخلفته وما شاورت، فإن سُئلت عنه قلت: استخلفت أمين الله وأمين رسوله»[2].

وكان الأمراءُ والفرسانُ يُؤثرون قيادته على قيادة غيره!!

فهذا خالد بن سعيد يتجهز بأفضل العُدَّة ويأتي لأبي بكر قائلًا له ولمن كان عنده: «إني أشهدكم أني وإخواني وفتياني ومن أطاعني من أهلي حبيسٌ في سبيل الله، نقاتل المشركين أبدًا حتى يُهْلِكَهُمُ الله أو نموت عن آخرنا»، وينضم إلى جيش أبي عبيدة، ولا ينضم إلى جيش ابن عمه يزيد بن أبي سفيان، وَلَمَّا يُسْأَلْ عن ذلك، يقول: «ابن عمِّي أحبُّ إلي من هذا في قرابته، وهذا أحب إليَّ من ابن عمي في دينه، هذا كان أخي في ديني على عهد رسول الله ﷺ ووليِّي وناصري على ابن عمي قبل اليوم، وأنا أشَدُّ اسْتِئْنَاسًا إليه وأشد طمأنينة مني بغيره».

ويفضله هاشم بن عتبة على يزيد؛ يقول أبو بكر لهاشم: «يا هاشم، إنا إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه ومشورته وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشاب بصبره وبأسه ونجدته، وإن الله ﷻ قد جمع لك تلك الخصال كلها، وأنت حديث السن مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك فاصبر وصابر»؛ فقال هاشم: «إنْ يُرد الله بي خيرًا يجعلني كذلك، وأنا أفعل ولا قوة إلا بالله، وأنا أرْجو إن أنا لم أُقْتَلْ أن أقْتُلَ ثم أُقْتَلَ إن شاء الله»؛ قال أبو بكر: «يا هاشم، إن من سعادة جدك ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمةُ على جهاد عدوها من المشركين... وقد بعث إليَّ المسلمون

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٣/٢٢٧) «مناقب سالم مولى أبي حذيفة». وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد بنحو هذا اللفظ بإسناد حسن في «فضائل الصحابة» (٢/٧٤٠) برقم (١٢٨٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٤١٢)، والإمامة والسياسة، لابن قتيبة (١/٢٣).

يستنصرون على عدوهم من الكفار، فَسِرْ إليهم فيمن تبعك، فإني نادب الناسَ مَعَكَ، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة أو يزيد»؛ قال هاشم: «**بل على أبي عبيدة**».

٤ـ بُعْدُ النظر:

حيث كان يضع في حسبانه أصعب الاحتمالات وقوعًا، وبهذه التدابير الاحتياطية لم يستطع العدو في أيامه استعادة أي موقع فتحه المسلمون، وكان ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يشحن النواحيَ المُخَوِّفَةَ بالجند حتى ترد إليها الإمدادات.

يقول ابن الأثير: «وولى أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملًا، وضم إليه جماعةً، وشحن النواحي المُخَوِّفَةَ بالجند»(١).

٥ـ المشاورة:

ولقد كان ﷺ من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خُطْوةٍ يخْطونها، وعندما تحشد الرُّومُ لاستعادة أرض الشام، استشار أصحابه، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في حمص، أما خالد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم، ولكن أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية.

٦ـ وكان ﷺ مَهِيبًا مُؤَثِّرًا في نفوس رجاله:

فكان يتجوّل في معسكراتهم وهو يقول: «أَلَا رُبَّ مبيِّضٍ لثيابه وهو مدنِّسٌ لدينه، ألا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين غدًا!! ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات».

٧ـ وكان يساوي نفسه برجاله، بل يستأثر دونهم بالأخطار:

فلما أراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الطاعون بعد اشتداده، فكتب إليه: «سلامٌ عليك، أما بعد: فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها، فعزمتُ عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ألَّا تضعه من يدك حتى تُقبِل»، فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر؛ فكتب إليه: «يا أمير المؤمنين، قد عرفتُ حاجتك إلي،

---

(١) الكامل، لابن الأثير (٢/١٩٢).

وإني في جند المسلمين، لا أجِدُ بنفسي رغبة عنهم، فلستُ أريد فراقهم حتى يقضي اللَّه فيَّ وفيهم أمره وقضاءه؛ فخلني من عزيمتك»، فلما قرأ عمرُ هذا الكتاب بكى؛ فقال الناس: يا أمير المؤمنين، أمات أبو عبيدة؟! فقال: «**لا، وكأن قد**»[1].

٨ـ لقد كانت لأبي عبيدة فكرة سوقية ـ استراتيجية ـ ممتازة:

فقد بعث بعضَ القواتِ لمشاغلة قوات الروم في «**فحْل**»، بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها، ثم قصد «**فحل**» بقواته كلها، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في «**فحل**» و«**دمشق**» على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد.

كما أرسل خالدًا على رأس جيش؛ لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجِّهًا إلى دمشق؛ مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته؛ لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آنٍ واحدٍ؛ من الأمام يقاتل جَيْشَ يزيد بن أبي سفيان، ومن الخلف يقاتل جيش خالد بن الوليد.

ولقد كانت معارك التطهير واستثمار فوز اليَرْمُوكِ أكبر المعارك التي أظهرتْ مقدرة أبي عبيدة الفذة: «فقد فَضَّلَ أبو عبيدة التخلِّيَ عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة لخالد بن الوليد، ولكن أبا عبيدة عَادَ إلى تولِّي القيادة العامة بعد اليرموك؛ فخاض معارك التطهير بنجاحٍ باهرٍ يكاد يعتبر معجزةً عسكريةً، إذا أدخلنا في حسابنا تفوق الروم السَّاحِق على المسلمين، وسرعة إنجاز الفتح، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضَحَّى بها المسلمون من أَجْلِ فتح البلاد كلها»[2].

للهِ دَرُّ أبي عبيدة..

من قاهر للروم وما أدراك ما الروم..

بنو الأصفر حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ.

---

(١) ابن الأثير (٢/٢١٦).

(٢) قدة فتح الشام ومصر، للواء الركن محمود شيت خطاب ص (٨٠) «دار الفكر».

للهِ دَرُّه من قائدٍ زاهدٍ لا يكترث بمتاع الدنيا..

يرسل إليه عمرُ بنُ الخطاب بأربعةِ آلاف درهم وأربع مئة دينار، وقال لرسوله: «**انظرْ ما يصنع؟!**» فقسمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمرَ رسولُهُ بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: «**الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا!!**»[1].

ولما قدم عمرُ الشامَ، تلقاه أمراءُ الأجنادِ وعظماءُ أهلِ الأرضِ، فقال عمر: «**أين أخي؟!**» فقالوا: مَنْ؟! قال: «**أبو عبيدة**». قالوا: يأتيك الآن. فجاء على نَاقَةٍ مَخْطُومةٍ بحبْل، فسلَّم عليه، فقال عمر للناس: «**انصرفوا عنا!!**»، وسار مع أبي عبيدة حتى منزله فنزل عليه، فلمْ يَرَ في بيته إلا سيفه وترسه، فقال عمر: «**لو اتخذْت متاعًا**» ـ أَوْ قال: شيئًا ـ؛ فقال أبو عبيدة: «**يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلغنا المقيل**».

وفي رواية: «أن عمر قال: اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة. فقال له: وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين؟! ما تريد إلا أن تعصر عينيك علي!! ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا؛ فقال: أين متاعُكَ؟! لا أرى إلا لبدًا، وصفحةً، وشنًّا[2] وأنت أمير!! أعندك طعام؟! فقام أبو عبيدة إلى جونة[3]، فأخذ منها كسيرات؛ فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قلتُ لك: إنك سَتَعْصِرُ عَيْنَيْكَ عليَّ يا أمير المؤمنين!! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل!! فقال عمر: «**غَيَّرَتْنَا الدُّنيا كُلَّنا غيرك يا أبا عبيدة!!**».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أبي عبيدة قائد القلب يوم اليرموك.. ومطهِّر الشام من دنس الروم: مرج الصفر، فحل، حمص، بعلبك، حماة، شيرز، معرة مصرين، معرة حمص، اللاذقية، حلب، أنطاكية، يوقا، الجومة، سرمين، قنسرين، رعبان، مرلحوان، تيزين، أنطاكية، قورس، تل عزاز، منبج، دلوك، مرعش، حصن الحدث، الجزيرة حران، الرها، دمشق..

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٤١٣).

(٢) الشَّنُّ: القربةُ الخَلَقُ.

(٣) الجونة: السَّلَّةُ المستديرة.

كلها تعرف أبا عبيدة فاتحًا لها: إما عنوة وإما صلحًا.

٩ـ كان أبو عبيدة ﷺ قائدًا مُتَّبِعًا يتلقى الأوامر وينفذها بكل أمانة وإخلاص:

فقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى أتاه رأي عمر وأمره[1]؛ وهذا دليل على شدة ضبط أبي عبيدة وإيمانه بضرورة إطاعة أوامر مرجعه الأعلى.

أبو عبيدة بن الجراح وفن القيادة

١ـ الاهتمام بالشئون الإدارية «اللوجيستيك»:

كان «**أبو عبيدة بن الجراح**» مسئولًا عن تأمين الإمداد الإداري لقواته، وعلى الرغم من توفر المواد التموينية والإمدادات في مسرح العمليات، إلا أن هناك قيودًا صارمة قد فرضت لتأمين هذا الإمداد؛ فقد كان على قوات المسلمين تجنب الاستيلاء على المواد التموينية من المدنيين ومن أهالي البلاد غير المحاربين؛ كما كان على القوات تجنب الحقول المزروعة والبساتين وعدم إيذاء الأشجار المثمرة، مع ضرورة دفع ثمن كل ما تشتريه القوات، وقد أمكن في الواقع تأمين الإمداد الإداري باتباع الأساليب التالية:

١ـ الحصول على المعلومات الدقيقة عن قوافل إمداد العدو وتموينه والإغارة عليها ومصادرتها لحساب قوات المسلمين، ولما كانت قوافل الإمداد غالبًا ما تسير تحت حراسة جيدة، فقد نظمت الإغارات بأعداد قوية حتى تتم إبادة الحامية المرافقة للقافلة ثم مرافقة الغنائم وحراستها حتى الوصول بها إلى مواقع قوات المسلمين.

٢ـ الاتفاق في نصوص المعاهدات المعقودة مع سكان البلاد على تأمين الإمداد الإداري للقوات، وكان يتم احتساب ثمن المواد التموينية من أصل الجزية المفروضة.

٣ـ تأمين المتطلبات الضرورية من الأهلين عن طريق الشراء والمبادلة، وقد توفرت لقوات المسلمين إمكانات جيدة بفضل ما حصلوا عليه من غنائم في معاركهم

---

(١) الطبري (١/٥٩٩).

المتتالية، «ويتضمن النظام الإسلامي على - ما هو معروف - توزيع أربعة أخماس الغنائم على المجاهدين، ويبقى الخمس لبيت الله»، وكان يحتسب للراكب «**الفارس**» سهمين مقابل سهم واحد لجندي المشاة، وقد بلغت الغنائم في كثير من المعارك مبلغًا جيدًا ساعد المشاة على التجهز بالخيول والتحول إلى قوات الفرسان.

وكان «**أبو عبيدة**» يحرص على تنظيم الإمداد الإداري بواسطة مفارز يتم التناوب فيها بينها؛ وذلك لتحقيق مجموعة من الأهداف:

أولها: إنقاص حجم القوات المكلفة بالتأمين الإداري حتى الحد الأدنى؛ بحيث لا ينصرف المقاتلون عن واجباتهم من أجل تأمين متطلباتهم الحياتية.

وثانيها: حصر مسئولية التأمين الإداري بعناصر معينة؛ مما ينفي كل إمكانية لحدوث احتكاك بين المقاتلين من المسلمين وبين أهل البلاد من غير المحاربين.

وثالثها: ضمان الأمن للقوات؛ بحيث لا يضطر المقاتلون للابتعاد عن معسكر المسلمين، هذا وكانت منطقة الشئون الإدارية تقع أثناء المعركة أو أثناء التوقف القصير في مؤخرة قوات المسلمين، وكان النساء والأولاد يقيمون في منطقة الشئون الإدارية، ويعملون على تأمين الخدمات الضرورية، سواء للمساعدة في إعداد طعام المقاتلين، أو من أجل إسعاف الجرحى ودفن الشهداء، أو حتى للاشتراك في القتال إذا ما تطلب الأمر؛ على نحو ما حدث في اليرموك وفي عدد من المعارك الأخرى، أما في حالة المسير فكان الرتل الإداري عادة ما يسير في قلب القوات أو في مؤخرتها بحسب الموقف؛ وذلك من أجل حمايته.

تُظْهِرُ أعمال «**أبي عبيدة بن الجراح**» أن اهتمامه بالشئون الإدارية قد تركز على حرمان الروم «**البيزنطيين**» من مواردهم التموينية ومتطلباتهم الحياتية، وتأمين تعايش قوات العرب المسلمين على حسابهم، ولم تكن بلاد الشام محدودة الموارد الزراعية والاقتصادية حتى تشكل قوات المسلمين عِبئًا عليها؛ كما أن متطلبات تلك القوات كانت محدودة نسبيًا؛ **لسببين**:

أولهما: أن حجم القوات بقيت محدودة وأقل بكثير من حجم قوات الروم التي كانت تتعايش على حساب بلاد الشام.

وثانيهما: أن متطلبات تلك القوات بقيت قليلة؛ نظرًا لما عرف عن المقاتل المسلم من زهد وتقشف، وعلاوة على ذلك فقد كانت بلاد الشام؛ معروفة باسم «**إهراءات الرومان**»؛ دلالة على خصبها وغزارة مواردها الزراعية التي تضمن إمداد الجيوش الرومانية الجرارة، وتؤمن لها الإمداد بالأطعمة والأغذية؛ ويتأكد ذلك أيضًا من خلال وصول أول قافلة للإمداد إلى الجزيرة العربية من بلاد الشام بقيادة «**أبي عبيدة ابن الجراح**»؛ وذلك عندما طلب أمير المؤمنين «**عمر**» إلى ولاته في الأقاليم إرسال الإمدادات؛ لتأمين الطعام لسكان الجزيرة، عندما أصيبت الجزيرة العربية بالقحط في عام الرمادة «١٧هـ».

وتبقى الظاهرة الأساسية في اهتمام «**أبي عبيدة**» بالشئون الإدارية؛ وهي: عدم إعطاء أفضلية «**التأمين الإداري**» على حساب متطلبات العمليات أو الواجبات التعبوية «**التكتيكية**».

وعلى سبيل المثال: فقد كانت أعمال الحصار الطويل تتطلب تأمين المتطلبات الضرورية؛ كـ«المجانيق، والأوهاق، والحبال... إلخ»، ولكن المحافظة على فضائل جيش المسلمين - وفي طليعتها المرونة وخفة الحركة - وتوفر الرغبة بعدم إرهاق القوات بالأعباء الإدارية التي تتطلبها أعمال الحصار فرضت تجنب محاولات الاقتحام بالقوة واللجوء إلى المناورات الخداعية لإخراج المقاتلين من حصونهم وأسوارهم، والدخول معهم في معركة تصادمية تتوافق ومعطيات العقيدة القتالية الإسلامية؛ وبذلك عمل «**أبو عبيدة**» على تطوير الأساليب التعبوية والعملياتية للتعويض عن القصور في الإمداد الإداري بالمعدات الهندسية؛ مما أدى بصورة غير مباشرة إلى تطوير «فن الحرب».

تأتي بعد ذلك الظاهرة الثانية والتي لا تقل أهمية عن الأولى في مجال «**الاهتمام**

بالشئون الإدارية»؛ وهي: عدم حل هذه على حساب غاية المسلم.

٢ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين:

المقصود بـ «العنف في القضاء على أعداء المسلمين» هو ذلك العنف الذي يهدف إلى تصفية أعداء الإسلام بصورة شخصية؛ نظرًا لمواقفهم المناوئة للإسلام، أو بسبب نكايتهم بالمسلمين والكيد لهم، وهو غير استخدام «**العنف بالحرب**»؛ إذ إن «**استخدام العنف في الحرب**» هو مبدأ أساسي في حروب المسلمين التي تهدف باستمرار إلى «**الحسم في المعركة**»، ومن المحال التفكير في «**الحسم**» أو الوصول إليه عن غير طريق إبادة قوات الخصم وقتل كل من حمل السلاح ضد المسلمين.

والعنف في الحرب ـ بعد ذلك ـ طبيعة ملاصقة للصراع؛ إذ لو انتفى العنف لانتفت صفة أساسية من صفات الحرب، وقد كان «**أبو عبيدة**» محاربًا من الطراز الأول في جيش «**النخبة المختارة**»؛ فكان من الطبيعي أن يستخدم العنف في الحرب حتى حدوده القصوى؛ ولهذا فما أن انتهت معركة «**اليرموك**» حتى وَجَّهَ «**أبو عبيدة**» مفارز للفرسان بهدف إبادة فلول القوات المنهزمة، وفي المعارك التالية حَرَصَ أبو عبيدة على تدمير قوات العدو تدميرًا شبه كامل ـ وفي معركة «**مرج الروم**» بصورة خاصة ـ، ولكن الظاهرة المميزة هي تفنين الحرب بدقة؛ بحيث تقتصر على محاربي العدو، وفي إطار ميدان المعركة[1]، ويمكن اعتبار ظاهرة «**العنف في القضاء على**

---

(١) لقد حاولت جيوش العالم قديمها وحديثها تقنينَ الحرب والفصل بين المحاربين وغير المحاربين، ولكن جميع الجيوش فشلت في ذلك باستثناء بعض الحالات الخاصة، وتشير الشواهد الحديثة إلى اتجاه الحرب نحو مزيد من التطرف في أعمال العنف وعدم التمييز بين المحاربين وغير المحاربين؛ سواء في الحروب الثورية ـ كما حدث في الجزائر وفيتنام ـ أو في الحروب النظامية، وتشير التقديرات إلى أنه قد سقط في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ ١٩٤٥) (١٨) مليون مدني قتيلًا مقابل (١٢) مليون عسكري، وتشير توقعات استخدام القنبلة الذرية إلى احتمال سقوط (قتيل واحد) مقابل (جريح واحد) في الجيوش، و(٢,٥) قتيلًا مقابل (جريح واحد) في السكان المدنيين، على حين لم تكن المقاييس العسكرية تتجاوز في السابق (قتيلًا واحدًا) مقابل (٣ أو ٤) جرحى.

أعداء المسلمين» سواء على المستوى الفردي، أو على مستوى الصراع المسلح في ميادين القتال إحدى الوسائل التكميلية لتدمير الاختلاف الكبير في ميزان القوى وتحويله لمصلحة العرب المسلمين؛ كما يمكن اعتبار هذه الظاهرة ـ أيضًا ـ وسيلة تكميلية لتحقيق «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**» وردع أعداء المسلمين عن التفكير في مجابهة قوات العرب المسلمين؛ ويتأكد ذلك من خلال التقنين المحكم والدقيق في الفصل بين أسلوب التعامل مع المحاربين الذي يعتمد على «**العنف**» وبين أسلوب التعامل مع غير المحاربين والذي يعتمد على «**الصلح**»؛ من خلال الاتفاقيات، والمهادنة، واكتساب ثقة المواطنين؛ من خلال تعريفهم بمبادئ الدين الإسلامي وقواعده، ويمكن ـ دون مبالغة ـ اعتبار القائد «**أبي عبيدة بن الجراح**» نموذجًا رائعًا، وأمثولةً تُجَسِّدُ كل الفضائل الحربية التي سبق ذكرها؛ وأبرزها: تقنين الحرب والتحكم فيها بكفاءة عالية.

❏ أبو عبيدة وقواته على استعداد دائم للقتال:

كان نداء: «**يا خيلَ اللهِ اركبي**» عند المسلمين يشبه نداء «**إلى السلاح**» في الجيوش الحديثة؛ ذلك أن قوة الخيل أو قوة الفرسان كانت تمثل قوة الصدمة في جيوش العرب المسلمين، وكانت هذه القوة هي المسئولة عن مجابهة كل مباغتة محتملة، وكان يتم العمل لمجابهة المباغتة على أساس تدخل قوة الحرس، فإذا عجزت هذه القوة عن مجابهة الخطرِ، استنفرت قوات الفرسان، وتم دفعها إلى المعركة ريثما يتم تنظيم بقية القوات بعيدًا عن كل خطر؛ وبذلك يتم تطويق «**المأزق**»، وقد تردد في مرات كثيرة أثناء مسيرة الفتوح أن قوات المسلمين «كانت لا تبيت ولا تصحو إلا على تعبئة»؛ وبذلك كانت في حالة استعداد دائم للقتال، وقد حاول الروم في مرات عديدة مباغتة قوات «أبي عبيدة بن الجراح» ولكنهم لم يتمكنوا أبدًا من إصابة غُرَّةِ المسلمين أو مباغتتهم.

ويتعلق الاستعداد الدائم للقتال بفضائل المقاتلين الحربية أكثر مما يتعلق بكفاءة

القيادة؛ فالقيادة تضع كل الإجراءات، وتتخذ كل التدابير لتحرك القوات وتوقفها وتحديد واجباتها في كل مرحلة، ولكن يبقى التنفيذ متعلقًا بفضائل الجنود وروحهم المعنوية وإيمانهم بالهدف وحماستهم للقتل والقتال؛ وقد برهنت مسيرة أعمال الفتوح على أن «**أبا عبيدة بن الجراح**» قد حَرَصَ في كل مراحل القتال على توجيه المقاتلين وقيادتهم بكفاءة عالية، وبرهنت مسيرة أعمال الفتوح أيضًا أن الفضائل الحربية في وسط المقاتلين المسلمين لم تكن دون مستوى كفاءة قيادتهم؛ ومن هنا تظهر الاستجابة الكاملة لدى المجاهدين لما كان يطلب إليهم تنفيذه.

ما كانت مسيرة الفتوح مجرد رحلة عبر المفاوز والصحاري، ولا كانت حتى مجرد اختراق للسهول والجبال؛ وإنما كانت أيضًا أعمالًا قتاليةً يتصل فيها الليل بالنهار، وتختلط فيها الأعمال الدفاعية وعمليات الحصار بالأعمال الهجومية وعمليات الاقتحام، مع احتمال الاشتباك في كل وقت وفي كل منطقة. وبذلك كان الجهد المبذول يتجاوز الحدود القصوى لكل ما هو متوقع ولكل ما هو معروف، وقد يكون من السهل الجلوسُ بهدوء وفي مناخ تتوفر فيه كلُّ شروطِ الراحةِ الجسديةِ والنفسيةِ، والتحدثُ عن مشاق القتال في فترة الفتح، وقياسُ المواقع والمسافات بمقاييس الخرائط، ولكن تقويم «**درجة الاستعداد القتالي**» تتطلب في الواقع ما هو أكثر من ذلك؛ إنها تتطلبُ ـ وَبِبَسَاطَةٍ ـ تجربةَ اختراقِ الصحراءِ العربيةِ تحت وهج الشمس اللاهبة وفوق الرمال الحارقة بمثل ما كانت عليه الوسائط المتوفرة، ثم تجربةَ زجِّ القواتِ بعد التحرك، واتخاذ تدابير الحيطة والوقاية، وتصور الجهد المبذول لخوض القتال والاشتباك في الحرب، كل ذلك مع ما كان عليه موقف قوات المسلمين من ضعف عددي يجعل الجهد المبذول مرتفعًا حتى حدوده القصوى؛ بسبب توزعه على أعداد قليلة، وعلاوة على ذلك كله فقد كانت قوات المسلمين في حالة إعادة تنظيم مستمر؛ حتى تستطيع تنفيذ الأعمال المختلفة، وقد لا تكون هناك حاجة لوصف ما تتطلبه هذه الحالة من جهد إضافي يتحمله جند المسلمين بثبات رائع وتصميم كبير.

وكان «**أبو عبيدة**» ومعه كل المجاهدين في سبيل اللَّه قد غادروا جزيرتهم وهم يعرفون أن أمامهم تحديات لا حدود لها؛ فكان خروجهم في حد ذاته إنما هو برهان على استعدادهم الدائم للقتال، وكانت جهودهم المبذولة برهانًا على أنهم كانوا فوق التحديات كلها، ما هو متوقع منها وما هو غير متوقع؛ وبذلك استطاعوا المحافظة على استعدادهم الدائم للقتال، رغم كل ظروف القتال الصعبة، ورغم كل الاشتباكات الشاقة، ورغم كل ما كان يبذله العدو من جهد وما يضعه من مخططات لإضعاف إرادة القتال عند المجاهدين.

❑ **وكان رضي الله عنه دائمًا يحرض ويحض على القتال.**

قال رضي الله عنه في اليرموك: «عباد الله، انصروا اللَّه ينصركم ويثبت أقدامكم. عباد الله، اصبروا؛ فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار. لا تتركوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح؛ واستتروا بالدرق، والزموا الصمت؛ إلا من ذكر اللَّه عز وجل في أنفسكم حتى يتم أمركم إن شاء الله».

ومما قاله في معركة بعلبك: «اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم؛ فإن بقيت كانت وبالًا على من صالحتم، ولا تقدرون على سفر ولا على غيره».

❑ **أَبُو عبيدةَ وَمَا يُعْرَفُ حَدِيثًا بـ«الحرب الشعبية»:**

كان جيش الفتح بحكم تكوينه يضم المجاهدين الراغبين في الحرب دون تمييز بسبب فارق العمر أو بسبب الجنس، وكان من واجب قائد العمليات تنظيم القدرات المختلفة وحشد كل الإمكانات في الحرب، ولكن «**أبا عبيدة**» لم يقف كقائد للعمليات عند حدود التنظيم والحشد للقوات؛ وإنما تجاوز ذلك بحسب ما تظهره وثائق الصلح التي عقدها «**أبو عبيدة**» مع أهل البلاد؛ حيث يتبين أن «**أبا عبيدة**» قد طور مفهوم ما هو معروف حديثًا باسم «**الحرب الشعبية**»؛ وذلك عن طريق:

أ ـ تحقيق «غَايَةِ السِّلْمِ»

من خلال الكفاءة العالية في حسم الصراع المسلح والتمهيد لإقامة المجتمع الإسلامي والعمل بالتالي على حشد الطاقات الجديدة ممن دخلوا في الإسلام حديثًا، وقد كانت هذه العملية مشابهة لتلك التي طبقها الرسول ﷺ منذ بدأ دعوته للإسلام؛ حيث يتم اكتساب الأقاليم سلمًا أو حربًا ونشر الإسلام فيها وتحميل أهلها أمانة نشر الإسلام، وكان هذا في حد ذاته تطويرًا لمضمون الجهاد أو ما يعرف حديثًا بـ«**الحرب الشعبية**».

ب ـ الإفادة من سكان البلاد «وتحييدهم» إذا صح التعبير:

عن طريق اتفاقيات السلم؛ وذلك لتحقيق هدف مزدوج؛ **الأول:** هو دعم القدرة الحربية وتأمين الحماية لها، **والثاني:** توفير المناخ للإفادة من الطاقات المتوفرة كلها لتوجيهها نحو الجهاد وتحقيق المشاركة الكاملة للقوات بأعمال الفتوح؛ بحيث لا يتم تبديد قسم من الجهد أو الطاقة البشرية.

ج ـ تنظيم القوات بحيث يقوم الجميع بأعباء الحرب:

النساء للشئون الإدارية وإسعاف الجرحى وأحيانًا للقتال.

والأحداث للقيام بالأعباء التي تتناسب مع قدراتهم وإمكاناتهم.

ويظهر واضحًا أن واجب «**أبي عبيدة**» كقائد لمسرح من مسارح العمليات لم يكن محددًا بقيادة الأعمال القتالية فقط؛ وإنما كان يشمل إدارة البلاد التي يتم فتحها، وإقامة دعائم المجتمع الإسلامي، وكان من الطبيعي أن يتبع ذلك ـ وبصورة مباشرة ـ تطبيقُ مبدإ الجهاد أو «**الحرب الشعبية**».

وكان تطبيقُ هذا المبدإ يسمحُ لأبناء البلاد التي تم فتحها العملَ على قدم المساواة مع جنود جيش الفتح، وأصبح واجبُ الجيش في العمل لصهر المجتمع الجديد والمساعدة على عملية البناء بـ«**تطبيق مبدإ الجهاد ـ أو الحرب الشعبية**» هو من العوامل الرئيسية التي ساعدت على انتشار الإسلام، وضمنت القوة للمجتمعات الجديدة،

وتبرز أهمية هذا المبدإ بصورة خاصة في الفتوحات التالية؛ حيث أصبح أبناء البلاد حديثة العهد بالإسلام ـ كالشام والعراق ـ هم حملة مشاعل الإسلام إلى الأقاليم الجديدة التي لم يتم فتحها.

لقد تمت فتوح الشام وفتوح العراق في فترة متقاربة «١٢ ـ ١٧هـ»، وانصرف المسلمون لبناء المجتمع الجديد، وأعقب ذلك «**فتح مصر**»، وتحولت هذه الأقاليم بعد فترة قصيرة إلى قواعد قوية لإطلاق جيوش الجهاد اعتمادًا على مبدإ الحرب الشعبية، ويعود الفضل في ذلك إلى قادة الفتوحات في هذه الأقاليم الذين تمكنوا من تطبيق مبدإ الجهاد و«**تطوير مفهوم الحرب الشعبية**»؛ مما عزز إمكانات المسلمين، وساعد على زيادة قدرتهم البشرية؛ وبذلك أمكن نشر راية الإسلام، ولقد أصبحت جيوش الفتح ـ بفضل مبدإ الجهاد أو الحرب الشعبية ـ هي المدارس الحقيقية لتكوين المجتمعات الإسلامية الجديدة والتي تعمل على إعداد القوى الضرورية والطاقات الأساسية لإزالة كل التناقضات التي يمكن لها الظهور ـ أو يحتمل بروزها ـ في أخطر مراحل بناء المجتمع الإسلامي في جميع الأقطار.

ويبقى «**أبو عبيدة بن الجراح**» رائدًا من رواد تطبيق هذا المبدإ الذي يعتبر أساس التنظيم للمجتمع الإسلامي.

❑ جيش أبي عبيدة رهبان الليل وفرسان النهار:

وَصَفَتِ المصادر التاريخية حال المجاهدين فقالت: «كانوا أسادًا في الحرب ورهبانًا في الليل؛ يُدَوُّونَ بالصلاة والدعاء؛ كدوي النحل، لا يُفَضَّلُ من مضى على من بقي إلا بفضل الشهادة».

لما رحل هرقل عن سورية، جاء إليه رجل من الروم كان أسيرًا في أيدي المسلمين، فأفلت، فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم. فقال: أحدثك؛ كأنك تنظر إليهم؛ فرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على مَن حاربهم حتى يأتوا عليه.

فقال: لئن صدقتني ليرثُنَّ ما تحت قدميَّ هاتين»[1].

موقع أبي عبيدة من فن الحرب

لله دَرُّ خالد بن الوليد رضي الله عنه حين يقول لأبي عبيدة «... **لا نعصيك، ولا نقطع دونك أمرًا؛ فأنت سيد المسلمين، لا ينكر فضلك، ولا نستغني عن رأيك**»[2].

هذا كلام من قائد من كبار القواد في التاريخ العسكري يقوله في حق أبي عبيدة كقائد.

وتظهر أهمية الدور القيادي لأبي عبيدة بن الجراح لا كرائد من رواد الفتح الأوائل، ولا كقائد أمكن له تطبيق «**مبادئ الحرب**» بمرونة كبيرة وفقًا «**للمواقف القتالية**» التي كانت تجابه قوات المسلمين، وإنما تظهر أهمية هذا الدور بتحديد العلاقة بين «**السياسة الاستراتيجية للفتح**» والتي كان يمارسها الخليفة أبو بكر ومن بعده أمير المؤمنين عمر، وبين «**قيادة العمليات**» والتي كان يمارسها هو فوق مسرح عمليات بلاد الشام.

ولقد كان تحديد هذه العلاقة بصورتها الواضحة هو العامل الأساسي والحاسم فيما أحرزه المسلمون من انتصارات، وفيما حققوه من أعمال ناجحة.

كان أبو عبيدة ـ بحسب ما هو واضح من سيرته القيادية ـ نسيجًا وحده في «**فن الحرب**»؛ ذلك أنه كان يضطلع بدوره القيادي وهو مقتنع بما يجب عليه عمله، ومدرك للحدود التي يجب عليه التحرك ضمنها؛ فكانت «**حرية العمل**» المتوفرة له ضيقةً جدًّا عند النظر إليها من زاوية مسرح العمليات، وهي واسعة جدًّا عند النظر إليها من زاوية السياسة الاستراتيجية؛ إذ كان يتمتع في هذه الحالة بالإمكانات المتوفرة له، علاوة على تلك التي يتم حشدها لمصلحته، سواء أخذت هذه الإمكانات شكل «**دعم مباشر**» أو أخذت شكل «**حرب تشتيتية**» في مسرح آخر يرتبط ـ بالنتيجة ـ مع

(١) تاريخ الطبري (٣/٦٠٢، ٦٠٣) والكامل في التاريخ، لابن الأثير (٢/٣٤٣، ٣٤٤).
(٢) أبو عبيدة بن الجراح، لبسّام العسلي ص (١٣) «دار النفائس».

مسرح عملياته.

انطلاقًا من هذا المفهوم استطاع أبو عبيدة المحافظة على مبدإ «**وحدة القيادة**»، وقد كان حرصه على ترك «**وحدة القيادة في السياسة الاستراتيجية**» مماثلًا لحرصه على التمسك بمبدإ وحدة القيادة على «**مستوى العمليات**».

كل ذلك - في رفق كبير وتواضع رائع - جعل من قيادته نموذجًا لما يجب أن تكون عليه العلاقة مع القيادة العليا ومع القيادات التابعة.

وتبرز كفاءة أبي عبيدة على مستوى العمليات في تقديره الصحيح للمواقف، الأمر الذي كان يساعده على اتخاذ القرارات المناسبة وتنفيذها في الوقت الملائم.

ويمكن الانتقال بعد ذلك إلى مجال تطبيق «**مبادئ الحرب**» في فترة كانت لا تزال فيها هذه المبادئ تمر بمرحلة التكون؛ ففي تلك الفترة تولى «**أبو عبيدة**» قيادته، وكانت الحروب مستمرة، والمعارك متتالية متلاحقة، وكان لكل معركة ظروفها الخاصة؛ فكان من المحال تطبيق «**مبادئ الحرب**» بصورة جامدة أو متيبسة، ولكن استخدام تلك المبادئ وتطورها كان يتطلب كفاءة عالية، ولم يكن أبو عبيدة يفتقر إلى تلك الكفاءة؛ وبذلك أمكن له تحقيق الإنجازات الرائعة في تثبيت «**مبادئ الحرب**» وتطويرها.

لم تكن كفاءة «**أبي عبيدة**» على مستوى العمليات وفي جميع الأحوال إلا برهانًا على إمكانات «**أبي عبيدة**» الكبيرة لممارسة قيادة أكبر من مستوى العمليات، وكان عمر رضي الله عنه أعرف الناس بالرجال، وكان يتمنى لو عاش «**أبو عبيدة**»؛ حتى يترك له «**إمارة المؤمنين**»، ولا ريب أن ذلك دليلًا على ما يتوفر لأبي عبيدة من قدرات قيادية كبيرة؛ أبرزها: «الأمانة»، و«العدل»، و«القدرة القيادية»، و«التقدير الصحيح للمواقف»؛ وعلى هذا فقد كان أبو عبيدة فوق القيادة التي مارسها[1].

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (٧٤ - ٧٨) باختصار.

١ـ في الاستراتيجية العليا

١ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:

انطلق «**أبو عبيدة**» بجيشه إلى الشام، وتوافق ذلك مع حدوث «**مأساة خالد بن سعيد**» الذي أهمل حماية مؤخرته، ولم يهتم كثيرًا بالمحافظة على خطوط مواصلاته؛ فكان في ذلك كارثة رافقت بداية الفتوح، وقد أدرك قادة المسلمون ـ وفي طليعتهم أبو عبيدة ـ هذا الدرس؛ فَآلَوْا على أنفسهم على التحرك باستمرار من قاعدة قوية ومأمونة؛ بحيث لا يؤتى المسلمون في خلفهم.

وعندما تداعت «**الروم**» لحرب المسلمين، وأراد «**هرقل**» توجيه جيوشه للقضاء على كل جيش بمعزل عن الجيوش الأخرى مستفيدًا من تفوقه الكبير بالقوى والوسائط، أسرع قادة المسلمين بجيوشهم إلى «**اليرموك**» بهدف المحافظة على الاتصال بقاعدتهم الأساسية في «**المدينة المنورة**»، ولقد بقيت نسبة تفوق الروم على المسلمين ثابتة لم تتغير، ولكن تجمع المسلمين ضَمِنَ لهم مزيدًا من حرية العمل؛ كما ضَمِنَ لهم المحافظة على الاتصال بقاعدتهم.

واستمر «**أبو عبيدة**» في تطبيق مبدإ «**الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة**» على مستوى العمليات؛ وبرز ذلك عند فتح «**دمشق**»؛ حيث عمل «**أبو عبيدة**» على توجيه مجموعات قتالية من قوة «الفرسان» لحماية مسرح العمليات؛ فكانت قوة «**ذي الكلاع الحميري**» على محور «**دمشق ـ حمص**»، وقوة «**شرحبيل بن حسنة**» ضد قوات «**فحل**»، وقوة «علقمة بن حكيم» على محور «**دمشق ـ فلسطين**» بمثابة حماية لقاعدة العمليات، وبعد ذلك لم يتحرك «**أبو عبيدة**» نحو واجبه الأساسي في فتح «شمال دمشق» حتى تمت تصفية قوات الروم في «**فحل**»، وتابع «**أبو عبيدة**» تحركه نحو بعلبك، ولم يغادرها حتى تم فتحها، وكان مما قاله لجنده: «**اعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم؛ فإن بقيت كانت وبالاً على من صالحتم، ولا تقدرون**

على سفر ولا على غيره»، وكذلك الأمر عند فتح «**حمص**»؛ فقد استمر الحصار طويلًا، ولم يحاول «**أبو عبيدة**» التحرك قبل احتلال المدينة وتصفية المقاومة فيها، واستمر العمل بهذا المبدإ حتى تم تحرير سوريا كلها.

لم يكن أسلوب «أبي عبيدة» لإقامة القاعدة القوية والمأمونة يقف عند حدود ضمان «**أمن القوات**» أو تحقيق مبدإ «**حرية العمل العسكري**»؛ وإنما كان يشمل التأمين الإداري للقوات، وتوفير الظروف لإقامة المجتمع الإسلامي الجديد، كل ذلك مع الحرص على العنصر العربي ـ دعامة الإسلام ـ، وهكذا لم يكن تطبيق مبدإ «**الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة**» هدفًا في حد ذاته؛ وإنما كان وسيلة لتحقيق الهدف الكبير وهو «**نشر الإسلام**»، وكان ذلك سببًا في تقييد «**حرية العمل العسكري**» الذي جاء مقننًا بدقة، ومنظمًا بإحكام؛ بحيث يقتصر العنف على مسرح العمليات، وبحيث لا يتجاوز العنف حدود الصراع المسلح في جبهة القتال، وضمن هذا الإطار ذاته حَرَصَ «**أبو عبيدة**» على تنظيم «**التأمين الإداري للقوات**»؛ بحيث يقوم المسلمون بتأمين متطلباتهم عن طريق «الشراء» وعدم إلحاق الضرر بممتلكات المواطنين أو أرزاقهم؛ فكان في ذلك تحقيق هدف السياسة الاستراتيجية والسياسة العليا؛ وهو: «**خوض الحرب بما لا يتعارض مع إقامة سِلْمٍ مُقْبِلٍ**».

وكان «**أبو عبيدة**» في ذلك من الرواد الأوائل الذين سبقوا الدنيا بإدراك هدف الحرب وتطبيق الوسائل الضرورية للوصول إلى الهدف قبل أن يحاول العالم معرفته بأكثر من عشرة قرون.

لقد عرف «**تاريخ الحرب**» في القديم والحديث جيوشًا كثيرة خرجت لإقامة قواعد جديدة لها، ولكنها فشلت كلها في الوصول إلى أهدافها؛ بسبب تفضيل «**حرية العمل العسكري**» على «**إقامة القواعد القوية والمأمونة**»، وبسبب عدم نجاح القادة في تحويل المنطلقات النظرية والمبادئ إلى واقع عملي، ولقد تعرضت «**قاعدة بلاد الشام**» إلى هجمات وغزوات مستمرة، واستطاعت ـ رغم ذلك ـ الصمودَ لكل

التحديات والخروج من كل الأزمات وهي محافظة على قوتها وصلابتها، وقد كان لأبي عبيدة بن الجراح وَمَنْ تَبِعَهُ فضلٌ في ذلك، وقد تحمل الرواد الأوائل - يقينًا - الأعباء الثقيلة، وقدموا التضحيات غير المحدودة حتى أمكن لهم إقامة القاعدة القوية والمأمونة، والتي أفاد منها الأمويون بعد ذلك؛ فجعلوها قاعدة لإطلاق جيوش المسلمين إلى أرجاء الدنيا حتى وصلت إلى الصين وفرنسا، وحفظت «**دمشق**» للدنيا «**أمجاد العرب المسلمين**».

٢- وضوح الهدف

إن قضية «**وضوح الهدف**» عند أبي عبيدة لم تكن مرتبطة بمعرفة الآخرين قدر ارتباطها بمعرفته لنفسه ولما يريده، وقد تكون قضية «**وضوح الهدف**» مُسَلَّمٌ بها على مستوى السياسة الاستراتيجية؛ نظرًا لارتباطها بالعقيدة الإسلامية، ولكن ترجمةَ مثلِ هذا الوضوح على مستوى قيادة العمليات وعلى مستوى التنفيذ التعبوي «**التكتيكي**» هو المجال الرحب أمام قادة العرب المسلمين لإبراز كفاءتهم القيادية، والبرهان على إمكاناتهم الخاصة وقدراتهم الذاتية، وفي هذا المجال كان النجاح الرائع «**لأبي عبيدة ابن الجراح**».

إن عوامل «الوضوح في الهدف» قد اعتمدت عند أبي عبيدة على المعطيات الآتية:

١- التقدير الصحيح للموقف، ومعرفة نوايا العدو بدقة تامة، وإجراء موازنة محكمة بين مجموعة العوامل التي تدخل في اتخاذ القرار.

٢- عقد مؤتمرات القادة - بحسب التعبير الحديث - واستشارتهم في المواقف المستجدة بعد طرح الموقف بكل أبعاده، ثم اتخاذ القرار المناسب والعمل على تنفيذه.

٣- الفصل بين «**الهدف الاستراتيجي**» و«**الهدف العملياتي**»، ومعالجة مواقف العمليات بصورة مباشرة، وترك المواقف الاستراتيجية للقائد الاستراتيجي، والذي كان يمارس دوره الخليفة.

وَتُظْهِرُ مسيرة الفتوح بعد ذلك أنها لم تكن ضربة مباغتة في غفلة من الدهر، أو

أنها كانت عملًا مرتجلًا بعيدًا عن الهدف، مجردًا من الغاية؛ وإنما كانت عملًا موجهًا بدقة رائعة، مارس فيها عقل «**أبي عبيدة**» الجبار دورًا أساسيًّا على مستوى التخطيط للعمليات، وعلى مستوى تحديد الهدف الأساسي والأهداف الثانوية أو الفرعية، وقد تم تنفيذ ذلك كله في إطار من الوضوح التام؛ مما ساعد القوات على الاضطلاع بواجباتها وتنفيذ عملياتها دون خطإ، ودون اضطراب، وفي مناخ من الثقة الكاملة بالنصر.

٣ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

كانت حروب العرب المسلمين نوعًا من الحروب الثورية ـ بمفهومها الحديث ـ، ويظهر أن طبيعة تلك الحروب قد ساعدت قادة العرب المسلمين على استخدام الأساليب الثورية المناسبة؛ للتكيف مع طبيعة الحرب، وضمان الاستجابة المناسبة في مجابهة التحدي المناسب، واستخدمت استراتيجية الحرب التشتيتية ـ وهي استراتيجية ثورية بالدرجة الأولى ـ؛ لمجابهة تفوق الروم، ولم تكن هذه الاستراتيجية هي الوحيدة التي استخدمها قادة العرب المسلمين؛ للمعاوضة عن نقاط الضعف لديهم؛ ولكنها بقيت من أبرز الاستراتيجيات المستخدمة.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تميزت حروب العرب المسلمين بمجموعة من الخصائص التي وضعت تلك الحروب نموذجًا متقدمًا من «**حرب الحركة**»، ومن طبيعة هذه الحرب عدم الجمود أمام موقف معين، والابتعاد عن «**معارك المواقع الثابتة والتحصينات**»، والسعي لمقابلة قوات العدو في معارك تصادمية يغلب عليها طابع الهجوم من الحركة مع عدم استعداد مسبق أو مع استعداد يتم تحضيره على عجل، وَيَشْتَرِطُ هذا النوعُ من الحرب كفاءةً قياديةً عاليةً على مستوى العمليات وإدارة الحرب؛ كما يتطلب كفاءةً عاليةً من المقاتلين لتنفيذ الأساليب التعبوية «**التكتيكية**» المناسبة.

وتبرز سيرة «أبي عبيدة بن الجراح» وعمليات فتح الشام مجموعةً من الأساليب

والطرائق التي استخدمت لتطبيق استراتيجية «**الحرب التشتيتية**» بنجاح وفاعلية؛ ومنها:

١ـ التحرك على عدد من المحاور المتوازية أو المتلاقية؛ كالتحرك من قاعدة الحشد في المدينة المنورة والانطلاق إلى الشام نحو أهداف عديدة؛ مما أربك الروم، وحملهم على وضع خطة لمجابهة الجيوش الأربعة، وعادت هذه الجيوش للتجمع؛ مما أرغم قيادة الروم على تبديل مخططاتهم مرة أخرى لمجابهة الموقف الجديد، وغنمت جيوش المسلمين من ذلك مكسب فرض المعركة على العدو في الزمن والمكان المناسبين.

٢ـ التحرك على شكل مجموعات قتالية متتالية ـ على نحو ما حدث في موقعة مرج الروم ـ، والقضاء على قوات العدو بتجزئتها، والقضاء على كل مجموعة بشكل منفصل عن الأخرى، وحرمانها من تنسيق التعاون فيما بينها.

وظهرت ميزة هذه الاستراتيجية أيضًا عند حصار «**دمشق**»؛ حيث قامت مجموعة فرسان «ذي الكلاع الحميري» بإحباط كل محاولة لدعم حامية «**دمشق**» وحرمان قوات الروم من تنسيق التعاون فيما بينها.

٣ـ يمكن اعتبار «**إحباط هجوم الروم ضد حمص**» في عام (١٧هـ) نموذجًا رائعًا لأساليب الحرب التشتيتية؛ ففي هذه المعركة توجهت قوات المسلمين من مراكز بعيدة عن مسرح العمليات «**الكوفة**»، وانطلقت إلى منطقة غير منطقة العمليات التي أرادها العدو؛ فكان تحرك قوات الكوفة إلى «**الجزيرة**» عاملًا حاسمًا أرغم عرب الجزيرة على «التخلي عن دعم الروم» والعودة إلى مراكز قوتهم في الجزيرة للدفاع عنها؛ فخسر الروم بذلك الدعم الذي كانوا ينتظرونه ويتوقعونه؛ وبذلك أمكن القضاء على كل قوة بمعزل عن القوى الأخرى؛ فعمل «**أبو عبيدة**» ومعه «**جيش حمص**» على تدمير جيش الروم في حين اضطلع جيش العراق بأعمال إخضاع الجزيرة وفتحها؛ فحققت «**استراتيجية الحرب التشتيتية**» أهدافها.

٤ـ دَفَعَ «**أبو عبيدة**» مجموعات قتالية أثناء فتح دمشق نحو اتجاهات مختلفة

لإخضاع المنطقة المحيطة بدمشق، وَفَعَلَ مثل ذلك أثناء حصار «**دمشق**»؛ حيث قاد «خالد بن الوليد» إحدى المجموعات ووصل بها حتى «**قنسرين**» و«**حاضر حلب**» علاوة على تلك المجموعات التي كانت تتحرك باستمرار في «**ريف حمص**»، وقد كان تنفيذ مثل هذه العمليات يشكل عِبئًا ثقيلًا على عاتق المسلمين؛ بسبب ضعفهم العددي، ولكن مقابل ذلك حَرَصَ المسلمون على رصيد معنوي ضخم أضيف إلى رصيدهم الأصلي، وأدى ذلك أيضًا إلى إحباط إرادة القتال عند الطرف المقابل الذي بات يخشى جيش المسلمين الضخم وشدة بأسه، وضمنت العمليات التشتيتية ـ علاوة على ذلك ـ أمن كتلة القوات الرئيسية، ووفرت لها ظروف العمل المناسبة بعيدًا عن كل خطر من تهديد «**المباغتة**»، ويظهر بوضوح أن «**استراتيجية الحرب التشتيتية**» قد ساعدت على تحقيق عدد من مبادئ الحرب في وقت واحد.

٥ـ يمكن أيضًا اعتبار أسلوب المطاردة لتدمير قوات العدو أثناء انسحابها نوعًا من الحرب التشتيتية؛ فقد عمل «**أبو عبيدة**» بعد معركة «**حمص**» على توجيه مجموعات قتالية متتالية لمطاردة الروم حتى ما وراء الدروب، وتحركت هذه القوات على محاور متباعدة؛ وهذا ما دفع «**أبا عبيدة**» لتكوين مجموعات قتالية أخرى تسير على أثر المجموعات المتقدمة لها؛ بهدف دعمها إن هي جابهت مقاومة قوية، أو اصطدمت بمعارك غير متوقعة مع قوات للعدو متفرقة.

لقد استخدم بعض القادة العالميين «**استراتيجية الحرب التشتيتية**» في القرن الثامن عشر[1] للمطاردة؛ كما استخدم قادة آخرون العمل على أكثر من محور، ولكن قادة

---

(١) استخدم هذه الاستراتيجية القائدُ الروسي (كوتوزوف Koutouzov ١٧٤٥ ـ ١٨١٣م) أثناء مطاردة جيوش نابليون بعد انسحابه من موسكو، وخلال مرحلة تراجعه نحو فرنسا. كما تُستخدم استراتيجية «الحرب التشتيتية» بصورة خاصة في الحروب الثورية؛ كوسيلة للتعادل مع قوى العدو المتفوقة، وهدفها الأول «ضرب العدو ضربات موجعة» مع المحافظة على قوات الصورة، وكانت هذه الاستراتيجية إحدى وسائل «الحرب الجزائرية ضد فرنسا» (١٩٥٦ ـ ١٩٦٣م)، والتي أرغمت قوات فرنسا في كثير من الأحيان لتوجه ضرباتها نحو الفراغ.

العرب المسلمين - وفي طليعتهم أبو عبيدة بن الجراح - هم أول من استخدم هذه الاستراتيجية في الهجوم والدفاع وحتى أثناء حرب الحصار والمواقع، ولعلهم أيضًا في مقدمة من استخدم هذه الاستراتيجية في إطار التكامل مع «**العقيدة القتالية**»؛ بحيث كانت هذه الاستراتيجية وجهًا من وجوه عقيدتهم الغنية بالمبادئ والأسس.

ولعل الظاهرة الأكثر أهمية هي استخدام هذه الاستراتيجية على مستوى السياسة الاستراتيجية للفتح، واستخدامها أيضًا على مستوى العمليات؛ فقد كان توجيه جيوش الفتح إلى الشام، وتحديد عدد من المحاور لتحركها إنما هو من عمل الخليفة «أبي بكر» رضي الله عنه، وكذلك الأمر بالنسبة لإحباط هجوم الروم، وتوجيه القوات لفتح «**الجزيرة**» بحسب المخطط الذي وضعه أمير المؤمنين «**عمر**» رضي الله عنه.

وفي النموذجين المذكورين تم تخطيط «**الحرب التشتيتية**» على مستوى السياسة الاستراتيجية، في حين كان توجيه المجموعات القتالية أثناء حصار «**دمشق**»، وأثناء حصار «**حمص**»، وأثناء مطاردة قوات الروم بعد المعارك وتوجيه القوات إلى ما وراء الدروب، كل ذلك في إطار «**العمليات**» ومن تخطيط قائد مسرح العمليات «**أبي عبيدة بن الجراح**».

ويمكن اعتبار نجاح عمليات فتح الشام في قسم كبير منها؛ نتيجة للسياسة الاستراتيجية التي كان يطبقها «**أمير المؤمنين**».

كما يمكن إسناد قسم من النجاح للكفاءة العالية التي كان عليها جند المسلمين، ولكن ذلك كله لا ينتقص من كفاءة «**أبي عبيدة**» كقائد للعمليات، ولعل أكبر نجاح له هو في التنسيق بين أسس السياسة الاستراتيجية وبين إدارة الحرب على مستوى العمليات، والتوفيق باستمرار بين «**الهدف**» وبين «**القوى والوسائط المتوفرة**».

٤ـ استراتيجية الهجمات الوقائية:

وضع «**أبو عبيدة بن الجراح**» قاعدة «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» عندما نظم غزوات ما وراء الدروب؛ لإشغال الروم عن أنفسهم، وذلك بعد قيامهم بالهجوم

ضد «**حمص**»، وقد تحولت هذه الغزوات فيما بعد؛ فأصبحت رتيبة ودورية ومنتظمة، وبقي الهدف ثابتًا؛ وهو: «**عدم السماح للروم بتهديد أمن الثغور الإسلامية**»، ولقد تطور مفهوم «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» تطورًا كبيرًا، ولكن بقي الأساس الذي أرسى قاعدته «**أبو عبيدة**»؛ وهو:

١- تنظيم الثغور، وإقامة حاميات قوية على الحدود واجبها الأول تلقي الصدمة عند حدوث هجمات مباغتة، وإنذار قيادة جيش المسلمين، وتوفير الفرصة المناسبة أمام الجيش للدخول في المعركة.

٢- قيام حملات قوية ومنتظمة لغزو بلاد الروم، ونقل «**ويلات الحرب**» إلى بلاد الروم، وإبعادها عن بلاد المسلمين، وكانت حاميات الثغور تنضم إلى هذه الحملات، ثم تعود إلى قواعدها مع عودة الحملات - في الصوائف والشواتي.

لم تكن «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» في واقعها بعيدة عن العقيدة القتالية للمسلمين، فقد مارس الرسول ﷺ تطبيق هذه الاستراتيجية في حروبه؛ حيث كان ينتقل إلى مواقع أعدائه، أو يسير إليهم قبل أن يصلوا إليه وقبل أن يهاجموه في قاعدته، وطبق الخليفة الأول هذه الاستراتيجية ذاتها ضد المرتدين؛ فهاجمهم في قاعدتهم، وحرمهم من تنسيق التعاون فيما بينهم، وعندما تم فتح الشام، أخذت هذه الاستراتيجية ملامح متطورة في مجال التطبيق العملي وفي مجال قيادة العمليات، ويعود الفضل إلى «**أبي عبيدة**» في إحداث هذه التطورات التي أصبحت أساسًا لكل تطوير لاحق.

وتجد استراتيجيةُ الهجماتِ الوقائيةِ قاعدةً لها في عقيدة قتال المسلمين؛ فحروبُ المسلمين «**حربُ حركةٍ**» قبل كل شيء، وهي «**حربٌ هجوميةٌ**»، ورغم أن إشغال الروم عن أنفسهم هو عمل دفاعي، هدفه صرفهم عن التعرض للمسلمين، إلا أن العقيدة القتالية الإسلامية قد جعلت «**الحرب الهجومية**» وسيلتها لتحقيق «**الهدف الدفاعي**»، وجاءت استراتيجية الهجمات الوقائية ترجمة واقعية وعملية لهذا

المضمون؛ لقد كان من المحال على «**أبي عبيدة**» تجميد قوات كبيرة للبقاء في الثغور «**كحاميات دفاعية في مواقع ثابتة**»؛ كما أن مثل هذا الإجراء يتنافى وعقيدة القتال الإسلامية ـ الهجومية ـ، وكان من المحال أيضًا منح الثقة لأعداء المسلمين والاعتماد على نواياهم السليمة لو ظهرت مثل هذه النوايا، وكان المخرج الوحيد هو «**تنظيم حرب هجومية**» بصورة دائمة، ولكن كان من المحال أيضًا البقاء في مواقع الهجوم على جبهة واحدة، في حين كانت الأعمال القتالية الناجحة على الجبهات الأخرى تتطلب تركيز الجهد لتعزيز تلك النجاحات دائمًا، ولم يبق من مخرج إلا التناوب بين الهجوم والدفاع على جبهة الروم بقدر ما يتوفر من «**القوى والوسائط**»، ونجحت «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» في إيجاد المخرج من هذا المأزق على حدود بلاد المسلمين مع «**الروم**».

وتظهر عبقرية «**أبي عبيدة**» القيادية مرة أخرى من خلال التوفيق بين «**الهدف**» وبين «**القوى والوسائط المتوفرة**»، وقد يكون من الطبيعي لقائد أن يكلل هاماته بأكاليل الغار عندما يتصرف بقوى كبيرة وبوسائط جبارة لتحقيق «**هدف محدود**»، ولكن الكفاءة القيادية الحقيقية ـ بالنسبة لقائد العمليات ـ هي في «**تحقيق الهدف**» بالقوى والوسائط المتوافرة، ويتعاظم دور الكفاءة القيادية عندما تكون تلك القوى والوسائط هي أقل من حجم الواجبات المفروضة على قائد العمليات.

ويعرف «**تاريخ الحرب**» مجموعات كبيرة من القادة الذين حققوا نجاحاتهم الرائعة بفضل ما توفر لهم من قوى ووسائط، ولكنهم قلة، أولئك الذين بلغوا أهدافهم بوسائط وقوى محدودة، وكان «**أبو عبيدة**» واحدًا من قادة التاريخ الذين كانت انتصاراتهم أكبر بكثير من حجم قواهم ووسائطهم.

❑ المبادئ العسكرية التي طبقها القائد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

١ ـ المباغتة:

يُعَدُّ مبدأ المباغتة وتطبيقه في طليعة المبادئ العسكرية التي طبقها أبو عبيدة في

حروبه؛ وسنضرب على ذلك مثالين:

الأول: في فتح حمص:

تظاهر أبو عبيدة بالانسحاب من حمص وسمح للروم بمطاردته وقدَّم شيئًا من الغنائم؛ وذلك لاجتذابهم وإخراجهم من حصونهم، ثم باغتهم بالانقضاض عليهم.

وقد كان وقع هذه المباغتة مُذهلًا؛ حيث أدى إلى نجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر[1].

الثاني: في فتح اللاذقية: وقد سبق ذكره.

٢ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية:

وهذا يعني: وضع العدو أمام مواقف متجددة، يصعب عليه مجابهتها؛ مما يجعله يقتنع بعجزه عن متابعة الصراع.

لقد كان العائق الأكبر أمام تقدم المسلمين التحصينات الدفاعية؛ فكان الحصار الذي ربما طال مما يفقد المسلمين قدرتهم الحركية العالية وقوتهم الهجومية؛ لذلك عمل أبو عبيدة على:

أ ـ إرغام العدو على مغادرة تحصيناته والدخول معه في مواجهة تكون فيها المبادأة في قبضته، ويتم فيها استخدام القوة الهجومية للمسلمين:

ومن الأمثلة على ذلك: معركة فحْل[2]، وبعلبك[3]، واللاذقية.

ب ـ استخدام القوة الهجومية في أعماق التوغل العميق في أثناء عمليات الحصار:

ومثال ذلك: أن قوات «**ذي الكلاع الحميري**» وصلت أثناء حصار دمشق إلى

---

(١) فتوح الشام، للواقدي (٦٤/١)، وتاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (١٤٦)، وأبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (١١٠ ـ ١١٢).

(٢) **انظر**: البداية والنهاية (١٩/٧)، وتاريخ فتوح الشام، للأزدي ص (١١١، ١١٢).

(٣) تاريخ فتوح لشام، للأزدي ص (١١٠).

حدود مدينة حمص[١].

ج ـ المطاردة البعيدة لفلول الروم؛ حتى لا تتمكن تلك القوات من إعادة تجمعها:

ومن الأمثلة على ذلك: ما سلكه أبو عبيدة في معركة مرج الروم[٢].

٣ـ مبدأ أمن العمل:

عرف المسلمون منذ وقت مبكر مبدأ «**أمن العمل**»، وطبّقوه في حروبهم بهدف عدم توريط قوات المسلمين في مأزق يعرضها للخطر.

ولقد طبق القائد أبو عبيدة هذا المبدأ واتخذ التدابير الواقية الآتية لتطبيق هذا المبدأ:

أ ـ الاستطلاع المستمر لقوات العدو:

وذلك باتخاذ الجواسيس والعيون ودوريات الاستطلاع واستجواب الأسرى ومعلومات الأنصار.

ب ـ اتخاذ تدابير الحيطة والحذر:

فقد كان أبو عبيدة لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة، وقد حاول الروم عدة مرات مباغتة قوات المسلمين في بلاد الشام التي كان أمر فتحها مسندًا إلى أبي عبيدة؛ مثل: «**دمشق، وفحل، ومرج الروم، وحمص**»، ولكن الروم لم يستطيعوا النيل من المسلمين؛ وذلك لأن عناصر الرصد والإنذار ودوريات الاستطلاع التي كانت تعتمد على الفرسان «الخيالة» كانت متيقظة دائمًا، وكانت تزيد من يقظتها بالليل، وفي الأحوال الجوية غير العادية.

كما أن هناك قوةً جاهزةً تُسمى «**الرِّدء**»[٣]، واجبها مجابهة قوات العدو وإشغالها ريثما تستعد القوات الرئيسية لدخول الميدان.

---

(١) الكامل، لابن الأثير (٢/٤٩٠، ٤٩١).

(٢) تاريخ الطبري (٣/٥٩٨، ٥٩٩)، والكامل، لابن الأثير (٢/٤٩٠)، وأبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (١٢٦ ـ ١٢٩).

(٣) في المصطلح العسكري: القوة الاحتياطية. والردء ـ في اللغة ـ: العون والناصر.

وبهذا الأسلوب أحبطت كل محاولة استهدفت غرة قوات المسلمين.

د ـ عزل ميدان المعركة عن أي تدخل خارجي:

وذلك بإيجاد مفارز من الفرسان؛ مثال ذلك: المفرزة التي شُكِّلَتْ بقيادة خالد بن الوليد في أثناء حصار حمص، ويبلغ عدد أفرادها أربع مئة فارس؛ وذلك بقصد عزل ميدان العمليات الحربية عن أي تدخل خارجي غير متوقع[1].

وبهذه الوسائل جميعها كان أبو عبيدة يُحْدِثُ موقفًا لا يتوقعه العدو؛ فتنهار إرادة الصراع لديه، وينتصر جيش المسلمين دون أن يتكبد خسائر فادحة[2].

المبدأ الرابع: وحدة القيادة:

وما قول أبي عبيدة لعمرو بن العاص حينما قدم عليه مددًا له: «. . . إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نَتَطَاوَعَ؛ فأنا أطيع رسول الله ﷺ وإن عصاه عمرو» إلا تطبيقًا لهذا المبدإ.

المبدأ الخامس: المحافظة على الهدف:

ومن الأمثلة على ذلك: أن أبا عبيدة رضي الله عنه عندما أراد فتح الشام بدأ بفتح المحور الداخلي الذي يشمل: «**بعلبك ـ حمص ـ قنسرين ـ حلب**» مرورًا ببقية المراكز، وقد اتخذ من حمص مقرًّا لقيادته؛ بحيث يستطيع توجيه قواته منها نحو كل اتجاه يتعرض للتهديد.

فلما أكمل المحور الداخلي، انطلق إلى المحور الساحلي «**أنطاكية ـ اللاذقية ـ جبلة ـ طرسوس**»، وكانت خطة الفتح واضحة في ذهن أبي عبيدة؛ بحيث لم يتم الانتقال من المنطقة الداخلية إلى المنطقة الساحلية إلا بعد تكوين قاعدة قوية وصلبة في الداخل؛ وبهذا يكون أمين الأمة قد حقق الهدف، وحافظ عليه في وقت واحد.

---

(١) أبو عبيدة بن الجراح، لبسَّام العسلي ص (١١٥ ـ ١١٨).

(٢) المصدر السابق ص (١١٧ ـ ١٢٠).

ومما يدل على أهمية هذه القاعدة تركيز الروم هجومهم المضاد على حمص؛ لأنه لو تم لهم ذلك لانهارت المنطقة الساحلية بسهولة.

فعمليات الفتوح التي قام بها هذا القائد المظفر لم تكن عمليات مرتجلة؛ وإنما كانت تخضع لتخطيط دقيق ومحكم، يحدد الهدف ويضع كل ما هو ضروري من وسائل ممكنة للمحافظة عليه[١].

المبدأ السادس: الاقتصاد في القوى:

طَبَّقَ أبو عبيدة هذا المبدأ، وَقَصْدُهُ بذلك التعويض المادي والبشري مما كانت تعاني منه قوات المسلمين، واعتمد في ذلك على مجموعة من الأسس؛ منها:

أولًا: الوصول إلى الهدف من الحرب عن طريق عقد اتفاقات؛ من أجل تحقيق السلم؛ مثال ذلك: صلح أذرع والجزيرة.

ثانيًا: تنفيذ العمليات الحربية في جَوٍّ من التشتيت، يصعب منه على قوات العدو تطوير أساليبها القتالية في أي جبهة من الجبهات.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حدث في بلاد الشام؛ فحيث كان شرحبيل بن حسنة يجاهد وينازل الروم في الأردن، كان عمرو بن العاص يعمل على تصفية جيوب المقاومة بفلسطين، بينما كان معاوية بن أبي سفيان يحرر بقية جيوب المعارضة في ساحل الشام.

ثالثًا: إظهار التصميم لبلوغ هدف الحرب؛ فقد ظن الروم في الشام أن طول الحصار يرغم المسلمين على الانصراف، كما كان أهل حمص يأملون أن تكون برودة الجو وقوة المقاومة سببين في إرغام جند المسلمين على الانسحاب، واقتنع الروم بعدم جدوى مقاومة المسلمين؛ فكانت سرعة النصر.

قال اللواء محمود شيت خطاب: «كان أبو عبيدة في أعماله الحربية يطبق مبدأ

---

(١) المصدر السابق ص (١٣٤ - ١٣٧).

«**المباغتة**»؛ كما فعل في معركة «**اللاذقية**»، ويعمل على «**اختيار مقصده وإدامته**»، وبذل أقصى جهده لإكمال «تحشيد قواته» قبل المعركة، ولكنه كان «**يقتصد بالمجهود**»، ولا يسرف في استخدام قطعات كبيرة دون مبرر، وكان يحرص على استكمال متطلبات «الأمن» لقطعاته؛ حتى تستطيع العمل بمرونة وتعاون، كما كان يديم معنويات رجاله، ويؤمن لها كافة الأمور الإدارية»[١].

❑ **تمني الأمين أبي عبيدة للشهادة وموته بالطاعون . وهو شهادة بعمواس سنة «١٨ هـ».**

ما كان أمين الأمة يكترث بمتاع الدنيا من مال؛ وإنما ينفقه كله في سبيل الله؛ فقد أرسل عمرُ بنُ الخطابِ إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربع مئة دينار، وقال لرسوله: «**انظر ما يصنع؟!**»، فقسمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمرَ رسولُهُ بما صنع أبو عبيدة بالمال، قال: «**الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا**»[٢].

وَفَذٌّ كهذا يشتاق للشهادة ويحرص عليها؛ فقد كان مُعَافًى وأهله من الطاعون؛ فقال: «**اللهم نصيبك في آل أبي عبيدة**»؛ فخرجت في خنصره بثرة؛ فجعل ينظر إليها؛ فقيل له: إنها ليست بشيء. فقال: «**إني لأرجو أن يبارك الله فيها؛ فإنه إذا بارك في القليل كان كثيرًا**»[٣].

روى الطبري عن الحارث بن عمير قال: «أخذ بيدي معاذ بن جبل، فأرسلني إلى أبي عبيدة، فسأله: كيف هو، وقد طُعِنَّا؟! فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفِّه، فتكاثر شأنها في نفس الحارث، وفرق منها حين رآها، فأقسم أبو عبيدة بالله، ما يُحبُّ أنَّ له مكانها حُمْرَ النَّعَمِ»[٤].

---

(١) قادة فتح الشام ومصر ص (٨٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٤١٣/٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٨٦/٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/١).

وروى الطبري بإسناده: لما اشتعل الوجع ـ الطاعون ـ، قام أبو عبيدة في الناس خطيبًا، فقال: يأيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل اللَّه أن يقسم له منه حظه. فطعن؛ فمات.

وكان للأمين ما تمنى؛ فقد مات بطاعون عمواس سنة ثماني عشرة للهجرة «٦٣٩م»، ورزقه اللَّه بالطاعون شهادة جزاء ما قدَّمَ لدينه ولأمته.

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

❑ **هذه صفحة من أمجادنا جاءت على يد أمين الأمة المغوار في صلحه مع أهل دمشق:**

«**بسم اللَّه الرحمن الرحيم**

هذا كتابٌ لأبي عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق وأرضها، وأرض الشام من الأعاجم، إنك حين قدمت إلى بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا؛ وَإِنَّا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا نُحْدِثَ في مدينة «**دمشق**» ولا فيما حولها كنيسةً ولا ديرًا ولا قلامة ولا صومعة راهب، ولا نُجَدِّدَ ما خرب من كنائسنا ولا شيئًا منها مما كان في خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وأبناء السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم على من غَشَّ المسلمين، وعلى أن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضربًا خفيًّا في جوف كنائسنا، ولا نُظْهِر الصليب عليها، ولا نرفع أصواتنا في صلاتنا وقراءتنا في كنائسنا، ولا نُخْرِج صليبنا ولا كتابنا، ولا نُخْرِج باعوثًا ولا سعانين، ولا نرفع أصواتنا بموتانا، ولا نُظْهِر النيران معهم في أسواق المسلمين، ولا نجاورهم بالخنازير، ولا نبيع الخمور، ولا نُظْهِر شركًا في نادي المسلمين، ولا نُرَغِّب مسلمًا في ديننا، ولا ندعو إليه أحدًا، وعلى أن لا نَتَّخِذَ شيئًا من الرقيق الذين جَرَتْ عليهم سهام المسلمين، ولا نمنع أحدًا من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نَلْزَمَ ديننا حيث كنا، ولا نتشبه

بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فَرْقِ شَعْرٍ، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتسمَّى بأسمائهم، وأن نَجُزَّ مقادم رءوسنا، ونفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا ننقش في خواتيمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئًا من السلاح، ولا نجعله في بيوتنا، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نُعَلِّم أولادنا القرآن، ولا نشارك أحدًا من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجارة، وأن نُضَيِّفَ كلَّ مسلم عابر سبيل من أوسط ما نجد، ونطعمه فيها ثلاثة أيام، وعلينا أن لا نشتم مسلمًا، ومن ضرب مسلمًا فقد خلع عهده، ضمنا ذلك على أنفسنا وذرارينا وأرواحنا ومساكننا، وإن نحن غَيَّرْنَا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا وقد حَلَّ لك منا ما حَلَّ من أهل المعاندة والشقاق، على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا فأقرُّونا في بلادنا التي أورثكم اللَّه إياها، شهد اللَّه على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى به شهيدًا»[1].

لله درك من أمين يا أبا عبيدة، أين أنت ممن يطلبون قمامة الإفرنج وفضلاتهم؟!

يرمرم من فتات الكفر قوتًا ... ويلعق من كئوسهم الثمالة

يقبل راحة الإفرنج دومًا ... ويلثم دونما خجل نعاله

عزة صحيحة كانت عند صحابة رسول اللَّه المجاهدين في الشام وقائدهم أبي عبيدة، حقيقة استقرت في قلوبهم؛ فاستعلوا بها على أسباب الذلة لغير اللَّه .. استعلوا بها على شهواتهم ورغائبهم القاهرة، ومخاوفهم ومطامعهم، استعلوا بها على القيد والذل .. فالعزة لله جميعًا.. ويأتي تكريم الكريم الجواد لعبادة المؤمنين المعتصمين بحبله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، يضم اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ رسوله والمؤمنين إلى جنابه الكريم، ويضفي عليهم من عزته، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا اللَّه .. وأي تكريم فوق هذا التكريم .. ها نحن أولاء .. هذا لواء الأعزاء .. وهذا هو الصف

---

(١) تهذيب ابن عساكر (١/١٤٩، ١٥٠).

العزيز.

وصدق الله؛ فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزته - تَعَالَى -، العزة التي لا تهون ولا تهن، ولا تنحني ولا تلين، ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا رسخ الإيمان واستقر؛ فالعزة معه راسخة مستقرة.

وأنى للبعيدين عن منهج اللَّه أن يتذوقوا هذه العزة وقد فقدوا صلتهم بمصدرها الأصيل؟!

ورضي اللَّه عن الفاروق حين قال: «**نحن قوم أعزنا اللَّه بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله**» ... والواقع خير شاهد.

وَقْفَةٌ كُلُّهَا عِبَرٌ وَعَبَرَاتٌ

«كان هرقل إمبراطور الروم كلَّمَا حجَّ بيت المقدس ثم عاد مخلفًا سوريًّا ظاعنًا في أرض الروم، التفت إلى سورية، وقال: «**عليك السَّلام يا سورية، تسليم مودِّعٍ لم يقضِ منك وطره وهو عائد**».

أما هذه المرة فقد كان يدرك أن الأمر يختلف؛ فما خرج من «**شمشاط**» وحاذى سورية، وقف على مرتفع والتفت إلى سورية وقال: «**قد كنتُ سلمتُ عليك تسليم المسافر، أما اليوم، عليك السلام يا سورية تسليم المفارق، سلام مودعٍ لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا، ولا يعود إليك روميٌّ أبدًا إلا خائفًا، حتى يولد المولود المشئوم، وليته لم يولد، عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو**»[1].

ومسك الختام فلسطين «**إيلياء**» بيت المقدس، حاصرها حتى طلب أهلُهَا من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل ما صالح عليه أهل الشام، وأن يكون المتولي لعقد الصُّلْحِ

(١) سقوط دمشق، لأحمد عادل كمال ص (٥٢١)، والطبري (٣/٦٠٣)، والبلاذري ص (١٦٢)، والأزدي (٢٣٤).

عمر بن الخطاب؛ فَكَتَبَ أبو عبيدة إلى عمر بذلك؛ فقدم عمر وفتح بيت المقدس.

تُرَى ماذا يقول أبو عبيدة؟!

لَكَأَنِّي به ينادي من وراء الغيب:

هَلْ فَتَحْنَا فلسطين ليُسلِّمها أَحْفَادُنَا لليهود؟!

واحسرتاه .. واأسفاه!!.

مات القويُّ الأمين...

مات فوق الأرض التي طهرها من الروم...

وَخَمَدَ صَوْتُ القِسيسين والنواقيس...

وقهر الرومَ وما أدراك ما الروم حدٌّ حديدٌ وركنٌ شديدٌ...

وهناك اليوم تحت ثرى الأردن مثوى رُفَاتٍ نبيلٍ، كان مُسْتَقَرًّا لِرُوح خَيِّرٍ ونفسٍ مطمئنةٍ.

أما في واقعنا فَسَلْ ملوك الهرولة إلى التطبيع، بل على حدِّ قول ملكٍ من ملوك العرب: «**لا أهرول بل أركض ركضًا**»، قالها الملك الذي كان يحكم الأرض التي تحوي جثمان الأمين.

❑ **قصيدة «في موقف العشق يا قدس»**

سافرتُ فِيكِ وَلَمْ يزلْ يَحْلو السَّفَرْ

سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ سَفَري على دَرْبي

يُقاومُ في عِنادٍ كُلَّ أَعْدَاءِ السَّفَرْ

نَصَبُوا الحَواجِزَ في طَريق العِشْقِ

واسْتَدْعُوا الخفَرْ

حَفَروا بِدربِ الحُبِّ آلافَ الحُفَرْ

وَتَصَيَّدُوا بِحرابِهِمْ وَكِلابِهِمْ
فُرْسانَ عشقٍ ما تَرَاجَعَ أَوْ تَرَدَّدَ أَوْ كَفَرْ
يا عِشْقَ قَلْبِي مُنْذُ مَا قَبْلَ الذي
يا حُبَّ رُوحي مُنْذُ مَا بَعْدَ الذي
لا قَبلَ قَبْلَكِ حَيْثُمَا
لَا بَعْدَ بَعْدَكِ أَيْنَمَا
أنتِ العَشِيقةُ والقَصيدَةُ والأغاني والْوَتْر
سافرتُ فيكِ وَلَم يزلْ يَحْلو السَّفَرْ
سافرتُ فيكِ وَأَنْتِ مِشْكاتي وَرُمْحي
والليلُ يَخْنقُ شُعْلَتي
وَتُحَاصِرُ الأنواءُ فَرْحي
وَقُرَيْشُ تَرْفُضُني وَتَطْرُدني
تَسْجِنُ فَجْرِيَ الآتيَ وَصُبْحِي
فَصَفَعْتُ وَجْهَ اللّاتِ والعُزَّى
لِيَبْرُقَ في صَحاري التِّيهِ جُرْحِي
عَرَّيْتُ صَدْري للخَنَاجِرِ والأَظَافِرِ
والنُّيوبِ المُشَرَّعَاتِ لِقَتْلِ آمالي وَذَبْحي
وَرَكِبْتُ ظَهْرَ اللَّيل
لَا أَخْشَاهُ
لَا أَرْجوهُ

بل يَطْوِيهِ إصراري وَكَدْحي
والعشقُ يَحْمِلُني وَيُسْلِمُني لِقَرْحٍ بَعْدَ قَرْحِ
وَأَنَا بِهذَا العِشْقِ مَأْخُوذٌ وَمَشْدُودٌ
فَفَرْحُكِ في لَيالي العِشْقِ صَدْحِي
يَا بَلْسَمَ الجُرْحِ المُرَصَّعِ بِالضِّيَاءِ وبالسَّناء وَبِالجَمَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَم يَزَلْ يَحْلُو السَّفَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ وَلَم يَزَلْ عِشْقِي بِسَاحِك يَسْتَعِرْ
العِشْقُ مِجْدافِي وَكَشَّافي
وَسَيَّافي
وَجَلَّادي الأشِرْ
العِشْقُ أَشْرِعَتِي وَصَوْمَعَتِي
وَنَاقُوسُ الخَطَرْ
دُقِّي بِصَدْرِي يَا نَوَاقِيسَ الخَطَرْ
لَنْ تُوقِظِي ظَهْرِي
فَظَهْرِي قَدْ تَسَمَّرَ لِلْجِدَارِ وَلِلقَرَارِ وَلِلحَجَرْ
ظَهْري تَخَلَّى بَاعَنِي
هذي ضُلُوعِي
تَطْعَنُ الرُّمْحَ المُسَدَّدَ والشَّظَايَا وَالمَطَرْ
وَتَذُودُ عَنْكِ الرِيحَ والإِعْصَارَ
في لَيلٍ تَدَثَّرَ بالشِّقَاقِ وبالنِّفَاقِ وبالخَوَرْ

هَذِي ضُلُوعِي تَلْطِمُ المَوْجَ المُعَرْبِدَ
في بِحارِ الجُبْنِ والتَّدلِيسِ فِي اللَّيلِ العَسِرْ
هَذِي ضُلُوعِي أَصْبَحَتْ جِسْرًا لِجَيْشِ العِشْقِ
حَتَّى يَنْتَصِرْ
سَافَرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحْلو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ مُحَجَّبًا مِنْ قَبْلِ آلافِ القُرُونْ
سافرتُ فِيكِ مُدَجَّجًا مِنْ بَعْدِ آلافِ القُرُونْ
قَد كُنْتُ في الأولى بحَشْدٍ مِنْ ذَرَارِي
عاهَدتُ عَهْدَ الحَنِينْ
عهدًا بلا شَكٍّ يَمُورُ ولا ظُنُونْ
عَهْدَ الإرادةِ كي تَكونْ
وما يكونُ لِكي تكونْ
قد كُنْتِ أنتِ... وأنتِ كُنْتِ لكي نَكونْ
وأتيتُ في الأُخْرى فَكُنْتِ العَهْدَ
نَفْسَ العهدِ
نَفْسَ القَيْدِ
نَفْسَ النَّفْسِ في حَشدٍ مِنَ البَشَرِ المُبَارَك
في الحياةِ وفي المَنُونْ
فحَمَلْتُ دربي فوقَ كَتْفِي

وانطلقتُ إليكِ يا عِشْقِي المعتقِ بالسُّنُونْ
العِشْقُ في زيفِ الحيَاةِ مُصَنَّفٌ بَعْضَ الجُنونْ
والعِشْقُ في أصْلِ الحياةِ
هو الحياةُ... هو النعيمُ المُنتظرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يزلْ يَحلو السَّفَرْ

* * *

سَافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ
قَدَرِي المُقدَّرُ أَنْ أُسَافِرْ
لَسْتُ المكابِرَ في دروبِ العشقِ لكني أُصَابِرْ
لَستُ المُغَامِرَ إنَّمَا عِشْقِي على دَرْبِي يُعَلِّمُنِي وَيُلْهِمُنِي
وَينْبِتُ لي أَظَافِرْ
عِشْقِي المُحَاصَرُ في الشعابِ وفي المَوانِئ والمَغَاوِرْ
عِشْقِي المُقَيَّدُ في السطورِ وفي الصُدور وفي الحَنَاجِرْ
عِشْقِي المُكَبَّلُ يُرْعِبُ السَّيَّافَ
والهَتَّافَ
والشَّبَقَ المُقَامِرْ
لا الشَّمْسُ يمكنُ أنْ تَقَرَّ بِراحتي يَوْمًا
ولا القَمَرُ المُثَابِرْ
وسُراقَةُ المخدوعُ لَنْ يُثني جِمَالِي
في دُروبِ العشقِ أن تَأتيكِ في أَقْصى المَهَاجِرْ

جَاءَتْكِ فوقَ خُيولِهِمْ
جَاءَتْكِ عَبْرَ فُلولِهِمْ
جَاءَتْكِ رَغْمَ طُبولِهِمْ
جَاءَتْكِ تَقْتَحِمُ الحَواجِزَ والمغاوِرَ والغرائِزَ والخَطَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ ولمْ يَزَلْ يَحْلُو السَّفَرْ

* * *

سَافَرْتُ فِيكِ وَلَمْ يَزِلْ
سَفَرِي يُصارِعُ كُلَّ أَشْكَالِ الوَهَنْ
سَافرتُ فِيكِ وأنتِ عَذْراءُ الوَطَنْ
سَافرتُ فِيكِ وَلستِ خَضْراءَ الدِّمَنْ
لا أَصْلَ جَدِّكِ ساقطٌ
لا فَرْعَ أُمِّكِ هَابِطٌ
لا اسْمَ أَهْلِكِ يُخْتَبَنْ
يا عِطْرَ كُلِّ الأنْبِياءِ المُخْلِصِينْ
يَا زَهْرَ كُلِّ الأولياءِ المتَّقِينْ
مَنْ قَالَ إِسْمُكِ مُمْتَهَنْ
مَنْ قَالَ سَيْفُكِ يُرْتَهَنْ
هذا حَدِيثُ الإِفْكِ مَصْنوعٌ وَمَدْفوعٌ
لِتَشْتَعِلَ الفِتَنْ
قِدِّيسَةُ الآباءِ والأَجْدَادِ والتَّارِيخِ

والفَرْعِ الحَسَنْ
قِدِّيسَةُ التُّرْبِ المبارَكِ حَوْلَهُ
يَا عِشْقَنَا
قِدِّيسَةُ الرُّؤيا الجليلَةِ والأَمَانِي والصُّورْ
سَافرتُ فِيكِ وَلَمْ يَزَلْ يَحلُو السَّفَرْ

❊ ❊ ❊

سَافرتُ فِيكِ وَفَوْقَ راحِلَتي عُمَرْ
وَأنَا رَفِيقُ رِكَابِهِ والقُدسُ فِي مَرمى البَصَرْ
وَصَهِيلُ خَيْلِكِ فِي الشَّمال وفِي الجنوب
وفِي البَوَادِي والحَضَرْ
وَفَوارِسُ الجِيلِ العَظِيم تَدُقُّ أبوابَ الظَّفَرْ
وأبو عُبَيْدة والمُثنى وابن وَقَاصٍ وَخَالِدٌ في دَمي
وَسيوفُهمْ نَشوى تَذودُ عن الأَقصى الخَطَرْ
كُنتِ الإعَادَةَ للبداية والبدايةُ للشُّرُوقِ المُنْتَظَرْ
أَحْرَقْتُ إسطولي بِشاطِئِكِ العَظِيمِ تَقَحُّمًا
وَنَشَرْتُ رَايَاتِي على هامِ القَمَرْ
وَحَمَلْتُ دِرْعَكِ لا أُبَالِي قَيصَرًا في الساحِ
أَوْ كِسْرى ولا حَشْدَ التَّتَرْ
عُمْرِي عَلى مُهْري
وَمُهْرِي فَوْقَ سَاحِكِ لا يُبالي

باجنودِ وبالقرودِ وبالذئاب وبالحُمُرْ
هذَا يَميني فَوْقَ سَيْفِ الحَقِّ إيمانًا وَعَهدًا
لَنْ يُزَعْزِعَه المَوالي في رِحَابِكِ تَنْتَحِرْ
سافرتُ فِيكِ ولم يَزَلْ يَحلو السفَرْ

* * *

سافرتُ فِيكِ وَعِشْقُنا
ينمو علي لهبِ الطهارةِ والغضبْ
ما كُنْتِ خَائِنَةَ العَزيزِ
ولستِ زانيَةَ العَربْ
إنِي أُعِيذُكِ بالذي أَجْلاكِ في سِوَرِ الكتابِ
فَكُنْتِ جَوْهَرةَ الزّمان المُرتَقَبْ
إِني أُعيذُكِ بالذي سَوَّاكِ عاصفةً بِكَفِّ الحَقِّ
تكتسحُ العفونَةَ والعطبْ
إني أُعِيذُكِ أن تَهُزِّي الأَثْلَ مِن أجلِ الرطبْ
لا نَخْلَ في وادِ السَّرابِ ولا رُطَبْ
هَذِي المشانِقُ فاحذري أنْ تَقْربيها
وارقُبيها عَنْ كَثَبْ
فَعَسَى الطَّليقَةُ تَحْتَ ظِلِّ العَرْشِ بَاتَتْ تَقْتَرِبْ
فإلى مَتى؟!
تَأتي وَتَنْتَصِبُ العَسى؟!

لا تَسألِيني فَالعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابَل قَابَ قوسٍ واقترب
فَلْتُرضِعيهِ مِن الشرايينِ التي
لَمْ تَأكلِ الثَّمرَ المُحَرَّمَ
لم تُصَلِّ لِلكراسي والرُّتَبْ
فَلْتُرْضِعِيهِ مِنَ الشرايين التي ما لاكت الكَبِدَ الشريفَ
ولا نَمَتْ فِي حُضْنِ حَامِلَةِ الحَطَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشَّرايينِ التي ما حاصَرتْ شِعْبَ الصُّمودِ
ولم تُدَنْ للمستبدِّ أبي لَهَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي
لَمْ تَحْتَسِي بَحْرَ السَّرَابِ
وَلَمْ تُلَقَّنْ مِن مُسَيْلَمَةَ الكَذِبْ
فَلتُرضِعِيهِ من الشرايين التي
لَمْ تَحْمِلِ السيفَ الذي
ذَبَحَ الحسينَ
وَلَمْ تَنَم في صَدْرِهَا
نَارُ الجراحِ العاصفات ولا الغَضَبْ
فَلْتُرضِعِيهِ من الشرايين التي ما سَلَّمتْ
لِبني قُريظَةَ خَلْفَهَا أو أَنْفَهَا أو سَيْفَهَا أو حَرْفَهَا
أو أهل يَثْرِبَ أو صَبَاحًا يَقْتَرِبْ

لا تَسأليني فَالْعَسى
نَجْمٌ تَدلى فَوْقَ بابلَ قابَ قَوسٍ واقتَربْ
فإذا غَدِيْ شمسًا يُعانقها الضُّحى
تُلْقِي على الأقصى أكاليلَ الضِّياءِ المُرْتَقَبْ
هَذِي العسَى سَطَعَتْ وَكانت في الخبَرْ
سَافَرْتُ فِيكِ ولم يزلْ يحلو السَّفرَ[1].

(١) قصيدة «في موقف العشق»، لسعيد المزين (٣٠ يناير ١٩٨٦) المنشورة بمجلة «ديوان القدس» «العدد الثاني رجب ١٤٠٦هـ ـ مارس ١٩٨٦م» ص (٥٨ ـ ٦١).

١٣

فارس الإسلام.. الأمير أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص

خال رسول الله ﷺ

فارس الإسلام[١].. الأمير أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص

خال رسول اللَّه ﷺ

بطل القادسية، وفاتح المدائن، والعراق والجزيرة، ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد:

سعدُ بنُ مَالك ليْثٌ في براثِنِهِ قَدْ قَالَ عمرُ: إنَّه الليثُ غَادِيًا.

عن جابر قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ، فأقبل سعد بن أبي وقاص، فقال النبي ﷺ: «**هذا خالي، فَلْيُرني امرؤٌ خالَه**»[٢].

وهو أول من أراق دمًا في الإسلام؛ لَمَّا ضرب أَحَدَ المشركين بِلَحْي جملٍ؛ فشجَّه.

وهو البطل، أول رامٍ بِسَهْمٍ في سبيل الله.

قال سعد رضي الله عنه: إني لأول العرب رَمَى بسهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خِلْط، ثم أصبحت بنو أسد تُعزِّرُني على الإسلام، لقد خِبتُ إذن وضلَّ عملي. وكانوا وَشَوْا به إلى عمر، قالوا: لا يُحسن يصلي[٣].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (عهد معاوية رضي الله عنه) ص (٢١٣، ٢١٤).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٨/٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي (٣٧٥٢) عن جابر مرفوعًا، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٣١٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٩٧/١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٢٨)، ومسلم (٢٩٦٦)، وابن ماجه (١٣١)، والترمذي (٢٣٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي ببعضه في «الفضائل» (١١٤)، وأخرجه أحمد (١/ ١٧٤، ١٨١، ١٨٦)، وأبو يعلى (٨٢/٢، ٩٦)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٧، ١٣١٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٩٩/١/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٢/١).

قال سعد:

ألا أبلغ رسولَ اللهِ أَني حَمَيْتُ صَحابتي بصدور نُبلي
أذودُ بها عدوّهمُ ذيادًا بكلِّ حزونة وبكلِّ سهلِ
فما يُعتد رامٍ من معدٍ بسهْمٍ يا رسول اللّه قَبلي[١]

وعن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: **«ما أسلم أحد إلا في اليوم الذي أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام»**[٢].

وفي مضمار الأوائل يسجل اسمه بأحرف من نور بأنه أول من أراق دمًا في سبيل اللّه ـ تَعَالَى ـ[٣].

كان أصحاب النبي ﷺ إذا صلوا ذهبوا إلى شعاب مكة المكرمة بعيدًا عن الأنظار فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد في نفر من أصحاب النبي ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلًا من المشركين بلحي[٤] جمل فشجَّه، فكان هذا أول دم أُهريق في الإسلام[٥].

❑ جهاده في سبيل اللّه ـ تَعَالَى ـ:

عندما ابتدأ الجهاد في الإسلام، كان سعد من الذين بذلوا أقصى جهودهم في ميادين القتال، جنديًّا تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وتحت لواء أمراء بعوثه تارة،

---

(١) الإصابة (٣/٨٥)، والاستيعاب (٢/٦٠٧). والحزونة: هي الْوَعِرُ مِنَ الأرضِ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٧)، وابن ماجه (١٣٢)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٩٢).

قال الحافظ في «الفتح» (٧/٨٤): قال ذلك بحسب اطلاعه؛ والسبب فيه أن من كان أسلم في ابتداء الأمر كان يُخْفِي إسلامه.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (١/٢١٣)، والأوائل، للعسكري ص (١٤٧).

(٤) اللحم: هو العظم على الخد، وهو في الإنسان: العظم الذي تنبت عليه اللحية.

(٥) سيرة ابن هشام (١/٢٧٥)، وأُسْد الغابة (٢/٢٩١)، وجوامع السيرة، لابن حزم ص (٥١).

وقائدًا لبعض السرايا تارة أخرى.

❏ في سرية عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، أول من رمى بسهم في سبيل الله:

في شوال من السنة الأولى الهجرية، عقد الرسول ﷺ القائدُ أول راية لعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب في ستين من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وأمر بالمسير إلى بطن «**رابغ**»، فبلغ «**ثنية المرة**» وهي بناحية «**الجُحفة**» فالتقوا بالمشركين الذين كانوا بقيادة أبي سفيان بن حرب في مئتين من قريش[1] فلم يكن قتال بينهم، إلا أن سعدا رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي، فلم يكن قتال بينهم، إلا أن سعدًا رمى يومئذ بسهم في سبيل الله...» وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ.

❏ **سرية سعد بن أبي وقاص إلى «الخَرَّار» في ذي القعدة من السنة الأولى:**

عقد الرسول ﷺ راية لسعد، فخرج إلى «**الخرار**»؛ لتهديد القافلة التجارية بين مكة والشام بإمرته عشرون رجلًا من المهاجرين؛ للحاق بقافلة تحمل تجارة قريش.

قال سعد: «**كنا نكمن بالنهار ونسير بالليل حتى صبحنا «الخزار»** صبح خامسة، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إليَّ ألا أجاوز «**الخرَّاز**»، وكانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم، وكانوا ستين»[2].

وشارك سعد بسرية عبدالله بن جحش.

وقبل نشوب معركة بدر بعث الرسول سعد بن أبي وقاص - في مهمة استطلاعية - إلى ماء بدر مع علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فأسروا غلامين لقريش. وعندما استنطقهما النبي ﷺ علم منهما أن قريشًا وراء الكثيب

---

(١) الطبري (١٥٢/٢)، وطبقات ابن سعد (٥١/٣).

(٢) الطبري (١٢٠/٢)، وطبقات ابن سعد (٧/٢)، وقد ذكر ابن هشام في «سيرته» (٢٣٨/٢) أن عدد رجال سعد ثمانية فقط.

بالعدوة القصوى، كما استنبط من استنطاقهما أن قوة قريش بين التسع مئة والألف، كما عرف منهما أن أشراف قريش جميعًا خرجوا لمنعه.

❑ في بدر سعد بن أبي وقاص يقاتل قتال المغاوير:

قاتل سعد بن أبي وقاص قتال الأبطال، وقتل حذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة، واشترك في قتل نبيه بن الحجاج، هو وحمزة بن عبدالمطلب، وأسر أسيرين من المشركين.

قال عبداللَّه بن مسعود: لقد رأيت سعدًا يقاتل يوم بدر قتال الفارس في الرجال(١).

❑ وفي أُحُد لله در سعد، وما أجمل ما حاز سعد من الفضائل التي لا تقوم لها الدنيا:

عن سعيد بن المسيب قال: «سمعت سعدًا يقول: جمع لي النبي ﷺ أبويْه يوم أُحُد»(٢).

وعند البخاري: قال سعد بن أبي وقاص: «**نثل لي النبي**ﷺ كنانته يوم أحد فقال: ارم فداك أبي وأمي»(٣).

ويا سعدُ لا ترفقْ بقوسك وارْمِها سِهَامًا أصابت من يد اللَّه باريًا

وعن سعد أن رسول اللَّه ﷺ جمع له أبويه، قال: كان رجلٌ من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ارم فداك أبي وأمّي**» فنزعْتُ بسهْمٍ ليس فيه نصل، فأصبت جبهته، فوقع وانكشفتْ عورته، فضحك رسول اللَّه ﷺ حتى بدت

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١/١٠٠).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٦)، ومسلم (٢٤١٢)، والترمذي (٢٨٣٠)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٩٥، ١٩٦)، وابن ماجه (١٣٠)، والطيالسي (٢٢٠)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢١٩٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/١/١٠٠).

(٣) حديث رقم (٤٠٥٥).

نواجذه[١].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «**ما سمعت النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - جمع أبويه لأحدٍ إلا لسعد بن مالك فإني سمعته يقول يوم أحد: يا سعد ارم فداك أبي وأمي**»[٢].

فداك أبي وأمي سعد في يوم «**تقذف المشركين فيه بألف سهم**»[٣].

❏ لله درُّه من رامٍ خال رسول الله ﷺ:

لما رفع أبو سعيد بن أبي طلحة اللواء بعد مقتل أخويْه طلحة وأبي شيبة، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم، فأصاب حنجرته فأدلع لسانه، ومات لحينه، فسقط لواء مكة من يده[٤].

وكتب محمد أحمد بشاميل تحت عنوان «دور الرماة في الدفاع عن النبي ﷺ» ما يلي: «كان لرماة من الصحابة أبلغُ الأثر في صد المشركين والدفاع عن النبي ﷺ، وكان الرسول ﷺ راميًا فقد رمى عن قوسة «**ساعة تكاثر المشركين**» حتى تقطع وتر القوس وتحطمت شظاياه من كثرة الرمي.

وكان من الرماة الذين اشتهروا بالاستماتة في الدفاع عن رسول الله ﷺ في تلك

---

(١) أخرجه مسلم، والطبراني في «الكبير».

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٨٤/٧): «وفي هذا الحصر نَظَرٌ؛ لِمَا تَقَدَّمَ في ترجمة الزبير أنه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - جَمَعَ له بين أبويه يوم الخندق، وَيُجْمَعُ بينهما بأن عليًا رضي الله عنه لم يطلع على ذلك أو مراده بذلك بقيد يوم أحد. والله أعلم».

(٣) رواه البخاري (٤٠٥٩)، ومسلم (٢٤١١)، والترمذي (٣٧٥٥)، وقال: «هذا حديث صحيح»، وابن ماجه (١١٢٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٩٢)، وأحمد (٩٢/١، ١٢٤، ١٣٦، ١٣٧)، وأبو يعلى (٣٣٤/١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٠٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٤، ١٣١٤)، وابن سعد في «الطبقات» (١٠٠/١/٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢١٩٤).

(٤) أُحُد، لمحمد أحمد باشميل ص (١٣٨).

(٥) موسوعة الغزوات الكبرى «أُحُد»، لباشميل ص (١٠٢).

الساعة العصيبة من المعركة، والذين كان لنبالهم الحادة الصائبة أبلغُ الأثر في حماية الرسول ﷺ من أذى المشركين، أبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -....

أما سعد بن أبي وقاص - وهو أيضًا من الرماة المشـهورين -، فقد ثبت مع رسول اللَّه ﷺ ساعة انهزام الناس عنه، وكان من الرماة الخلصاء الأبطال الذين ساهموا بنبالهم الحادة في إحباط المحاولات العنيدة التي قام بها المشركون (بعد الانتكاسة) للقضاء على نبي الإسلام ﷺ.

فقد وقف سعد ساعات البلاء المتلاحق، وهي الساعات الدقيقة التي تعرَّضت فيها الذات النبوية لهجمات القرشيين العارمة، وقف سعد الباسل بين يدي رسـول اللَّه ﷺ يُدافع عنه، وكان له في ذلك المقام المحمود أكبر الأثر في إبعادهم عن رسول اللَّه ﷺ، فقد قذف المشركين (في تلك الساعات العصيبة) بألف سهم.

وسعد بن أبي وقاص هو الرجل الوحيد الذي قال له الرسول ﷺ: «**فداك أبي وأمي**»[١]؛ وذلك لِمَا رأى من بطولته وشجاعته واستبساله وبراعته في إصابة الهدف.

فشكر اللَّه لفارس الإسلام سعد رضي الله عنه ما قدم من مواقف وضيئة تبقى نبراسًا للسالكين.

فقد كان لدفاعه المستميت مع قسم من الصحابة عن حياة الرسول ﷺ الغالية أثرٌ على تحطيم هجوم قريش الشديد الذي كان يستهدف حياة النبي ﷺ.

❑ حرص سعد بن أبي وقاص على حياة الرسول ﷺ غاية الحرص:

عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: «**كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - سَهِرَ، فلما قدِم المدينة قال: «ليت رجلًا من أصحابي صالحًا يحرسني الليلة»**، إذ سمعنا صوت سلاح، فقال: «**من هذا؟**» فقال: أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك، فنام النبي -

---

(١) سبق الردُّ على هذا الكلام.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ -»[١].

وفي رواية لمسلم: «**فقال له رسول اللَّه** ﷺ **«ما جاء بك؟»** قال: وقع في نفسي خوف على رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - فجئت أحرسه، فدعا له رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - ثم نام».

❏ سعد رضي الله عنه يوصي بثلث ماله في سبيل اللَّه - تَعَالَى -:

مرض سعد بمكة المكرمة - بعد فتحها -، فخلفه رسول اللَّه فيها مريضًا حين خرج إلى «**حنين**»، فلما قدم من «**الجعرانة**» معتمرًا دخل على سعد يعوده، فقال سعد: «**يا رسول الله، أوصي بمالي كله؟ قال: «لا»**. فقال: فالشطر؟ قال: «**لا**». فقال: الثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أُجرت بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك»[٢].

وعند مسلم في رواية أخرى:

«**الثلث والثلث كثير، إن صَدَقَتك من مالك صدقة، وإن نفقتك على عيالك صدقة، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صدقة، وإنك إن تدع أهلك بخير خير من أن تدعهم يتكففون الناس**»[٣].

وكان لسعد حينذاك مال كثير، أوصى بثلثه في سبيل الله[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠)، والترمذي وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد (١٤٠/٦، ١٤١)، وأبو يعلى (٢٦٨/٨، ٢٦٩)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٣٠٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤١١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٢٠١)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١١٣).

(٢) أخرجه مالك، وأحمد، والبخاري، ومسلم، وأصحاب السنن الأربعة عن سعد.

(٣) أخرجه مسلم عن سعد.

(٤) طبقات ابن سعد (١٤٤/٣).

❏ فارس الإسلام، مستجاب الدعوة:

عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس قال: سمعت سعدًا يقول: «**قال رسول الله** ﷺ: «**اللهم استجب له إذا دعاك**»»[1] يعني: سعدًا.

❏ سعد الفاتح

لما تجهز الفُرسُ لقتال العرب، قال عمر بن الخطاب: «**واللهِ لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب**»، وكتب عمر إلى عماله: «**لا تَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فرسٌ أو نجدةٌ أو رأيٌ إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إليَّ، والعَجلَ العَجلَ**»[2].

وأراد عمر أن يتولى قيادة هذا الجيش، فصرفه عن ذلك أهل مشورته، فجمع عمر الناس، وقال لهم: «**إني كنت عزمتُ على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيت أن أُقيم وأبعث رجلًا، فأشيروا عليَّ برجل**»، وكان سعد يومذاك على صدقات هوازن، فلما وصل كتاب منه ـ حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه ـ قال عمر: وجدته! قالوا: مَنْ؟ قال: «**الأسدُ عاديًا: سعد بن مالك**»[3] وقال: «**إنَّه شجاعٌ رامٍ**»[4].

وقال عبدالرحمن بن عوف: «**الأسد في براثنه: سعد بن مالك الزهري**».

لقد كانت إمارة سعد على جيش العراق نتيجة لمشاورات طويلة أجراها عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع خاصة الرجال وعامتهم، فلما قرر عمر نهائيًا أن يكون سعد قائدًا عامًّا على أخطر جيش يتجه إلى أخطر منطقة، استدعاه عمر فقدم عليه وأوصاه

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٧٥١)، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٤٩٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في «موارد الظمآن» (٥/٢٢) واللفظ له، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٩٢، ٩٣).

(٢) الطبري (٢/٦٦٠)، وابن الأثير (٢/١٧٢).

(٣) الطبري (٣/٤)، وفي مناقب عمر، لابن الجوزي: أن الذي أشار على عمر بتولية سعد هو عبدالرحمن بن عوف.

(٤) البلاذري ص (٢٥٥).

قائلًا: «يا سعد، سعد بني وهيب! لا يغرَّنك من اللَّه أن قيل: خال رسول اللَّه ﷺ وصاحبه، فإن اللَّه ﷻ لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن!

وليس بين اللَّه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين اللَّه سواء يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول اللَّه يلزم فالزمه، فإنه الأمر».

ويستدعي عمر سعدًا، ويقول له: «إنِّي قد وليتك حرب العراق، فاحفظ وصيَّتي، فإنك تقدم على أمرٍ شديدٍ كريه، لا يخلص منه إلا الحق، فعوِّد نفسك وَمَنْ معك الخير، واستفتح به، واعلم أنَّ لكلِّ عدةٍ عتادًا، وعتاد الخير الصبر، فاصبر على ما أصابك»[1].

❑ سعد يدير معركة القادسية وهو منبطح على وجهه من كثرة الدمامل التي منعته حتى من الجلوس

لك اللَّه من يوم وضيء نير، تغسل عنا بعد مرور القرون وخز عار نحسه في قلوبنا.. تشعرنا أن لنا أمجادًا تمضي بها الركبان وتعنو لها الأزمان.

فالقادسية ما يزال حديثها ... عبر تضيء بأروع الأمثال
تحكي مفاخرنا وتذكر مجدنا ... فتجيبها «اليرموك» بالمنوال
صفحات مجدٍ في الخلود سطورها ... عزَّ الرجال بها على الأنذالِ

وفي القادسيَّة نظَّم سعدٌ الجيش، وعبَّأه للحرب، وجعل على كلِّ عشْرة رجالٍ عريفًا، وأمر على الرايات رجالًا من أهل السابقة، وولَّى الحروب رجالًا، فولَّى على مقدِّماتها ومجنَّباتها، وساقاتها، وطلائعها، ومشاتها، وفرسانها، ولم يتقدم بعد ذلك إلا على تعبيةٍ، حتى يحول دون مباغتة العدوِّ لقواته.

ولم ينس سعد القضايا الإدارية في جيشه، فعيَّن مسئولًا عن القضاء، وجعله مسئولًا عن قِسْمة الفيء أيضًا، وعيَّن مسئولًا عن الوعظ والإرشاد، وعيَّن مترجمًا

---

(١) الطبري (٣/٤، ٥).

يجيد اللغة الفارسية، كما عيَّن كاتبًا تنتهي إليه الأمور الكتابية.

ووصل جيش المسلمين القادسية، فبعث عيونه؛ ليعلموا له خبر أهل فارس، ثم أرسل بعض المفارز؛ للإِغارة على المناطق المجاورة، فعادت كلُّها بالفتح والغنائم والسلامة، وأرسل وفودًا من رجالات المسلمين إلى كسرى وإلى رستم، يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين: الإِسلام، أو الجزية، أو السَّيف، فكان لهذه الوفود تأثير معنوي حاسم على كسرى وقائده رستم.

وتهيَّأ الفريقان للقتال، وقبل أن يأذن سعد بالقتال، بعث ذوي الرأي والعقل والنجدة إلى الناس، ليحرِّضوهم على القتال، وأمر سعد بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال، فلمَّا قرئت هشَّتْ قلوبُ الناس وعيونهُم وعرفوا السكينة مع قراءتها[(١)].

ونادى منادي سعد في جيشه: «**أَلَا إِنَّ الحسد لا يحلُّ إلا على الجهاد في أَمْر اللهِ، يَأَيُّهَا الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد**».

وتحالفت الأمراض على البطل القائد العام سعد، فأصابته بِعِرْق النَّسَا، وبحبون ودماميل منعته من الركوب، بل حتى من الجلوس، فلم يستطعْ أن يركب، ولا أن يجلس، فاعْتلى القصر وَأَكَبَّ من فوقه على وسادةٍ في صدره يُشرف على الناس، وأسفل منه في الميدان خليفتُه خالد بن عرفطة، يرمي إليه من أعلى بالرِّقاع فيها أمره ونهيه، وكان آخر صفوف المسلمين إلى جانب القصر[(٢)].

وأكبَّ سعدٌ على وجهه مطلعًا على جيشه، فخطبهم وقال: «**إن اللّه هو الحق، لا شريك له في الملك، وليس لقوله خُلْف؛ قال جلَّ ثناؤه:** ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] إنَّ هذا ميراثُكم وموعود ربِّكم، وقد أباحَهَا لكم مُنذ ثلاث حجج، فأنتم تطعمون منها، وتأكلون

---

(١) الطبري (٤٧/٣)، وابن الأثير (١٨١/٢، ١٨٢).

(٢) الطبري (٥٣٠/٣، ٥٣١، ٥٧٣).

منها، وتقتلون أهلها وتَجْبُونَهُم وتسبونهم إلى هذا اليوم، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم، ولقد جاءكم منهم هذا الجمع، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم، وخيار كلِّ قبيلة، وعزٌّ من وراءكم، فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع اللَّه لكم الدنيا والآخرة، ولا يُقرِّب ذلك أحدًا إلى أجله، وإن تفشلوا وتَهِنُوا وتَضْعفوا تذهب ريحُكم وتوبقوا آخرتكم»، ثم قال: «إني قد استخْلفتُ عليكم خالد بن عرفطة، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون، فإني مكبٌّ على وَجْهي، وشخْصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه إنما يأمركم بأمري، ويعمل برأْيي».

قال الطبري: «فَقُرِئ على الناس فزادهم خيرًا، وانتهوا إلى رأيه، وقبلوا منه، وتحادثوا على السمع والطاعة، وأجمعوا على عذْر سعد والرضا بما صنع»[(١)].

لك اللَّه أيها «الليث في براثنه» تدير أشرس المعارك.. المعركة الفاصلة، وأنت منبطحٌ على وجهك في شرفتك، وباب دارك مفتوح، وأقل هجوم من الفرس على الدار يسقطك في أيديهم حيًّا أو ميتًا.

دماملك تنبح وتنزف، وأنت عنها في شغلٍ، فأنت من الشرفة تكبِّر، وتصيح أوامرك لجنودك: «الزموا مواقفكم، لا تحرِّكوا شيئًا حتى تُصَلُّوا الظهر، فإذا صليتم الظهر فإني مكبرٌ تكبيرةً، فكبِّروا وشدُّوا شِسْعَ نعالكم واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يُعْطَهُ أحدٌ قبلكم، واعلموا أنما أعطيتموه تأييدًا لكم، فإذا كبرتُ الثانية فكبروا وتهيئوا، ولتستتم عدتكم، فإذا كبرت الثالثة فكبروا، ولينشِّط فرسانُكم الناسَ ليبرزوا ويطاردوا، فإذا كبرت الرابعة فشدوا النواجذ على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم، وقولوا: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»».

وكبر سعد، فكبَّر الذين يلونه، وكبَّر بعض الناس بتكبير بعض، فاستعد الناس للقتال، ثم ثَنَّى سعد، فأكمل الناس استعداداتهم، ثم ثلث فبرز أهل النجدة وأنشبوا

---

(١) الطبري (٣/٤٧).

القتال، ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة إشارة لبدء الزحف العام.

وحمل أصحاب الفيلة من الفرس، ففرقوا كتائب المسلمين وفرت خيولهم، ولكن مشاة المسلمين صمدوا متكبدين خسائر فادحة، وكان زخم هجوم الفرس على «**بجيلة**»، فأرسل سعد إلى بني أسد أن ذبوا عن بني جبيلة ومن حولها من الناس، فاستطاعوا تقطيع أحزمة الفيلة، فسقط عن ظهورها الذين يركبونها ويوجهونها، مما أدى إلى تراجع الفيلة.

ورأت سلمى زوجُ سعد ـ والتي كانت من قبل زوجًا للمثنى بن حارثة ـ ما حلَّ بالمسلمين في يوم «**أرماث**»، وهو اليوم الأول من أيام القادسية، فصاحت: «وامثناه! ولا مثنى للخيل اليوم»[١]، وكان سعد مريضًا بالدمامل في جسمه[٢]، فكان خليفته «**خالد بن عرفطة**» يستلم من سعد الأوامر ويشرف على تنفيذها[٣]، فلطم سعد زوجته وقال لها: أين المثنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحى[٤] وبجيلة؟، فقالت سلمى: «**أغيرة وجبنًا؟!**». قال: «والله لا يعذرني اليوم أحد إذا أنت لم تعذريني، وأنت ترَيْن ما بي، والناس أحق ألا يعذرونني»[٥]، وقد عذرته سلمى وعذره الناس؛ لأنه كان «**غير جبان ولا ملوم**»[٦].

ولم تشرق شمس اليوم الثاني من أيام القادسية وهو يوم «**أغواث**» إلا وكان المسئولون عن الشهداء والجرحى قد نقلوهم ليلًا إلى «**العُذيب**»[٧] حيث دفنوا

---

(١) الطبري (٥١/٣)، وابن الأثير (١٨٣/٢).
(٢) الطبري (٧٩/٣).
(٣) الطبري (٧٣/٣).
(٤) يعني أسدًا وعاصم بن عمرو التميمي ومن معه.
(٥) الطبري (٥١/٣).
(٦) الطبري (٥١/٣).
(٧) العذيب: ماء بينه وبين القادسية أربعة أميال.
قال اللواء محمود شيت خطاب: وهذا أروع ما يمكن أن يتخذه قائد من تدابير إدارية لدفن القتلى وتمريض الجرحى حتى بالنسبة للحروب الحديثة؛ فكيف وقد طبق ذلك سعد قبل حوالي أربعة عشر قرنًا.

الشهداء هناك، وأسلموا الجرحى للنساء يقمن عليهم[(١)].

ومضى اليوم الأول، واليوم الثاني والحرب سجال.

وفي اليوم الثالث وهو يوم «**عماس**» عادت الفيلة الفارسية إلى ساحة المعركة، فأرسل سعد إلى جماعة ممن أسلموا من فارس، فلما دخلوا عليه سألهم عن مَقَاتل الفيلة، فقالوا: المشافر والعيون، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو وقال: «**اكفياني الفيل الأبيض**» وكان بإزائهما، كما أرسل إلى جماعة من بني أسد، وقال: «**اكفياني الفيل الأجرب**»، وكانت الفيلة كلها تتبع هذين الفيلين، فحمل القعقاع وأخوه على الفيل الأبيض ففقآ عينيه وقطعا مشفره، فبقي هائمًا بين الصفين، كما جرح بنو الأسد الفيلَ الأجرب فوثب إلى النهر ومن خلفه الفيلة هاربة لا تلوي على شيء[(٢)].

وزحف القتال ليلًا، وتُسمى هذه الليلة ليلة «**الهرير**»، وسُمِّيت بذلك؛ لأن الناس تركوا الكلام، وإنما يهرون هريرًا[(٣)].

وزحف القعقاع على الفُرس، فأطل سعدٌ فرأى القعقاعَ يزاحفهم، مما أثار نخوة غيره من الرجال[(٤)].

وبعث سعد طليحة الأسدي، وعمرو بن معديكرب إلى مخاضة أسفل المعسكر؛ ليقوموا عليها خشية أن يأتيه الفُرس منها، فعبرها طليحة، وضرب مؤخرة الفُرس، فارتاع أهل فارس وطلبوه فلم يدركوه، أما عمرو فأغار أسفل المخاضة، ثم رجع[(٥)].

وقدَّم الفُرس صفوفَهم، فزاحفهم الناس بغير إذنٍ من سعد، وكان أول من زاحفهم القعقاعَ، فقال سعد: «اللهم اغفرها له، وانصره، فقد أذنت له». ذلك لأن

(١) الطبري (٣/٥١).

(٢) الطبري (٣/٦٣).

(٣) ابن الأثير (٢/١٨٥)، والهرير: صوت الكلب دون النباح، وصوت القوس وغيرها.

(٤) الطبري (٣/٦٨).

(٥) ابن الأثير (٢/١٨٥).

سعدًا قدر أن الموقف الراهن يتطلب هجوم المسلمين على الفرس، فقال: «**إذا كبرت ثلاثًا فاحملوا**».

وهكذا ابتدأ الهجوم العام؛ إذ لحق الناس بعضهم بعضًا، واستقبلوا الليل استقبالا بعدما صلوا العشاء، وكان صليل الحديد هو الصوت السائد في ذلك الليل البهيم.

وبات سعد ليلة لم يبت مثلها، ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله قطُّ.

وأقبل سعد على الدعاء، فلما كان عند الصبح، انتمى الناس، فاستدل بذلك على أنهم الأعلون[1].

واستمر القتال في اليوم الرابع حتى الظهيرة، عند ذاك بدأ الخلل في صفوف الفرس واضحًا للعيان، خاصة بعد مقتل رستم قائد الفرس العام، فانهزم قلب الفرس، وتتابعت الهزيمة بغير نظام، ووقعت خسائر عظيمة في الفرس قتلًا، وغرقًا.

ولما انكشف أمر فارس، أمر سعد بعض قادته بمطاردتهم، وأمر خالدَ بن عرفطة بسلب القتلى، ودفن الشهداء[2]، وانهارت معنويات الفرس انهيارًا تامًّا؛ إذ أصاب أهل فارس يومئذ ما أصاب الناس قبلهم؛ قُتلوا حتى إنْ كان الرجل من المسلمين ليدعو الرجل منهم، فيأتيه حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بقتل صاحبه[3].

إن المسلمين لم يلقوا في جميع حروبهم - باستثناء بلاط الشهداء في فرنسا - مقاومةً أعنف مما لقوا من الفرس في معركة القادسية، فلقد صبر الفرس في هذه المعركة صبرًا عجيبًا وغير معهودٍ منهم، وأظهروا قدرة قتالية فائقة، وأجبروا العرب على أن يقاتلوا في هذه المعركة أربعة أيام، وخسر المسلمون في القادسية أكثر من خمسة وعشرين في المئة من قواتهم.

---

(١) ابن الأثير (٢/١٨٦).
(٢) الطبري (٣/٦٩).
(٣) الطبري (٣/٧٢).

والقادسية أعظم أثرًا في تاريخ الإنسانية من غزوات تيمورلنك ونابليون، بل من كل الغزوات التي وقعت إلى عصرنا الحاضر، لقد كشفت معركة القادسية عن معدن سعد النفيس وفرط شجاعته، وما إقامته بالقصر ـ مع ما به من علَّة تمنعه من مباشرة القتال ـ إلا إفراطًا في الشجاعة، فكما ذكر الراوية عثمان بن رجاء السعدي: «**ولو عرّاه الصف فواق ناقة، لأخذ برمته، فواللَّه ما أكرثه هول تلك الأيام، ولا أقلقه**».

هذه المعركة التي سارت بها الجن قبل الإنس؛ فبدرت امرأة ليلًا على جبل بصنعاء لا يُدرى من هي؟ وهي تقول:

حييّتِ عنّا عكرم ابنة خالدٍ ... وما خيْر زادٍ بالقليل المصرَّدِ
وحيّتك عنّي عُصْبةٌ نخْعيَّة ... حِسان الوجوهِ آمنوا بمحمدِ
أقاموا لكسْرى يضْرِبُون جنودَه ... بكلِّ رقيقِ الشفْرتينِ مهنَّدِ
إذا ثوّبَ الدّاعي أناخُوا بكَلْكَلٍ ... مِنَ المْوْتِ تَسْوَدُّ الغياطل مجردِ

وسمِعَ أهلُ اليمامة مجتازًا يغنِّي بهذه الأبيات:

وجدْنا الأكثرين بَني تميمٍ ... غداةَ الرَّوْعِ أصْبرهُم رِجالًا
همُ ساروا بأرْعَنَ مُكْفَهِرٍّ ... إلى لجبٍّ فزرتهم رعالًا
بحورٍ للأكاسر مِنْ رجالٍ ... كأسْدِ الغابِ تحسبُهم جِبالًا
ترَكْن لهُم بقادِس عَز فخر ... وبالخيفَيْنِ أيَّامًا طِوالًا
مقطَّعةٌ أكُفُّهم وسوقٌ ... بمردى حَيثُ قابلتِ الرِّجالَا[1]

وكتب سعد إلى عمر بخبر النَّصر على المجوس، فقال: «أما بعد، فإن اللَّه نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتالٍ طويلٍ، وزلزالٍ شديدٍ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم يرَ الراءون مثل زهائها، فلم ينفعهم اللَّه بذلك، بل سُلِبُوه، ونقله عنهم إلى المسلمين، واتَّبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام، وفي الفجاج، وأُصيب من المسلمين سعد بن عُبيد القارئ، وفلان

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٨٣).

وفلان، ورجالٌ من المسلمين، لا نعلمهم، اللَّه بهم عالم، كانوا يدوُّون بالقرآن ـ إذا جنَّ الليل ـ دويَّ النَّحْل، وهم آساد النَّاس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل مَن مضى منهم مَن بقي إلا بفضْل الشهادة؛ إذ لم تُكتب لهم»[1].

هَلْ دَحَرْنا في القادسيَّة جيْشًا ... بِخَميسٍ مُهلْهِلٍ مُسْتَأْجَرْ
أَمْ بِجيْشٍ شِعَارُه دون خَوفٍ ... لا يَهَابُ الحِمامَ «اللهُ أكبرْ»
مَزَّقَ الظُّلمَ زحفُه يتحدَّى ... جَحْفلَ الظُّلْم بالعقيدةِ يَزْخَرْ
علَّم الفُرْسَ والعروش تهاوى ... أنَّ عَرْشَ القُلوبِ أنْقَى وأطْهَرْ[2]

نعم:

سَلوا فخامة كِسْرى عن كتائبنا ... وَجَيْشَه الضَّخْمَ لمَّا مدَّت القضبُ
سرى يَجرُّ ذُيولَ الخِزْي مُنكسرًا ... وَكُسِّرَتْ عنده التِّيجانُ والحُجُبُ[3]

نعم يا أخي:

ومشى سَعْدٌ على أصدائِهِ ... يَسْتَبيحُ الفرسَ قَتلى وأسارى

❑ فتح البيت الأبيض والمدائن عاصمة كسرى:

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عُصْبَةٌ من أُمَّتي يفتحون البيت الأبيض؛ بيت كسرى**». رواه أحمد، ومسلم.

وروى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَتَفْتَحَنَّ عصابةٌ من أُمَّتي كَنْزَ آل كسرى الذي في الأبيض**».

أمضى سعد شهرين في القادسية بعد المعركة، وكاتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما يفعل، فكتب إليه عمر بالمسير إلى «**المدائن**» عاصمة كسرى، وتحرك الجيش المنتصر باتجاه «**المدائن**»، وسار المسلمون من نصرٍ إلى نصرٍ في «**برس**»، وفي بابل، وفي

(١) تاريخ الطبري (٥٨٣/٣).
(٢) من قصيدة «جواب لسؤال» من ديوان «في رحاب الأقصى»، ليوسف العظم ص (٦٤).
(٣) من ديوان «لحن الخلود»، لعائض القرني ص (٨٣) «طبع هجر».

«**بهرسير**»؛ وبذلك أصبح جيش المسلمين في الضفة المقابِلة لـ«**المدائن**»، وحاول سعد أن يُؤمِّن عبور جيشه في السفن، فلم يقدر على شيء منها؛ لأن الفرس ضمُّوا السفن ليحرموا المسلمين من الإفادة منها(١).

وكان النهر عريضًا طافحًا بالماء، يقذف بالزَّبَد لشدَّة جَرَيانه، وموجُه متلاطِم، وزاد المدُّ فيه، وارتفعتْ مياهه ارتفاعًا كبيرًا، وفي ليلةٍ من ليالي سعدٍ، رأى رؤيا، خلاصتها أن خيول المسلمين اقتحمتْ مياه دجلة الهادرة، وعبرتْ، وقد أقبلتْ من المدِّ بأمرٍ عظيم.

❑ عبور لا مثيل له في التاريخ:

فصدَّق الرؤيا، وعزمَ على عبور النهر، فجمع الجيش، وقام فيهم خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلُصُون إليه معه، وهم يخلُصون إليكم إذا شاءوا؛ فيُناوِشُونَكم في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تُؤتوْا منه، فقد كفاكُمُوهُ أهل الأيام، وعطَّلُوا ثغورهم، وأفنوْا ذادتهم، وقد رأيت من الأوفق أن تبادروا جهاد العدو بنيَّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إني قد عزمتُ على قطْع هذا البحر إليهم. فقالوا جميعًا: عزمَ اللهُ لنا، ولك على الرُّشد، فافعل»(٢).

وندب سعد الناس للعبور، ثم قال: «**من يبدأ، ويحمي لنا الفراض**(٣)**؛ لكيلا يمنعونا من العبور**».

فانتدب عصام بن عمرو التميمي، وانتدب معه ست مئة من أهل النجدات، فعبر هؤلاء المغاوير، وعبر سعد مع جيشه بعدهم؛ ففاجئوا أهل فارس بأمرٍ لم يكن في

---

(١) الطبري (١١١٩/٣).

(٢) الطبري (١١٩/٣)، وابن الأثير (١٩٨/٢)، وفتوح الشام، للواقدي (١٢٧/٢).

(٣) الفراض: جمع فرضة: وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى، ويُسمَّى في المصطلح العسكري رأس جسر.

حسابهم.

سبحان الله!! نهر هادر لا يقل عُمق مياهه عن ستة أمتار، تخوضه الخيول سبَّاحةً، وعلى ظهرها الفرسان يقاتلون.

قال لهم سعد، وهم يخوضون؛ ليصلوا إلى شاطئ «**أسبانير**»: «قولوا: نستعين باللَّه ونتوكل عليه، حسبنا الله، ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم»[(١)].

لقد اقتحموا دجلة ما يكترثون، وإنهم ليتحدثون أثناء عبورهم النهر الهادر، كما يتحدثون في مسيرتهم على الأرض.

نجحت خطة سعد نجاحًا يُذْهَلُ له المؤرخون، نجاحًا أذهل سعدًا نفسه، وأذهل صاحبه، ورفيقه في المعركة «**سلمان الفارسي**».

«عامت بهم الخيل وسعد يقول: حسبنا الله، ونعم الوكيل، واللهِ، لينصرن اللَّه وليه، وليُظهرن اللَّه دينه، وليهزمن اللَّه عدوَّه، إن لم يكن في الجيش بَغْيٌ، أو ذنوبٌ تغلب الحسنات».

فقال له سلمان: «الإِسلام جديد، ذُلِّلتْ لهم ـ واللَّه ـ البحور، كما ذُلِّلَ لهم البرُّ، أما والذي نفسي بيده، ليخرُجُنَّ منه أفواجًا، كما دخلوه أفواجًا، لم تَضِع منهم شكيمةُ فرسٍ»[(٢)].

فطبقوا الماء حتى ما يُرى الماء من الشاطئ، ولهم فيه أكثر حديثًا منهم في البر، لو كانوا فيه، فخرجوا منه ـ كما قال سلمان ـ لم يفقدوا شيئًا، ولم يغرق منهم أحد، إلا رجلًا من بارق يُدعى غرقدة، زال عن ظهر فرسٍ له شقراء؛ قال أبو عثمان النهدي: «كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عريًا، والغريقُ طافٍ، فثنى القعقاع عنانَ فرسه إليه، فأخذه بيده فجرَّه حتى عبر»، فقال البارقي ـ وكان من أشد الناس ـ: «عجز الأخواتُ أن يَلِدْنَ مثلك يا قعقاع». وكان للقعقاع فيهم خئولة.

---

(١) الطبري (٤/٤٨).

(٢) تاريخ الرسل والملوك (٤/١١).

❑ **يومُ الجراثيمِ:**

روى أبو جعفر في تاريخه، أن سعدًا لمَّا أقحم الناس في دجلة، اقترنوا - أي: صار لكل رجلٍ قرين يُلازمه أثناء العبور - فكان سلمان الفارسي قرينَ سعد، إلى جانبه يُسايره في الماء، فقال سعد: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، والماء - لشدَّة جريانه - يطمو بهم، وما يزال فرس يستوي قائمًا، إذا أعيا يُنشِز له تلعةً، فيستريح عليها؛ كأنه على الأرض، فلم يكن بـ«**المدائن**» أعجب من ذلك، وذلك يوم الماء، وكان يُدعى يوم الجراثيم.

ومن عناية اللَّه - تَعَالَى - بالجيش المجاهد، أنه لا يعيى فرس أحدٍ أثناء عبور النهر، إلا جرثومة يريح عليه.

وعن قيس بن أبي حازم قال: «خُضنا دجلة، وهي تطفح، فلمَّا كُنَّا في أكثرها ماءً، لم يزل فارس واقفًا ما يبلغ الماء حزامه، قال المسلمون: ما تنتظرون بهذه النطفة؟ فاقتحم رجلٌ فخاض الناس، فما غرق منهم إنسان، ولا ذهب لهم متاع»[١].

تموت المبادئ في مهدها ... ويبقى لنا المبدأُ الخالدُ
مراكبُ أهل الهوى أُتخمتْ ... نُزُولًا ومركبُنا صاعِدُ
سوانا يَلُوذُ بعرَّافةٍ ... وأسطورةٍ أصلُها فاسدُ
يحدِّثنا الليلُ عن نَفْسِهِ ... وفيه على نفسه شاهدُ
إذا عدَّد الناسُ أربابهم ... فنحن لنا ربُّنا الواحدُ[٢]

وأثناء العبور لم يذهب لأحدٍ من الجيش شيءٌ، إلا قَدَح كانت له علاقة رثَّة فانقطعتْ، فذهب به الماء، فقال صاحبه: والله، إني لعلى جديلة، ما كان اللَّه ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر؛ فلمَّا عبر، قذفتِ الرياحُ، والأمواج قدحه، فأخذه.

---

(١) القادسية، لمحمد أحمد باشميل (٧٤٤ - ٧٤٦).

(٢) قصيدة «موقف» من ديوان «شموخ في زمن الانكسار»، لعبدالرحمن صالح العشماوي ص (٥) «طبع مكتبة الأديب بالرياض».

ما تُقاتلون إلَّا الجِنَّ:

نظر جنود «**يزدجرد**» إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة، وجعلوا يردِّدون بالفارسية «**ديوان آمد**»، ويقول بعضهم لبعض: «والله، ما تقاتلون الإِنس، وما تقاتلون إلا الجن».

قال أبو عثمان النهدي: «طُبقت دجلة خيلًا ودوابَّ، حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد، فخرجتْ بنا خيلُنا إليهم تنفض أعرافها، لها صهيل، فلمَّا رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء».

وفزع «**يزدجرد**» ملك الفرس، وما استطاع أن يخرج من باب قصره المواجه للشاطئ، وكان بينه وبين الشاطئ ثلاثة كيلو مترات... فدلاه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زنبيل... ليفرّ من «**المدائن**» ومعه ألف طباخ، وألف فهَّاد، وألف بازيار.

إي، والله، في زنبيل!! هذه نهاية الطواغيت.

حتى خيولهم أصابها الرعب نصرًا لأنصار الله؛ فقد جاء في تاريخ الطبري «٤/ ٥٣»: «أن أوائل كتيبة الأهوال بقيادة عاصم أدرك رجالها مؤخرة المجوس، وفيهم فارس منهم يعترض على طريق من طرقها، يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم، وهو يضرب فرسه للإِقدام فيُحجم، ثم يضربه للهرب فيتقاعس، حتى لحقه رجل من جيش سعد يُدعى ثقيفًا من بني عدي بن طريف، فضرب عنقه، وأخذ ما كان عليه. ودخل سعد «**المدائن**»، وانتهى إلى إيوان كسرى، فأقبل يقرأ قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الدخان: ٢٥ـ ٢٨]»[(١)].

---

(١) الطبري (٤/ ١٦).

❏ الفاتح العظيم:

وجه سعدٌ هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص ومعه القعقاع لفتح محور ديالي، فانتصر هاشم في معركة جلولاء، وفتح القعقاع وجرير بن عبداللَّه البجلي خانقين وحلوان وقصر شيرين.

كما وجه عبداللَّه بن المعتم وربعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة البارقي إلى محور دجلة، ففتح عبدُ اللَّه بن المعتم تكريت، وفتح ربعيٌّ بن الأفكل الموصلَ.

ولمَّا رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن، بلغ سعدًا أن الفُرس قد حشدوا قواتهم في سهل ماسبذان، فأرسل سعد إليهم ضرار بن الخطاب الفهري، فانتصر المسلمون على الفرس، وفتح ضرار ماسبذان.

ووجه سعدٌ عمرَ بنَ مالك الزهري والحارث بن يزيد العامري لفتح محور الفرات حتى قرقيسياء الواقعة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات، ففتحا هذه المنطقة.

كما وجه سعدٌ عتبةَ بن غزوان لفتح جنوب العراق، ففتح منطقة البصرة والأهواز.

كما وجه عتبةَ بنَ فرقد السلمي لفتح شمالي العراق وأذربيجان، ففتح تلك المناطق.

ووجه سعدٌ عياضَ بن غنم، وسهيلَ بن عدي، وعبدَاللَّه بن عبداللَّه بن عتبان لفتح الجزيرة، ففتحوا منطقة الرقة ونصيبين وحران والرها.

فالفتوحات الإِسلامية إذن التي جرت في العراق، وفي شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين الهجرية، فتحها سعدٌ بنفسه، أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها، وحتى الجيش الذي فتح نهاوند أرسله سعد، ولكنَّ فَتْحهَا جرى بعد عزله.

ولقد كان فتح سعد لهذه البلاد فتحًا مُستدامًا. لقد فتح سعد العراق، وأكثر بلاد فارس، وأذربيجان، والجزيرة وبعض أرمينية، أي أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث، وأكثر إيران بحدودها اليوم، وفتح القسم الجنوبي من تركيا المتاخمة لإِيران،

والقسم الواقع في شمالي إيران والذي يحد روسيا. وفوق ذلك مَصَّرَ الكوفة و كوَّفها، فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامي في الشرق كله، وأمدَّت العالم الإسلامي بعددٍ ضخم من قادة الفتح والفاتحين.

فرضي اللَّه عن سعد الفاتح العظيم.

وأخيرًا تبقى كلمة:

سأل عمرُ بن الخطاب فارسَ اليمن عمرو بن معديكرب عن سعد فقال: «متواضع في خبائه، عربي في نمرته[1]، أسد في تاموره[2]؛ يعدِل في القضية، ويقسم بالسَّوِيَّة، ويبعد في السَّريَّة؛ يعطف علينا عطف الأمِّ البَرَّة؛ وينقل إلينا حَقَّنا نَقْلَ الذَّرَّة»[3].

❏ سعد بن أبي وقاص القائد:

ذكر ابن حجر أن أشد أصحاب رسول اللَّه ﷺ أربعة:

عمر، وعلي، والزبير، وسعد[4]. و«كان أحد الفرسان الشجعان من قريش الذين كانوا يحرسون رسول اللَّه ﷺ في مغازيه».

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب:

«كان سعد جنديًّا متميزًا، وقائدًا متميزًا.

كان جنديًا متميزًا؛ لأنه كان متفوقًا في الرمي فواقًا ظاهرًا[5][6]، شجاعًا مقدامًا، يتحلى بالضبط المتين، ويؤمن بالطاعة لذوي الأمر، يتحمل المشاق العسكرية، له أهداف واضحة يؤمن بها، ويعمل بكل إخلاص لتحقيقها: يقوم بواجبه بدافع من

(١) النمرة: هي كساء فيه خيوط بيض وسود تلبسه الأعراب.
(٢) التامور: هو عرين الأسد، وهو بيته الذي يأوي إليه.
(٣) أسْد الغابة (٢/٢٩٢). والدرة أصغر النمل.
(٤) الاستيعاب (٢/٦٠٨).
(٥) الإصابة (٣/٨٤).
(٦) في الإصابة (٣/٨٤) قصة إصابته الهدف بدقة، وفي طبقات ابن سعد (٣/١٤٢): أنه كان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ.

نفسه لا بدافع من غيره، وللمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة، وتلك هي مزايا الجندي المتميز في كل زمان ومكان.

وكان قائدًا متميزًا؛ لأنه كان له قابلية ظاهرة على إعطاء القرارات الصحيحة السريعة، إذ أنه كان يتحلى بعقلية متزنة وذكاء خارق، وكان يحرص كل الحرص على الحصول على المعلومات بالدوريات والعيون واستنطاق الأسرى والاستطلاع الشخصي وباستشارة ذوي الرأي.

وكان رضي الله عنه يبادل قواته محبة بمحبة مثلها، وثقة بثقة تساويها، وله مخيلة تحسب حساب كل شيء.

وتلك هي صفات القائد المتميز بكل زمان ومكان.

وبالإضافة إلى كل هذه المزايا، كان سعد قائدًا «**مَرِنًا**» لا يُصِرُّ على تنفيذ حَرْفِيَّةِ أوامره، ولا يحاسب رجاله إذا انتهزوا فرصة مناسبة للإقدام على عمل عسكري قبل أن يستأذنوه، ذلك لأنه ورجاله كانوا يعملون يدًا واحدة في سبيل تحقيق أهداف مشتركة، ولم يكن يخطر ببال أحدهم أن يخالف الأوامر حبًّا للظهور أو جرًّا لمغنم شخصي!

ولكنه كان لا يرضى من رجاله أي إخلال بالضبط يؤدي إلى الشغب وعرقلة أعمال الجهاد.

قال سعد: «والله لا يعود أحد يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم، إلا سُنَّتْ به سنة يُؤخذ بها بعدي»[1].

وقال ناصحًا رجلين من أعوانه بالتمسك بأهداف الضبط المتين: «إني أحذركما أن تؤثرا أمر الجاهلية على الإسلام، فتموت قلوبكما وأنتما حيَّان! الزما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق، فما رأى الناس كأقوام أعزَّهم الله بالإسلام»[2].

---

(١) الصبري (٣/٤٤).

(٢) الطبري (٣/٣٠)، وهو يخاطب عمر بن معد يكرب وطليحة الأسدي.

والحق أن ضبط سعد كان متينًا للغاية، فكما كان يريد السمع والطاعة من القادة والرجال الذين كانوا بإمرته، فإنه كان يسمع ويطيع أمير المؤمنين سمعًا وطاعة خارجة من أعماق قلبه ونفسه، وقد كان سعد يخبر عمر بن الخطاب بكل شيء، ويستأذنه قبل أن يقدم على عمل أي شيء.

وكان يخبره عن موقف العدو بالتفصيل، وكان يخبره عن طبيعة الأرض التي يحل فيها، ويستأذنه قبل خوض المعارض، ويسأله الرأي في الأسرى والغنائم، وكان عمر ـ استنادًا إلى أخبار سعد التي تصله تباعًا، وبدافع من حرصه الشديد على انتصار المسلمين ـ يكاد يتدخل في تفاصيل المعركة.. في موقعها، وفي إعداد خطتها وحتى في تسمية قادة التشكيلات التعبوية من قلب وميمنة وميسرة وساقه ـ إلخ.

أما سعد فيتقبل كل ذلك برحابة صدر، وينفذ أوامر عمر حرفيًا دون تذمر ولا تردد!!

وعند مقارنة أعمال سعد العسكرية بمبادئ الحرب، يتضح لنا أنه كان يطبق مبدأ «**اختيار المقصد وإدامته**» فقد كان مقصده واضحًا في كل معركة خاضها، وكانت معاركه كلها معارك (تعرضية)، وكان يطبق مبدأ «**المباغتة**» كلما وجد إلى ذلك سبيلًا، كما فعل عند عبور نهر دجلة بالخيل في معركة فتح المدائن، وكان (يحشد) قوته قبل المعركة، ولا يقدم على تنفيذ خطة حربية قبل أن يتخذ تدابير (الأمن) اللازمة، مستفيدًا من مبدأ «**التعاون**» بين صفوف قواته وأقسام جيشه من تشكيلات تعبوية وقبائل. ويبذل قصارى جهده «**لإدامة معنويات قطاعاته**»، ويؤمن لها كل متطلبات «**القضايا الإدارية**»[١].

---

(١) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٢٩١ ـ ٢٩٣).

❏ سعد بن أبي وقاص وفن القيادة:

١ـ الاهتمام بالشئون الإدارية «اللوجستيك»

ظهر المسلمون في العذيب بصورة مباغتة، فهرب الفرس، ووجد المسلمون «رماحًا ونشابًا وأسفاطًا من جلود وغيرها، انتفع بها المسلمون»

«وأرسل سعد من مكانه ـ في العذيب ـ يطلب غنمًا أو بقرًا. وجاءه عاصم بن عمرو بثيران فقسمها سعد على الناس فأخصبوا أيامًا»

«ثم أنه بث الغارات بين كسكر والأنبار، فحووا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زمانًا»

«وأغار المسلمون ـ وهم في القادسية ـ إلى أن جاءوا إلى صيادين قد اصطادوا سمكًا، وسار سواد بن مالك التميمي إلى النجاف والفراض إلى جنبها فاستاق ثلاث مئة دابة بين بغل وحمار وثور، فأوقروها (حملوها) سمكًا واستاقوها؛ فصبحوا العسكر، فقسم سعد السمك بين الناس، وقسم الدواب»، «وكان المسلمون يبحثون عن اللحوم.

فأما الحنطة والشعير والتمر والحبوب، فكانوا قد اكتسبوا منها ما اكتفوا به لو أقاموا أزمانًا، فكانت السرايا إنما تسري للحوم، ويسمون أيامها بها؛ ومن أيام اللحم يوم الأباقر ويوم الحيتان».

وكان من نتيجة تعايش قوات المسلمين أن أخذ أهل العراق في التقرب إلى المسلمين؛ مما دعا رستم يوم قاد جيوشه لحرب المسلمين أن يطلب أهل الحيرة ويجتمع بهم، ويتهمهم بدعم المسلمين بالأموال ومساعدتهم والتعاون معهم، فدافعوا عن أنفسهم بقولهم: «ما يحوجهم ـ يعني: المسلمين ـ أن نكون عيونًا لهم؛ وقد هرب أصحابكم منهم، وخلوا لهم القرى؛ فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه؛ إن شاءوا أخذوا يمينًا أو شمالًا، ... وقد صانعناهم بالأموال عن أنفسنا؛ إذ لم تمنعونا مخافة أن نسبى، وأن نحارب، وتقتل مقاتلتنا، وقد عجز عنهم من لقيهم منكم؛ فكنا نحن

أعجز، ولعمري لأنتم - الفرس - أحب إلينا منهم، وأحسن عندنا بلاء، فامنعونا منهم، نَكُنْ لكم أعوانًا؛ فإنما نحن بمنزلة علوج السواد، عبيدُ من غلب»[١].

وتُظْهِرُ هذه المقولات الصورة الواضحة لاهتمام سعد بتأمين الشئون الإدارية لقوات المسلمين، كما تُظْهِرُ نتائج أسلوب تأمين الشئون الإدارية على حساب الإقليم. **ويمكن تلخيص النتائج بما يلي:**

١- إن اعتماد قوات المسلمين على ما يتوافر من المواد التموينية في الأقاليم قد حرر قوات المسلمين من الأعباء الإدارية، وضمن لقوات المسلمين قدرًا كافيًا من حرية العمل وحرية الحركة، وقد لجأ المغول «**التتار**» لهذا الأسلوب بعد فتوحات المسلمين بخمسة قرون، كما لجأ نابليون لهذا الأسلوب ذاته بعد ذلك باثني عشر قرنًا تقريبًا.

٢- كان من نتائج هذا الأسلوب خلق فاصل بين سكان البلاد وبين قوات الفرس التي عجزت عن «**حماية أهل البلاد**»، وحمل هؤلاء على التعاون مع المسلمين، والإعراض عن دعم الفرس، وخسر الفرس بذلك دعمًا قويًّا من أنصارهم.

لقد كان من الطبيعي أن يهتم سعد بالشئون الإدارية لتأمين متطلبات قواته، ولكن يظهر بوضوح أن سعدًا قد ربط بين عملية «**التأمين الإداري للقوات**»، وبين «**متطلبات الموقف الاستراتيجي**»، ويظهر ذلك من خلال تأمين مخزون ضخم من «**الحنطة، والشعير، والتمر، والحبوب ما يكفيهم لو أقاموا أزمانًا**»، ولا ريب أن سعدًا كان يهدف حرمان العدو من الموارد التموينية والحياتية، إلى جانب تأمين متطلبات القوات الإسلامية لحرب «**طويلة الأمد**».

وكان ذلك يقينًا في جملة الأسباب التي أرغمت الفرس على قبول «**المعركة الحاسمة**» دفاعًا عن مجالهم الحيوي، ودفعتهم لقبول شروط المسلمين في خوض المعركة في المكان والزمان اللذين حددهما سعد بن أبي وقاص.

---

(١) تاريخ الطبري (٥٠٩/٣).

ويُظْهر ذلك ـ أيضًا ـ أنه ما من عامل واحد، أو مبدإ واحد، كان له تأثير مستقل في حد ذاته، وإنما كانت هناك مجموعة من العوامل المتشابكة والمعقدة التي تضافرت جميعها لتحقيق النصر.

٢ـ التحريض على الجهاد:

نظم سعد قوات العرب المسلمين في القادسية، ثم أرسل القادة، والخطباء، والشعراء، من أمثال المغيرة، وحذيفة، وعاصم، وطليحة، وقيس الأسدي، وغالب، وعمرو بن معديكرب، والشماخ، والحطيئة، وأوس بن مغراء، وعبدة بن الطبيب، وأوصاهم فقال لهم: «انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم، ويحق عليهم عند مواطن البأس؛ فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به، وأنتم شعراء العرب، وخطباؤهم، وذوو رأيهم، ونجدتهم، وسادتهم؛ فسيروا في الناس فذكروهم، وحرضوهم على القتال»؛ فساروا فيهم. فقال قيس بن هبيرة الأسدي: «أيها الناس؛ احمدوا اللَّه على ما هداكم له، واذكروا آلاء اللَّه (نعمه)، وارغبوا إليه في عاداته؛ فإن الجنة، أو الغنيمة أمامكم، وأنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء، والأرض القفر... والفلوات التي لا تقطعها الأدلة».

وقال غالب: «أيها الناس، احمدوا اللَّه على ما أبلاكم، وسلوه يزدْكم، وادعوه يجبْكم، يا معاشر معد، ما علتكم اليوم، وأنتم في حصونكم ـ يعني: الخيل ـ ومعكم من لا يعصيكم ـ يعني: السيوف ـ؟

اذكروا حديث الناس في غد، فإنه بكم غدًا يبدأ عنده، وبمن بعدكم يثني»

وقال ابن الهذيل الأسدي: «يا معاشر معد، اجعلوا حصونكم السيوف، وكونوا عليهم كأسود الأجم، وتربدوا لهم تربد النمور ـ أي: اغضبوا ـ وادرعوا العجاج، وثقوا بالله، وغضوا الأبصار، فإذا كلت السيوف، فإنها مأمورة، فأرسلوا عليهم الجنادل، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه».

وقال بسر بن أبي رهم الجهني: «احمدوا الله، وصدقوا قولكم بفعل، فقد حمدتم

اللَّه على ما هداكم له، ووحدتموه، ولا إله غيره، وكبرتموه، وآمنتم بنبيه، ورسله، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا يكونن شيء بأهون عليكم من الدنيا؛ فإنها تأتي مَنْ تَهَاوَنَ بها، ولا تميلوا إليها فتهرب منكم لتميل بكم. انصروا اللَّه ينصركم».

وقال عاصم بن عمرو: «يا معاشر العرب، إنكم أعيان العرب، وقد صمدتم (قصدتم) الأعيان من العجم، وإنما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا، فلا يكونُنَّ على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم، لا تحدثوا اليوم أمرًا تكونون به شينًا على العرب غدًا».

وقال ربيع بن البلاد السعدي: «يا معاشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا، ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وإن عظَّم الشيطان عليكم الأمر، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل».

وقال ربعي بن عامر: «إن اللَّه قد هداكم للإسلام، وجمعكم به، وأراكم الزيادة، وفي الصبر الراحة، فعودوا أنفسكم الصبر، تعتادوه، ولا تعودوها الجزع؛ فتعتادوه».

٣ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر:

كان سعد بن أبي وقاص شجاعًا في مواجهة الخوف، واجهته مواقفُ كثيرةٌ هلعت لها قلوب الرجال إلا قلب سعد، فكان الرسول الأعظم يعتمده، وكان موقفه يوم أحد مشهودًا؛ حيث تمزق المسلمون، وصمد سعد فيمن صمد مع رسول الله.

وشارك سعد الرسول في غزواته ـ أكثرها ـ وكان تسمية الفاروق عمر له ـ وهوَ الرجل الذي عرف أنه أعرف الناس بالناس ـ وتلقيبه بالأسد في براثنه إنما هو برهان على شجاعة سعد في مواجهة الخطر.

ولقد كان سعد يوم القادسية مصابًا بالحبوب (الدمامل) في مقعده، فكان ذلك عائقًا له عن الركوب والمسير؛ حتى إنه كان يضطر إلى الرقود على صدره لمتابعة المعركة، وقد اختار رغم ذلك مقر قيادته عند آخر الصفوف، وفي قلب المعركة، وفي

مكان مرتفع يشرف منه على ميدان القتال؛ فأعطى بذلك مثلًا لقادته، وللمجاهدين في جيشه.

إن الشجاعة هي أسمى الفضائل الحربية؛ ذلك أن التعرض للخطر هو احتمال دائم في الحرب، والشجاعة عند سعد هي شجاعة شخصية عُرف بها منذ صغره، ثم استمدَّت هذه الشجاعة من العقيدة الإسلامية معينًا لها، وقد أدى اقتران وعي الشجاعة في شخص سعد، وتوافقهما معًا إلى أكمل أنواع الشجاعة، وهي الشجاعة الفكرية.

لقد كانت حروب المسلمين صعبة، تتطلب جهدًا بدنيًا كبيرًا بقدر ما تتطلب قدرة على احتمال الآلام والصعاب، وزاد من ذلك كله إصابة سعد بنوع من الأمراض المؤلمة، ورغم ذلك كله فقد استطاع المحافظة على صفاء ذهنه، ومجابهة المواقف المختلفة بردود فعل مناسبة.

ولقد كانت قيادة سعد في ظروف أقل ما يمكن أن يقال فيها: إنها غارقة في «**ضباب الشك**»، وكان لا بد من نوع من الإشراق الذهني، والشجاعة الفكرية الكافية لاستخلاص الموقف الحقيقي من وسط الشكوك.

وقد أظهرت رسائل سعد إلى أمير المؤمنين تقديره الصحيح لموقف السكان، ومعرفته الدقيقة للطبيعة الجغرافية الخاصة بميدان معركة القادسية، وذلك منذ الفترة الأولى التي وصل فيها سعد إلى القادسية.

وعلاوة على ذلك كله، فإن الحرب ـ على ما هو معروف ـ تترك مجالًا واسعًا للمصادفة، ذلك أنه ليس هنالك مجال من مجالات النشاط البشري يترك مكانًا لهذه الظاهرة الغريبة كالحرب.

وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية التواقت في وصول جيش القعقاع بن عمرو، وهاشم بن عتبة منذ اليوم الثاني للمعركة، وما كان لذلك من أثر حاسم في سد ثغرات النظام المتمفصل الذي طبقه سعد في معركة القادسية، وقد كان من المحتمل جدًّا في مثل

تلك الظروف أن يتأخر إمداد جيش القعقاع يومين أو ثلاثة، ولكن رغم ذلك كله، فقد استطاع سعد مجابهة جميع حقائق المعركة، واتخاذ الحلول المناسبة لها، والإفادة من كل المصادفات الطارئة، وتحويلها لصالح قوات العرب المسلمين، وكانت حقائق المعركة كلها هي براهين على ما كان يتميز به سعد من ذهن متحفز باستمرار للكشف عن الحقيقة، وسط غموض الشك، ثم الشجاعة في متابعة هذه الحقيقة، والتصميم على بلوغ الهدف.

لقد كانت شجاعة سعد متميزة بعدد من الخصائص أبرزها قوة الفكر، وقوة الشخصية، والصمود، والحزم وهي مكونات قيادية ساعدته على تجاوز صعوبات مناخ الحرب، وهي الصعوبات التي تتمثل في الجهد البدني، والخطر، والشك، والمصادفة، وقد عرف تاريخ الحرب أعدادًا لا يمكن حصرها من القادة الذين تتوافر فيهم بعض الصفات لمجابهة بعض المواقف، ولكنهم قلة هم الذين يجمعون كل الصفات لمجابهة كل المواقف.

٤ـ القرارات الصحيحة:

كان أول قرار صحيح اتخذه سعد أثناء قيادته، هو اختياره لموقع القادسية من أجل المعركة الحاسمة مع الفرس؛ فقد توافرت في هذا الموقع:

١ـ عزلته عن أهل البلاد الذين لم يكن سعد ليشعر بالطمأنينة إليهم، وذلك بسبب علاقتهم القديمة مع الفرس.

٢ـ وقوع القادسية بين حاجزين جغرافيين ـ الخندق، والعتيق ـ بحيث يستطيع الاستناد إليهما لحماية قواته.

٣ـ قرب الموقع من الموارد الحياتية ـ المياه والطعام ـ مما يضمن له سهولة التأمين الإداري لقوات المسلمين.

٤ـ عدم وجود حاجز طبيعي يعوق حركة القوات إذا ما أرادت الانسحاب، وإعادة تجميعها؛ لاستئناف القتال.

٥ـ حصر الفرس عند القتال بحاجز طبيعي «**نهر الفرات**».

وقد برهنت مسيرة الأعمال القتالية على صحة انتقاء الموقع، ودوره في تقرير مصير المعركة.

وكان من قرارات سعد الصحيحة توجيه المقدمة قبل كتلة القوات الرئيسية بمدة كافية حتى يضمن بذلك توافر فترة كافية لفتح القوات واشتباكها بالمعركة، ووقايتها ضد كل مباغتة محتملة، ثم دفع المقدمة مسافة كافية عند وصول القوات إلى أماكن تمركزها؛ حتى تستطيع اتخاذ تدابير الإقامة، وتنظيم المعسكر في ظروف أمن مطلقة، وكان هذا القرار هو أساس التقليد الذي سارت عليه القوات الإسلامية بعد ذلك.

وكان من قرارات سعد الصحيحة ـ أيضًا ـ اختياره الصحيح للقادة على جميع المستويات، ومن أجل تنفيذ الواجبات المختلفة، واختيار القائد المناسب للعمل المناسب، وتُظْهِرُ متابعة قصة «**القادسية**»، وما بعدها أن سعدًا كان ذا خبرة واسعة بمعرفة الرجال.

وكان من قراراته الصحيحة في ميدان المعركة إرسال قوات لحماية النقاط الضعيفة، والتوغل والالتفاف من حول القوات، ثم تحديد بداية المعركة مع موعد ظهر اليوم حيث تكون حدة الشمس قد ارتفعت عن أعين المقاتلين، وكذلك تنظيم عملية القتال الليلية «**ليلة الهرير**» التي قررت مصير المعركة الحاسمة.

ولقد كان في جملة قرارات سعد الصحيحة إشرافه هو بنفسه على المعركة، والتصميم على إدارتها، ويمكن اعتبار هذا التقليد الذي فرضته الظروف المرضية الخاصة بسعد بداية إدارة المعركة بأوامر خطية، وهو بداية العمل لانتقاء مركز قيادة يشرف على ميدان المعركة كلها، ويسمح باتخاذ القرار المناسب، والإشراف على تنفيذه.

ولم يكن قرار المطاردة ـ بعد تحول الموقف في القادسية ـ سوى نتيجة منطقية تستجيب لمتطلبات حرب الحركة، وتلبي مبادئ الحرب التي كان العرب المسلمون

يعتمدونها في حروبهم.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول: إن الجذور الأساسية للقرارات الصحيحة تمتد في قيادة سعد إلى مجموعة من العوامل أبرزها الاستطلاع، وجمع المعلومات الدقيقة عن العدو، ثم تقدير الموقف تقديرًا سليمًا «**من خلال ضباب الشك**»؛ للوصول بعد ذلك إلى القرار الصحيح الذي يعالج الموقف، سواء كان هذا الموقف متوقعًا، أو مباغتًا، ويمثل القرار شخص القائد في جميع الظروف، وبذلك تكون كلمة «**القائد**» إنما تعني القرار الصحيح.

وليس هناك برهان أفضل من المنجزات الرائعة التي حققها سعد بن أبي وقاص للتأكيد على صحة قراراته، والتسليم بعد ذلك بكفاءته القيادية العالية التي استطاعت حشد كل المعطيات الضرورية، والإمساك بجميع العوامل المختلفة من أجل تحقيق «**غاية السلم**»، و«**هدف الحرب**».

وقد يكون من الصعب إجراء تقويم لكل منجزات القائد سعد بن أبي وقاص، ولعل القول: إنه كان قائد القادسية، هو في حد ذاته، كافيًا عن كل تقديم.

٥ـ حماية المرءوسين:

أرسل سعد قوة من المشاة ـ كالطليعة ـ ثم أرسل قوة أخرى لتنفيذ المهمة ذاتها، وعدد أفراد كل واحدة منهما مئة مقاتل، وطلب إلى قائدي القوتين عدم التوغل، وبلغ «**رستم**» تحرك القوتين المسلمتين؛ فأرسل إليهما قوة من الفرسان، وبلغ سعد أن قواته قد أوغلت فأرسل قوة ثالثة لدعمهما، وحمايتهما، وفي معركة القادسية، شعر سعد بخطورة الفيلة على قوات المسلمين فاستعلم عن طريقة لإخراجها من المعركة، وأرسل إلى القعقاع أمره «اكفياني الفيل الأبيض»، وأمرهما بضرب الفيلة في عيونها.

وعرف عن سعد أنه أرحم الناس بالناس؛ والشواهد بعد ذلك غير محدودة، وكلها تبرهن على حماية سعد لمرءوسيه، وحرصه على سلامتهم، وأمنهم، وتأمين متطلباتهم، والرجوع إليهم في الأمور التي يمكن استشارتهم بشأنها، وتمثل قضية

«**حماية المرءوسين**» في الجيوش الإسلامية ظاهرة تتصل بالعقيدة الدينية «**المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص**»، و﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقد سن الرسول القائد ﷺ السنة المثلى فيما يجب أن تكون عليه العلاقة الأبوية بين القائد ومرءوسيه، وجاء قادة الجيوش بعد ذلك، ليسيروا على النهج ذاته.

وانطلاقًا من هذا المبدإ، أبرز قادة المسلمين اهتمامهم المتعاظم بتدابير الحيطة، والأمن، وكان سعد بن أبي وقاص أول من أبرز نظامًا متكاملًا لتدابير الحيطة سواء كانت قوات المسلمين تتحرك على الطرق، وتتجه إلى المعركة، أو كانت مقيمة في معسكراتها، أو أثناء خوضها لمعاركها القتالية، ولقد جاء بناء المدن الإسلامية في العراق؛ كالكوفة، والبصرة ضمن هذا المفهوم ذاته، فقد ساءت صحة المسلمين عند توغلهم في إيران؛ فجاء بناء الكوفة بهدف وقائي، هو «ضمان المناخ الصحي للمسلمين، وقواتهم».

لقد كانت حماية المرءوسين مسئولية عامة بين قادة المسلمين كلهم، ويشتركون جميعًا في الاضطلاع بها، بداية من أمير المؤمنين، ونهاية بقادة الأعشار، ويكون من الطبيعي، والحالة هذه أن يحتمل سعد القسط الأوفى من هذه المسئولية؛ **لمجموعة من الأسباب، أبرزها:**

١ـ ممارسة سعد قيادته في إقليم بعيد، وعلى اتصال مباشر بالعدو.

٢ـ الحجم الكبير للقوات، بالنسبة لما كانت عليه جيوش المسلمين من قبل.

٣ـ الاضطلاع بواجبات القيادة في إطار مركزي، وضمن إطار وحدة القيادة.

لقد عمل أمير المؤمنين على تجهيز جيش سعد بالأطباء، والقادة المعاونين للواجبات المختلفة «الإقباض، أو تقسيم الغنائم، وقادة المقدمات، والمؤخرات، والفرسان... إلخ» ولكن ذلك كله في إطار واجبات محددة تضع المسئولية بكاملها في النهاية على عاتق القائد العام «سعد بن أبي وقاص».

وفي جميع الأحوال قد يكون من الصعب فصل عامل «**حماية المرءوسين**» في

قيادة سعد عن بقية العوامل التي تميزت بها العقيدة القتالية للمسلمين، أو عقيدتهم الدينية، كما أنه من الصعب ـ أيضًا ـ فصل هذا العامل عن بقية الصفات الشخصية التي تميز بها سعد، وفي طليعتها الفروسية، والشجاعة، والمعرفة الصحيحة للرجال.

❑ سعد بن أبي وقاص، وقواته:

كانت قيادة سعد على مسرح عمليات العراق رائعة في قدرتها، وإمكاناتها، فقادت القوات من نصر إلى نصر، ومن موقعة إلى موقعة؛ حتى أرغمت الفرس على الفرار، وكان جيش سعد هو جيش المنجزات الخالدة والمجاهدين العظماء.

قال سعد بن أبي وقاص بعد أن انتهت الحرب عن رجاله: «كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دويَّ النحل، وهم آساد الناس، لا يشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة؛ إذ لم تُكتب لهم»[١].

وعندما رأى سعد ما تجمع في الأقباض، قال: «والله، إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت: وايم الله ـ على فضل أهل بدر ـ لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسبها، ولا أسمعها من هؤلاء القوم».

وقال جابر بن عبدالله: «والله الذي لا إله إلا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر، فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم: طليحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب، وقيس بن المشكوح»[٢].

ومما ميز هذا الجيش:

١ـ الاستعداد الدائم للقتال:

أبرزت معركة القادسية ـ بصورة خاصة ـ الروح القتالية لجيش سعد، فقد اضطر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري (٣/٥٨).

(٢) تاريخ الأمم والملوك (٤/١٨ ـ ٢٠).

هذا الجيش لخوض معاركه بصورة متصلة تقريبًا، ما يكاد القتال يهدأ مع ظلمة الليل، حتى يبدأ من جديد مع صباح اليوم التالي، إلى أن جاء اليوم الثالث، وليلة الهرير؛ حيث اتصل القتال في النهار والليل والنهار التالي، وأعقب ذلك المطاردة الحاسمة، وقد يكون من الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن قوات الفرس قد أفادت من تفوقها العددي لتبديل كتائبها في كل يوم تقريبًا، في حين كان المسلمون يعملون على الانسحاب والتراجع؛ لإعادة تنظيم قواتهم واستئناف الهجوم من جديد، ولئن كان ذلك برهانًا على الروح المعنوية العالية، والكفاءة البدنية، والقدرة على تحمل الصعاب، إلا أنه برهان - أيضًا - على استعداد المجاهدين الدائم للقتال، مهما كانت الظروف، ومهما كانت مصاعب القتال.

لقد كانت معركة ليلة الهرير النموذج الأعلى للبرهان على «**استعداد المجاهدين الدائم للقتال**»، ومن المعروف أن المقاتلين العرب كانوا غالبًا ما يلجئون إلى الليل لاستخدامه في تحركهم، وتنقلهم؛ حتى يضمنوا مباغتة خصومهم عند مهاجمتهم مع أول ضوء من النهار، وحدث في كثير من الأحيان أن نفذوا إغاراتهم في الليل، على نحو ما كان يفعله خالد بن الوليد في إغاراته، ولكن لم يحدث أبدًا أن ألقى جيش بكامله ثقل هجومه في معركة ليلية.

وقد يكون من المؤسف عدم توافر معلومات عن الطريقة التي كانوا يستخدمونها لإضاءة أرض المعركة، أو الطريقة التي يتعرفون بها على أهدافهم، وقد يكون ضوء القمر مساعدًا لهم في عملياتهم، ولكن مهما كانت الوسائل بالنسبة لذلك العصر، فإن حدوث المعركة الليلية على مستوى الجيش إنما هو برهان ساطع على استعداد المجاهدين الدائم للقتال، حتى في أسوإ الظروف، وأصعب الأجواء.

٢- الروح المعنوية العالية:

حدث في يوم أغواث أن تصدى للمجاهد «**علباء بن جحش العجلي**» مقاتل من أشداء الفرس، وفرسانهم فطعن علباءُ المقاتلَ الفارسي طعنةً أصاب منه مقتلًا،

وأصاب الفارسي بضربة منه المقاتلَ علباءَ في بطنه، وسقط المقاتلان، فأما الفارسي، فمات من ساعته، وأما علباء، فانتثرت أمعاؤه؛ فلم يستطع القيام لمتابعة القتال؛ فعالج إدخال أمعائه في بطنه، فلم ينجح في ذلك، حتى مر به رجل من المسلمين، فقال: يا هذا، أعني على بطني. فأدخله له. فأخذ بصفاقيه (والصفاق جلد البطن)، ثم زحف نحو صف فارس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت، وهو على بعد ثلاثين ذراعًا من صف فارس، وكان يردد:

أرْجُو بِها مِن ربِّنا ثوابَا قد كُنت مِمَّنْ أحْسَنَ الضِّرابَا[1]

وكان زهرة بن الحويَّة يرتدي يوم الهجوم على بهرسير درعًا مفصومة؛ فقيل له: لو أمرت بهذا الفصم فسرد - أي: تم وصله؛ حتى لا تكون فيه ثغرة تسمح بمرور السهم - فأجاب زهرة: ولِمَ؟ قالوا: نخاف عليك منه. قال: إني لكريم على الله، أن ترك سهم فارس الجند كله، ثم أتاني من هذا الفصم، حتى يثبت فيَّ، فكان أول رجل من المسلمين أصيب يومئذ بنشابة، فثبت فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم انزعوها عنه، فقال: دعوني فإن نفسي معي ما دامت فيَّ، لعلي أن أصيب منهم بطعنة، أو ضربة، أو خطوة؛ فمضى نحو العدو، فضرب بسيفه «**شهربراز**» من أهل إصطخر، فقتله، وأحيط به، فقتل، وانكشفوا.

صورتان من مجموعة صور لا نهاية لها، وكلها تعبر عما تميز به جيش المجاهدين في سبيل الله من روح معنوية عالية، كانت عُدَّتَهُمْ في التغلب على عدوهم.

ورضي الله عن عمر بن الخطاب القائلِ: «إننا لم نهزم الكفار والمشركين بعددنا، وإنما هزمناهم بهذا الدين».

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٤٦).

سعد القائد، وفن الحرب

لقد استخدم العرب المسلمون مجموعة من الاستراتيجيات؛ لدعم استراتيجيتهم العليا، وضمان نجاحها، وفي طليعة هذه الاستراتيجيات «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**»، وقد أمكن تطبيق أساليب مختلفة لإحباط إرادة القتال عند الخصم، وإضعاف مقاومته، وإقناعه بفشل مخططاته، وقد انعكس ذلك كله على نفسية قائد الخصم ذاته، الذي أصبح مرغمًا على قيادة قواته، «وهو مقتنع مسبقًا بانتصار العرب، وفشل الفرس»، ولم يكن تعبير «أكل عمر كبدي» الذي كرره «**رستم**» قبل القادسية وأثناءها سوى تعبير عن حالة اليأس من إحراز نصر على العرب المسلمين.

ولقد تطلب الوصول إلى هذه النتيجة في الواقع جهدًا كبيرًا، وعملًا ضخمًا بدأ منذ تولى المثنى بن حارثة الشيباني حرب العراق، ثم جاء خالد بن الوليد دعمًا له، واستمرَّا معًا طوال عام كامل، ويظهر ذلك من خلال حديث المثنى بن حارثة إلى المسلمين، وقد استنفرهم لحرب العراق «فأبوا إلا الشام، وأبى عمر إلا حرب العراق»؛ نظرًا لأن العراق، ووجه فارس «كان من أكره الوجوه إلى العرب، وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطان الفرس، وشوكتهم، وعزهم، وقهرهم الأمم»، فوقف المثنى ليقول لهؤلاء: «أيها الناس، ولا يعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس، وغلبناهم على خير شِقَّي السواد، وشاطرناهم - أي: قاسمناهم - أرضهم، ونلنا منهم، واجترأ مَنْ قبلنا عليهم. ولها إن شاء اللَّه ما بعدها».

وهكذا فإن الصراع المستمر طوال الأعوام الثلاثة التي سبقت «**القادسية**»، وجهاد المسلمين المستمر، قد عمل على استنزاف قوة الفرس، وإظهار قوة العرب، لا سيما، وأن معارك المسلمين في هذه الفترة كانت - باستمرار - معاركَ ظَافِرَةً «باستثناء معركة الجسر، أو قس الناطف، أو المروحة»، وقد كان الظفر في جميعها نتيجة للتوازن الدقيق بين «**غاية السلم**»، و«**هدف الحرب**» من جهة، وللتوازن المحكم - أيضًا - بين القوى،

والوسائط الإسلامية من جهة، وبين «**الأهداف المتالية للعمليات الحربية**» من جهة ثانية.

وقد رافق ذلك كله تطور كبير في الطرائق والأساليب التي كان يلجأ إليها العرب المسلمون في تنفيذ أعمالهم القتالية، والتي جاء النظام المتمفصل لحركة القوات في المعركة تتويجًا لها.

ولا يعني ذلك بداهة وصول الفرس إلى مرحلة «الانهيار الكامل»، فقد استطاعوا أن يحشدوا في القادسية ١٢٠ ألف مقاتل ـ على أقل تقدير ـ مقابل ٢٠ ألفًا، فكان ميزان القوى ستة لواحد لصالح الفرس، وعلاوة على ذلك، فقد كان الفرس يقاتلون على حدود أرضهم؛ فكانت خطوط إمدادهم ومواصلاتهم قصيرة، مقابل خطوط الإمداد الطويلة للعرب المسلمين.

وجاء التنظيم الجديد لقوات المسلمين؛ كي يزيد من صعوبات القيادة، والسيطرة، فالعمل في «النظام المتمفصل» يتطلب درجة عالية من تنسيق التعاون بين القوات حتى تستطيع حماية مجنباتها، ومؤخراتها، وهو يتطلب ـ أيضًا ـ العمل باستمرار لإعادة تجميع القوى والوسائط، وتأمين إمداد مستمر بالقوات الاحتياطية، وهنا تدخَّل القدر ليجعل من قدوم القعقاع بن عمرو التميمي، وهاشم بن عتبة، وتدخلهما في الوقت المناسب ـ منذ اليوم الثاني للقادسية عمليًّا ـ الوسيلة الوحيدة لسد الثغرة في النظام المتمفصل، وتدخَّل القدر مرة أخرى عندما وجَّه القعقاع، وحمله على تجزئة قواته حتى تصل ميدان المعركة تباعًا، وعلى شكل موجة متصلة من الإمداد، وقد يكون الحافز للقعقاع هو دعمَ الروح المعنوية للمسلمين، ولكن هذا الأسلوب قد أفاد في الواقع لسد ثغرات النظام المتمفصل، وتأمين متطلباته «**لإعادة التنظيم، وتأمين القوة الاحتياطية**»، فكان ذلك عاملًا كبيرًا في إحراز النصر.

لقد تضافرت هذه العوامل كلها، وتلاحمت في إطار متكامل، وقاد سعد قواته في إطار هذه الظروف، وهو مؤمن بالنصر، وقد كان الفاصل بين الهزيمة المنكرة،

والانتصار الرائع معلَّقًا بخيوط دقيقة، فالسلبيات مقابلة للإيجابيات، والتداخل بينهما شديد التعقيد، فكانت كفاءة سعد هي في عمق الإيمان بقدرته من جهة، وبما تميَّز به العرب المسلمون من فضائلَ حربية من جهة أخرى.

وانعكس ذلك على القوات المتصارعة «حتى كان المسلم يشير إلى القائد الفارسي فيأتيه، وعليه السلاح التام، فيضرب عنقه، وحتى أصاب أهل فارس يومئذ بعدما انهزموا، ما أصاب الناس من قبلهم ـ من القتل ـ فيدعو المسلم الرجل منهم، فيأتيه، حتى يقوم بين يديه، فيضرب عنقه، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه، وكذلك في العدة»[١].

وتمثل هذه الصورة المتحركة النموذج الأعلى لما يمكن تحقيقه في مجال استراتيجية الهجوم غير المباشر، وهو «حمل الخصم على الاستسلام الكامل، مع الخضوع التام لإرادته، والتخلي عن كل إرادة للقتال».

وقد لا تكون هناك حاجة للقول: إن هذا الموقف لم يكن عامًّا، أو شاملًا لجميع قوات الفرس؛ فقد بقيت هناك قوات للمقاومة، وبقي هناك تصميم لدى بعض من أكسبتهم خبرات الحروب تصميمًا على متابعة الحرب، ولكن أساليب العمل المتطورة التي طبقها العرب، وإبداعَهم «**في فن الحرب**»، ومعرفة سعد لخصائص قوات المسلمين، ساعدت كلها على تتويج النصر في ساحة المعركة بانتصارات تكميلية «**القضاء على جيوب المقاومة والمطاردة**»، وحولت النصر في العمليات إلى نجاح كبير على مستوى السياسة الاستراتيجية.

❏ استراتيجية الحرب التشتيتية:

يتشابك مضمون «**استراتيجية الحرب التشتيتية**» مع مضمون «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**»، ويكون الهدف في الحالين واحدًا، وهو «تدمير القوى المعنوية للعدو»،

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٦٨، ٥٦٩).

و«حرمان قيادته من اتخاذ القرار المناسب، وتنفيذه في الزمن والمكان الملائمين».

وقد خاض العرب المسلمون حربهم ضد الفرس في إطار من الحرب التشتيتية، وذلك منذ بدأ المثنى بن حارثة الشيباني أعماله على مسرح العراق في السنة الحادية عشرة للهجرة، وقد طبق سعد بن مالك هذه الاستراتيجية بوسائل مختلفة، كان في مقدمتها حرمان العدو من موارد معلوماته «بالقضاء على مخافره (مسالحه) المتقدمة» إلى جانب اتخاذ التدابير المختلفة لحماية قوات المسلمين ضد المباغتات المتوقعة، أو الممكنة، وكانت خفة الحركة، والمرونة، ونشر نطاق أمن كبير من العوامل التي مارست دورها لتشتيت قيادات الفرس، وحرمانها من تقدير الموقف الصحيح لحجم قوات المسلمين، وقدراتهم، وأساليبهم الجديدة.

فاستمرت هذه القيادات في تقديرها للموقف على أساس أفكارها السلفية «وهي الأفكار التي تعتبر نبال العدو مجرد «دوك»، أو نبابيت، وتعتبر سيوفهم ذات الخلق القديمة، أو القماشية المهترئة أنها لا تستطيع مجابهة سيوف الفرس القوية»، وبذلك فقد كان ظهور قوات العرب في ساحة اليرموك، وهي منظمة بأسلوب يماثل تنظيم قوات الفرس «**طلائع ـ مجنبات ـ قلب ـ مؤخرة**» من الأمور المذهلة للفرس، وعلاوة على ذلك فقد نظم سعد قواته بما يتوافق مع النظام المتمفصل لقوات العرب المسلمين، وبما يستجيب ـ أيضًا ـ لتنظيم الفرس.

وكان هذا التنظيم هو التعاون الوثيق بين قوات الصدمة «**الفرسان**»، وقوات الرمي «**المشاة**»، ويظهر ذلك من خلال المقولة التالية: «إن عدوكم قد أبى إلا المزاحفة، ورأى أميركم بأن تحمل الخيل، ومعها الرجالة، ذلك أن القوم إذا زحفوا وطاردهم عدوُّهم على الخيل، لا رجال معهم عقروا بهم، ولم يطيقوا أن يقدموا عليهم، فتيسروا للحملة، وانتظروا التكبيرة»[١].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٦٠).

وبالإضافة إلى ذلك فقد نظم سعد قواته على ثلاثة أنساق، نسق الصدمة «**الفرسان**»، ثم نسق الرماة، فنسق المشاة الثقيلة «**حاملي الرماح**»، مع تركيزه قوة الصدمة على الجناحين.

ولم يدرك قادة الفرس ميزان النظام المتمفصل، وأخذوا بظاهر التنظيم الخطي، في حين كانت قدرة هذا التنظيم الضمنية هي في مرونته، وكفاءته الحركية العالية.

وطبق سعد بعد ذلك أساليب الحرب التشتيتية لمطاردة فلول الفرس بسرعة، حيث أرسل مفارز ومجموعات من الفرسان في كل اتجاه.

«لقد لقي الفرس قوات المسلمين بعدة لم ير الراءون مثلها، فلم ينتفع الفرس بذلك، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وفي الفجاج».

لقد ساعدت أساليب الحرب التشتيتية ـ على مستوى العمليات ـ في نجاح سعد لاستخدام قوة العرب المسلمين بكاملها، وهكذا كانت قوة العرب المسلمين تشتبك في القتال كلها في حين كان تنظيم الفرس لا يسمح إلا باستخدام جزء فقط من القوة.

وقد كان لهذا التنظيم سيئته فيما تكبده المسلمون من خسائر فادحة في الأرواح «**أثناء المعركة**»، ولكنهم عوضوا عن ذلك بعد المعركة، وبعد أن تحول الموقف لمصلحتهم، فعملوا على مطاردة قوات الفرس، وتدميرها على التتابع، فكانت محصلة خسائر الفرس أكبر بكثير من محصلة خسائر المسلمين.

وبذلك كانت استراتيجية الحرب التشتيتية قبل القادسية وأثناءها وبعدها في جملة العوامل التي ضمنت للمسلمين انتصارهم الحاسم.

❑ استراتيجية الهجمات الوقائية:

إذا كانت معارك المسلمين قبل القادسية هي معارك استطلاعية، فإن معارك المسلمين بعد القادسية هجمات وقائية متقدمة ذات هدف مزدوج؛ أولها نقل المعركة إلى منطقة العدو، وحماية قاعدة المسلمين، وثانيها هو «**إجهاض هجمات العدو قبل**

البدء فيها»، وهكذا لم يمض أكثر من شهرين على القادسية، حتى أسرع سعد بقواته إلى المدائن حتى يقضي على «**مقر العدوان**» وكانت فلول الفرس قد تجمعت في بابل بقيادة الفيرزان.

وقالوا: «نقاتلهم دستًا قبل أن نفترق»، وأسرع المسلمون إليهم، فدمروا تجمعهم، وانطلق الفرس على وجوههم، ولم يكن لهم إلا الافتراق، فخرج الهرمزان متوجهًا نحو الأهواز، وخرج الفيرزان معه، حتى طلع على نهاوند وبها كنوز كسرى، وصمد النخيرجان، ومهران الرازي للمدائن.

فأقام سعد في بابل ثم انتقل إلى بهرسير «وأقام المسلمون على بهرسير شهرين، يرمونها بالمجانيق، ويدبون إليهم بالدبابات، ويقاتلونهم بكل عدة».

«وصمد الفرس وراء خنادقهم، وحرسهم، وعدة حربهم، ورموا المسلمين بالمجانيق والعرادات، فاستصنع سعد المجانيق، فنصب على أهل بهرسير عشرين منجنيقًا فشغلوهم بها»[١].

وفتح المسلمون بهرسير، ثم انتقلوا منها إلى المدائن. وبلغ سعد أن مهران قد عسكر بجلولاء وخندق عليه، وأن أهل الموصل قد عسكروا بتكريت، وتوجه هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفًا - بناء على أوامر أمير المؤمنين - وانتصر المسلمون بعد معركة طاحنة، وأحبطوا مخطط الفرس الذين مزقتهم معركة المدائن: «افترقت الطرق بأهل أذربيجان، والباب، وأهل الجبال، وفارس، وتجمعوا فقالوا: إن افترقتم لم تجتمعوا أبدًا، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به، ولنقاتلهم، فان كانت لنا فهو الذي نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا، وأبلينا عذرًا؛ فاحتفروا الخندق، واجتمعوا فيه على مهران الرازي»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/٦).
(٢) المرجع السابق (٤/٢٤).

وبلغ سعدا اجتماعُ أهل الموصل إلى الأنطاق وتنظيم المقاومة في تكريت، وحفر الخنادق، والتصميم على قتال العرب؛ فوجه سعد جيشًا لتدمير فلول الفرس، وفتح تكريت، وتكررت العملية في ماسبذان، وقرقيساء.

لقد كانت استراتيجية الهجمات الوقائية عند العرب محكمة بدقة، ومرتبطة بردود فعل العدو، فكان سعد ينتظر الفرس حتى تتجمع قواتهم، ولكنه لم يكن يترك لهم الوقت لإكمال استعداداتهم القتالية، أو تنظيم قواتهم للهجوم، حتى يباغتهم في مواقعهم، ويعمل على تدمير قواتهم، وكانت هذه الاستراتيجية مرتبطة باستراتيجية الحرب التشتيتية بحيث كانت قوات المسلمين تعوق كل تعاون بين جيوب المقاومة المتتالية، ثم تحشد ما يكفي من القوات لتصفية جيب المقاومة الأكثر خطورة بضربة حاسمة، حيث يتم الانتقال بعدها لتصفية الجيب التالي، وهكذا حتى يتم القضاء على جميع مقاومات العدو.

وكانت استراتيجية الهجمات الوقائية ـ على أهميتها ـ في جملة الاستراتيجيات التي استخدمها العرب في فتوحاتهم، وكانت هذه الاستراتيجيات بمجموعها متداخلة بإتقان رائع بحيث تشكل «**فسيفساء**» فن الحرب عند العرب المسلمين.

❑ سعد ومبادئ الحرب:

١ ـ المباغتة:

تكمن المباغتة في عمليات سعد بن أبي وقاص ضد الفرس، وتمتد جذورها عميقًا حتى تصل إلى الأفكار السلفية التي كان يعرفها الفرس عن العرب، ولهذا فقد كان سلوك العرب بعد الإسلام مباغتًا بمجموعه بقدر ما كان مباغتًا في كل موقف من المواقف، وكان الفرس يعالجون المواقف المستجدة انطلاقًا من نظرتهم المتفوقة على العرب، ومن مكانتهم العليا التي سمحت لهم في مرات كثيرة بتهديد الجزيرة العربية، والتوغل حتى أعماقها.

وقد أفاد المسلمون من موقف الفرس حتى أبعد الحدود لتطبيق استراتيجيتهم في

الهجوم غير المباشر وفي قيادتهم للعمليات المتتابعة ضد قوات الفرس، ولخلق حالة من «**الشك**» تساعد على فصل «**عرب العراق**» عن قوات الفرس المهيمنة عليهم ماديًّا ومعنويًّا.

ويمكن على ضوء هذه القاعدة إدراك أهمية المباغتة التي مارست دورها عندما نظم سعد قواته لمجابهة الفرس في القادسية، وكذلك ما كان من أثر لسلوك المسلمين فوق القادسية «**الصلاة، التكبير**» مما أذهل الفرس، وأضعف من روحهم المعنوية حتى قبل الاشتباك.

كان سعد يبحث عن المباغتة في ساحة العمليات «فبعث طليحة إلى مخاضة أسفل من العسكر... وعبر طليحة العتيق، فدار إلى عسكر القوم، حتى إذا وقف على ردم النهر كبر ثلاث تكبيرات، فراع أهل فارس، وتعجب المسلمون، فكفَّ بعضهم عن بعض للنظر في ذلك»

«وحدد المسلمون تعبئتهم؛ وقدموا صفًّا، وأتبعوا آخر مثله، وآخر، وآخر، حتى تمت صفوفهم ثلاثة عشر صفًّا في القلب والمجنبتين كذلك، ثم لحقت بالفرسان الكتائب»(١).

لقد كان ذلك في بداية ليلة الهرير، وكانت المباغتة هي نقطة التحول في الموقف فقد كان الصراع ينتهي في الأيام الثلاثة، «**وكلما نال المسلمون من شر نال الفرس مثله**»، حتى إذا جدَّدت المباغتة عَزْم المسلمين، انطلقوا بتنظيم جديد في قتال ليلي شرس، «كان صليل الحديد فيها كصوت القيون، وقاتل المسلمون حتى الصباح، وأُفرغ عليهم الصبر إفراغًا، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها... حتى إذا كان وجهُ الصبح، انتمى الناس، فاستدل بذلك على أنهم الأعلون».

واستمر سعد بعد ذلك في الحرص على «**مباغتة الفرس**» سواء عن طريق دفع

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٥٥٧ - ٥٥٩).

قوات المسلمين للظهور في كل مكان، أو عن طريق إبداع طرائق جديدة في ساحة العمليات، أو عن طريق تنظيم القوات تنظيمًا يتوافق مع متطلبات الموقف، وقد كان من المحال على سعد تجديد «**المباغتة**» بصورة مستمرة، لو لم تتوافر لقوات المسلمين القدرة الحركية العالية، ولو لم تتوافر لهم القدرة ـ أيضًا ـ على استيعاب الظروف الجديدة في القتال، والتكيف معها بما يلائمها من التنظيم.

لقد تطور مبدأ «**المباغتة**» تطورًا كبيرًا عند العرب المسلمين من خلال أعمالهم القتالية المستمرة، وكان في طليعة المبادئ التي اعتمدوها في حروبهم، ولكن كفاءة سعد تبرز من خلال قدرته على تحقيق المباغتة في ظروف صعبة كانت فيها أبعاد مسرح العمليات محددة بدقة، وكان العرب والفرس يحاولون وفي وقت واحد الإفادة من نقاط الضعف، فكان تحقيق المباغتة على إطار «**العمليات**» مع كل تدابير الحيطة التي اتخذها الفرس، إنما هو برهان على القدرة العالية في التكيف مع ظروف القتال والاستجابة بما هو مناسب لها.

٢ـ المبادأة؛ واستخدام القوة الهجومية:

لم يكن باستطاعة سعد بن مالك حشد قوات المسلمين في القادسية؛ على حدود بلاد الفرس، وإعطاء المبادأة للفرس فيعرض هذه القوات للتدمير؛ وعلى هذا فقد كان الحرص على المبادأة عند سعد متلاحمًا مع بقية المبادئ ومتوافقًا مع معطيات السياسة العليا للعرب المسلمين، وكان هدف المبادأة هو وضع الفرس باستمرار أمام مواقف جديدة؛ وتوجيههم في النهاية نحو المعركة الحاسمة؛ وإرغامهم على قبولها في المكان والزمان اللذين يختارهما سعد.

وهكذا مرت أربعة أشهر تقريبًا بين نزول سعد القادسية وبين وقوع المعركة الحاسمة فيها، ولم تكن هذه الفترة ـ فترة عطالة عن العمل؛ أو وقتًا ميتًا، وإنما كانت فترة كلها عمل مستمر وجهد متصل، ما بين اتصالات مع قادة الفرس، واتصالات مماثلة مع أهل البلاد «**من العرب**» مع توجيه التحديات المتعاظمة لاستثارة الفرس

ودفعهم إلى قبول ما كانوا يحاولون تجنبه من الاشتباك.

وقد أفاد سعد من «**عامل الزمن**» إلى أبعد الحدود من أجل إعداد الظروف المناسبة للمعركة الحاسمة، كل ذلك دون السماح للفرس بانتزاع المبادأة أو الخروج على ما كان يخططه لهم سعد.

ولم تكن الإغارات المستمرة على حدود بلاد الفرس وتوجيه التهديدات إلى قلب قواتهم سوى بعض الوسائل لحرمانهم باستمرار من المبادأة؛ وقد مارست المبادأة دورها في «تنفيذ استراتيجية الهجوم غير المباشر» إذ أدَّت الأعمال القتالية «**الصغرى**» والمتفرقة إلى إضعاف الروح المعنوية للفرس، وإشعارهم بالخطر الدائم الذي يقترب منهم دون أن يعرفوا الشكل الذي سيأخذه هذا الخطر أو مدى قوته. وعلى هذا فإن استخدام المبادأة عند سعد بن مالك لم يقتصر على قيادة العمليات الكبرى، وإنما ظهر في كل عملية من عملياتهم حتى ما كان منها على مستوى فردي، وكان في ذلك يطبق مبدأ «**الهجوم ـ الهجوم ـ ولا شيء غير الهجوم**» وذلك قبل أن ينادي به نابليون بعد ألف ومئتي سنة تقريبًا.

ولعل الظاهرة البارزة هي الاستعداد الدائم لاستخدام القوة الهجومية باستمرار؛ لمجابهة المواقف جميعها. هذا على الرغم من إدراك سعد لضعف قوته العددية أمام تفرق الفرس الساحق، وقد كان بالمستطاع تحقيق التفوق لصالح المسلمين في المعارك الصغرى؛ والوصول إلى النتائج المطلوبة في تفتيت الفرس معنويًّا، وإكساب المسلمين الثقة بأنفسهم عن طريق الانتصارات الصغرى المتتالية؛ وكان لذلك ـ دون ريب ـ أثر حاسم وقوي في تقرير النتيجة النهائية للمعركة الحاسمة؛ إذ إن الخسائر المتتالية للفرس لم تكن منفصلة أبدًا عن محصلة الخسارة النهائية التي قررتها معركة القادسية.

وبذلك أخذت الحرب «صفتها المطلقة» وتأكدت هذه الصفة المطلقة من خلال الإصرار العنيد على متابعة المطاردة؛ لتدمير جميع القوات الفارسية، وأفاد سعد من ذلك كله ـ من المبادأة، ومن استخدام القوة الهجومية؛ حتى إذا جاءت المعركة

الحاسمة؛ كان هناك حالة من التوازن والاستقرار: «تفوق مادي بالقوى والوسائط في جهة، يقابله تفوق معنوي، وتفوق في التنظيم وإدارة الحرب» وبقيت النتيجة النهائية معلقة بخيوط رفيعة ترتبط «بالفضائل الحربية للقوات وإرادتهم على تحقيق النصر بقدر ما ترتبط بلعبة القدر».

ويظهر واضحًا أن انتصارات سعد وقوات المسلمين لم تكن «مجرد ضربات في الفراغ أحكمتها مصادفات الحرب وحدها»، وإنما كانت نتيجة تخطيط دقيق محكم، وإرادة صلبة تتصل في جذورها بالإيمان العميق، وجاءت مصادفات الحرب لتمارس دورها التكميلي، وكانت المبادأة، واستخدام القوة الهجومية في جملة المبادئ التي استخدمت بكفاءة عالية، وسمحت للمصادفات بممارسة دورها[١].

❑ سعد وفن الحرب:

تولى سعد بن أبي وقاص قيادة جيش العرب المسلمين خلال أصعب مرحلة من مراحل الحرب على جبهة العراق؛ وكانت هذه الجبهة تحتل المرتبة الثانوية بعد جبهة الشام؛ وعندما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إمرة المسلمين، عين سعدًا لحرب العراق، ونقل ثقل الهجوم إلى جبهتها، لا سيما وأن الحرب على جبهة الشام قد تقررت بانتصار المسلمين في معركة اليرموك، وفتح دمشق، فبدأت الإمدادات في التوجه إلى العراق من الشام، ومن الجزيرة العربية.

وكان أمير المؤمنين يشرف بنفسه على قيادة الجيوش، ويعمل على توجيهها، ويحدد لها واجباتها، وكان سعد بن أبي وقاص يعود في أموره كلها إلى أمير المؤمنين، ويعلمه بتطورات الموقف، وينفذ تعليماته وتوصياته بدقة.

وشهدت هذه الفترة، ومن خلال هذا التعاون الوثيق، بداية التطور في العقيدة القتالية للعرب المسلمين؛ فقد تم فيها تنظيم مناطق التجمع، ومناطق الحشد، وحددت

---

(١) للتفصيل انظر: سعد بن أبي وقاص، لبسّام العسلي «دار النفائس».

الواجبات والأعمال التي يجب تنفيذها في كل منطقة، وأخذ جيش المسلمين في استخدام تنظيم جديد ـ عن طريق التقسيم العُشري للقوات ـ، ورافق ذلك وضوح في تدابير الأمن والحيطة، وتنظيم دقيق لأرتال المسير، وإجراءات حازمة لحماية المعسكرات. كل ذلك مع تنظيم جيد للشئون الإدارية، ومن الطبيعي والواضح أن الخليفة لم يكن يتدخل في جميع الأمور التنظيمية والعملياتية، وإنما كان يحدد الهدف والخطوط العامة المطلوب تنفيذها؛ فكان سعد بن مالك بن أبي وقاص هو «**المنظم الأول**» لجيوش العرب المسلمين.

لقد اصطدم المسلمون بجيوش الفرس، وهي جيوش لديها خبرات قتالية واسعة بحكم صراعها الدائم، وهي ـ أيضًا ـ متفوقة في ميزان القوى، وكانت تتبع تنظيمًا معينًا ودقيقًا في إدارة الحرب، وعلى هذا قد يكون من الصعب تقويم منجزات سعد بن أبي وقاص إن لم ترتبط عملية التقويم هذه بما كان يطبقه الخصم من طرائق عملياتية وما يستخدمه من أساليب تعبوية «**تكتيكية**».

كان تنظيم المعركة عند الفرس يعتمد على قوة الصدمة بالدرجة الأولى، ويظهر ذلك من خلال اقتران ٣٠ ألفًا بالسلاسل؛ لتكوين جدار تتحطم على جبهته هجمات العرب المسلمين. وكانت بقية القوات الفارسية تدعم «**جدار الصدمة**» بواسطة رماياتها الكثيفة؛ ونتيجة لهذا التنظيم القتالي الذي لا يقبل التجزئة كان باستطاعة الفرس تدمير قوات أعدائهم بضربة واحدة وبأقل ثمن ممكن، فإذا أضيف إلى ذلك التفوق الكبير في القوى والوسائط لصالح الفرس، فإن صورة الاشتباك ستظهر قائمة وغير مثيرة للتفاؤل.

ولكن سعد بن أبي وقاص أفاد من سلبيات التنظيمات الفارسية وعدم قدرتها على العمل بصورة مجزأة؛ ليبتكر الأسلوب المناسب والذي يمكن اعتباره أسلوبًا متقدمًا لأكثر من عشرة قرون.

اعتمد سعد بن أبي وقاص على النظام البديل وهو نظام «**الجيوش المتمفصلة**»

وكان هذا النظام يستجيب - في الواقع - لطبيعة قوات العرب «**الخفيفة والمرنة**»، كما يتوافق مع ما تتطلبه مجابهة التنظيم الفارسي «**الثقيل والمحروم من حرية العمل**».

وبرزت ميزات هذا النظام من خلال المناورات العميقة والقوية لقوات العرب المسلمين، وهي المناورات التي وصل بها القعقاع بن عمرو في ليل الهرير إلى مؤخرة الفرس.

كما برزت من خلال حرية العمل التي كانت تسمح للمسلمين بتنظيم هجماتهم التعبوية بمرونة، ثم الانسحاب بسرعة، وإعادة التنظيم من أجل هجوم جديد.

وأخيرًا فقد برزت ميزات هذا التنظيم أيضًا من خلال المطاردة السريعة والحاسمة لقوات الفرس بعد إلحاق الهزيمة بهم، وظهرت محصلة هذا التنظيم في النهاية على شكل صورة متقدمة «**لحروب الصاعقة**».

لقد كان العمل وفقًا لهذا النظام يتطلب ميدانًا محددًا يساعد على تحقيق السيطرة والإشراف على المعركة، ويظهر أن سعد بن أبي وقاص قد وضع ذلك في اعتباره عندما نزل القادسية، وصمم على جذب خصمه إليها.

وتظهر مسيرة الأحداث والمفاوضات أن سعدًا كان مصممًا على عدم مجابهة الفرس إلا في القادسية - على نحو يشابه تمامًا ما فعله المسلمون في اليرموك -.

ولقد حال مرض سعد - بالدمامل - بينه وبين قيادته المباشرة للقوات، فأوكل إلى خالد بن عرفطة أمر إدارة المعركة نيابةً عنه، وأخذ في تبليغه أوامره بواسطة الرقاع - أوامر خطية -، وقد يكون من المؤسف عدم الحصول على هذه الأوامر، ولكن أسلوب إدارة المعركة يبرهن على أن سعدًا كان يتابع جميع المواقف الطارئة، ويدرسها، ويحللها، ويعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها، مثل أسلوب القضاء على الفيلة التي أفزعت خيول المسلمين.

لقد كان من الغريب ألا يكتشف الفرس الخطأ الكبير في تنظيمهم القتالي، وأن

يتجاهلوا نقاط ضعفه، لا سيما بعد هزيمة قواتهم على أيدي القائد الروماني بيلزير، ولكن من المحتمل أن يكون استهتار الفرس بقوة العرب، وعدم تقويمهم الصحيح لما صار عليه العرب بعد الإسلام، ثم اعتداد الفرس بتفوقهم الكبير بالقوى والوسائط هو الذي دفعهم إلى زج قواتهم في المعركة؛ وفقًا لأساليبهم التقليدية، في حين كان العرب يخوضون حروبهم بأساليب ثورية حقيقية تتميز بالتجديد والإبداع إلى أبعد الحدود.

إن كفاءة سعد بن أبي وقاص وقدرته القيادية لا تقف عند حدود التنفيذ الرائع لأوامر الخليفة، والتوفيق بين ما هو مطلوب وبين القوى والوسائط المتوافرة، كما أن قدرته التنظيمية لا تقف عند حدود وضع الأسس الجديدة لبناء الجيوش الحديثة، وإنما تتجاوز ذلك كله إلى «أسلوب التعامل مع الرجال» ومعرفة قدراتهم، واستثارة الأصالة العربية في نفوسهم، ثم جمع أكبر قدر من العوامل المختلفة التي تضمن النصر؛ وقد يكون من الصعب في كل الأحوال إرجاع النصر الخالد في القادسية إلى كفاءة القائد سعد بن أبي وقاص وحدها وتجاهل تلك الأسس والقواعد التي وضع الرسول القائد ﷺ حجر الأساس فيها وأقام بنيانها على مبادئ ثابتة حددتها العقيدة الدينية الإسلامية.

ونختم بأن هناك ثمة مجموعة من المنجزات التي يعود الفضل في إعطائها صورتها الواقعية وتطبيقها الفعلي للقائد سعد بن أبي وقاص وأبرزها:

١ـ تقسيم الجيش وتنظيمه تنظيمًا حديثًا على الأساس العشري، وتعيين القادة لمختلف مراتب التسلسل «**العرفاء، قادة العشرات، ثم قادة الخمسينات، وأمراء المئات، وأمراء الألوف، وهكذا**» وبذلك أخذ الجيش الإسلامي شكل التنظيمات المتقدمة، وكان سباقًا في هذا المجال على جيوش العالم القديم.

٢ـ تنظيم مناطق الحشد، وتحديد إجراءات الأمن وتدابير الحيطة الواجب اتخاذها في هذه المناطق.

٣ـ تنظيم أرتال المسير مع فكرة احتمال مجابهة العدو في كل مرحلة من المراحل، واختيار التشكيل الملائم الذي يسمح بالتحول من تنظيم التحرك إلى تنظيم القتال.

٤ـ تحديد الواجبات الدقيقة لعناصر الأمن، ودفعها أمام القوات مسافة تكفي لإنذار القوات الرئيسية وإتاحة الفترة اللازمة لاتخاذ تنظيم القتال.

٥ـ استخدام وسائل اقتحام الحصار؛ والتوسع فيها «**المجانيق، العرادات، الدبابة**».

٦ـ تنظيم عمليات عبور الأنهار والموانع المائية «**رائدة ـ وسائط عبور**».

٧ـ تطوير النظام المتمفصل «**النظام المرن أو السيال**» في قتال المسلمين.

وقد يكون من الصعب حصر منجزات القائد سعد كلها، ولكن من الملاحظ أن جميع هذه المنجزات تتعلق بالأمور التنظيمية والقيادة الفعلية للعمليات، وبذلك يمكن القول، دون مبالغة: إنه أول قائد منظم، وأول قائد للعمليات في جيوش المسلمين[١].

وختامًا: لا ينسى الناس فاتح العراق، وهم يروْن ما حل بالعراق.. عراقٌ ولا سعد له.. أو «**واسعداه**» واعراقاه ... ولا سعد للعراق.

سيظل اسم سعد رضي الله عنه نابهًا في كل مصادر التاريخ وعلى كل لسان، ويكفي فخر النبي به «**هذا خالي فليرني امرؤ خاله**» ـ وما أصدق قول سعد رضي الله عنه لابنه وهو على فراش الموت: «**لا تبك عليَّ، فإن اللَّه لا يعذبني أبدًا، وإني من أهل الجنة. إن اللَّه لا يدين المؤمنين ما عملوا لله**»[٢].

---

(١) سعد بن أبي وقاص، لبسّام العسلي.

(٢) طبقات ابن سعد (١٤٧/٣).

١٤

أبو الأعور..

السابق إلى الإسلام..

مجاب الدعوة..

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه..

أحد العشرة ..

أبو الأعور.. السابق إلى الإسلام..
مجاب الدعوة..
سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه..

أحد العشرة ..

❑ ما سعيدٌ يوم اليرموك إلا مثل الأسد:

عن قيس قال: سمعت سعيد بن زيد يقول للقوم: «**لو رأيتني موثقي**[١] **عمر على الإسلام أنا وأخته، وما أسلم**[٢]**...**»[٣].

الفارس السبَّاق «**الذي تقطر منه الفضائل، وتفوح من شذى سيرته المكارم**»[٤].

كان له أكبر الأثر في إسلام عمر بن الخطاب، وهو الفارس، الكريم، الرباني، مستجاب الدعوة، عرفته الفضائل، وعرفها منذ أن عرف معنى الحياة.

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

قال الحافظ بن حجر عن الصحابة، والعشرة منهم خاصة:

وجوه أصحابه كالدُّر مشرقةٌ ... إذا رأيت امرأً عن هديهم صرفا
نالوا السيادة في دنيا وآخرة ... والسبق والفضل والتقديم والشَّرَفا
وبالرضا خُصَّ منهم عشرة زُهُرٌ ... يا ويح مَن في مُوَالاةِ لهم وقفَا
سعد سعيد زبير طلحة وأبو ... عبيدة وابن عوف قبله الخُلَفا
لا تسألنَّ القوافي عن مآثرهم ... إن شئت فاستنطق القرآن والصُّحفَا[٥]

قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ: «كان مقام أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي،

---

(١) أي أن عمر موثق سعيد بن زيد.
(٢) يعني: قبل أن يُسْلِم عمر.
(٣) رواه البخاري (٣٨٦٧).
(٤) فرسان حول الرسول، لأحمد خليل جمعة (٤٥٣/١) «دار الكلم الطيب ودار البشير».
(٥) ديوان ابن حجر ص (١٤، ١٥).

وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كانوا أمام رسول اللَّه ﷺ في القتال، وخلفه في الصف، وليس لأحد من المهاجرين والأنصار أن يقوم مقام أحد منهم، غاب أم شهد»[١].

جهاده مع رسول اللّه ﷺ:

كان سعيد بن زيد من كبار الفرسان الذين أبلوا أعظم البلاء في ساحات الجلاد والجهاد والطعن والطعان.

وقبل بدر كان له مهمة استخبارية:

لما تحين رسول اللَّه ﷺ وصول عير قريش من الشام، بعث طلحة بن عبيداللَّه وسعيد بن زيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسسان خَبَرَ العِير، فلما بلغا الحوراء، أقاما هناك حتى مرت بهما العير، وبلغ رسول اللَّه الخبر قبل رجوع طلحة وسعد إليه، فندب أصحابه، وخرج يريد العير، فتساحلت العير وأسرعت، وساروا الليل والنهار فرقًا من الطلب، وخرج طلحة وسعيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ يريدان المدينة؛ ليخبرا رسول اللَّه ﷺ خبر العِير، ولما يعلما بخروجه، فقدما المدينة في اليوم الذي لاقى رسول اللَّه ﷺ النفير من قريش ببدر، فخرجا من المدينة يعترضان رسول اللَّه ﷺ، فلقياه منصرفًا من بدر، فلم يشهد سعيد وطلحة الوقعة، فضرب لهما رسول اللَّه ﷺ بسهمهما وأجورهما في بدر، فكانا كمن شهدها[٢]، وعُدَّا في أهل بدر.

وشهد سعيد بن زيد غزاة قريظة، وكان من فرسانها الذين حاصروا اليهود خمسًا وعشرين ليلة، نزلوا بعدها على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي وافق حكم اللَّه من فوق سبع سماوات.

وقسم رسول اللَّه ﷺ أموال بني قريظة، وجعل للفارس ثلاثة أسهم: سهمين

(١) مختصر تاريخ دمشق (٣٠١/٩).
(٢) السير الكبير (١٠٠٩/٣).

للفرس، وسهمًا لراكبه، أو للراجل، وكانت الخيل يومئذ ستًّا وثلاثين.

وبعد ذلك دعا رسول اللَّه ﷺ سعيد بن زيد، وأمره أن يذهب بسبايا من بني قريظة إلى نجد؛ ليشتري بها خيلًا وسلاحًا؛ كيما تزيد قوة المسلمين الحربية؛ ففعل سعيد، وذهب إلى نجد فابتاع بها خيلًا وسلاحًا، وعاد إلى المدينة، وقد حظي بمرضاة اللَّه ومرضاة رسوله ﷺ[1].

يُساقُ السَّبْيُ شرذمةٌ بنجدٍ ... وأخرى بالشآم لها أليلُ[2]

أصاب المسلمون بها سلاحًا ... وخيلًا في قوائمها الحجول[3]

مُكرَّمة تُعدُّ لكل يوم ... كريم الذكر ليس له مثيلُ

وعسى اللَّه أن يَمُنَّ على المسلمين بيوم يسوق فيه فَارِسُ المسلمين المنتظر السبايا الكافرات لبيعهن وشراء السلاح بأثمانهن مثلما فعل الفارس سعيد بن زيد رضي الله عنه.

ـ جهاده بعد رسول اللَّه ﷺ:

سعيد بن زيد قائد الفرسان يوم أجنادين:

قائد الفرسان يوم أَجْنادِين، وكان من أشد الناس، وهو الذي أشار على خالد بِبَدْءِ القتال يوم أجنادين لما رمَى الروم المسلمين بالنُّشَّاب، فصاح سعيد بن زيد بخالد قائلًا: «**عَلَام نستهدف لهؤلاء الأعْلاج؛ وقد رشقونا بالنشاب حتى شَمَسَتِ الخيل؟!**». فأقبل خالد إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «**احملوا ـ رحمكم اللَّه ـ على اسم اللَّه**»، وحمل خالدٌ على الروم، وحمل المسلمون معه بأجمعهم، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين.. على مْيمنتهم مرة، ثمَّ على ميْسرتهم، ثم صبروا لرَشْق نبالهم، وانطلق جيش المسلمين إلى الروم، فما صبر الروم لهم فَوَاقًا[4]،

---

(١) **انظر**: تهذيب تاريخ ابن عساكر (١/١٦٤).

(٢) السبايا إلى نجد بُعِثَ بها سعيد بن زيد، وإلى الشام بُعِثَ بها سعد بن عبادة. والأليل: الأنين ورفع الصوت بالصراخ عند المصيبة.

(٣) الحجول: جمع حجْل؛ وهو: البياض في رجل الفرس.

(٤) الفواق: ما بين الحلْبَتَيْنِ من الوقت، والمراد: الزمن القصير.

وانهزموا هزيمةً شديدة، وقتلهم المسلمون كيف شاءُوا، وأصابوا معسكرهم وما حَوى.

وعند الطبري، عن ابن إسحاق: «**فلما رأى القبقلار[1] ما رأى من قتال المسلمين، قال للروم: لفوا رأسي بثوْبٍ. قالوا: لِمَ؟ قال: يوم البئيس، لا أحب أن أراه، ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ من هذا، فاحْتَزَّ المسلمون رأسَه، وإنه لَمُلَفَّفٌ**».

ولعل أروع بطولاته تلك التي سجلها يوم اليرموك.

❑ يوم اليرموك مثل الأسد احتاج الناس إلى بأسه:

كان سعيد رضي الله عنه من أمراء الجيش في اليرموك، حيث كان على قلب جيش المسلمين، فقد قال خالد بن الوليد لأبي عبيدة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أثناء التنظيم لمعركة اليرموك: رأيتُ أن يجلس سعيد بن زيد مجلسك هذا، ويقف من ورائه وبحذائه مئتان أو ثلاث مئة يكونون للناس ردءًا[2].

«قال سعيد بن عمرو بن نُفيل: لمَّا كان يوم اليرموك كنا أربعًا وعشرين ألفًا أو نحوًا من ذلك، فخرجتْ لنا الروم بعشرين ومئة ألفٍ، وأقبلوا علينا بخطًى ثقيلةٍ، كأنهم الجبال تُحركها أيدٍ خفيَّةٌ، وسار أمامهم الأساقفةُ والبطارقةُ والقسِّيسُون يحملون الصلبان وهم يجهرون بالصلوات، فيردِّدُها الجيش من ورائهم، ولهم هَزِيمٌ كهزيم الرَّعد، فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه، هالتْهم كثرتُهم، وخالط قلوبَهم شيءٌ من خوْفهم؛ عند ذلك قام أبو عبيدة بن الجراح يحضُّ المسلمين على القتال، فقال: عبادَ الله، انصروا اللَّه ينصُركم ويثبِّتْ أقدامكم. عباد الله، اصبروا؛ فإن الصبر منجاةٌ من الكفر ومرضاةٌ للرب، وَمَدْحَضَةٌ للعار، وأشرعُوا الرماح، واستتِرُوا بالتروس، والزموا الصمتَ إلا من ذكْر اللَّه عز وجل في أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله[3].

(١) قائد جيش الروم.
(٢) تهذيب ابن عساكر (١/١٦٤).
(٣) **انظر**: البداية والنهاية (٧/٨).

قال سعيد: عند ذلك خرج رجلٌ من صفوف المسلمين وقال لأبي عُبيدة: إني أزمعتُ[١] على أن أقضي أمري الساعة[٢]، فهل لك من رسالة تبعث بها إلى رسول اللَّه ﷺ؟ فقال أبو عُبيدة: نعم، تُقرئه مني ومن المسلمين السلامَ، وتقول له: يا رسول الله، إنا وجدْنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا.

قال سعيد: فما إنْ سمعتُ كلامَه، ورأيتُه يمتشِقُ حُسَامَه ويمضي إلى لقاءِ أعداء الله، حتى اقتحمتُ[٣] إلى الأرض، وجثْوتُ على ركبتيَّ، وأشرعتُ رمحي، وطعنت أوَّلَ فارس أقبَل علينا، ثم وَثَبتُ على العدوِّ، وقد انتزع اللَّه كلَّ ما في قلبي من الخوْف، فثار الناس في وُجوه الروم، وما زالوا يقاتلونهم حتى كتب اللَّه للمؤمنين النصر»[٤].

«قال حبيب بن سلمة: اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فلله درُّ سعيد! ما سعيد يومئذ إلا مثلُ الأسد، لما نظر إلى الروم وخافها، اقتحم إلى الأرض وجثا على ركبتيْه، حتى إذا دَنَوْا منه وثب في وجوههم مثل الليْثِ، فطعن برابته أوَّل رجل من القوم فقتله، وأخذ ـ واللهِ ـ يقاتل راجلًا ـ قتالَ الرجل الشجاع البَأْسِ ـ فارسًا، ويعطِفُ الناسُ إليه»[٥]، وانتصر المسلمون في هذا المشهد العظيم.

وشهد سعيد بعد ذلك حصار دمشق وفَتْحها وكان بصحبته أبو عبيدة عليها، فهو أول من عمل نيابة دمشق من هذه الأمة.

ذكر صلاح الدين الصفدي ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه «**تحفة ذوي الألباب**» أن سعيد ابن زيد قد ولاه أبو عبيدة دمشق، وذكر ذلك في بيت من الشعر من قصيدة، فقال:

---

(١)، (٢) أزمعتُ: عزمتُ. وأقضي أمري الساعة؛ أي: أموت في هذه الساعة.

(٣) اقتحمتُ إلى الأرض: رميتُ بنفسي بشدةٍ على الأرض.

(٤) صُور من حياة الصحابة، للدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا (١/١٥٥ ـ ١٥٨) «طبع مؤسسة الرسالة».

(٥) تاريخ ابن عساكر (١/٥٤١)، والأزدي (٢٢٦).

وقد تولاها سعيد العدوي ... وهو على الفضل المبين محتوي[١]

وبعد أن ولاه أبو عبيدة دمشق، نهض أبو عبيدة بمن معه للجهاد، فكتب إليه سعيد بن زيد رضي الله عنه:

«أما بعد: فإني ما كنتُ لأوثرك وأصحابك بالجهاد على نفسي وعلى ما يدنيني من مرضاة الله، فإذا جاءك كتابي فابعث إلى عملك من هو أرغبُ إليه مني، فإني قادمٌ عليك وشيكًا إن شاء الله، والسلام».

أحب سعيد بن زيد الفارسُ العدويُّ أن يكون في عداد المجاهدين بن الأسنة والرماح، وأقسم باللَّه قائلًا: «والله، لمشهد شهده رجل مع رسول اللَّه ﷺ يغبرٌ فيه وجهه مع رسول اللَّه ﷺ أفضل من عمل أحدكم، ولو عُمِّر عمر نوح»[٢].

رَضِيَ اللَّهُ عن سعيد بن زيد، فقد كان بالحق قوَّالًا، ولما له بذَّالًا، ولهواه قامعًا، وقتَّالًا رغب عن الولاية، وتشتمر في الرعاية، عازمًا على السَّبْق والعبور، المفضي إلى الرفعة والحبور.. كان عن نفسه فانيًا، وفي العبودية غانيًا[٣].

* * *

(١) تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، لصلاح الدين الصفدي (٧٧/١) «طبع وزارة الثقافة ـ دمشق».

(٢) **انظر**: حلية الأولياء (٩٥/١).

(٣) مختصر تاريخ دمشق (٢٠٠/٩).



قادة شاهقون تحت راية الإسلام

غيروا مجرى التاريخ

قادة شاهقون تحت راية الإسلام غيروا مجرى التاريخ

تُشْرِقُ وتتلألأ في سماءِ مَجْدِ الإِسْلام أسْمَاءُ قَادَةٍ غيَّروا وَجْهَ التَّاريخِ.. كان الرَّجلُ منهم أُمَّةً.. لا بألف.. بل واللهِ أمَّة.. قادوا جيوشَ الإِسلامِ في معارك أغْرب من الخيالِ..

فللَّهِ دَرُّ خالد بن الوليد، ولله دَرُّ أبي عبيدة، وسعد بن أبي وقَّاصٍ، والمثنى بن حارثة، وعمرو بن العاص، والقعقاع بن عمرو التميمي، وعاصم وزهرة، وعتبة المرقال، وعقبة بن نافع، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وقتيبة بن مسلم، ومَسْلمة بن عبدالله، رهبان الليل وفرسان النهار... ملئوا المحاريب طاعةً وسجودًا، والميادين بطولةً تأخذ بالألباب.

ما كان حديثًا يُفترى، ولا فُتونًا يتردد، ذلك الحديث الذي روى به التاريخ أنباء أعظم ثلة ظهرت في دنيا العقيدة والإيمان.

قادة ورجال شاهقون من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ومن بعدهم أصحاب عظمة باهرة ليست أساطير، وإن بدت من فرط إعجازها كالأساطير!!!

إنها حقائق تشكل ما كان لأصحاب الرسول ومن بعدهم من التابعين لهم بإحسان، وتابعي التابعين من حياة ربانية جهادية، تسمو وتتألق، لا بقدر ما يريد لها الكتاب والواصفون، بل بقدر ما أراد لها أصحابها وذووها، وبقدر ما بذلوا في سبيل التفوق والكمال من جهد خارق مبرور.

وهذه الموسوعة لا تزعم لنفسها القدرة على تقديم العظمة كاملة للقراء.. وحسبنا أن نومئ إلى سِماتها، ونتطلع إلى سمائها.

ألا إن التاريخ لم يشهد رجالًا عقدوا عزمهم ونواياهم على غاية تناهت في العظمة والسمو، ثم نذروا لها حياتهم على نسق تناهى في الجسارة والتضحية

والبذل ـ كما شهد في قادة الجهاد في القرون الخيريةَ.

لقد جاءوا الحياة في أوانهم المرتقب ويومهم الموعود.

أنجز أولئك الأبرار كل هذا الذي أنجزوه في بضع سنين...؟!

دمدموا على إمبراطوريات الشرك والوثنية، وحولوها إلى كثيب مهيل؛ يقول قائلهم: «**إن اللَّه ابتعثنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن ظلم الكُهَّان إلى عدل الإسلام**».

كيف شاءوا بقرآن اللَّه وكلماته ميادين بذل تهتز نضرة.. وتتألق عظمة وتتفوق اقتدارًا..؟؟

وقبل هذا كله، وفوق هذا كله ـ كيف استطاعوا في مثل سرعة الضوء أن يضيئوا الضمير الإنساني بحقيقة التوحيد وينكِّسوا إلى الأبد وثنية القرون.

وأيضًا، فإن عبقريتهم الحقة تتمثل في تلك القدرة التي صاغوا بها فضائلهم، واعتصموا بإيمانهم في ساحات الوعي على نحو يجلُّ عن النظير.

وترى هنا البذل الذي بذلوا.. والهول الذي احتملوا.. والفوز الذي أحرزوا.

والدور الجليل الذي نهضوا به، والبطولات الوضيئة التي سطروها بدمائهم من أجل الإسلام دين الله.

لقد أقام اللَّه لهذا الدين قادة وفرسانًا قاتلوا مع رسول اللَّه ﷺ وبعده بالسيف والسهم والسنان، وتتصاول بين يديه في ميادين السباق تصاول الأقران، وتبذل في نصرته من نفوسها وأموالها نفائس الأثمان. هؤلاء الفرسان الأبرار الذين صُنِعوا على عين رسول اللَّه ﷺ، وكانت صوارمهم لا تهوى مضاجعة أغمادها، وسهامهم تحب نحور الأعداء، وهممهم دانت لها همم الآخرين، وعزيمتهم قد سبقت مرهفات السيوف، طلبوا المعالي والأمجاد تحت ظلال السيوف، وسالت دماؤهم الزكية؛ طلبًا للشهادة وشوقًا إليها؛ حتى ينعموا بجوار الرحمن في أعالي

الغرف وفراديس الجنان... كانت حياتهم في الدنيا بين صليل السيوف وصهيل الخيول، وخفق البنود، وصياح الفرسان، ودويِّ التكبير، ما عرفوا في الدنيا إلا ذروة سنام الإسلام؛ فنالوا بسنام الإسلام حياة، أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في أرجاء الجنة، ثم تأوي إلى قناديل من ذهب معلقةً بعرش الرحمن:

طُف بالمصارعِ واستمِع نجواها ... واضمم لحبات العيون ثراهَا
ضاع الشَّذى القدسِيِّ في جنباتها ... فانْشَق وصِفْ للمؤمنين شذاهَا
ضمّتْ حماة الحق ما عَزَف امرؤٌ ... عِزًّا لهم من دُونه. أوْ جاهَا
الطَّالعين به على أعدائه ... مَوْتًا إذا نشروا الجنود طَواهَا
الخائضين من الخطوبِ غِمَارَها ... المُصْطلين من الحروب لظاهَا
الباذلين لدى الفداءَ نَفُوسَهم ... يبغون عند إلههم محياهَا
قومٌ هم اتخذوا الشهادة بغيةً ... لا يبتغون لدى الجهاد سِوَاها
هُمْ في حمى الإيمان أوّلُ صخرةٍ ... فسل الصخور: أما عرفن قواها؟
حملت جبالَ الحق في دنيا الهدى ... بيضًا شواهق، ما تُنال ذراهَا
تُؤْتي الممالكَ والشعوبَ حياتها ... وتقيمُ من أمجادها وعُلاها
ذَهبتْ ترفرف في مسابح عزِّها ... ومضتْ يفوتُ مدى النسور مداها
تجري الرياح الهوجُ طوعَ قضائها ... وتَخافُها فتحيدُ عن مجراها
طاف الغمام مُهلِّلًا بظلالها ... فَسقَتْهُ من بركاتِها وسقاها

* * *

فرسان ديني أنتمُ المثلُ الذي ... بلغ المدى بعد المدى فتناهى
علّمتمُ الناس الجهادَ فأقبلوا ... ملءِ الحوادث يدفعون أذاها
أمّا الفداء فقد قضيتم حَقَّهُ ... وجعلتموه شريعة نرضاها
من رام تفسير الحياة لقومه ... فدَم الشهيد يُبينُ عن معناها
ما أكرمَ الأبطال يومَ تفيَّئوا ... ظلل المنايا يبتغُون جناها

راحوا من الدم في مطارِف[1] أشرقت ... حُمْرُ الجراح بها فكَنَّ حِلاهَا
لو أنهم نُشروا رأيت كُلومَهم ... تَدْمَى كأنك في القتال تراها
هُمْ عند ربك يُرزَقون فَحيِّهم ... وصِفِ الحياة لأنفسٍ تهواها

❑ **أمَّا واقعنا.. ويا بُؤْسَ واقعنا، فكما يقول الشاعر:**

يا بلادًا عزَّ الفوارسُ فيها ... وتخلَّى عَنْ سَاحِهَا الضِّرغامُ

وبكى الإِسْلامُ لغَيْبة فُرْسانِهِ، وعلا الصوتُ «**وامثنَّاه**».. ولا مثنَّى للخيل، «**وامعتصماهُ**».

رُبَّ وامعتصماهُ انْطَلَقَتْ ... مِلْءَ أَفْواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
صادفتْ أسماعَنا لكنَّها ... لمْ تصادفْ نَخْوةَ المُعْتصمِ

وهذا حالُنا تصوِّرُه هذه القصيدة:

كسَرْنا قوسَ حمزةَ عن جَهَالةْ ... وَحَطَّمْنَا بِلا وَعْي نِبَالَهْ
فمزَّقنَا العدوُّ ولا جهادٌ ... وشرَّدَنا الطُّغَاةُ ولا عَدالهْ
وباتتْ أُمَّةُ الإسلامِ حَيْرَى ... وبات رُعَاتها في شَرِّ حالهْ
فلا الصدِّيقُ يرعاها بحزْمٍ ... ولا الفاروقُ يُورِثُها فِعَالَهْ
ولا عُثمانُ يمنحُها عطاءً ... ويُرْخِصُ في سبيلِ اللهِ مالَهْ
ولا سَيْفٌ صقيلٌ من عَلِيٍّ ... يُفيِّئُنَا إلى «عَدَنٍ» ظِلالَهْ
ولا زيدٌ يقود الجَمْعَ فيها ... لحَرْبٍ أو يُعِدُّ لها رجالَهْ
ولا القعقاعُ يهتفُ بالسَّرايا ... فتخشى ساحةُ الهَيجا نِزالَهْ
ولا حطينُ يصنعُها صلاحٌ ... طوى الجبناءُ في خَوْرٍ هِلالَهْ
سرى صوتُ المؤذنِ في حمانا ... وقد فقدتْ مآذِنُنا بلالَهْ
وأَقْصانا يُدنِّسُه يهودٌ ... ويَعْبَثُ في مَرابعه حُثَالَهْ
نشُد رحالنا شرقًا وغربًا ... وأولى أن نشد له رحالهْ

(١) جمع مطرف؛ وهو: الرداء المعلم.

وشعب ضائعٌ في كلِّ أرضٍ   وجُلُّ مناةُ أَنْ يُرضي «جَمَالَهْ»
وراعي الشعب سجَّانٌ غشومٌ   وسفَّاحٌ يَسِنُّ له نِصالَه
وحادي الركب بومٌ أو غرابٌ   وقد قادَ الجموعَ «أبو رِغالَهْ»
يُرمرمُ من فتاتِ الكفرِ قوتًا   ويلعَقُ من كئوسهم الثُّمالَهْ
يقبّل راحةَ الطاغوتِ حينًا   ويلثمُ دونما خجلٍ نِعَالَهْ
فيرْتعُ في مرابعنا دخيلٌ   يُطارِد في حضارتنا الأصالَهْ
إذا سألَ الزعيمُ مزيدَ ذُلٍّ   لشعب لا يَرُدُّ لَهُ سُؤالَهْ
وإن نَصَحَ الحكيمُ فلا سميعٌ   ولا قلبٌ يَعِي صِدْقَ المَقالَهْ
وَهَمُّ الشعبِ ثوبٌ أو رغيفٌ   و«صَكٌّ» من رصيدٍ أو «حوالَهْ»
وألقاب يتيه بِهَا قرودٌ   وليس لها مَعَانٍ أو دلاَلَهْ
«سعادته» شَقَاءٌ في شقاءٍ   وقد رَفعتْ «معاليه» السَّفَالَهْ
«سيادتُه» يقيمُ على هوانٍ   «سماحتهُ» يعيش مع الضلالَهْ
«فخامته» هزيلٌ ليس يدري   بأن النَّاسَ قد فضحوا هُزالَهْ
و«دولتُهُ» يعيش مع الأماني   ويخشى أن تُفاجِئَه الإقالَهْ
مَضَغْنا قلبَ حَمْزَةَ وانثنينا   نذوقُ المرَّ أَوْ نجني وَبَالَهْ
مُؤامرةٌ يُدَبِّرُهَا يَهودٌ   ويرعاها عميلٌ لا أبَا لَهُ[1]

---

(١) قصيدة «ضلال وحبال» من ديوان «في رحاب الأقصى»، ليوسف العظم ص (٢٠٧ - ٢١١) «المكتب الإسلامي».

قادة الرسول ﷺ
سادات الأبطال والشجعان

أثمن وأغلى وأعلى ما أنجبته العسكرية الإسلامية...

شجعان أفذاذ تربوا على عين رسول اللَّه ﷺ ليخرجوا إلى الدنيا منارات شاهقة في البطولة والبذل والفداء والفروسية ونكران الذات متحلين بالعقيدة الصافية عقيدة الصحابة...

هؤلاء الذين ائتمنهم النبي ﷺ على قيادة جيش المسلمين في السرايا...

ما أنجبت أرض الجزيرة أكفأ منهم في ميادين الوغى وساحات الطعن والطعان.

كان النبي ﷺ هو قائد أصحابه المجاهدين في الغزوات، وهي ثمان وعشرون غزوة، نشب القتال في تسع غزوات منها بين المسلمين وأعدائهم، وحقَّقت تسع عشرة غزوة من غزواته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أهدافها المرسومة بدون قتال.

واستغرق جهاد النبي ﷺ في غزواته كافةً سبع سنين من سِنِيٍّ ما بعد الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة؛ فقد خرج إلى غزوة «**وَدَّان**»، وهي أول غزوة قادها النبي ﷺ في شهر صفر من السنة الثانية الهجرية، وكانت غزوة «**تبُوك**» وهي آخر غزواته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في رَجَب من السنة التاسعة الهجرية.

ولكن جهاد النبي ﷺ لم يقتصر على الغزوات فحسب؛ بل شمل الغزوات والسرايا أيضًا.

والفرق بين الغزوة والسرية: هو أن الغزوة تكون بقيادة النبي ﷺ، أما السرية فتكون بقيادة أحد أصحابه ـ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى.

وكان عدد سرايا النبي ﷺ سبعًا وأربعين سرية، وفي رواية أنه بعث عددًا أكثر من السرايا، والأول أصح؛ لإجماع أكثر المصادر المعتمد عليها، وقد استغرق بعث هذه السرايا تسع سنين؛ ابتداءً من سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه التي بعثها إلى

«**الْعِيص**» في شهر رمضان من السنة الأولى الهجرية، وانتهاءً بسرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي بعثها إلى بلاد «**مَذْحج**» في اليمن في شهر رمضان من السنة العاشرة الهجرية.

وكان من بعض ثمرات جهاد سبع سنين في الغزوات وتسع سنين في السرايا: توحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في التاريخ تحت لواء الإسلام، وكان عدد قادة سرايا النبي ﷺ سبعًا وثلاثين قائدًا من الصحابة، قادوا سبعًا وأربعين سرية من سرايا النبي ﷺ؛ منهم مَنْ قاد سرية واحدة، ومنهم مَنْ قاد أكثر من سرية واحدة في أوقات مختلفة من عمر الزمن.

وهذه أسماء هؤلاء القادة الأبرار .. أشجع الفرسان.. قادة النبي ﷺ:

قادة النبي ﷺ	
١ـ حمزة بن عبد المطلب.	٢ـ عُبَيْدَةُ بن الحارث بن المُطلب.
٣ـ عبدالله بن جَحْش الأسدي.	٤ـ عُمَيْر بن عَدِي الخَطْمِي الأوسِي.
٥ـ سالم بن عُمَيْر الأوسِي.	٦ـ محمد بن مَسْلَمَة الأوسِي الأنصاري.
٧ـ سعد بن أبي وقاص[1].	٨ـ زيد بن حارثة الكلبي.
٩ـ عبدالله بن أُنَيْس الجُهَني.	١٠ـ عبدالله بن جُبَيْر الأوسِي الأنصاري.
١١ـ أبو سَلَمَةَ بن عبد الأسد المخزومي.	١٢ـ المنذر بن عمرو الساعِدي الخزرجي الأنصاري.
١٣ـ مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوِي.	١٤ـ عُكَّاشة بن مِحْصَن الأَسدي.

(١) مَرَّ ذكره سابقًا.

١٥- أبو عُبَيْدَةَ بن الجَراح[١].	١٦- عبدالرحمن بن عَوْف[٢].
١٧- علي بن أبي طالب[٣].	١٨- عبداللَّه بن عتيك الخزرجي.
١٩- كرز بن جابر الفهري.	٢٠- عمرو بن أمية الضمري.
٢١- عمر بن الخطاب[٤].	٢٢- أبو بكر الصديق[٥].
٢٣- بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي.	٢٤- غالب بن عبداللَّه الليثي.
٢٥- ابن أبي العوجاء السلمي.	٢٦- شجاع بن وهب الأسدي.
٢٧- كعب بن عمير الغفاري.	٢٨- جعفر بن أبي طالب.
٢٩- أبو قتادة بن ربعي الأنصاري.	٣٠- خالد بن الوليد.
٣١- عمرو بن العاص.	٣٢- سعد بن زيد الأوسي.
٣٣- الطفيل بن عمرو الدوسي.	٣٤- عيينة بن حصن الفزاري.
٣٥- قطبة بن عامر الخزرجي.	٣٦- الضحاك بن سفيان الكلابي.
٣٧- علقمة بن مجزز المدلجي.	

وسنضيف إليهم قائدًا آخرَ هو عبداللَّه بن جُبير الأوسي الأنصاري رضي الله عنه، الذي كان قائد الرماة في غزوة «**أُحُد**» فأبلى في تلك الغزوة بلاءً عظيمًا، وثبت في

(١) سبق ذكره.
(٢) ذكرناه من قبل.
(٣) تكلمنا عنه.
(٤) سبق ذكره.
(٥) ذكرناه من قبل.

موضعه ثباتَ الراسيات، وضرب أروع المثل لجيله ولأجيال المسلمين المتعاقبة من بعد، في الشجاعة والإقدام والطاعة والثبات والتضحية والفداء، فآثرتُ أن أضيف سيرته العَطِرَة إلى سِيرِ قادة النبي ﷺ؛ إكبارًا لمزاياه القيادية الفذة، وتقديرًا لسجاياه البطولية النادرة، وليكون أسوة حسنة لكل قائد وجندي من قادة المسلمين وجنودهم في مزاياه وسجاياه قائدًا وجنديًّا، ثم إن النبي ﷺ هو الذي اختاره في غزوة «**أُحُد**» ليقود الرماة من الصحابة، وهم أهم قسم من أقسام المجاهدين في غزوة «**أُحُد**»؛ لأنهم كانوا يحمون ظهور المسلمين من أعدائهم المشركين، وهي أخطر مهمة من المهمات في تلك الغزوة، في ذلك الموقف العصيب.

وليس عبدالله بن جُبَيْرٍ رضي الله عنه من قادة سرايا النبي ﷺ، ولكنه كان قائدَ قسمٍ تعبويٍّ من أهم أقسام غزوة «**أُحُد**» التعبوية، وليست السرايا بأهم في قيادتها من قيادة «**الرماة**» في غزوة «**أُحُد**»، وليس ابن جُبير بأقل من قادة السرايا كفاية واقْتِدَارًا، وَقَدْرًا وَجَلَالًا.

لقد كانت ثمرات الجهاد في الغزوات والسرايا النبوية ثمرات يانعةً حقًّا، وكان لقيادة النبي ﷺ آثارٌ حاسمةٌ في نتائج غزواته وسراياه:

بصورة مباشرة في غزواته؛ لأنها بقيادته رسولًا قائدًا.

وبصورة غير مباشرة في سراياه؛ لأنها بقيادة مَنْ أَحْسَنَ اختيارهم؛ فَوَضَعَ القائدَ المناسبَ في القيادة المناسبة.

واختيارُ الرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لقادة سراياه بطريقته الفذة وأسلوبه النادر في اختيار الرجل المناسب للواجب المناسب وفي حرصه على توخي الكمال في المسئول المختار لفائدة المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم درسٌ ينبغي أن نتعلمه حكامًا ومحكومين، إذا أردنا أن ننتصر في الحرب ونتفوق بالنجاح في السلام؛ فقد عز النصر على العرب والمسلمين وعز النجاح، وأصبحوا أهل الهزائم والإخفاق منذ تخلو عن بناء الإنسان العربي المسلم، وتفرغوا لهدم هذا

الإنسان تفرغًا كاملًا، ولم يحرصوا على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب، وَوَسَّدُوا الأمرَ لغير أهله؛ فكان الخراب والدمار.

لقد كان رسول اللَّه ﷺ رسولًا مؤيدًا بالوحي، وكان لهذا التأييد أثره الحاسم في توفيقه قائدًا وجنديًّا، وهذا التأييد الإلهي لا يمنع أن تكون لكفايته الشخصية أثر في هذه القيادات، وقد قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ فمن ضمن كفايات النبي ﷺ الفذة قابليته النادرة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب.

وهذه القابلية التي التزم بها التزامًا حازمًا هي من أهم الأسباب الدنيوية لانتصاره في الحرب.

كان ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ يعرف أصحابه معرفة دقيقة مفصلة، وكان يعرف ما يتميز به كل صحابي من «**مزايا**» تفيد المجتمع الإسلامي الجديد؛ فكان يستعمل هذه المزايا استعمالًا كاملًا لخير هذا المجتمع وخدمته، وللمصلحة العامة للمسلمين.

وكان ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بهذا الأسلوب الرائع الذي التزم به في كل حياته المباركة يشيد بالمزايا، وينتفع بها لخير المسلمين، ويغض الطرف عن النواقص، ويقومها بالحسنى.

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يبقي المزايا في أصحابه طاقات معطلة؛ بل كان ينتفع بها لمصلحة المجتمع الجديد؛ وهذا يجعل طاقات أصحابه المتميزة تتضافر لشد أزر الأُمة وتقويتها ودفعها نحو النصر والبناء.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعرف كفايات أصحابه وقابلياتهم حق المعرفة؛ فلم تُغْمَط كفاية، ولم يُهْمَل صاحب كفاية، وَأُضِيفَتِ التجربة العملية على تلك الكفايات؛ فَصُقلت ولمعت.

ووضع كل رجل من ذوي الكفايات المتميزة في المكان المناسب لكفايته.

وكان الشرطان الرئيسان اللذان التزم بهما النبي ﷺ في توليه القادة هما: الإسلام والكفاية.

أما العقيدة الراسخة فَشَرْطُ أساسٍ لتولية القيادة؛ لكي يبرز القائد في عمله، ويكون إنتاجه بعيدًا عن الشوائب، قريبًا من الكمال؛ لأن مثل هذا القائد العقيدي يعمل على هدى وبصيرة، معتمدًا على عقيدته وكفايته، وحتى يعمل القائد في خدمة عقيدته ومجتمعه أكثر مما يعمل لنفسه ولعائلته، وهذا هو سر تفوق أهل العقيدة في أعمالهم على مَن لا عقيدة لهم، أو لهم عقيدة فاسدة تجعل المرء يحرص على العمل لنفسه أولًا، ولا يعمل لمجتمعه والمصلحة العامة.

أما الكفاية العالية فَشَرْطُ أساسٍ لتولية القيادة؛ حتى يبرز القائد في أداء واجباته، ويكون إنتاجه بعيدًا عن الشوائب قريبًا من الكمال؛ لأنه ذو كفاية يعمل بِهَدْيِ كفايته معتمدًا عليها، ولا يعمل في فوضى وتخبط؛ لأنه ذو كفاية تصونه من الخطإ، وتقوده إلى الصواب، وتبعده عن الارتجال، وتقربه من العمل المدروس.

لقد كان ثلاثون من قادة النبي ﷺ من الذين أسلموا قديمًا؛ منهم واحد وعشرون قائدًا من البدريين الذين شهدوا بَدْرًا تحت لواء الرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومن دراسة سِيَرِ قادة سرايا النبي ﷺ يظهر لنا أن غالبيتهم العظمى من المهاجرين والأنصار من السابقين الأولين؛ فقد كان ثمانون بالمئة (٨٠٪) منهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ـ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ ـ، وكان ستون بالمئة (٦٠٪) منهم بدريين؛ فلأهل بدر فضل عظيم على غيرهم من الصحابة.

وكان لا يؤمر أهل الوَبَر على أهل الحَضَر؛ أي أنه لا يستعمل أعرابيًا من أهل البادية على عربي من أهل المدن؛ فقد كان خمسة وثلاثون من قادته من أهل الحَضَر، واثنان من الأعراب؛ هما: عُيَيْنَة بن حِصْن الذي تطوع للنهوض بقيادته، والضحاك بن سفيان الكلاني الذي كان من أشجع الشجعان، وكان يُعد بمئة

فارس؛ كما أنه مكث ردحًا طويلًا في المدينة إلى جانب النبي ﷺ سيافًا له، وقد وَلَّاهُ على قومه في ظروف معينة؛ ذلك لأن أهل الحَضَر أعرف بفنون القتال من أهل الوَبَر، وأكثر صبرًا على معاناة الحرب، وأقدر على تحمل أعباء القتال.

❏ **والخلاصة:**

هي أن الشرطين الرئيسين لتولية القادة؛ هما: الإسلام أولًا: والكفاية ثانيًا.

وهذان الشرطان هما القاعدة للتولية بدون استثناء.

أما الشروط الأخرى: السابقون الأولون، وأهل بَدْر، وأهل الحَضَر، فهي قواعد لا تخلو من استثناءات عند الضرورة القصوى.

وقد طبق أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب هذه الشروط نصًّا وروحًا في تولية القادة، ولم يحيدا عن هذه الشروط أبدًا.

وقد استطاع النبي ﷺ والشيخان أبو بكر وعمر من بعده بتطبيق هذه الشروط في تولية القادة أن يجعلوا الصفوة المختارة من الأمة عقيدة وكفاية يقودون الأمة إلى النصر في الحرب وإلى التفوق في النجاح في السلام.

وما أسعد الأمة التي يقودها القمم من رجالها دينًا واقتدارًا!!

إن استفادة النبي ﷺ وخليفتيه من مزايا كل مسلم واستقطاب المزايا لبناء المجتمع الإسلامي ـ فلا يضعون لبنة إلا في المكان اللائق بها والمناسب لها ـ جَعَلَ هذا البناء يرتفع ويتعالى سليمًا مرصوصًا، يشد بعضه بعضًا.

وكان اختيار القائد المناسب للعمل المناسب سببًا من أسباب انتصار النبي ﷺ وخليفتيه وتوفيقهم عسكريًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وفي أيام الحرب والسلام.

ولما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، خَلَّفَ في المجتمع الإسلامي قادةً وأمراء وولاة وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدثين، قادوا الأمة الإسلامية عسكريًّا وسياسيًّا

وإداريًّا وفكريًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا إلى النصر والنجاح والخير، وإلى السؤدد والمجد والتوفيق، وإلى طريق الحق وسبيل الرشاد.

وكان أولئك القادة هم من خريجي مدرسة الرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

وأسلوب اختيار القادة هو الدرس الحيوي الذي يجب أن يتعلمه العرب والمسلمون في هذه الأيام وفي المستقبل أيضًا، قادة وشعوبًا، وحكامًا ومحكومين؛ أن يستفيدوا من الكفايات ولا يعطلوها، وأن يضعوا الإنسان المناسب في الموقع المناسب.

وليس كل حاكم يستطيع أن يبني الكفايات، ويستقطبها، ويضعها في المكان المناسب.

لقد كان النبي ﷺ قمة القمم نسيانًا لذاته وتفكيرًا في صالح المسلمين وإخلاصًا لمصالحهم العُليا.

لذلك خَرَّجَ في مدرسته القمم من جميع الكفايات والقابليات لمختلف المناصب والواجبات.

❑ حقائق أغرب من كل خيال.. وشذى وعبق العطور يفوح من سير القادة الرجال

لقد تمتع قادة الرسول ﷺ بكفاءات قيادية متميزة؛ وأقوى الأدلة على هذا تلك الانتصارات الباهرة على أعداء الإسلام المتفوقين على المسلمين عَدَدًا وَعُدَّة في كل معركة خاضوها.

لقد كانت الشجاعة الفائقة هي القاسم المشترك بين مزايا قادة النبي ﷺ، وهي إحدى المزايا الواجب توفرها في الكفاية القيادية، والدليل القاطع على الشجاعة الفائقة لقادة الرسول ﷺ، حقيقة فريدة ما جَادَ التاريخ بها أَبَدًا إلا لهؤلاء القادة قادة الجيل القرآني الفريد؛ هذه الحقيقة أن اثنين وعشرين قائدًا منهم قضى نحبه

شهيدًا، وخمسة عشر قائدًا منهم مات على فراشه؛ أي أن ستين بالمئة (٦٠٪) من القادة استُشهدوا، وأربعين بالمئة (٤٠٪) منهم ماتوا خارج ساحة القتال.

ولا أعرف نسبةً عاليةً من الشهداء في القادة كنسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ في تاريخ الحروب القديمة والحديثة؛ فالخسائر في القادة اعتياديًّا أقل بكثير من الخسائر في غير القادة من الجنود وضباط الصف والضباط، وقد لا تكون واحدًا بالمئة (١٪) في أحسن الأحوال وفي أعلى تقدير.

والقول بأن هذه النسبة العالية في الشهداء بين قادة النبي ﷺ سببها شجاعتهم الفائقة صواب ومنطقي وسليم، ولكنه لا يقرر الواقع كاملًا، والواقع الكامل أن سببها هي الشجاعة الفائقة والإيمان العميق، وليس كالإيمان العميق حافز من حوافز الإقدام والاستقتال في طلب الشهادة، تخلصًا من الحياة المؤقتة للأحياء إلى الحياة الخالدة للشهداء.

والمبدأ الذي جاء به الإسلام في اختصاص الشهداء بالحياة الباقية مبدأ لا مثيل له في تعاليم القتال التي جاءت بها الشرائع السماوية الأخرى، ولـها أنه مبدأ فريد في جميع تعاليم القتال الشرقية والغربية، تنفرد به العسكرية الإسلامية، لم تُسبق إليه، ولم تُنافسها به عسكرية أخرى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

❑ **وهذي مصارع القادة الرجال يفوح منها شذا الجنان ومقاعد الصدق عند المليك الرحمن:**

هذي رجالك يا محمد فَاسْقِهَا من خير ما تسقى السيوف وتنضح
فَجِّرْ ينابيع الفتوح فَرِيَّهَا ما تستبيح من البلاد وتفتح

	القائد	قدمه في الإسلام	مصرعه	مكان مصرعه	تاريخ مصرعه	
١	حمزة بن عبد المطلب	قديم الإسلام ـ بدري	شهيد	أحد	٣	٦٢٤
٢	عبيدة بن الحارث بن المطلب	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	بدر	٢	٦٢٣
٣	عبد الله بن جَحْش الأَسَدِيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	أُحُد	٣	٦٢٤
٤	عُمَيْر بن عَدِيّ الخَطْمِيّ الأوسّي	قديم الإسلام	شهيد	أحد	٣	٦٢٤
٥	سالم بن عُمَيْر الأوسي	قديم الإسلام ـ بدريّ	مات على فراشه	المدينة	على عهد معاوية ابن سفيان	
٦	محمد بن مَسْلَمَة الأوسيّ الأنصاري	قديم الإسلام ـ بدري	مات على فراشه	المدينة	٤٣	٦٦٣
٧	سعد بن أبي وَقّاص	قديم الإسلام ـ بدريّ	مات على فراشه	المدينة	٥٥	٦٧٥
٨	زيد بن حارثة الكلبِيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	مُؤْتَة	٨	٦٢٩
٩	عبد الله أُنَيس الجُهَنِيّ	قديم الإسلام	مات على فراشه	غَزَّة	٥٤	٦٧٣
١٠	عبد الله بن خُبَيْر الأوسي الأنصاريّ	قديم الأسلام ـ بدريّ	شهيد	أُحُد	٣	٦٢٤
١١	أبو سلَمَة بن عبد الأسد المخزوميّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	المدينة	٤	٦٢٥
١٢	المنذر بن عمرو السّاعدي الخزرجيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	بئر مَعُوْنَة	٤	٦٢٥
١٣	مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	الرَّجِيْع	٤	٦٢٥
١٤	عُكّاشة بن مِحْصَن الأَسَدِيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	بُزَاخَة	١١	٦٣٢

١٥	أبو عُبَيْدة بن الجَرَّاح[1]	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	عَمْواس	١٨	٦٣٩
١٦	عبد الرحمن بن عوف	قديم الإسلام ـ بدريّ	مات على فراشه	المدينة	٣٢	٦٥٢
١٧	علي بن أبي طالب	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	الكوفة	٤٠	٦٦٠
١٨	عبد الله بن عَتِيك الخزرجيّ	قديم الإسلام	شهيد	اليمامة	١١	٦٣٢
١٩	عبد الله بن رَوَاحة الخزرجيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	مؤْتَة	٨	٦٢٩
٢٠	كُرْز بن جابر الفِهْرِيّ	أسلم بعد الهجرة	شهيد	مكة	٨	٦٢٩
٢١	عَمْرُو بن أميَّة الضَّمْريّ	أسلم بعد غزوة أُحُد	مات على فراشه	المدينة	على عهد معاوية ابن أبي سفيان	
٢٢	عمر الخطّاب	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	المدينة	٢٣	٦٤٣
٢٣	أبو بكر الصدّيق	قديم الإسلام ـ بدري	مات على فراشه	المدينة	١٣	٦٣٤
٢٤	بشير بن سعد الخزرجيّ	قديم الإسلام ـ بدري	شهيد	عين التمر	١٢	٦٣٣
٢٥	غالب بن عبد الله اللَّيْثيّ	قديم الإسلام	مات على فراشه	-	-	-
٢٦	ابن أبي العَوْجاء السُّلَميّ	أسلم قبل فتح مكّة	شهيد	ديار بني سُلَيْم	٧	٦٢٨
٢٧	شُجاع بن وَهْب الأسَديّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	شهيد	اليمامة	١١	٦٣٢
٢٨	كَعْب بن عُمَيْر الغِفَارِيّ	قديم الإسلام	شهيد	ذات أطْلَاح	٨	٦٢٩
٢٩	جعفر بن أبي طالب	قديم الإسلام	شهيد	مُؤْتَة	٨	٦٢٩
٣٠	أبو قَتَادَة بن رِبْعِيّ الأنصاريّ	قديم الإسلام	مات على فراشه	المدينة	٥٤	٦٧٣
٣١	خالد بن الوليد	أسلم قبل فتح مكّة	مات على فراشه	حمص	٢١	٦٤١
٣٢	عمرو بن العاص	اسم قبل فتح مكّة	مات على فراشه	القاهرة	٤٣	٦٦٤

(١) مات أبو عبيدة ﷺ شهيدًا بالطاعون وإن مات على فراشه؛ وبهذا يصبح عدد القادة الشهداء ثلاثًا وعشرين قائدًا، وأربعة عشر قائدًا ماتوا على فُرُشِهِمْ.

٣٣	سعد بن زيد الأوسيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	مات على فراشه	-	-	-
٣٤	الطُّفيل بن عمرو الدَّوْسيّ	قديم الإسلام	شهيد	اليمامة	١١	٦٣٢
٣٥	عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَارِيّ	أسلم قبل فتح مكّة	مات على فراشه	المدينة	على عهد عثمان بن عفان	
٣٦	قُطْبَة بن عامِرْ الخزرجيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	مات على فراشه	المدينة	على عهد عثمان بن عفان	
٣٧	الضَّحَّاك بن سُفيان الكلانيّ	قديم الإسلام	شهيد	بلاد بني سُلَيْم	١١	٦٣٢
٣٨	عَلْقمة بن مُجزِّز المُدْلِجيّ	أسلم قبل فتح مكّة	شهيد	بلاد الحبشة	٢٠	٦٤٠

كما أن ارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ يدل على طلبهم للشهادة، وحرصهم على الاستشهاد؛ فكانت الشهادة من أغلى أماني المجاهدين الصادقين.

وقادة النبي ﷺ هم سادات المجاهدين الصادقين.

كما أن ارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ يدل على أنهم كانوا يقودون رجالهم من «**الأمام**»، يقولون لهم: اتبعونا. ويضربون لهم في الشجاعة والإقدام أروع الأمثال، وأنهم كانوا يستأثرون دون رجالهم بمواطن الخطر، ويؤثرونهم بمواطن الأمن، وهكذا يكون القادة الذين يحوزون على ثقة رجالهم عن جدارة واستحقاق.

ودليل على أن أولئك القادة لم يكونوا يقودون رجالهم من «**الخلف**»، يقولون لرجالهم: تقدموا. ثم يبقون قابعين في مواقع أمينة، كما يفعل القادة الذين يؤثرون مصالحهم الذاتية على مصالح رجالهم ومصلحة أمتهم العليا.

لقد كان شعارهم في الجهاد: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] النصر أو الشهادة.

تلك هي الحقيقة الأولى التي تظهر من دراسة السِّيَرِ التفصيلية لقادة النبي ﷺ؛ وهي: أن نسبة الشهداء منهم كانت ستين بالمئة (٦٠٪)، وهي أعلى نسبة مئوية لاستشهاد القادة في تاريخ الحرب القديم والحديث؛ وهذا برهان على صدق حديث النبي ﷺ: «**خير الناس قَرْني ثم الذين يَلُونَهُمْ...**» الحديث[١]، برهان من الناحية العسكرية، وبإمكان كل مختص أن يدلل حسب اختصاصه على صدق هذا الحديث الشريف.

لا تقعدن لذكرنا في ذكرهم ..

نعم!!

لا تقعدن لذكرنا في ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعدِ

ورحم اللَّه من قال:

ألم تر أن السيف ينقُص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

هل يُقَاسُ من وضعوا أكاليل الفخار على جبين أمتهم وساقوا لأمتهم الأمجاد تلو الأمجاد التي هي - واللَّه - أغرب من الخيال .. هل يُقَاسُ هؤلاء بمن وضعوا أمتهم في الوحل وساقوا لها كل خزي وَهُزِمُوا وَادَّعوا الانتصارات في (٦٧) وحياتهم.

في السِّلْم كأس وسيجارٌ وغانية وساحة الحرب في الهيجا إذاعاتُ[٢]

وشرعة اللّه في القرآن نَهْجُرُهَا وشرعة الخصم تلمودٌ وتوراةُ

هل يُتَصَوَّرُ أن يقودَ الأمةَ أعداؤها؟!

هل يُصَدِّقُ عاقل أو يَمُرُّ في خيال أن تعطي الأمةُ أَزِمَّتَهَا وقيادتَهَا لـ«**جلوب**» الإنجليزي تحت إمرة عاهل الأردن الملك عبداللَّه بن الشريف حسين الهاشمي؟!

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد.

(٢) لسان إعلامهم أحمد سعيد كبير المدرسة الغوغائية التي يقول قائلها:

وزَمِّر مع كل قردِ حتى ينتهي سوق القرود

يا شام أين هما عينا معاوية وأين من زاحموا بالمنكب الشهبا
فقبر خالد في حمصٍ نلامسُهُ فيرجف القبر من زُوَّارِهِ غضبا
فربَّ حي تراب القبر مسكنه ورب مَيْتٍ على أقدامه انتصبا
يا ابن الوليد ألا سيف نؤجّره فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا
سَقَوْا فلسطين أحلامًا مُلونة وأودعوها سخيف القول والخُطَبَا
وطالعوا كُتُب التاريخ واقتنعوا متى البنادق كانت تسكُنُ الكتبا
وخلفوا القدس فوق الوحل عارية تبيح عزة نهديها لمن رغبا

❑ وحقيقة ثانية أعجب من أختها نهديها للجبناء: احرص على الموت تُوهب لك الحياة:

الحقيقة الثانية أعجب من الحقيقة الأولى وأغرب، وهي أن قادة النبي ﷺ المتميزين بالشجاعة «**الفائقة**» استُشهدوا في ساحة الجهاد، والقادة المتميزين منهم بالشجاعة «**النادرة**» ماتوا في بيوتهم على فراشهم.

وبتعبير أوضح: إن القادة الذين ماتوا في بيوتهم بآجالهم كانوا أكثر شجاعة من القادة الذين استُشهدوا في ساحة الجهاد.

ومن المعلوم أن الشجاعة من المزايا المعنوية في الإنسان؛ فالشجاع والأشجع من الأمور التي تثبت بالقتال، وقد كانت بطولات قادة النبي ﷺ الذين ماتوا في بيوتهم بآجالهم والتي أثبتوها بالقتال رفيعة المستوى متميزة عن سائر البطولات؛ لذلك وصفتُ شجاعة قادة النبي ﷺ بأنها شجاعة فائقة، ولكنني وصفت شجاعة الذين قضوا نحبهم في بيوتهم بآجالهم بأنها شجاعة نادرة؛ تمييزًا لدرجتها الرفيعة على درجة الشجاعة الفائقة؛ فكل شجاعة نادرة شجاعة فائقة، ولكن ليس كل شجاعة فائقة شجاعة نادرة.

وهدفي من إبراز الحقيقة الثانية هو لإثبات أن الجبن لا يُحيِي، والشجاعة لا تُميت، وصدق الله العظيم: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

لقد مات خمسة عشر قائدًا من قادة النبي ﷺ - كما ذكرنا - في بيوتهم وبآجالهم بعيدًا عن ساحة الجهاد، مع أنهم كانوا جميعًا بدون استثناء من المتميزين بالشجاعة النادرة، وكانوا جميعًا يتمنون من أعماق قلوبهم أن يُسْتَشْهَدُوا في ساحة الجهاد، ولكن أمانيهم لم تتحقق؛ فماتوا وفي أنفسهم شيءٌ من تخلفهم بدون إرادتهم عن تحقيق أعز أمانيهم في الحياة.

وسأضرب الأمثال على شجاعة أولئك القادة النادرة؛ بالنسبة لأقدميتهم في القيادة؛ حيث سنجد أن الشجاع اسْتُشْهِدَ، والأشجع منه مات حتف أنفه[١].

● فقد مات سالم بن عُمَيْرٍ الأنصاري الأوسي على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شوال من السنة الثانية الهجرية، فتطوع لقتل أبي عَفَك، وقتله وهو بين قومه وعشيرته وأهله، وكان أبو عفك يحرض على عداوة النبي ﷺ والمسلمين، وَيَنْظِمُ الشعر في هجائهم؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ لي بهذا الخبيث؟!**»، فتطوع سالم من بين الأوس والخزرج والمسلمين لقتله، ونفذ وعده الذي قطعه على نفسه.

● ومات محمد بن مَسْلَمَةَ الأنصاري الأوسي على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة الهجرية؛ فكان ممن ثبت مع رسول اللَّه ﷺ يوم «**أُحُد**»، وقد ثبت مع النبي ﷺ أربعة عشر رجلًا: سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، كان أحدهم ابنَ مَسْلَمَة.

وكان يتولى قيادة حرس النبي ﷺ في غزواته، وهو الذي قَتَلَ اليهودي كعب بن الأشرف عدو الإسلام والمسلمين، وقد تطوع لقتله؛ فقتله بين قومه وعشيرته وأهله، وانتصر على حشود المشركين بثلاثين من رجاله فقط، وكان من الذين لا يخشون في الحق لومة لائم، واعتزل الفتنة الكبرى؛ خوفًا على دينه.

---

(١) وهذا يجري مجرى الغالب؛ فقد يشذ فرد أو اثنان؛ كحمزة ﷺ.

● ومات سعد بن أبي وقاص حتف أنفه، وقد تولى القيادة لأول مرة في عهد النبي ﷺ، ثم أصبح من قادة الفتح الإسلامي المشـهورين؛ فتولى لـ«**عمر بن الخطاب** ﵁» قيادةَ معركة القادسية التي فتحت أبواب العراق للمسلمين، وقد كان أول مَنْ رمى بسهم في الإسلام، وَثَبَتَ مع النبي ﷺ يوم «**أُحُد**»، ووقف إلى جانبه يرمي بالنبل دونه، والنبي ﷺ يناوله النبل، ويترصد له إصاباته الدقيقة قائلًا: «**ارْم فداك أبي وأُمي**»، وكان علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يقول: «ما سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يفدي أحدًا بأبويه إلا سعدًا».

ولعل من نافلة القول إثباتَ أن سعدًا كان يتحلى بالشجاعة النادرة.

● ومات عبداللَّه بن أُنَيْس الجُهَيْني الأنصاري على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر المحرم من السنة الرابعة الهجرية، وهو الذي تولى قتل اليهودي سَلَّام بن أبي الحُقَيْق أحد أعداء النبي ﷺ والمسلمين؛ حيث تم قتله بين قومه وأهله في «**خَيْبَر**»؛ كما تَولى قَتْلَ اليهودي البُسَيْر بن رِزَام الذي كان بـ«**خَيْبَر**» يجمع غَطَفَان؛ لغزو رسول اللَّه ﷺ لعداوته الشديدة للإسلام والمسلمين.

وابن أُنَيْس هو الذي قَتَلَ وحده خالد بن سُفْيان بن نُبَيْح الْهُذَلِيّ، وكان من سادات قومه يجمع الجموع لرسول اللَّه ﷺ؛ ليغزوه؛ فقتله ابن أُنَيْس بين قومه وحشوده التي حشدها لحرب الإسلام والمسلمين.

● ومات أبو عُبَيْدَةَ بن الجراح على فراشه بالطاعون سنة ثماني عشرة الهجرية، والذي يموت بالطاعون شهيد، ولكنني لم أجعله مع الشهداء الذين استُشهدوا؛ لأنه توفي خارج ميدان الجهاد، وقد كان منهاجي في إحصاء الشهداء منهاجًا واضحَ المعالم؛ هو درج الذين يستشهدون في ساحة الجهاد، وقد تولى أبو عُبَيْدة القيادة لأول مرة في شهر ربيع الآخر من السنة السادسة الهجرية، وشهد غزوة «**بَدْر**» الحاسمة، وَقَتَلَ أبَاهُ في تلك الغزوة، وكان مع النفر الذين ثبتوا يوم «**أُحُد**» مع رسول اللَّه ﷺ، ودافع عنه يومئذ دفاع الأبطال.

وتولى قيادة عدة سرايا على عهد النبي ﷺ، كان من جنوده في بعضها الشيخان: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -. فلما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، أصبح أبو عبيدة من أكبر قادة الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطاب، وهو فاتح بلاد الشام والجزيرة.

وأراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الوباء بعد اشتداده سنة ثماني عشرة الهجرية، ولكن أبا عبيدة كتب إلى عمر: «... **لا أجد بنفسي رغبة عن جند المسلمين، فلست أريد فراقهم...**»، وبقي مع جنوده حتى تُوفي بالطاعون مع مَنْ توفي منهم، وهذا من شجاعته النادرة التي لا تتكرر.

● ومات عبدالرحمن بن عَوْف على فراشه في منزله بأجله الموعود، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة السادسة الهجرية، وشهد غزوة «**بَدْرٍ**» الحاسمة؛ فأسر أسيرًا، وقتل رجلًا من قريش، وغنم أدراعًا، وثبت يوم «**أُحُد**» مع رسول اللّٰه ﷺ، وما ثبت معه يومئذ غير قليل: سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، وَجُرِحَ في هذه الغزوةِ - لاستقتاله في الدفاع عن النبي ﷺ - إحدى وعشرين جراحةً، وَجُرِحَ في رجله؛ فكان يعرج منها، وسقطت ثنيتاه؛ فكان أَهْتَمَ، وقتل رجلين من المشركين.

ومواقفه البطولية في الدفاع عن الإسلام والمسلمين أكثر من أن تُحْصَى.

● ومات عمرو بن أُمَية الضَّمْرِي على فراشه في بيته بأجله الموعود، وقد تولى القيادة لأول مرة في السنة السادسة الهجرية، وكان من أَنْجَادِ العرب ورجالها نجدةً وجَراءَةً وجُودًا.

ومن جراءته أن المشركين من قريش صلبوا خُبَيْبَ بن عَدِيٍّ بـ«**التنْعِيم**» قريبًا من مكة المكرمة، وجعلوا عليه حرسًا منهم؛ فاختطف عمرو جثةَ خُبَيْبٍ وعاد بها إلى المدينة.

وكان أبو سُفْيَان بن حرب قد بعث رجلًا من المشركين؛ لاغتيال النبي ﷺ؛

فانكشف أمر المشرك وأسلم.

وبعث النبي ﷺ عمرو بن أمية وبرفقته مسلم آخر اسمه: «**سَلَمَةُ**» إلى أبي سفيان، وقال لهما: «**إن أصبتما منه غِرَّة فاقتلاه**».

ودخلا مكة، ومضى عمرو يطوف بالبيت العتيق ليلًا، فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه؛ فأخبر قريشًا بمكانه؛ فخافوه وطلبوه، وكان فَاتِكًا في الجاهلية؛ فهرب عمرو وسَلَمَةُ، فلقي عُبَيْداللَّه بن مالك التميمي الذي كان مشركًا؛ فقتله، وقتل مشركًا آخر سمعه يغني ويقول:

ولستُ بمسلمٍ ما دمتُ حيا ... ولستُ أدينُ دينَ المسلمينا!

ولقي رسولين لقريش يتجسسان على المسلمين؛ فقتل أحدهما، وأسر الآخر.

وقدم عمرو المدينة عائدًا من رحلته إلى مكة، فجعل يُخبر رسول اللَّه ﷺ خبره، ورسول اللَّه ﷺ يضحك.

ومواقف عمرو البطولية كثيرة؛ فكان بطلًا في الجاهلية، وبطلًا في الإسلام.

● ومات أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة السابعة الهجرية، وكان من المهاجرين السبعة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ يوم «**أُحُد**»، وأثبت كفاية عالية في قيادته المستقلة، وانتصر بالعدد القليل من رجاله على العدد الكثير من المشركين، وثبت مع النبي ﷺ يوم «**حُنَيْن**».

وقال عبداللَّه بن مسعود عن شجاعة أبي بكر: «لقد قمنا بعد رسول اللَّه ﷺ مقامًا كدنا نهلك فيه، لولا أن اللَّه مَنَّ علينا بأبي بكر»، في عزمه على قتال المرتدين، وانتصاره عليهم انتصارًا مؤزرًا.

وعن أبي رجاء العُطاردي قال: «دخلتُ المدينة، فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلًا يُقبل رأس رجل وهو يقول: «**أنا فداؤك، ولولا أنتَ لهلكنا!!**» فقلت: مَنِ الْمُقَبِّلُ وَمَنِ الْمُقَبَّلُ؟ قالوا: ذاك عمر يقبل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة؛ إذ

منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين».

وحسبنا شهادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فقد سأل عليٌّ مَنْ حوله: «**أخبروني مَنْ أشجع الناس؟**» فقالوا: «**أنت!!**»، فقال: «أما إني ما بارزتُ أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني مَنْ أشجع الناس؟!»، فقالوا: «لا نعلم!!»، فقال: «أبو بكر!! إنه لما كان يوم بَدْرٍ، فجعلنا لرسول اللَّه ﷺ عريشًا، فقلنا: مَنْ يكون مع رسول اللَّه ﷺ؛ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟! فواللَّه ما دَنَا منا أحد إلا أبا بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول اللَّه ﷺ، لا يهوي إليه أحد، إلا هوى إليه؛ فهو أشجع الناس».

وشجاعة أبي بكر النادرة أشهر من أن تُعَرَّفَ.

● ومات غالب بن عبداللَّه الليثي حتف أنفه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر رمضان من السنة السابعة الهجرية، وتولى قيادة أكثر من سرية من سرايا النبي ﷺ، حقق بها انتصارات باهرةً بقواته القليلة على قوات المشركين الكثيرة؛ فكان بِحَقٍّ قائدًا فذًّا من قادة النبي ﷺ؛ كما قَادَ مقدمة النبي ﷺ في غزوة فتح مكة، وكانت قيادته متميزة للغاية.

وشهد غالب معارك حروب الردة وفتح العراق؛ فكان من أبطال المسلمين المعدودين.

وفي معركة «**الْبُوَيْبِ**» التي كانت سنة ثلاث عشرة الهجرية قَتَلَ وَحْدَهُ تسعة من الفرس في هذه المعركة وحدها.

وكان له موقف مشرف في معركة القادسية الحاسمة التي كانت سنة أربع عشرة الهجرية، وهو الذي قتل هُرمز ملك مدينة «**الباب**» التي تسمى اليوم: «**دربند**» على بحر الخَزَر، وكان هرمز يومئذ من أكبر قادة الفُرْس.

لقد كان غالب بطلًا مغوارًا، يتحلى بالشجاعة النادرة.

● ومات أبو قَتَادَةَ بن رِبْعِي الأنصاري الخزرجي على فراشه في داره بأجله

الموعود، وتولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة الثامنة الهجرية، وكان قد شهد سريةَ عبدالله بن عَتِيْك ـ لقتل اليهودي أبي رافع سَلَّام بن أبي الْحُقَيْق النَّضْرِي ـ التي قتلت أبا رافع؛ لأنه كان يحرض المشركين على المسلمين، فنسي أبو قَتَادَةَ قوسه في موضع مقتل أبي رافع، فذكرها بعدما نزل؛ فرجع واستعاد قوسه، وعاد إلى أصحابه دون أن يخشى حشود يهود أو يحسب لها حسابًا.

وشهد غزوة «**الْمُرَيْسِيع**»، وكان يحمل لواء المشركين في هذه الغزوة صَفْوان ذو الشقْر، فشد عليه أبو قتادة، فكان الفتح.

وشهد غزوة «**ذي قَرَد**»، فقتل مَسْعَدَة بن حَكَمَة بن مالك بن حُذَيْفَة الفِزَارِي وحبيب بن عيينة بن حِصْن، فقال رسول اللَّه ﷺ يوم ذي قَرَد: «**خير فرساننا أبو قتادة**»، ومن يومها أصبح يعرف بفارس النبي ﷺ.

وكان في قيادته لسريتين من سرايا النبي ﷺ مُوَفَّقًا، فأثبتَ أنه قائد لامعٌ.

وشهد غزوة «**حُنَيْن**»، فقتل أحد المشركين، فأراد أن يستأثر بسلبه أحد مسلمي الفتح الذين أسلموا حديثًا، فقال هذا الرجل للنبي ﷺ: «يا رسول الله! سَلَبُ ذلك القتيل عندي، فأَرْضِهِ عني»، يريد سَلْب قتيل أبي قتادة عنده، ويريد أن يستأثر به دون أبي قتادة، ولكن أبا بكر الصديق قال: «**لا والله! لا يُرْضيه منك، تعمد إلى أَسَد من أُسْدِ الله، يقاتل عن دين الله، تقاسمه سلبه! ارْدد عليه سَلَب قتيله**»، وكان هذا الأسد من أُسد اللَّه الذي يقاتل عن دين الله، هو أبا قتادة.

والحديث عن شجاعة أبي قتادة النادرة يطول.

● ومات خالد بن الوليد على فراشه كما يموت البعير، كما قال هو حين حضرته الوفاة، وتولى القيادة لأول مرة في سرية «**مُؤْتَة**» التي كانت في شهر جمادى الأولى في السنة الثامنة الهجرية، فقد أَمَّره المسلمون على أنفسهم بعد أن استشهد قادة هذه المعركة الثلاثةُ بالتعاقب: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رَوَاحة، فاصطلح المسلمون على خالد، وولوه قيادتهم في موقف

ميئوس منه وعصيب للغاية، فأنقذ المسلمين الذين كانوا في تلك المعركة من الإبادة والإفناء، بفضل قيادته الفذة وشجاعته النادرة.

واستعمله النبي ﷺ على سرية من سراياه لأول مرة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية، ثم استعمله من جديد على سريتين أخريين، كما استعمله قائدًا مرءوسًا في غزوة فتح مكة وغيرها.

لقد شهد خالد ثلاث معارك على المسلمين قبل إسلامه، وشهد في عهد النبي ﷺ اثنتي عشرة معركة، وشهد في حروب الردة ثلاث معارك هي أهم وأخطر وأكبر معارك حروب أهل الرِدة، وقاتل الفُرْس وحلفاءهم في العراق في خمس عشرة معركة، وخاض في طريقه من العراق إلى أرض الشام غمار أربع معارك، وقاد سبع معارك في أرض الشام، فكان مجموع ما شهده من معارك في حياته العسكرية أربعًا وأربعين معركة، كانت نتائجها كلها باهرة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب والمسلمين.

وقد حسم أكثر من معركة بهجومه شخصيًا على قائد العدو وقَتْله، مما أدى إلى انهيار معنويات رجاله واستسلامهم للمسلمين.

وانتصاراته الباهرة جعلته قائدًا مشهورًا منذ كان حتى اليوم وإلى ما شاء الله، ليس على النطاق العربي أو الإسلامي حسب، بل على النطاق العالمي، ومعاركه تُدَرَّسُ في المدارس والمعاهد والكليات العسكرية الأجنبية كما تدرس في المدارس والمعاهد والكليات العسكرية العربية والإسلامية.

وطالما سمعنا أو قرأنا أن ألمع قادة الغرب يفخرون بأنهم طبقوا خطة عسكرية تعلموها من خطط خالد، وطالما سمعنا وقرأنا أن ألمع القادة الأجانب يشبههم الذين يصفونهم من المؤلفين والكتاب: بأنهم كخالد..! ولن يكون أحدهم مثله أبدًا، وشتان بين الأصل وبين الصورة.

وحسبه قولة رسول اللَّه ﷺ فيه: «**خالد سيف من سيوف الله، سله اللَّه على**

المشركين».

ولكن خالدًا قال حين حضرته الوفاة: «ما كان في الأرض من ليلة أحبُّ إلي من ليلة شديدة الجليد، في ســـرية من المهاجـــرين، أُصَبحُ بهم العدو، فعليكم بالجهاد».

وتنهد قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة حزنًا وأسفًا على الشهادة التي فاتته بالرغم من تعرضه لأفدح الأخطار في أقسى المعارك، فقال: «شهدت مئة زحف أو زهاءها، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة، أو طعنة، أو رمية، ثم هَأَنَا ذا أموت على فراشي كما يموت العِيْر، فلا نامت أعينُ الجبناء».

● ومات عمرو بن العاص على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر جمادى الآخرة من السنة الثامنة الهجرية، وتولى قيادة سريتين من سرايا النبي ﷺ، فأحسن في قيادته غاية الإحسان ولما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى شهد عمرو حروب الرِّدة، وحروب فتح بلاد الشام، كما شهد فتح مصر وليبيا، ففتح فلسطين ومصر وليبيا.

ومن مواقفه التي تدل على شجاعته النادرة ودهائه ـ أيضًا ـ أنه أقام على «**أجْنَادِيْن**» في فلسطين لا يقدر على قائدها الأرطبون الرومي ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه، ودخل عليه كأنه رسول، ففطن به الأرطبون وقال: «لا شك أن هذا هو الأمير أو مَنْ يأخذ الأمير برأيه»، فأمر رجلًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مر به، وفطن عمرو لما يدبر الأرطبون، فقال له: «قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضتَ مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنتَ على رأس أمرك»، فقال الأرطبون: «نعم!»، ورد الرجل الذي أمره بقتل عمرو، وخرج عمرو من عند الأرطبون، فعلم الأرطبون أن عَمْرًا خدعه، فقال:

«خدعني الرجل! هذا أدهى الخلق!!»، وبلغت هذه القصة عمر بن الخطاب، فقال: «لله در عمرو!».

لقد كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية مذكورًا بذلك فيهم، وكان جريئًا مقدامًا، وذا رأي في قريش كما وصفه أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، فكان عمرو يقاتل بشجاعته النادرة، وعقله الراجح؛ لذلك كان موضع ثقة النبي ﷺ وخلفائه من بعده، فقال عمرو عن ثقة النبي ﷺ به واعتماده عليه: «ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في حربه منذ أسلمتُ»، وصدق عمرو، وحسبه ثقة رسول اللَّه ﷺ به، وهي ثقة لا توضع إلا في مكانها الصحيح.

● ومات سعد بن زيد الأنصاري الأَوْسي الأَشْهَلِي حتف أنفه، وتولى القيادة لأول مرة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية، وقد شهد غزوة **«ذي قَرَد»** قائدًا لفرسان المسلمين، فطارد عُيَيْنَة بن حِصْن الذي أغار على سرح المسلمين بالقرب من المدينة، وقتل حبيب بن عُيَيْنَة بن حِصْن في رواية، وفي رواية أخرى: أن الذي قتله هو أبو قَتَادة - كما ذكرنا من قَبْل.

وأحسن سعد في قيادة سريته غاية الإحسان، وأنجز واجبه على أحسن وجه.

وقد شهد سعدٌ بَدْرًا وأُحُدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، كما شهد قسمًا من سرايا النبي ﷺ جنديًّا مرات وقائدًا مرة أخرى، فأدى واجبه في الجهاد العملي جنديًّا وقائدًا بشكل مثالي يدعو إلى أعمق التقدير، وأبدى في جميع المعارك التي خاضها شجاعة نادرة.

● ومات عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَارِي على فراشه كما يموت البعير، وتولى القيادة لأول مرة في شهر المحرم من السنة التاسعة الهجرية، وكان بطلًا من الأبطال المعدودين قبل الإسلام وبعد الإسلام، وسيدًا من سادات العرب.

وكان أحد المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافًا من أشراف العرب، يتألفهم النبي ﷺ

بما أعطاهم، ويتألف بهم قومهم.

وكان عُيَيْنَة في الجاهلية من الجَرارين يقود عشرة آلاف، ولم يكن الرجل يسمى: جَرارًا حتى يرأس ألفًا على الأقل، وقد قاد غَطَفان إلى بني تَغْلِب، كما قاد قومه في كثير من أيام العرب قبل الإسلام.

وشهد معارك طاحنة مع المسلمين قبل إسلامه، وشهد معارك طاحنة مع المسلمين بعد إسلامه جنديًّا وقائدًا، وقاد سرية من سرايا النبيﷺ ؛ لأنه كان أول مَنِ انتدب لحرب المنحرفين من بني تَمِيْم الذين منعوا الزكاة، ولم يستجيبوا للمصدق الموفد إليهم من النبيﷺ ، فكان عند حُسْنِ ظن المسلمين به في قيادته، وكان لشجاعته النادرة أثرٌ عظيم في انتصار سريته بعددها القليل على المنحرفين بعددهم الكثير.

لقد كانت حياة عُيَيْنة سلسلة من المعارك المتصلة، فقد كان بطبيعته مِسْعَرَ[1] حرب.

● ومات القائد الخامس عشر والأخير من قادة النبيﷺ حتف أنفه، وهو قُطْبَة ابن جَدِيْدَة الأنصاري الخزرجي الذي تولى القيادة لأول مرة في شهر صَفَر من السنة التاسعة الهجرية، وقد شهد «بَدْرًا» فرمى حجرًا بين الصفَّين وقال: «**لا أفر حتى يفر هذا الحجر**»، وقد ثبت في تلك الغزوة ثبات الراسيات، وقاتل قتال الأبطال، وأسر أحد أبطال قريش من المشركين.

وشهد غزوة «**أُحُد**»، وكان أحد الرماة الماهرين الذين برزوا بين المسلمين في تلك الغزوة، وجُرح تسع جراحات فلم تمنعه جراحاته الغائرة من المبادرة إلى الخروج في اليوم التالي من يوم «**أُحُد**» مع النبيﷺ والمسلمين الذين شهدوا غزوة «**أُحُد**» إلى «**حمراء الأسد**»؛ لمطاردة المشركين، فشهد مع النبي ﷺ تلك الغزوة

---

(١) المسعر: ما تُحَرَّكُ به النارُ من حديد أو خشب. ومسعر حرب: مُوْقِدُ حرب.

التي رفعت معنويات المسلمين وحطمت معنويات المشركين.

وشهد معركة «**مُؤْتَة**»، فلما استُشهد القادة الثلاثة بالتعاقب، وكانت الهزيمة وقُتل المسلمون، جعل قُطْبَة يصيح: «**يا قوم! يُقْتَلُ الرجل مُقْبلًا أحسن من أن يُقتل مُدْبِرًا**».

وشهد غزوة فتح مكة، فعقد النبي ﷺ الألوية والرايات في «**قُدَيْد**»، فجعل راية بني سَلِمَة قومه من الأنصار مع قُطبة، والراية لا تُعقد إلا لمن يحافظ عليها ويحميها من الأعداء.

وحين تولى قُطْبَة قيادة سرية من سرايا النبي ﷺ أحسن في قيادته غاية الإحسان، وانتصر على عدوه، بينما كانت سريته قليلة العدد والمدد، وكان عدوه كثير العَدد والمدد.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، لم يتخلف عنه في مشهد من مشاهده بالإضافة إلى السرايا التي شهدها مع قادة السرايا الآخرين، فكان في كل مشهد شهده نادر الشجاعة فَذَّ الإقدام.

تلك هي الحقيقة الثانية: استُشهد القادة الشجعان. ومات القادة الذين هم أكثر شجاعة وإقدامًا.

ولعل هذه الحقيقة الناصعة التي برزت لأول مرة في بداية القرن الخامس عشر الهجري رسالةٌ من رسائل الغيب، تنكشف لِتُذَكِّرَ الجبناءَ بأن الأعمار بيد الله، لا يزيد فيها الجبن ولا تنقص منها الشجاعة، وصدق القائل: «اطلب الموت توهب لك الحياة».

هكذا بكل بساطة مات الأشجع، واستُشهد الشجاع[1].

فتعال يا أخي إلى سير الأسود الربانيين الذين ضربوا أروع وأنقى الأمثلة التي لا يجود بمثلها الزمان أبدًا، وهي كالأساطير والخيال روعة وجمالًا.

---

(١) **انظر**: قادة النبي ﷺ

١٥

سيد الشهداء..
الإمام البطل الضرغام..
أسد اللَّه وأسد رسوله..
أبو عمارة وأبو يعلى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «سَيدُ الشهداء عند اللَّه يوم القيامة حمزةُ بن عبد المطلب».

سيد الشهداء..الإمام البطل الضرغام..
أسد الله وأسد رسوله..
أبو عمارة وأبو يعلى
حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

قال رسول الله ﷺ: «**سَيدُ الشهداء عند الله يوم القيامة حمزةُ بن عبد المطلب**»[1].

وقال ﷺ: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه؛ فقتله**»[2].

كان قبل إسلامه مغرمًا بالصيد والقنص[3]، وهو دليل على مهارته في الفروسية والتسديد الدقيق في الرمي، كما أنه تدريب عملي على ممارسة هذين الْفَنَّيْنِ العسكريين.

❑ إسلام حمزة شجاعة وحمية وغيرة تقود حمزة إلى الإسلام:

مَرَّ أبو جَهْل برسول الله ﷺ وهو جالسٌ عند «**الصَّفَا**»؛ فَآذَاهُ وَشَتَمَهُ وَنَالَ منه وَعَابَ دِيْنه - وَمَوْلَاةٌ لعبدالله بن جُدْعان في مسكن لها تسمع ذلك -، وانصرف أبو جَهْل عن النبي ﷺ، فجلس في نادي قريش عند الكعبة، فلم يلبث حمزة أن أقبل من قَنْصِهِ متوشحًا قوسه، وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة،

---

(١) **حسن**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن جابر، والطبراني في «الكبير» عن علي، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٧٦) و«الصحيحة» رقم (٣٧٤).

(٢) **حسن**: رواه الحاكم في «المستدرك» (١٩٥/٣)، والضياء في «المختارة»، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٠٢/١١)، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٧٥)، و«الصحيحة» رقم (٣٧٤).

(٣) أُسْد الغابة (٤٦/٢)، وابن الأثير (٨٣/٢).

وكان يقف على أندية قريش، ويسلم عليهم، ويتحدث معهم، وكان أعز قريش وأشدهم شكيمة، فلما مر بالمولاة، وقد قام رسول اللَّه ﷺ ورجع إلى بيته، قالت له: «يا أبا عُمَارَةَ، لو رأيتَ ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ من أبي الحكم بن هشام، فإنه سبه وآذاه، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد».

واجتاح الغضبُ حمزةَ؛ فخرج سريعًا لا يقف على أحد، كما كان يصنع، يريد الطواف بالكعبة، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يَقَعَ به، حتى دخل المسجد، فرآه جالسًا في القوم؛ فأقبل نحوه، وضرب رأسه بالقوس؛ فَشَجَّهُ شَجَّةً منكرة، وقال: «أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟! فاردد عليَّ إن استطعت».

وقامت رجال من بني مَخْزُوم إلى حمزة؛ لينصروا أبا جَهْل، فقال أبو جهل: «دعوا أبا عُمارة؛ فإني سببتُ ابن أخيه سبًّا قبيحًا».

فلما أسلم حمزة، عرفت قريش أن رسول اللَّه ﷺ قد عَزَّ، وأن حمزة سيمنعه؛ فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[1].

إنها الطامة التي لن تملك قريش لها دفعًا...

وَأَعَزَّ اللهُ الإسلام بحمزة...

ووقف شامخًا قويًّا يذود عن رسول اللَّه ﷺ وعن المستضعفين من أصحابه.

وَأُرَجِّحُ أن حمزة رضي الله عنه قد أسلم في السنة الثانية من الهجرة، ورجح ذلك ابن حجر في «**الإصابة**»، وابن عبدالبر في «**الاستيعاب**»، وتبعهما القسطلاني في «**المواهب**».

ولما أسلم عمرُ قَوِيَ الإسلام بحمزة وبه، وعلم المشركون أنهما سيمنعان رسول اللَّه والمسلمين[2].

---

(١) أُسْد الغابة (٢/٤٦، ٤٧)، وابن الأثير (٢/٨٣).

(٢) ابن الأثير (٢/٨٤).

ألقى اللَّه عَزَّوَجَلَّ في قلب حمزة الإيمان عن يقين، وقال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لرسول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«أشهد أنك الصادق شهادة الصدق، فأظهر يابن أخي دينَكَ؛ فواللَّه ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأني على ديني الأول»**.

فكان حمزة ممن أعز اللَّه به الدين[1]؛ سرت نسمات الإسلام في وجدانه، وراح عبق نور الإيمان يشع من أغواره، وَشَعَرَ بالطمأنينة تغلف قلبه، وبالسكينة تغمر روحه.

❑ أول لواء في الإسلام لحمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «سرية حمزة إلى الْعِيصِ في رمضان من السنة الأولى لهجرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»:

قدم رسول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المدينة حين هاجر إليها من مكة، يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، وهو المجمَعُ عليه؛ فكان أول لواء عقده رسول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحمزة في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مُهَاجَر رسول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لواء أبيض، فكان الذي حَمَلَهُ أبو مَرْثَد كَناز الغَنَوِي حليف حمزة، وبعثه رسول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ثلاثين رجلًا من المهاجرين.

وخرج حمزة يعترض لِعِير قريش، قد جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جَهْل بن هشام في ثلاث مئة رجل، فَبَلَغُوا سِيْفَ البحر - يعني ساحله - من ناحية **«العِيْص»**، والتقى الجانبان حتى اصطفوا للقتال، فمشى مَجْدِيُّ بن عمرو الْجُهَني - وكان حليفًا للفريقين جميعًا - إلى هؤلاء مرة، وإلى هؤلاء مرة؛ حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا.

وتوجه أبو جَهْل في أصحابه وعِيره إلى مكة، وانصرف حمزة في أصحابه إلى المدينة.

وبدون شك، أَثَّرَ المسلمون في معنويات قريش؛ فتخلوا عن القتال بالرغم من

---

(١) البداية والنهاية (٣/٣٣)، والمستدرك (٣/٣١٣، ٣١٤).

تفوق المشركين على المسلمين تفوقًا ساحقًا، وخافوا المسلمين على قافلتهم التجارية، ورأس المال دائمًا جبان - كما يقولون.

وبهذه السرية بدأ فرض الحصار الاقتصادي على قريش؛ بتهديد طريق «**مكة - الشام**» الحيوي لتجارة قريش تهديدًا إيجابيًّا خطيرًا.

❑ أول غزوة: غزوة وَدَّان «الأبواء» في صفر من السنة الثانية من الهجرة:

كان لواء المسلمين فيها لواءً أبيضَ، وكان مع حمزةَ البطلِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - في هذه الغزوة، وعدد المسلمين «٢٠٠» راكب، وتملص المشركون من لقاء المسلمين.

أول سرية أميرها حمزة..

أول راية عقدها رسول اللَّه ﷺ، وأول لواء لحمزة..

أول وقود بدر أول قتيل للمشركين في يوم بدر قَتَلَهُ حمزةُ.

❑ حمزة ﷺ بطل يوم «بدر» يصنع الأعاجيب بالمشركين:

كان حمزة ﷺ أولَ قاتلٍ لأول قتيل من المشركين يوم بدر؛ فلما «تَوَاجَهَ الفئتان، وتقابل الفريقان، وحضر الخَصْمانِ بين يدي الرحمن، واستغاث بربه سيدُ الأنبياء، وَضَجَّ الصحابة بصنوف الدعاء إلى رب الأرض والسماء سامع الدعاء وكاشف البلاء؛ فكان أول مَنْ قُتِلَ من المشركين: الأسودُ بن عبد الأسد المخزومي.

قال ابن إسحاق: وكان رجلًا شرسًا سيئ الخُلُقِ، فقال: أعاهد اللَّه لأشربن من حَوْضهم، أو لأهدِمَنَّهُ، أو لأموتن دُونه، فلما خَرَجَ خَرَجَ إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما الْتَقَيَا ضَرَبَهُ حمزة؛ فَأَطَنَّ[1] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوْض، فوقع على ظهره تشخب[2] رجلُهُ دَمًا نحو أصحابه، ثم حَبَا إلى الحوْض حتى

---

(١) أَطَنَّ قدمه؛ أي: أَطَارَهَا.

(٢) تَشْخُبُ؛ أي: تسيل.

اقتحم فيه، يريد رَغْمًا أن تبر يمينُهُ، وَأَتْبَعَهُ حمزة فضربه حتى قتله في الحوْض»[1].

إيهِ أبا جهلٍ نُصِرْتَ بفارسٍ ... يَلْقَى المنية منه أغلبُ شَيِّحُ[2]

أرداه حمزةُ عند حوض محمدٍ ... فانظر أَتُقْدِمُ أم تَحِيدُ وتكفَحُ[3]

رام الورود فما انثنى حتى ارتوت ... من حوض مُهجَتِهِ المنايا القُمَّحُ[4]

❑ لله دَرُّكَ يا أسد الله وأسد رسوله من بطل مبارز قَتَّالٍ للمشركين يوم بدر:

«عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يُقْسِمُ فيها قَسَمًا: إن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيْه، وعُتْبة وصاحبيْه يوم بَرَزُوا في يوم بدر»[5].

برز عُتْبةُ، وَشَيْبَةُ، والوليدُ بنُ عتبةَ، فلما توسطوا بين الصفين، دَعَوا إلى البراز؛ فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة؛ وهم: عوف ومعاذ ابنا الحارث، وأمهما عفراء، والثالث: عبدالله بن رواحة ـ فِيمَا قِيلَ ـ فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهْط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم من حاجة. وفي رواية: فقالوا: أكفاء كِرام، ولكن أخرجوا إلينا مِنْ بني عمنا. ونادَى مناديهم: يا محمد، أخرجْ إلينا أكْفاءَنا من قومنا. فقال النبي ﷺ: **«قُمْ يا عبيدة بن الحارث، وقمْ يا حمزة، وقم يا علي»**. فلما دَنوا منهم، قالوا مَن أنتم؟ تكلموا نعرفكم. فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسول الله، أنا حمزة بن عبد المطلب. فقال: كُفْؤٌ كريم. وقال علي: أنا عبدالله وأخو رسول الله. وقال عبيدة: أنا الذي في الحلفاء.

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٧٢).

(٢) الشَّيِّح: المقاتل أو الجاد في الأمر.

(٣) كفح: بمعنى جَبُنَ.

(٤) يُقال: إبلٌ قُمَّحٌ؛ أي: رافعة الرءوس غاضة العيون، وهذا إذا رويت من الماء.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٤٣)، ومسلم (٣٠٣٣)، وابن ماجه (٢٨٣٥)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٦٩).

فأما حمزة فلم يُمهل شيبةَ أن قتله، وأما علي فلم يُمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا[١] عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابهما رضي الله عنه[٢].

لقد أبلى في بدر بلاءً عظيمًا، وقاتل بسيفين[٣]، وقد سأل أُميةُ بن خلفٍ الذي أُسِرَ يوم «**بدر**» عبدالرحمن بن عوف: مَنِ الرجل المُعلم بريشة نعامة في صدره؟! فقال عبدالرحمن بن عوف: «**حمزة بن عبد المطلب**»، فقال أُمية: «**هو الذي فعل بنا الأفاعيل**»[٤].

لقد ذفف حمزة وعلي بن أبي طالب على عتبة بن ربيعة، وَقَتَلَ هو وعلي بن أبي طالب زمعة بن الأسود بن المطلب، وَقَتَلَ هو وعلي عقيل بن الأسود بن المطلب.

وَقَتَلَ أسدُ اللهِ أبا قيس بن الوليد بن المغيرة أخا خالد بن الوليد، وَقَتَلَ الأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وَجَرَحَ عائذ بن السائب بن عويمر، ثم أُسِرَ فافتدى، ثم مات متأثرًا بجراحه، وَقَتَلَ هو وسعد بن أبي وقاص نبيهَ بن الحجاج.

قالت هند بنت عتبة:

أعَيْنِي جُودي بدمعٍ سَرِبْ ... على خيرِ خِنْدِفَ لمْ ينقلبْ
تَداعى لهُ رهْطُهُ غُدْوَةً ... بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِبْ
يُذيقونهُ حد أسيافِهِمْ ... يُعلونه بعدَما قدْ عَطِبْ

ولهذا نذرت هندُ أن تأكل من كبد حمزة[٥].

---

(١) ذفَّفَا عليه: أسرعا في قتله، وأجهزا عليه.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)، وابن الأثير (٢/١٢٤، ١٢٥).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (١/١٦٨).
(٤) ابن الأثير (٢/١٢٧).
(٥) البداية والنهاية (٣/٢٧٢، ٢٧٣).

وَقَتَلَ حمزة - أيضًا - طعيمة بن عدي بن الخيار.

إن دور حمزة في غزوة بدر الكبرى الحاسمة لم يكن دورًا اعتياديًّا، بل كان دورًا بارزًا للغاية؛ فقد قَتَلَ أشجع شجعان قريش وأكثرهم إقدامًا، الذي تحدى المسلمين في محاولة الشرب من حوضهم أو هدمه، وَقَتَلَ شيبة بن ربيعة، وَشَارَكَ في قتل عُتْبة بن ربيعة، وهما من أبرز أشراف قريش ومن أشجع شجعانها؛ وبذلك أَثَّرَ أعمقَ الأثرِ في معنويات قريش؛ فانهارت تلك المعنويات من جراء هذه البداية غير الموفقة، والجيش الذي يخسر معنوياته لا ينتصر أبدًا.

ولم يكن حمزة يقاتل بصورة اعتيادية في بدر؛ بل كان مستقتلًا في قتاله؛ فقتل كثيرًا من المشركين، ومزق صفوفهم، وَشَدَّ عليهم شَدَّةً لا هوادة فيها، وطارد فلولهم بدون رحمة، وفعل بهم الأفاعيل.

لقد كان حمزة - بِحَقٍّ - بطلَ غزوةِ بدرٍ الكبرى؛ فلا عجب أن تشتد نقمة المشركين عليه، ويستهدفون حياته الغالية إذا نشب القتال بينهم وبين المسلمين من جديد!!.

❑ **وفي غزوة بني قينقاع كان اللواء بيد حمزة ﷺ:**

لما عاد رسول الله ﷺ من بدرٍ، أظهرت يهود له الحسد بما فَتَحَ اللَّه عليه، وبغوا، ونقضوا العهد، وكان قد وادعهم حين قدم المدينة مهاجرًا، فلما بلغه حسدهم، جمعهم بسوق بني قَيْنُقَاع، وقال لهم: «**احذروا ما نزل بقريش وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل**»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة. فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه، وبينما هم على مجاهرتهم وكفرهم، إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوق بني قَيْنُقَاع، فجلست عند صائغ؛ لأجل حلي لها، فجاء رجل منهم فَخَلَّى درعها إلى ظهرها، وهي لا تشعر، فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا منها؛ فقام إليه رجل من المسلمين؛ فقتله، ونبذوا العهد إلى رسول الله ﷺ، وتحصنوا بحصونهم؛ فغزاهم رسول الله

ﷺ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فنزلوا على حكمه؛ فأجلاهم عن المدينة إلى **«أَذْرِعَات»**(١).

وكان لواء النبي ﷺ مع حمزة، وكان اللواء أبيض(٢)، وكانت الغزوة يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من مُهَاجَرِهِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ(٣).

أهاب حمزة بالأبطال فانطلقوا وانساب منطلقًا يهديهم السُّبُلا

ومن المعلوم أن اللواء يحمله اعتياديًّا أشجعُ الشجعان؛ لأن الدفاعَ عنه وإبقاءَهُ مرفوعًا دون أن يهوي إلى الأرض أو يُعَفَّرَ بالتراب لا يتم إلا لشجعان مشهود لهم بالشجاعة والإقدام والثبات وقوة الأعصاب والألمعية والذكاء.

❑ وفي أحد يَهُدُّ حمزة أسد الله المشركين هَدًّا بسيفيه حتى قُتِلَ بعد أن قَتَلَ واحدًا وثلاثين كافرًا:

كانت غزوة أُحُد يوم السبت لسبع ليالٍ خلون من شوال، على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من مُهَاجَرِهِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ(٤)، في السنة الثالثة الهجرية «٦٢٤م»، وقد استقبل النبي ﷺ المدينة، وَتَرَكَ أُحُدًا خلف ظهره، وجعل وراءه الرماة وهم خمسون رجلًا، وَأَمَّرَ عليهم عبدالله بن جُبَيْر أخا خَوَّات بن جُبَيْر، وقال له: **«انضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا»**، وَظَاهَرَ رسول الله ﷺ بين درعَين، وأعطى اللواء مُصْعَبَ بن عُمَيْر، وَأَمَّرَ الزبير بن العوام على الخيل ومعه المِقْداد، وخرج حمزة بالجيش بين يديه(٥).

ونشب القتال وكان أول الوقود حَمَلَةَ اللواء من بني عبد الدار، وبعد أن قَتَلَ

---

(١) أذرعات: موضع يقع في شرقي الأردن حاليًا، وهو بين أجنادين والشام.
(٢) طبقات ابن سعد (٢٨/٢ ـ ٣٠)، وابن الأثير (١٣٧/٢، ١٣٨).
(٣) طبقات ابن سعد (٢٨/٢، ٢٩).
(٤) طبقات ابن سعد (٣٦/٢).
(٥) ابن الأثير (١٥٢/٢).

الزبيرُ حاملَ لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة، حمل اللواء بعده أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، تقدم للقتال وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقا   أن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة؛ فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه حتى وصلت إلى سرته؛ فبانت رئته، وبعد أن قضى عليه رجع وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج[1].

وَاسْتَحَرَّ القتل في حملة اللواء.. وكان من حملته أرطاة بن شرحبيل؛ فلم يمهله علي بن أبي طالب أن قتله، وقيل: قتله حمزة[2].

واقتتل الناس اقتتالًا شديدًا، وأمعن في الناس حمزة وعلي وأبو دجانة في رجال من المسلمين[3].

وكان حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة الأنصاري كفرسي رهان في سباق البطولة؛ حيث انطلقا يهدان صفوف المشركين هدًّا.

أما حمزة فبعد أن أصدر الرسول ﷺ أوامره بالقتال، هتف بكلمة التعارف التي اتفق عليها المسلمون؛ وهي: «**أمت أمت**»، ثم اندفع إلى قلب جيش الشرك؛ كالصاعقة وفي يده سيفان لا يقف له أحد.

فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حملة لواء المشركين فَعَلَ الأفاعيل بأبطالهم الآخرين، وكان يَجُولُ الأبطالَ أمامه كما تَجُولُ الريحُ أمامها الورقَ اليابسَ؛ لما له من هيبة في نفوس الأبطال[4].

وأبلى حمزة البطل بلاءًا عظيمًا في هذه المعركة؛ فقد قتل واحدًا وثلاثين من

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «أُحُد»، لمحمد أحمد باشميل ص (١٠٢).
(٢) المصدر السابق ص (١٠٢).
(٣) قادة النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب ص (٥٨).
(٤) موسوعة الغزوات «أُحُد»، لباشميل ص (١٠٤).

الكُفار[١]؛ قال الضرغامُ قولًا صَدَقَ بِهِ وَمَضَى عَلَيْهِ: «**والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم**».

كحمزة لما وفّى صادقًا بذي هبة صارمٍ سلجَجِ[٢]
فلاقاهُ عبدُ بني نَوْفل يبربز كالجملِ الأدْعَجِ
فأوجَرَهُ حربةً كالشهَابِ تلهبُ في اللهبِ المُوهَجِ

وعن سعد بن أبي وقاص: «**كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أحد بين يَدَيْ رسول الله** ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله»[٣].

عن جابر بن عبدالله قال: «**فَقَدَ رسول الله ﷺ يوم أُحُد حمزةَ حين فَاءَ الناسُ من القتال، قال: فقال رجل: رأيتُه عند تلك الشجرة، وهو يقول: «أنا أسد الله وأسد رسوله»**[٤].

❑ استشهاد حمزة وحزن النبي ﷺ عليه:

قاتل حمزة حتى مَرَّ به سِبَاع بن عبد العُزى الغُبْشَاني، وكان يكنى بأبي نيار، فقال له حمزة: «**هَلُمَّ إليَّ يا ابنَ مُقَطِّعَةِ البُظُور**»، وكانت أمه أم أنمار مولاة شَرِيق بن الأخنس بن شريق، وكانت خَتانة بمكة، فلما التقيا ضربه حمزة؛ فقتله، وكان سباع أحد فرسان قريش المشهورين فكان لمقتله أثر سيئ في نفوس المشركين؛ لأنه من أبطالهم المعتمد عليهم في ساعة الشدة.

قال وحْشِيٌّ غلام جُبَير بن مطعم: «والله إني لأنظر إلى حمزة يَهُدُّ[٥] الناسَ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٦٩/١)، والإصابة (٣٧/٢)، وأُسْد الغابة (٤٢/٢).
(٢) سَلجج: طيب.
(٣) **إسناده صحيح**: رواه الحاكم في «المستدرك»، وابن سعد (٦/١/٣).
(٤) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٩٩/٣)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه».
(٥) يهدُّ: يهلكهم، ويروي: يهذّ عند ابن الأثير (١٥٦/٢)؛ ومعناه: يسرع في قتلهم.

بسيفه ما يُلِيْقُ[1] به شيئًا مثل الجمل الأورق[2]، إذ تقدمني إليه سِباع بن عبد العُزى، فقال له حمزة: هَلُمَّ إليَّ يا ابن مُقَطعةِ البُظُور. فضربه ضربة؛ فكأنما أخطأ رأسه[3]، وهَزَزْتُ حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه؛ فوقعت في ثُنَّتِهِ[4]، حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فَغُلِبَ فوقع، وأمهلته حتى إذا مات، جئت فأخذت حربتي، ثم تنحيتُ إلى العسكر، ولم يكن لي بشيءٍ حاجة غيره»[5].

قال عبيدالله بن عدي بن الخيار لوحشي قاتل حمزة: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر؛ فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قَتَلْتَ حمزة بعمي فأنت حر. قال: فلما أن خرج الناس عام عينين - وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد -، خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سِبَاع فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سِبَاع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور[6]، أتحادُّ اللَّه ورسوله ﷺ؟! قال: ثم شد عليه؛ فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي؛ فأضعها في ثُنَّتِهِ حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فَشَا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول اللَّه ﷺ رسلًا، فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل. قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول اللَّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، فلما رآني قال: «**أنت وحشي؟!**»، قلت: نعم. قال: «**أنت قتلت**

---

(١) ما يليق: ما يبقى.

(٢) الأورق: الذي لونه بين الغبرة والسواد.

(٣) فَكَأَنَّما أَخْطَأَ رَأْسَهُ: يقال هذا عند المبالغة في الإصابة.

(٤) الثنية: أسفل بطنه. والثنة: أسفل البطن.

(٥) سيرة ابن هشام (١٥/٣).

(٦) أي: ختانة النساء.

حمزة؟!» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: «**فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني؟!**» قال: فخرجت، فلما قبض رسول اللَّه ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة؛ لعلي أقتله؛ فأكافئ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس؛ فكان من أمره ما كان. قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار؛ كأنه جمل أورق ثائر الرأس. قال: فرميته بحربتي فأضعها بين ثديه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته»[1].

❑ رجُلٌ يُعَدُّ بالآلاف:

وهكذا فَقَدَ المسلمون بمصرع حمزة بن عبد المطلب رجلًا يُعَدُّ بالآلاف؛ فقد كان رضي الله عنه من أكبر سواعد النبي ﷺ في الملاحم؛ كان في أحد - كيوم بدر - نجم المعركة اللامع، كان المشركون موتورين من حمزة، وكانت قلوبهم تغلي حقدًا عليه؛ لأنه صَرَعَ الأحبة من فرسانهم يوم بدر، وكان الذين وَتَرَهُمْ حمزة يوم بدر في ذويهم يودون قتله انتقامًا، ولكنهم جميعًا يدركون أن مواجهة حمزة بن عبد المطلب ليست بالأمر الهين؛ فشهرته الحربية واستفاضة ضراوته في القتال؛ جعلت فَرَائِصَ أعظم الأبطال ترتعد لمجرد التفكير في ملاقاة هذا البطل؛ ولهذا لَجَأَ الموتورون من حمزة إلى طريق الاغتيال، وَنُفِّذَتْ خطة الاغتيال الدنيئة، وَصُرِعَ الأسد حمزة، لا كما تُصرع الأبطال وجهًا لوجه في ميدان القتال؛ وإنما كما يُغْتَالُ الكرام في أحلك الظلام..

وهل كان أحد من شجعان العرب جميعًا يحسب نفسه كُفُؤًا لحمزة ونزاله؟!

وهل كان يظن أحد أن يطالع الموت حمزة في معركة على طول ما مشى بين صفوف الموت مختالًا؟!

ولكن ما عسى أن تُغني الشجاعة والنبل حين يختبئ الاغتيال في حندس الليل؛

---

(١) رواه البخاري (٤٠٧٢)، والطيالسي (١٣١٤).

فيورد صاحبها حتفه»[١].

استُشهد حمزة يوم السبت، النصف من شهر شوال[٢]، من سنة ثلاث الهجرية[٣] «٦٢٤م».

وخرج رسول اللَّه ﷺ يلتمس حمزة؛ فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنه عن كَبِدِهِ، وَمُثِّلَ به؛ فَجُدِعَ أنفُهُ وأُذُنَاهُ؛ فحزن عليه النبي ﷺ، فلما رأى المسلمون حزن رسول اللَّه ﷺ وغيظه على مَنْ فَعَلَ بعمه ما فَعَلَ، قالوا: والله، لئن أظفرنا اللَّه بهم يومًا من الدهر، لنمثلنَّ بهم مُثْلَةً لم يُمَثلها أحد من العرب.

ولما وقف رسول اللَّه ﷺ على حمزة، قال: «**لَنْ أُصَابَ بمثلك أبدًا، ما وقَفْتُ موقفًا قَطُّ أغيظَ إليَّ من هذا**»[٤].

ولم يَرَ النبيُّ ﷺ مَنْظَرًا أوجعَ لقلبه من منظر حمزة مقتولًا مُمَثلًا به؛ فقال: «**رحمك اللَّه أي عم!! فلقد كنتَ وصولًا للرحم، فعولًا للخيرات، فواللَّه لئن أظفرني اللَّه بالقوم لأُمثلن بسبعين منهم**»[٥]؛ فَمَا بَرِحَ حتى نزل قول اللَّه في قول رسول اللَّه ﷺ وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨]؛ فَعَفَا رسول اللَّه ﷺ، وَصَبَرَ، وَنَهَى عن المُثْلَةِ[٦].

عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: لما قُتِلَ حمزة يوم أحد، أقبلت صفية تطلبه لا تدري ما صَنَعَ، قال: فلقيت عليًّا والزبير، فقال علي للزبير: اذكر لأمك.

---

(١) في مهبط الوحي، للأستاذ محمد حسين هيكل ص (٧٥٥).

(٢) أسْد الغابة (٢/٤٧).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٦٩).

(٤) سيرة ابن هشام (٣/٤٧).

(٥) الاستيعاب (١/٣٧٤).

(٦) سيرة ابن هشام (٣/٤٥، ٤٦).

قال الزبير: لا، بل اذكر أنت لعمتك. قالت: ما فَعَلَ حمزة؟ قال: فَأَرَيَاهَا أنهما لا يدريان، قال: فجاء النبي ﷺ فقال: «**إني أخاف على عقلها!!**»، قال: فَوَضَعَ يده على صدرها وَدَعَا لها؛ فاسترجعت وبكت، ثم جاء وقام عليه وقد مُثِّلَ به؛ فقال: «**لولا جزع النساء، لتركته حتى يُحْشَرَ من حواصل الطير وبطون السباع**»، قال: ثم أَمَرَ بالقتلى؛ فجعل يصلي عليهم؛ فيضع تسعة وحمزة؛ فيكبر عليهم سبعًا، ثم يُرفعون ويُترك حمزة، ثم يُجَاءُ بتسعة وحمزة، فيكبر عليهم سبعًا، ثم يُرفعون ويُترك حمزة، ثم يُجَاءُ بتسعة، فيكبر عليهم حتى فرغ منهم»[١].

صَلَّى النبيُّ على حمزة يومئذ سبعين صلاة[٢].

لولا أن تجد صفية في نفسها...

لولا جزع النساء...

لَتَرَكَ النبيُّ ﷺ حمزة...

حتى تأكله العافية...

حتى يُحْشَرَ يوم القيامة من بطونها...

ليعظم أجر أسد الله وأسد رسوله حمزة.

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم: «**أن عبدالرحمن بن عوف أُتِيَ بطعام وكان صائمًا، فقال: قُتِلَ مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفِّنَ في بردة إن غُطِّيَ رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّيَ رجلاه بَدَا رأسه، وأراه قال: وقُتِلَ حمزة وهو خير مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ ـ أو قال: أُعْطِينَا من الدنيا ما أُعْطِينَا ـ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلَتْ لنا. ثم جَعَلَ يبكي حتى ترك الطعام**»[٣].

---

(١) **إسناده حسن لغيره:** أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/١/٣)، وله متابع عند الطبراني في «الكبير» (١١٠٥١).

(٢) طبقات ابن سعد (١٥/٣، ١٦).

(٣) رواه البخاري (١٢٧٥).

❑ إلى المترفين من المسلمين:

كُفِّنَ مصعب في بُرْدَة[١]، إذا غُطِّيَ رأسه خرجت رجلاه، وإذا غُطِّيَتْ رجلاه خرج رأسه؛ فَغُطِّيَ رأسه، وَجُعِلَ على رجليه إِذْخِر[٢].

وَقُتِلَ حمزةُ، وَبُقِرَتْ بَطْنُهُ، وَمُثِّلَ بِهِ...

ما ضَرَّهُ ما أصابه...

جَبَرَ اللَّه له بالجنة كل مصيبة...

فَتَنَحَّوْا أيها المترفون عن منازل ودرجات الصادقين الزاهدين.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: نظروا، فإذا حمزة قد بُقِرَ بَطْنُهُ، وأخذتْ هند كبدَهُ، فَلاَكَتْهَا، فلم تستطع هند أن تأكلها؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: **«أَكَلَتْ منها شيئًا؟»** قالوا: لا. قال: **«ما كان اللَّه لِيُدْخِلَ شيئًا من حمزةَ النار»**[٣].

وَأَمَرَ رسول اللَّه ﷺ بحمزة؛ فَدُفِنَ في أُحُد، وَدُفِنَ معه ابن أخته عبداللَّه بن جحش - وأمه أميمة بنت عبد المطلب -، وكان قد مُثِّلَ به أيضًا[٤]، وقبرهما معروف في أحد حتى اليوم.

❑ **الملائكة تُغَسِّلُ حمزة:**

هذي المكارمِ لا قعبان من لبن ... شيبت بماء فعادت بعدُ أبوالا

عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«رأيتُ الملائكة تُغَسِّلُ حمزة بن عبد المطلب، وحنظلة بن الراهب»**[٥].

---

(١) البردة: كساء مخطط يلتحف به، جمعها بُرْد، وبُرَد.

(٢) إذخر: نبات فيه رائحة طيبة.

(٣) **إسناده حسن لغيره**: رواه ابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٦).

(٤) البداية والنهاية (٤/٤٢).

(٥) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (٧٠٤)، و«أحكام الجنائز» (٥٦)، و«صحيح الجامع» (٣٤٥٧).

❑ **الشعر يبكي أسد الله وأسد رسوله:**

ولله دَرُّ القائل:

صاحب السيفينْ ماذا صَنَعَا؟ ... وَدَّع الصَّفينْ والدنيا معا
غاب عن أصحابه ما علموا ... أي دار حَلَّ لما وَدَّعا
غاب عن أعينهم في غمْرةٍ ... سدَّ غُول الهول منها المطلعا
طلبوه وتنادى جَمْعُهم ... نكبةٌ حلَّتْ وَخَطْبٌ وقعا
يا رسول الله هذا حمزةٌ ... أترى عيناك منه المصرعا؟
إنه عَمُّكَ إلا أُذُنًا ... قُطِعَتْ منه، وأَنْفًا جُدِعا
إنه عَمكَ فانظر بطنهُ ... كيف شقّوه وَعَاثُوا في المِعَى
كبدُ الفارس ماذا فعلت؟ ... أين طاحت؟ من قضى أن تُنْزَعَا؟
نَذْرُ هندٍ هِيَ لولا أنها ... لم تُسِغْها[1] أكلتها أجمعا
طفِقت تمضُغُ من أفلاذها ... علقمًا مُرًّا وسُمًّا مُنقَعا[2]
كلما هَمَّتْ به تدفعُها ... مِلءَ شدقيْها أبتْ أن تُدفعا
نذرت يوم أبيها نَذْرها ... عَلَّها تشفي الفؤادَ المُوجَعا
جاء وَحْشِي فضجتْ فرحا ... وَيكِ[3] إن الأرض ضجتْ فَزَعا
تبذلين الحَلْي والمالَ على ... أن جناهُ جاهليًّا مفظعا
يا لَهُ يا هند جرحًا داميا ... ضاق عنه الصبر مما اتسعا
أَفَمَا أبصرت رُكْنَيْ أُحُدٍ ... حين سَالَ الجُرحُ كيف انصدعا
وأبو سفيان ماذا هاجه ... أفما يُزمِعُ أن يرتدعا[4]

---

(١) ساغ الطعام وأساغ ـ وهو أجود ـ: أسهل مدخله إلى الحلق.

(٢) أفلاذها: جمع فلذة؛ وهي: القطعة من الكبد ونحوها. والسم المنقع: المربَّى.

(٣) ويك: كلمة تعجُّب مكونة من «وي، وكاف الخطاب»، وتأتي للزَّجْر.

(٤) جعل أبو سفيان يضرب بزج الرمح في شدق حمزة ﷺ بعد قتله ويقول: ذُق عقق؛ أي: ذق جزاء مخالفتك لقومك يا عاق، وقد مَرَّ به الحليس سيد الأحابيش وهو يفعل ذلك؛ فقال: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يفعل بابن عمه ما ترون!! فقال أبو سفيان: اكتمها عني؛ فإنها زلة. وَيَزْمِعُ: المراد منها هنا يريد.

غـرَّهُ في يـومـه مـا غـرَّهُ ... إن عـنـد الـغـد سِـرًّا مُـودَعـا
يـطـعـنُ الـلـيْـث ويَـفـرِي شِـدْقـه ... حـين ألـقـى جـنـبـه فـاضـطـجـعـا
لـو رآه يـتـحـدى نـفـسـه ... لـرآهـا كـيـف تـهـوي قـطـعـا[1]
يـذكـر الـعـزى ويـدعـو هُـبَـلا ... ويـحـهُ مـن ذاكـر مـاذا دَعَـا
أسـدُ الـلّـه رمـاه ثـعـلـبٌ ... يـا لَـهُ مـن حـادثٍ مـا أبـدعـا
أخـذتْـهُ عـثـرةٌ مَـزْءُودَةٌ ... ضجت الدنيا لها تدعو: لعا[2]
زالـت الـدرع فـغـشـي بـطـنـه ... دافـق مـن دمـه فـادَّرَعَـا
حـربـة ظـمّـأى أصـابـت مَـشـرعـا ... كـان مـن خـيـر وَبِـرٍّ مُـتـرعَـا[3]
جـزع الـهـادي لـهـا نـازلـةً ... جـلـلـتْ عُـلْـيـا قـريـش جَـزَعـا
تـلـك رؤيـاه وهـذا سـيـفـه ... لا رعى الرحمن إلا من رَعَى[4]
ثـلـمـة هـدتْ مـن الـكـفـر حِـمَـى ... زعـم الـكـفـار أن لـن يُـفْـرَعـا[5]
بـورك المـضـجـع والـقـوم الألـى ... وسـدوا فيه الـشـهـيـد الأروعـا[6]
مـثَّـلَ الـقـومُ بـه مـن بـغـيـهـم ... مـا نـهـاهـم ديـنـهـم أو مـنـعـا
لـيـس لـلأخـلاق إلا دِيـنُـهـا ... يُـؤثـر المـثـلـى ويـهـدي مَـنْ وَعَـى
وَعَـدَ الإسـلامُ خـيـرًا مَـن عَـفَـى ... إن حُـسْـنَ الـعـفـوِ مما شَـرَعَـا
سـائـل الـلائـي تـقـلـدْن الحِـلَـى ... مـن جـلـودٍ مَـن رآهـا خـشـعـا

---

(١) تحدَّى الشيء: تعمده، والرجل بَارَاهُ في فعله ونازعه الغلبة.
(٢) مزءودة: بمعنى مذعورة. لَعًا أو لَعًا لك: كلمة تُقال عند العثرة؛ وهي: دعاء بالانتعاش.
(٣) المشرع: المورد. والمترع: المملوء.
(٤) قبل خروج النبي ﷺ إلى أُحُد رأي رؤيا قصَّها على سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -؛ فقال: «رأيتُ بقرًا تُذبح، ورأيتُ في ذبابة سيفي ثلمًا، ورأيتُ أني أدخلتُ يدي في درع حصينة وأني مردف كبشًا؛ فأما البقر فناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلم الذي رأيته في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتل، وأما الدرع الحصينة فالمدينة، وأما الكبش فإني أقتل كبش القوم - أي: حامل اللواء».
(٥) فَرَعَ الجبلَ ونحوه: عَلَاهُ.
(٦) الأروع: مَن يُعجبك بحسنه ووجاهة منظره، أو بشجاعته، وقيل: هو الشهم الذكي الفؤاد.

أهِيَ كاللؤلؤ أم أبهى سنا ... من غواليهِ وأسمى مَوْضِعا
بوركت إني أراها زُلفًا[1] ... رَفَعَ اللهُ بها مَن رَفَعَا
لن يفوت الكفر منها ذابحٌ ... لا يُبالي أيَّ جلدٍ مَزَعا
يا لريب الدهْرِ ما أَفْدَحَهُ ... حادثًا نُكرا ورُزْءًا مُفْجِعا
رجع الذكْرُ به مُؤْتَنفًا ... ولقد أشفقتُ أن لا يرجعا
شُغِلَ الأهلُ عن الأهل فيا ... عجبا للدهر ماذا صنعا
أَفَما أبْصِرُ إلا لاهيا ... أو مُعَنَّى بالأماني مُولَعا
اذكروا يا قومُ من أمجادكم ... ما نسيتم رب ذكر نفعا

لقد كان حمزة أسدًا أي أسد، وكان استشهاده خسارة للمسلمين كافة، لا لآل البيت وحدهم؛ لأنه كان رجلًا في أمة، وأمة في رجل، لا يعيش لنفسه بل للمسلمين جميعًا.

وحظي حمزة بعد استشهاده بكثير من المراثي؛ لإعجاب الناس به وتقديرهم لسجاياه.

قال كعب بن مالك يرثي حمزة وقتلى أُحُد من المسلمين - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ -:

نشجْتَ وهل لك من مَنْشَجِ ... وكنتَ متى تذكرْ تَلْجُجِ[2]
فَقَلْبُك من ذِكْرِهِمْ خافِقٌ ... من الشوْق والحُزْنِ المُنْضَجِ
وقتلاهُمُ في جِنان النعيمِ ... كرامُ المداخِلِ والمَخْرَجِ
بما صبروا تحت ظل اللواء ... لواء الرسول بذي الأَضْوُجِ[3]
غداة أجابت بأسيافها ... جميعًا بنو الأوس والخزرج
وأشياع أحمدَ إذ شايعوا ... على الحق ذِي النور والمنهج

(١) الزلف: جمع زلفة؛ وهي القربة والمنزلة.

(٢) نشجت: بكيت، والنشيج: البكاء مع صوت متردد. وتلجج: هو من اللجج؛ وهو: التمادي في الشيء والإقامة عليه.

(٣) الأضوج: جمع ضوج؛ وهو: جانب الوادي.

فما برِحُوا يضربونَ الكُماة ويمضون في القَسطَلِ المُرْهَجِ[(١)]
كذلكَ حتى دعاهم مليكٌ إلى جنةٍ دَوْحةِ المُوْلَجِ[(٢)]
فكلُّهُمُ مات حُرَّ البلاءِ على ملّةِ اللّه لم يَحْرَجِ[(٣)]
كحمزة لَمّا وَفى صادقًا بذي هبَّةٍ صارمٍ سَلْجَجِ[(٤)]
فلاقاهُ عبدُ بني نوفلٍ يُبربِرُ كالجمل الأدْعَجِ[(٥)]
فأَوْجَرَهُ حربةً كالشهاب تَلَهَّبُ في اللهَب الموهجِ[(٦)]
ونعمان أوفى بميثاقه وحنظلةُ الخير لم يُحْنَجِ[(٧)]
عن الحق حتى غدت روحه إلى منزلٍ فاخرِ الزِّبْرِجِ[(٨)]
أولئك لا منْ ثَوَى منكمُ من النار في الدَّرْكِ المُرْتَجِ[(٩)]

وقال حسان بن ثابت يرثي حمزة وشهداء أُحُد:

أشاقكَ من أم الوليدِ رُبوعُ بَلاقِعُ ما من أهلهن جميعُ[(١٠)]
عفاهُن صَيْفِيُّ الرياح وواكِفٌ من الدَّلْوِ رجافُ السحَاب همُوعُ[(١١)]
فلم يبق إلا مَوْقِدُ النار حوْله رواكدُ أمثالُ الحَمام كُنُوعُ[(١٢)]

---

(١) الكماة: الشجعان، واحدهم كمي. والقسطل: الغبار. والمرهج: الذي ثار حتى عَلَا وارتفع في الجو.
(٢) الدوحة: الكثيرة الأغصان. والمولج: المدخل؛ وأراد هنا: أن الجنة كثيرة الأبواب.
(٣) لم يحرج: لم يأثم.
(٤) بذي هبة: أراد به سيفًا. وهبة السيف: وقوعه بالعظم. والصارم: القاطع. سلجج: مرهف حادٌّ قاطع.
(٥) أراد بعبد بني نوفل: وحشيًّا. ويبربر: يتكلّم بما لا يفهم. والجمل الأدعج: الأسود.
(٦) أوجره: طعنه في صدره. والشهاب: القطعة من النار. والموهج: المتّقد.
(٧) لم يحنج: لم يصرف عن وجهه الذي أراد من الحق.
(٨) الزبرج: المُوَشَّى؛ وهو أيضًا الذهب.
(٩) المرتج: المغلق؛ تقول: أرتجت الباب: إذا أغلقته.
(١٠) ربوع: جمع ربع؛ وهو: المنزل. وبلاقع: جمع بلقع؛ وهو: القفر الخالي. وجميع: مجتمع مؤتلف.
(١١) عفاهن: غيرهن ودرس جدتهن. وواكف: المطر السائل. وقوله: من الدلو: أراد نجم الدلو. ورجاف: متحرك شديد الصوت. وهموع: سائل كثير السيلان.
(١٢) رواكد: جمع راكدة؛ وهي: الثابتة، وأراد بالراكدة: الأثافي؛ وهي: الحجارة التي ينصبونها لوضع القدور عليها. وكنوع: لاصقة بالأرض.

فدعْ ذكرَ دارٍ بَددتْ بين أهلها نوى لِمَتِينَاتِ الحِبَال قَطوع[(١)]

وقُلْ إنْ يكن يومٌ بأُحْدٍ يعده سفيهٌ فإن الحق سوف يشيع[(٢)]

فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكرٌ هناك رفيعٌ

وحامى بنو النجار فيه وصابروا وما كان منهم من اللقاء جزوع

أمام رسول اللَّه لا يخذلونه لهم ناصرٌ من ربهم وشفيع

وَفَوْا إذ كفرتُمْ يا سَخِينَ بربكُم ولا يستوي عبدٌ وَفى وَمُضيْع[(٣)]

بأيديهمُ بِيْضٌ إذا حَمِش الوغى فلا بد أن يَرْدَى لهن صريع[(٤)]

كما غادرت في النقْع عُتْبَة ثاوِيا وسَعْدًا صريعًا والوَشِيْجُ شُرُوع[(٥)]

وقد غادرت تحت العجاجَة مُسْنِدًا أبِيًّا وقد بَلَّ القميصَ نَجِيْع[(٦)]

بكف رسول اللَّه حيث تنصبَتْ على القوم مما قد يُثِرْنَ نُقُوع[(٧)]

أولئك قوم سادة من فُرُوعكم وفي كل قومٍ سادةٌ وفُرُوع

بهن نُعِزُّ اللَّه حتى يُعِزَّنا وإن كان أمرٌ يا سَخِيْنُ فَظِيع[(٨)]

فلا تذكروا قتلى وحمزةُ فيهمُ قتيل ثَوَى لله وهو مطيع

فإن جِنان الخُلْدِ منزلةٌ له وأمرُ الذي يقضي الأمورَ سريعُ

وقتلاكُمُ في النار أفضل رزقهم حَمِيْمٌ مَعًا في جوفها وضَرِيْعُ[(٩)]

---

(١) النوى: البعد. ومتينات الحبال: الغليظ الشديد منها. وقطوع: شديدة القطع، وأراد هنا بالحبال: الوصال والاجتماع بين الأهل والمحبين.

(٢) يشيع: يفشو أمره وينتشر ذكره وينبه شأنه.

(٣) يا سخين: أراد يا سخينة؛ وهي: الحساء يتخذ من الدقيق، وكانت قريش تعبز بها.

(٤) حمش: اشتدَّ وقوي. والوغى: الحرب. وَيَرْدَى: يَهْلِكُ.

(٥) غادرت: تركت. والنقع: الغبار. وثاويًا: مقيمًا. والوشيج: الرماح. وشوج: مائلة للطعن.

(٦) العجاجة: الغبرة والتراب الثائر. والنجيع: الدم.

(٧) نقوع: جمع نقع؛ وهو: الغبار.

(٨) يا سخين: مضى تفسيرها قريبًا. والفظيع: الثقيل الكريه.

(٩) الحميم: الحار. والضريع: نبات أخضر يرمى به في البحر؛ **وانظر**: القصيدة في «سيرة ابن هشام» (٣/ ١٠٧ - ١١٠).

وقال حسان بن ثابت يرثي حمزة سيد الشهداء:

أتـعْـرِفُ الـدَّارَ عَـفَـا رَسْـمُـهَـا ... بعدكَ صَوْبُ المُسْبِلِ الهاطِلِ[(١)]

بـيـن الـسـراديـح فـأُدْمَـانَـةٍ ... فَمَدْفَعُ الرَّوْحاء في حائلِ[(٢)]

سألتُها عن ذاكَ فاسْتَعْجَمَتْ ... لم تدْرِ ما مَرْجُوعَةُ السائلِ[(٣)]

دَعْ عنكَ دارًا قد عفَا رَسْمُهَا ... وابْكِ على حمزةَ ذِي النائلِ[(٤)]

المالئ الشِّيزَى إذا أعْصَفَتْ ... غبراءُ في ذِي الشَّبِمِ الماحِلِ[(٥)]

والتاركِ القِرْن لذي لِبْدَة ... يَعْثُر في ذي الخُرْصِ الذابلِ[(٦)]

واللابس الخيل إذا أحْجَمَتْ ... كالليث في غايته الباسل

أبيض في الذِّرْوَة من هاشمٍ ... لم يَمِرْ دون الحق بالباطل[(٧)]

مال شهيدًا بين أسيافكم ... شُلَّت يدا وَحْشِيٍّ من قاتل

أي امرئٍ غادر في آلةٍ ... مَطْرورَةٍ مارِنَةِ العامل[(٨)]

أظلمت الدنيا لِفِقْدانِهِ ... واسود نور القمر الناصِل[(٩)]

صلى عليه اللّه في جنةٍ ... عاليةٍ مُكْرَمَةِ الداخِلِ

---

(١) عَفَا: غير ودرس. ورسمها: أثرها. والصوب: المطر. والهاطل: الكثير السيلان.

(٢) السراديح: جمع سرداح؛ وهو: الوادي، ويقال: المكان المتَّسع. وأدمانة: مكان بعينه. والمدفع: حيث يندفع السيل. والروحاء: اسم موضع. وحائل: جبل.

(٣) استعجمت: لم ترد جوابًا. ومرجوعة السائل: رجوع جوابه.

(٤) النائل: العطاء.

(٥) الشيزى: الجفان المصنوعة من خشب الشيز؛ وأعصفت: اشتدَّت؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت: إذا اشتدَّ هبوبها. والغبراء: التي تثير الغبار وتهيجه. والشبم: الماء البارد. والماحل: من المحل؛ وهو: القحط.

(٦) القرن: الذي يقاومك في القتال. واللبدة: الغبار الملبد. وذو الخرص: الرمح. والخرص: سنانه، وجمعه: خرصان. والذابل: الرقيق الشديد.

(٧) لم يمر: لم يمار ولم يجادل.

(٨) غادر: ترك. وآلة: الحربة التي لها سنان طويل. والمطرورة: المحددة. والمارنة: اللينة. والعامل: أعلى الرمح.

(٩) الناصل: الخارج من السحاب.

كنا نرى حمزة حرزًا لنا ... في كل أمرٍ نابنا نازلِ
وكان في الإسلام ذا تُدْرَإٍ ... يكفيكَ فَقْدَ القاعِد الخاذِل[(١)]
لا تفرحي يا هند واستَجْلِبي ... دمعًا وأذْري عَبْرَةَ الثاكل[(٢)]
وابكي على عتْبة إذ قطَّهُ ... بالسيف تحت الرَّهج الجائل[(٣)]
إذا خرَّ في مشيخةٍ منكُمُ ... من كل عاتٍ قلبه جاهل
أرداهُمُ حمزةُ في أُسْرَةٍ ... يمشون تحت الحَلَقِ الفاضِلِ[(٤)]
غداة جِبْريل وزيرٌ له ... نِعْمَ وزيرُ الفارس الحامِلِ[(٥)]

وقال كعب بن مالك يبكي حمزة رضي الله عنه:

طَرقَتْ همومُكَ فالرقادُ مُسَهَّدُ ... وجزعتَ أَنْ سُلِخَ الشبابُ الأغْيدُ[(٦)]
ودَعَتْ فؤادَكَ للهوى ضمْرية ... فهواكَ غوْريٌّ وصَحْبُكَ مُنْجدُ[(٧)]
فدعِ التمادي في الغَوايةِ سادرًا ... قد كنت في طلب الغَواية تُفْنَدُ[(٨)]
ولقد أَنَى لكَ أنْ تناهى طائعًا ... أو تستفيق إذا نهاكَ المرشد[(٩)]
ولقد هُدِدْت لفَقْدِ حمزة هَدَّةً ... ظلتْ بناتُ الجَوْف منها تُرْعَد[(١٠)]

(١) دا تدرأ: كثير الدفاع عنا.

(٢) أَذْري: اسكبي واسترخصي. والعَبْرة: الدمعة. والثَّاكل: المرأة التي فقدت ولدها.

(٣) قَطَّهُ: قطعه نصفين. والرهج: الغبار. والجائل: المتحرك الثائر مما أثارته سنابك الخيل وأقدام المحاربين.

(٤) أرداهم: أوردهم الردى؛ وهو: الهلاك. وأسرة: قرابة؛ وذلك لأن حمزة قَتَلَ عتبة وشيبة أخاه وحنظلة بن أبي سفيان وأمه هي هند. والحلق: الدروع. والفاضل: الذي يفضل عن لابسه، ويزيد عنه، وينجرُّ على الأرفق.

(٥) سيرة ابن هشام (٣/١٣٢ - ١٣٥).

(٦) المسهد: القليل النوم في الأصل؛ وأراد المسهَّد صاحبه؛ فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. سلخ: أزيل. الأغيد: الناعم.

(٧) ضمرية: منسوبة إلى بني ضمرة، إحدى القبائل العربية. وغوري: منسوب إلى الغور؛ وهو: المنخفض من الأرض.

(٨) الغاوي: ضد الراشد؛ وهو: المتحير في سبيل الضلال. وتفند: تلام وتعذل وتكذب. والفند أيضًا: الكلام الذي لا يعقل.

(٩) أَنَى: حان.

(١٠) بنات الجوف: أراد قلبه وما اتصل به من كبده وأمعائه؛ لأن الجوف يضمُّها ويشتمل عليها.

وَلَوَ انَّهُ فُجِعَتْ حِراءُ بمثلِه ... لرأيتَ رَاسِي صخرِها يتبددُ[١]
قِرْمٌ تَمكَّنَ في ذؤابةِ هاشمٍ ... حيثُ النبوةُ والندي والسؤددُ[٢]
والعاقِرُ الكُوم الجِلادِ إذا غدت ... ريحٌ يكادُ الريح فيها يَجْمُدُ[٣]
والتاركُ القِرْن الكَمِي مُجدّلًا ... يومَ الكريهة والقَنا يتقَصّدُ[٤]
وتراه يرْفُلُ في الحديد كأنه ... ذو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَرَاثِنِ أَرْبَدُ[٥]
عَمُّ النبيِّ محمدٍ وصفيُّهُ ... ورَدَ الحِمَامَ فطاب ذاك المورد
وأتى المنيةَ مُعْلَمًا في أُسْرَةٍ ... نصروا النبي ومنهمُ المُسْتَشْهِدُ[٦]
ولقد إخالُ بذاك هِنْدًا بُشِّرَتْ ... لِتُمِيتَ داخلَ غُصَّةٍ لا تَبْرُد[٧]
مما صَبحْنا بالعَقَنْقَلِ قومَها ... يومٌ تَغَيَّبَ فيه عنها الأسعد[٨]
وببئر بدرٍ إذ يرُدُّ وجوهَهم ... جبريلُ تحتَ لوائنا ومحمدُ
حتى رأيتُ لَدى النبي سراتَهم ... قِسْمَين نَقْتُلُ من نشاء ونطْرُدُ[٩]
فأقامَ بالعطَنِ المُعطَّنِ منهمُ ... سبعون عُتْبَةُ منهمُ والأسود[١٠]
وابنَ المُغيرَةِ قد ضربنا ضَرْبة ... فوق الورِيْد لها رَشَاشٌ مُزْبِدُ[١١]

---

(١) حراء: اسم جبل، وَأَنَّثَهُ؛ باعتباره بقعة من الأرض. والراسي: الثابت. ويتبدد: يتفتت.

(٢) القرم: الفحل. وذؤابة هاشم: أعاليها؛ وأراد: أسمى أنسابها وأرفعها.

(٣) الكوم: جمع كوماء؛ وهي من الإبل العظيمة السنام. والجلاد: القوية. وريح يكاد الماء فيها: يجمد أيام الشتاء.

(٤) الكميُّ: الشجاع. ومجدَّلًا: مطروحًا على الجدالة؛ وهي: الأرض. ويتقصَّد. يتكسَّر.

(٥) يرفل: يمشي مختالًا. والحديد: الدروع. وذو لبدة: الأسد؛ واللبدة: الشعر الذي على كتفي الأسد. وشثن: غليظ. والبراثن: هي للأسد بمنزلة الأصابع للإنسان. وأربد: أغبر يُخالط لونَهُ سوادٌ.

(٦) معلمًا: مشهرًا نفسه بعلامة تميزه من سائر المحاربين. وأسرة: رهط.

(٧) إخال: أظنُّ. والغصة: ما يقف في الحلق؛ فيخنق.

(٨) العقنقل: الكثيب من الرمل؛ أراد به: كثيب بدر. وصبحناهم: أتيناهم صباحًا للغارة عليهم.

(٩) سراتهم: أشرافهم وخيارهم. ونطرد: نسوقه؛ كما تساق الأنعام؛ يريد: إنَّا قتلنا قسمًا وأسرنا قسمًا آخر.

(١٠) العطن: مبرك الإبل حول الماء. والمعطن: الذي عود أن يتَّخذ عطنًا.

(١١) الوريد: عرق في صفحة العنق. ورشاش مزبد: يريد دمًا تعلوه الرغوة.

وأُمـيـةُ الجُمَـحِـي قَـوَّمَ مَـيْـلَـهُ ... عَضْبٌ بأيدي المؤمنين مُهَنَّدُ[١]
فـأتـاك فَـلُّ المشـركـين كـأنـهُـم ... والخيلُ تَثْفُنُـهُـم نـعامٌ شُـدَّدُ[٢]
شَتَّانَ مَنْ هو في جهنم ثاويًا ... أبدًا ومن هو بالجِنان مُخَلَّدُ[٣]

وقال كعب بن مالك يرثي حمزة رضي الله عنه:

صَـفِـيـةُ قـومـي ولا تـعـجـزي ... وبَـكِّـي الـنـسـاءَ عـلـى حـمـزةِ
ولا تَـسْـأَمِـي أن تُـطِـيلي الـبُـكا ... عـلـى أسـدِ الـلـهِ في الـهِـزَّةِ[٤]
فـقـد كـان عـزًّا لأيـتـامِـنـا ... ولـيـثَ الملاحِـمِ في الـبِـزَّةِ[٥]
يـريـدُ بـذاك رِضـا أحـمَـدِ ... ورضـوانَ ذي العـرشِ والعِـزَّةِ[٦]

وقال كعب بن مالك يرثي حمزة رضي الله عنه[٧]:

بَكَتْ عَيْني وحق لها بُكاها ... وما يُغني البكاءُ ولا العويلُ[٨]
عـلـى أسـدِ الإلـه غـداة قـالـوا ... أحـمـزةُ ذاكُـمُ الـرجـلُ الـقـتـيـلُ
أصيـب المسلمون به جـمـيـعًـا ... هنـاك وقـد أصـيـبَ بـه الـرسـولُ
أبـا يَـعْـلَـى لـكَ الأركـانُ هُـدَّتْ ... وأنـت الماجـدُ الـبَـرُّ الـوَصـولُ[٩]
عـلـيـك سـلامُ ربـك في جِـنـانٍ ... مُـخـالِـطُـهـا نـعـيـمٌ لا يَـزُولُ
ألا يـا هـاشـم الأخـيـار صـبـرًا ... فـكُـلُّ فـعـالـكـم حَـسَـنٌ جـمـيـلُ

---

(١) عضب: سيف قاطع.

(٢) فَلُّ المشركين: المنهزمون منهم. وتَثْفُنُهُم: تطردهم وتتبع آثارهم، وأصله: الأول، من ثفنات البعير؛ وهي ما حول الخف. وشرد: جمع شاردة.

(٣) ثاويًا: مقيمًا ليس يبرحها، ويروى: «تاويًا»؛ وهو الهالك. **انظر**: سيرة ابن هشام (٣/١٣٦ - ١٣٨).

(٤) الهزة: الاختلاط في الحرب.

(٥) الملاحم: جمع ملحمة؛ وهي: الحرب التي يكثر فيها القتلى.

(٦) سيرة ابن هشام (٣/١٣٩، ١٤٠).

(٧) وتروى هذه القصيدة لعبدالله بن رواحة أيضًا؛ **انظر**: سيرة ابن هشام (٣/١٤٨).

(٨) العويل: البكاء مع ارتفاع الصوت.

(٩) أبو يعلى: هي كنية حمزة رضي الله عنه، وكان حمزة يكنى بابنه يعلى، ولم يعش لحمزة ولد غيره، وأعقب يعلى خمسة من البنين ثم انقرض عقبهم، وكذلك كان يكنى أبا عمارة. والماجد: الشريف.

رسول اللهِ مُصْطَبِرٌ كَرِيمٌ	بأمر اللهِ يَنْطِقُ إذ يقولُ
ألا مَنْ مُبَلِّغٌ عني لُؤَيًّا	فبعد اليوم دائلةٌ تَدُولُ[١]
وقبل اليوم ما عَرَفُوا وذاقوا	وقائعنا بها يُشْفَى الغليلُ[٢]
نَسِيتُمْ ضربنا بقَلِيبِ بدرٍ	غداةَ أتاكمُ الموتُ العَجِيلُ[٣]
غداةَ ثوَى أبو جَهْلٍ صريعًا	عليه الطير حائمة تجولُ[٤]
وعُتْبةُ وابنه خرًّا جميعًا	وشَيْبَةُ عَضَّهُ السيفُ الصَّقِيلُ[٥]
وَمَتْرَكُنا أُميةَ مُجْلَعِبًّا	وفي حَيْزُومِهِ لَدْنٌ نبيلُ[٦]
وَهَامَ بنو ربيعة سائِلوها	ففي أسيافنا منها فُلُولُ
ألا يا هندُ فابْكِي لا تَمَلِّي	فأنتِ الوالِهُ العَبْرى الهَبُولُ[٧]
ألا يا هند لا تُبْدِي شَمَاتًا	بحمزةَ إن عِزَّكُمُ ذليلُ[٨]

تلك غيضٌ من فيض القصائد التي قيلت في رثاء حمزة والشهداء الآخرين في غزوة أُحُد، تدل دلالة واضحة على مبلغ حزن المسلمين كافة على استشهاد حمزة بخاصة والشهداء الآخرين بعامة، وهي إن دلت على شيء، فإنما تدل على سجاياه الرفيعة التي كان يتمتع بها حيًّا، والفراغ الهائل الذي خَلَّفَهُ بعد استشهاده.

❑ لكنَّ حمزة لا بواكي له!!

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: «**سمع رسول الله** ﷺ نساء الأنصار يبكين على هَلْكَاهُنَّ؛ فقال: «**لكن حمزة لا بواكي له**»؛ فَجِئْنَ فبكين على حمزة

(١) دائلة تدول: يريد دائرة الحرب.
(٢) الغليل: حرارة الجوف من عطش أو حزن.
(٣) العجيل: العاجل السريع.
(٤) حائمة: تدور حوله. وتجول: تجيء وتذهب.
(٥) خرًّا جميعًا: سقطا على الأرض.
(٦) مجلعبًّا؛ معناه: أنه ممتد مع الأرض. والحيزوم: أسفل الصدر. واللدن: الرمح اللين.
(٧) الْوَالِهُ: الشديد الحزن. والعبرى: الكثيرة الدمع. والهبول: التي فقدت عزيزها.
(٨) سيرة ابن هشام (١٤٨/٣، ١٤٩)، **وانظر**: الاستيعاب (٣٧٤/١، ٣٧٥)، والإصابة (٣٨/٢).

عنده، إلى أن قال: «**مروهُنَّ لا يبكين على هالكٍ بعد اليوم**»[(١)].

يَا لَهَا من كلمة تمثل حزن النبي البالغ على فَقْدِ حمزة..

بكى فيه البطولة والفروسية والغيرة وحب الجهاد والبذل والعطاء..

فهل من معتبر بمصاب الإسلام الأكبر في واقعنا المعاصر؟!

❑ ولكن الإسلام ودياره لا بواكي له ولها!!

في واقعنا تدْمى القلوب قبل العيون صارخة... ولكن السيف لا بواكي له...
ولكن الأعراض لا بواكي لها... ولكن الإسلام لا بواكي له...

فكَمْ من مسجدٍ جَعَلُوهُ ديرًا ... على محرابه رُسِمَ الصليبُ
دم الخنزير فيه لهم خَلُوفٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيه طِيبُ

❑ وهذي صرخات طفلةٍ من البوسنة:

في عالم قَطَعَ الرقاب وأشعل النيران في صدر العَذَارَى المؤمناتْ!!
في عالم جَعَلَ البطون خنادقًا للموت أطلق في بيوت اللَّه رِجْسَ المَعْصِيَاتْ!!
في عالم فَقَأَ العيون وَغَاصَ في دم الصغار وأسكت الصلواتْ!!
في عالمٍ أعطى الكلاب الحق في عِرض البناتْ!!
مِنْ ثدي أمي كان لَوْنُ الدم يحكي قصة الأهوال في الزمن اللَّعينْ!!
كَفَّنْتُ بين يدي وجهيَ وانحنيتُ على التراب أُقَبِّلُ الأَب الحنونْ!!
وقد توارى في قطار الراحلينْ.
ومضيتُ عاريةً أُغطي عُرْيَ نفسي والقطار الأسود الملعونْ!!
يطوي ليلنا الدامي الحزينْ!!
الآن يا مولاي في صَمْتِ المنابر

---

(١) **إسناده قوي**: أخرجه أحمد، وابن ماجه، وابن سعد، والحاكم وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في «البداية» (٤/٤٨): هو على شرط مسلم.

يشرب الأوْغاد دم المسلمينْ!!

الآن يأكل ثَدْيَ أُمي ألفُ نخاسٍ!!

ويشرب من دمائي ألف قَوَّادٍ!!

ويعبث في مآذننا ضلالُ المُفسدينْ!!

الآن أرحل في قطار الموت ألعنُ كل خائنْ!!

من خان يومًا مسجدًا من باع آلاف المآذنْ!!

لا تسأل البحَّارَ حين يموتُ مَن في البحر مَنْ خَرَقَ السفائِنْ!!

الآن يا مولاي نرحل في قطار الموت تبكينا المدائنْ!!

فالكل يا مولاي خائنٌ فالكل يا مولاي خائنْ[1] !!

❑ في البوسنة!!

ذبح الآباء أمامَ الأبناء... صَبُّ المسكرات بالقوة في أفواه القاصرات وحقنهن بدماء الخنازير قبل الاغتصاب...

امرأة تموت فورًا؛ فيغتصبها جندي صربي مباشرة بعد مَوْتها...

وكان يقول: لا تزال ساخنة، يمكنني أن أفعل ذلك...

ذُبِحَ الآلاف؛ كما تُذْبَحُ الشياه... قطع رءوسهم بالمنشار الكهربائي، وتعليق رءوسهم على جانبي الطُّرُق وفي المساجد...

اغتصاب المئات من القاصرات؛ ما بين خمسة سنوات إلى اثنتي عشرة سنة... اغتصاب آلاف المسلمات...

فالبكاء على حمزة... على أسد الله... الذي كان مدْرَهًا[2] يذود عن الإسلام كل كفور...

---

(١) «رسالة من طفلة مسلمة بالبوسنة»، لفاروق جويدة.

(٢) سيدًا.

البكاء على حمزة... البكاء على الإسلام الآن أَشْجَي:

يا سيدي... فَلَأَعْتَرِفْ

أن الجواد الجامح المجنون قد خسر الرهانْ

وبأن أوحال الليالي السُود

فوق رءوسنا

صارت ثياب الملك والتيجانْ

وبأنَّ أشباه الرجال تحكموا

وبأنَّ هذا العصر للغلمانْ

يا سيدي... فَلَأَعْتَرِفْ

أن المآذن لا تساوي رقصة

أو هَزَّ خصر في حمى السلطان

أن الفراشات الجميلة

لن تقاوم خسة الثعبانْ

أن الأسود تموت حُزْنا

عندما تتحكم الفئرانْ

أن السماسِرة الكبار توحشوا

باعُوا الشعوب وأجهضوا الأوطانْ

وَلَأَعْتَرِفُ يَا سَيِّدِي

أني وَفَيْتُ... وأن غيري خانْ

أني نزفتُ رحيقَ عمري كي يطل الصبحُ

لكنْ خانني الوغْد الجبان

قتلوا الشباب وصوْلة الفرسانْ

في زمنِ النخاسَة والهوانْ
سجنوا الزهور وفجر العمر قربانًا
لأصنام تبيع الإفك جهرًا
في حِمَى الشيطانْ
القدس ترسم وجْهَ أحمدَ
والملائك حولهُ
والكون يتلو سورة الرحمنْ
القدس في الأفق البعيدِ
تُطِل أحيانًا وفي أحشائها
طَيْفُ ابن زنكي وحوْله الفُرْسانْ
القدس تبدو في ثِيَاب الحزنِ
قنديلًا بلا ضوءٍ
بلا نبضٍ.. بلا ألوانْ
تبكي كثيرًا
كلما حانت صلاةُ الفجرِ
وانطفأتْ عيونُ الصبح
وانطلق المؤذنُ بالأذانْ
القدسُ تسألُ
كيف صار الابنُ سمسارًا وباع الأم
في سوق الهوان بأرخص الأثمانْ
صوتُ المآذِنِ والمنابر لم يزلْ
في القدسِ يرفع راية العصيانْ

اللّه أكبرُ منكَ يا زمَن الهوانْ
اللّه أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ
اللّه أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ

* * *

كانت لنا يومًا.. هنا أوطانْ
وطنٌ بلوْنِ الصبْحِ كانْ
وطنٌ بلون الفرح
حين يجيءُ منتصرًا على الأحزانْ
وطنٌ أَضَاءَ الكون عمرًا
بالسماحةِ... والهدايةِ ... والأمانْ
وطنٌ على أرجائه الخضراء هَلَّ الوحيُ
في التوراة ... والإنجيل ... والقرآنْ
في كل شبرٍ مِن ثَرَاه
تمهل التاريخُ... وانتفضَ الزمانْ
وطنٌ بلونِ الصبح كانْ
يمتد مِن صوْت المؤذنِ
في رُبوعِ الشام ... للسودانْ
ينسَابُ فوق ضفاف دجلة ينتشي فيها
ويخشعُ في رُبَا لبنانْ
ويُطِلَ فوق خمائِل الزيتونِ
في بغداد.. في حلب.. وفي عمانْ

عَيْنَاهُ دجلةُ والفراتُ
جناحه يمتد في اليمنِ السعيد
إلى ضفاف المغرب العربي
من أقصى الخليج إلى ذُرَا أسوانْ
وُلِدَ الزمانُ وكبر الهرمانْ
القلب في سَيْنَاءَ ينبضُ
يحملُ الوحي المتوج بالجلال
فيخسَأ الشيطانْ
وطنٌ تطوف عليه مكة كعبةُ الدنيا
وبيتُ الحق .. والإيمانْ
وطنٌ عنيدٌ أيقظ الدنيا
وعلمها طريق المجد
علمها أي الذكرِ
علمها البيانْ

* * *

وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
ماذا تَبَقَّى منهُ
الآن تأكلهُ الكلابُ وترتوي
بالدم فوق ربوعه الديدانْ
الآن ترحل عنه أفواجُ الحمام
وَتَنْعَق الغربانْ

الآن تَرْتَعُ فيه أسراب الجراد
وتعبث الفئرانْ
الآن يأتي الماءُ مسمومًا
ويأتي الخبزُ مسمومًا
ويأتي الحلمُ مسمومًا
ويأتي الفجر مصلوبًا على الجدرانْ
وطنٌ بلون الفرح يبدو الآن محمولًا
على نعش مِنَ الأحزانْ
جسدٌ هزيلٌ في صقيعِ الموتِ
مصلوبٌ بلا أكفانْ
وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
الآن ترتحلُ الرجولةُ عن ثَرَاهُ
ويسقط الفرسانْ
في ساحة الدجل الرخيصِ
يغيبُ وجْهُ الحق
تسقط أمنياتُ العمر
يزحَفُ موكبُ الطغيانْ
في ساحةِ القَهْرِ الطويل
يضيع صوتُ العدْل
تخبو تسبيحاتُ الفجرِ
تعلُو صيحةُ البهتانْ
وطنٌ بلونِ الصبحِ كانْ

وطنٌ كبيرٌ أنت في عيني
هزيلٌ في ظلامِ السجن والسجانْ
وطنٌ جسورٌ أنت في عيني
ذليلٌ في ثياب العجْز والنسيانْ
وطنٌ عريقٌ أنت في عيني
أراكَ الآن أطلالًا
بلا اسم.. بلا رسْم.. بلا عنوانْ
وطنٌ بلون الصبح كانْ
في أي عين
سوف أحمي وجه ابني
بعدما صلبوا صلاح الدين
يا وطني على الجدرانْ
في أي صدر
سوف يسكن قلبُ ابني
بعدما عزلُوا صلاح الدين
من عينْ الصغار... وَتَوَّجُوا دَيَّانْ
يا للمهانة عندما تغدو سيوف المجد
أَوْسمةً بلا فرسانْ
يا للمهانة عندما يغدو صلاح الدين
خلف القدس مطرودًا
بلا أهل.. بلا سكن .. بلا وطن.. بلا سلطانْ
في كل شيء أنت يا وطني مهانْ

مَنْ عَلَّمَ الأسد الأبي
بأنْ يُنَكِّسَ رأسه ويهادن الجرذانْ
مَنْ عَلَّمَ الفرس المكابَر
أن يهرول ساجدًا في موْكب الحملان
من علَّم القلبَ التقي
بأن يبيع صلاته ويعود للأوثانْ
من عَلَّمَ الوطنَ العريقَ
بأن يبيع جنودَهُ...
ويقايض الفرسانَ بالغلمانْ
مَنْ علَّم الوطنَ العزيزَ بأن يبيعَ تُرابَهُ
للراغبين بأبخسِ الأثمانْ
مَنْ عَلَّمَ السيفَ الجسورَ
بأن يُعانِقَ خَصْمَهُ
ويعلق الشهداءَ في الميدانْ
يأَيهَا الوطن المهانْ
إني بريء منكَ
أيها الزمن الجبانْ
إني بريء منك يا
عصرَ الضياع وسطوةَ الخصيانْ
إني بريء منكَ...
مِنْ كَفُورك والجبانْ(١)

(١) من قصيدة «رسالة إلى صلاح الدين»، لجويدة، مع تصرف يسير.

١٦

سيف اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وفارس الإسلام، وليث الْمَشاهد

السيد الإمام الكبير

قائد المجاهدين السداد لنحور العدو

الولي

أبو سليمان

خالد بن الوليد القرشي المخزومي

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

١٦

سيف اللّه - تَعالى -، وفارس الإسلام، وليث المَشاهد

السيد الإمام الكبير قائد المجاهدين السداد لنحور العدو الولي أبو سليمان

خالد بن الوليد القرشي المخزومي

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث - رضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -.

لما أتى خالد بن الوليد مسلمًا هو وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال ﷺ: «**ألقت إليكم مكة أفلاذ أكبادها**»، وقال النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك**».

قال خالد: فوالله، ما كان رسول اللّه ﷺ يوم أسلمتُ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما يُجزئه.

وفي رواية: فيما كان حَزَبَهُ. **وفي رواية عمرو:** في أمر حربه[١].

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: ما عدل بي رسول اللّه ﷺ وبخالدٍ أحدًا منذ أسلمنا في حربه[٢].

لحظة باهرة خشع فيها قلب خالد رضي الله عنه، وتلقَّت روحه فيها عَبَقًا من الجنان، وقال: «**والله، لقد استقام الْمَنْسم .. وإن الرجل لرسول.. فحتَّى متى؟؟ أذهبُ واللّه فَأُسْلِمُ**»، وأسلم فارس قريش، وصاحب أَعِنَّةِ الخيل فيها، وَوَلَّى ظهره لآلهة آبائه وتفجرت أشواقه إلى خدمة الإسلام، وإلى استشهاد عظيم في سبيل اللّه ينضو عن كاهله أوزار مناصرته الباطل في أيام الجاهلية الخاليات... ومع إسلامه كان من أمره

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٢، ٧/٣٩٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/٣٤٣) (أبواب جماع السرايا التي تُذكر بعد فتح خيبر - باب ذكر إسلام عمرو بن العاص).

العجب العجاب.

وسجل هذه اللحظة شعر أحمد محرم فقال عن إسلام خالد وعمرو وعثمان ابن أبي طلحة:

نشط الهمامُ وراح يُدرك نفسه ... يبغي لها عند النبي ذماما
ألقى إلى الوادي الخصيب بِرَحله ... فأصاب فيه مرتعًا وقساما[١]
أيقيمُ بالوادي الجديب فلا يرى ... إلا سرابًا كاذبًا وجهاما[٢]
وَمشوْا فما بلغ الرسول حديثهم ... حتى بدا متهلِّلاً بسَّاما
سَرّتْهُ مكةُ إذ رمتْ أفلاذها ... كبدًا تكنُّ الحب والإعظاما
بعثت إليه من الجبال ثلاثةً ... رضوى يُصاحِب يَذْبُلاً وشِماما[٣]
وفدوا كرامًا يؤمنون بربهم ... ورسوله بيضَ الوجوهِ وساما
نفضوا الهوان عن الجباه فأصبحوا ... شُمَّ المعاطِس يرفعون الهاما[٤]

* * *

صعقت نفوس المشركين وهالهم ... هَمٌّ إذا انجلت الهمومُ أقاما
قالوا فقدناهم ثلاثة قادةٍ ... ما مثلهم بأسًا ولا إقداما
نزل البلاء بنا فكان مُضاعفا ... وجرى العذاب معًا فكان غراما

* * *

إني إخالُ البيت يُشرق جَوُّهُ ... وإخالُ مكة ترفع الأعلاما
يا ابن الوليد لك الأَعِنَّةُ كلُّها ... فالْقَ المقانِب[٥] وادفع الأقواما
سترى المشاهد ترجف الدنيا لها ... وترى الحصون تميد والآطاما

---

(١) المسام: المرعى.
(٢) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(٣) رضوى، ويذبل، وشمام أسماء جبال.
(٤) المعاطس: جمع معطس؛ وهو: الأنف. والهام: جمع هامة؛ وهي: الرأس.
(٥) المقانب: جمع مقنب؛ والمقنب: الجماعة من الخيل من الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاث مئة.

بشِّرْ حماة الشرك منك بوقعةٍ   تُوهي القُوى وتزلزل الأقداما[1]

❑ نِعْمَ عبدُاللهِ خالدٌ، سيفٌ من سيوف الله:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نِعْمَ عبدُاللَّه خالدٌ، سيفٌ من سيوف الله**»[2].

جهاده مع الرسول ﷺ

❑ في مؤتة خالد سيف الله يصنع الأعاجيب:

بعث النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي رسولًا إلى ملك «**بصرى**» يدعوه إلى الإسلام، فَقُتِلَ في «**مؤتة**»، ولم يُقتل لرسول اللَّه ﷺ رسول غيره؛ لذلك ندب الناس، فأسرعوا وعسكروا «**بالجُرف**» وهم ثلاثة آلاف، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبداللَّه بن رواحة، فإن قتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلًا فيجعلوه عليهم**».

سار المسلمون حتى إذا كانوا بتخوم «**البلقاء**»[3] لقيتهم جموع الروم، والتقى الطرفان في «**مؤتة**»؛ فقاتل زيد بن حارثة حتى شاط في رماح الروم؛ فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها وقاتل حتى قتل؛ ثم أخذ الراية ابن رواحة، فقاتل حتى قتل.

في هذا الموقف العصيب الذي كان المسلمون فيه يواجهون قوات معادية لها فواق عليهم فواقًا ساحقًا بالعَدد والعُدد؛ فقد كانت قوات الروم بقيادة هرقل مؤلفة من مئة ألف من الروم، وانضمت إليها العرب المستعربة من لخم وجذام وبلقين

---

(١) ديوان مجد الإسلام ص (٣٤١ - ٣٤٤) باختصار.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، والترمذي، وابن عساكر (٥/٢٧٢/٢)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٣٧)، و«صحيح الجامع» (٦٧٧٦).

(٣) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان.

وبهراء وبلي في مئة ألف منهم[١]. وبعد مقتل الأمراء الثلاثة وانكشاف صف المسلمين أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، فقال: «**يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا أنت. قال: ما أنا بفاعل. ودفعها إلى خالد بن الوليد، وقال: خذ اللواء يا أبا سليمان؛ فأنت أدرى بالقتال مني والله ما أخذته إلا لك**»، وكانت هذه أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه.

اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية، دافع القوم وَحَاشَى بهم، ثم انحاز وانحيز عنهم حتى انصرف بالناس[٢].

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نَعَى زيدًا وجعفرًا وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**»[٣].

عن أبي قتادة فارس رسول الله ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ جيش الأمراء وقال: «**عليكم زيد بن حارثة، فإن أُصيب فجعفر، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري**». فوثب جعفر فقال: بأبي أنت يا نبي الله وأمي، ما كنتُ أرهب أن تستعمل عليَّ زيدًا! قال: «**امضوا؛ فإنك لا تدري أيُّ ذلك خير**». قال: فانطلق الجيش، فلبثوا ما شاء الله، ثم إن رسول الله ﷺ صَعدَ المنبر وأمر أن يُنَادَى: الصلاة جامعة. فقال رسول الله ﷺ: «**تاب خبر ـ أو ثاب خبر. شَكَّ عبدالرحمن ـ ألا أُخبركم عن جيشكم هذا الغازي؟ إنهم انطلقوا حتى لَقَوا العدوَّ، فأصيب زيدٌ شهيدًا، فاستغْفِرُوا له ـ فاستغفر له الناسُ ـ، ثم أخذ اللواءَ جعفرُ بن أبي طالب، فَشَدَّ**

---

(١) الطبري (٣١٩/٣)، وابن الأثير (٨٩/٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٤٣٥/٣)، والطبري (٣٢٢/٣)، وابن الأثير (٩٠/٢)، وجوامع السيرة (٢٢٢)، وطبقات ابن سعد (٢٥٣/٤)، والإصابة (٩٨/٢)، واليعقوبي (٤٩/٢).

(٣) رواه البخاري (٤٢٦٢)، وأحمد (١١٣/٣، ١١٧، ١١٨)، والنسائي (٢٦/٤)، وأبو يعلى (٧/ ٢٠٠، ٢٠١)، والبيهقي (٧٠/٤).

على القوم حتى قُتل شهيدًا، أشهدُ له بالشهادة، فاستغْفِرُوا له، ثم أخذ اللّواء عبدالله ابن رواحة فأثبت قدميْه حتى أُصيب شهيدًا، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكُن من الأمراء، وهو أَمَّرَ نفسه»، فرفع رسول اللَّه ﷺ أصبعيه وقال: «**اللهم، هو سيفٌ من سيوفك فَانْصُرْهُ**»، وقال عبدالرحمن - مَرَّةً -: «**فانتصر به**»؛ فيومئذٍ سُمِّي خالد سيف الله، ثم قال النبي ﷺ: «**انفروا فَأَمِدُّوا إخوانكم، ولا يتخلفنَّ أحد**»؛ فنفر الناس في حر شديد مشاةً وركبانًا»[١].

❏ كيف استطاع خالد سيف اللَّه النجاة بالجيش من فَنَاءٍ أكيد؟!

تلقَّى خالد اللواء، وأصبح قائدًا عامًّا لقوات المسلمين في أصعب ظروف.. جيش أنهكه القتال الشديد الضَّاري طيلة الأيام الستة.. ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مئتا ألف مقاتل، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه، موقف جعل هذا الجيش مُهَيَّأً لأن يُدمَّر تدميرًا كاملًا، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب.

«وَاعْتَلَى العبقريُّ جواده، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام؛ كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آنَ لها أن تُفتح على طريق طويل لَاحِبٍ سيقطعه البطل وثْبًا وثبًا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته؛ حتى تبلُغَ المقادير بعبقريته أمرًا كان مقدورًا»[٢].

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة... فقد قام بتبديل كلِّيٍّ في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه؛ فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة، كما استبدل رجال القلب برجال آخرين - كل هذا في ظلام الليل -، وجعل مقدمةَ الجيشِ ساقةً، رساقَتَهُ مقدمةً؛ أي: أنه سحب جيشه من ساحة المعركة، وأبقى ساقةً تحمي الانسحاب، نَشَرَ هذه الساقة؛ ليحتلَّ فرسانها مساحةً شاسعةً من الأرض، وأمرهم أن يُحْدِثُوا أصواتًا

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه أحمد (٥/٢٩٩)، والنسئي في «فضائل الصحابة» (١٧٧).

(٢) رجال حول الرسول ص (٣٩٠).

مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة، كل هذا؛ لِيُدْخِلَ في نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا قد جاء لجيش المسلمين، هذه هي الخطة التي وضع القائد المحنَّك الفذُّ؛ فأنقذ بها جيش الإسلام من فَنَاءٍ محقق؛ فقد وجد الرومان أنفسهم ـ أثناء تقابُل الصفوف في اليوم السابع ـ أمام قادة وجنود وهيئات وراياتٍ غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية، ووجد الرومان غبارًا يسدُّ الأفق من بعيد، ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي، وَدَوَّتْ أصوات التهليل والتكبير منبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق، ثم انشقَّ هذا الغُبار عن كتائب من الفرسان، تتبع إحداها الأخرى في تنسيقٍ وإحكام راكضةً نحو المسلمين في مؤتة، قد رجفتِ الأرضُ رجفًا لوقْع حوافر خيلها المنطلقة، وأصوات فرسانها تصم آذان الرومان بالتهليل والتكبير، وَدَبَّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج، ولسان حالهم يقول: إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد؟!

نعم، إن ثبات المسلمين في وجه الرومان طيلة الأيام الستة هو أرقى مراتب النصر والغَلَبة.

وأدرك خالد بحس القائد المحنَّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوفٍ ورعبٍ؛ نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة، فاغتنمها فرصةً؛ فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان، وبأسلوب عامٍّ صاعِقٍ كاسِحٍ؛ فتمَّ له ما أراد.

«وتضعضعتْ خطوط الروم الأمامية، وركبهم المسلمون، وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمةً، كانت بكل معاني الكلمة «**مذبحة**»، وَصَفَهَا الواقدي في كتابه «**المغازي**» بقوله: «فَرُعِبُوا؛ فانكشفوا منهزمين؛ فَقُتِلُوا مقتلةً لم يُقتلها قوم قطُّ»[1].

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٧٦٤)، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ـ طبع جامعة أكسفورد.

وقال ابن سعد في «**طبقاته**»: «ثم أخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم؛ فهزمهم اللَّه أسوأ هزيمة رأيتُها[١] قطُّ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا»[٢].

كان القتال ضاريًا، خاضه المسلمون بحنقٍ وغيظ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسةٍ، وليس أدل على عنف المعركة من قول خالدٍ نفسه: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية»[٣].

لله دَرُّكَ يا خالد؛ تسعة أسيافٍ تتكسَّر في يدك!! ومن أوْلى منك بهذا!!.

أناضل عن دينٍ عظيم وهبتُهُ ... عطاء مُقِلٍّ مهجتي وحياتيا
ومُـتـبـتـل لـلـه أسْـلَـمَ وجـهـهُ ... يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
وخالد سيفُ اللَّه أسلم وجهَهُ ... يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذراع بمقلتي ... بجنبي بعظمِ الصدرِ حتى التَّراقِيا
فلم أرَ يومًا كالتقدُّم لذَّةً ... ولم أر عيشًا كالتقدم هانيا
على ذروة التوحيد تخفق رايتي ... وتحت روابيها تصبُّ دمائيا

وانسحب الجيش الإسلامي بكل هدوء وضبط وانتظام؛ فقد انسحبت قوات القسم الأكبر من المسلمين، ومع ذلك لم يكن سَحْبُ الساقة سهلًا، وَذُهِلَ الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة، وما استطاعوا أن يتعقَّبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ست مئة ميل، حتى وصل الجيش سالمًا إلى المدينة، فلمَّا وصل الجيش إلى ضواحي المدينة «**الجرف**»، جعل أهل المدينة يصيحون بالجيش «**يا فُرَّار.. فررتم**»... وَيَحْثُونَ في وجوه الجند والقادة الترابَ، وأتت كلمة الوحي ناصعة ترد الأمر إلى موضعه؛ فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليسوا بفُرَّارٍ، ولكنهم الكرَّار في سبيل**

---

(١) الراوي هنا أحد الصحابة؛ وهو: أبو عامر.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/١٣٠)، مؤتة، لمحمد أحمد باشميل ص (٢٠٧).

(٣) رواه البخاري (٤٢٦٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/٢/٤)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٤٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣/٤٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه. ووافقه الذهبي.

الله»، وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة.

ثم علم المسلمون بَعْدُ قَدْرَ تضحية خالد وبذله، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان.. ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع، ومن أشجع من خالدٍ قلبًا، وأروع عبقريةً، وأنْفَذ بصيرةً؟!

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب عن خالد في يوم مؤتة:

لقد قاتل يومه قتالًا شديدًا، فلما أظلم الليل غَيَّرَ نظام جيشه؛ فجعل مقدمته ساقة، وساقته مقدمة، وكذلك فعل بالميمنة والميسرة[١]؛ أي: أنه سحب جيشه من ساحة المعركة وأبقى ساقة تحمي الانسحاب؛ نشر هذه الساقة؛ ليحتلَّ فرسانها مساحة شاسعة من الأرض، وأمرهم أن يُحْدِثُوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول وأدوات حربية، وإثارة الغبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة.. كل ذلك جعل الروم لا يشعرون بانسحاب قوات **«القسم الأكبر»**[٢] من المسلمين ليلًا من جهة، ويعتقدون أن إمداداتٍ قويةً جاءتهم ليلًا؛ لهذا لم يُقدم الروم على مطاردة المسلمين؛ فَسَهَّلَ ذلك لخالد مهمته في سحب رجاله من ساحة المعركة بأمان ودون أن ينقلب الانسحاب إلى هزيمة؛ كما سهل عليه مهمة سحب الساقة التي سترت انسحاب القسم الأكبر من قوات المسلمين، وذلك بعد أن اطمأن إلى أن القسم الأكبر من قواته قد وصل مأمنه، ومع ذلك لم يكن سحب الساقة سهلًا؛ لأنها كانت بِتَمَاسٍّ شديدٍ بالعدو من جهة، ولأنها كانت تشغل منطقة واسعة من الأرض من جهة أخرى؛ لذلك قاتلت الساقة ـ وعلى رأسها خالد ـ قتالًا بطوليًا؛ لكي تستطيع التخلص من الاشتباك؛ قال خالد: «**لقد اندقت في يدي يوم «مؤتة»** تسعة أسياف، فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية»[٣].

(١) سيرة ابن هشام (٣/٤٤٠).

(٢) القسم الأكبر: تعبير عسكري حديث يقرب من تعبير القلب الذي كان مستعملًا في الجيش الإسلامي قديمًا؛ وهو هنا يعني: القلب، والميمنة، والميسرة، والمقدمة.

(٣) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٥)، والإصابة (٢/٩٩).

وعاد خالد إلى المدينة يقود جيش المسلمين[١]، وبعد أن ترك هذا الجيش ثلاثة عشر شهيدًا في ساحة القتال[٢]، وهي خسائر طفيفة جدًّا بالنسبة إلى الخطر الداهم الذي أحدق بالمسلمين، مما يُعَدُّ معجزة عسكرية ومفخرة خالدة لقيادة خالد. ولما دَنَا الجيش من المدينة تلقاهم رسول اللَّه ﷺ والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون، فقال النبي ﷺ: «**خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر**»، وجعل الناس يَحْثُونَ التراب على الجيش، ويقولون: «**يا فرَّار في سبيل الله**»، فيقول رسول اللَّه ﷺ: «**ليسوا بالفرَّار ولكنهم الكرَّار إن شاء الله**»[٣].

ومن ذلك اليوم أطلق النبي ﷺ وأطلق المسلمون على خالد لقب: «**سيف الله**».

❑ خالد في فتح مكة على ميمنة قوات المسلمين

لقد جاهد خالد لأول مرة تحت لواء الرسول ﷺ في فتح مكة، ولا يصح له مشهد مع رسول اللَّه ﷺ قبل الفتح[٤].

كان خالد في غزوة فتح مكة على ميمنة قوات المسلمين، وكانت الميمنة مؤلفة من: أسلم، وغفار، ومُزيْنة، وجهينة[٥]، وكان واجبه دخول مكة من أسفلها من «**الليط**»[٦]، وهو أول يوم أمَّر فيه رسول اللَّه ﷺ خالدًا[٧].

كانت نوايا الرسول القائد ﷺ السلمية صريحة جدًّا؛ فقد قال للزبير بن العوام

---

(١) سيرة ابن هشام (٣ - ٤٤٠)، وتاريخ أبي الفدا (١ - ١٤٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٣ - ٤٤٧)، وجوامع السيرة ص (٢٢٢)، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (٢ - ١٥٦).

(٣) الطبري (٢ - ٣٢٣)، وابن الأثير (٢ - ٩٠).

(٤) أُسْد الغابة (٢/٩٤)، والاستيعاب (٢/٤٢٨).

(٥) جوامع السيرة ص (٢٣٢)، وكان على الميسرة الزبير بن العوام، وكان أبو عبيدة بن الجراح على المقدمة. **وانظر**: شرح النووي على مسلم (٤/٢٣١).

(٦) الليط: موضع بأسفل مكة؛ **وانظر** - عن دخول خالد من (الليط) -: الطبري (٢/٣٣٢)، وابن الأثير (٢/٩٤)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٦)، وتاريخ أبي الفدا (١/١٤٤)، وطبقات ابن سعد (٢/١٣٦).

(٧) الطبري (٢/٣٣٢)، وابن الأثير (٢/٩٤)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٦).

وخالد: «**لا تقاتلا إلا من قاتلكما**»[١]، إلا أنَّ بعض رجالات قريش[٢] جمعوا ناسًا «**بالخندَمة**»[٣] أسفل مكة؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدُّوهم عن فتح مكة؛ فقاتلهم خالد، وقتل منهم ثمانية وعشرين رجلًا، ثم انهزموا[٤] واستشهد من المسلمين رجلان[٥]، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أَلَمْ أَنْهَ عن القتال؟!**». فقيل له: خالد قُوتِلَ فَقَاتَلَ[٦]. قال خالد رضي الله عنه: «**بدءونا بالقتال، ورمونا بالنبل ووضعوا فينا السلاح، وقد كففتُ ما استطعتُ، ودعوتُهم إلى الإِسلام فأبوا، حتى إذا لم أجد بُدًّا من أن أقاتلهم، فَظَفَّرَنا اللَّه بهم، فهربوا من كل وجه**»[٧]، وَقُتِلَ من المشركين ثمانية وعشرون رجلًا ثم انهزموا.

يقول ابن حماس الديلي فارسُ مكة ـ لما عَاتَبَتْهُ زوجُه على فراره في الخَنْدَمة ـ:

وأنتِ لو شهدتِنا بالخَنْدَمَهْ	إذ فَرّ صفوانٌ وفَرّ عكْرِمَهْ
وأبو يزيد كالعجوزِ المؤْتَمَهْ[٨]	إذ يلحقونا بالسُّيوف المُسْلِمَهْ
يقْطعْن كُلّ ساعدٍ وجُمْجُمَهْ	ضَرْبًا فلا يُسْمَعُ إلَّا غَمْغَمَهْ
لهمْ زئيرٌ خلْفنا وَهَمْهَمَهْ	لم تنْطقي في اللَّوْمِ أدْنَى كلِمَهْ[٩]

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصاهلة، وتحت رايات الإِسلام

---

(١) الطبري (٢/٣٣٢).

(٢) هم: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو. **راجع**: ابن الأثير (٢/٦٤).

(٣) الخندمة: جبل بأسفل مكة. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٤٧٠).

(٤) في تاريخ أبي الفدا (١/١٤٤)، وطبقات ابن سعد (٢/١٣٦)، والبلاذري ص (٥١، ٥٢): أن قتلى المشركين أربعة وعشرون رجلًا من قريش وأربعة نفر من هذيل. أما في الطبري (٢/٣٣٥): فيذكر أن عدد قتلى المشركين يبلغ اثني عشر رجلًا أو ثلاثة عشر رجلًا، وفي ابن الأثير (٢/٩٤): أن عدد قتلى المشركين ثلاثة عشر، وكذلك في «جوامع السيرة» ص (٢٣١).

(٥) فتح الباري (٨/٨)، وطبقات ابن سعد (٧/١٣٦).

(٦) طبقات ابن سعد (٢/١٣٦).

(٧) السيرة الحلبية (٢/٢٠٩).

(٨) هي المرأة التي قُتل زوجها؛ فبقي لها أيتام.

(٩) سيرة ابن هشام (٤/٥٠)، ومغازي الواقدي (٢/٨٢٧)، والبداية والنهاية (٤/٢٩٧).

الخافقة، وتكبيراتهم الصَّادِعة الرائعة، ترجُّ مكة رجًّا، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة، يبدو الكون معها، وكأنه كلَّه في عيد.

ولله دَرُّ القائل إذ يقول في ذلك:

دِيار مكة هذا خالد دلفا ... فما احتيالُكِ في الطَّوْدِ الذي رجَفا
طَوْدٌ من الشرك خانَتْهُ جوانبُهُ ... لما مشى نحوهُ الطَّودُ الذي زحفا
إن الجبال التي في الأرض لو كفرت ... لدكَّها جبلُ الإسلامِ أو نسفا
لَمَّا دعاه بسيف اللَّه سيِّدُهُ ... زاد السيوف به في عزّها شرفا
ديارَ مكة أمَّا مَن يُسالمُهُ ... فلا أذًى يتقى منه ولا جنفا[١]
تلك الوصية ما يرضى بها بدلا ... ولا يرى دونها مَغْدًى وَمُنْصَرفا
لا تجزعى إنه العهد الذي انبعثت ... أنوارُه تصدع العهد الذي سلفا
ليلُ الأباطيل ما التفت غياهبُهُ ... على الحقائق إلا انجاب وانكشفا

* * *

هَبَتْ إلى الشَّرّ من جُهّالِهم فئةٌ ... لم تأْلُ من جَهْلِهَا بغْيًا ولا صَلَفا
واستنفرتْ من قريش كل ذي نَزَق ... إذا يشار إليه بالبنان هفا[٢]
فخاضها خالد شعواء كالحة[٣] ... إذا جرى الهول في أرجائها عصفا
رمى بها مهج الكفار فاستبقت ... تلقى البوار وتشكوا الحَيْنَ[٤] والتلفا
وقال قائلهم أسرفت من بطل ... ما كان أحسنه لو جانب السرفا
وهاج همَّ أبي سفيان ما وجدوا ... فراح يشفع فيهم جازعا أسفا
فلانَ قلب رسول اللَّه مرحمة ... ورقَّ من شدة البطش الذي وصفا
وقال سر يا رسولي فَانْهَ صاحبنا ... عن القتال فحسبي ما جنى وكفى

---

(١) الحنف: الحور والميل عن العدل والحق.
(٢) النزق: العجلة في جهل وحمق. وهفا: أسرع في طيشه.
(٣) شعواء: منتشرة ممتدة. كالحة: عابسة.
(٤) الحيْن: الهلاك.

لا يَجْزَعِ القومُ إن السيف مرتدع[١] عما قليل وإن النصر قد أزفا
لم يرفعوا الصوت حتى لَاحَ بارقه تحت العجاجة يجلو ضوءه السدفا[٢]
هذا الزبير ترامى في كتائبه كالسيل لا تمسك الأسداد ما جرفا
اللَّه أكبر جاء الفتح وابتهجت للمؤمنين نفوس سرَّها وشفى

❑ هَدْمُ الْعُزَّى

بعث النبي ﷺ لخمس ليال بقين من رمضان ـ أي: بعد خمسة أيام من فتح مكة ـ لهدم العُزَّى[٣] في ثلاثين فارسًا من أصحابه[٤].

هذا البطل خالد رضي الله عنه مرة أخرى يستبد به تَوْقٌ عارِمٌ إلى هدم عالمه القديم كله ومظاهر الشرك؛ فعن أبي الطُّفيل قال: لما فتح رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العُزَّى، فأتاها خالد بن الوليد، وكانت على تلال السَّمُرَاتِ، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع؛ فإنك لم تصنع شيئًا**»، فرجع خالد، فلمَّا نظرتْ إليه السَّدَنَةُ ـ وهُمْ حُجَّابُهَا ـ أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عُزَّى خَبِّليه، يا عُزَّى عَوِّرِيه، وإلَّا فموتي برغم. قال: فأتاها خالد، فإذا هي امرأة عريانة ناشرةٌ شعرها تَحْثُو التراب على رأسها، فَعَمَّمَهَا بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ فأخبره قال: «**تلك العزى**»[٥].

وفي رواية: فلما سمع سادِنُهَا بمسير خالدٍ إليها، علَّق عليها سيفه، والتجأ إلى

---

(١) مرتدع: أي مردود إلى غمده.
(٢) السُّدف: الظلم.
(٣) العزى: أعظم الأصنام عند قريش وبني كنانة، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان من حلفاء بني هاشم، وكانت العرب وقريش تسمي بها: (عبد العزى). والعزى كانت بيتًا يعظمه قريش وكنانة ومضر كلها. **راجع:** سيرة ابن هشام (٨٧/١، ٦٤/٤)، والطبري (٣٤٠/٢)، وابن الأثير (٩٧/٢).
(٤) طبقات ابن سعد (١٤٥/٢).
(٥) **حسن:** رواه أبو يعلى في «مسنده» (١٩٦/٢)، وهو حسن.

الجبل الذي هي فيه وهو يقول:

أيا عُزُّ شدِّي شدَّةً لا شوًى لها[١] ... على خالدٍ ألقي القناعَ وشمِّري

ويا عُزُّ إن لم تقتلي اليوم خالدًا ... فبُوئي بإثمٍ عاجلٍ أو تَنَصَّرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول:

يا عُزُّ كُفرانك لا سبحانكْ ... إني رأيتُ اللَّه قد أهانكْ

وعند الطبري «٣/٦٥»:

يا عُزُّ شُدِّي شدَّةً لا سِوَاكِهَا ... على خالدٍ أَلْقِي الخمارَ وشمِّرِي

فإنَّك إن لا تقْتُلي المرء خالدًا ... تبوئي بذنب عاجلٍ وتُقَصِّري

فشد خالد عليها، فقتلها، وقال: ذهبت العزى، فلا عزى بعد اليوم.

ولله دَرُّ القائل في خالد وهدمه للعُزَّى:

إلى العُزَّى فقد بَلغَتْ مَدَاها ... وإن على يديكَ لَمُنتهاها

أزِلْها خالدًا وأهْدِمْ بِناءً ... أقيم على جوانبها سَفَاها[٢]

بناه الجاهلون لها ودانوا ... بها من دون خالقهم إلها

مذممة تساق لها الهدايا ... تظل دماؤها تسقي ثراها

رماها ابن الوليد فأي شر ... أزال وأي داهية رماها

وأين غرور سادنها وماذا ... أفاد دعاؤه لما دعاها

أجل يا ابن الوليد لقد دهاها ... من الهون المبرح ما دهاها

إنَّ تولي خالد واجب القائد في غزوة الفتح دليل على ثقة الرسول ﷺ بكفاية قيادته، وتوليه مهمة هدم «**العُزَّى**» دليل على ثقة الرسول ﷺ برسوخ عقيدته[٣].

---

(١) أي: لا تُبْقِي على شيء.

(٢) السفاه: الجهل.

(٣) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٨٣).

❑ في يوم حنين[١] يُقاتل مع النبي ﷺ قتالًا شديدًا:

كان خالد على مقدمة المسلمين في مئة فرس هي خيل بني سُليم[٢] عند التقدُّم من مكة إلى الطائف لقتال بني هوازن وثقيف الذين أجمعوا على حرب المسلمين[٣].

وكان مالك بن عوف[٤] قد عَبَّأَ رجاله في وادي «**حنين**» ليلًا، وأمرهم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة، وَعَبَّأَ رسول اللَّه ﷺ رجاله وصفهم صفوفًا ووضع الألوية والرايات في أهلها[٥].

وانحدر المسلمون في عماية الصبح في وادي «**حنين**» على تعبية، وهو وَادٍ من أودية «**تهامة**» أجوف حَطوط[٦]، ينحدر انحدارًا[٧]، فيهاجمهم المشركون من كل جانب؛ فانكشفت خيل بني سُليم موليَّةً وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين؛ ولكن الرسول ﷺ ثَبَتَ، وَثَبَتَ معه نَفَرٌ قليل من أصحابه وأهل بيته[٨]؛ فتجمع المسلمون حوله وشنوا هجومًا مقابلًا على المشركين انهزموا على إثره، لا يلوي أحد منهم على أحد[٩]، وكان خالد أحد الذين تجمعوا حول النبي ﷺ وقاتلوا معه قتالًا

---

(١) حنين: واد قبل الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال. **راجع**: معجم البلدان (٣/٣٥٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٥٠)، والسيرة الحلبية (٣/١٦٣ - ١٦٥)، والأغاني (١٥/٢٥).

(٣) طبقات ابن سعد (١/١٤٩)، والطبري (٢/٣٤٤)، وسيرة ابن هشام (٣/٦٨).

(٤) مالك بن عوف النصري: من هوازن، كان قائد المشركين يوم حنين.

(٥) طبقات ابن سعد (٢/١٥٠).

(٦) تهامة: ما انخفض من أرض الحجاز. وأجوف؛ أي: متسع. وحطوط؛ أي: منحدر.

(٧) سيرة ابن هشام (٤/٧١)، والطبري (٢/٣٤٧).

(٨) طبقات ابن سعد (٢/١٥١)، وأسماء الذين ثبتوا معه هم:
١ـ العباس بن عبد المطلب. ٢ـ علي بن أبي طالب. ٣ـ الفضل بن العباس بن عبد المطلب. ٤ـ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. ٥ـ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. ٦ـ أبو بكر الصديق. ٧ـ عمر بن الخطاب. ٨ـ أسامة بن زيد بن حارثة. ٩ـ أيمن بن عبيد وهو أيمن بن أم أيمن. **راجع**: الطبري (٢/٣٤٧)، وابن الأثير (٢/١٠٠)، وسيرة ابن هشام (٤/٧٢).

(٩) طبقات ابن سعد (٢/١٥١)، والطبري (٢/٣٤٨)، وسيرة ابن هشام (٤/٧٥).

شديدًا، فجرح وعاده الرسول ﷺ[١].

إن واجب المقدمة هو حماية القسم الأكبر والحصول على المعلومات عن العدو، حتى لا تُبَاغَتَ قوات «**القسم الأكبر**».

إن مقدمة المسلمين بقيادة خالد لم تُنْجِزْ هذا الواجب أبدًا يوم حنين؛ فهي لم تستطع معرفة مواضع المشركين التي احتلوها في وادي حنين، واندفعت إلى الأمام بسرعة قبل أن تعرف حقيقة موقف العدو في وادي حنين، فكان اندفاعها هذا على غير هدًى وبصيرةٍ، أما قوات القسم الأكبر فاندفعت وراء المقدمة؛ لاعتقادها أن اندفاعها هذا أمين وغير خطر، على افتراض أن المقدمة قامت بواجبها.

إن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في ابتداء معركة «**حنين**» هو عدم قيام مقدمتهم بواجبها؛ إذ لم تحصل على المعلومات عن مواضع العدو، ولم تمنع مباغتة العدو للقسم الأكبر؛ وبذلك فشلت مقدمة المسلمين يوم حنين في أداء واجبها فشلًا ذريعًا، على الرغم من أنها كانت بقيادة خالد[٢].

ما بالُ سيفِ اللّه أين مكانُه ... أيغيب عن نظر النبيّ ويعزبُ
سألَ النبيُّ فقيل عند جراحِه ... لو يستطيع أتى يهشُّ ويطْرَبُ
فمشى إليه يعوده في موكِبٍ ... للّه فيه من الملائك موكِبُ
بوركتَ خالد ما رأتْ عينٌ دمًا ... كَدَمٍ جرى من خالدٍ يتصبَّبُ
قم في جراحك إنها لك قوةٌ ... تدع القواضب وهْي حيرى هُيَّبُ
قم للشدائد ما تلين صلابُها ... فلأنت صاحبها الأشدُّ الأصلَبُ
لك هِمّةٌ ما تُستطاع ونجدةٌ ... مذخورةٌ للأمر ساعة يَحْزُبُ[٣]
من يجهل الرئبال[٤] ينفذ نابه ... في كل مُقتنَصٍ ويمضي المِخلبُ

---

(١) أُسْد الغابة (٢/٩٥)، والاستيعاب (٢/٤٢٨)، والأغاني (١٥/٢٥).

(٢) الرسول القائد (٣٧٥).

(٣) حَزَبَ الأمرُ: اشتد.

(٤) الرئبال: الأسد.

❑ **خالد بن الوليد ﷺ يدعو في غزوة الطائف: هل من مبارز؟ فلا يجيبه أحد**

لم تمنع خالدًا جراحاتُهُ من أن يعود لقيادة المقدمة؛ إذ لم يزل على مقدمة المسلمين حتى وردوا «**الجعرانة**»[١] في طريق عودتهم إلى المدينة[٢].

وفي طريقه إلى «**الطائف**»[٣] قاتل فلول المشركين، وكان بين قتلى المشركين امرأة؛ فقد مرَّ النبي ﷺ في طريقه بامرأة قتيل، فقال: «**من قتلها؟!**» فقالوا: خالد بن الوليد، فقال لبعض مَنْ معه: «**أدرك خالدًا، وقل له: إن رسول اللَّه ينهاك أن تقتل امرأة، أو وليدًا، أو عسيفًا**[٤]»، ولما حاصر المسلمون الطائف، كان خالد ينادي: هل من مبارز؟ فلا يجيبه أحد[٥]!!

مشى ترجف الأرضُ من حوله ... فأين الفِرارُ وهل من مُطيقْ
ثقيف ادْخُلي الحِصْن لا تهلَكي ... ويا عبد ليل لماذا النَّعِيقْ
دعا خالدٌ يستفِزُّ الرجالَ ... فكان فريقُكَ شرَّ الفريقْ
وكنت عليهم شهيدًا بما ... يُعابُ العدوُّ به والصديقْ
وليس الخليقُ بحَرِّ الجلادِ ... غداة التنادي كغيرِ الخليقْ

ولما وصل المسلمون إلى «**الجعرانة**» حيث قسم الرسول ﷺ الغنائم، قال رجل من المنافقين: «**ما أُرِيدَ بهذه القسمة وجه الله!!**» فقال عمر: «**ألا نقتله؟**»، وقال خالد: «**ألا أضرب عنقه؟**»، فقال النبي ﷺ: «**لا؛ لعله يصلي**»[٦].

---

(١) الجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، وإلى مكة أقرب. **راجع**: معجم البلدان (١٠٩/٣).
(٢) طبقات ابن سعد (١٥٨/٢).
(٣) الطائف: بلد مشهور، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخًا من جهة الشرق، وهي ذات زرع ونخل وأعناب ومياه غزيرة وطيبة الهواء. **راجع**: معجم البلدان (١٠/٦).
(٤) ابن الأثير (١٠١/٢)، والعسيف: هو الأجير.
(٥) السيرة الحلبية (١٦٣/٣).
(٦) السيرة الحلبية (١٧١/٣، ١٧٢).

❑ مع بني المصطلق[١]

بعث النبي ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط إلى بني المُصْطَلِق مصدِّقًا في أوائل السنة التاسعة للهجرة؛ أي: بعد إسلامهم بعامين[٢]، فلما رأوه أقبلوا نحوه فهابهم؛ فرجع إلى النبي ﷺ، وأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام؛ فبعث النبي ﷺ خالدًا وأمره أن يَتَثَبَّتَ ولا يعجل؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلًا، وبعث عيونه، فأخبروه بأن القوم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد، فرأى ما يعجبه؛ فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر؛ فنزل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۞﴾، نزلت في الوليد بن عقبة[٣].

لقد كان موقف خالد في هذه القضية رائعًا حقًّا: أرسل عيونه؛ ليروا عمل القوم في غفلة منهم، فلما جاءته عيونه بأخبارهم، أتاهم هو بنفسه، فوجد أن أخبار الوليد بن عقبة عنهم غير صحيحة؛ وبذلك حقن خالد دماء بني المصطلق ووضعهم في موضعهم الذي يستحقونه.

❑ هدم خالدٍ لِوُدٍّ:

ويعود البطل راسخ العقيدة ثانيةً إلى الأصنام؛ فقد «بعث النبي ﷺ خالدًا؛ لهدم «ود»[٤] في دومة الجندل، وقد بعثه من غزوة تبوك، فحالتْ بنو عبد ودٍّ وغيرهم بينه وبين هدمه، فقاتلهم خالد، وبعد دحرهم هدمه وكسَّره جذاذًا»[٥].

---

(١) المصطلق: هو لقب جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة، بطن من خزاعة. **راجع**: فتح الباري بشرح البخاري (٧/٣٣٢).

(٢) السيرة الحلبية (٢/٣٦٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/١١، ١٢)، الاستيعاب (٤/١٥٣)، والإصابة (٦/٣٢١)، وأُسْد الغابة (٥/٩١)، وسيرة ابن هشام (٤/٣٤٠، ٣٤١).

(٤) تمثال رجل كبير الجسم، عَبَدَهُ بنو كلب بن وبرة من قضاعة بدومة الجندل.

(٥) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٩٠)، نقلًا عن «خالد بن الوليد»، لأبي زيد شلبي ص (٨٦ ـ ٨٨).

❑ أسْرُه لأُكَيْدر صاحب دومة الجندل:

وفي أثناء مقام النبي ﷺ في تبوك أرسل خالدًا في أربع مئة وعشرين فارسًا إلى أُكيدر بن عبدالملك الكِنْدي ثم السكوني صاحب «**دومة الجندل**»، وكان «**أُكيدر**» قد خرج من حصنه في ليلةٍ مقمرةٍ إلى بقر الوحش يطارده هو وأخوه حسان، فهاجمته خيل خالد، فَاسْتَأْسَرَ «**أكيدر**»، وامتنع أخوه وَقَاتَلَ حتى قُتِلَ، ثم هرب من كان معهما، وأجار خالد «**أكيدر**» من القتل حتى يأتي به رسول اللَّه ﷺ، على أن يفتحوا له «**دومة الجندل**»؛ فدخلها المسلمون، وصالحه خالد على ألْفي بعيرٍ، وثمان مئة رأس، وأربع مئة درع، وأربع مئة رمح، ثم خرج خالد بـ«**أكيدر**» وأخيه «**مصاد**» قافلًا إلى المدينة، وهناك صالحه النبي ﷺ على الجزية وحقن دمه ودم أخيه، وَخَلَّى سبيلهما، وكتب له كتابًا فيه أمانُهُمْ وما صالحهم عليه.

أخـالـد إنّـك ذو نجـدةٍ ... فـهـيـا إلـى دُومـة الجـندلِ
إلـى معشر كفروا بالكتاب ... وحـادوا عـن المذهب الأمثـل
دعاك الرسولُ فأنت الرسولُ ... ولـيـس لـه عـنـك من مَعْدِلِ
أمـامـك حصن طويل الذرى ... فخذه بصمصامك الأطول[1]
وَمُرْ بالأكيدر يقذفِ به ... إليك على كبره من علِ
قتلت أخاهُ وألقى إليك ... جناح الذليل فلم يُقتلِ
وجئت به سيد الفاتحين ... فأوغل في قلبه المقفلِ
هداه إلى اللَّه بعد الضلال ... وبعد العمى لم يكَدْ ينجلي
وأعطاه من عهده موئلا ... يـقـيـه فيالك من موئـلِ
فصبرا أكيدرُ إنَّ الزمان ... سيكشف عن غدك المقبلِ
ستنقض عهدك دأب الشقيّ ... وتجمح في غـيك الأولِ
فيرميك ربك بابن الوليد ... ويشفيك من دائك المعضلِ[2]

(١) الصمصام: السيف الذي لا ينثني.
(٢) قتله خالد بعد ردَّته في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

بصاعقةٍ منْ يذُقْها يقُل ... كأنَّ الصواعق لمْ تُرْسَلِ
أتفعلُ ويحكَ ما لو عقلتَ ... لأعرضتَ عنه ولم تفعلِ
أُكيدرُ ليس لنفسٍ وقاء ... إذا ما ابتلى اللَّه مَنْ يبتلي

لله دَرُّ خالدٍ.. إن فترة إسلامه التي قضاها إلى جانب الرسولﷺ لا تتجاوز أربع سنوات، بينما قاتل شمالاً على حدود أرض الشام، وجنوبًا في اليمن، وشهد أحد عشر مشهدًا؛ قاتل في ثلاثة مشاهد منها تحت لواء الرسول القائدﷺ، وقاتل في ثلاثة مشاهد منها قائدًا مستقلًّا، ولم يقاتلْ في خمسة مشاهد منها؛ بل أنجز واجبه سِلْمًا، فمن أين له الوقت الكافي لتحقيق كل هذه الأعمال؟!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسولﷺ وكانت له قابليات نادرة في القيادة العسكرية خاصَّة، لا يجود بها الزمان إلا نادرًا.

❏ **لله درُّ خالد بن الوليد.. يُوقف أنفاسه على الجهاد، ويحتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله:**

عن أبي هريرةرضي الله عنه قال: أمر رسول اللَّهﷺ بالصدقة، فقيل: منع ابنُ جميل، وخالد بن الوليد، وعباس بن عبد المطلب. فقال النبيﷺ: «**ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه اللَّه ورسوله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا؛ قد احتبس أَدْراعَه وأَعْتُدَه في سبيل الله، وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول اللَّه فهي عليه صدقة ومثلها معها**»[1].

❏ **خالد وحروب الرِّدَّةِ**

لقد كانت حروب الردة ـ التي استمرت ملتهبة حوالي سنة كاملة ـ أعنف ما شهد العرب المسلمون في تاريخهم العسكري، وأبرزت هذه الحروب وكشفت معادن الرجال، ولم يقم أي محارب مقام خالد بن الوليد في مقاومة أهل الردة والقضاء على فتنتهم، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة «**بزاخة**» ببلاد بني

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣).

أسد، ومنطقة «**البطاح**» في ديار بني تميم، ومنطقة «**اليمامة**» موطن بني حنيفة، وكانوا أكثر وأشرس قوة قَارَعَهَا خالد في حياته.

❏ مع طُليحة في بزاخة:

أمر أبو بكر الصديق خالدًا أن يبدأ بـ«**طيئ**»، ومنهم يسير إلى «**بزاخة**»[١]، ثم يثلث بـ«**البُطاح**»، ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له؛ وأظهر أبو بكر الصديق أنه خارج إلى «**خيبر**» بجيش حتى يلاقي خالدًا يرهب العدو بذلك[٢]، فَقَعَّدَ ذلك «**طيئًا**»، وَبَطَّأَ عن طليحة بن خويلد الأسدي[٣].

وكان أبو بكر قد بعث عدي بن حاتم الطائي إلى «**طيئ**» قبل مسير خالد إليهم، فدعاهم عدي وخوفهم؛ فقالوا له: استقبل خالدًا فَنَهْنِهْهُ عنا ثلاثًا حتى تستخرج مَنْ لَحِقَ بالبزاخة منا؛ فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يده قتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عدي خالدًا وهو «**بالسُنح**»[٤]، وقال له: «**أمسك عني ثلاثًا يجتمع لك خمس مئة مقاتل تضرب بهم عدوك**»، ففعل خالد، وأرسلت «**طيئ**» إلى إخوانهم، فعادوا من بزاخة كالمدد لهم، ولولا ذلك لم يُتركوا؛ وبذلك عادت «**طيئ**» إلى الإسلام[٥].

وتوجه خالد وَمَنِ انضم إليه من «**طيئ**» وعددهم ألف راكب تلقاء «**بزاخة**»،

---

(١) بزاخة: ماء لـ«طيئ» بأرض نجد. وقيل: ماء لـ«بني أسد».

(٢) الطبري (٢/٤٨٣)، وابن الأثير (٢/١٣٢)، والإصابة (٢/٩٩).

(٣) طليحة بن خويلد الأسدي: قدم مع وفد أسد بن خزيمة على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة؛ فأسلم، فلما رجع ورجعوا، تنبأ طليحة في حياة النبي ﷺ فأرسل إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور الأسدي؛ ليقاتله، فلما توفي الرسول ﷺ عَظُمَ أمرُ طليحة، وأطاعه الحليفان أسد وغطفان، وكان يزعم أنه يأتيه جبريل بالوحي؛ فأرسل إليه أبو بكر خالد بن الوليد، فقاتله وقضى على فتنته؛ فانهزم طليحة إلى الشام، وبقي هناك حتى توفي أبو بكر، ثم خرج محرمًا في خلافة عمر بن الخطاب، وأسلم إسلامًا صحيحًا، وجاهد الفرس في القادسية وغيرها جهاد الأبطال المغاوير، لقد كان طليحة من أشجع العرب، وكان يُعَدُّ بألف فارس. **راجع**: الإصابة (٣/٢٩٦)، وأسد الغابة (٣/٦٥)، والاستيعاب (٢/٧٧٣).

(٤) السنح: موضع بنجد قرب جبل طيئ، نزله خالد في حرب الردة، فجاءه عدي بن حاتم بإسلام طيئ وحسن طاعتهم. **راجع**: معجم البلدان (٥/١٤٩).

(٥) الطبري (٢/٤٨٣)، وابن الأثير (٢/١٣٢).

وأرسل عكاشة بن محصن[١] وثابت بن أقرم طليعةً لقواته، فَقَتَلَا أحد إخوة طليحة، فلما بلغه مصرع أخيه خرج ومعه أخوه سلمة، فَقَتَلَا عكاشة وثابتًا ثم رجعا، وَمَرَّ خالد في طريقه إلى بزاخة بعكاشة وثابت قتيلين[٢].

وَعَبَّأَ خالد جيشه للقتال؛ فقالت له «طيئ»: نحن نكفيك «قيسًا»؛ فإن بني أسد حلفاؤنا. فقال: «قاتلوا أي الطائفتين شئتم». فقال عدي: «لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه، لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم». فقال له خالد: «إن جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط»، ثم سار خالد بجيشه، والتقى بطليحة ورجاله على بزاخة؛ فتقاتل الطرفان قتالًا شديدًا، ولما رأى طليحة أن كفة المسلمين رجحت على كفة أتباعه، ركب فرسه، وحمل امرأته، ثم نجا بها، وقال: «يا معشر فزارة، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل»[٣]؛ وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة، وأعاد الإسلام إلى منطقة «بزاخة» والمناطق المجاورة لها.

لقد حطم انتصارُ خالد معنويات أسد وغطفان وأحلافهما الأقوياء ومعنويات القبائل الأخرى التي تعيش في تلك المناطق من نجد؛ فأقبل بنو عامر، وسُليم، وهوازن، وهم يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن بالله ورسوله، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا[٤].

ذلك لأن القبائل البدوية تكون دائمًا مع القوي، فبايعت خالدًا، وكانت بيعته:

---

(١) عكاشة بن محصن الأسدي: من فضلاء الصحابة وساداتهم، هاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا وأبلى فيها بلاء حسنًا وانكسر في يده سيف، وشهد أحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقتله طليحة الأسدي، وكان عكاشة يوم توفي رسول الله ﷺ ابن أربع وأربعين سنة، وقتل بعد ذلك بسنة، وكان من أجمل الرجال، رَوَى عن النبي ﷺ وَرَوَى عنه بعض الصحابة. **راجع**: طبقات ابن سعد (٣/ ٩٢)، والإصابة (٤/٢٥٦)، وأسد الغابة (٤/٢) والاستيعاب (٣/١٠٨).

(٢) الطبري (٢/٤٨٤)، وابن الأثير (٢/١٣)، والبلاذري ص (١٠٥).

(٣) الطبري (٢/٤٨٥)، وابن الأثير (٢/١٣٣)، والبلاذري ص (١٠٥).

(٤) الطبري (٣/٤٨٦)، وكان بين أسد وغطفان وطيئ حلف في الجاهلية. **راجع**: الطبري (٢/٤٨٦).

«**عليكم عهد اللَّه وميثاقه؛ لتؤمنن باللَّه ورسوله، ولتقيمن الصلاة، ولتؤتن الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم**»، ولم يقبل من أحد من أسد، وغطفان، وعامر. وطيئ، وسليم إلا أن يأتوه بالذين حرَّقوا ومثلوا وعدوا على الإسلام في حال ردتهم، فأتوه بهم، فمثل بهم، وحرقهم، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار[١].

فما أسباب انتصار خالد الساحق السريع؟!

يمكن إجمال أسباب انتصاره:

بأن المسلمين كانوا يقاتلون مدفوعين بعقيدة راسخة واثقين بنصر الله.

وكان لانضمام طيئ أثرٌ في تقوية المسلمين وإضعاف أعدائهم.

كما كان لتورية أبي بكر الصديق بأنه خارج إلى «**خيبر**» بجيش حتى يلاقي خالدًا تأثير على طيئ في عدم التعاون مع حلفائها وبقائها في مواضعها الأصلية.

وكان قتل الصحابيين الجليلين قد أحفظ قلوب المسلمين، وحرضهم على قتال أعدائهم.

كما أن إفساح المجال لـ«**طيئ**»؛ كي تقاتل «**قيسًا**» كما أرادت شجعها على الاستقلال في الحرب؛ إذ لو أصر خالد على أن يقاتلوا حلفاءهم من بني أسد - كما أراد عدي بن حاتم -، لقصرت «**طيئ**» في حربها أَيَّ تقصير!.

وربما كان هناك من ينتقد خالدًا على إهماله مطاردة عدوه بعد انتصاره عليهم في بزاخة، ولكن ذلك غير وارد بالنسبة لقتال القبائل في الصحراء؛ لأن القبائل تترك حَيَّهَا، وتلجأ إلى الأحياء القريبة أو البعيدة، وتنهزم إلى جهات مختلفة؛ مما يجعل مطاردتها - أسوة بمطاردة القوات النظامية - غير ممكن إلا في حدود معينة.

---

(١) ابن الأثير (٢/١٣٣).

❑ مع مالك بن نويرة[١]:

حين فرغ خالد من طليحة ومن معه سَارَ يريد مالك بن نويرة في «**البُطاح**»[٢]، ولكن الأنصار من قوات خالد تخلفوا عنه، وقالوا: «ما هذا بعهد الخليفة إلينا؛ إذ الخليفة عهد إلينا: إن نحن فرغنا من «**البزاخة**» واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا».

فقال خالد: «إن يَكُ عهد إليكم هذا، فقد عهد إليَّ أن أمضي، وأنا الأمير، وإلي تنتهي الأخبارُ، ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة، فكنت إن أعلمته فاتتني، لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه، لم نَدَعْ أن نرى أفضل ما بحضرتنا، ثم نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا قاصد إليه وَمَنْ معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم»، ومضى خالد؛ فندمت الأنصار، وأجمعوا اللحاق به[٣].

وصل خالد إلى «**البُطاح**»؛ فلم يجد بها أحدًا؛ لأن مالك بن نويرة فرق رجاله

---

(١) مالك بن نويرة التميمي: بعث النبي ﷺ مالك بن نويرة على بعض صدقات بني تميم، وكان قد أسلم هو وأخوه متمم، قتل خالد بن الوليد مالكًا واختلف فيه: هل قتله مسلمًا أم مرتدًا؟! والأكثر على أنه قتله خطأً، وأما أخوه متمم فلا شكَّ في إسلامه. قال متمم يرثي أخاه:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وقال يرثيه:

تطاول هذا الليل ما كاد ينجلي ... كليل تمام ما يريد صراما
سأبكي أخي ما دام صوت حمامة ... تؤرق في وادي البطاح حماما
وأبعث أنواحا عليه بسحرة ... وتذرف عيناي الدموع سجاما

وقيل لمتمم: ما بلغ من حزنك على أخيك؟ فقال: «أُصِبْتُ بعيني؛ فما قطرت منها قطرة عشرين سنة، فلما قتل أخي استهلت فما ترقأ»، **راجع**: الإصابة (٦ ـ ٣٦، ٤٠)، وأسد الغابة (٤/٢٩٥)، والاستيعاب (٣/١٢٦٢)، ومعجم البلدان (٢/٢١٥).

(٢) البطاح: ماء في ديار بني خزيمة في نجد. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/١١٤).

(٣) الطبري (٢/٥٠١، ٥٠٢)، وابن الأثير (٣/١٣٦).

ونهاهم عن الاجتماع؛ فَبَثَّ خالد السرايا، وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل مَن لم يُجِبْ داعي الحق، فإذا امتنع قتلوه، وكان أبو بكر الصديق قد أوصاهم: «أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلًا، فإن أذن القوم فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا، فإذا أجابوكم إلى داعية الإسلام، فَسَائِلُوهُمْ عن الزكاة، فإن أقروا فاقبلوا منهم، وأن أبوا فقاتلوهم»، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع؛ واختلفت السرية فيهم؛ وكان أبو قتادة «**الحارث بن ربعي الأنصاري**»[(١)] فيمن شهدوا أنهم أذنوا، وأقاموا، وصلوا، فلما اختلفوا فيهم، أمر خالد بهم؛ فحبسوا في ليلة باردة، وأمر خالد مناديًا: «**أدفئوا أسراكم**»، وهي في لغة كنانة: «**القتل**»؛ فظن القوم أنه أراد القتل ولم يرد الدفء؛ فقتلوهم، وَقَتَلَ ضرار بن الأزور[(٢)] مالك بن نويرة[(٣)].

وفي رواية: أن خالدًا بَثَّ السرايا في بني تميم، وكان منها سرية عليها ضرار بن الأزور الأسدي، فلقي ضرار مالكًا، فاقتتلوا، وأسره وجماعة معه، فأتى بهم خالدًا، فأمر بهم؛ فضربت أعناقهم، وتولى ضرار ضربَ عنق مالك[(٤)].

---

(١) أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري: هكذا ورد اسمه في الطبري (٢/٥٠٣)، اختلفوا في شهوده «بدرًا»، واتفقوا على أنه شهد «أُحُدًا» وما بعدها، وكان يقال له: فارس رسول الله ﷺ. شهد مع علي بن أبي طالب مشاهده كلها، ومات بالكوفة؛ فصلى عليه علي بن أبي طالب، وفي رواية أنه مات بالمدينة سنة أربع وخمسين للهجرة وهو ابن سبعين سنة. **راجع**: طبقات ابن سعد (٦/١٥)، والإصابة (٧/١٥٦)، والاستيعاب (٤/١٧٣١).

(٢) ضرار بن الأزور الأسدي: قدم على النبي ﷺ فأسلم؛ فبعثه إلى بني الصيداء وبني الديل، وهو الذي قتل مالك بن نويرة بأمر خالد بن الوليد، استشهد يوم اليمامة، وقيل: مكث في اليمامة مجروحًا ثم مات قبل أن يرتحل خالد بيوم. وكان قد قاتل يوم اليمامة قتالًا شديدًا حتى قطعت ساقاه جميعًا؛ فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل وَتَطَؤُهُ الخيل، حتى غلبه الموت. وقيل: إنه قتل يوم أجنادين. وقيل: إنه توفي بالكوفة في خلافة عمر بن الخطاب. ولكن الراجح أنه قتل باليمامة. **راجع**: طبقات ابن سعد (٦/٣٩)، والإصابة (٣/٢٦٩)، وأسد الغابة (٣/٣٩)، والاستيعاب (٢/٧٤٩).

(٣) الطبري (٢/٥٠٢)، وابن الأثير (٢/١٣٦، ١٣٧)، والأغاني (١٤/١٥٣).

(٤) البلاذري ص (١٠٧).

وفي رواية: أن السرية عندما جاءت بمالك وصحبه، قال لخالد: «أنا آتي بالصلاة دون الزكاة!..» فقال خالد: «أَمَا علمت أن الصلاة والزكاة معًا؛ لا تُقْبَلُ الواحدة دون الأخرى؟» فقال مالك: «**قد كان صاحبكم يقول ذلك!**» فقال خالد: «أَوَ مَا تَرَاهُ لَكَ صَاحِبًا؟! والله لقد هممت أن أضرب عنقك»، ثم تجادلَا في الكلام، فقال خالد: «**إني قاتلك!**» فقال مالك: «**أَوَ بذلك أمرك صاحبك؟**». قال: «**وهذه بعد تلك؟!**»، ثم أمر بقتله[1].

ومضى أبو قتادة الأنصاري حتى أتى أبا بكر الصديق، فَقَصَّ عليه أمرَ خالد، وقَتْلَهُ مالكًا، وزواجه من ليلى زوج مالك، وأضاف أنه أقسم ألا يقاتل تحت لواء خالد أبدًا، لكن أبا بكر غضب عليه حتى كلمه عمر بن الخطاب، فلم يرض إلا أن يرجع أبو قتادة إلى خالد، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة[2].

وكان عمر بن الخطاب من بين الذين اقتنعوا بوجهة نظر أبي قتادة؛ فقال لأبي بكر الصديق: «إن في سيف خالد رهقًا[3]، فإن يكن هذا حقًّا حقَّ عليه أن تقيده»، وأكثر عليه في ذلك، فلم يَسَعْ أبا بكر الصديق إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالدًا؛ ليسأله عن حقيقة ما صنع. وأقبل خالد من ساحة الميدان إلى المدينة ومعه أبو قتادة، ودخل المسجد في عُدَّةِ الحرب، وقد غرز في عمامته أسهمًا؛ فقام إليه عمر، ونزع الأسهم من رأسه، وحطمها وهو يقول: «قتلت امرأً مسلمًا ثم نزوت على امرأته!! والله لأرجمنك بأحجارك..».

وأمسك خالد؛ فلم يعترض ولم يقل شيئًا؛ لأنه ظن أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر؛ حتى دخل على أبي بكر، فأخبره الخبر اليقين، وقدَّم له معاذيره؛ فعذره أبو بكر وتجاوز عنه.

---

(١) الطبري (٥٠٤/٢)، وتاريخ أبي الفدا (١٥٧/١ - ١٥٨).

(٢) الطبري (٥٠٢/٢).

(٣) الرهق: السفه، والخفة، وركوب الشر، والظلم، وغشيان المحارم.

ولما خرج خالد كان عمر لا يزال جالسًا في المسجد، فقال خالد يخاطب عمر: «هلمَّ إليَّ يا ابن أم شملة!!»، فعرف عمر أن أبا بكر قد رَضِيَ عن خالد، فلم يكلم خالدًا، ودخل بيته[١].

لقد كان رأي عمر أن يعزل أبو بكر خالدًا، ولكنَّ رأي أبي بكر الصديق كان كما قال لعمر: «هَبْهُ يا عمر تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد»، ثم قال له: **«يا عمر، ما كنت لأشيم[٢] سيفًا سَلَّهُ اللَّه على الكافرين»**[٣].

لقد نَسَجَتِ الرواياتُ حول هذا الحادث من بَعْدُ صورًا هي أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ.

ولست أشك في أن الروايات الموثوق بصحتها تبرر إلى حد بعيد قَتْلَ مالك ونفر من أصحابه، وتبرئ خالدًا من دمائهم.

لنتذكر ماضي مالك بن نويرة القريب: **ماضيه** بعد وفاة النبي ﷺ: فقد منع الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ[٤]، وأغار على إبل الصدقة، وفرق ما كان بيده منها، وأنشد الشعر الذي أظهر به الردة عن الإسلام[٥]، وَوَادَعَ سجاح بنت الحارث التي ادعت النبوة[٦]، كل ذلك يدل على أنه ارتد عن الإسلام.

أما **حاضره** الذي يبدأ من تهديد قوات خالد له، فلم يكن مشجعًا أيضًا: فرق

---

(١) الطبري (٢/٥٠٣، ٥٠٤)، وابن الأبتر (١٣٧/٢).

(٢) أشيم: أغمده؛ والشيم يستعمل في السل والإغماد.

(٣) الطبري (٥٠٣/٢)، وابن الأثير (١٣٧/٢)، وتاريخ أبي الفدا (١٥٨/١)، والأغاني (١٥٢/١٤)، والبدء والتأريخ (١٦٠/٥).

(٤) الطبري (٤٩٥/٢)، وابن الأثير (١٣٥/٢)، وتاريخ أبي الفدا (١٥٧/١).

(٥) قال مالك كما جاء في الأغاني (١٥٣/١٤):

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر مما يجيء به الغد

فإن قام بالأمر المخوف قائم ... منعنا وقلنا: الدين دين محمد

(٦) الطبري (٤٩٦/٢)، وابن الأثير (١٣٥/٢)، والأغاني (١٤٨/١٤).

مالك قومه ونهاهم عن الاجتماع[١]، ولم يتركهم على وضعهم الطبيعي الذي كانوا يعيشونه يوم كانوا مسلمين، فلما جاءت الخيل بمالك في نفر معه من قومه - سواء كان ذلك بقتال أو بدونه -، اختلفت السرية فيهم، وكان أبو قتادة ممن شهدوا أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا، واختلافهم هذا دليل على أن مالكًا لم يكن صريحًا في إعلان إسلامه، وأنه أظهر الإسلام - إن كان أظهره - عندما تهدده الخطر وأحدق به؛ إذ لم يختلف أحد في إسلام أخيه متمم بن نويرة[٢]؛ كما أن خالدًا قَبِلَ توبة وكيع ابن مالك[٣] الذي ارعوى عن غَيِّهِ، وندم وتحير في أمره، وعرف قبح ما أتى؛ فرجع رجوعًا حسنًا ولم يتجبر، وأخرج الصدقات، واستقبل بها خالدًا[٤]، مع أن موقف وكيع يشابه موقف مالك بعد وفاة النبي ﷺ؛ إذ اجتمع وكيع، ومالك، وسجاح؛ فَوَادَعَ بعضهم بعضًا، واجتمعوا على قتال الناس الذين ثبتوا على الإسلام[٥]، وهذا دليل على توبة وكيع وإصرار مالك على ضلاله.

إن ماضي مالك القريب وحاضره يُلْقِيَانِ شكوكًا كثيرةً على صحة إسلامه، وقد كان خالد من بين الذين اقتنعوا بأن مالكًا بقي مرتدًّا عن الإسلام؛ لذلك أقدم على قتله.

---

(١) الطبري (٢/٥٠٢)، وابن الأثير (٢/١٣٥).

(٢) متمم بن نويرة التميمي: أسلم هو وأخوه مالك في عهد النبي ﷺ، فارتد أخوه بعد موت النبي ﷺ، واختلف كثير من الصحابة وغيرهم في مالك: هل قتل مرتدًا أم مسلمًا؟ أما متمم فلم يختلف في إسلامه، كان شاعرًا محسنًا، لم يقل أحد مثل شعره في المراثي. **راجع**: الإصابة (٦/٤٠) وأسد الغابة (٤/٢٩٨)، والأغاني (١٤/١٤٧ - ١٦١).

(٣) وكيع بن مالك التميمي: استعمله النبي ﷺ هو ومالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة وبني يربوع، وتوفي رسول الله ﷺ وهما كذلك، ثم ارتد وكيع عن الإسلام، ووافق سجاح بنت الحارث التي ادَّعَتِ النبوة، ولكنه عندما علم بقدوم خالد على رأس جيش من المسلمين استقبله بصدقات قومه، واعتذر إليه، وأسلم وحسن إسلامه. **راجع**: الإصابة (٦/٣٢٠).

(٤) الطبري (٢/٥٠١)، وابن الأثير (٢/١٣٦).

(٥) الطبري (٢/٤٩٦، ٤٩٧)، وابن الأثير (٢/١٣٥).

أما زواجه من أم تميم زوج مالك فقد جرى بعد إكمالها عدتها[١]، وليس في ذلك ما يؤخذ على خالد؛ ولستُ أشك أن أبا بكر الصديق لو اقتنع بأن خالدًا قتل مسلمًا عمدًا وَنَزَا على امرأته، لأقام عليه الحدَّ الشرعي[٢]، ولما ودى مالكًا من بيت المال؛ دفعًا للشبهات على اعتبار أن خالدًا: «**تأوّل فأخطأ**»؛ كما قال أبو بكر الصديق عن خالد لعمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

لقد قال متمم: «**إن أخاه لم يمت شهيدًا**»[٣]؛ فقد سمع عمر بعض شعر متمم في رثاء أخيه مالك؛ فقال: «**هذا واللَّه التأبين، ولوددت أني أحسن الشعر؛ فأرثي أخي زيدًا بمثل ما رثيت به أخاك**»؛ فقال متمم: «**لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك، ما رثيته**»، وكان زيد بن الخطاب قد قتل شهيدًا باليمامة، فقال عمر: «**ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم!**»[٤].

تُرَى! هل كان لشعر متمم في رثاء مالك، ذلك الشعر المهموس الذي لا نزال حتى اليوم نحس بحرقته وتأثيره على النفوس والعقول معًا، هل كان لهذا الشعر أثرٌ عاطفي على الناس استدر شفقتهم على مالك، فأخذوا يختلقون له المعاذير؛ ليظهروه بمظهر المقتول ظلمًا وعدوانًا؟! وهل أفاد الشعوبيون من هذا الشعر العاطفي بالذات؛ ليلهبوا شعور الناس على خالد باعتباره أحد قادة العرب ورجالات الإسلام الذين صدعوا أركان الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية؟! لعل شعر متمم وحقد الشعوبيين هما اللذان أثارا الشكوك حول تصرف خالد من جهة، وألهب شعور الناس حول مقتل مالك من جهة أخرى، ولكن هيهات أن تصمد نوازع الهوى أمام حقائق التأريخ!!

---

(١) الطبري (٥٠٣/٢)، وتاريخ أبي الفدا (١٥٨/١).

(٢) في التشريع الجنائي الإسلامي، لعبدالقادر عودة (٧٢٠/٢ - ٧٢٥): أن عقوبة الردة هي القتل.

(٣) الأغاني (١٥٤/١٤).

(٤) الأغاني (١٥٧/١٤)، والاستيعاب (٥٥٣/٢)، وطبقات ابن سعد (٣٧٨/٣).

❑ في اليمامة مع مسيلمة الكذاب .. والقضاء على الكذاب:

وَفَدَ بنو حنيفة على النبي ﷺ وفيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب، فلما أرادوا الرجوع، أمر لهم الرسول ﷺ بجوائزهم؛ فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحبًا منا في رحالنا يُبْصِرُهَا لنا، وفي ركابنا يحفظها علينا. فأمر له الرسول ﷺ بمثل ما أمر به لأصحابه، وقال: «**ليس بِشَرِّكُمْ مكانًا؛ لحفظه ركابكم ورحالكم**»، فقيل ذلك لمسيلمة؛ فقال: «**عرف أن الأمر إليَّ من بعده!**»، وادعى مسيلمة النبوة؛ فافتتن الناس به[١].

سار خالد من «**البُطاح**»؛ للقضاء على مسيلمة في «**اليمامة**»[٢]، بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة بالتعاقب في القضاء عليه[٣]، وفي طريقه اتفق مع بعض القبائل؛ ليقوموا بحماية قواته من الخلف، كما أمده أبو بكر الصديق بسليط بن قيس الأنصاري[٤]؛ ليكون ردءًا له من أن يأتيه أحد من خلفه، فلما دنا سليط من خالد وجد خيول الأعراب التي اتفق معها خالد قد تركت مواضعها هاربة؛ فأخذ سليط على عاتقه واجب حماية مؤخرة قوات خالد[٥]؛ حتى يحول بين العدو وبين تطويق جيش خالد من الخلف، وحتى يُؤَمِّنَ خطوط انسحاب خالد إلى قواعده عند الحاجة.

وفي مسير الاقتراب كان خالد على المقدمة ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى

---

(١) طبقات ابن سعد (٣١٦/٢، ٣١٧).

(٢) اليمامة: منقول من اسم طائر يقال له: اليمام، واحدته يمامة. بين اليمامة والبحرين عشرة أيام، وهي معدودة من نجد.

(٣) الطبري (٥٠٤/٢، ٥٠٥)، وابن الأثير (١٣٧/٢، ١٣٨).

(٤) سليط بن قيس الأنصاري الخزرجي: من بني النجار، شهد «بدرًا» وما بعدها من المشاهد، وَقُتِلَ يوم الجسر في العراق مع أبي عبيد مسعود الثقفي. **راجع**: طبقات بن سعد (٥١٢/٣)، والإصابة (١٢٣/٣)، وأُسْد الغابة (٣٤٥/٢)، والاستيعاب (٦٤٦/٢).

(٥) الطبري (٥٠٥/٢)، وابن الأثير (١٣٨/٢).

المجنبتين زيد بن الخطاب[١] وأبو حذيفة[٢]، فلما كان على بُعْدِ ليلةٍ في معسكر مسيلمة، هجم على مفرزةٍ من بني حنيفة بإمرة مجاعة بن مرارة الحنفي[٣]؛ قُوَّتُهَا بين ثلاثين أو أربعين فارسًا؛ فأسرهم وقتل أصحاب مجاعة، واستحياه رهينة لديه؛ لشرفه في بني حنيفة[٤].

وَالْتَقَى الجمعان بـ«**عقرباء**»[٥]، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي

---

(١) زيد بن الخطاب القرشي الفهري: أخو عمر بن الخطاب لأبيه، يكنى أبا عبدالرحمن، وكان أسن من عمر ومن المهاجرين الأولين، أسلم قبل عمر، وشهد «بدرًا وأُحُدًا والخندق» وما بعده من المشاهد، وشهد بيعة الرضوان بالحديبية. قال عمر لزيد يوم أحد: «خذ درعي»؛ فقال: «إني أريد من الشهادة ما تريد»؛ فتركاها جميعًا، وَقُتِلَ زيد باليمامة شهيدًا سنة اثنتي عشرة للهجرة؛ فحزن عليه عمر حزنًا شديدًا؛ قال عمر: «ما هَبَّتِ الصبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد»، ولما نُعِيَ زيد إلى عمر، قال: «رحم الله أخي!! سبقني إلى الحسنيين: أسلم قبلي، واستشهد قبلي». **راجع:** التفاصيل في «طبقات ابن سعد» (٣٧٦/٣)، والإصابة (٢٧/٣)، وأسد الغابة (٢٢٨/٢)، والاستيعاب (٥٥٠/٢).

(٢) أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي: كان من فضلاء الصحابة ومن المهاجرين الأولين، جمع الله له الشرف والفضل: صَلَّى القبلتين، وهاجر الهجرتين جميعًا . وكان إسلامه قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم للدعوة فيها إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، شهد (بدرًا)، ودعا أباه عتبة بن ربيعة إلى البراز، وشهد (أُحُدًا) و(الخندق) و(الحديبية) والمشاهد كلها، وَقُتِلَ يوم اليمامة شهيدًا، وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة، وكان ﷺ رجلًا طوالًا حسن الوجه أحول أثعل (الأثعل: هو الذي له سن زائدة).
راجع: التفاصيل في «طبقات ابن سعد» (٨٤/٣)، والإصابة (٤١/٧)، والاستيعاب (١٦٣١/٤).

(٣) مجاعة بن مرارة الحنفي: وفد هو وأبوه على النبي ﷺ، وكان من رؤساء بني حنيفة، أسره خالد واستحياه؛ إذ جاد أصحابه بأنفسهم دونه، وقالوا لخالد: إن كنت تريد بأهل اليمامة غدًا خيرًا أو شرًّا، فَاسْتَبْقِ هذا ولا تقتله. فحبسه خالد عنده؛ كالرهينة، ولما قهر خالد مسيلمة، صالح مجاعة خالدًا عن قومه بني حنيفة في الحصون على المال وربع السبي، فلما فتحت الحصون لم يجد خالد فيها غير النساء والصبيان؛ فقال خالد لمجاعة: «ويحك خدعتني؟!» فقال مجاعة: «إنهم قومي ولم أستطع إلا ما صنعت».
راجع: التفاصيل في الطبري (٥٠٨/٢ - ٥١٧)، وابن الأثير (١٣٧/٢ - ١٤٠)، وأُسْد الغابة (٤/ ٣٠٠).

(٤) الطبري (٥٠٨/٣)، وابن الأثير (١٠٩/٢).

(٥) عقرباء: منزل من أرض اليمامة. **راجع:** التفاصيل في «معجم البلدان» (١٩٤/٦).

حذيفة(١)، وكانت راية الأنصار مع ثابت بن شماس(٢)، وكانت العرب على رايتها، واشتد القتال بشكل لم يسبق له مثيل من قبل عند المسلمين؛ فانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد(٣)، ولكن المسلمين عادوا فاستقتلوا؛ فكانت الحرب يومئذ سجالًا؛ تكون مرة على المسلمين، ومرة على المشركين؛ فقال خالد: «**أيها الناس، امتازوا؛ لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نُؤْتَى؟**»؛ فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحضر؛ فوقف بنو كلِّ أَبٍ على رايتهم، ولكن مسيلمة ثَبَتَ؛ فعرف خالد أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة(٤)؛ فحمل عليه قائلًا لحماته: «**لا أوتين من خلفي!**»، حتى كان بحيال مسيلمة يطلب الفرصة ويرقب مسيلمة(٥)، فلما دنا منه ودعاه وعرض عليه أشياء مما يشتهي، وجد فرصته مناسبة فهاجمه هجومًا شديدًا؛ فأدبر مسيلمة وأدبر رجاله معه؛ فصاح خالد في الناس، فركبوا المشركين، وكانوا بِتَمَاسٍّ شديدٍ معهم، حتى اضطروهم على الفرار(٦)، والتجأ بنو حنيفة إلى حديقة الموت، فدخلوها وأغلقوا

---

(١) سالم مولى أبي حذيفة: فارسي، من أهل اصطخر، كان من فضلاء الصحابة، وكان يؤم المهاجرين بقباء فيهم عمر بن الخطاب قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة، هاجر مع عمر بن الخطاب ونفر من الصحابة إلى المدينة، وكان يؤمهم إذا سافر معهم؛ لأنه كان أكثرهم قرآنًا، وكان عمر يفرط في الثناء عليه، شهد (بدرًا)، وَقُتِلَ شهيدًا يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة. **راجع:** التفاصيل في طبقات ابن سعد (٣/٨٥)، والإصابة (٣/٥٦)، وأُسْد الغابة (٢/٢٤٥)، والاستيعاب (٢/٥٦٧).

(٢) ثابت بن شماس الخزرجي الأنصاري: كان خطيب رسول الله ﷺ؛ كما كان حسان بن ثابت شاعره، شهد «أُحُدًا» وما بعدها من المشاهد، وَقُتِلَ يوم اليمامة شهيدًا؛ قال أنس بن مالك: «لما انكشف الناس يوم اليمامة، قلت لثابت: ألا ترى يا عم؟! ووجدته قد حسر عن فخذيه وهو يتحنط، فقال: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عودتم أقرانكم، وبئس ما عودتكم أنفسكم، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء. ثم قاتل حتى قُتِلَ ﷺ». **راجع:** الإصابة (١/٢٠٣)، وأُسْد الغابة (١/٢٢٩)، والاستيعاب (١/٢٠٠).

(٣) الطبري (٢/٥٠٩)، وابن الأثير (٢/١٣٩).

(٤) الطبري (٢/٥١٣)، وابن الأثير (٢/١٣٩).

(٥) الطبري (٢/٥١٢).

(٦) الطبري (٢/٥١٤)، وابن الأثير (٢/١٣٩).

عليهم؛ فصرخ البراء بن مالك[١]: «**احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه**»، فلما وضعوه على الحائط، اقتحم عليهم، فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين؛ فدخلوه واقتتلوا قتالًا مريرًا داخل الحديقة لم يروا مثله؛ فَأَبَادُوا مَنْ بالحديقة من المشركين، وكان من بين القتلى مسيلمة الكذاب[٢].

وَبَثَّ خالد بعد المعركة مباشرة خيوله تطارد فلول المشركين، وتلتقط مَنْ ليس في الحصون، ثم نادى بالرحيل؛ لينـزل على الحصون[٣]، فقال له مجاعة: «إنه واللَّه ما جاءك إلا سرعان الخيل، وإن الحصون لمملوءة رجالًا، فَهَلُمَّ إلى الصلح على ما ورائي»؛ فصالحه خالد على كل شيء دون النفوس، ثم قال مجاعة: «أنطلقُ إليهم وننظر في هذا الأمر، ثم أرجع إليك»، فدخل مجاعة الحصون، وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضَعْفَى، فألبسهم الحديد، وأمر النساء أن ينشرن شعورهن ويشرفن على الحصون، ثم رجع إلى خالد فقال: «قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت»، فرأى خالد الحصون مملوءة، وقد نهكت المسلمين الحربُ،

(١) البراء بن مالك الأنصاري: أخو أنس بن مالك، شهد أُحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان شجاعًا مقدامًا، ولشجاعته كان عمر يكتب لقادة جيوشه: «لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين؛ فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم»، ولما كان يوم اليمامة واشتد قتال بني حنيفة على الحديقة التي فيها مسيلمة، قال البراء: «يا معشر المسلمين، أَلْقُوني عليهم!!» فاحتمله المسلمون حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم، فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين، ولكنه جُرِحَ يومئذ بضعًا وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد بن الوليد شهرًا حتى برأ من جراحه. قال النبي ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله ﷻ لأبره؛ منهم: البراء بن مالك»، فلما كان يوم «تستر» من بلاد الفرس، انكشف الناس؛ فقال له المسلمون: يا براء، اقسم على ربك!! فقال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك. فَحَمَلَ وَحَمَلَ الناسُ معه؛ فَقُتِلَ البراء شهيدًا، وكان ﷺ حَسَنَ الصوتِ، يحدو بالنبي ﷺ في أسفاره؛ فكان هو حادي الرجال، وقد قَتَلَ على «تستر» مئة رجل مبارزةً سوى من شرك في قتله. **راجع**: طبقات ابن سعد (١٦/٧)، والإصابة (١٤٧/١)، وأُسْد الغابة (١٧٢/١)، والاستيعاب (١٥٤/١)، وجوامع السيرة ص (٣٤١).

(٢) الطبري (٥١٤/٢)، وابن الأثير (١٣٩/٣)، وأُسْد الغابة (١٧٢/١)، والاستيعاب (١٥٤/١)، وجوامع السيرة ص (٣٤١).

(٣) الطبري (٥١٥/٢).

وطال اللقاء، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ماذا يحدث لو كان فيها رجال وقتال؛ لذلك صالح خالد مجاعة على الفضة والذهب والسلاح ونصف السبي، وقيل: ربعه. فلما فتحت الحصون لم يكن فيها إلا النساء والصبيان والضعفاء، فقال خالد لمجاعة: «ويحك خدعتني؟!»، فقال: «هم قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت!»، ثم وصل بعد إبرام الصلح كتابُ أبي بكر الصديق إلى خالد: «**أن يَقتل كل محتلم**»، ولكن خالدًا وَفَّى لهم ولم يغدر[١].

لقد كان عدد قوات المسلمين حوالي ثلاثة عشر ألف مقاتل، وكان عدد رجال مسيلمة حوالي أربعين ألف مقاتل أو أكثر[٢]؛ أي: أن المشركين كان لهم الفواق الساحق على المسلمين، ومع ذلك فقد استشهد من المسلمين ثلاث مئة وستون من المهاجرين والأنصار من سكان المدينة وحدها، وثلاث مئة من المهاجرين من غير أهل المدينة، وثلاث مئة من التابعين[٣]، مع شهداء آخرين؛ فكان جملة مَن قُتِلَ من المسلمين ألفًا ومئتي شهيد[٤]، ومنهم خمس مئة من القراء[٥]؛ ولهذا أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق أن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه؛ بسبب موت مَن يحفظه[٦].

أما بنو حنيفة، فقد قتل منهم في معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا، وقتل منهم في الطلب سبعة آلاف[٧]؛ أي: أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تعادل

---

(١) الطبري (٥١٦/٢ ـ ٥١٨)، وابن الأثير (١٣٩/٢، ١٤٠).

(٢) جاء في كتاب «فضائل القرآن، لابن كثير» ص (١٢) ملحق بالجزء التاسع من «تفسير ابن كثير» ما يلي: «الْتَفَّ حول مسيلمة من المرتدين قريب من مئة ألف؛ فجهز الصديق أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألف».

(٣) الطبري (٥١٦/٢)، وابن الأثير (١٤٠/٢).

(٤) الطبري (٥١٩/٢).

(٥) الطبري (٥١٦/٢)، وابن الأثير (١٤٠/٢).

(٦) فضائل القرآن، لابن كثير ص (١٢)، ملحق بالجزء التاسع في «تفسير ابن كثير».

(٧) الطبري (٥١٦/٢)، وابن الأثير (١٤٠/٢).

ستة بالمئة «٦٪» فقط، وهذا يُعَدُّ من أروع الانتصارات.

فما أسباب انتصار خالد في هذه المعركة الحاسمة، التي تُعَدُّ من أقصى وأعنف معارك حروب أهل الردة؟

إن مجمل الأسباب هي:

أمر خالد الذي أصدره لرجاله بأن يمتازوا[(١)].

ووقوف خالد بين الصفوف يطلب المبارزة؛ مما رفع معنويات رجاله ودفعهم للاقتداء بإقدامه.

وتحين خالد للفرصة السانحة للقضاء على مسيلمة.

واستقتال أهل النجدة والعقيدة الراسخة من المهاجرين والأنصار؛ خاصة القراء الذين قتل منهم خمس مئة شهيد.

لقد أبلى خالد في قتال أهل الردة بلاء عظيمًا[(٢)]، وكان من العوامل الحاسمة لانتصار المسلمين على المرتدين.

ولله دَرُّ الصديق حين قال في خالد: **«ما كنتُ لأشيم سيفًا سله الله على الكافرين»**[(٣)].

هازم الفرس في أرض العراق

«عجزت النساء أن يلدن مثل خالد» [الصديق أبو بكر].

لقد كان خالد قائدًا لا يُجَارَى ولا يُبَارَى في خططه، وأسلوب قتاله، وشجاعته، وأُقْسِمُ بالله أن معاركه كانت أغرب من الخيال، وله في كل معركة ذِكْرٌ ونبأ تطير بذكره الرُّكبان.

---

(١) أدى ذلك إلى تنافس القبائل والرجال في القتال.

(٢) الإصابة (٢/٩٨)، وأسد الغابة (٢/٩٥).

(٣) الطبري (٢/٥٠٣)، وابن الأثير (٢/١٣٧).

أرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد وهو باليمامة، يأمره بالمسير إلى العراق. وقيل: بل قدم المدينة من اليمامة، فسيره أبو بكر إلى العراق[١]، وهناك مَنْ يؤكد أن خالدًا قدم المدينة من اليمامة، ثم خرج منها إلى العراق[٢]، وهذا ما نرجحه؛ لأن تكليف خالد بمهمة شاقة؛ كفتح العراق لَا بُدَّ من أن يحتاج إلى الاتصال الشخصي بينه وبين أبي بكر بالمدينة للمذاكرة حول هذه المهمة وتأمين كل متطلباتها العسكرية والإدارية.

سار خالد إلى العراق في ألفي رجل، وانضمت إليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، تحشدت في مناطقها، والتحقت به في طريقه إلى العراق، كما انضم إليه ثمانية آلاف كانوا مع المثنى بن حارثة الشيباني والقادة الآخرين في العراق؛ فكان مجموع جيش خالد الذي لقي به العدو في أول معركة ثمانية عشر ألفًا[٣].

سلك خالد طريق «فَيْد»[٤] و«الثعلبية»[٥]، حتى نزل بـ «بانقيا»[٦] و«بَارُوسما»[٧] وغيرها من المدن والقرى في منطقة الحيرة[٨]، وقيل: لما قدم خالد بن الوليد من «**اليمامة**»، دخل على أبي بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ -، وخرج فأقام أيامًا، ثم قال له أبو بكر: «تهيأ حتى تخرج إلى العراق»، فوجهه أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - إلى العراق؛ فخرج في ألفين ومعه من الأتباع مثلهم، فَمَرَّ بفايد - هي فيد، وقد وردت هنا: فايد خَطَأً -، فخرج معه خمس مئة من طيئ ومعهم مثلهم، فانتهى إلى «**شراف**» ومعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر؛

(١) الطبري (٥٥١/٢)، وابن الأثير (١٤/٢)، والبلاذري ص (٢٤٢).
(٢) البلاذري ص (٢٤٣)، والخراج ص (١٦٩).
(٣) الطبري (٥٥٤/٢)، وابن الأثير (٢/ب ١٤).
(٤) فيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة.
(٥) الثعلبية: من منازل طرق مكة إلى الكوفة، أسفل منها ماء.
(٦) بانقيا: ناحية من نواحي الكوفة.
(٧) باروسما: ناحية من سواد بغداد.
(٨) الطبري (٥٥١/٢)، وابن الأثير (١٤٧/٢)، والخراج ص (١٦٩، ١٧٠).

فتعجب أهل «**شراف**» من خالد وَمَن معه ووغولهم في أرض العجم، فانتهوا إلى المغيثة - هي ما بين القادسية والعذيب - فإذا طلائع خيل العجم، فنظروا إليهم ورجعوا، فانتهوا إلى حصنهم ودخلوه، فأقبل خالد وَمَنْ معه إلى الحصن؛ فحاصرهم، وفتح الحصن، وَقَتَلَ مَنْ فيه من المقاتلة، وَسَبَى النساء والذراري، وأخذ جميع ما فيه من السلاح والمتاع والدواب، وهدم الحصن، ثم انتهى إلى «**العذيب**»، وفيه حصن فيه مسلحة لكسرى؛ فواقعهم خالد؛ فقتلهم وأخذ ما كان في الحصن من متاع وسلاح ودواب، وهدم الحصن، وضرب أعناق الرجال، وسبي النساء والذراري، وعزل الخمس... فلما رأى ذلك أهلُ القادسية طلبوا الصلح وأعطوه الجزية.

ومضى خالد من القادسية حتى نزل «**النجف**»، وبه حصن حصين لكسرى، فيه رجال من أهل فارس مقاتلة؛ فحاصرهم وافتتح الحصن.. ثم بعث طليعة إلى أهل «**أُلَيْس**»، وفيها حصن فيه رجال ومسلحة لكسرى؛ فحاصرهم وفتح الحصن... ثم مضى إلى الحيرة... إلخ.

وهذه الرواية تؤيد دخول خالد من اتجاه الحيرة أيضًا.

وفي رواية: أن أبا بكر أمره أن يبدأ بـ«**الأبُلَّة**»[1]؛ أي: من منطقة البصرة حاليًا[2]. ونرجح أنه بدأ من منطقة البصرة؛ لأن قوات المثنى بن حارثة كانت تقاتل في تلك المنطقة، وهي القوة الرئيسية التي تقاتل في العراق، ولأن قوات خالد الأصلية في اليمامة، وهي أقرب إلى منطقة البصرة، ولأن أبا بكر أمر خالدًا أن يبدأ بـ«**الأبلة**»، وأمر عياض بن غنم أن يبدأ بـ«**المُصَيَّخ**»؛ أي: أن خالدًا يهاجم العراق من

(١) الأبلة: مدينة كانت مرفأ السفن القادمة من الصين؛ **راجع**: الطبري (٣/٩٣)، وهي واقعة جنوب البصرة القديمة بمسافة خمسة عشر ميلًا وجنوب مدينة أبي الخصيب بنحو ميلين؛ **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (١/٨٩).

(٢) الطبري (٢/٥٥٤)، وابن الأثير (٢/١٤٧). **وانظر**: طبقات ابن سعد (٧/٧٦)، والاستيعاب (٤/١٤٥٧).

جنوبه، وأن عياضًا يهاجمه من شماله[١]، وهذا قرار صحيح من الناحية العسكرية؛ لتفريق قوات العدو من جهة، ولتضليل الفرس عن اتجاه التعرض الرئيسي لقوات المسلمين من جهة أخرى.

كما أنه لا يمكن البدء من **«الحيرة»** وترك قوات معادية في الجنوب؛ وذلك لاحتمال تطويق قوات المسلمين وتهديد سلامة تقدمها إلى أهدافها بعد **«الحيرة»** باتجاه الشرق، أو الشمال، أو الجنوب.

❑ **في منطقة البصرة:**

لما قدم خالد **«الأُبُلة»**، فَرَّقَ جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة، وكان على مقدمته المثنى بن حارثة الشيباني، وبعده عدي بن حاتم الطائي، وجاء خالد بعدهما وواعدهم **«الحفير»**[٢]، وهو من أقوى مناطق الفرس وأشدها شوكة، وكان صاحبه **«هرمز»** من أبرز قادة الفرس يحارب العرب برًّا وبحرًا[٣].

❑ كاظمة[٤] **ميدان المعركة الأولى مع الفرس:**

وفيها كان قائد قوات الفرس **«هرمز»**، أرسل إليه خالد رسالةً مع رجل اسمه **«ازاذبة»**، وكان نص رسالة خالد الخالدة: «**أمَّا بعد، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذِّمَّةَ وأقرر بالجزيةِ، وإلا فلا تلومن إلَّا نَفْسَكَ؛ فقد جئتُك بقومٍ يحبون الموتَ؛ كما تحبون الحياة**».

وفي رواية: «**جئتكم بقومٍ يحبون الموتَ؛ كما تحبون شُرب الخمر**».

قد كان ابن الوليد قمةً في سياسته العسكرية، وقدرته على المناورة وخداع

---

(١) الطبري (٥٥٣/٢).

(٢) الحفير: أول منزل من البصرة لمن يريد مكة. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣٠٣/٣).

(٣) الطبري (٥٥٤/٢/٢، ٥٥٥)، وابن الأثير (١٤٨/٢).

(٤) الكواظم: وهي كاظمة، جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٢٠٨/٧).

العدو، لإنزال الهزيمة به بأقل خسارة ممكنة في جيش الإسلام؛ فتوقع «**هرمز**» أن خالدًا سيتجه بجيشه إلى «**كاظمة**» في أول الأمر؛ فوجَّه كافة قواته إلى «**كاظمة**»، واستعد جندُهُ وحفروا الخنادق، ولكنَّ خالدًا الذي قسم جيشه وفرقه إلى ثلاث فرق لم يحملهم على طريق؛ ليُعمِّي وجهته عن عدوه؛ فيظل في حيرةٍ من أمره حتى آخر لحظة، وأربك خالدٌ القائدَ الفارسيَّ وفتت أعصابه؛ فتخطى «**كاظمة**»، واتجه نحو «**الحفير**» الواقعة شمال «**كاظمة**» وغربي «**الأبلَّة**»، وعندما لم يجد «**هرمز**» أَيَّ أثر لخالد في «**كاظمة**»، وأنه تخطَّاها نحو «**الحفير**»، اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب في جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى «**الحفير**»؛ لمصادمة جيش خالد، وأمر «**هرمز**» قواته بأن تُجْهِدَ نفسها في التَّحرك؛ ليسبق خالدًا إلى الحفير، وهذا هو الذي هَدَفَ إليه القائد الفذُّ خالدٌ؛ أن يُرهق عدوه نفسيًّا وجسديًّا قبل نشوب المعركة، وعن عمدٍ تَبَاطَأَ خالد بجيشه في السير نحو الحفير؛ ليسبق إليها القائد «**هرمز**»، وفعلًا وصل «**هرمز**» الحفير على عجلٍ؛ ليسبق إليها خالدًا، ثم أمر جنده بحفر الخنادق في الحفير؛ استعدادًا لمواجهة خالد، ولما تلقى خالد من استخباراته أن «**هرمز**» قد أرهق جنده بحفر الخنادق والتعبئة للقتال، عَطَفَ بجيشه راجعًا إلى «**كاظمة**»، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس - بعد حفر الخنادق في الحفير - قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل؛ توطينًا لأنفسهم على الموت، أو إحراز النصر، ولما أبلغتْ «**هرمزَ**» استخباراتُهُ أن خالدًا وجيشه قد عَطَفَ نحو «**الكاظمة**» راجعًا، استشاط غضبًا وتوتَّرتْ أعصابه للغاية؛ فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو «**كاظمة**»، وهناك وجد خالدًا في انتظاره، قد عَبَّأَ جيشه للقتال، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين، وحال «**هرمز**» وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات، ومنعوهم الماء، فقال خالد كلمته الخالدة: «ألا انزلوا وحطوا رحالكم؛ فلعمري ليصيرن الماء لِأَصْبَرِ الفريقين وأكرم الجُنْدَيْن»[1].

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٤٩)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

ودعا «**هرمز**» خالدًا للبِرَازِ، وسرعان ما أجابه خالد، ولكن «**هرمز**» الخبيث ـ الذي ضُرِبَ به المثلُ فيه؛ فقيل: أَخْبَثُ من هرمز، وأكفر من هرمز ـ قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد، فلما نزل خالد نزل هرمز، ومشى إليه خالد، فالتقيا، فاختلفا ضَرْبَتَيْنِ، واحتضنه خالد، وحملت حاميةُ هرمز وَغَدَرَتْ؛ فَاسْتَلْحَمُوا(١) خالدًا، فما شغله ذلك عن «**الهرمزان**»، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز؛ فَأَبَادَهَا جميعًا، أمَّا خالد فقد تمكَّن في الحال من ذَبْحِ هرمز ذبحَ النِّعاج، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل(٢)، ولم يَنْجُ من الفرس إلَّا من استطاع ركوب السُّفُن، وجمع خالد الرثاث(٣)، وفيها السلاسل؛ فكانت وقر بعير؛ ألف رطل؛ فَسُمِّيَتْ «**ذات السلاسل**»، وَنَفَّلَ أبو بكر خالدًا قلنسوة هرمز، وكانت قيمتها مئة ألف. وقدم «زر ابن كليب» بالفيل مع الأخماس إلى المدينة، فَطِيفَ به في المدينة؛ ليراه الناس؛ فجعل ضعيفات النساء يقلن: أَمِنْ خَلْقِ اللَّهِ مَا نَرَى؟! وَرَدَّهُ أبو بكر مع «**زر**».

❏ **وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك:**

نعم، الإسلام رفع من شأن العرب، وقد كانوا قبله حُفاةً عُراةً رُعاةً، لا شأن لهم في الأرض، ولا ذِكْرَ لهم في السماء؛ أذلَّهم الفرس، حتى إنَّ «**سابور الثاني**» والملقب بـ«**ذي الأكتاف**» كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب؛ فيقتلهم عن طريق نَزْعِ أكتافهم؛ فَنَزَعَ أكتاف خمسين ألف عربي من تميم وبكر بن وائل، حتى قالت له عجوز عربية: «**إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين**».

الفرس الذي كانوا أشجع وأشدَّ بأسًا من العرب، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمعُ وأمهرُ قادة الفرس يُذِلُّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم... حتى صار ذِكْرُهُ يُقِضُّ

---

(١) تبعوه.

(٢) الطبري (٢/٥٥٦)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

(٣) المتاع.

مضاجع الفرس.. ويبدو هذا في معركة «**الأُبُلَّة**».

❑ معركة الأُبُلَّة، وفرار الفرس من اسم خالد:

سار خالد بجيشه إلى «**الأُبُلَّة**»، وفيها جيوش كثيفة للفرس، وسبق سويد بن قطبة الذهلي - وكان من جيش خالد - في جماعةٍ من قومه خالدًا في اتجاه «**الأبلة**»، وعسكر حولها، ولما وصل خالد بقواته مكان البصرة اليوم، وجد سويدًا يتعقَّب أهل الأبلة في انتظار أن يُهاجموه، فيُقاتلهم خارج مدينتهم، ولكن سويدًا أخبر خالدًا بأن أهل الأبلة يهابون مقامه، وأنهم سيلظون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجودًا في المعسكر؛ فقال سويد لخالد: إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك؛ أي خوفًا منك.

وهناك رَسَمَ خالد بالاتفاق مع سويد خُطَّةً يخدعون بها الفرس؛ حتى يأمنوا فيخرجوا لمُقاتلة سويد؛ وذلك بحيث يعتقدون أن خالدًا الذي بَثَّ في قلوبهم الرعب بعد قتله «**هرمز**»، قد ترك معسكر سويد، وأنه لم يبق قائد للمسلمين في المعسكر سوى سويد فقط؛ فقال خالد لسويد: فالرأْيُ أَخْرُجُ من المعسكر نهارًا، ثم أعود إليه ليلًا، فأدخل بأصحابي، فإن صبحوك حاربناهم. ونفذ خالد خطته؛ لتضليل حامية «**الأُبُلَّة**» الفارسية واستدراجهم لمهاجمة سويد؛ فتوجه خالد بمعظم قواته في وضح النهار في اتجاه «**الحيرة**»؛ فاطمأنَّ الفرس إلى تَرْك خالد للمكان، وعاد رضي الله عنه بقواته إلى المعسكر ليلًا، فلما خرجت جيوش الفرس من «**الأُبُلَّة**» قاصدين مهاجمة سويد، وما كادوا يصلون مدخل معسكر سويد، حتى رَأَوْا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد؛ فأسقط في أيديهم لمَّا علموا بوجود خالد في المعسكر، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا في وجه خالد، وما كان همهم إلَّا الفرار؛ للعودة إلى «**الأُبُلَّة**» المحصنَّة؛ فولوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة، ولكنَّ خالدًا حال بينهم وبين ذلك، وانفرط عِقْدُ جيش «**الأُبُلَّة**»، وتمزَّق شملهم، وَكَثُرَ القتل فيهم، وقذف كثيرٌ منهم نفسه في نهر دجلة والفرات؛ فغرقوا، وبعث خالدٌ

معقل بن مقرن المزني إلى «**الأُبُلَّة**» التي كانت خاليةً من المحاربين، فسيطر عليها بدون قتال، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة.

❏ الخريبة:

وبعد ذلك سيطر خالد على نقطة حربية مهمة يُقال لها: «**الخريبة**»، وكانت من مسالح العجم، وقال خالد لجنوده قبل المعركة ـ لَمَّا رأى وجوه قادة الفرس وجنودهم، وأدرك الرعب المسيطر عليهم ـ: «**احملوا عليهم؛ فإني أرى هيئة قومٍ ألقى اللَّه في قلوبهم الرعب**». فحملوا عليهم؛ فهزموهم، وكثر القتل فيهم، وغرق طائفة منهم في دجلة.

❏ **الجولة الثالثة: معركة المذار[1] وقتل قُوَّاد الفرس الثلاثة:**

جهز «**شيرويه**» ملك الفرس جيشًا جرارًا، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قائد من قواده؛ وهو: «**قارن بن قرباس**» يسانده قائدان كبيران؛ وهما: «**الأنوشجان**» و«**قباذ**»، وكان هذا الجيش يضم ـ أيضًا ـ فلولَ الأُبُلَّة، والكاظمة، وأهل الأهواز وفارس والسواد والجبل، وتعاهدوا بعدم الفرار.

وبلغت قوات «**فارس**» ما يقارب الثمانين ألفًا، بينما خالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا.

وبدأت المعركة اللاهبة بدعوة «**قارن**» إلى البراز؛ فاستبق إليه اثنان من المسلمين: خالد بن الوليد، وأبيض الركبان معقل بن الأعشى النباشي[2]، فسبق معقل على فرسه خالدًا، وبارز «**قارنًا**»؛ فقتله في الحال، وهجم عاصم بن عمرو على «**الأنوشجان**»؛ فقتله في الحال، وبادر البطل الميمون عدي بن حاتم إلى القائد

---

(١) المذار: في منطقة (ميسان) بين واسط والبصرة، وهي قصبة «ميسان»، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام.

(٢) معقل بن الأعشي بن النباش: كان يُعْرَفُ بأبيض الركبان، وله مشاهد مشهورة في قتال الفرس، وكان مع خالد من سنة اثنتي عشرة وما بعدها. **راجع:** الإصابة (١٧٩/٦).

«**قباذ**»؛ فقتله، وقاتل الفرس على حنقٍ وحفيظةٍ، واضطرب شمل الفرس بعد مقتل «**قارن**»، وكان شرف «**قارن**» قد انتهى؛ أي: أنه وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في فارس. وقُتِلَ من الفرس في الميدان ثلاثون ألفًا، سوى من غرق في دجلة بحديده، «**ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة**»[1].

❑ **الولجة[2] أو «واترلو الفرس»:**

أقام خالد رضي الله عنه بمنطقة «**المذار**»؛ يجمع المعلومات، ويرقب اتجاه مسارات العدو، وعلم أن القيادة العامة في «**المدائن**» أعدت جيشين يقودهما أعظم قائدين مُجَرَّبَيْنِ؛ وهما: «**الأندرزغِر**» و«**بهمن جاذويه**».

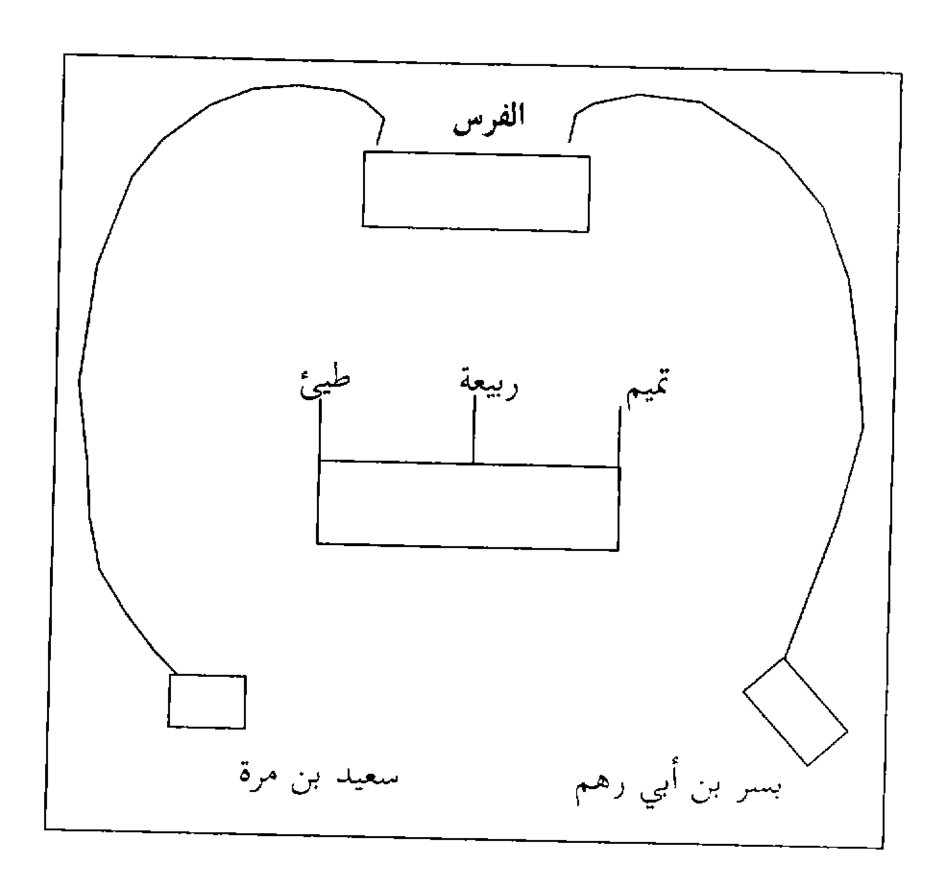
وأراد «**بهمن جاذويه**» أن يوقع خالدًا بين فكَّيْ كماشةٍ، إن هو اتَّجه من الشرق إلى الغرب رأسًا؛ بين جيش «**الأندرزغر**» الذي يعسكر غربًا في «**الولجة**»، وبين جيش «**بهمن**» الذي يتحرك في «**السواد**» شرقًا، ثم إنه مع وقوعه في الكماشة، سيقع بين حاجزين مائيين كبيرين. وفكر خالد - وهو الألمعي - في اتباع أسلوبٍ يجعله يتصل بـ«**الأندرزغر**» في «**الولجة**»، دون أن يوقع بجيشه في كماشة، فانحدر جنوبًا في طريق طويل بمُحاذاة نهر دجلة، حتى إذا ما وصل «**الأُبُلَّة**» عَبَرَ نحو الغرب، ثم أخذ يتجه شمالًا نحو «**الولجة**» غربي الفرات حيث يعسكر «**الأندرزغر**». لقد كان خالد من أبرز قادة الجيوش في العالم، وأقدرهم على استخراج النتائج من حساب المعارك قبل وقوعها، ورغم أنه محارب جريء ممتاز، فإنه كان أبعد القادة عن الغرور، وكان شديد التَّيقُّظ والحذر، وأوقع جيش الفرس في كماشته بدلًا من أن يوقعوه هم. ولكي يختصر خالد المعركة، ويكسب النصر بأقل خسارةٍ ممكنةٍ من رجاله أقام قبل أن يصل إلى مكان المعركة خلفه كمينيْن من

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٥٢)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

(٢) الولجة: موضع مما يلي البر بأرض «كسكر»، وكسكر كورة واسعة، قصبتها مدينة واسط، وهي بين البصرة والكوفة.

خيرة رجاله؛ كمين في مواجهة الفرس من اليمين على رأسه «**بسر بن أبي رهم الجهني**»، وكمين من يسار الفرس وجعل على قيادته «**سعيد بن مرة العجلي**»، وأخفى الكمينينْ، وطلب من قائديهما أن لا يسرعا في الهجوم على الفرس، وهذه الخطة التي رسمها خالد بالكمينينْ تجعل جيش فارس بين فكَّيْ كمَّاشة، مع انشغاله بالرمــح المُشْرَع في صدره؛ وهو: جيش خالد.



وأُعْطِيتِ الأوامر بألا يهجم الكمينان على الفرس إلَّا عندما يحتدم القتال، وتظهر بوادر الوهن على الفرس، واشتبكت قوات خالدٍ مع قوات «**أندرزغر**» في

قتالٍ ضارٍ عنيفٍ؛ ذلك أن الفريقين صبروا صبرًا عظيمًا على أن يتلقَّى أحدهما مدده قبل الآخر، واشتدَّ القتال في «**الولجة**»، وثبت الفرس ثباتًا أزعج خالدًا حتى بات يخشى الهزيمة، وَظَنَّ الفريقان أن الصبر قد فرغ، ولكن النصر في اللحظة الحاسمة كان من نصيبه؛ فقد أطبق الكمينان على جيشِ الفرس من الشرق ومن الغرب، ثم شكَّلا رأس حربتين؛ إذ انقضَّا على جيش الفرس من وراء ظهره، في الوقت الذي كان يرقب الأفق بقلق؛ ينتظر أن يظهر عليه «**بهمن جاذويه**» فينقذه، وأُسقط في يد الفرس، وانتابهم الذعر، وشرع العرب في إبادة جيش الفرس، ولم يَرَ رجلٌ من الأعاجم مقتل صاحبه، ومضى «**الأندرزغر**» في هزيمته إلى مجاهل الصحراء؛ فمات عطشًا[١].

❑ وتعلَّم الغرب من خالد..

فهذه معركة «**واترلو**» التي دارت في بلجيكا بين «**نابليون بونابرت**»، وبين قائد جيوش الحلفاء «**ولنجتون**» الإنكليزي عام «**١٨١٥**»؛ وفيها انهزم نابليون بوقوعه في كمين القائد «**بلوخر**» وجيشه، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من النصر، واستقال من منصبه، ودخل الحلفاء باريس، ولجأ نابليون إلى إنجلترا، فلم تقبله لاجئًا سياسيًّا، بل عدَّتْه أسيرًا وَنَفَتْهُ إلى جزيرة القديسة هيلانة.

وخطب خالد بن الوليد بعد انتهاء المعركة، وحثَّ جنده على تحقيق المزيد من الانتصارات؛ فقال: «ألا ترون إلى طعام كرفغ التراب[٢]، وباللَّه لو لم يُلزمنا الجهادَ في اللَّه والدعوة إلى اللَّه ﷻ إلَّا المعاشُ، لكان الرأي أن نُقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونُولِّي الجوع والإقلال مَنْ تولاه مِمَّن اثَّاقَلَ عمَّا أنتم عليه»[٣].

---

(١) الطبري (٥٥٨/٢، ٥٥٩)، وابن الأثير (١٤٨/٢).
(٢) أي: كثير التراب.
(٣) الطبري (٥٥٩/٢)، وابن الأثير (١٤٨/٢).

معركة أُلَّيس[1] أو «نهر الدم»؛ الجولة الرابعة بين خالد والفرس ومعهم نصارى بكر بن وائل

حَقَدَ نصارى العرب - وهم من تغلب وبكر بن وائل - على المسلمين بعدما أصابهم في «**الولجة**»؛ فاستغاثوا بكسرى «**شيرويه**»؛ ليمدَّهم بجيش فارسي؛ ليشتركوا سويًّا في القضاء على خالد وجيشه، وكان على العرب في «**أُلَّيس**» عبدُ الأسود العجلي، ووصل «**جابان**» على رأس جيش كثيفٍ من الفرس، وتولَّى جابان القيادة العامة، وكان عبد الأسود قائدَ خليطِ نصارى العرب؛ وهم من بكر بن وائل، وبني عجل، وتيم اللَّات، وضبيعة، وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وانضمَّ إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية، وصل خالد بجيشه، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدُّون للغداء، وقد وُضِعَ الطعام الفاخر على البُسُط، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المئة والخمسين ألف محارب، وخالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا، فلما يحفلوا بخالدٍ وأقبلوا على طعامهم، فقال لهم قائدهم جابان: «اتركوا الطعام، واستعِدُّوا للصدام». فلمَّا عَصَوْهُ، قال: «إن القوم سيعجلونكم قبل أن تَطْعَمُوا الطعام، وإنكم إنما هيأتموه لهم؛ ليأكلوه بدلًا منكم». فعصوه، وبسطوا البُسُط، ووضعوا الأطعمة، ودعا بعضهم إلى بعضٍ، وتوافدوا إلى البُسُط، وزحف خالد والمسلمون، فأجبروا الفرس على القيام عنه، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه، ودعا خالد للبراز ونادى: «**أين أبجر بن عبد الأسود، أين مالك بن قيس؟**»؛ فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلَّا مالك بن قيس؛ فإنه خرج إلى خالد، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحْتَقِرًا: «**يا ابن الخبيثة، ما جَرَّأَكَ؟! لستَ لي عليٍّ من بينهم، وليس فيك وقاء**»؛ أي: أَنك لست لي بكُفْءٍ. ثم ضربه ضربةً قتلته في الحال، ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالًا شديدًا كان أشدَّ من أي قتالٍ سبق؛ لأن نصارى العرب كانوا

---

(١) أُلَّيس: موضع في أول أرض العراق من ناحية البادية، وهي قرية من قرى الأنبار.

شديدي الغيظ لخالدٍ؛ لقتله ابْنَيْ زعيميْهم في «**الولجة**»، وصبر الفرس صبرًا شديدًا، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى شقَّ عليهم الأمر؛ قال خالد: «ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيْس»، ونذر خالد لله أن يُجري نهرًا من دمائهم إنْ مَنَحَهُ اللَّه النصر عليهم؛ فقال: «**اللهم، إنَّ لك عليَّ إن منحتنَا أكتافهم، ألَّا أستبقي منهم أحدًا قدرْنا عليهم حتى أُجرِيَ نهرهم بدمائهم**»، وانتاب الفرس والنصارى الذعُر والخوفُ عندما رَأَوْا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم، وركنوا إلى الفرار، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون، ونادى منادي خالد حتى يفي بنذره: الأسر، الأسر، لا تقتلوا إلَّا مَنْ امتنع. فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر، فوكَّل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر يومًا وليلةً؛ على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم، وهنا قال القعقاع وغيره لخالدٍ: لو أنك قتلتَ أهل الأرض، لم تُجْرِ دماءهم، ولكنْ أرسِلْ على الدماء الماءَ، فيجري النهر دمًا؛ لتبرَّ بيمينك. فعمل خالد بمشورة القعقاع، وأُعيد الماء إلى النهر، فجرى أحمر قانيًا؛ فسُمِّي لذلك: «**نهر الدم**»، وعُرف بذلك إلى قرونٍ طويلة. قالوا: وكانت على النهر طواحين تُدار بالماء، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قُوتَ العسكر ثمانية عشر ألفًا ـ أو يزيدون ـ ثلاثة أيامٍ، وأكل المسلمون طعامَ الفرس الذي وضعوه على البُسُط[1]، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا، أكثرهم من أهل «**أمغيشيا**»، وَزُفَّ خبر النصر إلى الصِّدِّيق، فتوَّج خالدًا بشهادةٍ من أرقى الشهادات، وحَسْبُكَ بها من شهادةٍ؛ فهو لا يرى لخالدٍ نظيرًا في عبقريته وشجاعته، ولا نظير له في

---

(١) لما هُزِمَ الفرسُ وَأُجْلُوا عن عسكرهم، ورجع المسلمون من طلبهم، وقف خالد على الطعام الذي كان للفرس، فقال لجيشه: «قد نفلتكموه؛ فهو لكم»؛ فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل، وجعل مَنْ لم يعرف الرقاق يقول: ما هذه الرقاق البيض؟! وجعل من عرفها يقول لهم مازحًا: هل سمعتم برقيق العيش؟! فيقولون: نعم!! فيقولون: هذا هو!! **راجع:** الطبري (٢/٥٦٠ ـ ٥٦٢)، وابن الأثير (٢/١٤٩).

عسكريته.

❑ «أعْجزَتِ النِّساءُ أن يُنشّئن مِثْل خالدٍ»:

قال الصِّدِّيق في خالد ـ وهو يخطب في الناس بعد نصر أُلَّيْس ـ: «**يا معشر قريش، عَدَا أسَدُكم على الأسدِ؛ فَغَلَبَهُ على خراذيله**[(١)]، **أعجزتِ النساء أن يُنشِّئن مثل خالد!!**»[(٢)]. أو «**عجزت النساء أن يلدن مثل خالد**»[(٣)].

❑ «يوم أمغيشيا» نصرَ اللهُ خالدًا بالرُّعب:

كانت «**أمغيشيا**»[(٤)] أعظم وأهمَّ من «**أُلَّيْس**»، وكانت على بُعْدِ أربعين كيلو مترًا من «**أُلَّيْس**»، فتملَّكهم الرعب، وفرَّ أهلها من مدينتهم؛ خوفًا من خالد، وتركوا وراءهم كل شيء؛ قال ابن جرير: «لمَّا فرغ خالد من وقعة أُلَّيْس، نهض فأتى أمغيشيا، وقد أعجلهم عمَّا فيها، وقد هرب أهلُها، وتفرَّقوا في السَّواد، فأمر خالدٌ بهدم أمغيشيا وكل شيء فيها، وكانت مِصْرًا كالحيرة، ولم يُصِبِ المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مِثْل ما أصابوا في أمغيشيا؛ بلغ سهمُ الفارس ألفًا وخمس مئة سوى النَّفْل الذي نفله أهل البلاء».

❑ معركة المقر[(٥)] واستسلام الحيرة[(٦)]:

قدَّر صاحب الحيرة ومَرْزُبَانُهَا «**أزاذيه**» أن خالدًا لن يتركه، وأنه سيركب إليه النهر؛ فقدَّم ابنه، وأمره أن يسدَّ قناطر الفرات، ويفتح للروافد التي تمدُّه مسالك جديدة، حتى يجفَّ النهر وتتوقَّف السفن عن الحركة.

---

(١) أطايب اللحم المقطَّع الوافر، وخردل وخرذل بمعنى واحد.
(٢) الطبري (٢/٥٦٣).
(٣) ابن الأثير (٢/١٤٩).
(٤) أمغيشيا: كانت مصرًا كالحيرة، وكانت أُلَّيْس من مسالحها.
(٥) المقر «فم العتيق»: موضع قرب فرات بادقلي من ناحية البر من جهة الحيرة.
(٦) مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يُقَالُ له: النجف.

وكان خالد قد قسم جيشه على قسمين:

القسم الأول: وهم المشاة تحملهم السفن مع المُؤَن.

والقسم الثاني: وهم الفرسان وراكبو الإبل.

وسارت السفن شمالًا، ولم يَفْجَإِ المسلمين إلا السفن جوانح، ولم تفُتَّ المفاجأةُ المزعجة في عضُد أبي سليمان بعد أن أخبره الفلاحون أن الفرس قد فجَّروا الأنهار؛ فسلك الماء غير طريقه، فتعجَّل خالد في جريدة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة، فباغتَ خيلَهُ وهم على «**فم العتيق**»[١] - مَصَبٌّ الفرات الأصلي - وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة، فاقتتلوا بموضع المقر - فم العتيق - حتى هزمهم بعد أن قُتِلَ ابن صاحب الحيرة، وأعاد الماء يجري في النهر؛ فعادت سفن المسلمين إلى المسير، وقصد خالد الحيرة، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها، بعد أن فرَّ المَرْزُبان صاحبُها[٢]، فعسكر خالد بين «**الغريين**»[٣] والقصر الأبيض، وأجال خيله في عَرَصَاتهم[٤]، وبعد قتالٍ افتتح المسلمون الدور والدِّيرات، وأكثروا القتل، فنادى القسيسون والرُّهبانُ أهلَ الحصون: يا أهلَ القصور، ما يقتلنا غيركم!! فنادى أهلُ القصور: يا معشر العرب، قد قَبلنا واحدةً من ثلاثٍ، فكفُّوا عنَّا. وفاوضوا خالدًا، وأرسلوهم إلى خالد، وَخَلَا خالد بأهل كل حصن على حدة ولامهم[٥]، وقال: «**اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا،**

(١) العتيق: يقصد به مصب الفرات الأصلي في بعض الفروع، والموضع قريب من الكوفة. والجريدة: خيل لا مشاة فيها.

(٢) بعدما علم بموت (أردشير) ومقتل ابنه.

(٣) الغريان: بناءان؛ كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) العرصات: جمع عرصة؛ وهي: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، ولقد وَكَّلَ خالد لكل قصر قائدًا يحاصر مَنْ فيه ويقاتلهم، وعهد إلى أولئك القادة أن يدعوهم، فإن لم يقبلوا أجلوهم يومًا ثم يناجزونهم.

(٥) قال خالد في لومه لهم: «ويحكم ما أنتم؟! أعرب فما تنقمون من العرب؟! أو عجم فما تنقمون من العدل والإنصاف؟!. **انظر:** الطبري (٢/٥٦٥).

أو الجزية، أو المنابذة[١] والمناجزة»؛ فقالوا له: بل نعطيك الجزية! فقال خالد: «**تبًّا لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة[٢] مضلّة، فأحمق العرب مَنْ سلكها، فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركه، واستدلَّ[٣] الأعجمي!**».

وعقد خالد معاهدة صلح[٤] بينه وبين أهل الحيرة؛ وبذلك فَتَحَتِ الحيرة أبوابها للمسلمين[٥]، وأقروا بدفْع الجزية مئة وتسعين ألف درهم، تُقبل كل سنة، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصمة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

ولما استقر خالد في الحيرة، صالحه صاحب «**قُس الناطف**»[٦] ودهاقين[٧] البلاد على قرى السواد إلى «**هُرْمُز جِرد**»[٨]، وجعل خالد الحيرة مقرًّا لقيادته[٩].

---

(١) المنابذة: تحيز كل من الفريقين للحرب.

(٢) الفلاة: الصحراء.

(٣) استدل: طلب منه أن يدله.

(٤) نص المعاهدة: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا، وَعَمْرو بن عدي، وعمرو بن عبد المسيح، وإلياس بن قبيصة، وجبرى بن أكال، وهم نقباء أهل الحيرة. ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به؛ عاهدهم على مئة ألف وتسعين ألف درهم، تُقْبَلُ في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا، رهبانِهم وقسيسيهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيسًا عن الدنيا، تاركًا لها، وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو قول؛ فالذمة منهم بريئة. **راجع**: الطبري (٥٦٧/٢). **وانظر**: كتاب الخراج، للقاضي أبي يوسف ـ ص (١٧١)، نص كتاب خالد إلى أهل الحيرة الذي أعلن فيه التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر: «وجعلت لهم أيما شيخ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابته آفةٌ من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وَعِيلَ من بيت مال المسلمين وعياله ما أقاموا بدار الإسلام.

(٥) الطبري (٥٦٣/٢ ـ ٥٦٧)، وابن الأثير (١٤٩/٢، ١٥٠)، والبلاذري ص (٢٤٥).

(٦) قس الناطف: موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات الشرقي.

(٧) دهاقين: جمع دهقان ـ بكسر الدال وضمها ـ؛ وهو: زعيم فلاحي العجم ورئيس الإقليم.

(٨) هرمز جرد: ناحية كانت بأطراف العراق.

(٩) **راجع**: الطبري (٥٦٨/٢ ـ ٥٨٤)، وابن الأثير (١٥١/٢، ١٥٢).

❑ وليُّ اللهِ خالدٌ يشرب السُّمَّ فلا يضرُّه، ويتعجَّب منه، ويُبْهَرُ حكيمُ نصارى العرب:

عن قيس: أُتي خالدٌ بِسُمٍّ فقال: ما هذا؟ قال: سُمٌّ. فَشَرِبَهُ[١].

وفي أُمَّهات كتاب التاريخ: أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب، ومعمِّرهم، وأرجح قومه عقلًا، لَمَّا دخل على خالدٍ، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيرًا في وسطه، فتناوله خالد وقال: ما في هذا الكيس؟ ونشر ما فيه في راحته، ثم قال: ما هذا يا عمرو؟ فقال عمرو ـ وكان رأسَ أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالدًا من أهل الحيرة ـ: هذا واللَّه سُمُّ ساعةٍ. فقال خالد: وَلِمَ تحتقبُ السُّمَّ؟ قال عمرو: خشيتُ أن تكون علي غير ما رأيتُ من العَدْل، وقد أتيتُ على أجلي[٢]، والموت أحبُّ إليَّ من مكروه أُدخله على أهل قريتي. فأخذ خالد السُّمَّ المذكور، وَتَلَا هذا الدعاء: «**إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، بسم اللَّه خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذي لا يضرُّ مع اسمه داء، الرحمن الرحيم**»، ثم وضع السم في فمه، وبادروه؛ ليمنعوه، ولكنَّه قد سبقهم فابتلعه، وانتظروا ساعةً ليصرع السم خالدًا، فمضت ولم يضرَّ السم خالدًا، كيف لا وهو من أكابر أولياء اللَّه المتقين، وسيد المجاهدين في الشام والعراق؛ فقال عندها ابنُ بقيلة: «**واللَّه يا معشر العرب لتملكنَّ ما أردتم**».

❑ أهل السَّوَاد يُصالحون خالدًا على الجزية:

ومثلما فعلَ أهلُ الحيرة، صالحَ أهلُ السواد من الفرس ووفودُ الدهاقين خالدًا على دَفْع الجزية مليونين من الدراهم سنويًّا للمسلمين.

❑ إعجاز عسكري: فتح خالد ثُلُثي العراق خلال أربعين يومًا:

لله دَرُّكَ يا خالد.. تَمَّتْ لجيوشه السيطرة على أكثر من ثلثي العراق خلال

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٤٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٠٩).

(٢) وكان سِنُّهُ عند التفاوض ثلاث مئة وخمسين سنة.

أربعين يومًا عام «١٢هـ»، فيما بين أواخر محرم وأوائل ربيع أول، وهذا إنجاز عسكري عظيم مدهش، تعجز اليوم عن تحقيق مثله أعتى الجيوش المدجَّجة بالصواريخ والطائرات والأساطيل والدبابات... فَبُورِكَ زَنْدكَ، وبورك ساعدُك، وبورك سيفك ورمحك، وبورك جوادك، وبوركتْ هِمَّتُك، أعلى الهِمَمِ وأشرفُها وأنبلها وأعزُّها وأغلاها.

❑ **معركة الأنبار[1] وفَقْءُ ألف عَيْنٍ من الكفار:**

سار خالد إلى الأنبار، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس(٢)، وكان من شجعان البادية، فلمَّا بلغها طاف بها، فرأى أهلها قد تحصَّنوا بها، وخندقوا عليها خندقًا عميقًا عريضًا، وأشرفوا من حصونهم، فَأَنْشَبَ خالدٌ القتال، وكان قليل الصبر عنه، وَتَقَدَّمَ إلى رماته، فأوصاهم قائلًا: «**إني أرى أقوامًا لا عِلْمَ لهم بالحرب، فارموا عيونهم، لا توخُّوا غيرها، فارموا رشْقًا واحدًا ثم تَابِعُوا**»، وانطلقتِ السهام دفعةً واحدةً ولها أزيزٌ فأصابت مراميها، ثم تتابعَ الرَّمْيُ؛ فأُصيب الرُّماة من العدو الذين كانوا فوق جدران الحصن بكارثةٍ؛ إذ فَقَأَتْ سهام المسلمين منهم ألفَ عينٍ؛ ولذلك سُمِّيتْ موقعةُ الأنبار «**ذات العيون**»، واضطرب أهل الحصن وَمَاجُوا متصايحين: ذهبت عيون أهل الأنبار. وراسل مَرْزُبَانُ الأنبار «**شيرا زاد الفارسي**» خالدًا بشروطه التي رفضها خالد، وقرر خالد أن يردم الخندق، ولكن بماذا؟ أمر خالد أن ينحر المسلمون الإبل الهزيلة العجاف، ويقذفوا بها في نقط الخندق

---

(١) الأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد بينها عشرة فراسخ.

(٢) الأقرع بن حابس التميمي: كان حكيمًا في الجاهلية، ثم قدم على النبي ﷺ في أشراف بني تميم بعد فتح مكة، وكان قد شهد معه فتح مكة وحنينًا والطائف، فلما قدم وفد بني تميم كان معهم، وكان من رحالات العرب الذين يتألفهم الرسول ﷺ، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام، شهد مع خالد اليمامة وحرب العراق وفتح الأنبار، ومات شهيدًا في أرض خراسان في زمن عثمان بن عفان، وقيل: قتل باليرموك. **راجع**: طبقات ابن سعد (٣٧/٧)، والإصابة (٥٨/١)، وأُسْد الغابة (١٠٧/١)، والاستيعاب (١٠٣/١).

الضيِّقة حتى تطمرها، فإذا طمرتها عبر الجيشُ على الجمال المنحورة، ونجحت الحيلة، واستقام الجسر اللحمي، وعبر عليه الجيش مشاةً وركبانًا إلى أبواب الأنبار، واستسلمت الأنبار لخالد.

بذل قائد الأنبار الفارسي ما أراده خالد؛ فقبل منه على أن يجلِّيه، ويلحقه بمأمن في جريدة[١] خيل، ليس معهم من المتاع والأموال شيء.

وبعد أن استقر خالد في الأنبار صَالَحَ مَنْ حولها؛ فاطمأن له الأمر في تلك المناطق[٢].

❑ خالد يختطف القائدَ العامَّ للنصارى من قَلْبِ صَفِّهِ في معركة عين التمر ويأسره أوَّلَ المعركة:

كان على عين التمر[٣] «**مهران الفارسي**» في جمعٍ عظيم من العجم والعرب، وكان على العرب «**عقَّة بن أبي عقة**»، وحين سمعوا بمسير خالدٍ إليهم، قال عقة لمهران: «**إن العرب أعلم بقتال العرب، فَدَعْنَا وخالدًا**».

قال: «**صدقت، لعمري أنتم أعلم بقتال العرب**». وكانت قوات عقَّة في العراء، وقوات مهران في الحصن حين قدم خالد عل تعبيةٍ، فقال لمجنبتيْه: «**اكفوني ما عنده؛ فإني حاملٌ عليه**». ووكَّل بنفسه حوامي، وأراد خالد أن يفاجئ قائد النصارى لا بقتْله، ولكنْ بأخْذه أسيرًا؛ كي يفهم ذلك المغرور أيَّ رجال حربٍ ومهارة هم المسلمون، ثم ليُدخل الرعب والفزع في قلوبهم.

قد كان المتَّبَع في الحروب المبارزة، فكيف بخالدٍ عاشق المفاجآت يريد ما هو أعظم من المبارزة؛ وهو اختطاف قائد الأعداء وانتزاعه من قلب صفوف جيشه. وانقضَّ على عقَّة كما ينقضُّ الصقر على فريسته، وعقَّة مشغولٌ بتسوية صفوف

---

(١) الجريدة: الخيل التي لا رجالة فيها.

(٢) الطبري (٥٧٤/٣ - ٥٧٦)، وابن الأثير (١٥١/٢).

(٣) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، ولا تزال يطلق عليها هذا الاسم حتى اليوم.

جيشه، واندهش العرب المتنصِّرة للجريدة الصغيرة من الخيل التي خرجت تركض نحوهم، وماذا عسى أن يفعل عشرة رجال مع عشرات الألوف من قوم عقَّة؟! وَبَيْنَا هم غارقون في دهشتهم، إذا بخالدٍ يتجه نحو عقَّة يحتضنه، ثم يحمله ويعود به حيًّا ـ كالبرق ـ أسيرًا إلى صفوف المسلمين، وتجمَّدتِ الدماء في عروق المُتَنَصِّرة وهي تَرَى انتزاعَ خالدٍ لعقَّة من بينهم في أسلوب صاعقٍ مفاجئ، ما كان أحدٌ يتوقَّعه، وحَمْلَهُ بين يديه على فرسه؛ كأنه طفل رضيع، فلم يتحمَّلوا الصَّدْمة واختطاف قائدهم من بين أيديهم وهم ينظرون إليه؛ فلاذوا بالفرار، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون، وقد كَثُرَ من بينهم الأسرى الذين استسلموا بدون مقاومة، وهرب الباقون، ودخلوا حصن «**عين التمر**»، ونجا القائد الفارسي مهران، وهرب من الحصن ومعه العناصر الفارسية المسلحة؛ وهكذا دمَّر خالدٌ جيشًا بأكمله دون أن يخسر جنديًّا واحدًا، وفتح خالد «**عين التمر**» بعد أن نزلوا على رأي خالد؛ فقتل خالدٌ مُقاتلتهم، وبدأ بعقَّة؛ فأُعدِم ثم رمى بجثته على الجسر؛ ليكون عبرةً لغيره، ثم أعدم نائبه «**عمرو بن الصعق**»، ثم نفَّذ حكم الإِعدام في كلِّ مَنْ حمل السلاح في وجهه مِمَّن تحصَّن بـ«**عين التمر**»، وسَبَى النساء والذَّرارِيَّ[1].

❑ في دومة الجندل: من خالد إلى عياض: إياك أريد.

«**لا يرى قومٌ وجه خالدٍ قلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه**».. قالها ملك دومة الجندل.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

كان خالد قد أرسل الوليد بن عقبة بفتح «**عين التمر**» وبالأخماس إلى أبي بكر الصديق؛ فوجهه أبو بكر مَدَدًا لعياض بن غنم، فقدم عليه وهو محاصر «**دُوْمة الجندل**» وأهلها محاصروه، وقد أخذوا عليه الطريق؛ فقال الوليد لعياض: «**الرأي**

---

(١) **انظر**: الطبري (٢/٥٧٦ ـ ٥٧٨)، وابن الأثير (٢/١٥١).

في بعض الحالات خير من كثيف الجند! ابعث إلى خالد فاستمده»، ففعل عياض.

وقدم رسول عياض على خالد بعد وقعة «**عين التمر**» مستغيثًا، فعجّل خالد إلى عياض بكتابه: «**من خالد إلى عياض: إياك أريد**».

لَبّثْ قليلاً تأتك الحلائب يحملن آسادًا عيها القاشب
كتائب تتبعها كتائب

وخرج خالد على تعبية يسرع السير جهده، فلما بلغ أهل «**دومة**» مسيرُ خالد إليهم بُهِتُوا، ثم اختلف زعماؤهم فيما يصنعون، وكان عليهم رئيسان: «**أكيدر بن عبدالملك**» و«**الجودي بن ربيعة**»، فقال أكيدر: «أنا أعلم الناس بخالد! لا أحد أيمن طائرًا منه، ولا يرى قوم وجه خالد قلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم»... فأبوا!

ولما نزل خالد «**دومة**»، جعلها بينه وبين عسكر عياض؛ فخرجت إليه بعض قوات الحصن؛ فهزمهم خالد وأخذ «**الجودي**» أخذًا.

وانهزم المشركون إلى الحصن، فلما امتلأ أَغْلَقَ مَنْ فيه أبوابه دون أصحابهم، وتركوهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ويأسرون منهم مَن يشاءون.

وأطاف خالد بباب الحصن، فأمر به؛ فاقتلع، واقتحم المسلمون على مَنْ فيه؛ فقتلوا المقاتلة كافة إلا أسارى بني كلب؛ فإن عاصم بن عمرو التميمي، والأقرع بن حابس التميمي، وبني تميم، قالوا: قد أمّناهم! فأطلقهم خالد، وقال: «**مالي ولكم! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيّعون أمر الإسلام؟!**».

وأقام خالد بدومة الجندل، ورد الأقرع بن حابس إلى الأنبار[1]؛ فكانت إقامته مدعاة لطمع الأعاجم وظنهم به الظنون؛ وكذلك ظنها عرب الجزيرة[2] فرصة

---

(١) الطبري (٢/٥٧٨ - ٥٨٠)، وابن الأثير (٢/١٥٢).

(٢) الجزيرة: وهي التي بين دجلة والفرات، مجاورة أرض الشام، وتشمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة؛ لأنها بين دجلة والفرات. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٩٦).

سانحة؛ فكاتبوا الأعاجم؛ ليكونوا معهم على خالد؛ غضبًا لعقة بن أبي عقة الذي لم ينسوا مصرعه بعد؛ فبعث خالد القعقاع بن عمرو التميمي إلى «**الحصيد**»(١)؛ فقضى على قوات الفرس وحلفائهم فيها؛ وبعث أبا ليلى بن فدكي إلى «**الخنافس**»(٢)؛ فهربت من هناك قوات الفرس وحلفاؤهم(٣).

❑ خالد صاحب المفاجآت، ومعاركه اللَّيْلِيَّة:

قد كان خالد من طرازٍ نادر؛ فهو وإن كان دقيقًا في رسم خطة المعارك، إلا أنه يمتاز ـ أيضًا ـ بسرعة التنفيذ، وحُبِّ المخاطر، والقُدرة الفائقة على ابتكار أساليبَ مُفاجِئةٍ للعدو، ولا أضَرَّ على الجيوش ـ وإن كانت عظيمةً ـ من أن تتعرَّض للهجوم بغتةً وبأسلوبٍ مفاجئ، وهي على غير استعداد؛ فمشاهير القادة العظام ـ حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ـ كانوا ينفرون من القتال الليلي، ويذهبون إلى عدم جدواه، ويقرِّر «**فردريك الأكبر**» أنه يستبعِدُ دائمًا التفكير في القيام بأي عمليةٍ ليليَّةٍ؛ نظرًا لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال في الضبط بين الصفوف للجنود؛ نتيجةً لتعذُّر الرؤية بين الضُّبَّاط ورجالهم، ويقرر «**بلوفر**» أنه يخشى العمليات الليلية.

وكان القتال ليلًا قليلًا ما يلجأ إليه المحاربون في ذلك العصر، ولكنَّ خالدًا هو خالد.

❑ معركة المصيّخ(٤):

أبلغ خالد خُطَّته إلى قادة الفرق المحتشدة، وأخبرهم بكتمان الخطة حتى على

---

(١) الحصيد: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/ ٢٨٨).

(٢) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار.

(٣) الطبري (٢/ ٥٨٠)، وابن الأثير (٢/ ١٥٣).

(٤) المصيخ: ورد اسمها في الطبري (٢/ ٥٨٠)، وابن الأثير (٢/ ١٥٢): «المضيح»، بينما وردت في معجم البلدان: «المصيخ»؛ وهي: بين حوران والقلت.

جنودهم، وأخبرهم بأن الهجوم سيكون بعد منتصف الليل بساعتين؛ فالقمر لا يطلع في مثل هذا الوقت إلا قبل منتصف الليل بقليل، وقبل طلوع القمر وفي غَلَسِ الظلام قام خالد بتطويق «**المصيّخ**» على شكل دائرةٍ، دون أن يشعر بوجودها أهل «**المصيّخ**» الذين كانوا نيامًا، وَمَنْ ظلَّ مستيقظًا كان يحتسي الخمر في عُرْسِ «**حرقوص بن النعمان**» أحد زعمائهم، وقال لهم حرقوص: «**اشربوا شراب وداعٍ، فما أرى أن تشربوا بعدها، هذا خالد في عين التمر، وجنوده بحصيد، وقد بلغه جَمْعُنَا، وليس بتاركنا**»، ولم يعلم أن جيوش خالد قد طوَّقتهم في ظلام الليل في انتظار طلوع القمر. ثم أنشد حرقوص:

أَلَا فاشربوا مِنْ قَبْلِ قاصمةِ الظَّهْرِ ... بُعَيْدَ انتفاخِ القومِ بالعَسْكَرِ الدَّثْرِ
وَقَبلَ منايانا المُصيبةِ بالقدرِ ... لِحِينِ لَعَمرِي لا يزيد ولا يحْرِي
ألا فاسقياني قَبْلَ جيشِ أبي بكرِ ... لعلَّ منايانَا قريبٌ ولا ندري
أظنُّ خيول المسلمين وخالدًا ... سَتطْرُقُكم عند الصباحِ على البشْرِ
فهل لكمو بالسير قَبْل قتالهمْ ... وقبل خروج المُعصراتِ من الخِدْرِ
أريني سلاحي يا أُميمةُ إنني ... أخافُ بياتَ القومِ أو مطلعَ الفجرِ

وكان ما قال؛ فعندما غمر القمر بنوره الأرضَ، شَنَّ خالدٌ وقادتُهُ الهجوم الصاعق من جميع الجهات، وكان حرقوص أوَّل الذين قُتلوا؛ فقد أطاح المسلمون برأسه وهو سكران، وسقط في جفنة الخمر التي كانوا يشربون منها، وقُتل جميع أبنائه، وَصَحَا النائمون من أهل «**المصيّخ**» على وَقْعِ السيوف، وانهزم وقُتل الذين استعدُّوا للقاء خالد، وكانت غارة موفَّقة، وَأُبِيدَ أكثرُ أهل «**المصيّخ**»، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل[1].

---

(١) الطبري (٢/٥٨٠ - ٥٨٢).

❑ في الثني والزميل:

علم خالد بتحشد بعض بني تغلب في «**الثني**» [١] و«**الزميل**» [٢]؛ استعدادًا لقتال المسلمين؛ غضبًا لعقة بن أبي عقة.

وبعد «**المصيخ**» بأربع ليال طَبَّقَ خالد نفس خطته في «**المصيخ**» على «**الثني**»، وأمر خالد القعقاع بن عمرو التميمي وأبا ليلى بن فدكي أن يرتحلا أمامه، وواعدهم ليلة؛ ليغيروا على بني تغلب من ثلاثة اتجاهات؛ كما فعل في معركة «**المصيخ**»؛ فبدأ بـ«**الثني**»، واجتمع بأصحابه، فَبَيَّتُوا بني تغلب، وأبادوا رجال «**الثني**» عن آخرهم، وسبوا كل النساء.

ولما انتهى خالد من «**الثني**»، قصد «**الزميّل**»؛ فباغتهم من ثلاثة اتجاهات أيضًا، وقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا من قبل مثلها؛ ثم هاجم «**الرضاب**» [٣] وبها هلال بن عقة، فَارْفَضَّ عنه أصحابُهُ حين سمعوا بِدُنُوِّ خالد منهم؛ لهذا لم يلق خالد بها كيدًا [٤]. وقال خالد في اندحار أهل «**الرضاب**»:

طلبنا بالرضاب بني زهير ... وبالأكناف أكناف الجبال
فلم تزل الرضاب لهم مقاما ... ولم يؤنسهم عند الرمال
فإن تشقف أسنتنا زهيرًا ... يكفَّ شريدهم أخرى الليالي

❑ خالد هازم الروم والفرس ونصارى العرب في معركة الفِراض [٥] «الخامس عشر من ذي القعدة عام اثني عشر هجرية»:

اتَّحَدَ النقيضان الفرس والروم لقتال خالدٍ؛ فقد كاتبَ الرومان الفرس والعرب المتنصِّرة الموتورين؛ للاندماج في جيشٍ واحدٍ للقاء خالد، واحتشد الجميع في

---

(١) الثني: موضع بالجزيرة قرب الرَّصافة.
(٢) الزميل: موضع في ديار بني بكر، وهي عند «البشر» بالجزيرة شرقي الرصافة.
(٣) الرضاب: موضع بالرصافة قبل بناء هشام إياها غرب الرقة.
(٤) الطبري (٢/٥٨٢)، وابن الأثير (٢/١٥٣).
(٥) الفراض: موضع على حدود تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات.

جيشٍ لا يقلُّ عدده عن مئة وخمسين ألفًا، وكان عدد المسلمين لا يزيد على عشرين ألفًا في «**الفِراض**» بحدود الشام، ونصحهم العقلاء بأن لا يُقاتلوا خالدًا، وقالوا لهم: «**احتسِبُوا ملككم!! هذا رجل يقاتل عن دين وعقلٍ وعلم، واللَّه ليُنصرنَّ ولتُخذَلُنَّ**». وَخَيَّرَ الروم والفرس والمتنصِّرة خالدًا بين أن يعبر الفرات إليهم، أو يخلِّي عنهم فيعبروا هم الفرات؛ فقال لهم: «**بل اعبروا إلينا**»، فطلبوا من خالد أن يتنحَّى عن موقعه حتى يعبروا وتنشب المعركة حيث تنحَّى، فقال خالد: «**لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا، ولن نتعرَّض لكم حتى تستكملوا العبور**»، وعظم خالد في أعينهم، ولم يعبر خالدٌ ميمونُ النَّقيبةِ حتى تكون الصحراء خلف ظهره، وتصاعد لَهَبُ القتال، وبدا الاضطراب واضحًا على القوات المشتركة، وبدأت كفَّة الميزان ترجح لصالح العسكر الإِسلامي، وَلَحَظَ خالد ذلك؛ فأصدر أمره إلى جنده بأن يُضاعفوا حملاتهم عليهم، فصاح فيهم: «**ألحوا عليهم ولا تُرفِّهوا عنهم**»[١]؛ فصار المسلمون يحصدونهم حصدًا، ولجأ فرسان المسلمين إلى أسلوب رائع في القتال؛ إذ صار هؤلاء الفرسان يحشرون الزمرة من الحُلَفَاء بالرِّماح، فإذا جمعوهم، قتلوهم عن آخرهم، ثم عَمَّتِ الهزيمة جيوش الحلفاء الثلاثة؛ فأخذتْهم سيوفُ المسلمين من كل ناحيةٍ؛ فَقَتَلَ المسلمون منهم يوم «**الفِراض**» في المعركة وفي المُطاردة بعدها مئةَ ألفٍ، في روايات جميع المؤرِّخين[٢]. وكانت معركة «**الفراض**» خاتمةَ معاركِ خالدٍ في العراق.. وما أحلاها من خاتمة.

يقول القعقاع بن عمرو عن هذه الموقعة:

لقينا بالفراضِ جموع رومٍ ... وفُرْسٍ عَمَّهَا طُولُ السَّلامِ

أبدْنَا جَمْعَهُمْ لمَّا التقيْنا ... وبيَّتْنَا بِجَمْعِ بني رزامِ

فما فَتِئَتْ جنود السِّلْمِ حتى ... رأينا القومَ كالغنَمِ السَّوَامِ

---

(١) لا ترفهوا عنهم؛ أي: طاردوهم بدون هوادة.

(٢) الطبري (٢/٥٨٣، ٥٨٤) وابن الأثير (٢/١٥٣).

قال أهلُ التاريخ عن خالد: «**كان الفرس قد هابوه هيبةً شديدةً، وكان خالدٌ - إذَا نَزَل - عذابًا من عذاب اللَّه عليهم ولَيْثًا من اللُّيُوثِ**».

وكذا كان خالد عذابًا من عذاب اللَّه على نصارى العرب من «**تغلب**» و«**إياد**» و«**النمر**» ممن اشتركوا في معركة «**الفراض**»؛ فلقنهم سيف اللَّه درسًا لا ينسونه مدى الأزمان.

❑ لله دَرُّك أبا سليمان:

لم يُشْجِ الجموع من الناس شجاك، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نزعك... كلمات درر من الصديق، تيجان على رأس سيف اللَّه خالد.

أمر الصِّدِّيقُ خالدًا بالتَّوجُّه لقتال الروم في الشام وَتَرْك العراق، وأثنى على خالدٍ ثناءً عطرًا؛ بأن أحدًا لن يستطيع قهر الروم وإنزال الهزيمة بهم إلا خالدٌ، فكتب إليه: «أَمَّا بعد، فَدَعِ العراق وخلِّفه في أهله الذين قدمتَ بهم عليهم وهم فيه، وامضِ مُختفيًا في أهل القوة من أصحابك، الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فإذا الْتقيتم فأنت أمير الجماعة. والسلام».

وعند الطبري: «أن سِرْ بالمسلمين حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك؛ فإنهم قد شجوا وأشْجَوْا، وإياك أن تعود لمثلها[1]؛ فإنه لم يُشْجِ الجموع من الناس - بعون اللَّه - شجاك، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نَزْعك، فَلْيَهْنِكَ أبا سليمان النِّيَّة والحظوة، فأَتْمِمْ يُتْمِمِ اللَّه لك، ولا يَدْخُلَنَّكَ عُجْبٌ؛ فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ؛ فإن اللَّه له المَنُّ، وهو وليُّ الجزاء»[2].

❑ خالد قمَّة في الطاعة والانضباط العسكري:

لله دَرُّكَ يا خالد.. ما كدتَ تذوق حلاوة نصرك، ويذيع صِيتُكَ بين أعداءِ اللهِ

---

(١) يقصد الحج بدون إذن الخليفة.

(٢) تاريخ الطبري (٣/٣٨٤).

الفُرْسِ ويرهبون اسمك.. وبينك وبين المدائن التي تُتَوِّجُ نصرك قاب قوسين أو أدنى، حتى يصدر أمرُ الصِّدِّيق إليك بِتَرْك العراق، فلم تعتذر للخليفة ولا حتى تُناقشه، وحينما قال لك زعيم البدو وفارسُهم «**دسين العجلي**»: «أصلحك الله، واللَّه ما جعل اللّه في الشام من العراق خلفًا للعراق، أكثر حنطةً وشعيرًا ودیباجًا وحريرًا وفضةً وذهبًا، وأوْسَع سعةً، وأعْرَضَ عرضًا، والله ما الشام كلُّه إلا كجانبٍ من العراق». فرددت - لله دَرُّكَ - وما تُريد إلَّا عزَّ الإسلام: «إن بالشام أهلَ الشامِ، وقد تهيَّأتُ لهم وتسيَّرتُ؛ فإنَّما أنا مُغيثٌ وليس لهم مَدَدٌ، فكونوا أنتم على حالتكم التي كنتم عليها، فإن نفرغ مِمَّا أُشخِصنا إليه عاجلًا، عجلنا لكم، وإن أبطأتُ، رجوتُ أن لا تعجزوا ولا تَهِنُوا، وليس خليفة رسول اللَّه ﷺ بتاركٍ إمدادَكم بالرجال حتى يفتح اللّه عليكم هذه البلاد، إن شاء اللّه - تَعَالَى -».

❑ حرب المفاجآت:

إذا أردنا كلمةً جامعةً لحرب خالدٍ مع الفرس، فنكاد نجزم بِأَخْذِ خالدٍ بزمام المُباغتة والمُفاجآت التِّكتيكيَّة؛ فأربكتْ صفوفَ أعدائه... نرى ذلك واضحًا في تغيير مكان اللقاء من «**كاظمة**» إلى «**الحفير**»، إلى «**كاظمة**» مرة ثانية، ثم مفاجآته لعدوه في كمين «**الولجة**»، وفي اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإبل العجاف، وفي مفاجأة «**عقَّة**» في «**عين التمر**» باحتضانه وحمْله إلى صفوف المسلمين أسيرًا، فهذا أسلوب في القتال لم يكُن مألوفًا، وفي الهجوم اللَّيلي على عدوِّه وكسبه في «**المصيّخ**»، وفي «**الثني**»، وفي «**الزميل**»، في سرعةٍ وخفَّةٍ، لم تَدَعْ لهم فرصةً أو مجالًا للتَّصرُّف أو القتال، رَضِيَ اللَّهُ عَنْ خالد؛ لقد كان أسدًا إذا احتاج الأمر إلى تأسد، ثعلبًا إذا احتاج الأمر إلى ثعلبة، وهكذا الحرب مكْرٌ وخدعة وقوة.

بارز خالد يوم «**الولجة**» رجلًا من أهل فارس يَعْدِل ألف رجلٍ؛ فقتله، فلمَّا فرغ منه اتَّكأ عليه ودعا بغدائه[1]، ورضي اللَّه عن عمرو بن العاص القائل في مدح

(١) الطبري (٥٦٠/٢).

خالد: «**له أناةُ القَطاةِ ووثوبُ الأسد**»(١).

❑ وفي واقعنا المعاصر:

تحطَّمتِ الطائرات عند الفجر:

ينقل الدكتور عبدالله عزام في إحدى رسائله عن المستشار العسكري للقيادة الجوية في «٦٧» وكان يهوديًّا ولا يعرفون.. وهو صاحب كتاب «**وتحطَّمت الطائرات عند الفجر**»، وقد طبعَ بأكثر من لغةٍ: «كيف أنهم أعدوا حفلة ماجنة لكبار قُوَّاد القوات الجوية وطياريها مع بنات الهوى والراقصات ليلة الخامس من يونيو «٦٧»، وكيف أنهم أسموها الميج والميراج المصري والإسرائيلي، وانتصر الميج المصري على الميراج الإسرائيلي... أي الطيارون المصريون الغارقون في الفاحشة على الراقصات وبنات الهوى، واستمَّرت إلى قُبيل الفجر، وعند الفجر كان ضرب المطارات لَمَّا نام العصاة في وحلهم، وبعد أن تَمَّ له ما أراد، هرب اليهوديُّ مع أول طائرة».

❑ في الطريق إلى الشام: قطع البرية السماويّة في خمس ليالٍ، وهو شيء لا مثيل له في التاريخ:

قال الذهبي عن خالد بن الوليد: «تأمَّر في أيام النبي ﷺ، واحتبس أدراعه ولَأْمته في سبيل الله، وحارب أهل الرِّدَّة ومسيلمة، وغزا العراق، واستظهر، ثم اخترق البرية السماوية؛ بحيث إنه قطع المفازةَ من حدِّ العراق إلى أوَّل الشام في خمس ليالٍ في عسكرٍ معه، وشهد حروب الشام، ولم يبق في جسده قيد شبرٍ إلا وعليه طابع الشهداء»(٢).

فَعُدَّ من مناقبه وأعماله قَطْعُ البرية السماوية والمفازة من العراق إلى الشام في

---

(١) اليعقوبي (١٠٨/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٦٦/١، ٣٦٧).

خمسِ ليالٍ.

أرسل خالد قبل قَطْعِهِ المفازةَ كتابًا سبقه إلى المسلمين بالشام وإلى أبي عبيدة، وكان من قوله: «... إن كتاب خليفة رسول اللَّه ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم، وقد شَمَّرتُ وانكمشتُ[1]، وكأنَّ خيلي قد أطلَّت عليكم في رجال، فأبشروا بإنجاز موعود اللَّه وحُسن ثوابه، عصمنا اللَّه وإياكم بالإيمان، وثبّتنا وإيَّاكم على الإسلام، ورزقنا وإيَّاكم حُسن ثواب المجاهدين والسلام عليكم».

وكتب إلى أبي عبيدة: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم. لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد: سلام عليك، فإني أحمد اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني أسأل اللَّه لنا ولك الأمن يوم الخوف، والعصمة في دار الدنيا، لقد أتاني كتاب خليفة رسول اللَّه ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالمقام على جندها، والتَّولِّ لأمرها، وواللَّه ما طلبتُ ذلك ولا أَرَدْتُهُ، ولا كتبت إليه فيه، وأنت ـ رَحِمَكَ اللَّهُ ـ على حالك التي كنت بها، لا يُعصى أمرك، ولا يُخالف رأيك، ولا يُقطع أمرٌ دونك، فأنت سيِّدٌ من سادات المسلمين، لا يُنكر فضلُك، ولا يُستغنى عن رأيك، تَمَّمَ اللَّه ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله».

فقال أبو عبيدة: «بارك اللَّه خليفة رسول اللَّه ﷺ فيما رأى، وحيَّا خالدًا بالسلام».

سلك خالد أقصر طريق أمين؛ من ناحية عدم وجود مقاومة معادية كبيرة فيه؛ وهو: طريق «**الحيرة ـ دومة الجندل ـ وادي سرحان ـ قراقر**»، وهناك استشار أصحابه قائلًا: «**كيف لي بطريقٍ أَخْرُجُ فيه من وراء جموع الروم؛ فإني إن استقبلتها، حبستني من غياث المسلمين؟!**». فأجابوه: لا نعرف إلَّا طريقًا لا يحمل الجيوش، إنما

---

(١) أسرعت.

يأخذه الفذُّ الراكبُ، فإياك أن تُغرِّر بالمسلمين. فعزم عليهم، فلم يُجبه إلى ذلك غير رافع بن عميرة الطائي على تَهَيُّبٍ شديدٍ؛ فقام خالد في أصحابه وقال: «لا يختلفنَّ هَدْيُكم، ولا يضعفنَّ يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدْر النِّيَّة، والأجر على قدر الحِسبة، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيءٍ يقع فيه مع معونة اللَّه له»؛ فكان رد أصحابه عليه: أنت رجلٌ قد جمع اللَّه لك الخير، فشأنك[1].

فقال خالدٌ لدليله رافع: «**انطلق بالناس**»، فقال رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال، واللَّه إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه؛ إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء. فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من الماء، وأمر صاحب كل خيل أن يُعِدَّ لها الماءَ بِقَدْرِ ما يسقيها، وجمع عَدَدًا من الإِبل السِّمان ظَمَّأَهَا، حتى إذا أجهدها عطشًا أوردها الماء عَلَلًا بعد نَهَلٍ[2]، فلمَّا امتلأت، صَرَّ آذانها وشدَّ مشافرها؛ لئلا تجترَّ[3]، وانطلق خالد بالجيش، ينزلون كل يوم، فيأكل الرجال ويشربون مِمَّا معهم من الماء، ثم يَشُقُّون بطون عشرة من الإِبل، ويُخرجون الماء منها ويسقونه الخيلَ، حتى اليوم الخامس، حيث أدركوا «**الرَّيَّ**».

لما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله: «**ويحك يا رافع، ما عندك؟**»، وكان رافع[4] أرمد، فأدار رأسه يمنة ويسرة، ثم قال: أيها الناس، انظروا عَلَمَيْنِ؛ كأنهما ثديان. فلمَّا أتوهما، وقف رافع عليهما، وقال: انظروا، هل ترون شجيرة من عوسج؛ كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها. فأمرهم بالتفتيش عليها، فلمَّا وجدوها كبَّروا وكَبَّر رافع، ثم قال: احفروا في أصلها. فحفروا؛ فنبع الماء من عين؛ فشرب الناس حتى رووا، فقال رافع: واللَّه ما وردتُ هذا الماء قطُّ إلَّا مرَّةً واحدة مع أبي

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٦٠٣)، والكامل لابن الأثير (٢/١٥٦).

(٢) العَلَل: الشَّرْبَة الثانية، والنَّهَل: الشربة الأولى.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٦٠٣)، والكامل (٢/١٥٦)، وفتوح الشام، للواقدي (١/١٤).

(٤) هو رافع بن عميرة الطائي: يكنى أبا الحسن، وله صحبة، صحب الصديق، وكان دليل خالد بن الوليد لمَّا سار من العراق إلى الشام.

وأنا غلام[١].

لله دَرُّكَ يا خالد.. كم كانت كفاءة دليلك الصحابي، ولله جرأتك حين تُقدم على ما يتهيَّب عنه الأدِلَّاء.. فَلِلَّهِ بركتك.. ولله دَرُّك من سيِّدٍ من سَادَاتِ أولياء هذه الأمة.

فالطريق الذي قطعه خالد بقواته ـ وكانت بين تسعة آلاف وعشرة آلاف ـ إذًا هو: «**الحيرة ـ دومة الجندل ـ وادي سرحان ـ قراقر ـ سوى ـ تدمر[٢] ـ طريق حوارين[٣] ـ قصم[٤] ـ أذرعات[٥] ـ بُصرى[٦] ـ اليرموك[٧]**».

قال الدكتور عبدالله محمد الرشيد عن خالد بن الوليد: «**نقله أبو بكر الصديق** رضي الله عنه إلى بلاد الشام، وفي طريقه إليها قام بفتح الحصيد، وقراقر، وسوى، وأرَك، وتدمر، وحوارين، وقصَم، ومرج راهط، وبُصرى»[٨].

---

(١) أُسْد الغابة (٢/١٥٥)، والاستيعاب (٢/٤٨٢)، والطبري (٢/٦٠٣، ٦٠٤)، وابن الأثير (٢/١٥٦)، وفتوح الشام، للواقدي (٢/١٤).

(٢) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، بينها وبين حلب خمسة أيام. راجع التفاصيل في «معجم البلدان» (٢/٣٦٩).

(٣) حوارين: من قرى حلب. راجع التفاصيل في «معجم البلدان» (٣٥٧/٣). وهو يقصد طريق القرية لا القرية نفسها؛ إذ إنها بعيدة عن طريقه.

(٤) قصم: موضع بالبادية قرب الشام.

(٥) أذرعات: بلد بأطراف الشام يجاور أرض البلقاء: **راجع**: معجم البلدان (١/١٦٣).

(٦) بصرى: مدينة في أرض الشام، وهي كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا؛ راجعمعجم البلدان (٢/٢٠٨).

(٧) الطبري (٢/٦٠٤، ٦٠٥)، وابن الأثير (٢/١٥٦)، والبلاذري ص (١١٨)، وهناك رواية ثانية عن الطريق التي سلكها خالد؛ هي: «الحيرة ـ حدوداء ـ المصيخ ـ الحصيد ـ سوى... إلخ»؛ **راجع**: ابن الأثير (٢/١٥٦)، والظاهر أن أصحاب هذه الرواية قد خلطوا بين تفويز خالد وبين معاركه التطهيرية التي أجراها على الضفة الغربية من الفرات ضد قبيلة تغلب؛ لذلك أثبتنا الرواية الأولى في المتن، وعليها إجماع المؤرخين تقريبًا.

(٨) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، لعبدالله محمد الرشيد ص (٦٢٠، ٦٢١).

❑ **خالد سيف الله.. هازم الروم في أرض الشام:**

«خالدٌ لها، واللَّه لأُنْسِينَّ الرُّومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد»:

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها الصِّدِّيق عن خالدٍ، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام؛ وذلك لكثرة الروم وحُلَفَائهم الهائلة، التي بلغت ربع مليون مقاتل، بينما جيوش الإسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا، وأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر الصِّدِّيق: «**وبعد، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد أجمعوا على حرب المسلمين، ونحن نرجو النصر، وإنجاز موعود الرب - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - وعادته الحسنة، وأحببتُ إعلامك؛ لترينا رأيك**».

فقال الصِّدِّيق: «**خالدٌ لها، واللَّه لأُنسينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**»[١].

❑ **دخول خالد «سوى»:**

أدرك خالد «**الري**» بعد خمسة أيام، فدخل خالد «**سوى**»[٢] قُبيل الصبح، فأغار على أهلها من «**بهراء**» فأذعنوا؛ إذ لم يكونوا يتوقعون ظهور جيش المسلمين من هذا الاتجاه في هذا الوقت.

وعند الطبري «٢/٦٠٤» وابن الأثير «٢/٦٥»: «أن خالدًا أتى النقيب والكواثل[٣]؛ فلقي جمعًا كثيرًا لم يَرَ مثله إلا في أهل اليمامة؛ فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى قتل خالد عدة بيده، وأغار على ما حولها من القرى؛ فأخذ أموالهم، وحاصرهم، فلما اشتد الحصار عليهم طلبوا الصلح على مثل ما صالح عليه أهل «**عانات**».

ثم مضى حتى أتى «**قرقيسياء**» - وهي بلدة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات

---

(١) الطبري (٢/٦٠٢).

(٢) سوى: ماء لبني بهراء.

(٣) النقيب: بين تبوك ومعان، على طريق الحاج. والكواثل: موضع في أطراف الشام.

ـ؛ فأغار على ما حولها؛ فأخذ الأموال، وسبى النساء... وحاصرهم أيامًا، ثم إنهم بعثوا يطلبون الصلح؛ فأجابهم إلى ذلك، وأعطاهم ما أعطى أهل «**عانات**»...»
انتهى باختصار، ولكنه رأى مرجوح.

❑ فتح تدْمُر:

مَرَّ خالد في طريقه بـ«**تدمر**»، فتحصَّنوا منه، فأحاط بهم من كل جانبٍ، وأخذهم بكل مأخذ، فلم يقدر عليهم، فقال لهم: «**والله، لو كنتم في السحاب، لاسْتَنْزَلْنَاكُم، ولَظَهَرْنَا عليكم، وما جئناكم إلَّا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا، وإن أنتم لم تُصالحوني هذه المرة، لأرجعنَّ إليكم لو قد انصرفتُ من وجهي هذا، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مُقاتلتكم وأسبي ذراريكم**»، ثم ارتحل عنهم فمضى، واجتمع عظماؤهم، فقال بعضهم لبعض: «**لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم، هم الذين كنَّا نتحدَّث أنهم يظهرون علينا، فافتحوا لهم وصالحوهم**»؛ فبعثوا في إثر خالد، فرجع إليهم، ففتحوا له مدينتهم وصالحوه.

❑ أيّ عزَ عزَّك يا خالد!!

ترحل ماضيًا عنهم؛ فيُرسلون إليك حتى ترجع ويُصالحوك؛ خوفًا منك ومن تهديدك.

❑ فتح القريتين وحوارين:

وأتى خالد «**القريتين**»؛ فقاتله أهلها؛ فظفر بهم، وغنم منهم.

ثم مَرَّ على «**حوارين**»؛ فخافه أهلها وهابوه، وتحرَّز أكثرهم منه وتحصَّنُوا؛ فأغار عليهم، واستاق مواشيهم، وقتل رجالهم، وأقام عليها أيامًا؛ فبعثوا إلى مَنْ حولهم فجاءهم مددان؛ **أحدهما**: من «**بَعْلَبَك**»، **والآخر**: من «**بُصرى**»، وكلٌّ منهما أكثر من ألفين، فلمَّا رآهم خالدٌ، صفَّ صفوفه، ثم خرج في مئتين من الفرسان، فحمل على مدد «**بعلبك**»؛ فقصف بعضهم على بعض، وأثخن فيهم قتلًا؛ فما صمدوا

ساعة حتى انهزموا، وحمل على أهل «**بُصرى**»؛ فما ثبتوا له إلا قليلًا حتى انهزموا إلى المدينة، وخرج أهل «**حوارين**»، فرموا المسلمين بالنُّشاب، فحمل عليهم خالد، وأعادهم إلى «**حوارين**» منهزمين، ورجع عنهم ذلك اليوم.

فلمَّا كان اليوم التالي، خرج أهل «**حوارين**»؛ ليقاتلوا المسلمين، فهاجمهم خالد؛ فهزمهم، فلمَّا رَأَوْا أنهم لا طاقة لهم به، صالحوه. قال علج من أهل حوارين ـ وكان من شجعانهم وأشدَّائهم ـ: «**والله، لخرجنا إلى خالد بعدما جاءنا مدد «بعلبك»** وأهل «**بُصرى**» بيوم، فخرجنا إليه، وإنَّا لأكثرُ من خالد وأصحابه بعشرة أضعفاهم، فما هو إلَّا أن دنونا منهم، فثاروا في وجوهنا بالسيوف؛ كأنهم الأُسْد؛ فهزمونا أقبح هزيمة، وقتلونا أشدَّ القتل؛ فما عُدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم، وقد رأيتُ منَّا رجلًا كُنَّا نعدُّه بألف رجل، وكان يقول: لئن رأيت أميرهم لأقتُلَنَّه. فلمَّا رأى خالدًا، قال له أصحابُهُ: هذا خالدٌ أمير القوم. فَحَملَ عليه العِلْجُ، وإنَّا لنرجو لبأسه وشدَّته أن يقتله، فما هو إلا أن دَنَا منه، فضرب خالدٌ فرسه، فقدمه عليه، وكان خالد إذا كان عند الحرب، فكأنه يربو ويعظُم ويَهُول مَنْ ينظر إليه، فاستقبل العلجَ، فاستعرض وجهه بالسيف فضربَهُ؛ فأطار نصفَ وجهه وقِحْفَ رأسِه؛ فقتله، وانهزمنا أقبح هزيمةٍ حتى دخلنا مدينتنا، فما كان لنا هَمٌّ إلَّا الصُّلح حتى صالحناهم».

❑ مَرْج راهط:

بلغت الأخبار خالدًا بأن أعراب غسَّان النصارى، قد اجتمعوا بـ«**مرج راهط**» وعليهم الحارث بن الأيهم ـ أخو جبلة بن الأيهم ـ؛ فَانْقَضَّ عليهم خالد؛ فانتسف عسكرهم وعيالاتهم، وسبى منهم يوم فحصتهم[1]، ونزل بالمرج أيامًا، ثم سار خالد حتى أتى أبا عبيدة بالجابية، فالتقيا ومضيا معًا بِجُنْدَيْهِمَا إلى «**بُصرى**».

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٤١٠)، وتاريخ ابن عساكر (١/٤٥٨)، وفتوح البلدان، للبلاذري (١٣٢).

❑ فتح بُصْرَى:

جِزْية بصرى أوَّلُ جزيةٍ بالشام في عهد الصِّدِّيق:

قال قيس بن أبي حازم يصف فتح خالد لـ«**بُصرى**[١]»: «**كنت مع خالد بن الوليد حين مَرَّ بالشام، فأقبل حتى نزل بـ«بُصرى»** من أرض «**حوران**» وهي مدينتها، فلمَّا اطمأننا خرج إلينا الدّرنجار في خمسة آلافٍ من الروم، فأقبل إلينا، وما يظنُّ هو وأصحابه إلَّا أنَّا في أكُفِّهم، فخرج خالد فصفَّنا، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو الطائي، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عبدالرحمن بن حنبل الجُمحي، وقسَّم خيله؛ فجعل على شطرها المسيِّب بن نجبة، وعلى الشطر الآخر رجلًا من بكر بن وائل، فظننتُ أنه مذعور العجلي، فأمرهما خالد حين قسَّم الخيل بينهما أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وعن شمال، ثم ينصَبَّا على القوم[٢]، فانطلقا ففعلا ذلك، ثم أمر خالد مَنْ معه أن يرجعوا إلى القلب، فرجعنا إليهم، واللَّه ما نحن إلَّا ثمان مئة رجل وخمسون رجلًا وأربع مئة رجل من مشجعة من قضاعة؛ فكُنَّا ألف رجلٍ ومئتي رجل ونَيِّفًا، وكنَّا نظنُّ أن الكثير من المشركين والقليل عند خالدٍ سواءٌ؛ لأنه لا يملأ صدرَهُ منهم شيءٌ، ولا يُبالي مَنْ لقي منهم؛ لجُرأته عليهم وشدَّته ونجدته، ثم دنونا منهم، فبدءونا بالحملة علينا، فشدُّوا علينا شَدَّتَيْنِ، فلم نبرح مواقفنا، ثم إن خالدًا نادى بصوت جَهْوَرِيٍّ شديدٍ عالٍ فقال: «**يا أهل الإسلام، الشدَّة الشدَّة، احْمِلُوا ـ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ـ عليهم؛ فإنكم إن قاتلتموهم محتسِبين تريدون بذلك وجه الله، فليس لهم أن يواقفوكم ساعةً**». ثم إن خالدًا شَدَّ عليهم وشددنا معه؛ فواللَّه الذي لا إله إلا هو، ما ثبتوا لنا فواقًا حتى انهزموا، فَقَتَلْنَا منهم في المعركة مقتلةً عظيمةً، ثم أَتْبَعْنَاهُمْ نَكْرُدُهم[٣]، ونقتلهم، ونُصيب الطرف

---

(١) وكان معه أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد.
(٢) مِثْل كَمِينَي الولجة.
(٣) أي: نطردهم.

منهم، ونقطعهم عن أصحابهم، ثم نقتلهم، فلم نَزَلْ كذلك حتى انتهينا إلى مدينة «**بُصرى**»؛ فأغلقوا أبوابها، وَتَحَصَّنُوا منا، ثم أخرجوا إلينا الأسواق، وصالحونا أهلُ بُصْرَى، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبُّون، وسألونا الصلح فصالحناهم».

وكانت جزية «**بُصرى**» أوَّلَ جزيةٍ بالشام في عهد أبي بكر.

وَلَمَّا جاءت الأنباءُ «**هرقل**»، قال لجلسائه: «ألم أقُل لكم: لا تُقاتلوهم؛ فإنه لا قَوَامَ لكم مع هؤلاء القوم؟! إن دينهم جديدٌ يُجَدِّدُ لهم ثِبَارَهُمْ[1]؛ فلا يقوم لهم أحد حتَّى يُبْلَى»؛ فقالوا: «**قاتل عن دينك، ولا تُجَبِّنِ الناسَ، واقضِ الذي عليك**»؛ قال: «**وأيُّ شيءٍ أطلب إلَّا توفير دينكم**».

❑ أجنادين... يَوْمٌ من أَيَّامِ خالد:

جاءت الأخبار خالدًا أن جيشًا كبيرًا للروم قد نزل بـ«**أجنادين**» من جنوب فلسطين، وأن نَصَارى العرب وأهل الشام قد سارعوا بالانضمام إليه، وقام خالد في جيشه خطيبًا، وقال لهم بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ «أما بعد، فإنه بلغني أن طائفةً من الروم نزلوا بأجنادين، وأنهم استعانوا بأناس - وَهُمْ قليلٌ - من أهل البلد، فسألوهم النصر علينا استقلالًا لمن معهم من الكثرة ذلًّا ولَوْمًا، واللهُ - إنْ شَاءَ اللَّهُ - جاعلُ الدَّبَرةِ عليهم وَقَاتِلُهُمْ كلَّ مقتلة، فاقصدوا بنا قصدهم؛ فإني كاتب إلى يزيد بن أبي سفيان، حتى يوافيني بِمَنْ معه مِنَ المسلمين من البلقاء، وإلى عمرو بن العاص حتى يوافيني هنالك مِن أرض فلسطين». وكتب إلى «**شرحبيل**» وسائر الأمراء: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنه نزل بأجنادين جموعٌ من جموع الروم غير ذي عددٍ ولا قوة، واللهُ قاصمهم، وقاطع دابرهم، وجاعل دائرة السَّوْءِ عليهم، وقد شخصتُ إليهم يوم سرَّحت رسولي إليكم، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوِّكم - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - في أحسن عُدَّتكم وأصحِّ نِيَّتكم،

---

(١) مواظبتهم عليه.

ضاعف اللَّه لكم أجوركم وحطَّ أوزاركم، والسلام عليكم ورحمة الله».

وصلت جيوش المسلمين، وَتَوَافَتْ جموعهم في أجنادين، وجاء «**وردان**» بمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين، وانضمَّت إليهم جموعٌ من أهل فلسطين ومن الأعراب المُوالين للروم؛ حتى صار جيش الروم يزيدُ عن مئة ألفٍ، وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا، هذه الجموع من المسلمين تجتمع لأول مرة في معركة كبرى، هي الأولى في حجمها في حرْب الشام؛ يقول ابن إسحاق: «**لَمَّا تدانى العسكرانِ، بعث** «**القُبُقْلار**» رجلًا عربيًّا من قضاعة، يقال له: «**ابن هزارف**»، فقال: ادخل في هؤلاء القوم، فَأَقَمْ فيهم يومًا وليلةً، ثم ائْتني بخبرهم. فدخل في الناس.. رجل عربي لا يُنْكَرُ، فأقام فيهم يومًا وليلةً ثم أتاه، فقال له: ما وراءَك؟ قال: بالليل رهبانٌ، وبالنهار فرسانٌ، ولو سَرَقَ ابن ملكِهم قطعوا يده، ولو زنى رُجِمَ؛ لإقامة الحقِّ فيهم». فقال له «**القبقلار**»: لئن كنتَ صدقتني لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من لقاءِ هؤلاء على ظهرها، ولَوَددتُ أنَّ حظي من اللهِ أن يُخلِّي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليَّ.

خرج خالد، فصفَّ قواته؛ فجعل أبا عبيدة على المشاة، وجعل معاذ بن جبل على الميمنة، وجعل سعيد بن عامر القرشي على الميسرة، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو على الخيل، وأقبل خالد يسير خلال صفوف المسلمين، لا يستقرُّ في مكانٍ واحدٍ، يُحرِّض جنده ويحمِّسهم، وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى الله، ويدعونه، ويستغثْنه، وكلما مَرَّ بهنَّ رجلٌ من المسلمين دفعن إليه أولادَهن، وقُلن له: قاتلوا دون أولادكم ونسائكم. كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْنَ - أي يُحَرِّمْن - على الرجال ما كان مباحًا لهم معهنَّ، وأقبل خالد يقف على كلِّ قبيلة وكل جماعة، ويقول: «اتقوا اللَّه عباد الله، قاتلوا في اللَّه مَنْ كفر بالله، ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدموا؛ كإقدام الأسد وأنتم أحرارٌ كرامٌ؛ فقد أَبَيْتُمُ الدنيا واستوجبتم على اللَّه ثواب الآخرة، ولا يَهُولنَّكم ما ترون مِن

كثرتهم؛ فإن اللَّه مُنزِلٌ عليهم رجزَهُ وعقابَهُ». ثم قال: «**أيها الناس، إذا أنا حملتُ فاحملوا**». وكان خالد أولَ مَن حملَ على صفوف الروم، وأقبل خالد إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «**احملوا ـ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ـ على اسم الله**». وحمل خالد على الروم، وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصَّفِّ؛ فقد سئموا الوقوف، وكانت معنوياتهم مرتفعةً، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مَرَّتَيْنِ... ثم صبروا لرشْق نبالهم، ثم صَدَرَ الأمرُ؛ فانطلق الجيش المتحمِّسُ المكبوت؛ فما صبر الروم له فُواقًا ـ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الرُّوَاةِ ـ، وانهزموا هزيمةً شديدةً، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وأصابوا معسكرهم وما حَوَى.

وعند ابن إسحاق: «**لما رأى القبقْلار ـ قائد الروم ـ ما رأى مِن قتال المسلمين، قال للروم: لفُّوا رأسي بثوبٍ. قالوا: لِمَ؟ قال: يومُ البئيسِ لا أحب أنْ أراه! ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ مِن هذا. فاحَتَزَّ المسلمون رأسَه، وإنه لَمُلَفَّفٌ**»، وانتهى خبر هذه الهزيمة إلى «**هِرقل**»؛ فَنُخِبَ قلبُهُ وأُسْقِطَ في يده، ومُلِئَ رُعْبًا.

وقد بلغ قتلى الروم في هذه المعركة ثلاثة آلاف، وفرَّتْ فلولهم المنهزمةُ متفرقةً نحو «**إيلياء**»، و«**قيسارية**»، و«**دمشق**»، و«**حِمْص**»، وتبعهم المسلمون يطاردونهم، فيقتلون منهم ويأسرون، وكتب خالد إلى أبي بكر ﷺ: «**لِعبد الله أبي بكر خليفة رسول اللَّه** ﷺ مِن خالد بن الوليد سيف اللَّه المصبوب على المشركين، أمَّا بعد، سلام عليك، فإني أَحمد إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإني أخبرك أيها الصديق أنَّا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعًا جمَّة كثيرةً بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا باللَّه لا يفرُّون حتى يَفنون أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين باللَّه متوكِّلين على الله، فَطَاعَنَّاهُمْ بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كلِّ فجٍّ وشِعْبٍ وغائطٍ، فأحمد اللَّه على إعزاز دينه، وإذلال عدوِّه، وحسْن الصنع لأوليائه. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته». فلما قرأ الرسالةَ، فَرِحَ بها وأعجبتْه، وقال: «**الحمد لله الذي نصر**

المسلمين، وأقرَّ عيني بذلك».

❑ وفي اليرموك خالد يشرب من دماء الروم ويسحقهم:

اجتمع المسلمون بـ «**اليرموك**» وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وعكرمة بن أبي جهل، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، فلما طلع عليهم خالد، فرح المسلمون[1] وارتفعت معنوياتهم.

أرسل هراكليوس «**هرقل**» إلى بيزنطة عاصمة دولته، وإلى من كان على دينه من جنوده ومن الأهالي في الجزيرة وفي أرمينية، وكتب إلى عماله أن يحشدوا إليه كل مَنْ أدرك الحُلُمَ من أهل إمبراطوريته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني في تجنيد إجباري، كذلك كتب إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية ـ وهي لم تكن تحت سلطانه ـ في أكبر محاولةٍ له، وهو يرمي بآخر سهم في جعبته؛ لدفْع خطر المسلمين الداهم.

يقول الرواة: فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض. وكان عدد الروم مئتي ألف «٢٠٠,٠٠٠» يقودهم أعظم قادة الروم؛ وهو «**باهان**»، وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا «٣٦,٠٠٠»، منهم ألف رجل من الصحابة، فيهم مئة بدري. وخطب هرقل في الجيش قبل أن يُوجِّهه إلى «**اليرموك**»؛ فقال: «يا معشر الروم، إن العرب قد ظهروا على سورية، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُرِّ والشعير والذهب والفضة، حتى يَسْبُوا الأخوات والأمَّهات والبنات والأزواج، ويتَّخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدًا، فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم»، ثم سيَّرهم إلى المسلمين.

وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بأن: «الروم قد توجهوا إلينا، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأُمَّةٍ قطُّ كانت قبلنا».

---

(١) الطبري (٢/٥٩١).

وقال ـ أَيْضًا ـ في كتاب آخر: «إن الروم نفرت إلى المسلمين برًّا وبحرًا، ولم يخلِّفوا وراءهم رجلًا يُطيق السلاح، إلَّا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة، وجاءونا وهم نحوٌ من أربع مئة ألف رجل، قد جاء المسلمين مَا لَا قِبَلَ لهم به، إلَّا أن يُمِدَّهم اللَّه بملائكته، أو يأتيهم بغياثٍ من قِبَلِه، والسلام عليك».

وأرسل عمر إليهم: «**يا أهل الإِسلام، اصدقُوا اللقاء، وشدُّوا عليهم شدَّ اللُّيُوث، واضربوا هامتهم بالسيوف، وليكونوا أهون عليكم من الذَّرِّ؛ فإنا قد كُنَّا علمْنا أنكم عليهم منصورون**».

❑ البطل يُؤمِّر نَفْسه:

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية، قال خالد: «**أرى واللَّه إن كُنَّا إنما نُقاتل بالكثرة والقوة، هم أكثر منا وأقوى، وما لنا بهم إِذَنْ طاقة، وإن كُنَّا نُقاتلهم باللَّه ولله، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا أنهم تُغني عنهم شيئًا**»، ثم غضب وقال لأبي عُبيدة: «**أتُطيعني أنت فيما آمرك به؟**» قال له أبو عبيدة: نعم. قال خالد: «فولِّني ما وراء بابك، وخَلِّني والقوم؛ فإني لأرجو أن ينصرني اللَّه عليهم». قال: قد فعلت. وهكذا تولَّى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين في يوم «**اليرموك**». وجمع «**باهان**» جنده، وقال لهم: «أنتم عدد الحصى والثَّرى والذَّرِّ، فلا يهولنَّكم أَمْرُ هَؤلاء القوم؛ فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس، وجلُّهم حاسِر جائع، وأنتم من الملوك، وأبناء الملوك، وأهل الحصون والقلاع والعدة والقوة والسلاح والكراع، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطْرِف حتى تُهلكوهم أو تهلكوا أنتم».

وعلى «**اليرموك**» اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان «**ماهان**»: «إنَّا قد علمْنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلُمُّوا إلى أن أُعطي كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا، وترجعون إلى بلادكم، فإذا

كان من العام المقبل بعثْنا لكم بمثلها». فقال خالد: «**إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنَّا قومٌ نشرب الدِّماء، وأنه بَلَغَنا أنه لا دم أطْيب من دم الروم؛ فجئنا لذلك**». فقال أصحاب ماهان: هذا واللَّه ما كُنَّا نتحدَّث به عن العرب[١].

اللَّه اللَّه يا خالد.. عِزُّ الإسلام يتكلَّم.. لله دَرُّكَ.. كم خلَّدت هذه الكلمة: «**أنَّا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم؛ فجئنا لذلك**».

وبعد سنوات سيقول رستم للمغيرة بن شعبة قبل معركة «**القادسية**»: «كنتم إذا قحطتْ أرضُكم وأصابتْكم السَّنَةُ، استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير، ثم نردُّكم، فأكلتم من طعامنا، وشربتم من شرابنا، واستظللتم بظلالنا، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم، وإنَّا ومثلكم مثلُ رجلٍ كان له حائط من عنب، فرأى فيه ثعلبًا واحدًا؛ فقال: ما ثعلب واحد. فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط، فلمَّا اجتمعن فيه، جاء الرجل فَسَدَّ الجحر الذي دخلن منه، ثم قتلهن جميعًا. وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلَّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فارجعوا عنَّا عامكم هذا؛ فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا، ونحن نوقر[٢] لكم ركائبكم قمحًا وتمرًا، فأنا آمُر لأميركم بكسوةٍ وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمرٍ وبثوبين، وتنصرفون عنَّا؛ فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم، فارجعوا عنَّا، عافاكم الله». فقال له المغيرة فيما قال: «فكان مما رزقنا اللَّه على يديه[٣] حبة تنبت في أرضكم هذه، فلمَّا أذقناها عيالنا، قالوا: لا صبر لنا عنها، فجئنا؛ لنُطعمهم أو نموت».

هكذا يُرَدُّ على الصَّلَف بعز الإسلام، لله دَرُّ المغيرة:

حيَّةٌ في الوِجَار أرْبَد لا يَنفعُ ... منه السَّليمَ نَفْثُ الرَّاقي

---

(١) البداية والنهاية (٩/٧، ١٠).

(٢) الوقر: الحمل الثقيل.

(٣) أي: رسول الله ﷺ.

وجاءت جموع الروم؛ كالسَّيْل والليل، وهم يجرُّون الشوك والشجر؛ ليصنعوا منها دفاعاتٍ، ومعهم صُلُبُهُمْ، والقسيسون، والرهبان، والأساقفة، والأباطرة، وعبَّأ خالد جيشه في تَعْبِيَةٍ لم تُعَبِّهَا العربُ من قبل؛ إذ نظم جيشه في ستة وثلاثين كردوسًا (١) إلى الأربعين، وقال: «**إن عدوَّكم قد كثُر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس**»، ثم جعل للقلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجراح، وكان على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة قبَّاث بن أَشْيَم، وعلى الرَّجَّالة هاشم بن عتبة، وكان خالد على الخيل.

وفي رواية: «جعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجرَّاح، وجعل الميمنة كراديس وجعل عليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس، وعليها يزيد بن أبي سفيان».

وقال معاذ بن جبل للناس مُثنيًا على خالد: «أَمَا واللَّه إن أطعتموه، لتطيعُنَّ مباركَ الأمرِ، ميمون النقيبة، عظيم الغناء، حَسَن الحِسبة والنِّيَّة» (٢). وقال معاذ عن خالد: «أَمَا إني لأرجو أن يكون اللَّه قد أعطاه بصيرةً على جهاد المشركين وشدَّته عليهم وجهاده إياهم، مع حُسن بصيرته، وحسن نِيَّتِهِ، وإعزاز دينه أحسن الثواب، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا». وكان القاضي أبا الدرداء في هذا اليوم، وَالْقَاصُّ الذي يتولَّى تخميس المسلمين أبا سفيان (٣)، وعلى الأقباض - وَهِيَ الْغَنَائِمُ -

(١) الكردوس. مفرد كراديس؛ وهو: كتلة من الجنود يتألَّف من ألف مقاتل، وينقسم الكردوس إلى أجزء عشرية؛ العريف يقود عشرة رجال، وآمِرُ الأعشار يقود مئة رجل، ولكل كردوس قائد له راية.

(٢) الطبري (٥٩٣/٢)، وابن الأثير (١٥٨/٢).

(٣) أبو سفيان بن حرب الأموي القرشي: ولد معاوية ويزيد وعتبة، ولد قبل عام الفيل بعشر سنين، وكان من أشراف قريش وعقلائها وقادتها، وإليه راية قريش، وكان من أفضلها رأيًا في الجاهلية، أسلم يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حينًا، وقد حَسُنَ إسلامه على أصح وأوثق الروايات وبشهادة سعيد بن المسيب العالم الزاهد؛ فقد قال عن أبي سفيان: «فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا رجلًا واحدًا، يقول: «يا نصر الله اقترب». والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر؛ فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد»، فُقِئَتْ عينه يوم الطائف، وَفُقِئَتْ عينه الأخرى يوم اليرموك، ومات في خلافة =

عبدالله بن مسعود، وكان القارئ المقداد[١]؛ قرأ على الناس الأنفال[٢].

وسار خالد في صفوف جنوده يقف على أصحاب كل راية، ويقول: «يا أهل الإسلام، إن الصبر عِزٌّ، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر تُنصرون؛ فإن الصابرين هم الأَعْلَوْنَ، وإنه إلى الفشل ما يحور المُبطل الضعيف، وإن المُحِقَّ لا يفشل، يعلم أن الله معه، وأنه عن حرم الله يَذُبُّ وعنه يقاتل، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه؛ إنه شاكر يحب الشاكرين». وجمع خالد فرسان المسلمين؛ فقسمها أربع فِرَقٍ، ودعا قيس بن هبيرة بن مشكوح المرادي ـ وكان يساعده، ويوافقه، ويشبهه في جلده وشدته وشجاعته وبأسه وإقدامه على الأعداء ـ، فقال له خالد: «أنت فارس العرب، وَقَلَّ مَنْ حضرها اليوم يعدلك عندي، فاخرج معي في هذا الخيل»، وبعث إلى ميسرة بن مسروق وعمرو بن الطفيل، وجعل كل رجل منهما على ربع، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين، وقال رجل لخالد قبيل معركة «**اليرموك**»: ما أكثر الروم وأقل المسلمين!! فقال خالد: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين!! إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر براء من تَوَجِّيهِ[٣]، وإنهم أضعفوا ضعفهم[٤]».

= عثمان سنة ثلاث وثلاثين ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل: ابن بضع وتسعين. وكان قصيرًا سمينًا ذا هامة عظيمة. **راجع**: الإصابة (٣/٢٣٧)، وأسد الغابة (٣/١٢)، والاستيعاب (٤/ ١٦٨٧).

(١) المقداد بن الأسود الكندي: هو المقداد بن عمرو، صحابي جليل، كان قديم الإسلام، من الفضلاء النجباء الكبار الأخيار من أصحاب النبي ﷺ، وكان موضع ثقة الرسول ﷺ وتقديره، وقد شهد فتح مصر، ومات وهو ابن سبعين، ودفن بالمدينة. **راجع**: طبقات ابن سعد (٣/١٦١)، والإصابة (٦/ ١٣٣)، وأسد الغابة (٤/٤٠٩)، والاستيعاب (٤/١٤٨٠).

(٢) الطبري (٢/٥٩٣ ـ ٥٠٤)، وابن الأثير (٢/١٥٨)، وفي الطبري: تفاصيل أسماء قادة الكراديس أيضًا.

(٣) الأشقر: اسم فرس خالد. الوجي: أن يشتكي الفرس من باطن حافره؛ يريد بذلك: أنهم لو زادوا إلى ضعفهم لما اكترثتُ بهم اكتراثي بشكوى الأشقر من حافره!!

(٤) الطبري (٢/٥٩٤)، وابن الأثير (٢/١٥٨).

وأمر خالد مجنبتي القلب ـ وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل المخزومي والقعقاع بن عمرو التميمي ـ أن ينشبا القتال.

وَجَنْدَلَ قيس بن هبيرة بن مشكوح بَطْرِيقًا من بطارقتهم؛ فصاح خالد: «مَا بَعْدَ ما ترون إلا الفتح، احمل عليهم يا قيس، احملوا عليهم؛ فواللَّه لا يفلحون وأوَّلُهم فارسٌ متعفِّرٌ في التراب»؛ فحمل المسلمون عليهم، وعلى خيولهم التي تقدَّمتْ أمام صفوفهم؛ كأنها أعراض الجبال، وانكشفتْ خيولُ الروم حتى لحقت بالصفوف، وعاد خالد وقد أدرك ما في نفوس الروم من خوفٍ، فقال للمسلمين: «قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدبرة، فاثبتوا لهم ساعةً، فإن أقدموا علينا قاتلناهم»، وبعث الروم رجلًا من خيارهم وعظمائهم اسمه «**جرجة**»، فواللَّه ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم، وكان له نجدة ونكاية في المشركين.

❑ **«يا خالد، هل أنزل اللَّه على نبيكم سيفًا فأعطاكه؟!»:**

كلمات عطرة تحفر من نور في التاريخ قالها «**جرجة**» عند إسلامه لخالد: «يا خالد، اصدُقني ولا تكذبني؛ فإن الحُرَّ لا يكذب، ولا تُخادعني؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله، هل أنزل اللَّه على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه، فلا تَسُلَّهُ على قومٍ إلَّا هزمتهم؟!». قال: «**لا**». قال: «**فَبِمَ سُمِّيتَ سيف اللَّه المسلول؟**»؛ فقال له خالد فيما قال: «**إن اللَّه** عَزَّ وَجَلَّ بعث فينا نبيه ﷺ؛ فدعانا فنفرنا عنه، ونأينا منه جميعًا، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذَّبه، فكنت فيمن كذَّبه وباعده وقاتله، ثم إن اللَّه أخذ بقلوبنا ونواصينا؛ فهدانا به؛ فتابعناه؛ فقال: «**أنت سيف من سيوف اللَّه سلَّه على المشركين**» ودعا لي بالنصر؛ فسُمِّيتُ سيف اللَّه بذلك، فأنا من أشدِّ المسلمين على المشركين». قال: «**صدقتني**»[1]. ثم أسلم «**جرجة**»، وخرج «**باهان**» في جيشه وعلى ميسرته «**الدرنجار**»، وزحف الروم إلى

---

(١) الطبري (٣/٣٩٨)، وتهذيب ابن عساكر (١/٥٤٧)، وابن الأثير (٢/١٥٨).

المسلمين مثل الليل والسيل يدفُّون دفيفًا، قد رفعوا الصُّلبان؛ فقال رجل: ما أكْثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين!![١]. فقال خالد: «ما أقلَّ الروم وأكثر المسلمين!! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلُّ بالخذلان لا بعدد الرجال. أَبِالرُّومِ تُخَوِّفُني!! واللَّه لوددتُ أن الأشقر براء من تَوَجِّيهِ[٢]، وأنهم - يَعْنِي الرُّومَ - أضعفوا في العدد».

وجاء خالد إلى أبي عبيدة فقال له: «إن هؤلاء قد أقبلوا بِعَدَدٍ وَجِدٍّ وَحَدٍّ وَزَجَلٍ، وإن لهم شدة لا يردُّها شيء، وليست خيلي بالكثيرة، ولا واللَّه لا قامت خيلي لشدَّة خيلهم ورجالهم أبدًا، قد رأيت أن أُفرِّق خيلي؛ فأكون في إحدى الخيلينْ وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة، فإذا حملوا على الناس؛ فإن ثبت المسلمون، فاللَّه ثَبَّتَهُمْ وَثَبَّتَ أقدامهم، وإن كانت الأخرى، حَمَلْنَا عليهم بخيولنا وهي جَامَّةٌ على ميمنتهم وميسرتهم، وقد انتهت شدَّة خيلهم وقوتها، وتفرَّقتْ جماعتُهم، ونقضوا صفوفهم، وصاروا نشرًا، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال، فأرجو عندها أن يُظفرنا اللَّه بهم، ويجعل دائرة السوء عليهم، وقد رأيتُ لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا، وتقف أنت من ورائه بحذائه في جماعة حسنة، في مئتين أو ثلاث مئة، فتكونوا رِدْءًا للمسلمين»، وَقَبِلَ منه أبو عبيدة، وقال له: «**افعل ما أراك الله، وأنا فاعلٌ ما أردتَ**».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ خالدٍ، في معاركه الحاسمة دائمًا ينتظر لحظة حدوث الخَلَلِ في صفوف عدوه؛ فيهجم.

عندما اشتد هجوم الروم، نادى خالد: «يا أهل الإسلام، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَدِ والقتال والقوة إلَّا ما قد رأيتم، فالشدَّة الشدَّة، فوالذي نفسي بيده ليعطينكم اللَّه الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو أن يمنحكم اللَّه أكتافهم».

كان خالد في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن، في حين كان

(١) الطبري (٣/٣٩٧)، وابن عساكر (١/٥٥٠).
(٢) الأشقر: هو فرس خالد. والتَوَجِّي: أن يشتكي الفرس بطن حافره.

قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر، وفي اللحظة الحاسمة التي تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم زحف خالد في فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مئة ألف، فحمل عليهم، وما هو إلا في نحو ألف فارسٍ، فما بلغتهم الحملة حتى فَضَّ اللَّه جمعهم ذلك؛ قال عبدالأعلى بن سراقة: «**وشددْنا على من يلينا من رجَالتهم فانكشفوا، وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا، ما يمتنعون من قِبَلَ ميمنتنا بميسرتهم**».

ذُهِلَ درنجار وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره، واكتسحت فرسانُ خالدٍ مشاةَ الروم، وقتلتْ منهم ستة آلاف «٦,٠٠٠» في رواية، أو عشرة آلاف «١٠,٠٠٠» في رواية أُخرى، وارتدَّ من استطاع منهم في حالةٍ من الذعر والفوضى، ما يمتنعون من القتل.

وقال الدرنجار لأصحابه: «**لفُّوني بالثياب، فليت أني لم أُقاتل هؤلاء القوم اليوم**»؛ فلفُّوه في الثياب وهو يقول: «**لوددتُ أن اللّه عافاني من حرب هؤلاء، ولم أرهم ولم يروني، ولم أُنْصَرْ عليهم ولم يُنصروا عليَّ، وهذا يوم سوء**». وبقي ملفوفًا في ثيابه حتى قُتِلَ، وزحف المسلمون إلى الروم رويدًا رويدًا، حتى إذا دنوا منهم إذا هم ينتفضون من الرعب، وكان صوت أبي سفيان يكاد يَمْلأُ المعسكر: «يا نصر اللَّه اقترب، الثبات يا معشر المسلمين»، وتراجع الروم، ودفعهم خالد إلى «**الواقوصة**»[1]، والواقوصة أحد حدوده لِهْبٌ[2] لَاجٍ في الأرض، حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل وغيرهم؛ **فتهافت في** «**الواقوصة**» مئة وعشرون ألفًا «١٢٠,٠٠٠» منهم ثمانون ألفًا «٨٠,٠٠٠» مقترنون بالسلاسل، وأربعون ألفًا «٤٠,٠٠٠» مطلقون، سوى من قُتِلَ بالمعركة من الخيل والرجال، وسُمِّيتْ تلك الأهوية التي سقطوا فيها في اليوم الضباب «**الواقوصة**»؛ لأنهم وُقِصُوا فيها، وأصبح

---

(١) نهر الرقاد جهة التقائه باليرموك.

(٢) أي: هامة.

خالد من تلك الليلة وهو في رواق قائد الروم، وَقُتِلَ صناديد الروم ورؤساؤهم، وقُتل أَخٌ لهرقل اسمه «**تيودورس**»، فلما أصبح خالد، خرج في الخيل يتعقَّب الفلول الهاربة، ويقتلهم في كل وادٍ، وفي كل شِعْبٍ، وفي كل جبلٍ، وفي كل ناحية، في مطاردة عميقةٍ حتى انتهى إلى دمشق، ثم انطلق في آثار الروم، ومضى يتعقب أكثرهم حتى أدركهم بثنيَّة العقاب، وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحو الشرق، وأشاعوا النِّكاية في الروم الفارِّين في سائر البلاد، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشعاب والسهول، وفي كل وجهٍ حتى انتهى إلى حمص.

وانتهت قصة الروم في أرض الشام؛ أَتَوْا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد، وقاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا، ما قُوتِلَ المسلمون مثله في موطنٍ قطُّ، ورزق اللَّه المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر؛ فقتلهم اللَّه في كل قريةٍ وشِعْبٍ ووادٍ وجبلٍ وسهلٍ.

❑ عزل خالد:

ذهب اللواء محمود شيت خطاب إلى أنه بعد التحام الطرفين في القتال قَدِمَ صاحبُ البريد من المدينة والْتَحَمَ الطرفان، وإنهم على ذلك، إذ قَدِمَ صاحبُ البريد من المدينة؛ فأخذته الخيول وسألوه الخبر، فلم يخبرهم عن شيء ذي بال، وأخبرهم عن قرب وصول الإمدادات إليهم، وكان قد جاء بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتأمير أبي عبيدة، وعزل خالد[1]، فَأَبْلَغُوهُ خالدًا، فأخبره خبر أبي بكر وَأَسَرَّهُ إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند، فقال له: «**أحسنت!!**»، وأخذ كتاب عزله وتأمير أبي عبيدة وجعله في كنانته؛ إذ خاف إن هو أظهره[2] أن يُؤَثِّرَ إظهاره في معنويات

---

(١) عزلُ خالدٍ وتأميرُ أبي عبيدة مكانه دليلٌ قاطعٌ على أن خالدًا كان قائدًا عامًّا، وإلا فلا معنى لعزله وتأمير أبي عبيدة الذي كان قائدًا بالفعل على قسم من جيش المسلمين لا قائدًا عامًّا. راجع: الطبري (٥٩٥/٢).

(٢) الطبري (٥٩٥/٢)، وابن الأثير (٨٥/٢).

الجند تأثيرًا سيئًا وهم في أحرج مواقف القتال.

رهبان الليل وفرسان النهار

هزم اللّه الروم مع الليل [١]؛ فأصبح خالد من تلك الليلة وهو في رواق «**تذراق**» قائد الروم [٢]؛

انتهت معركة «**اليرموك**» الحاسمة التي فتحت أبواب أرض الشام للمسلمين بانتصار المسلمين «**رهبان الليل فرسان النهار**» على الروم، وطاردوهم حتى أبواب دمشق.

نعم.. انتصار المسلمين رهبان الليل وفرسان النهار.

فعند الطبري (٢/٦١٠): أن قائد الروم بعث رجلًا من قضاعة فقال: «ادخل في هؤلاء؛ فأقم فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم»، فدخل في الناس، ثم أتاه، فقال له: «**ما وراءك؟**» فقال: «بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سَرَقَ ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم؛ لإقامة الحد فيهم!!» فقال القائد الرومي: «لَئِنْ كنت صدقتني، لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها».

❑ فتح دمشق: خالد لا ينام ولا يُنِيمُ:

كان خالد على المقدمة حين حاصر أبو عبيدة بن الجراح بجيشه دمشق من جميع جهاتها أربعة أشهر، واستولى المسلمون على غوطة دمشق وما حَوَتْ عنْوَةً.

نزل أبو عبيدة على باب «**الجابية**» غربي المدينة، ونزل يزيد على الباب الصغير إلى باب «**كيسان**»، أمَّا شمالي السور فقد نزل عمرو بن العاص على باب «**توما**»، ونزل شرحبيل على باب «**الفراديس**»، ونزل خالد على الباب الشرقي، وكان الباب الشرقي وباب الجابية هما أكبرُ وأهمُّ هذه الأبواب جميعًا، وَطَالَ الحصارُ على أهل

(١) الطبري (٢/٥٩٥).
(٢) الطبري (٢/٥٩٧).

دمشق، وازداد التوتر بينهم؛ فبعث بطريق الروم رَجُلَيْنِ يندسَّان بين المسلمين؛ ليتجسسا على جنودهم وأمرائهم، ويريا أحوالهم، وكان رجلان من غسَّان دَخَلَا دمشق يتسوَّقان منها قبل حصارها، فبعث إليهما البطريق، فأمر أحدهما بالذهاب إلى معسكر المسلمين؛ ليأتيه بخبرهم ثم رجع، وقيل: كانوا عيونًا فسألهم عمَّا رَأَوْا؛ فقالوا: أمَّا الليل فطولُ قيامٍ، وأمَّا النهار فالخير الظَّاهِر والحرص على الجهاد، وإن وَجَدَ أحدهم نعلًا أو كبَّةً شعرٍ أو غزلًا، دَفَعَهَا إلى صاحب المقسم، فإذا قال صاحب المقسم: ما هذا؟ قالوا: لا نستحلُّه إلَّا بحِلِّه. فلمَّا سمع بطريق الروم ذلك، قال: ما لنا بهؤلاء طاقةٌ، ولا لنا في قتالهم خيرٌ.

كان أبو عبيدة أحَبَّ إلى الروم من خالد، وكان خالدٌ أَفَظَّهُمَا وأَغْلَظَهُمَا عليهم، وكان أبو عبيدة أَلْيَنَهُمَا وأَقْرَبَهُمَا استماعًا إليهم؛ فكان أحبَّ إليهم أن يكون كتاب صُلحهم مع أبي عبيدة.

حَصَرَ المسلمون دمشق أربعة أشهر حصارًا شديدًا، وأهلها معتصمون بأسوارها، يرجون الغياث، وهرقل بحمص، وَوُلِدَ لبطريق الروم «**نسطاس بن نسطورس**» مولودٌ؛ فاحتفل بذلك، وأَوْلَمَ وليمةً لحامية المدينة، فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم من الحراسة والدفاع، ولا يشعر بذلك أحدٌ من المسلمين، إلَّا ما كان من خالد؛ فإنه كان لا يغمض له جفن، «ولا ينام ولا يُنيم، ولا يبيت إلَّا على تَعْبِيَةٍ، ولا يخفى عليه من أمر عدوِّه شيءٌ، عيونه ذكيَّة، وهو مَعْنِيٌّ بمن يليهم»(١)، وعيونه تأتيه بما وراء الأسوار، والأبوابُ مغلقةٌ.

وكان خالد قد أعدَّ سلالم من الحبال تنتهي بأوهاق - وهي الحبال في أطرافها أنشوطة(٢) - فلمَّا أمسى من ذلك اليوم (الأحد، الخامس عشر من شهر رجب ١٤هـ)، وكان يومًا مناسبًا لذلك الاحتفال، أعلن خالد الاستعداد في جيشه الذي

(١) تاريخ الطبري (٢/٦٢٦).
(٢) حلقة.

جاء به من العراق، واقترب بهم من السور، ثم تقدم هو، والقعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي العجلي، وأمثالهم من أبطاله الأشدَّاء، وكانت تعليماته لسائر قوَّاته: «إذا سمعتم تكبيرنا فَارْقَوْا [1] إلينا، وانهدوا للباب». وكان خالد قد أعدَّ أيضًا القِرَبَ المنفوخة بالهواء، حملوها على ظهورهم، وعبروا بها خندقهم سباحةً، وقذفوا بأوهاق الحبال، حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه، فتسلَّق عليهما القعقاع ومذعور، ومعهما باقي السلالم الحبال، فأثبتاها جميعًا بأعلى السور، كان هذا المكان الذي اقتحموا منه أحْصَنَ موقعٍ بدمشق كلها؛ أكثره ماءً، وأعْرَضه خندقًا، وأشده مدخلًا، فلم يبق من قوَّته كلها أحد إلا تسلَّق السلالم أو اقترب من الباب، حتى إذا استقرُّوا بأعلى السور، حَدَرَ أكثرهم داخله، وانحدر معهم خالد، وترك من جنده من يحمي ذلك المعبر، هذا وحامية دمشق في سُكْرِهَا، مشغولة بالطعامِ والشراب والاحتفال بالمولود، لا يشعرون بشيءٍ، وأمر خالد مَنْ على السور بالتكبير فكبَّرُوا، وانقضَّ مَنْ كان ما زال خارجًا على الباب، وتكاثر المسلمون على سلالم الحبال، يتسلقونها من الخارج، ويهبطون إلى الداخل، وهاجم خالد بسرعة أوَّلَ قوة وجدها ففرغ منها، وانصبَّ إلى الباب فقتل حُرَّاسه - وكانوا رجلًا أو رجليْن - وثار أهل المدينة، وفزع الناس، وتسارع كلٌّ منهم إلى مواقفه، ولا يدرون ما الشأن؟! وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، واستغلَّ خالدٌ أثر المفاجأة، فقطعَ ومَنْ معه أغلاقَ الباب الشرقي بالسيوف وفتحوه، فتدفَّقتْ قوَّاته من خلاله، ودارت معركة دمشق داخل دمشق تجاه ذلك الباب، وكان القتال شديدًا مستميتًا يدور في الشوارع، ومع ذلك لم تبقَ من الروم قوَّة في ذلك القطاع، إلَّا فرغ منها خالد، وذلك مع طلوع الشمس، وبلغ خبر اقتحام خالد الباب الشرقي إلى حاميات سائر الأبواب، واتَّخذ الروم قرارهم فورًا بالصُّلح مع قُوَّاد المسلمين، وفوجئ هؤلاء القُوَّاد بحامية دمشق تفتح أبوابها ويقبلون شروطهم،

---

(١) أي: اصعدوا.

في حين كان خالد يدخل غازيًا، يُعْمِلُ السيف في جنود الروم، وهم يُدافعون ما أمكنهم حتى يدخل الآخرون صلحًا، فينقذ الصلح الموقف، ويحفظ عليهم حياتهم وحريتهم. وصارت دمشق صلحًا كلها، وفُتحت أبواب المدينة، والتقى خالد بأبي عبيدة عند سوق الزيت بعد أن اقتحم المدينة عنْوَة، واستولى على ألف متر طُولًا منها بالقتال، في حين دخلها أبو عبيدة من غربيِّها، وتقدَّمتْ جنوده صُلحًا مسافة (٥٠٠ ـ ٥٦٠) مترًا، بالإضافة إلى المسافة بين معسكرهم وباب الجابية.

فللَّه دَرُّ خالدٍ من بطل.. لا ينام ولا يُنيم.. ولله دَرُّه من فارسٍ يُسابق جنده في تسلُّق الأسوار.. ولله دَرُّه ودرُّ تكبيره الذي يُزلزل الروم ويُرعبهم.

❑ مرج الصفر:

أرسل هرقل خمسة آلاف يقودهم درنجار[1]، كانوا من أهل القوَّة والشدَّة؛ ليُغيث حامية دمشق، وانضمَّ إليهم عدد كبير من حامية حمص؛ فهم جميعًا أكثر من عشرة آلاف اجتمعوا في «**مرج الصفر**» جنوب دمشق، وصفَّ خالدٌ جيشه؛ فجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة، وعلى الفرسان سعيد بن زيد، وعلى المشاة أبا عبيدة، ثم سار خالد فوقف في أوَّل الصف، يريد أن يُحرِّض المسلمين ويُحمِّسهم، ونظر إلى الصَّفِّ من أوَّله إلى آخره، فبادره الروم بالهجوم، وكان سعيد بن زيد واقفًا في جماعةٍ من فرسانه في الميمنة يَدعُون الله، وهو يخطب فيهم ويقُصُّ عليهم، فَحَمَلَتِ الروم تجاهه بثقلهم، فصمد لهم سعيدٌ، ونازلهم في فرسانه، وتحرَّكتْ صفوف المسلمين، فاقتتلوا قتالًا شديدًا على شاطئ نهرٍ عليه طاحونة، حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت بها الطاحونة.

وانهزم الروم وأصاب المسلمون عسكرهم، وقتلوا منهم كثيرًا، وتبددت فلولهم

---

(١) رتبة لقائد، وليست اسم شخص.

شراذم؛ فمنهم من دخل دمشق مع أهلها، ومنهم من رجع إلى حمص، ومنهم من لحق بهرقل، ومنهم من فَرَّ إلى بيت القدس، وقُتِلَ من الروم خمس مئة في المعركة، ووقع في أسر المسلمين نحو من خمس مئة آخرين.

❑ خالد في معركة فِحْل[1] بيسان[2] حديثٌ ومَثَلٌ لِمَنْ حضره:

سار أبو عبيدة إلى «**فِحْل**» وعلى مقدمته خالد، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، وكان أهل «**فِحْل**» قد قصدوا «**بيسان**»، وفجَّروا مياه المنطقة؛ فأصبحت مغمورة بالمياه موحلة، وبعد حصار دام طويلًا هجموا على المسلمين، كانت هذه المعركة من المعارك المهمَّة ضِمْن فتح الشام، وكانت قوات الروم ثمانين ألفًا، هم جُنَّة الروم وجيش الدفاع، وإليهم ينظرون، والشام بعدهم سلم، وكان القائد «سَقِلَّار بن مخراق» أو «سكلاريوس»، وكانت القيادة العامَّة لأبي عبيدة؛ فجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة، وعلى المُشاة سعيد بن زيد بن عمرو، وعلى الخيل القائِدَ المبارك خالد بن الوليد، تقدَّم خالد بالخيل؛ فأخرج إليه الروم فرسانًا كثيرة، وكان قيس بن هبيرة من أشدِّ الناس نكايةً وَبَأْسًا في العدو ومباشرة لهم، فقال له خالد أن يخرج إليهم، فحمل عليهم مرارًا وحملوا عليه؛ فقاتلهم قتالًا شديدًا، ثم خرجت خيل أُخرى عظيمة للروم، فقال خالد: اخرج إليهم يا ميسرة بن مسروق. فخرج ميسرة فقاتلهم قتالًا شديدًا، وحمل عليهم وحملوا عليه، ثم خرجتْ إليهم جموعٌ أخرى من فرسان الروم أعظم من الجمعين السابقين، يقودهم بطْرِيقٌ عظيم من عظماء بطارقتهم؛ فقسَّم فرسانه قسمين، وأمر أحد القسمين فحملوا على خالدٍ وأصحابه، فصمد لهم خالد ولم يتزحزح، ثم أمر البطريقُ الثاني، فحملوا أيضًا على خالدٍ، فصمد لهم، فلمَّا رأى الروم أن هجومهم لم يُثمر شيئًا، تراجعوا وانصرفوا، فقال خالد لفرسانه: «إنه لم يبق من جدِّ القوم ولا

---

(١) فحل: اسم موضع بالشام من ناحية الأردن.

(٢) بيسان: مدينة في غرب الأردن.

حدِّهم ولا قوتهم إلَّا ما قد رأيتم، فاحملوا معي بأهل الإسلام حملةً واحدةً واتَّبعوهم ولا تغفلوا عنهم، رحمكم الله»[١]. وحمل خالد بمن معه؛ فاكتسح مَنْ أمامه منهم، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم؛ فكشفهم، وحمل مسروق على الذين أمامه من فرسانهم؛ فهزمهم، واتَّبعهم المسلمون يقتلون منهم، ويقصفون بعضهم على بعض، وقد اختلَّ نظامهم حتى اضطرُّوهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم وجماعتهم، وعادت فرسان المسلمين يومئذٍ ولها الظفر.

وفي اليوم التالي قاتل خالد يومئذٍ قتالًا شديدًا ما قاتل مثله أحدٌ من المسلمين؛ فكان حديثًا ومثلًا لمن حضره، كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم، فيحمل عليهم حتى يُخالطهم، ثم يُجالدهم حتى يُفرِّقهم، ويهزمهم، ويُكثر القتل فيهم؛ قَتَلَ في ذلك اليوم أحد عشر رجلًا من بطارقة الروم، وأشدَّائهم، وأهل الشجاعة منهم، وكان يقول:

أَضْرِبُهُمْ بِصارِمٍ مُهَنَّدِ ضَرْبَ صَلِيبِ الدِّينِ هادٍ مُهْتَدِ
لا وَاهِنِ القَوْلِ ولا مُفَنَّدِ

وكان القتال في تلك المعركة أشدَّ قتالٍ اقتتلوه قطُّ، وقد طوى المسلمون جناحَيْ جيش الروم، ثم انفردوا بعدهما بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل، وانهزم الروم وهم حيارى، وقد قُتِلَ في هذه المعركة قائدهم «**سقلار**» والذي يليه «**نسطورس**»، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهْنَأَهُ، وذهب البلاذري إلى أن قتلى الروم كانوا زُهَاءَ عشرة آلاف.

❑ قَتْلُ خالدٍ لِلْبِطْرِيقِ الرُّومي توذرا:

بعث هرقل بطريقًا يُدعى «**توذرا**» حتى نزل بمرج دمشق وغربها، وكان خالد تجاهه، وباتوا ليلتهم، فلمَّا أصبحوا وجدوا الأرض بلاقع[٢] من «**توذرا**»، وعلم

---

(١) تاريخ فتوح الشام، لمحمد بن عبدالله الأزدي ص (٩٦).
(٢) بلاقع: خاوية.

خالد أنه قد رحل نحو دمشق، فتبعه خالد من ليلته في قوةٍ سريعة من الفرسان. وكان يزيد بن أبي سفيان مرابطًا حول دمشق، فبلغه مسير «**توذرا**» إليه، فاستقبله؛ فاقتتلوا، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون، فأخذهم مِن خلفهم؛ بين قوَّاته وقوات يزيد، وقُتِلَ الروم من بين أيديهم ومن خلفهم، وقتل خالدٌ «**توذرا**»، فلم يُفلت منهم إلا الشريد، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل[1]، واستولى المسلمون على دوابِّهم وركائبهم وأدواتهم وثيابهم، وعاد خالد إلى أبي عبيدة وهو يقول:

نحنُ قتلْنا تَوْذَرَا وشَوْذَرا ... وقَبْلهما قد قتلْنا حَيْدَرَا

نحن أزرْنا الغيضةَ الأُكيدرَا

❏ في حمص[2] والبقاع[3]:

قصد أبو عبيدة «**حمص**»، وأرسل خالدًا إلى «**البقاع**»، فسار إليها خالد وافتتحها، وسار أبو عبيدة حتى نزل «**حمص**»، وجاء بعده خالد فنزل عليها، وحاصرها المسلمون، وشددوا عليها الحصار، فلما ذهب الشتاء، طلب أهل «**حمص**» الصلح؛ فصالحهم المسلمون[4].

❏ في قنسرين[5]

قِنَّسْرِين وكلمات خالدٍ الخالدة: «**لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا اللَّه إليكم أو**

---

(١) الطبري (٣/٩٦)، وابن الأثير (٢/١٨٩، ١٩٠).

(٢) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسور، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٣٣٩). وهي مدينة في مُشتَوٍ، خصبة جدًّا، من أصح بلدان الشام تربة، في أهلها حمال مفرط.
راجع المسالك والممالك، للأصطخري ص (٤٦).

(٣) البقاع: جمع بقعة؛ موضع يقال له: بقاع حلب. قريب من دمشق، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة.

(٤) الطبري (٣/٩٦ - ٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩٠، ١٩١)، والبلاذري ص (١٣٦).

(٥) قنسرين: بلد في أرض الشام، جنوب حلب.

أنزلكم إلينا»:

بعث أبو عبيدة رضي الله عنه خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرِين - وكانت على الطريق بين حلب وأنطاكية -، فلمَّا نزل خالد بالحاضر[١] قاتلوه، وزحف إليه الروم بقيادة «**ميناس**» وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل؛ فَقُتِلَ ميناس، ومات الروم على دمه حتى أُبيدوا جميعًا، لم يبق منهم أحد، أما أهل «**الحاضر**» فأرسلوا إلى خالد: إنهم عرب، وإنهم حُشروا كرهًا، ولم يكن من رأيهم حربه. فقبل منهم وتركهم.

ولجأ العرب من تنوخ إلى حصنهم، فتحصَّنوا منه، فقال لهم خالد: «**لو كنتم في السحاب، لَحَمَلَنَا اللهُ إليكم، أو لأَنْزَلَكُم إلينا**»؛ فنظروا في أمرهم، وذكروا ما لقي أهل حمص، فطلبوا صُلْحًا؛ مثل صلح حمص.

يقول البلاذري: إن أبا عبيدة صالحهم على مثل صلح حمص.

وتقول رواية سيف: إن خالد بن الوليد أبى إلَّا أن يُخَرِّب المدينة، فأَخْرَبَهَا[٢].

وبلغ عمر ما فعل خالد بِقنَّسْرِين فقال قولته العظيمة: «**أمَّر خالدٌ نَفْسَهُ، يرحم اللَّه أبا بكرٍ، هو كان أعلم بالرجال مني، إني لم أعزله عن ريبة، ولكنَّ الناس عظَّموه، فخشيتُ أن يوكَّلوا إليه**»[٣].

وكان «**هرقل**» قد غادر «**حمص**» إلى «**الرهاء**»[٤]، فلما أباد خالد الروم بـ«**الحاضر**» وأخرب «**قنسرين**»، يئس هرقل من بقاء الشام تحت حكمه، فودَّع سورية بقوله: «**عليك السلام يا سورية سلامًا لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي إلا خائفًا**»[٥].

---

(١) الحاضر: خلاف البادي، وهو قرب حلب.
(٢) الطبري (٣/٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩١).
(٣) الطبري (٣/٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩١).
(٤) الرهاء: مدينة بالجزيرة بين المحصل والشام.
(٥) ابن الأثير (٢/١٩١).

❑ في مرعش[١]

بعد فتح «**قنسرين**» وجه أبو عبيدة وهو بـ «**منبج**»[٢] خالدًا إلى «**مرعش**»؛ ففتحها، وأجلى أهلها، وأخربها؛ مما يدل على أن أهلها قاوموه فقهرهم بالقتال كما أنه فتح حصن «**الحدَث**»[٣].

❑ **خالد المطيع لقائده:**

كان خالد مضيافًا كريمًا، قصده الأشعث بن قيس؛ فأجازه بعشرة آلاف، فسمع بذلك عمر؛ فكتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد، فجمع أبو عبيدة الناس، وجلس لهم على المنبر، فقام صاحب البريد، فسأل خالدًا: من أين أجاز الأشعث. فلم يُجبه وأبو عبيدة ساكتٌ لا يقول شيئًا؛ فقام بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ فقال: «**إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا**»، ونزع عمامته، فلم يمنعه خالد سمعًا وطاعةً، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فَعَقَلَهُ بعمامته، وقال: «**من أين أجزتَ الأشعث؟ من مالك أجزتَ أم من إصابةٍ أصبتَهَا؟**» فقال: «**بل من مالي**»؛ فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثم عمَّمَهُ بيده، وقال: «**نسمع ونُطيع لولاتنا، ونُفخِّم ونخدم موالينا**[٤]»، ولمَّا قاسمه أبو عبيدة بأمر عمر بن الخطاب أمواله، قال خالد: «**ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين**»[٥].

ولله دَرُّه حين عُزِلَ وهو في المعركة، وفي أوج انتصاره فما ترك العزلُ في نَفْسِهِ أثرًا، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائدًا عامًّا، أو قائدًا مرءوسًا، أو رجلًا من المسلمين،

---

(١) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، لها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور.

(٢) منبج: بلد قديم، كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة، في فضاء من الأرض، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ.

(٣) الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش، من الثغور يقال لها: الحمراء. وقلعتها على جبل يقال له: الأحيدب. **انظر** ـ عن فتح مرعش وحصن الحدث ـ: تاريخ أبي الفدا (١/١٦٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٦/٢٢)، والإصابة (١/٥٠)، وأسد الغابة (١/٩٧).

(٥) الطبري (٢/٦٢٥).

هذه واللَّه العظمة الإِنسانية في أبهى مشاهدها، خالد يستلَّ النصر من بين أنياب الروم، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغي عند الروم، وسيف اللَّه المسلول على قوى التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة!! لقد كان مسلكًا بالغ الرَّوعة والعظمة والجلال.

يقول الأستاذ خالد محمد خالد في «رجال حول الرسول» «٣٢٥»: «ولا أعرف في حياة خالدٍ كلها موقفًا يُنبئ بإخلاصه العميق وصدِقه الوثيق مثل هذا الموقف».

❑ خالد القائد:

لقد رفع خالد معنويّات المسلمين، وسَحَقَ معنويات الروم وقَبْلَهم الفرس، لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذروة؛ فكان خالد قائد القادة، ومطمح الأنظار، ومعقد الآمال، سواء كان قائدًا عامًّا أو جنديًّا بسيطًا.

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدِّه وجهاده.. المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرُّتَب وفوق الأهواء والنَّزعات.. لقد أصبح أُمَّةً في رجلٍ؛ لأنه أصبح يحمل مجد أُمة وبطولة جيلٍ.. لقد أصبح لا يمثل نَفْسَهُ فحسْب، بل يمثل مجدًا وفكرة، مجد عبقرية العرب في القيادة، وفكرة الفتح الإسلامي، وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ.

❑ وقفات مع الفارس المبارك خالد بن الوليد رضي الله عنه:

عن عبدالحميد بن جعفر، عن أبيه: أن خالد بن الوليد فَقَدَ قَلَنْسُوَةً له يوم «**اليرموك**»؛ فقال: اطلبوها. فلم يجدوها، ثم وُجِدَتْ، فإذا هي قلنسوة خَلقَة، فقال خالد: اعتمر رسول اللَّه ﷺ، فحلق رأسه، فَابْتَدَرَ الناسُ شعرَهُ، فَسَبَقْتُهُمْ إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلَّا رُزِقْتُ النصرَ[١].

---

(١) أخرجه الحاكم، والطبراني، وأبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، وقال البوصيري: رواه أبو يعلى بسند صحيح.

وعن مولًى لآل خالد بن الوليد: أن خالدًا قال: ما من ليلةٍ يُهدى إليَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ أحبَّ إليَّ من ليلةٍ شديدة البرد، كثيرة الجليد، في سريةٍ أُصَبِّحُ فيها العدوَّ[١].

وفي رواية: ما من ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها مُحِبٌّ، أو أُبَشَّرُ فيها بغلامٍ أحبَّ إليَّ من ليلةٍ شديدة الجليد، في سريةٍ من المهاجرين، أُصَبِّحُ بهم العدوَّ، فعليكم بالجهاد.

وقال رضي الله عنه: ما أدري من أي يوميَّ أفِرُّ: يوم أراد اللَّه أن يهدي لي فيه شهادة، أو يوم أراد اللَّه أن يُهدي لي فيه كرامة.

وقال قيس بن أبي حازم: سمعت خالدًا يقول: منعني الجهاد كثيرًا من القراءة، ورأيتُه أُتيَ بِسُمٍّ، فقال: ما هذا؟ قالوا: سم. قال: باسم الله. وشربه.

قال الحافظ الذهبي: هذه واللَّه الكرامة، وهذه الشجاعة[٢].

أنت خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القوْ م إذا ما كُبَّتْ وجوهُ الرِّجالِ

لما حضرتْ خالدًا الوفاةُ، قال: لقد طلبتُ القتل مظانَّه، فلم يُقَدَّرِ لي إلَّا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرْجَى بعد التوحيد من ليلةٍ بِتُّهَا وأنا مُتَتَرِّس، والسماء تهلُّني، ننتظر الصبح حتى نُغِيرَ على الكفار.

ثم قال: إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عُدَّةً في سبيل الله، فلمَّا تُوفي، خرج عمر على جنازته فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يسفحن على خالدٍ من دموعهن، ما لم يكن نقعًا ولا لَقْلَقَةً[٣].

وفي رواية: وما عليهن أن يبكين أبا سليمان.

---

(١) أخرجه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) السير (٣٧٦/١).

(٣) ذكره الحافظ في «الإصابة»، ونسبه إلى ابن المبارك في «الجهاد»، وإسناده حسن. والنقع: التراب على الرءوس، واللَّقْلَقَةُ: الصراخ.

وقال عمر لخالد في حياته: يا خالد، واللَّه إنك لكريم عليَّ، وإنك لحبيبٌ إليَّ.

وبعد موته قال عمر: «**قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق**».

وقال فيه أيضًا: «كان واللَّه سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة»(١).

وعن أبي العجماء السلمي قال: قيل لعمر: لو عهدتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لو أدركتُ أبا عُبيدة ثم ولَّيْتُهُ ثم قدمتُ على ربي، فقال لي: لِمَ استخلفْتَهُ؟ لقلتُ: سمعتُ عبدك وخليلك يقول: «**لكل أُمَّةٍ أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة**». ولو أدركت خالدًا ثم ولَّيته فقدمتُ على ربي، لقلتُ: سمعت عبدك وخليلك يقول: «**خالدٌ سيف من سيوف الله، سلَّه اللَّه على المشركين**»(٢).

كلماتٌ عِذَابٌ رِطابٌ في الثَّناء على خالد من عمر وكَفَى.

«لقد خُلق خالد؛ ليكون قائدًا، فعاش قائدًا ومات قائدًا، فغاب جسده، ولكن بقي حيًّا في النفوس، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان»(٣).

أشجاعٌ أنت أشجعُ من لَيْـ ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ
أجَوَادٌ فأنت أجْوَدُ من سَيْـ ـلٍ غامِرٍ يسيل بين الجبالِ

عن أبي الزناد أن خالد بن الوليد لما احْتُضِرَ بكى، وقال: لقيتُ كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي شِبْرٌ إلَّا وفيه ضربةٌ بسيف، أو رميةٌ بسهم، وَهَا أنا أموت حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أَعْيُنُ الجبناء.

إن رَوْح أبي سليمان وَرَيْحانه ليُوجَدان دائمًا وأبدًا، حيث تصهل الخيل،

---

(١) ابن عساكر ص (٧١٤).

(٢) رواه الشاشي في «مسنده»، ورجاله ثقات خلا أبا العجماء؛ فإنه مختلف فيه، وَثَّقَهُ ابن معين، والدارقطني، وابن حبان، وقال البخاري: في حديثه نظر.

(٣) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٢٣١).

وتلتمع الأسِنَّة، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة.

لكأني بفرسك جاءتْ، لها صهيلٌ يصدح.. يقودُها عبيرُك وأرِيجُك، هذه التي وَقَفْتَهَا في سبيل الله.. لكأني بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا.

«هل سيقدر فارسٌ أن يمتطي صهوتها بعد خالد؟! وهل ستُذَلَّل ظهرَها لأحدٍ سواه؟! إيه يا بطلَ كلِّ نَصْرٍ.. ويا فَجْرَ كلِّ لَيْلٍ.. لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزَّحف بقولك لجندِك: «**عند الصباح يحمد القوم السُّرى**» حتى ذَهَبَتْ عنك مَثَلًا... وَهَا أنت ذا قد أتممتَ مسراك... فلصباحك الحمد، ولذكراك المجد، والعطر، والخلد، يا خالد»[1].

حِصانُك في اليرموك يشربُ دَمْعَهُ ... ويا لعذاب الخيلِ إذْ تتذكَّرُ
رفاقُكَ في الأنبارِ شدُّوا سُرُوجهم ... لِفَقْءِ عيونِ الفُرسِ فالكُلُّ أعْوَرُ
ونهر الدّم يبكيك لونُ دمائِهِ ... وَنَذْرًا له الأحنافُ صَلّوا وَكَبَّرُوا
وقولٌ بِقِنَّسْرِين يشتاقُ ماجدًا ... إلى السُّحب مرقانًا وللشِّرْكِ نَدْحَرُ
سَلُوا قبقلارَ الروم لِمْ لَفَّ وَجْهَهُ ... وحَزَّ له الأحنافُ رأسًا يُنَدَّرُ
مقالُك للرُّومانِ عِزٌّ وَرِفْعَةٌ ... وكم صيَّر العملاق «ماهان» أحقرُ
وإنا لِشُرْبِ الدَّمِ نشتاقُ دائمًا ... وَطَعْم دماءِ الرومِ أشهى وأعْطَرُ
تُرَدِّدُهَا الأجيالُ دومًا لخالدٍ ... لآلئ عزٍّ سوف تَبْقى وتُزْهِرُ

❑ **خالد والبكرية**

جاء الثناءُ على سيف اللَّه خالد في «**القصيدة البكرية**» للشيخ أحمد السكندري مُوَزَّعًا حسب المواقف.. ونورد هنا ما جاء في شأن أبي سليمان سيف اللَّه رضي الله عنه:

❑ **قال في موقفه الرائع في حرب الردة:**

وبثُّوا السرايا واحتوى النقع خالدا ... يخوضُ بصيداء[2] البطاح الأعاديا

---

(١) رجال حول الرسول ص (٣٣٢).

(٢) الصيداء: الأرض الغليظة. والبطاح: هي التي كان يقيم بها فريق من أهل الردة.

مضى كدويّ الرعد بين أزيزهم بأصْلَتَ لا تلْقَى الطَّلى منه واقيا
فما علِمُوا أي الحُسَامَيْنِ خالدٌ وأيهما كان الحسامَ اليمانيا
صدى عزمات طار من قبل خالدٍ يقولُ بأفواه الرياح حذاريا
فكادتْ رِناتُ الخيل ترقى حلوقْها وتبلغ أرواحَ الرجالِ التراقيا
فيا هادم العزى ضربت فلم تذر بها سادنًا[1] إلا إلى اللَّه جاثِيا
طلعت على البلقاء والروم تحتمي فلم تر من صَفيك غيركَ حَاميا
كأن المواظي حَالفَتْهُم على الوغى وما خُلِقَتْ إلا عليهم مواضيا
إذا ثبتتْ منك العيونُ مهابةً تُحَرِّكُ منها بالرماح المآقيا

❑ وقال في يوم قنسرين:

فأحيا بقنسرين للفتح آيةً بها ذكر الفاروقُ ما كان ناسيا
وقال أبو بكر أشدُّ فراسةً وأعلم مني بالرجال خوافيا

❑ ويقول في اجتيازه البرية السماوية:

وهل علم اليرموك خطة خالد وما كان في أقصى الممالك ناويا
وديمومة[2] لا يقرب الضب قيظها ولم تسمعْ في الدهر للجن حاديا
رماها بصحراء السماوة خمسة[3] وأترع من جوف النياق سواقيا
إذا ظمئوا شقوا بطون جمالهم وبلوا نفوسًا فوقهن صواديا
وهل أغنت الأغلال[4] عن جيش هرمز وهل قدحت منه السلاسل واريا
وهل قُرنوا إلا لأن يُسْحَبُوا بها كما يَسْحبُ الراعي القِلاصَ النواجِيا

---

(١) السادن: خادم بيت الصنم.
(٢) الديمومة: هي الأرض التي يدوم بعدها، وتطلق على المفازة والصحراء.
(٣) أي: خمسة أيام.
(٤) ذلك لأنه قَرَنَ جيشه بالسلاسل في «ذات السلاسل»؛ حتى لا يفرُّوا من وجه خالد.

❑ سيف اللَّه القائد

«ما ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب أوْ أُبَشَّرُ فيها بغلام أحبَّ إليَّ من ليلة شديدة الجليد، في سرية من المهاجرين، أُصَبِّحُ بهم العدو، فعليكم بالجهاد».

لقــد نجح خالد في قيادة تحت راية الرســول وفي حــياته، وكان أبرز قــادة النبي ﷺ.

وفي حروب الردة قام خالد وحده بأوفر قسط من حروب الردة؛ فله في قتالهم الأثر العظيم؛ فقد قمع أخطر الفتن في الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها؛ قمع فتنة بني أسد وحلفائهم، وخطرُهُا أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة. وقمع فتنة بني حنيفة، وخطرُهُا أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة، فكان نصيب خالد من وقاية الإسلام في أرضه أوفى نصيبٍ.

❑ في العراق:

أقام خالد في العراق سنة وشهرين فقط من المحرم سنة اثنتي عشرة إلى صفر سنة ثلاث عشرة الهجرية، قاتل خلالها القوات الفارسية وحلفاءها خمس عشرة معركة، لم ينهزم ولم يخطئ ولم يخفق قط في واحدة منها؛ ذلك لأنه كان ينجز استحضارات القتال كافة قبل المعركة، ولا يسير بجيشه إلا على تعبية كاملة؛ ليقاتل عدوه حيث لقيه في شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة واستعداد.

لقد خرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من اتجاهين مختلفين؛ فسار خالد من نصر إلى نصر، ولبث عياض يدور في حلقة مفرغة عند أول موضع مُعَادٍ لَاقَى فيه مقاومة معادية، حتى أدركه خالد بالمعونة، فقضى على مقاومة العدو بسرعة خاطفة، وفتح «**دومة الجندل**»؛ وهذا دليل على أثر خالد الشخصي في فتح العراق.

وعلى الرغم من انحسار مَدِّ الفتح الإسلامي بعد خالد عن أكثر أرض العراق؛ إذ انسحب المثنى بن حارثة الشيباني تحت ضغط ضخامة تحشد القوات الفارسية

إلى «**ذي قار**»[١]، تاركًا ما فَتَحَهُ المسلمون من أرض العراق[٢]، إلا أن نتائج فتوح خالد والمثنى في العراق بقيت ظاهرة للعيان.

من تلك النتائج:

رفع معنويات الجيش الإسلامي، وثقته بأن في مقدوره التغلب على جيوش الفرس، وكانوا من قَبْلُ يعتقدون أن مجرد التفكير في مثل ذلك من المستحيلات.

وإذا كانت معنويات العرب والمسلمين قد ارتفعت، فإن معنويات عدوهم في العراق قد هوت إلي الحضيض؛ وبذلك أصبحَت الأمة العربية الإسلامية المسلحة مهابة الجانب من الفرس وحلفائهم؛ فقد كان الفرس في السابق يعتقدون أن العرب لا يحسنون غير حرب الغارات وحرب العصابات، تحت عوامل اقتصادية بحتة، وأنهم سرعان ما يعودون إلى باديتهم بعد الحصول على شيء من الغنائم والأسلاب، ولكن الفرس بعد معارك المثنى وخالد تيقنوا أن العرب جاءوا فاتحين لا غزاة، وأنهم أصبحوا دولة عظمى في مصاف الدول العظمى في تلك الأيام.

هذه النتائج المعنوية أهم من النتائج المادية.

❏ **أما نتائج فتوح خالد المادية:**

فهي حصول المسلمين على خبرة عملية في التدريب على قتال القوات النظامية بأساليبَ متطوِّرةٍ وعدم بقائهم على أساليبهم البدوية القديمة في القتال، كما كان للغنائم الكثيرة التي غنمها الجيش الإسلامي أثرٌ في رفع مستوى المعيشة داخل الجزيرة العربية، وَيَسَّرَ المال لتدعيم الجيوش الإسلامية بالرجال والسلاح والعتاد.

إن معارك خالد والمثنى في العراق فتحت قلوب أهله على مصراعيها للفتح الإسلامي، بينما فتحت معركة «**القادسية**» الحاسمة أبواب العراق وقلوب أهله

---

(١) ذو قار: ماء لبكر بن وائل، قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر ابن وائل والفرس.

(٢) الطبري (٢/٦٥٩).

للفاتحين.

لقد كانت قيادة خالد في هذه الفترة قيادة عبقرية حقًّا، وما أصدق عمرو بن العاص عندما وصفها قائلًا عن خالد: «**له أناة القطاة ووثوب الأسد**»[١]، وقد كان لخالد وثوب الأسد من قبل، فجمع في أيام فتح العراق أناة القطاة ووثوب الأسد؛ وبذلك جمع مَزِيَّتَيْنِ من أبرز مزايا القيادة العبقرية.

❑ **في أرض الشام:**

إذا كانت معارك خالد في العراق قد فتحت قلوب أهله فقط، فقد فتحت معارك خالد في أرض الشام وعلى رأسها معركة «**اليرموك**» الحاسمة قلوبَ أهل الشام وأبواب أرض الشام للمسلمين الفاتحين.

ولعلَّ أثر خالد الشخصي في أرض الشام أكثر وضوحًا من أثره في العراق؛ إذ إنه وصل الشام في أعقاب نكسة جيش خالد بن سعيد، ومضايقة المسلمين في «**اليرموك**» بمدد الروم الزاخر[٢]، فلما وصل خالد من العراق إلى «**اليرموك**» من أرض الشام، فرح المسلمون بمقدمه[٣]، وتغلَّبُوا بقيادته على قوات الروم التي لها فواق على قواتهم فواقًا ساحقًا بالعدَد والعُدَد.

إن نتائج فتوح خالد في أرض الشام لا تزال باقية حتى اليوم، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ترك خالد في أرض الشام آثارًا مشابهة لما تركه في العراق:

رَفْعُ معنويات العرب المسلمين وسحقُ معنويات الروم، وتدريبُ جيوش المسلمين على فنون القتال ضد جيوش نظامية كثيفة، ورفعُ المستوى المعاشي للعرب المسلمين داخل الجزيرة العربية من جراء الغنائم التي حصلوا عليها، وتلك آثار كافية لتخليد عدد كبير من القادة، فكيف وهي من صنع رجل واحد هو خالد بن

---

(١) اليعقوبي (٢/١٠٨).

(٢) الطبري (٢/٥٥٢).

(٣) الطبري (٢/٥٩١).

الوليد؟!

لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذروة؛ فكان خالد هناك بحق: قائد القادة، ومطمح الأنظار، ومعقد الآمال، سواء كان قائدًا عامًّا أو قائدًا مرءوسًا أو جنديًا بسيطًا أو قابعًا في داره بين عشيرته وأهله.

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدِّه وجهاه... المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرتب وفوق الأهواء والنزعات... لقد أصبح أمة في رجل؛ لأنه أصبح يحمل مجد أمة وبطولة جيل!!

لقد أصبح لا يمثل نفسه فحسب، بل يمثل مجدًا وفكرة: مجد عبقرية العرب في القيادة، وفكرة الفتح الإسلامي؛ وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ!!

❑ **مزاياه العسكرية:**

والله، لا نجد خيرًا من كلام أمه فيه يوم دفنه:

أنت خيرٌ من ألف ألفٍ من القو ... م إذا ما كَبَتْ وجوه الرجال

أَشْجَاعٌ...؟ فأنت أشجعُ من لَيْـ ... ـثٍ غَضنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ

أَجْوادٌ...؟ فأنت أجودُ من سيـ ... ـلٍ غامرٍ يسيل بين الجبالِ

وسمعها عمر؛ فازداد قلبه خفقًا.. ودمعه دفقًا.. وقال: «**صدقتِ والله إن كان لكذلك**»[(١)].

قال الجنرال الألماني «**فون غولتز**» صاحب كتاب «**الأمة المسلحة**»: «خالد بن الوليد إنه أستاذي في فن الحرب»[(٢)].

وقال موللر: «**نابليون شبيهٌ بخالد بن الوليد، لم يأبه لشيء إلا للحرب، ولم يرغب أن يتعلم شيئًا سوى الحرب**»[(٣)]. وشتان ما بين الرجلين.

---

(١) رجال حول الرسول ص (٣٣١).

(٢)، (٣) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٠).

❑ عسكري ممتاز:

كان خالد يَهْوَى مهنة الجندية، ويفضلها على كل مهنة أخرى، وكان عسكريًّا بالفطرة من أخمص قدمه إلى قمة رَأسه، وما أصدقه حين وصف هواه بالجندية بقوله: «ما ليلةٌ يهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب أو أُبَشَّرُ فيها بغلام أحبَّ إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أُصَبِّحُ بهم العدو، فعليكم بالجهاد»[1].

لقد نصَّ خالد بكلمته هذه على: «**سرية من المهاجرين**»؛ ذلك لأنهم كانوا أقدم المسلمين إسلامًا؛ فهم أرسخ المسلمين عقيدة وأشدُّهم ضبطًا وطاعةً؛ لذلك آثرهم خالد بالذِّكر على غيرهم؛ فهو يصف بقولته هذه هواه العميق بالجندية من ناحية، ورغبته الملحة في قيادة جنود ذوي عقيدة راسخة من ناحية أخرى؛ إذ إن القائد الممتاز بدون جنود ممتازين مضيعةٌ للجهود في أكثر الأحيان.

لقد كان خالد عسكريًّا ممتازًا بكل معنى الكلمة؛ وهب للعسكرية كل حياته وأعزَّ ما يملك من روح ومال وجهد ووقت؛ لذلك أصبح جنديًّا ممتازًا وقائدًا ممتازًا في وقت واحد؛ فحقق بطبعه الموهوب الذي فطره اللَّه عليه، وبعلمه المكتسب، وخبرته الطويلة في حياته معجزاتٍ عسكريةً، كانت ولا تزال وستبقى في أَوْجِ الأمثلة الرائعة الخالدة لِمَا يمكن أن يحققه أعاظم قادة التاريخ في كل زمان ومكان.

وقد يكرس العسكري كل حياته لخدمة واجبه العسكري بكل أمانة وإخلاص؛ فيحصل على معلومات ثمينة وخبرة طويلة، ولكنه لن يكون عسكريًّا ممتازًا إلا إذا خلق بطبيعته يَهْوَى الأعمال العسكرية ويندمج في متطلباتها كليًّا بشوق ولهفة.

لقد جمع خالد الطبعَ الموهوبَ والعلمَ المكتسبَ؛ فجمع بذلك كلَّ عوامل تكوين العسكري الممتاز؛ فما هي مزاياه جنديًّا ممتازًا وقائدًا ممتازًا؟!

---

(١) الإصابة (٢/٩٩).

❑ جندي ممتاز:

أ ـ مزايا الجندي الممتاز:

تتلخص مزايا الجندي الممتاز فيما يلي:

عقيدة راسخة ـ ضبط متين ـ عقلية متزنة ـ شجاعة شخصية ـ تدريب جيد ـ قابلية بدنية ـ معنويات عالية.

فهل يتحلَّى خالد بهذه المزايا المعنوية والمادية للجندي الممتاز؟!

ب ـ تفصيل المزايا:

أولًا: عقيدة راسخة:

بعثه الرسول ﷺ بعد ذلك غازيًا وهاديًا، وعلى الرغم من أهمية توليه قيادة المسلمين في عهد النبي ﷺ في إثبات رسوخ عقيدته، إلا أنَّ إثبات ذلك يبدو أكثر وضوحًا في توليه هدم «**العُزَّى**»، و«**وُدٍّ**»، وإرساله داعيًا إلى بعض قبائل اليمن؛ إذ لا يمكن أن يقوم بمثل هذه الواجبات غير ذوي العقائد الراسخة.

عند فتح «**الحيرة**» وجد خالد عند أحد قادتها ـ وهو عمرو بن عبد المسيح ـ سُمًّا ناقعًا، فلما سأله خالد عنه، أجابه عمرو: «**خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيتُ على أجلي، والموت أحبُّ إلي من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي**»؛ فقال خالد: «**إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها**»، ثم قال: «**بسم اللَّه خير الأسماء ربِّ الأرض وربِّ السماء الذي ليس يضر مع اسمه داء الرحمن الرحيم**»، ثم ابتلع السمَّ؛ فقال عمرو: «**واللَّه ـ يا معشر العرب ـ لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن**»[1].

ولما قال بنو تميم وعلى رأسهم عاصم بن عمرو التميمي والأقرع بن حابس التميمي بعد انتصار خالد في «**دُومة الجندل**» عن أسارى بني كلب: «**قد أمَّنَّاهم**»،

(١) الطبري (٢/٥٦٧).

قال لهم خالد: «**مالي ولكم!! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام!!**»[(١)]؛ فهو لا يكترث بحليف أو قريب أو نسيب إلى جانب سلامة وأمن تعاليم الدين الحنيف.

ولما تردد رجاله خوفًا من عبور الصحراء من طريق صعبة غير مطروقة، قال لهم: «**إن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة اللَّه له**»[(٢)]؛ فهو يثق باللَّه ثقة لا حدود لها، ويؤمن به إيمانًا راسخًا.

وكانت ثقته بنصر اللَّه ثقةً لا حدود لها أيضًا، وهو الذي قال لأهل «**قنسّرين**»: «**إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا اللَّه إليكم أو لأنزلكم اللَّه إلينا**»[(٣)].

وفي يوم «**اليرموك**» فقد خالد قلنسوته، فقال: «**اطلبوها**»، فلم يجدوها، فلم يزل حتى وجدوها، فإذا هي خلقة، فسئل عن ذلك، فقال: «**اعتمر رسول اللَّه ﷺ** فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلا تبين لي النصر» وقال في آخره: «**فما وُجِّهْتُ في وجه إلا فتح لي**»[(٤)].

ذلك مبلغ عقيدته باللَّه وبرسوله ﷺ تلك العقيدة الراسخة التي دفعته أن يطلب الموت في مظانِّه فلم يُقدَّر له[(٥)]، وبذل ماله في سبيل الله؛ فمات فقيرًا معدمًا، وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله[(٦)].

لقد جاهد خالد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حق الجهاد.

---

(١) الطبري (٢/٥٧٩)، وابن الأثير (٢/١٥٢).
(٢) الطبري (٢/٦٠٣)، والكامل، لابن الأثير (٢/١٥٦).
(٣) الطبري (٣/٩٨).
(٤) الإصابة (٢/٩٩).
(٥) الإصابة (٢/١٠٠).
(٦) أُسْد الغابة (٢/٩٦)، والإصابة (٢/١٠٠).

ثانيًا: ضبط متين:

كان خالد يتمتع بضبط مثالي متين لا يزال مَضْرِبَ الأمثال حتى اليوم؛ فقد رأيتَ كيف نزع بلالٌ الحبشي عمامة خالد فلم يمنعه؛ سمعًا وطاعة، ثم أقامه وعقله بعمامته[١] . كل ذلك جرى وخالد في أَوْجِ مجده وانتصاراته!!.

ثم رأيتَ كيف عزله عمر بن الخطاب دون أن يترك هذا العزل في نفسه أثرًا سيئًا، بل استمر في الجهاد، لا فرق عنده أن يكون قائدًا عامًّا أو قائدًا مرءوسًا أو رجلًا من المسلمين.

ولما قاسمه أبو عبيدة بن الجراح بأمر عمر بن الخطاب أمواله، قال خالد: «**ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين!!**»[٢]، وهذا ضبط مثالي يندر وجوده حتى في نفوس رجال أعرق الجيوش في العالم قديمًا وحديثًا.

أما إقدامُ خالدٍ على مخالفة أوامر الخليفة في بعض الأحيان، فذلك لا يعني الإخلال بالضبط؛ بل يعني تحمل المسئولية الكاملة ضمن نطاق إمكان مخالفة الأوامر في بعض الظروف عندما لا يكون المرجعُ الذي أصدر الأمرَ حاضرًا.

إن الإخلال بالضبطِ سُبَّةٌ على الجندي، وتَحَمُّل المسئولية مفخرةٌ له، ولا تزال تعاليم الجيوش حتى اليوم تنصُّ بصراحة على إمكان مخالفة الأوامر ـ مع تحمل نتائج تلك المخالفة ـ في حالة وجود الآمرِ الذي أصدر الأمرَ بعيدًا، بحيث لا يمكن مشاورته لتبديل أوامره، وعند الاقتناع بأنه لو كان حاضرًا لخالفها هو بنفسه؛ رضوخًا للموقف الراهن الذي لم يَطلع على تفاصيله، وقد أوضح ذلك خالد للأنصار عند معارضتهم لمسيره إلى مالك بن نويرة بعد فراغه من أمر طليحة؛ فقال لهم: «**أنا الأمير وإليَّ تنتهي الأخبار!! ولو أنه لم يأتني له كتابٌ ولا أمرٌ، ثم رأيت فرصةً، فكنت إن أعلمته فاتتني، لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس**

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧).

(٢) الطبري (٢/٦٢٥).

منه عهد إلينا فيه، لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا، ثم نعمل به...»[١].

إنَّ ما ذكره خالد بصدد مخالفة الأوامر عند الضرورة يطابق أحدث تعاليم الجيوش الحديثة حول ذلك.

ثالثًا: عقلية متزنة:

كان خالد معروفًا بين قريش بعقليته المتزنة؛ لذلك صارت إليه الأعنة والقبة من بين كل رجال بني مخزوم في الجاهلية، على الرغم من شبابه المبكر حين تولى هذين المنصبين الخطيرين.

وقد شهد له النبي ﷺ بالعقل الراجح؛ فقال عنه: «**قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألَّا يسلمك إلا إلى خير**»[٢]، وقال عنه: «**ما مثل خالد مَن جَهِلَ الإسلام**»[٣]، وحسبه شهادة رسول اللَّه ﷺ برجاحة عقله.

ولله در القائل فيه:

إني رأيت لخالد من عقله	فيما يمارس مرشدًا وإماما
ما مثله يرتاب في دين الهدى	فيرى الضياء المستفيض ظلاما
إنا لنعرفه رشيدًا حازما	ونراه شهمًا في الرجال هماما

والذي يدرس رسائله إلى قادة الفرس والروم، ومناقشاته المنطقية لهم، وأوامره التي أصدرها لرجاله، وأعماله الحربية والسلمية، وتصرفاته، يلمس بوضوح عقلية خالد الْمُبْدِعَة الْخَلَّاقَة، ويكفي أن نعرف إنجازاته الخالدة؛ لنطمئن إلى أن مثلها أو قسمًا قليلًا منها لا يمكن تحقيقه إلا بتفكير متزن جبار.

رابعًا: شجاعة شخصية:

لعلَّ الحديث عن شجاعة خالد يعتبر حديثًا معادًا لا لزوم له، ويكفي أن نتذكر

---

(١) لطبري (٥٠١/٢)، وابن الأثير (١٣٦/٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٢/٤، ٣٩٤/٧).

(٣) طبقات ابن سعد (٢٥٢/٤، ٣٩٤/٧).

أنه كان دائمًا في الأمام أثناء القتال قريبًا من مواطن الخطر؛ **في مسير الاقتراب** كثيرًا ما يقود المقدِّمة، **وفي الهجوم** يبادر إلى المبارزة وإلى مهاجمة قائد العدو والقضاء عليه، **وفي الانسحاب** يقود المؤخرة ثم يبقى مع الساقة، ثم لا ينسحب إلا بعد انسحاب رجال الساقة وبعد أن يتأكد أن جيشه كله أصبح بأمان.

وكمثال فقط: فإنه بارز يوم «**الولجة**» رجلًا من أهل فارس يعدل ألف رجل؛ فقتله! فلما فرغ منه اتكأ عليه ودعا بغدائه[1].

إن آثار شجاعة خالد الشخصية ملموسة بوضوح في كل معاركه التي خاضها، وملموسة أيضًا في بدنه الذي ليس فيه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية[2].

قال ﷺ وهو يفارق الدنيا: «شهدت مئة زحف أو زهاءها، وما في جسمي - جسدي - موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هَا أَنَذَا أموت على فراشي؛ كما تموت العير، فلا نامت أعين الجبناء»[3].

لقد كان خالد مثالًا شخصيًا رائعًا في الشجاعة والإقدام لرجاله في كل معاركه؛ لذلك كان رجاله الذين يقاتلون تحت رايته يحتذون حذوه؛ فيصنع ويصنعون في ميدان القتال خوارق الشجاعة والإقدام.

خامسًا: تدريب جيد:

أتاح لخالد ثراءُ والدِهِ العريضُ ونشأتُهُ في بيت له القبة والأعنة[4] أن يتفرَّغ منذ

---

(١) الطبري (٢/٥٦٠).

(٢) أُسْد الغابة (٢/٩٥).

(٣) أُسْد الغابة (٢/٩٥)، والاستيعاب (٢/٤٠).

(٤) ذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: كانت القبة والأعنة إلى خالد بن الوليد.
فأما الأعنَّة: فإنه كان يكون على خيول قريش في الجاهلية في الحرب.
وأما القبَّة: فإنهم كانوا يضربونها، ثم يجمعون إليها ما يجهِّزون به الجيش. «مختصر تاريخ دمشق» (٨/١٧).

نعومة أظفاره للتدريب على مختلف الأسلحة وعلى الفروسية، لا لكي يجيد استعمالها فحسب، بل لكي يَبُزَّ أقرانه في تدريبه عليهما.

ولم تكن الشجاعة وحدها ـ خاصة في قتال المبارزة ـ كافية لقهر الخصم، بل إن الشجاعة الشخصية، والتدريب الجيد على استعمال السيف، والرمح، والرمي بالنبال، والمهارة في امتطاء الخيل هما العنصران الأساسيان للنصر.

إن المهارة في استخدام الأسلحة هي نتيجة حتمية للتدريب الجيد عليها؛ وهذا يجعلك تقتل عدوك قبل أن يقتلك، وكانت هذه القاعدة صحيحة في الحرب القديمة، ولا تزال صحيحة حتى اليوم.

لقد كان خالد قائد فرسان قريش في الجاهلية؛ ومعنى ذلك: أنه كان من أبرز فرسانها شجاعةً وتدريبًا؛ لأن الوراثة وحدها ـ على اعتبار أنه مخزومي ـ غير كافية لتولي هذا المنصب الخطير؛ خاصة وأن بني مخزوم كثيرون؛ مع أن فرسان قريش كانوا في طليعة فرسان العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام أيضًا؛ وكان تدريب خالد على استعمال السيف والرمح ورمي النبال مَضْرِبَ الأمثالِ بين رجال قريش في الجاهلية؛ فأصبح مَضْرِبَ الأمثالِ بين العرب كلهم بعد الإسلام.

ولكن التدريب على الأسلحة وعلى الفروسية لا يكفي للجندي الممتاز، بل يحتاج إلى التدريب على تحمل أقسى الظروف المعاشية؛ فيأكل عند الحاجة أخشن الطعام، ويلبس أخشن اللباس، ويصوم عن الطعام عند عدم تيسره، ويصبر على الجوع والعطش، ويكتفي بالمتيسر من الطعام والشراب، كما يحتاج إلى التدريب على تحمل أقسى الظروف الجوية؛ فينام في العراء، يفترش الثرى صابرًا على البرد والجليد والمطر شتاء، وعلى الحر الشديد صيفًا... إلى غير ذلك من صنوف التدريب العنيف!!

لقد كان خالد غنيًّا ـ بل من الأغنياء المعدودين في قريش ـ، وكان بإمكانه أن يعيش مترفًا في بحبوحة من العيش الرغيد، ولكن روحه العسكرية أَبَتْ عليه إلا أن

يتناول كل طعام يقدم إليه حتى في أوقات السلم وفي المدينة المنورة بين أهله وماله؛ فقد ذكر خالد: «**أنه دخل مع رسول الله**ﷺ بيت ميمونة أم المؤمنين[١]، فأُتِيَ بضب[٢] محنوذ[٣]، فأهوى إليه رسول اللهﷺ يريد أن يأكل منه؛ فقالوا: يا رسول الله، هو ضب!! فرفع رسول اللهﷺ يده؛ فقلت: أحرام هو؟ قال: «**لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه!!**» قال خالد: فاحترزته فأكلته ورسول اللهﷺ ينظر»[٤].

وقد اجتاز الصحراء بين العراق وأرض الشام من أصعب مسالكها وأشدها خطرًا مُتَحَمِّلًا الجهد والعطش، وتحمل التقلبات الجوية في الصحراء وفي العراق والشام في مختلف ظروف السنة وفي مختلف ظروف القتال... كل ذلك يدل على أنه كان مدربًا تدريبيًا ممتازًا ليس على استعمال السلاح وركوب الخيل، بل على شظف العيش وقسوة الجو في مختلف الظروف والأحوال.

سادسًا: قابليته البدنية:

كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طويلًا ضخمًا بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل.

وتمتع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقسط وافر من القابلية البدنية في كل حياته العسكرية؛ مما جعله قويًّا جدًّا؛ بحيث يحتضن خصمه عند البراز؛ فيقضي عليه[٥]، ويغلب مَن يخرج لمبارزته من الأبطال[٦]، ويتحمل المشاق العسكرية بسهولة ويسر.

---

(١) ميمونة بنت الحارث الهلالية: زوج النبيﷺ وخالة خالد بن الوليد؛ لأنها أخت لبابة الصغرى بنت الحارث أم خالد، فيها نزل قوله - تعَالَى -: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾؛ راجع التفاصيل في «طبقات ابن سعد» (١٣٢/٨)، والإصابة (١٩١/٨)، والاستيعاب (١٩٤١/٤).

(٢) الضب: حيوان من جنس الزواحف من رتبة العظماء، غليظ الجسم خشنه، وله ذنب عريض، حرش أعقد، يكثر في صحارى الأقطار العربية.

(٣) محنوذ: مشوي بِدَسِّهِ بالنار أو في حجارة محماة بالنار.

(٤) أُسْد الغابة (٩٥/٢).

(٥) الطبري (٥٥٦/٢، ٥٧٧)، وابن الأثير (١٤٨/٢، ١٥١).

(٦) الطبري (٥٦١/٢)، وابن الأثير (١٤٩/٢).

وكمثال على تحمله المشاق العسكرية: قطعه الطريق من «**الفراض**» إلى مكة المكرمة للحج: «فسار طريقًا من طرق أهل الجزيرة، لم يُرَ طريقٌ أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه؛ فكانت غيبته عن الجند يسيرة؛ فما توافى إلى «**الحيرة**» آخِرُهُمْ، حتى وَافَاهُمْ مع صاحب الساقة»(١).

طريق صعبة في الصحراء قطعها بسرعة خاطفة... ذلك دليل قاطع على قابليته البدنية الفائقة التي أعانته على تحمل المشاق العسكرية.

سابعًا: معنويات عالية:

كان خالدٌ كتلةً ضخمةً من المعنويات العالية، لا يحل في مكان إلا رفع معنويات رجاله وحطم معنويات خصومه.

ولا يتمتع المرء بالمعنويات العالية جزافًا؛ بل هناك عوامل كثيرة لتمتعه بها؛ **من هذه العوامل:** العقيدة الراسخة، والضبط المتين، والشجاعة الشخصية، والقابلية البدنية، والتدريب الجيد، والماضي المجيد.

وقد رأيتَ أن خالدًا يتمتع بكل هذه المقومات.

أما ماضيه المجيد: فَحَدِّثْ عن البحر ولا حرج!!

فليس غريبًا ـ إذًا ـ أن يكون خالدٌ كتلةً ضخمةً من المعنويات العالية ـ كَمَا أَسْلَفْنَا ـ، ولكن الغريب ألا يكون كذلك.

أطلق الرسول القائد ﷺ على خالد لقب: «**سيف الله**»، ولما انهارت معنويات المسلمين بعد هزيمة عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة في «**اليمامة**»، بعث أبو بكر خالدًا إليها؛ فانتصر.

وفي العراق كتب خالد إلى «**هرمز**» قائد الفرس قبل أن يخوض المعركة الأولى: «**أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن**

(١) الطبري (٢/٥٥٤).

إلا نفسك؛ فقد جئتك بقوم يحبون الموت؛ كما تحبون الحياة»[١].

وكتب خالد إلى عياض بن غنم بعد أن مكث طويلًا في «**دُومة الجندل**» دون جدوى: «**إياك أريد**»[٢]، فلما بلغ أهلَ «**دومة الجندل**» دُنُوُّ خالدٍ، اختلفوا؛ فقال أكيدر بن عبدالملك أبرز رؤساء «**دومة**»: «**أنا أعلم الناس بخالد! لَا أحد أيمن طائرًا منه، ولا أَحَدُّ في حرب، ولا يَرى وَجْهَ خَالَدٍ قَوْمٌ أبدًا قَلُّوا أو كَثُرُوا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم**»[٣].

ولما تَرَدَّى موقف المسلمين في الشام، هَتَفَ أبو بكر الصديق ﷺ من أعماق قلبه: «**خالد لها**»؛ فأنسى الروم بخالد وساوس الشيطان؛ ففرح المسلمون بقدومه واطمأنوا.

وفي ابتداء معركة «**اليرموك**» خرج «**جرجة**» أحد قادة الروم، ونادى: «**ليخرج خالد**»، فخرج إليه خالد، فسأله جرجة: «**هل أنزل اللَّه على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه؛ فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟!**».

وفي «**اليرموك**» بالذات هتف أحد المسلمين: «**ما أكثر الروم وأقل المسلمين!!**» فأجابه خالد فورًا: «**ما أقل الروم وأكثر المسلمين!! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان**».

لقد كان خالد يعتمد على إثارة نوازع الإيمان في نفوس رجاله؛ فيتعهد جيشه بالعظات وبقراءة سورة الجهاد قبل القتال وفي أثنائه وبعده، وَيُعَيِّنُ مسئولًا عن قراءة سورة الجهاد عند اللقاء؛ كما فعل في «**اليرموك**» مَثَلًا.

وكان من جملة الأسباب التي بَرَّرَ بها عمر ﷺ عزلَ خالد: أن الناس قد فُتِنُوا به[٤].

---

(١) الطبري (٢/٥٥٤).
(٢) الطبري (٢/٥٧٨).
(٣) الطبري (٢/٥٧٨).
(٤) ابن الأثير (٢/٢٠٧).

إن خالد بن الوليد مَثَلٌ رائع للمعنويات العالية؛ ينصر بها المسلمين ويخذل بها أعداءه... فقد اجتازت شهرته الحدود، وأصبح معروفًا عنه أنه لا يُغْلَبُ أبدًا؛ وبذلك انتصر على أعدائه بالرعب من مسيرة شهر، بل من مسيرة أشهر في تلك الأيام.

❑ **خالد بن الوليد أفضل قادة المسلمين بعد النبي ﷺ:**

خالد بن الوليد قائد كبير: قال «**درمنغهام**»: «خالد بن الوليد، إنه قائد كبير، لم يغلب أو يقهر، ذكي وممتاز في قيادته»(١).

❑ **خالد قائد عبقري:**

تحت هذه العنوان كتب اللواء الركن محمود شيت خطاب:

«لا أعرف قائدًا عبقريًّا في تاريخ المسلمين غير الرسول القائد - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَتَسْلِيمُهُ عَلَيْهِ - يمكن أن يفضل على القائد العبقري خالد بن الوليد.

ولست أفضل عبقرية قيادة الرسول القائد على عبقرية خالد بن الوليد خضوعًا لعاطفتي؛ باعتبار أنه نبي الإسلام وخاتم النبيين والمرسلين، ولكني مقتنع بذلك بعد دراسة مستفيضة لمزايا قيادة النبي العظيم سيد القادات وقائد السادات، رجل الرجال وبطل الأبطال محمد بن عبدالله ﷺ، ومزايا قيادة خالد هازم الفرس والروم.

لقد اصطرعت عبقريتا هذين القائدين في «**أُحُد**»، وفي «**الخندق**»، وفي غزوة «**الحديبية**»؛ فكانت الغلبة في كل هذه الغزوات لعبقرية الرسول القائد على عبقرية الصحابي القائد.

لقد كان خالدٌ قائدَ فرسانِ المشركين في «**أُحُد**»، وكان التفوق العددي إلى جانب المشركين، ومع ذلك استطاع المسلمون بقيادة النبي الكريم دَحْرَ المشركين

---

(١) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٠).

في الصفحة الأولى من المعركة، حتى أخذ المسلمون ينتهبون معسكر المشركين؛ مما جعل بعض رماة المسلمين يتركون مواضعهم ظنًّا منهم أن المعركة قد انتهت لصالح المسلمين؛ فانتهز خالد فرصة انسحاب الرماة لضرب المسلمين من الخلف؛ فأصبح المسلمون مطوقين من كل جانب.

في هذا الموقف الرهيب بالنسبة للمسلمين، يبرز اصطراع عبقريتي القائدين العظيمين؛ فينجح الرسول القائد في إنقاذ أصحابه من هلاك أكيد، ويفشل خالد في القضاء على المسلمين، ولولا مخالفة الرماة لأوامر الرسول ﷺ الصريحة في الثبات حتى النهاية في مواضعهم، لاستحال على خالد أن يقوم بضرب المسلمين من الخلف، وَلَمَا كان له في هذه المعركة أثرٌ ملموسٌ.

أما في «**الخندق**» و«**الحديبية**»: فقد انتصرت عبقرية الرسول القائد على عبقرية خالد؛ إذ لم يظهر لخالد فيهما أثر حاسم في الوقت الذي ظهر للرسول ﷺ أثران حاسمان؛ في كل معركة منهما أثر حاسم.

ولا عجب في ذلك... لقد كان محمد قائدًا ورسولًا.

مع ذلك، فهناك قائد عربي مسلم هو «**المثنى بن حارثة الشيباني**» يشابه في سماته ومزاياه العسكرية سماتِ ومزايا خالد، ولو لم يستشهد المثنى قبل أن يقضي رسالته في الفتح، لكان له شأن ينافس شأن خالد في الفتوح.

لقد ظهر عشرات القادة من صحابة النبي ﷺ وتلاميذه، حملوا رايات الإسلام شرقًا وغربًا، ولكن لم يفتتن الناس بغير خالد والمثنى(١)؛ لأنهما كانا كفرسي رهان في مزاياهما وفي ثمار سيفيهما في الفتح.

لقد جمع خالد مزايا الجندي الممتاز إلى مزايا القائد الممتاز، مع أن هذه المزايا هي مزايا مثالية أو نماذج عليا، يندر أن يتصف بها قائد واحد؛ لأنها مجموعة من

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧).

مزايا عديدة من القادة العظام في فجر التاريخ حتى اليوم.

وإذا كان لنا أن نوجز مزايا عبقرية قيادة خالد بكلمات؛ فهي:

ذكاءٌ نادرٌ يجعلُهُ حاضرَ البديهة دائمًا يُصْدِرُ قراراتٍ سريعةً مرنةً ومبتكرةً غالبًا، متشبثٌ بجمع المعلومات عن العدو؛ مما يجعل تلك القراراتِ السريعةَ صحيحةً، سريعُ الحركةِ، شجاعٌ، مقدامٌ، لَهُ عقيدةٌ راسخةٌ، وشخصيةٌ قويةٌ، وإرادةٌ حديديةٌ، وقابليةٌ بدنيةٌ فائقةٌ، ومعنوياتٌ عاليةٌ، يسيطر على أعصابه سيطرةً عجيبةً، يثق به رجاله ويحبونه، ويبادلهم ثقة بثقة وحبًّا بحب، يفقه مبادئَ الحرب، وله ماضٍ ناصعٌ مجيدٌ.

وكان ـ بالإضافة إلى هذه المزايا ـ يختار موضعه في القتال قريبًا من مواطن الخطر؛ دائمًا في الأمام، دائمًا يبارز أبطال أعدائه ويقضي عليهم، دائمًا يقاتل أكثر من أي فرد من رجاله؛ فيضطر على تبديل سيف بعد سيف؛ إذ لَا يصمد في يده سيف واحد في معركة واحدة!!

لقد خُلِقَ خالدٌ؛ ليكون قائدًا؛ فعاش قائدًا، ومات قائدًا، فغاب جسده عن الوجود، ولكن بقي حيًّا في النفوس، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان.

❑ **مزايا القائد الممتاز[1]:**

تتلخص مزايا القائد الممتاز فيما يلي:

عقيدة راسخة ـ ضبط متين ـ عقلية متزنة ـ شجاعة شخصية ـ تدريب جيد ـ قابلية بدنية ـ معنويات عالية.

وبالإضافة إلى هذه المزايا التي سبق ذكرها في مزايا الجندي الممتاز لَا بُدَّ أن

---

(١) مقتبسة من الكتب العسكرية الرسمية، ومن محاضرات كلية الأركان ومدرسة الأقدمين في إنجلترا، ونقلها اللواء محمود شيت خطاب في «قادة فتح العراق والجزيرة» ص (١٩٣، ١٩٤).

تتوفر في القائد الممتاز المزايا الأخرى التالية:

إعطاء القرارات السريعة والصحيحة ـ الإرادة القوية الثابتة ـ تحمل المسئولية بلا تردد ـ نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار ـ سَبْقُ النظر ـ معرفة نفسيات مرءوسيه وقابلياتهم ـ ثِقَةُ قِطْعَاتِهِ بِهِ وَثِقَتُهُ بِقْطَعَاتِهِ ـ المحبة المتبادلة بينه وبين قواته ـ شخصية قوية نافذة ـ ماضٍ ناصعٌ مجيدٌ ـ معرفة بمبادئ الحرب.

فهل يتحلى خالد بمزايا القائد الممتاز بالإضافة إلى مزايا الجندي الممتاز؟!

❑ المزايا والصفات القيادية التي تمتع بها سيف اللَّه المسلول

أولًا: القدرة على اتخاذ القرار السريع والصحيح:

لا بد للقائد من إعطاء قرارات سريعة وصحيحة في آنٍ واحدٍ، يعالج بها المواقف الطارئة المتبدلة بسرعة في الحرب؛ إذ إن القرارات البطيئة قد لا تكون ذات فائدة؛ لأن وقتها يكون قد فات؛ كما أن القرارات الخاطئة تضر ولا تفيد؛ أي أنها تكون في مصلحة العدو.

إن القرارات السريعة والصحيحة تستند على عاملين مهمين؛ القابلية العقلية للقائد، والحصول على المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة.

لقد مَرَّ بنا ذِكْرُ مزية خالد العقلية؛ فعرفنا أنه يتمتع بعقليةٍ متزنةٍ خَلَّاقَةٍ.

أما الحصول على المعلومات: فقد كان خالد حريصًا غاية الحرص على استطلاع حالة العدو المادية والمعنوية؛ فكان لا تخفى عليه خافية من حركاته وسكناته؛ لأنه كان دائمًا بِتَمَاسٍّ شديدٍ بالعدو؛ لوجوده دائمًا أمام رجاله، ولأنه كان «**لا يَنَامُ ولا يُنِيمُ، ولا يبيت إلا على تعبية، ولا يخفى عليه من أمر عدوه شيءٌ**»[1].

لقد كان يحصل على المعلومات عن عدوه بدوريات القتال ودوريات الاستطلاع، وبالعيون، وباستنطاق الأسرى، وبالاستطلاع الشخصي، وباستشارة

(١) الطبري (٣/٤٣٩)، والكامل (٢/٤٢٨).

ذوي الرأي والخبرة من رجاله ورجال عدوه الذين يقعون في قبضته، وكانت كُلُّ معاركه مثالًا يُحْتَذَى به في الحصول على المعلومات؛ وحسبنا أن نتذكر كيف أنه عرف أن المدافعين عن أسوار دمشق قد تركوا مواضعهم؛ فانتهز هذه الفرصة السانحة وَقَرَّرَ مهاجمتهم فورًا؛ ففتح هذه المدينة بعد حصار طويل.

لقد كان خالد منتبهًا كل الانتباه لكل حركة من حركات عدوه، ولم يتهاون لحظة واحدة عن جمع المعلومات؛ كما أنه كان غير متردد، يتحمل المسئولية، ولا ينتظر وصول الأوامر إليه، مما يؤدي إلى ضياع الوقت عَبَثًا؛ فلا عجب إذا كانت قراراته صحيحة سريعة جازمة حاسمة، وكانت نتائجها باهرةً جدًّا.

❑ **مثال على تحلي سيف اللَّه بهذه الصفة:**

ما حدث عند فتح «**الأنبار**» بالعراق؛ حيث قام ﷺ بجولة حول الخندق المضروب عليها، وقد تحصَّن أهل البلدة داخل أسوارها وهم مطمئنون إلى أن الخندق المحفور حول السور سوف يمنع خالدًا من الوصول إليهم، ولكنه ﷺ اكتشف نقطةَ ضعفٍ في الخندق فاستغلها، وما إن تمكن من شلِّ مقاومة أهل الأنبار برمي عيونهم بالسهام وفقئها، حتى أمر بنحر الإبل في ذلك الموضع، واتخذ من جثتها جسرًا عبر عليه جندُهُ إلى المُحَاصَرِينَ داخل المدينة وهزموهم.

ثانيًا: الإرادة القوية الثابتة:

كان لخالد إرادة فولاذية لا تزعزعها الخطوبُ والأحداثُ.

لقد كان إقدامه على محاربة جيوش الإمبراطورية الفارسية بِحَدِّ ذاته مجازفة خارقة تدل على إرادته القوية الثابتة؛ وحسبنا أن نتذكر أن عدد رجاله في أول معركة خاضها ضد الفرس؛ وهي: معركة «**ذات السلاسل**» في منطقة البصرة ثمانية عشر ألفًا فقط(١)، يقاتلون أضعافهم من الفرس.

---

(١) الطبري (٢/٥٥٤)، وابن الأثير (٢/١٤٧).

وفي «**اليرموك**» كان عدد قوات المسلمين ستة وأربعين ألفًا[1]، بينما كان الروم في مئتين وأربعين ألف مقاتل[2].

لقد كان الفواق العددي والتسليح وتيسر القضايا الإدارية دائمًا إلى جانب الفرس في العراق، وإلى جانب الروم في أرض الشام، وكان هذا الفواق فواقًا ساحقًا في كل معركة خاضها خالد، ومع ذلك انتصر خالد، وكان لإرادته القوية الثابتة أثرٌ بالغٌ في انتصاراته الباهرة.

لقد كان يفكرُ، ويقدِّر الموقفَ، ويقرِّر خطةً مناسبةً، ثم ينفِّذ خطته بعد أن يقتنع بصحتها دون أن يلتفت إلى الوراء.

لقد كان من أولئك القادة الذين يصممون أولًا، وينفذون ثانيًا ما صمموه من خطط مبنية على أسس سليمة استطلاعًا، وتفكيرًا، وتقديرًا، وإرادةً على التنفيذ.

ثالثًا: تحمل المسئولية:

من أبرز مزايا خالد أنه كان يتحمل المسئولية إلى أبعد الحدود؛ فإذا اقتنع بشيء أصدر قراره الحاسم لِلْبَتِّ في الأمر دون انتظار وصول الأوامر والتوجيهات والوصايا من مرجعه الأعلى.

لقد كان خالد قائدًا «**مُبْتَدِعًا**»: يرى الموقف بعينه، ويفكر فيه بعقله، ولا يدَّخر وُسْعًا في تكوين قرار يناسب ذلك الموقف ويتفق والمصلحة العامة.. وحينذاك يقدم على تنفيذ قراره بعزم وإصرار.

والقائد «**المبتدع**» ينجح نجاحًا يناسب كفايته إذا كان مرجعه الأعلى لا يميل إلى السيطرة المركزية، بل يعطي كامل الحرية لمرءوسيه؛ كما نجح خالد في عمله مع أبي بكر الصديق مثلًا.

---

(١) الطبري (٥٩٢/٢)، وابن الأثير (١٥٧/٢)، وهذا العدد هو أعلى تقدير لعدد قوات المسلمين.

(٢) ابن الأثير (١٥٧/٢)، وقد يكون في ذلك مبالغة، ولكن من المؤكد أن الروم وحلفاءهم من العرب غير المسلمين كانوا أضعاف عدد العرب المسلمين.

ولكن القائد «**المبتدع**» لا يستطيع العمل بتاتًا إذا كان مرجعه الأعلى مركزي السيطرة؛ مثل عمر بن الخطاب، ولعل أسباب تقدم خالد عند أبي بكر هي نفس أسباب عزله عند عمر.

❑ ومن أمثلة تحمله المسئولية:

سيره حين فرغ من بني أسد إلى مالك بن نويرة في «**البُطاح**»، فتمسك الأنصار بحرفية أوامر الخليفة، ولكن خالدًا أصرَّ على المسير[1].

وفي أعقاب يوم «**اليمامة**» بعد إبرام الصلح بين خالد وبني حنيفة ورد كتاب أبي بكر إلى خالد أن يقتل كل محتلم، ولكن خالدًا وَفَّى بعهده ولم يغدر[2]، مُتَحَمِّلًا بذلك المسئولية على عاتقه واثقًا من أن أبا بكر الصديق كان يعمل نفس عمله لو كان في نفس موقعه.

ولعله أغرق كثيرًا في تحمل المسئولية عندما ترك جيشه في العراق بعد انتصاره على الروم وحلفائهم في معركة «**الفِراض**»؛ ليؤدي فريضة الحج دون أن يأخذ موافقة أبي بكر؛ لذلك عاتبه أبو بكر على هذه المخالفة الصريحة[3]، ولكن عذر خالد هو أنه ذهب للحج سرًّا، في وقت لا خطر فيه على قواته، وأظهر أنه مع ساقة جيشه في طريقها من «**الفراض**» إلى «**الحيرة**»، وفعلًا وصل خالد «**الحيرة**» بعد عودته من الحج مع صاحب الساقة[4]، ولم يتأخر لحظة واحدة عن موعد وصول الساقة إلى «**الحيرة**»؛ لذلك لم يترك غيابه عن جيشه أثرًا سيئًا على الموقف العسكري.

---

(١) الطبري (٢/٥٠١)، وابن الأثير (٢/١٣٦).
(٢) الطبري (٢/٥١٨)، وابن الأثير (٢/١٤٠).
(٣) الطبري (٢/٥٨٤)، وابن الأثير (٢/١٥٢).
(٤) الطبري (٢/٥٨٣)، وهو اعتيادًا؛ كما هو دأبه يسير دائمًا مع الساقة عند العودة وفي المقدمة عند التقدم.

ولم يكن خالد يتحمل المسئولية كاملة في أمور القتال فحسب، بل كان يتحملها في أمور المال أيضًا؛ فلما كتب إليه أبو بكر بذلك؛ أجابه خالد: «**إما أن تدعني وعملي، وإلا فشأنك وعملك**»[١]. ولما تولى عمر، كتب إلى خالد: «**ألَّا تعطي شاةً ولا بعيرًا إلا بأمري**»؛ فكتب إليه خالد ما كتب إلى أبي بكر؛ فقال عمر: «**ما صدقتُ اللهَ إن كنتُ أشرتُ على أبي بكر بأمر فلم أنفذه**»؛ فعزله!! ثم كان يدعوه إلى العمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما يشاء[٢]؛ فيأبى عمر.

إن تحملَ خالدٍ المسئوليةَ الكاملةَ حَالَ بينه وبين الاشتغال بإمرة عمر المباشرة، ولكنه اشتغل بإمرة أبي عبيدة بن الجراح الذي كان - كأبي بكر - يعطي لمرءوسيه الحرية الكاملة؛ وبذلك فضل خالد أن يعمل قائدًا مرءوسًا وله ملء الحرية في تحمل مسئوليته كاملة على أن يعمل قائدًا عامًّا ولا حرية له في تحمل المسئولية!!

رابعًا: ثبات النفس:

كثير من الذين يظهرون بمظهر العزم والقوّة في أوقات الرخاء والدَّعَةِ ينهارون انهيارًا عجيبًا في أوقات الشدَّة والعسر؛ فهم جبابرةٌ عتاةٌ عند النصر، ضعفاءُ مساكينُ عند الاندحار؛ فهؤلاء يمتلكون نفسيات تتبدل بين الانهيار في حالة الهزيمة والطغيان في حالة الفوز.

إن نفسية خالد لا تتبدل في حالتي الاندحار والنصر؛ إذ كان مسيطرًا على أعصابه سيطرة تامة في أشدِّ المواقف حرجًا من جهة وفي أكثر الأوقات تفاؤلًا من جهة أخرى.

لم يكن سهلًا موقفُ خالدٍ عند اندحار مقدِّمة المسلمين التي كان يقودها يوم «**حنين**»[٣]، ولكنه ضبط أعصابه؛ فَعَادَ وَعَادَ رجالُهُ إلى القتال بعد صمود النبي ﷺ

---

(١) الإصابة (٢/٩٩).

(٢) الإصابة (٢/١٠٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٥٠)، والأغاني (١٥/٢٥).

يواجه تيار المشركين الجارف؛ فكان النصر النهائي للمسلمين.

ولم يكن سهلًا موقفُهُ في أعقاب معركة **«مؤتة»**[١] بعد مقتل قادة المسلمين واستشهاد كثير من رجاله، ولكنه قاد المسلمين إلى ساحة النجاة؛ ليعود بهم ثانية إلى ساحات النصر في **«اليرموك»**.

ولقد سيطر على أعصابه حين استقدمه أبو بكر الصديق إلى المدينة المنورة؛ ليحاسبه عن قضية مقتل مالك بن نويرة، حين استفزه عمر بن الخطاب بكلمات قاسية عند دخوله المسجد لمواجهته أبي بكر، فأمسك خالد ولم يعترض، فلما تجاوز عنه أبو بكر آنَ له أن يرد على عمر، ولكن عمر في هذه المرة أمسك ولم يقل شيئًا[٢].

وقد سيطر على أعصابه حين قدم صاحب البريد؛ ليخبره بموت أبي بكر الصديق وعزله عن القيادة العامة وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه، وكان ذلك في أحرج أوقات معركة **«اليرموك»** الحاسمة[٣]؛ إذ قاد المعركة حتى نهايتها الموفقة وكأن شيئًا لم يحدث!!

لم تتبدل نفسيته في حالة الاندحار، ولم تتبدل نفسيته في حالة النصر، وبقيت نفسيته لا تتبدل بعد عزله؛ إذ كان يعتبر نفسه دائمًا أصغر من جندي وأكبر من قائد؛ فهي هي نفسه لا تتبدل في السراء ولا في الضراء، ولا تبدلها المناصبُ والرتبُ؛ لأنها أقوى من الأحداث والملمات، وأرفع من المناصب والرتب.

خامسا: بُعْدُ النظر:

كان خالد يفكر في الاحتمالات القريبة والبعيدة التي يمكن أن ينفِّذها العدو، وَيُدْخِلُ في حسابه أسوأ الاحتمالات التي يمكن أن يصادفها قبل القتال وفي أثنائه

---

(١) سيرة ابن هشام (٤٣٥/٣)، وجوامع السيرة ص (٢٢٢)، وطبقات ابن سعد (٢٥٣/٤).

(٢) الطبري (٥٠٤/٢)، وابن الأثير (١٣٧/٢).

(٣) الطبري (٥٩٥/٢).

وبعده، ويُعدُّ - سَلَفًا - الخطط المناسبة لكل ما يتوقعه من أعمال عدوِّه؛ حتى يمكن وضع تلك الخطط - عِنْدَ الْحَاجَةِ - في موضع التنفيذ دون تردد ولا ارتباك.

كان خالد لا يسير إلا في تعبية، لا يبيت إلا على تعبية؛ لأنه كان يُدْخِلُ في حسابه دائمًا احتمالَ مصادمةِ العدوِّ لقواته في أي وقت؛ وعند ذاك تكون قطعاته على استعداد لخوض المعركة من غير أن تخشى مباغتة العدو لها ومن غير أن تُضَيِّعَ الوقت سُدًى.

وصلت قوات خالد «**أُلَّيس**»، فوجدت القوات الفارسية تتناول طعامها، فعاجلت الفرس بالقتال وانتصرت عليهم، وكان الفضل في انتصار المسلمين سَبْقَ نَظَرِ خالدٍ في مسيره دائمًا على تعبية؛ فهو دائمًا حاضر للقتال.

وفي معركة «**الفِراض**» قال قائد الروم لخالد: «**إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم**»؛ فقال خالد: «**اعبروا**»[١] ... ذلك لأنه سَبَقَ النَّظَرَ وَقَدَّرَ ما يحتمل أن يؤدي إليه عبوره من محاذير، ولم يفسح المجال للعاطفة أن تتدخل في القضايا العسكرية، تلك القضايا التي يؤدي الإهمال في تقدير نتائجها إلى الاندحار وإلى إزهاق الأرواح دون جدوى.

لقد كان خالد يتمتع بمزيةِ سَبْقِ النَّظَرِ بشكل مدهش حقًّا، وما أصدق عمرو بن العاص حين وصفه بقوله: «**له أناة القطاة، ووثوب الأسد!!**»[٢].

سادسًا: معرفة النفسيات والقابليات:

كان خالد يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم؛ لأنه كان يقضي بينهم أكثر أوقاته، ويعيش معهم أكثر مما يعيش مع عائلته، ولأنه جَرَّبَهُمْ في المعارك وعرف كل فرد منهم على حقيقته بالأعمال لا بالأقوال.

---

(١) الطبري (٢/٥٨٢)، وابن الأثير (٢/١٥٢).

(٢) اليعقوبي (٢/١٠٨).

لقد كان يتمنى أن يقاتل مع سرية من المهاجرين[١]؛ لأنه يعرف أنهم يقاتلون حريصين على الشهادة حرصَ غيرهم على الحياة، وكان يريد أن يستأثر بصحابة رسول الله ﷺ على المثنى بن حارثة الشيباني حين جاءه كتاب أبي بكر بالخروج من العراق إلى أرض الشام لولا إصرار المثنى على إنفاذ أمر أبي بكر بقسمة قوات المسلمين بالتساوي بينهما[٢]؛ ذلك لأن خالدًا عرف بتجربته أن الصحابة كانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان راسخين، وأن أمثالهم من ذوي العقيدة هم السند القوي الأمين في الحرب لكل قائد حريص على إحراز النصر المبين.

وفي معركة «**اليرموك**» اختار خالدٌ مِئَةً من أبطال المسلمين[٣]؛ ليكونوا الفدائيين أو القوة الضاربة الأولى التي تصادم الروم، ولم يكن اختيارهم إلا عن معرفة تامة بنفسياتهم وقابلياتهم.

وفي معركة فتح «**دمشق**» اختار خالد جماعة من المغاوير من بين رجاله، وألقى على عاتقهم مهمة تسلق سور المدينة، والقضاء على حراس أبوابها، وفتح تلك الأبواب للمسلمين[٤]، ولم يكن من السهل تكليف أي رجل بمثل هذا الواجب البطولي بدون معرفة دقيقة لقابلياته في القتال.

لقد كان خالد يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم عن خبرة عملية طويلة؛ كما كان رجاله يعرفون نفسيته وقابلياته عن خبرة مماثلة أيضًا؛ إذ ليس كالشدائد مَحَكٌّ لاختبار الرجال.

سابعًا: الثقة المتبادلة:

كان خالد موضع ثقة النبي ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة

---

(١) الإصابة (٢/٩٩).
(٢) الطبري (٢/٦٠٥).
(٣) فتوح الشام، للواقدي (١/١٢٠).
(٤) الطبري (٢/٦٢٧)، وابن الأثير (٢/١٦٥).

بن الجراح، وهؤلاء هم الذين عمل خالد بإمرتهم بعد إسلامه.

ولعل هناك من يظن أن خالدًا لم يكن موضع ثقة عمر، ولكن الحقيقة هي أن عمر كان لا يشك أبدًا في كفاية قيادة خالد، ولكنه عزله؛ لمبالغة الناس بالثقة به، ومبالغة خالد بالثقة بنفسه؛ وحسبنا أن نتذكر قولة عمر في خالد حين بلغه أعمال خالد في «**قنسرين**»: «**أَمَّرَ خالد نفسه، يرحم اللّه أبا بكر؛ هو كان أعلم بالرجال مني!!**»(١).

وكان خالد من جانبه يبادل مرجعه الأعلى ثقة بثقة؛ فقد كان يثق بالرسول ﷺ رسولًا وقائدًا ثقةً لا مزيد عليها، وكان يثق بأبي بكر الصديق، ويثق بعمر الفاروق؛ قال خالد لأبي الدرداء عن عمر: «**واللهِ، يا أبا الدرداء، لئن مات عمر لترين أمورًا تنكرها**»(٢)، ولما حضرت خالدًا الوفاةُ جعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر(٣).

وكان خالد يقول عن أبي عبيدة: «**بعث عليكم أمين هذه الأمة**»(٤).

وكان خالد يثق بنفسه ويثق برجاله ثقة لا حدود لها، وقد بلغ من ثقته بنفسه وبرجاله أنه نزل على غير ماء في معركة «**كاظمة**»، ثم أمر مناديه فنادى: «**جالدوهم على الماء؛ فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين**»(٥).

لقد اصطلح الناس عليه في أعقاب معركة «**مؤتة**»(٦)، وكان بينهم بعض كبار المهاجرين والأنصار.

ولما عزم على التفويز برجاله عبر الصحراء القاحلة الخالية من الماء ـ والتي لم

(١) الطبري (٣/٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩١).
(٢) ابن عساكر ص (٧١٢).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٧)، والإصابة (٢/١٠٠)، وأُسْد الغابة (٢/٩٦).
(٤) الإصابة (٢/٩٩).
(٥) الطبري (٢/٥٥٥).
(٦) سيرة ابن هشام (٣/٤٣٥)، واليعقوبي (٢/٤٩).

يقطعها قائد قبل خالد ـ بقوات جسيمة[١]، قالوا له: «**أنت رجل قد جمع الله لك الخير، فشأنك**»[٢].

وليس من السهل أن يثق الرجال بقائدهم، وليس من السهل أن يستحوذ القائد على ثقة رجاله به؛ فالرجال يريدون من قائدهم: أن يدافع عنهم ويحميهم من الأخطار، وألا يستأثر بالراحة والدَّعَةِ والمال دونهم، وألا يوقعهم في المهالك دون مبرر، وأن يتحمل المسئولية كاملة ولا يتملص منها ويلقيها على عواتق الآخرين، وأن يكون شجاعًا مقدامًا يَبُزُّهُمْ شجاعةً وإقدامًا في الحرب، رءوفًا رحيمًا يغمرهم بشفقته وحنانه في السلم.

لقد وَجَدَ رجالُ خالد في قائدهم كل هذه المزايا وأكثر؛ فلا عجب أن يُولُوهُ ثقتهم حتى يخاف عمر أن يفتتن به الناس[٣]، وأن يفرحوا بالقتال تحت رايته[٤] وهم أشد ما يكونون اطمئنانًا وأمنًا.

وليس من السهل أن يثق القائد برجاله؛ فالقائد يريد من رجاله أن يطيعوه وينفِّذوا أوامره برحابة صدر، وأن يجتازوا العقبات والأخطار بلا تردُّد ولا خوف، وأن يبذلوا كل جهودهم لتحقيق النصر، وأن يُقْدِمُوا بشجاعة وتضحية وعزم لنيل الظفر.

لقد وجد خالد في رجاله كل هذه المزايا وأكثر؛ فلا عجب أن يبادلهم ثقة بثقة؛ فيصفهم في كتابه إلى «**هرمز**» قائد كسرى بقوله: «... **فقد جئتك بقوم يحبُّون الموت؛ كما تحبُّون الحياة**»[٥].

لقد كان خالد يبادل مرجعه الأعلى ثقة بثقة؛ يثقون به ويثق بهم، كما كان

---

(١) ولم يقطعها قائد بعده بقوات جسيمة.
(٢) الطبري (٢/٦٠٣)، وابن الأثير (٢/١٥٦).
(٣) ابن الأثير (٢/٢٠٧).
(٤) الطبري (٢/٥٩١).
(٥) الطبري (٢/٥٥٤).

يثق بنفسه، ويثق برجاله، ويثق رجاله به.

لقد كان موضع ثقة الجميع؛ لأنه كان أهلًا للثقة.

ثامنًا: المحبَّة المتبادلة:

هناك فرق ظاهر بين الثقة والمحبة؛ فقد تثق بكفاية إنسان وقابليته على إنجاز واجب ما، ولكنك لا تحبه، وقد تحب إنسانًا ما، ولكنك لا تثق بكفايته أو لَا تثق به من كافة النواحي.

فإذا اجتمعت الثقة والمحبة في إنسان؛ فكان موضع ثقة الناس ومحبَّتهم؛ فإن نجاح هذا الإنسان في الأعمال العامة ـ ومنها الأعمال العسكرية ـ مضمون إلى حدٍّ بعيدٍ.

لقد كانت المحبة متبادلة بين خالد ورجاله، وقد ظهرت هذه المحبة في معارك خالد؛ ويكفي أن نتذكر كيف بَادَرَ القعقاعُ بنُ عمرو التميميُّ وجماعتُهُ إلى إنقاذ خالد من غدر «**هرمز**» وجماعته في معركة «**ذات السلاسل**»[1]؟! وكيف كان أصحاب خالد يسارعون إلى تنفيذ أوامره بكل حرص وإقدام؟!

كما ظهر حب الناس لخالد وتقديرهم له بعد موته؛ حيث لم يبق له سلطة ولا نفوذ شخصي ليخشاه الناس ويرجوه؛ فرثاه عمر بقوله: «**قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق**»[2]؛ كما رثاه كثير من الصحابة وكثير من الشعراء.

أما حبُّ خالد لرجاله فيكفي أن نذكر أنه كان يستأثر دونهم بالمخاطر، ويؤثرهم بالخير والأمان، ويحب لهم ما يحبه لنفسه، ولكنَّ حُبَّهُ لهم كان حبَّ القائد لرجاله فحسب؛ إذ لا نعرف أنه بكى لمصرع شهيد ولا الْتَاعَ لمقتل مجاهد؛ لأن البكاء واللوعة لا يجديان شيئًا!!

لقد كان حبه لرجاله يزداد كلما ازداد إقدامهم وبلاؤهم؛ فالشجاع المقدام هو

(١) الطبري (٢/٥٥٥).

(٢) ابن عساكر ص (٧١٤).

الذي يحظى بحب خالد ورعايته، ولو كان أبعد الأبعدين عنه قرابةً ونسبًا، والجبان الرعديد لا مكان له في قلب خالد، ولو كان أقرب الأقربين إليه قرابةً ونسبًا؛ لذلك اخْتُصَّ خالد ببعض الرجال؛ صاحبوه في حروب أهل الردة، ورافقوه إلى العراق، وقاتلوا معه في الشام، فلما عادوا إلى العراق، نسوا الفخر إلا فخرهم بأيامهم مع خالد[1].

لقد كان خالد يحرص كل الحرص على بقائهم إلى جانبه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وأكثر هؤلاء أصبحوا معارفه وأحبابه في ساحات القتال؛ فكانت محبتهم المتبادلة محبة رفقاء السلاح في الضراء لا محبة رفقاء اللهو في السراء.

لقد كانت علاقة خالد برجاله علاقة حياة أو موت، لا علاقة قصعة وثريد!!

تاسعًا: الشخصية القوية النافذة:

لم تكن شخصية خالد قوية نافذة فحسب؛ بل كانت شخصية مستحوذة كاسحة أيضًا.

لقد ذهب خالد من المدينة إلى «**مؤتة**» جنديًّا بسيطًا، ولكنه عاد إلى المدينة قائدًا مُنْتَخَبًا؛ وليس من شك أن قوة شخصية خالد كانت من عوامل تسليمه مقاليد قيادة جيش المسلمين في «**مؤتة**».

ولما كتب عمر إلى أبي عبيدة يأمره أن يقيم خالدًا، ويعقله بعمامته، ويعزله عن عمله، لم يستطع أبو عبيدة أن ينفذ أمر عمر في خالد بنفسه؛ فجلس على المنبر ساكتًا لا يقول شيئًا، مع أن أبا عبيدة كان يومها قائدًا عامًّا في الشام، وكان خالد وغير خالد في أرض الشام بإمرته. وما كان إقدامُ بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ على تنفيذ أمر الخليفة دون غيره؛ إلا لأنه كان موضع ثقة الناس واحترامهم وإجلالهم لموضعه من النبي ﷺ ولماضيه المجيد في خدمة الإسلام.

(١) الطبري (٥٨٤/٢)، حول فخر أهل الأيام من أهل الكوفة بأيامهم مع خالد وعدم ذكر غيرها من الأيام احتقارًا لها واستصغارًا لشأنها.

وبقي خالدٌ مُتَحَيِّرًا بعد هذا الحادثِ، لا يدري أمعزولٌ هو أم غيرُ معزولٍ؟! ولا يُعْلِمُهُ أبو عبيدة بعزله تكرمة وتفخمة[١]؛ فكتب عمر[٢] إلى خالد بالإقبال إليه، فلما قدم على عمر، شَكَاهُ، وقال له: «**قد شكوتك إلى المسلمين، فباللَّه إنك في أمري لغير مجمل**»؛ فقال له عمر: «**يا خالد، واللَّه إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب**».

فأي شخصية نافذة قوية تلك التي يقدِّرها أبو عبيدة بن الجراح كلَّ هذا التقدير ويحترمها كل هذا الاحترام؟!.

وأية شخصية مستحوذة كاسحة تلك التي يقول صاحبها لمثل عمر القوي المهاب: «**قد شكوتك إلى المسلمين...**»؛ فلا يجد عمر الذي لم يترك له الحق صديقًا ـ كما يقول هو عن نفسه ـ أمامه إلا أن يسترضيه بأسلوب هينٍّ لينٍّ رقيق؟!.

تلك هي شخصية سيف اللَّه خالد بن الوليد.

عاشرًا: الماضي المجيد:

عرفنا نسب خالد، وعرفنا أنه من أشرف بطون قريش وابن عظيم مكة المكرمة، وأمه أخت ميمونة أم المؤمنين؛ فماضيه من هذه الناحية مشرِّفٌ جدًّا.

وقد ترعرع في بيت كريم، له تقاليده الكريمة في تربية أولاده على الصدق والاستقامة والرجولة؛ فنشأ بعيدًا عن الفحشاء والمنكر والبغي، متفرِّغًا لإشباع هواياته المفضَّلة في التدريب العسكري وممارسة قيادة الفرسان؛ فتولى الأعنة والقبة وهو لا يزال في عنفوان شبابه متقدمًا على الكثيرين من بني مخزوم من إخوته وبني عمومته، وكثير منهم أكبر سنًّا من خالد ـ وللسنِّ عند العرب قيمة كبيرة في تولي المناصب المهمة ـ؛ وذلك لحسن سيرته وسمعته بين الناس بالإضافة إلى كفايته العسكرية.

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧)، وفي البلاذري ص (١٢٢): «أن ولاية أبي عبيدة الشام أتته والناس محاصرون دمشق، فكتمها خالد أيامًا؛ لأن خالدًا كان أمير الناس في الحرب...».

(٢) ابن الأثير (٢/٢٠٧).

ولو لم يكن ماضيه قبل الإسلام مشرّفًا لما خَصَّهُ النبي ﷺ بالسؤال عنه حين كان النبي ﷺ بمكة أيام عمرة القضاء، فقال: «**أين خالد؟!.. ما مثل خالد من جهل الإسلام...**» إلخ[١]، فلما أسلم، أصبحت مكانته مرموقة بين المسلمين وعند الرسول - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَتَسْلِيمُهُ عَلَيْهِ. «**ما كان رسول اللَّه**ﷺ يوم أسلمتُ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما يجزئه»[٢]؛ كما ذكر خالد عن نفسه، وكما نلمسه فعلًا في التاريخ.

ذلك يدل بوضوح على أن ماضيه كان ناصعًا مجيدًا في أيامه الأولى قبل الإسلام، وفي أيامه الأولى بعد الإسلام.

وابتدأ خالد يضيف إلى هذا الماضي النظيف لبنةً بعد لبنةٍ من الشرف الرفيع بانتصاراته العسكرية؛ فأصبح ماضيه يعلو بحاضره ولا يزال يعلو كل يوم، حتى بلغ درجة من الرفعة والسمو يضطر معها الذي يريد أن يرى قمتها - إذا كان حديد البصر - أن يضع يديه على غطاء رأسه من شدة علو قمة ذلك البناء.

يكفي أن نذكر ماضيه العسكري فقط: فقد شهد في الجاهلية ثلاث معارك ضد المسلمين، وشهد في عهد النبي ﷺ اثنتي عشرة معركة، وشهد في حروب أهل الردة ثلاث معارك؛ هي أهم وأخطر وأكبر معارك أهل الردة، وقاتل الفرس وحلفاءهم في خمس عشرة معركة، وَخَاضَ في طريقه من العراق إلى أرض الشام غمارَ أربع معارك، وَقَادَ سبع معارك في أرض الشام؛ فكان عدد ما شهده من معارك في حياته العسكرية أربعة وأربعين مشهدًا، كانت نتائجها باهرة جدًّا في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب المسلمين.

فأي قائد قديم أو حديث شهد هذا العدد الضخم من المعارك في فترة قصيرة جدًّا من عمر الزمن وعمر الرجال، دون أن يُهْزَمَ له لواء أو تنكص له راية؟!

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٢)، و(٧/٣٩٤).

وأي قائد قديم أو حديث بقيت آثار فتوحاته من اليمن جنوبًا إلى أرض العراق والشام شمالًا كل هذه القرون الطوال؟!

ذلك هو ماضي خالد، يزداد بحاضره كل يوم علوًّا.

لقد جمع المجد من أطرافه: مجد المنبت الطيب، ومجد النشأة الكريمة، ومجد التاريخ؛ فلا عجب أن يكون أكبر مفاخر أصحاب الأيام هو قولهم: «**قاتلنا تحت لواء خالد**»؛ ليعرف الناس أنهم أبلوا في خدمة الإسلام وفي خدمة الفتح الإسلامي أعظم البلاء.

❑ أحد عشر: معرفة وتطبيق مبادئ الحرب والقيادة:

نُحِيلُ القارئَ إلى ما كتبه اللواءُ الركنُ محمود شيت خطاب[1]؛ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

«مبادئ الحرب هي الجواهر التي تُنْشِئُ في القائد السجية الصحيحة في تصرفاته في الحرب، وهي التي يتكون منها مسلك القائد في أعماله بصورة طبيعية وغير متكلفة.

وكان خالد يعرف هذه المبادئ بالفطرة السليمة التي تدلُّ على استعداده الفطري الممتاز للقيادة، وقد طبق خالد هذه المبادئ في معاركه كلها؛ مما كان له أثر حاسم في انتصاراته.

١ـ اختيار المقصد وإدامته[2]:

كان خالد يختار مقصده بعد تفكير عميق، ويعمل جاهدًا في سبيل تنفيذه،

---

(١) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٢١٠ ـ ٢٢٨).

(٢) اختيار المقصد وإدامته: في كل حركة حربية من اللازم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح. إن المقصد النهائي هو تحطيم إرادة العدو على القتال، ويجب أن توجه كل صفحة من الحرب وكل صفحة منفردة نحو هذا المقصد الأعلى، ولكن لكل من هذه الصفحات مقصد محدود يجب أن يعرف بوضوح.

ولا يفكر أبدًا في التحوُّل عنه قبل الحصول عليه.

وكان مقصده في كل معاركه أن يقضي على قائد عَدُوِّهِ؛ حتى يبقى رجال ذلك القائد قطيعًا بدون راعٍ؛ فيفرون أو يستسلمون.

لقد استطاع خالد فِعْلًا في أكثر معاركه أن يقضي على قائد القوات المعادية له؛ إما بالمبارزة، أو بإدامة زخم الهجوم على مقره؛ حتى يقتل أو يضطر إلى الفرار.

وفي معركة «**اليرموك**» الحاسمة كان مقصد خالد أن يحرم مشاة الروم من إسناد فرسانهم(١)؛ لذلك هجم بالقلب متوخيًا فَصْلَ خيل الروم عن مشاتهم، ثم أفسح المجال لخيل الروم للخروج من مكانها الذي تقاتل فيه بعد التضييق بشدة عليها؛ فخرجت تلك الخيل تشتد في الصحراء؛ وفي ذلك الوقت بقي المشاة وحدهم؛ فَسَهُلَ على خالد القضاءُ عليهم.

هذا مثال عن اختيار المقصد وإدامته، ولعل مقصد خالد في كل معركة خاضها كان ظاهرًا بوضوح للعيان؛ لذلك كان النصر حليف خالد في كلِّ حروبه.

٢ـ التعرُّض:

التعرُّض: هو الهجوم على العدو لسحقه، ولا يتم الحصول على النصر إلا بالتعرُّض وحده.

كانت معاركُ خالدٍ كلها تعرضيةً؛ إذ لم يتخذ في كل حياته العسكرية خطةً دفاعيةً واحدةً، ولم يَخُضْ معركةً دفاعيةً واحدةً؛ فكان بحق قائدًا تعرضيًّا مشبعًا بروح التعرض.

ومن النادر جدًّا أن تجد في كل أدوار التاريخ قائدًا لم تضطره الظروف في وقت من الأوقات أن يمارس خطة دفاعية ثم يستأنف التعرض من بعدها، أما خالد فكان

(١) الإسناد في الاصطلاح العسكري: الرمي بالأسلحة لمعاونة القوة الرئيسية على تحقيق أهدافها؛ يُقال: إسناد المدفعية، وإسناد الرشاشات، والإسناد الجوي. **انظر**: المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم، للواء محمود شيت خطاب ـ دار الفتح ـ بيروت.

دائمًا في تعرضٍ مستمرٍ، وكانت لعبقريته في القيادة أثرٌ حاسمٌ على اتخاذه هذا الموقف دائمًا، ولست أشك في أن غير خالد ما كان لِيُقْدِمَ على التعرض في مثل فواق العدو بالعَدَدِ والعُدَدِ فواقًا ساحقًا على قوات خالد؛ إذ كان لا بُدَّ له أن يتخذ موقف المدافع في كثير من تلك المعارك انتظارًا للإمدادات، ولكن خالدًا لم يفكر أبدًا ـ حتى مجرد تفكير ـ في اتخاذ موقف المدافع.

لقد كان لتعرضِ خالدٍ أثرٌ في القضاء المبرم على فتنة بني حنيفة في اليمامة، بعد أن فشل قائدان من قَبْلِهِ في القضاء عليها، وبعد أن نكبت بنو حنيفة هذين القائدين[1]؛ فارتفعت معنوياتها وزادت قوتها قوة.

وكان لتعرضِ خالدٍ أثرٌ حاسمٌ في فتح «**دومة الجندل**» بعد أن استعصت على عياض بن غنم، فَأَشْجَى أَهْلُهَا عياضًا وشجوا به[2] مدة طويلة كانت كافية ليفتح خالد خلالها من جنوب «**البصرة**» إلى شمال «**الفلوجة**»[3] من أرض العراق.

وكان لتعرضِ خالدٍ أثرٌ حاسمٌ في انتصار المسلمين على الروم في «**اليرموك**» بعد أن كان المسلمون متضايقين هناك[4].

وكان لتعرُّضِ خالدٍ أثرٌ في فتح «**دمشق**»؛ إذ لولا يقظةُ خالدٍ وتحفزُّهُ، لقاومت تلك المدينةُ المحاصَرَةُ أمدًا طويلًا.

لقد كان خالد يحمل طاقات تعرضيَّة لا تنضب، وكان مجرد وجوده في جيش من جيوش المسلمين يجعل ذلك الجيش متحفزًا أبدًا للتعرُّض، ولم يكن

---

(١) الطبري (٢/٥٠٥).

(٢) الطبري (٢/٥٧٨).

(٣) الفلوجة: الأنبار.

(٤) الطبري (٥٩٢)، **وانظر**: الطبري (٣/١٥٣)، واين الأثير (٢/٢٩٥)، فعندما تحشد الروم لاستعادة (حمص) من أيدي المسلمين، أقبل خالد من قنسرين إلى أبي عبيدة، فاستشاره أبو عبيدة؛ فأشار عليه بالتعرض وأشار غيره بالتحصين ومكاتبة عمر، فأطاعهم وعصى خالدًا، ثم أشار عليه ثانية بالخروج إلى الروم، فلما فعل أبو عبيدة فتح الله عليه.

خالد يحرص كل الحرص على التقدم والمبيت في تعبية كاملة - على الرغم من صعوبة حركة القطعات وهي متخذة تشكيلات القتال - إلا ليكون حاضرًا باستمرار للتعرُّض على عدوه في كل وقت وبكل مكان.

٣- المباغتة:

كان خالدٌ مُشَبَّعًا بروح «**المباغتة**»؛ كما كان مُشَبَّعًا بروح «**التعرض**»، وليس في التاريخ قائد برز بين القادة في إنجازاته العسكرية وفي انتصاراته إلا وهو مُشَبَّعٌ بروح المباغتة وبروح التعرض؛ لأن هذين المبدأين هما أهم مبادئ الحرب كلها، وهما أهم أسباب الانتصار في الحروب.

فما المباغتة؟

المباغتة: هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعدًّا له.

والكتمانُ من أهم الوسائل التي تؤدي للمباغتة، والسرعةُ في التنقل لإنزال ضربة لا يتوقعها العدو في زمان لا يتوقعه أو في مكان لا يتوقعه، واستخدامُ الأرض الصعبة، وعبورُ الأراضي الصعبة، واستخدامُ أسلحة جديدة غير متوقعة أو أساليب تعبوية جديدة غير متوقعة؛ كلها وسائلُ تؤدي للمباغتة أيضًا.

لقد طبق خالد في حروبه كل هذه الوسائل؛ فباغت عدوه في كل معركة خاضها - تَقْرِيبًا - بوسيلة أو أكثر من هذه الوسائل؛ فكان ذلك من أهم أسباب انتصاراته، حتى لَيُمْكِن اعتبار معاركه نماذج رائعة لتطبيق وسائل المباغتة.

وفي غزوة «**مُؤْتة**» كَتَمَ استعداداته للانسحاب، وأظهر ساقةَ المسلمين بمظهر القوة الجسيمة؛ وذلك بنشرها في ساحة كبيرة من الأرض وبما أحدثته من جَلَبَةٍ وأصوات، فلما أنجز انسحاب «**القسم الأكبر**» من قوات المسلمين وأصبحت في مأمن من مطاردة الروم لها، سَحَبَ الساقة بسرعة خاطفة أيضًا إلى منطقة أمينة؛ وبذلك خَلَّصَ المسلمين من خطر الفناء.

ولما تحرّك نحو «**طليحة**»، أظهر أنه اتَّجَهَ إلى منطقة «**طيئ**» لا إلى «**بزاخة**» منطقة

«**طليحة**»؛ وبذلك جعل «**طيئ**» تنفصل عن «**أسد**» قوم «**طليحة**» وتسرع إلى منطقتها؛ وبهذا ضَعُفَ «**طليحةُ**»، وَسَهُلَ على خالد القضاءُ عليه.

تلك أمثلة قليلة عن كتمان خالد لاستعداداته العسكرية ونواياه.

أما سرعة تنقل قطعاته من نقطة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر تمهيدًا لإنزال الضربة على موضع لا يتوقعه العدو، فقد كانت كل تنقلات خالد في كل معاركه تتسم بالسرعة الفائقة.

فقد أقام خالد في العراق ـ مَثَلًا ـ سنة وشهرين فقط؛ فتح خلالها من جنوب البصرة إلى «**الفراض**» على تخوم الشام والعراق، وأنقذ خلالها عياضًا في «**دُومة الجندل**»، ولا يمكن أن يتم كل ذلك في مثل هذا الوقت القصير تجاه مقاومة جيوش نظامية لإمبراطورية عريقة في المجد؛ كالإمبراطورية الفارسية، إلا بسرعة التنقل من مكان إلى مكان.

وهنا لا بد أن نذكر كيف قطع خالد الصحراء من «**قراقر**» إلى «**سوى**» في خمس ليال؛ مما جعل حاميات المدن والمواقع التي صادفته في طريقه بين العراق وأرض الشام تستسلم لقواته بعد قتال طفيف أو بدون قتال؛ لأنها لم تكن تتوقع أبدًا أن تلاقي قوة جسيمة من المسلمين تظهر عليهم من هذا الاتجاه في هذا الوقت بالذات.

وعبورُ خالدٍ للصحراء من الطريق الخطر الذي اختاره مباغتةٌ فذَّةٌ في التاريخ العسكري لا أعرف لها مَثِيلًا، ولست أعتقد أن عبور «**هانيبال**» للألب، وعبور «**نابليون**» للألب أيضًا، ولا تفويز «**نابليون**» من صحراء سيناء، أو قطع الجيش البريطاني لهذه الصحراء في الحرب العالمية الأولى يمكن أن تعتبر شيئًا إلى جانب مغامرة خالد في تفويزه؛ لأن عبور الجبال أسهل بكثير من عبور الصحراء؛ لتيسر الماء في الجبال وعدم تيسره في الصحراء، ولأن صحراء سيناء فيها كثير من الآبار والأماكن المأهولة وعدم تيسر ذلك في الصحراء التي قطعها خالد؛ فكان نجاحُ خالدٍ في عبورِ الصحراءِ مباغتةً كاملةً للروم، لم يكونوا يتوقعونها بَتَاتًا.

أما استخدام خالد أساليب تعبوية جديدة: فقد اشتهر خالد بأن فكرته التعبوية متطورة باستمرار؛ فهو لا يكاد يقاتل بأسلوب تعبوي واحد في معركتين، بل هو يُبَدِّلُ أساليبه التعبوية في معاركه؛ فيحير عدوه، ولا يَدَعُ له مجالاً لمعرفة ما يطبقه في المعارك من أساليب.

قاتل خالد المسلمين في معركة «**أُحُد**» بأسلوبِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ[١]، وقاتل يوم «**الخندق**» بأسلوب الصفوف[٢]، وقاتل أهل الردة بأسلوب «**النظام الخماسي**»[٣]، وقاتل الفرس بأساليب متعددة: بأسلوب النظام الخماسي تارة، وبأسلوب وضع الكمائن بالإضافة إلى النظام الخماسي، وبأسلوب التقدم بأرتال متعددة، تجتمع في مكان معين وفي وقت معين لضرب العدو من جميع الجهات، وبأسلوب التقدم برتل واحد... إلخ.

وقاتل في «**اليرموك**» بأسلوب الكراديس[٤] بتعبيه لم تعهدها العرب من قبل[٥]،

---

(١) أسلوب الكر والفر: هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو، فإن صمد لهم العدو أو أحسوا بالضعف، نكصوا ثم أعادوا تنظيمهم وكروا، وهكذا يكرون ويفرون حتى يكتب لهم النصر أو الفشل. **انظر**: الرسول القائد ص (١٠٤) (الطبعة الثالثة).

(٢) القتال بأسلوب الصفوف: يكون بترتيب المقاتلين صفين أو أكثر على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلحين بالرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء. **راجع**: الرسول القائد ص (١٠٤)، (الطبعة الثالثة).

(٣) النظام الخماسي: ترتيب القوات لتكون محمية من الجهات الأربعة؛ وذلك بترتيب: ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة، ثم جعل القلب في الوسط. **راجع**: كتاب الجندية في الدولة العباسية، للمرحوم الرئيس الركن نعمان ثابت ص (٢٣٨).

(٤) أسلوب الكراديس: شَابَهَ للنظام الخماسي، غير أن تشكيلات النظام الخماسي وهي: «الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة والقلب» يتألف كل منها من عدد من الكراديس (الكتائب). **راجع**: مقال «جيش المسلمين في عهد بني أمية» في ص (٦٤٢) من «العدد الثاني ـ المجلد الرابع» من مجلة «المجمع العلمي العراقي» الصادرة بتاريخ (١٣٧٥ ـ ١٩٥٦م).

(٥) الطبري (٢/٥١٣)، وابن الأثير (٢/١٥٨).

وهكذا كان لخالد في كل يوم وفي كل معركة أسلوبٌ جديدٌ... وهو أول مَنْ قاتل بأسلوب الكراديس في الإسلام[1]، والحق أن خالدًا كان ماهرًا جدًّا في تعبية الجيوش، وتأمين حمايتها، وَزَجِّهِا في المعركة، واستخدام أجزائها المختلفة بتعاون وثيق في المحل اللازم وفي الوقت اللازم؛ وبذلك انتصر بفئته القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله.

لقد استخدم خالدٌ أساليبَ القتالِ كافة التي يمكن الحصول بها على المباغتة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان متيقظًا منتبهًا إلى حركات العدو ونياته حريصًا غاية الحرص على سلامة رجاله؛ لذلك استطاع أن يباغت عدوه دائمًا، ولم يستطع عدوه أن يباغته أبدًا.

عندما توجه خالد لقتال «**مسيلمة**»، باغت أعداءه، وجاء بالأسرى، وسألهم: متى سمعتم بنا؟ قالوا: «**ما سمعنا بك، وما شعرنا بك**».

٤ـ تحشيد القوة[2]:

كان خالد يُعِيْرُ مبدأ «**تحشيد القوة**» اهتمامه الكبير؛ لأنه كان يعلم أن عَدَدَ القوة وَعُدَدَهَا له أثرٌ كبير في إحراز النصر.

لقد عمل جاهدًا على فصل «**طيئ**» عن «**أسد**» قبل مهاجمته «**طليحة**»، وعمل على ضم هذه القبيلة إلى قواته؛ فكان لها أثرٌ ملموسٌ في قتال «**قيس**» حلفاء «**طليحة**»[3].

وقد ضَمَّ إليه رجال شرحبيل بن حسنة والمدد الذي قَدِمَ من المدينة المنورة قبل أن يقاتل مُسيلمة الكذاب في «**اليمامة**»؛ وبذلك أكمل تحشيد قوته قبل البدء

---

(١) ذكر ابن خلدون في «مقدمته» ص (٢٧٣): أن أول من أبطل الصف وصار إلى التعبية كراديس هو مروان بن الحكم. وهذا خطأ والصحيح هو ما ذكرناه أعلاه.

(٢) تحشيد القوة: هو حشد أعظم قوة أدبية وبدنية ومادية واستخدامها في الزمان والمكان الجازمين.

(٣) الطبري (٤٨٥/٢)، وابن الأثير (١٣٣/٢).

بالقتال[١].

وَضَمَّ إليه رجالَ المثنى بن حارثة الشيباني ورفقائه من القادة في العراق قبل أن يُنْشِبَ الحرب ضد الفرس في أرض الرافدين[٢].

وكان يحرص كل الحرص على أن يجمع أرتاله في مكان معين في وقت معين قبل أن يقوم بالهجوم على العدو؛ كما جرى ذلك في معركة «**ذات السلاسل**»، و«**المصيخ**»، و«**الثني**»، و«**الزميل**». ولم يبدأ بقتال الروم في «**اليرموك**» إلا بعد أن أكمل تحشيد قوات المسلمين هناك.

ولكنه كان لا يهتم بكثرة عدد رجاله اهتمامه بوجود عدد من المؤمنين الصادقين بين صفوف رجاله؛ أي أنه كان يهتم بـ «**النوعية**» أكثر من اهتمامه بـ «**الكمية**»؛ لذلك حَرَصَ أن يستصحب معه صحابة رسول اللَّه ﷺ الذين كانوا معه في العراق إلى الشام[٣]، وكان يتمنى أن يقاتل مع المهاجرين، ويفضلهم على غيرهم من الناس[٤].

إن خالدًا طبق مبدأ «**التحشد**» في كل معاركه، ولم يدخر وسعًا لتحشيد أكبر قوة مادية ومعنوية في كل معركة خَاضَهَا.

٥ـ الاقتصاد بالجهود[٥]:

رَاعَى خالد مبدأ «**الاقتصاد بالجهود**» في كل معاركه؛ فكانت قواته أقل بكثير

---

(١) الطبري (٢/٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) الطبري (٢/٥٥٤)، وابن الأثير (٢/١٤٧).

(٣) الطبري (٢/٦٠٥).

(٤) الإصابة (٢/٩٩).

(٥) الاقتصاد بالمجهود: هو استخدام أصغر قوة للأمن، أو لتحويل انتباه العدو إلى محل آخر، أو صد قوة معادية أكبر منها، مع بلوغ الغاية المتوخاة.

إن الاقتصاد بالمجهود يدل على الاستخدام المتوازن للقوة والتصرف الحكيم بجميع المواد لغرض الحصول على التحشد المؤثر في الزمان والمكان الحاسمين.

من قوات أعدائه، وكان يُعَوِّضُ عن قلة رجاله بأساليبه التعبوية الفذَّة وبفنه العسكري الممتاز.

كان دائمًا في الأمام قريبًا من مواطن الخطر؛ وذلك حتى يرى بعينيه حقيقة الموقف ويعمل فورًا على معالجته، دون أن يُكَبِّدَ قواته خسائر لا مبرر لها.

وكان يستأثر بالخطر دون رجاله؛ فيتربص بقائد جيش العدو؛ ليقضي عليه، أما إذا أقدم ذلك القائد على الظهور في ميدان البراز، فخالد حاضر لمبارزته وإنهاء الحساب معه.

لقد كانت شخصية خالد وقيادته العبقرية وشجاعته الشخصية هي العوامل الحاسمة للاقتصاد بالمجهود، وعدم تكبيد المسلمين خسائر بالأرواح، وإكمال ما يعانيه المسلمون من نقص في العدد والمعدات.

لقد كان خالد قوة هائلة تعوض عن كل نقص وتحمي من كل خطر.

٦- الأمن[١]:

طبق خالد مبدأ «**الأمن**» بشكل رائع يدعو إلى الإعجاب الشديد.

كان خالد لا يتحرك إلا على تعبية؛ ومعنى ذلك: أنه يُخْرِجُ مقدَّمةً ومجنبتين ومؤخرة لقوته؛ لتكون محمية من جميع الجهات.

وكان لا يبيت إلا على تعبية؛ ومعنى ذلك: أنه يؤمن حماية قواته من جميع الجهات أيضًا، ويكثر من الحراسات.

وكان لا ينام ولا ينيم؛ أي أنه كان يفتش بنفسه قطعات الحماية والحراس حتى يتأكد من قيامهم بواجباتهم بشكل ممتاز.

وكان لا يخفى عليه شيءٌ من أمر عَدُوِّهِ؛ ومعنى ذلك: أنه كان يُكْثِرُ من إرسال

---

(١) الأمن: هو توفير الحماية للقوة ولمواصلاتها؛ لوقايتها من المباغتة، ومنع العدو من الحصول على المعلومات.

العيون والأرصاد، ويقوم هو بنفسه بالاستطلاع الشخصي - كل ذلك -؛ ليحصل على المعلومات التفصيلية عن عدوه ويحرمه من الحصول على المعلومات عن قطعاته.

وطبق مبدأ «**الكتمان**» في كل حركاته؛ فَحَرَمَ العدو من معرفة نياته قبل وقت مناسب ليتخذ لإحباطها التدابير المناسبة.

تلك هي تدابير خالد الوقائية لسلامة رجاله وأمنهم؛ لذلك لم ينجح أعداؤه في محاولاتهم لمباغتة قواته، ونجح هو كثيرًا في مباغتة أعدائه.

إن تدابير خالد الأمنية من أروع أمثلة التاريخ العسكري للسهر على أمن وسلامة رجاله من مكائد الأعداء.

٧- المرونة[١]:

كانت لقوات خالد قابلية فائقة على التنقل من مكان إلى آخر بكفاية وسرعة؛ يكفي أن نذكر أنها نجحت في اختراق الصحراء من أصعب طرقها بأسرع وقت وبدون خسائر غير اعتيادية.

لقد امتاز خالد بمقدرته الفذة على غرس روح قابلية الحركة في رجاله وجعلهم يعملون بسرعة خارقة في مختلف الظروف والأحوال؛ ذلك لأن خالدًا كان يمتلك ذكاء لَمَّاحًا؛ يفكر بسرعة، ويقرر بسرعة، وينفذ بسرعة.

وكان قائدًا مرنًا في خُطَطِهِ؛ فهو لا ينفك يُعَدِّلُهَا بسرعة ودقة كلما ألجَأَتْهُ أحوال الموقف المتطور الذي لا يستقر على حال.

---

(١)المرونة: دلك المبدأ الذي كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية بمبدأ (قابلية الحركة)، ثم أصبح يسمى الآن مبدأ (المرونة)؛ ذلك لأن (قابلية الحركة) تدل على الحركة المادية، وهي صنعة نسبية لا يعبر عنها تعبيرًا صحيحًا إلا بالمقارنة مع قابلية حركة العدو.

أما (المرونة) فَتَعْنِي أكثر من ذلك؛ إنها لا تضمن قوة الحركة فحسب، بل قوة العمل السريع، كذلك على القائد أن يكون مرن الفكر، وعليه أن يطبق تلك المرونة عند وضع الخطط لحملته، وأن تكون خططه بشكل يمكنه من أن يعدل سريعًا حركات قواته حين تضطره الظروف غير المتوقعة.

لم يكن يدور بِخُلْدِ قائد المشركين العام في «**أُحُد**» أن بإمكانه ضَرْبَ المسلمين من الخلف، ولكن خالدًا انتهز فرصة انسحاب رماة المسلمين؛ فضرب قوات المسلمين من الخلف، وطوقهم بفرسانه دون أن ينتظر أوامر القائد العام.

وكانت خطته أن يقضي على فتنة «**طليحة**» بأسرع وقت ممكن، ولكنه توقف عن الحركة ثلاثة أيام؛ لكي تستطيع «**طيئ**» أن تسحب رجالها من إسناد «**طليحة**»(١).

ولما عبأ خالد جيشه للقتال، قالت «**طيئ**»: «نحن نكفيك قيسًا؛ فإن بني أسد حلفاؤنا!!» فقال خالد: «قاتلوا أَيَّ الطائفتين شئتم»؛ فاعترض عدي بن حاتم على قومه «**طيئ**» قائلًا: «لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى، لجاهدتهم عليه، واللَّه لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم»؛ فقال له خالد: «**إن جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط**»(٢).

فماذا كان يحدث لو أَصَرَّ خالد على رفض رغبة «**طيئ**» وإنفاذ رغبة عدي بن حاتم؛ بحجة أن «**أسدًا**» مرتدون لا فرق بينهم وبين «**قيس**»، وأن عدم مقاتلتهم على اعتبارهم حلفاءهم أمرٌ من أمور الجاهلية يبرأ منه الإسلام؟!.

وكانت أوامر أبي بكر الصديق لخالد: أن يُقِيمَ في «**بزاخة**» بعد الفراغ من أمر «**طليحة**» حتى يكتب إليه بأمره»، ولكن خالدًا قدر أن الانتظار قد يفيد مالك بن نويرة لترصين قواته ومضاعفة استعدادها للقتال؛ لذلك قَرَّرَ المسير إلى «**مالك**» بعد فراغه من «**طليحة**» مباشرة غير ملتفت لاحتجاج الأنصار(٣)، فلو لم يكن مرنًا وبقي مدة من الزمن ينتظر وصول الأوامر والوصايا والتوجيهات، لكان من المحتمل أن يشتد عضد مالك ويزداد خطره؛ فلا يقوى المسلمون على تحطيمه بسهولة

---

(١) الطبري (٤٨٣/٢)، وابن الأثير (١٣٢/٢).
(٢) الطبري (٤٨٢/٢)، وابن الأثير (١٣٣/٢).
(٣) الطبري (٥٠١/٢)، وابن الأثير (١٣٦/٢).

وأمان.

وفي أول معركة خَاضَهَا خالد في العراق ضد الفرس وَاعَدَ خالد قواته «**الحفير**»، فلما علم بأن الفرس سبقوه إليه ونزلوا به، مَالَ بالناس إلى «**كاظمة**»[(١)]؛ حتى يحرم الفرس من مزية سبقه إلى ميدان القتال وإكمال استعداداتهم التعبوية قبله هناك.

وفي معركة «**دمشق**» كان خالد قائدًا مرءوسًا، وكان أبو عبيدة هو القائد العام، ولكن خالدًا عندما علم بأن حماة الأسوار والأبواب من الروم قد تركوا مواضعهم للاشتراك في أفراح البطريق، انتهز هذه الفرصة الذهبية؛ فاعتلى الأسوار وفتح الأبواب ودخل المدينة[(٢)].

وقد رأيتَ كيف كان يُبَدِّلُ أساليب قتاله في معاركه، ولا يبقى على أسلوب واحد من القتال[(٣)].

تلك هي بعض ملامح خطط خالد المرنة وعقليته المرنة، وتلك هي بعض مزايا قوات خالد في قابليتها على الحركة بسرعة وكفاية، فكيف لا ينتصر على أعدائه الكثيرين بقواته القليلة نسبيًّا؟!

٨ـ التعاون[(٤)]:

ما دام خالد يمتلك شخصية قوية نافذة، وإرادة فولاذية ثابتة، وقابلية قيادية نادرة؛ فإن بإمكانه أن يؤمن التعاون بين صنوف[(٥)] **قطعاته** من جهة وبين

---

(١) الطبري (٢/٥٥٥)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

(٢) الطبري (٢/٦٢٦ ـ ٦٢٨)، وابن الأثير (٢/١٦٤، ١٦٥).

(٣) **انظر**: ما جاء عن ذلك في فقرة: المباغتة.

(٤) التعاون: هو توحيد جهود كافة الصنوف والقطعات لبلوغ الغرض المنشود.

(٥) كانت صنوف الجيش المعروفة حينذاك هي:

١ـ الفرسان.

٢ـ الرجل أو الرجالة؛ وهم: المشاة.

٣ـ المنجنيقيون؛ وهم: رماة المنجنيق.

٤ـ الشابون أو النشابة؛ وهم: الذين يرمون النشاب.

تشكيلاتها التعبوية من جهة أخرى بسهولة ويسر ونجاح.

لَمَسْنَا كيف أَمَّنَ التعاون بين قواته وبين قبيلة «**طيئ**» ضد «**طليحة**» الأسدي؛ كما رأينا كيف أَمَّنَ التعاون بين قواته وقوات شرحبيل بن حسنة ضد «**مسيلمة**» الكذاب، وبين قواته وبين قوات المثنى بن حارثة الشيباني وأصحابه في العراق، وبين قواته وقوات قادة الشام في «**اليرموك**»، وكيف أَمَّنَ التعاون بين جيشه الذي اقتفى به أَثَرَ جيش «**توذر**» قائد الروم وبين جيش يزيد بن أبي سفيان؛ حيث ضرب جيش الروم من الخلف؛ فانهارت مقاومته ولم يستطع الوصول إلى هدفه؛ وهو: «**استعادة مدينة دمشق**».

تلك أمثلة قليلة جدًّا عن جهود خالد لجمع وتوحيد كافة جهود الصنوف والقطعات وتأمين التعاون الكامل فيما بينها؛ كي تعمل بتوافق واتساق في سبيل هدف مشترك ومصلحة مشتركة؛ ذلك الهدف: هو القضاء على العدو بأسرع وقت وبأقل خسائر؛ وتلك المصلحة: هي إعلاء كلمة اللَّه ورفع راية الإسلام شرقًا وغربًا.

لقد كان لمقدرة خالد على تأمين التعاون بين مختلف رجاله وأسلحته أثرٌ كبيرٌ على إحراز النصر ودحر الأعداء.

٩ـ إدامة المعنويات(١):

ترتكز المعنويات على دعامتين رئيسيتين: الثقة المتبادلة، والإيمان القوي.

٥ـ الدبابون؛ وهم: الذين يستخدمون الدبابات التي تتقدم مع المشاة لإعانتهم للتقدم.

٦ـ الفعلة؛ وهم: الذين نسميهم اليوم بالهندسة.

٧ـ الأطباء والبيطريون والممرضون.

راجع: مقال «جيش المسلمين في عهد بني أمية» مجلة «المجمع العلمي العراقي» «العدد الثاني المجلد الرابع» (١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م) ص (٦٣٧).

(١) المعنويات: أهم عامل من عوامل النجاح في الحرب؛ وهي: استعداد الجنود العقلي أو شعورهم الذي يدفعهم عن طيب خاطر إلى الكفاح والتحمل ومجابهة الخطر، وتتوقف المعنويات العالية على إيمان الجنود بالدور الذي يلعبونه وعلى ثقتهم بقائدهم؛ فعندما تكون هناك ثقة ويكون هناك إيمان قوي؛ فإن المعنويات تكون عالية.

ذلك ما تَنُصُّ عليه كتبُ التدريب العسكري في الجيوش الحديثة لأكبر جيوش العالم شرقية وغربية.

لقد كانت معنويات خالد ومعنويات رجاله ترتكز على هاتين الدعامتين، ولكن بشكل أكثر رسوخًا وأعظم قوة؛ إذ كانت معنوياتهم ترتكز على الثقة المتبادلة الراسخة، والإيمان العظيم.

لقد أسلفنا أن خالدًا كان موضع ثقة مرجعه الأعلى؛ كان يبادله ثقةً بثقةٍ وتقديرًا بتقديرٍ. كما أسلفنا أنه كان يَثِقُ بنفسه، بل يبالغ بهذه الثقة، ويثق برجاله أعظم الثقة، ويقدِّرهم أعظم التقدير.

كما أسلفنا أن رجاله يثقون به إلى حد الفتنة، فليس بعد ثقة رجال خالد به ثقة ولا بعد إعجابهم به إعجاب.

أما إيمانهم العظيم فهو إيمان المسلمين الأولين من السلف الصالح في الصدر الأول للإسلام.

كانوا يؤمنون جميعًا بالقضاء والقدر إيمانًا لا حدود له، ويؤمنون بأن النفس لن تموت حتى تستوفي أجلها، ويؤمنون بأن الجهاد في سبيل اللَّه فرض عين على كل مسلم، وأن الصبر في ساحات الوغى واجبٌ محتومٌ؛ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ويؤمنون بأنهم يخوضون حربًا عادلة؛ لتكون كلمة اللَّه هي العليا وحتى ينتشر في الأرض الإسلام والسلام.

ذلك هو مبلغ إيمان خالد، وذلك هو مبلغ إيمان رجاله؛ فكيف لا تظهر على أيديهم خوارق الشجاعة ومعجزات الفداء؟!

لقد أدام خالد هذه المعنويات العالية في نفسه وفي رجاله بصورة خاصة وفي العرب المسلمين بصورة عامة؛ وذلك بإثارة الاعتزاز بالمثل العليا للعقيدة الإسلامية، وبإثارة النخوة بالماضي المجيد لأيام العرب، وبإثارة الرجولة بمثاله الشخصي في

الشجاعة والإقدام.

١٠ـ الأمور الإدارية:

تحسنت الحالة المعاشية لرجال خالد بعد معركة «**اليمامة**»، وازدادت تحسنًا كلما أوغلوا في فتح العراق؛ فقد بلغ سهم الفارس في يوم «**ذات السلاسل**» ألف درهم، والراجل ثلث هذا المبلغ[١]، وبلغ سهم الفارس في معركة «**أمغيشيا**» ألفًا وخمس مئة سوى النفل[٢] الذي نفله أهل البلاء[٣]... إلخ.

ولعل تدابير خالد الإدارية التي اتخذها تمهيدًا لعبوره الصحراء بين العراق والشام قد وصلت شَأْوًا بعيدًا في الدقة والروعة؛ فقد نَقَلَ الماءَ في بطون الإبل وفوق ظهورها؛ كما أمر خالد قائد كل خيل أن يعطش عددًا من الإبل يكفي ما تحرزه من الماء لخيله[٤]، وَهَيَّأَ دليلًا ماهرًا يعرف مسالك الصحراء، وبهذه التدابير الدقيقة استطاع خالد عبور الصحراء بدون خلل إداري يُذْكَرُ.

وكان مع جيشه بعض الأطباء من العرب؛ لإعطاء الأدوية السائدة حينذاك للمرضى والمصابين؛ كما كانت النساء يقمن بواجب تموين المقاتلين بالماء والطعام، والعناية بالمرضى والجرحى، ونقلهم من ساحة المعركة إلى موضع أمين.

تلك هي بعض الأمور الإدارية التي أَمَّنَهَا خالد لرجاله.

أما الأمور الإدارية التي أجراها مع أعدائه فقد كانت بدرجة من الروعة والعدل والإنصاف؛ بحيث لا نزال نعجب بها حتى اليوم أشد الإعجاب.

---

(١) الطبري (٢/٥٥٧).

(٢) النفل: جمعها أنفال؛ وهي: الغنائم. **راجع:** تفسير الجلالين في تفسير قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ص (١٤٥).

(٣) الطبري (٢/٥٦٣).

(٤) الطبري (٢/٦٠٣)، وابن الأثير (٢/١٥٦)، وفتوح الشام، للواقدي (١/١٤)، والبلاذري ص (١١٨).

فقد أَقَرَّ الفلاحين على ما كانوا عليه، وجعل لهم الذمة[١]، وعاملهم معاملة ممتازة؛ مما جعلهم يلهجون بالشكر والثناء لعدالة المسلمين.

وأعلن في كتابه إلى الحيرة التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر؛ فقال فيه: «جعلت لهم أيما شيخ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدَّقون عليه، طرحت جزيته وَعِيلَ من بيت مال المسلمين وعيالُهُ ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلامِ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم!!»[٢].

ولكن ما مقدار الجزية المفروضة على القادر على دفعها؟ إنها أربعة عشر درهمًا على كل رجل لا أكثر[٣]، وهي أقل بكثير مما يدفعه المسلم من زكاة ماله.

الحق أن خالدًا كان عبقرية إدارية؛ كما كان عبقرية عسكرية، ولو أن الظروف ساعدته على إظهار قابليته الإدارية، لاستحوذ على إعجاب الناس وتقديرهم لإدارته للناس ولأمور المال؛ كما استحوذ على إعجاب الناس وتقديرهم لقيادته للرجال» اهـ كلام اللواء محمود شيت خطاب.

❑ خالد بن الوليد واستراتيجية الهجوم غير المباشر:

لعل «**فن الحرب**» لم يعرف قائدًا تتمثل في أعماله استراتيجية الهجوم غير المباشر مثل «**خالد بن الوليد**»، وباستعراض كل أعمال «**خالد بن الوليد**» تظهر عمليات خالد على شكل مسيرات طويلة للوصول إلى مؤخرات قوات العدو أو مجنباته.

وقد عَبَّرَ خالد عن هذه الاستراتيجية عند حديثه مع دليله «**رافع بن عميرة**»؛ إذ قال له: «كيف لي بطريق أَخْرُجُ فيه من وراء جموع الروم؛ فإني إن استقبلتها حبستني

(١)الطبري (٢/٥٥٦، ٥٥٨، ٥٥٩).

(٢)الخراج، لأبي يوسف ص (١٧٢).

(٣)البلادري ص (٢٤٥) مع اختلاف في المقدار في مصادر أخرى.

عن غياث المسلمين؟».

ولقد اضطر «**خالد**» في موقعتين حاسمتين إلى مجابهة قوات أعدائه في معركة جبهية؛ كانت الأولى «**موقعة اليمامة**»، وكانت الثانية «**موقعة اليرموك**»، ولكن رغم ذلك فقد بقي هدف خالد الدائم البحث عن الوسيلة لضرب مؤخرة العدو، ومباغتته بتهديد يحرمه من حرية العمل؛ ولهذا عمل خالد في «**اليمامة**» على ضرب القوات المتفوقة مع البحث عن ثغرة تصل بقوات المسلمين إلى «**قاعدة المرتدين في الحديقة**»؛ فكان في ذلك حسم الصراع المسلح لمصلحة المسلمين، وفي «**اليرموك**» عمل خالد على فصل قوات الفرسان عن المشاة؛ فتمكن بذلك من الوصول إلى مؤخرة الروم وتطويقها؛ مما حمل الفرسان على الفرار؛ وبذلك استطاع تدمير «**مشاة الروم**» والقذف بهم إلى «**الواقوصة**».

وقد كان هدف خالد الدائم هو إقناع أعدائه بقصورهم عن مجابهة قواته، وعجزهم عن تحقيق النصر؛ فارتبطت عنده «**استراتيجية الهجوم غير المباشر المادية**» بنظيرتها «**المعنوية**»؛ مما كان يضمن له الوصول إلى الحسم في الصراع المسلح.

ويمكن التساؤل:

هل كان اقتحام أسوار دمشق من أصعب نقاطها أكثر من نموذج أعلى لاستراتيجية الهجوم غير المباشر؟!

ثم هل كانت معارك العراق بكاملها غير تجسيد رائع لكل معطيات استراتيجية الهجوم غير المباشر؟!

مهما كان عليه الأمر، فهناك ظاهرة تتجاوز في أهميتها كل ما عداها من ظواهر الاستراتيجية المذكورة؛ وهي:

١ـ تكييف هذه الاستراتيجية بحسب المواقف التي تتم مجابهتها؛ مما يبرهن على المرونة الرائعة في تفكير خالد؛ مما ساعده على تطوير أساليب العمل.

٢ـ العمل بتخطيط دقيق في إطار من التوازن المحكم بين الهدف والوسائط

المتوفرة مع المحافظة باستمرار على قوة زخم الهجوم؛ مما يساعد على الانتقال مباشرة من المعركة الجبهية إلى المعركة على المؤخرات؛ بمعنى: تطوير استراتيجية الهجوم الجبهي إلى استراتيجية الهجوم غير المباشر؛ وذلك في الحالات التي تظهر فيها صعوبة استخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر منذ بداية الاشتباك.

❑ **الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:**

قد يكون من الصعب تصور إمكانات القيام بالتوغل العميق للوصول إلى مجنبات العدو أو مؤخرته، دون تعرض القوات المتوغلة ذاتها للتهديد بالتطويق والعزل، وهنا تظهر كفاءة خالد في ضمان شروط أمن قواته وتنفيذ عملياته دون التعرض للخطر.

وفي الواقع فقد تلقى خالد درسًا قاسيًا في «**موقعة حنين**»؛ فقد كان خالد في هذه المعركة مسئولًا عن الاستطلاع وضمان «**أمن القوات**»، ولكنه وقع في كمين محكم، كاد يقضي على قوة جيش المسلمين بكاملها لولا شجاعة الرسول ﷺ ولولا كفاءته القيادية العالية، وقد تعلم خالد كثيرًا من هذا الدرس؛ بحيث إنه لم يقع بعدها أبدًا في مأزق من المآزق التي قد تُجَابِهُهَا القوات عند بحثها عن مؤخرة قوات العدو لحسم الصراع المسلح.

وقد كان الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة هو أساس العمل لتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر.

لقد استطاع «**خالد بن الوليد**» إبراز مفهومه الخاص بـ «**القاعدة القوية والمأمونة**» في عدد من الحالات؛ فقد الْتَزَمَ قبل كل شيء بعدم تجاوز شواطئ الفرات في كثير من الأحيان، وفي معركة «**الفراض**» طلب إليه قادة التجمع الفارسي الرومي الاختيار بين البقاء في قاعدته أو عبور النهر؛ بقولهم له: «**إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم**»؛ فكان جواب خالد حاسمًا: «**بل اعبروا إلينا**».

وبذلك ترك «**خالد**» لنفسه حرية بقاء الاتصال مع الصحراء.

وفي معركة «**اليرموك**» تكررت هذه الظاهرة ذاتها؛ وكذلك الأمر في المعارك.

وكان لخالد أسلوب خاص في تنفيذ مبدإ «**القاعدة القوية والمأمونة**»؛ وهذا الأسلوب هو:

١ـ عزل مسرح العمليات قدر المستطاع عن المحيط الخارجي.

٢ـ تنفيذ الأعمال القتالية بسرعة مذهلة تضع العدو في حالة عجز عن التدخل في العمليات.

لقد كان مسرح العمليات بكامله هو «**قاعدة قوية ومأمونة**» بالنسبة لخالد بن الوليد سواء بالعراق أو بالشام، ولكن رغم ذلك فقد كانت كل بقعة من هذا الميدان الواسع هي «**قاعدة قوية ومأمونة**»؛ ويظهر ذلك في حرص خالد على تصفية قوات الروم في «**أجنادين**» ودعم «**عمرو بن العاص**»؛ حتى لا تكون هناك قوة تهدد قوات المسلمين في مؤخرتها عند الانتقال إلى الجولان[1].

❑ **خالد بن الوليد والعنف في القضاء على أعداء المسلمين:**

كانت «**بنو حنيفة**» من القبائل العربية الكبيرة؛ ولهذا فقد كانت زعامة «**مسيلمة**» لها وارتدادها تمثل أكبر خطر على المسلمين، وبعد حرب خالد لها لم يبق لهذه القبيلة دور يذكر في الفتوحات الإسلامية؛ فقد عمل خالد على إبادة المقاتلين إبادة تامة؛ ويتأكد ذلك من محادثات «**مجاعة**» مع «**خالد**» وخدعته له بإخراج النساء إلى الحصون والتظاهر بأنهن من الرجال المقاتلين، وعندما فتحت الحصون لم يجد خالد سوى النساء والأطفال.

وكان «**خالد**» في معاركه كلها يسعى للقاء قادة الأعداء ويعمل على إبادتهم وقتلهم منذ بداية الاشتباك؛ فقتل «**هرمز**» في «**ذات السلاسل**»، وقتل «**قارن**» في «**وقعة المذار**»، وقتل «**مالك بن قيس**» في «**أُلَّيس**»، وقتل في هذه المعركة كل من

(١) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٤٥ ـ ١٤٩) (دار النفائس).

حمل السلاح؛ وفاء لقسمه الذي أقسمه عندما اشتدت المعركة وكثر قتلى المسلمين؛ فقال: «**اللهم، إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحدًا قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم**»؛ فأصبح نهر «**أُلَّيس**» منذ ذلك الوقت وهو يحمل اسم «**نهر الدم**».

وعاد خالد في معركة «**دومة الجندل**» فبدأها بقتل «**أكيدر بن عبدالله، والجودي بن ربيعة**»، وقذف بهما وبالأسرى بعد إبادتهم على أبواب الحصن.

وفي «**مصيخ بني البرشاء**» نَظَّمَ خالد إغارته الليلية؛ بحيث أمكن له إبادة أعدائه إبادة تامة. وتكررت عملية الإبادة بكاملها في «**الثني**» و«**الزميل**»، وأباد المسلمون في «**الفراض**» مئة ألف مقاتل من تجمع الفرس، والروم، والعرب المتنصرة، وطبق خالد الأسلوب ذاته في «**سوى**»، و«**اليرموك**»، و«**أجنادين**»، وفي كل موقعة خَاضَهَا بعد ذلك.

وفي هذا المجال يمكن اعتبار خالد بن الوليد نموذجًا رائدًا في «**استخدام العنف للقضاء على أعداء المسلمين**»، وقد يكون بحث خالد عن «**الفاعلية المطلقة للحرب**» واستخدام مبدإ «**حرية العمل العسكري**» حتى أبعد الحدود هو سبب هذه الظاهرة، وقد يكون حرصه على تحقيق مبدإ «**الحرص على العنصر العربي**» دعامة الإسلام هو سبب آخر أيضًا؛ إذ إنه لم يكن هناك وسيلة لتحطيم التفوق الساحق بالقوى لأعداء المسلمين إلا بهذه الوسيلة.

ومهما كان عليه الأمر، فإن البحث عن «**الفاعلية المطلقة في الحرب**» وتجاوز كل الحدود كان وسيبقى أبدًا هدف السياسة الاستراتيجية عبر التاريخ[١]، ويمكن

---

(١) وهل يمكن تفسير استخدام القنابل الذرية في «هيروشيما» و«ناغازاكي»؛ لإخضاع اليابان في الحرب العالمية الثانية سوى تطوير لهذه الظاهرة؛ من أجل حسم الصراع المسلح، ومن أجل تحقيق مبدإ الاقتصاد بالقوى؟! ثم هل كانت أعمال الإبادة الوحشية ـ بما فيها أعمال الإبادة بأسلحة التدمير الشامل الكيميائية ـ في «فيتنام»، ثم في «الجزائر»، وفي «الصراع العربي الإسرائيلي» إلا نماذج متقدمة لتطوير مبدإ «الفاعلية المطلقة في الحرب».

هنا أيضًا تجاوز الظواهر للوصول إلى النتائج.

والتساؤل:

ترى هل كان باستطاعة خالد حسم الأعمال القتالية بمثل تلك السرعة، وتصعيد الأعمال القتالية على جبهات الشام والعراق لولا استخدام الفاعلية المطلقة في الحرب؟!

ثم هل كان بالمستطاع الوصول إلى تحويل مسيرة الصراع وجعل ميزان القوى - نسبيًّا - في حدود قدرة العرب المسلمين لو لم يتم استخدام تلك الفاعلية؟!

الحرب هي الحرب، والسياسة الاستراتيجية هي توازن بين «**غاية السلم**» و«**هدف الحرب**»، وقد استطاع «**خالد**» يقينًا الوصول بالحرب إلى فاعليتها المطلقة بقدر ما استطاع تحقيق التوازن؛ من أجل إقامة سِلْمٍ لا يتعارض مع فاعلية الحرب؛ وكان ذلك النجاح هو المثل الأعلى لما يطمح قائد في تحقيقه والوصول إليه. ولئن كان هناك مَن يجد في أساليب خالد قسوةً تتعارض مع المفاهيم الحضارية، فلينظر إلى ما يتعرض له «**عالم الحروب**» في ظل الحضارة التقنية لعالم «**القرن العشرين**».

❑ خالد بن الوليد واستراتيجية الحرب التشتيتية:

بدأ خالد «**حروب الردة**» بتنفيذ تعليمات الخليفة: «**أن يبدأ بطيئًا، ثم يتوجه إلى بزاخة، ثم يثلث بالبطاح**»، وعند الانتهاء من «**أُمِّ زمل**» توجه خالد لحرب «**مسيلمة**»، وقد برهنت هذه التجربة على فاعليتها في إعاقة كل تعاون أو اتصال بين قوى الردة؛ مما ضمن لخالد تدميرها على التتابع.

وعند فتح «**الحيرة**» نَظَّمَ خالد قوته على شكل خمس مجموعات قتالية؛ تولى هو قيادة مجموعة منها، وَوَجَّهَ المجموعات الباقية لقتال أربع مجموعات من الأعداء؛ وبذلك أصبحت قوى أعداء المسلمين مشتتةً وغير قادرة على تنسيق التعاون فيما بينها، وسقطت بسرعة.

وحاول أعداء المسلمين من **«فرس ـ وروم»** تنظيم مقاومات قوية بالتعاون مع حلفائهم من نصارى العرب الغساسنة والمناذرة، لكن خالدًا استطاع ـ باستمرار ـ إعاقة كل تعاون عن طريق تطوير حرب الحركة للهجوم على أقرب القوى إليه والانتقال إلى بقية القوى وتدميرها على التتابع أو في تواقت واحد بواسطة مجموعات قوى مستقلة.

وفي الوقت ذاته فقد كان عمل خالد في **«جنوب العراق»** وعياض في **«شماله»** نموذجًا للحرب التشتيتية التي أمكن لها إرغام العدو على خوض معارك بقوى متفرقة، وكانت أساليب الحرب التشتيتية متوافقة مع قدرة قوات العرب المسلمين **«الخفيفة والسريعة»**؛ بحيث كان بالمستطاع دائمًا تنسيق التعاون بين هذه القوات على نحو ما حدث من تعاون بين عياض وخالد في **«دومة الجندل»**، في حين كان الفرس والروم وأنصارهم من العرب ـ بحكم تنظيم وخصائص قواتهم ـ في حالة عجز عن تنسيق التعاون.

وفي موقعة **«الفراض»** ـ ورغم تجمع قوات كبيرة من الروم ومسالح الفرس والعرب ـ وقفت قوى التحالف وهي عاجزة عن خوض المعركة في مخطط واحد؛ وكان السبب الأساسي هو عدم وحدة القيادة في حين كانت قوات المسلمين خاضعة في مسرح العمليات لقيادة واحدة هي قيادة **«خالد بن الوليد»**؛ وبذلك أمكن تنسيق التعاون لتدمير القوات المتحالفة، ضد قوات المسلمين.

وواضح أن نجاح خالد في تطبيق استراتيجية الحرب التشتيتية إنما يعود إلى مجموعة من العوالم تعود إلى خصائص **«قوات المسلمين»** وإلى **«العقيدة القتالية»** للمسلمين بحسب ما حددتها العقيدة الدينية الإسلامية، وبحسب ما أمكن تطبيقها في عهد الرسول ﷺ ولكن ذلك لا ينتقص من قدرة خالد الذي استطاع تطوير الأسس والمبادئ لمجابهة **«متغيرات مسارح الأعمال القتالية»**.

❑ خالد واستراتيجية الهجمات الوقائية:

تُظْهِرُ مراجعة أعمال خالد القتالية أنه كان من المحال عليه تحقيق مثل تلك المنجزات الرائعة، والوصول إلى مثل تلك الانتصارات الخالدة، لو لم يلتزم باستراتيجية الهجمات الوقائية في كثير من الأحيان - إن لم يكن في معظمها -؛ إذ إن الالتزام بهذه الاستراتيجية هو الذي ساعد خالد على استخدام بقية الاستراتيجيات وتطويرها. فتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر، والانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة وما تبع ذلك من تطبيق لمبادئ الحرب، كل ذلك قد استند إلى قاعدة «**الهجمات الوقائية**»؛ فكان خالد في كل أعماله أكثر مرونة وأكثر سرعة للقاء قوات أعدائه، وإجهاض استعدادهم القتالي قبل إكماله، وقد كان من الصعب على خالد تحقيق النجاح في هذه الاستراتيجية لو لم يطبق بمهارة عالية مبادئ الحرب «**المباغتة والمبادأة...**» إلخ، ويظهر ذلك التعقيد الكبير الذي تميزت به أعمال خالد القتالية بقدر ما يُظْهِرُ الكفاءة العالية التي ميزت قيادة خالد، والتي جعلته قادرًا على مجابهة كل المواقف بما يناسبها من حلول.

ويبرز من جديد دور العقيدة القتالية الإسلامية في إبراز كفاءة خالد القيادية؛ فهذه الاستراتيجيات المتبادلة هي من بعض ما تضمنته العقيدة القتالية للمسلمين، وإن استعراض أعمال القادة المسلمين يبرز الناظم المشترك الذي وحد بين أساليب القادة جميعًا، وجعلهم يعملون رغم تباعد مسارح العمليات فيما بينهم، ورغم الفوارق الفردية في كفاءاتهم، بأساليب واحدة وطرائق موحدة.

لقد كان خالد يتوقع - باستمرار - قيام قوات العدو بتنظيم المقاومات ضده، وكانت عناصر استطلاعه تأتيه بأخبار تحركاتهم واستعداداتهم؛ فكان يسرع لغزوهم في عقر دارهم؛ فيعمل على إذلالهم، والتضييق عليهم، وحرمانهم من حرية العمل العسكري، وكانت تلك بعض فضائل «**استراتيجية الهجمات الوقائية**».

❑ **خالد بن الوليد أبرز قادة الدنيا في تطبيق «مبدإ الحركة»:**

يقول الأستاذ بسَّام العسلي:

«يعترف **«فن الحرب»** لخالد بن الوليد أنه من أبرز قادة الدنيا في تطبيق مبدإ **«حرب الحركة»**، وقد كانت حروب العرب المسلمين من نوع **«حرب الحركة»**، ولكن حروب **«خالد»** تميزت بصورة خاصة بتطوير أساليب **«حرب الحركة»** وتنفيذ هذه الأساليب في إطار متكامل مع مجموعة من الأسس الاستراتيجية ومبادئ الحرب.

ولقد انطلق خالد بعد وفاة الرسول ﷺ لحروب الردة، وأمضى بها سنة كاملة «سنة ١١هـ»، ثم انتقل لمسرح عمليات **«العراق»**.

وخلال عام واحد ـ السنة الثانية عشرة للهجرة ـ خَاضَ خالدٌ أكثر من عشر معارك رئيسية على امتداد شواطئ الفرات، ولم تكد هذه المعارك تبلغ غايتها حتى كانت شواطئ الفرات ودجلة قد أصبحت خاضعة لقوات العرب المسلمين، وأمكن إزالة مسالح **«فارس»** وفرض هيمنة المسلمين، ثم انتقل خالد بعد ذلك إلى **«الشام»**، ولم تكن مسيرته الكبرى عبر الصحراء الشامية ـ التدمرية ـ مسيرة سهلة، وإنما كان فيها قدر كبير من الخطر، ثم انتهت المسيرة بمعارك مستمرة، وأخذ بعضها برقاب بعض إلى أن أمكن حسم الصراع في مجموعة من المعارك الحاسمة **«اليرموك، وأجنادين، وفحل»**، واستمرت **«حرب الحركة»** من أقصى سورية إلى أقصاها، وحتى إلى ما وراء الدروب **«مسيرات طويلة، ومعارك استنزاف، ومعارك حاسمة، ضمن إطار من تدابير الأمن الدقيقة»**، تلك هي حروب خالد بن الوليد.

وكان يتم تنفيذ المسيرات في الليل والنهار، كما كان يتم تنفيذ المعارك في مناطق متباعدة، بسرعة عادية أحيانًا، وبتسارع مذهل في أحيان أخرى؛ كالسيل الذي ينحدر قويًّا مدمرًا؛ ليزيل أمامه كل العقبات، يتجمع أمام المقاومات الكبيرة، ويتفرق للمطاردة والقضاء على المقاومات الصغرى، ثم يتابع تجمعه؛ ليتفرق من

جديد، ولعله ليس هناك ما هو أبدع من هذه الصورة التي رسمها خالد لـ«**حرب الحركة**»، والتي أصبحت نموذجًا خالدًا تتناقله الأجيال.

◘ المبادأة واستخدام القوة الهجومية عند سيف اللَّه خالد رضي الله عنه:

لم يكن حب المغامرة هو الذي يدفع خالدًا لتطوير «**حرب الحركة**» باستمرار، وتصعيد الأعمال القتالية بصورة دائمة، وإنما هو التقدير الصحيح لموقف قوات المسلمين وقوات أعدائهم.

فقد كانت قوات أعداء المسلمين متميزة بمجموعة من الخصائص؛ أبرزها: التفوق العددي الساحق، والتفوق بالوسائط القتالية، والتفوق في مجال الخبرات القتالية، والتفوق في إمكانات الإمداد الإداري، والتفوق بالعمق الجغرافي «**العامل الجيواستراتيجي**».

ولم يكن أمام خالد سوى الإفادة من العوامل المعادلة ـ أو المعاوضة ـ المتوفرة أمامه؛ وأبرزها: العقيدة القتالية المتفوقة للمسلمين، والروح المعنوية العالية للمجاهدين في سبيل الله.

ومن هنا، فقد كان لزامًا على خالد حرمان أعدائه من مميزاتهم وخصائصهم، وكانت وسيلته الأساسية «**الإمساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية للمسلمين**»؛ ولهذا نراه ما يكاد يفرغ من معركة حتى يسرع لتنفيذ معركة أخرى في موقع بعيد وفي زمن غير متوقع، وهكذا كان يعمل أبدًا على فرض مواقف جديدة ومعقدة تحرم الأعداء من حرية العمل. وفي هذا الإطار «**إطار إمساك خالد بالمبادأة وحرمان خصومه من حرية العمل**» كان بالمستطاع تجزئة الحرب إلى مجموعات من المعارك المتتالية التي يكون للمسلمين فيها قدرة على حسم الصراع لمصلحتهم، وتدمير قوات الأعداء على التتابع، دون السماح لهم بفترة من الهدوء تمكنهم من إعادة تنظيم قواتهم، ولم تكن أعمال الفرسان في المطاردة لتدمير فلول قوات العدو تدميرًا تامًّا سوى استثمارًا للقوة الهجومية التي انفرد المسلمون بها، وقد يكون من

السهل ـ نسبيًا ـ وضع العدو أمام موقف غير متوقع، كما أنه قد يكون من السهل الاحتفاظ بالمبادأة في معركة أو أكثر، ولكن ليس هناك سوى عدد نادر جدًّا من القادة الذين استطاعوا الإمساك بالمبادأة دائمًا، مع حرمان أعدائهم باستمرار من حرية العمل، ويبقى خالد في هذا المجال نموذجًا رائعًا للقائد الذي ما تخلى عن المبادأة أبدًا، والذي استخدم القوة الهجومية كأفضل ما يمكن أن يطمح إليه قائد.

ولعل احتفاظ خالد بالمبادأة هو الذي كان يضعه باستمرار في موقع التفوق على خصومه وأعدائه، وهو الذي يُظْهِرُهُ كعملاق أمام مجموعة من الأقزام الذين سلبت منهم إرادة القتال وحرية العمل[1].

❑ خالد بن الوليد والاستعداد الدائم للقتال:

بقيت القوات التي قادها خالد بن الوليد في حالة حركة دائمة، منذ انطلقت من «**المدينة المنورة**» لـ«**حروب الردة**»، حتى حررت «**العراق**»، ثم انتقلت لتحرير «**الشام**»، واشتبكت هذه القوات بمعارك كثيرة، وخاضت حربًا متصلة، وهذا في حد ذاته برهان كاف عن الاستعداد الدائم للقتال.

وكان خالد نفسه: «لا ينام ولا ينيم، ولا يخفى عليه من أمور أعدائه شيءٌ، عيونه داكية وهو معنيٌّ بما يليه»؛ وهذا يعني ببساطة: بقاء القوات في حالة حرب دائمة لمدة أربعة أعوام تقريبًا، سقط خلالها مَن سقط، واستشهد مَن استشهد، واستبدل مَن استبدل، ولكن كتلة القوات الرئيسية بقيت كما هي؛ لم تتعبها المسيرات الشاقة في الليل أو النهار، في الحر أو البرد، كما لم تتعبها الأعمال القتالية المرهقة، ويمكن تصور العبء الكبير الذي احتملته قوات المجاهدين في سبيل اللَّه إذا ما تمت مقارنة منجزاتها وأعمالها بحجم قوتها العددية؛ فقد كان حجم القوات ـ على ما هو معروف ـ قليلًا، وكانت الأعباء ثقيلة؛ فقد كان على المقاتلين ممارسة أعمال

---

(١) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٦١ ـ ١٦٥).

الأمن والاضطلاع بأعمال الحراسة، وتأمين الشئون الإدارية، وعدم التقصير في الفروض والعبادات - الصوم والصلاة -، وقد أجاز خالد المجاهدين بالإفطار في بعض معاركه، كما كان يتم جمع الصلوات في بعض الحالات، ولكن ذلك كله في إطار متكامل مع أعمال الحرب وكره القتال؛ «كانوا آسادًا في النهار، نساكًا في الليل، لا يفضل من مضى منهم عمن لم يستشهد إلا بفضل الشهادة»، وقد عرف أعداء المسلمين خصائص جيش المجاهدين في سبيل اللَّه وفضائله، وكان من الطبيعي ألا يتعرض جيش كهذا للمباغتة، أو يُجَابِهَ مأزقًا من مآزق الحرب المعروفة؛ فقد كانت القوات في حالة استنفار دائمًا؛ تسعى للشهادة، وتعيش تحت ظلال السيوف طلبًا للجنة، وَتَظْهَرُ فضيلة الاستعداد الدائم للقتال في جيش المجاهدين تحت «**راية العُقَابِ**» من خلال اندفاعهم للقتال بعد كل مسيرة طويلة وشاقة بقدر ما تَظْهَرُ أيضًا من خلال تحركهم الدائم والمستمر.

وقد عرف تاريخ «**فن الحرب**» جيوشًا كثيرة قامت بمسيرات طويلة وأعمال قتالية عديدة، ولكنه لم يعرف أبدًا جيشًا في حجم جيش خالد بن الوليد قام بمثل ما قام به هذا الجيش من أعمال وفتوحات، وهذا هو البرهان الحاسم على الاستعداد الدائم للقتال في جيش خالد بن الوليد.

❑ **إخلاص خالد بن الوليد: «ليهنك أبا سليمان الخطوة والنية»:**

قال الصديق لسيف الله: «**ليهنك أبا سليمان الخطوة والنية**».. ولله در الصديق؛ فهو عليم واللَّه بالرجال.. وياالإخلاص سيف اللَّه حين يقبل أمر عزله وهو في أوج انتصاراته بكل انضباط وطاعة.. بل وفوق هذا يقوم بلال الحبشي في جامع «**حمص**» فيعقل خالد بن الوليد بعمامته، ويستجوبه على سمع المسلمين وأمام بصرهم، ويخضع قاهر إمبراطوريتي الفرس والروم لبلال، ويسلمه قيادة، دون شعور بالحمية حمية الجاهلية، دون شعور بالمهانة وهو الشريف القرشي الذي عَمَّرَ الإيمان قلبه... هو ابن الإسلام الذي صُنِعَ على عين الإسلام.

وبعد: قد يكون من الصعب تقويم منجزات خالد بن الوليد وما تركه من أثر في «**فن الحرب**».

إنه أسطورة الأجيال، وخالد كخلود الجبال الأوابد، نقرأ سيرته ونعيش حياته؛ فنجد فيها عالمًا لا حدود له.

وقد تراكمت الأبحاث في سيرة خالد ﷺ حتى كأنه هو الفتح الإسلامي، أو كأن الفتح هو خالد بن الوليد.

ونختم سيرة البطل ـ الذي أوحدت به أُمُّهُ ـ بكتابه إلى ملوك فارس وعامة أهل فارس:

كتب خالد بن الوليد إلى ملوك فارس عندما تولى قيادة حرب العراق:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد: فالحمد لله الذي حلَّ نظامكم، ووهن كيدكم، وفرَّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرًّا لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك لكم وأنتم كارهون على غَلَبٍ، على أيدي قوم يحبون الموت؛ كما تحبون الحياة».

وكتب إلى عامة أهل فارس:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم من خالد إلى مرازبة الفرس، أما بعد: فأسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا مني الذمة، وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الحياة؛ كما تحبون شرب الخمر»[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٧٠).

رسالة إلى سيف اللّه المسلول[١]

يحتاج المرءُ إلى سكينٍ
كي يكتُبَ حرفًا عن سيفِ اللهِ المسلول
يحتاجُ إلى إداوةِ دماءٍ
يحتاجُ إلى مقبض سيفٍ
كي يملكَ ناصية الكلمة في هذا الزّمن المخبول
أختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيل
ولا أعرفُ كيف أجُول
يا خالدُ
فاسمح لي وانزِلْ عن فَرَسِكَ
كي أتملَّاكَ... وعلِّمْني كيف أصُول

※ ※ ※

يا خالدُ
ستظلُّ الكلماتُ بليده
معذرةً.. فأنا أكتُبُ عنكَ
وأنا ألبسُ جلدًا يُنكرني فيهِ
وأزدَرِدُ الأمجادَ عَنِيدَهْ

※ ※ ※

معذرةً تبلغُ حدَّ الجُرمِ

---

(١) قصيدة «رسالة إلى سيف الله المسلول»، لمحمود خليل (دار الصحوة).

بإنسانٍ يقترضُ كلامًا من سُوقِ نخاسةِ أهْلِيهْ
أتمنَّى... لو أكتُبُ عنك بأيَّام العَصْفِ وساعاتِ الزَّحفْ
أو أكتبُ فيك ومنك فتنسلُّ الكلماتُ شَهِيدهْ
أتمنَّى لو طارتْ عُنقي بسبيلِ اللهِ
كي تُصبحَ عنوانَ قَصِيدهْ

❊ ❊ ❊

يا خالدُ.. عقلُكَ عقلُكْ[١]
دينُكَ دينُكْ.. دَمُكَ ولحمُكْ
ما مِثلُك يَخْفَى النُّورَ عليهِ
وأنت الفارسُ يعرفُ كيف يَرِيشُ السهمَ
وكيف يُحاسِبُ أرضَ اللهِ إذا ما الباطلُ فَاخَرَ فيها
وإذا النُّورُ تَلأْلأَ
فالقاعدُ شرُّ الناسِ.. وملعونٌ مَنْ كَابَرَ فيها
يا رافعَ إرْثِ الخيلِ تليدًا.. وعتيدًا
يا جَارَ الماحِلِ والمائلِ.. والمنقطعِ
ويا عِزَّ المستضْعَفِ فيها

❊ ❊ ❊

وَدَرَجْتَ بأعتابِ العِزَّةِ
أَسْمَعْتَ الأرضَ أناشيدَ رِمَاحِكْ

---

(١) هو أخوه الوليد بن الوليد الذي سبقه إلى الإسلام، وقال له: يا خالد، عقلك عقلك، سألني عنك رسول الله ﷺ.

وَرَوَيْتَ البيداءَ دماءَ الكفرِ
ولقَّنْتَ فِراشَ الموتِ أغَارِيدَ جِراحِكْ
شوَّقتَ العالَمَ أن يقفَ على حدِّ السيفِ
لكي يسمعَ قصةَ سيفكِ وقوافيها
علَّمتَ خيولَ اللَّه بأن تَحْمِلَ مَنْ
وتطيرَ إلى اللهِ بِمَنْ
أن تَدْفَعَ بشَكَائِمِهَا
وتُنازِلَ بحوافِرها
وتُهَلِّلَ بنواصيها

* * *

يا خالدُ
رُجحانُ العقلِ تَعَانَقَ فيك ورجحانُ السيفِ
ورجحانُ الْمُحْتَدِ
والصَّهوةُ كانت طَوْعَ يَديكْ
يا خالدُ.. اللَّه عليكْ
علَمني كيف هَصَرْتَ غرابيبَ الأرضِ السوداءِ
وكيف ملكتَ العربَ النَّكراءَ
وكيف بقرتَ أجاديبَ البيداء الموحشةِ
فأضحتْ قِرْبَةَ ماءٍ في كَفَّيكْ
يا خالدُ
لا يُبْصِرُ قومٌ وجهكَ.. قلُّوا أم كثُروا إلا انهزموا عنكَ

فلا أحد أيمن طائر منكَ
ولم تعرف هذي البيداءُ أَحَدَّ عليها مِن سيفكَ
فهو السيفُ البازِغُ من فيضِ نبوءاتِ رسولِ اللهِ
وَقَدِمَ الرَّكبُ المكيُّ الفارغُ في المجدِ إلى مجدِ رسولِ اللهِ
لكي تنبتَ أشجارُ الضوءِ الموغِلةُ.. بِعُمقِ الأرضِ
الباسقةُ إلى عِلِّيِّينْ
فلذاتُ الكَبِدِ القُرَشِيَّة عانَقَها أَلَقُ الدِّينْ
وحباها اللَّه مِن النُّورِ الأوَّلِ برسولِ اللهِ مناراتٍ للتَّمكِينْ
يا خالدُ
مولودٌ أنت بِظَهْرِ الخيل
أخالُكَ لا تأكلُ إلَّا بالسيفِ
تلوتَ كتابَ اللَّه على هاماتِ الكفرِ بسيفِك حرفًا حرفًا
ودخلتَ الإسلامَ كبيرًا
وجناحُ الرَّهبةِ فيكَ.. وفي ابنِ العاصِ جناحُ الحيلةِ
يا جَبَلا أمجادِ قُريشْ
لا طابَ مُقامُكَ دونَ الحقِّ ولا طابَ العيشْ
وكأن مكانكَ في الإسلامِ يُناديكَ
وتنتظِرُكَ ساريةُ الجيشْ
يا خالدُ
يا صاحِبَ «ناصيةِ رسولِ اللهِ»
ويا صانِعَ مِنْ شَعراتِ الخيرِ رِماحًا
تُطلقُها مِن جبهةِ أسَدِ الإسلامِ وتدفعُها

في صُحبةِ سيفِ اللهِ
هل يعلمُ أجنادُ الأرضِ بأنَّ الشّعْرَ يصيرُ رِماحًا
وبأنَّ الدعواتِ تُزلزِلُ أوتادَ الأرضِ
وتفتحُ في الكُربةِ ساحًا

* * *

يا خالدُ
أفزَعَكَ سقوطُ قَلَنسُوَتِكَ في اليرموكِ
فَرُحْتَ تُغَرْبِلُ في الميدان وليسَ عَلَيكَ.. أتقعُ على الموتْ
أم يقعُ الموتُ عليكَ
فناصيةُ رسولِ اللهِ ستقْمَعُ ناصيةَ الرومِ
وقد قمعتْ ناصيةَ الفُرسِ
سترفعُ ناصِيتَكَ حين تَمُرُّ إلى الجنَّات بإذن اللهِ
يا شاهرَ سيفِ الإِسلامِ.. ويا فاتِحَ أرض اللهِ
وباسطَ ظِلِّ كتابِ اللهِ
لم تَعْهَدْ بعدَك خيلُ اللّه مليكًا تُسلِّمه سُرُجَ العِزَّةِ
وتطيرُ به في اللّه إلى مرماهْ
علِّمْني أنَّ المَوْلدَ في الموْتِ حياهْ
«لا نامتْ عينُ الجُبنَاء».. ولا كانَ السيفُ المُغْمَدُ
والجِفْنُ المُغْمَضُ... لا كان الكفُّ المغلولُ بِعُنُقِ الخوفِ
المُسْتَنْوِقُ في زَيْفِ خطاهْ

* * *

يا خالدُ

مِن طعنةِ رمحكِ أتنزَّى بعض الأحْرُفِ

كي أنسبَ يومًا للصَّدإ المعروق على أسْمالِكْ

مِنْ أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ

أقتلِعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلَالِكْ

معذرةً.. ما حيلةُ مَنْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزْيِ.. المُنْخَنِسِ الضَّائعِ

معذرةً.. ما شَرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ

أو وَطْءِ نِعَالِكْ

* * *

يا خالدُ

هل تأذنُ أنْ أرفعَ بصمةَ حافرِ خيلكَ

لتصيرَ شعارًا لبيانٍ يُلقى في يوم النصرِ المقبلِ إن شاء اللهْ

هل تأذنُ بإعارة سرج جوادِكَ يومًا

كي يعرفَ حاكمُنَا المُطَهَّمُ

ما معنى الخيل المُسْرَجَةِ لِنُصْرَةِ دينِ اللهْ

يا خالدُ

لو رمحٌ منكَ يمرُّ الآنَ.. لكانتْ رايتُنَا أعْلَى

لو سيفٌ منكَ يكرُّ الآنَ.. لكانت حُجَّتُنَا أجْلَى

لو سهمٌ منكَ يجيءُ الآنَ.. لكانت كلمتُنَا أحلى

لو كان لدينا وتدٌ مِن خيمتِك الآن

شكيمةُ فَرَسِكَ.. دِرعُكَ

لو أنَّ لدينا شيئًا ينتسبُ إليكَ الآنَ
لأصبحنا شيئًا آخرَ
ولصِرْنَا بعد هُنَيْهاتٍ عندكْ
لو شوكةُ رمحكِ تبقرُ بطنَ ولاةِ الأمرِ
لهانَ الأمرُ.. وأصبحْنَا من خيرةِ جُندِكْ
يا خالدُ
أنْسَيْتَ الرُّومَ وسَاوِسَهُمْ
وبطونُ النِّسوةِ عَقِمَتْ أن تَلِدَ قرينًا لكْ
يا من فَرَّجْتَ عن الصِّدِّيق
وأعلاك الفاروقُ.. وقال: قد أَمَّرَ خالدٌ نفسَهْ
وبسيفك
قد فُتِنَ الناسُ وقالوا
في سيفِكَ يسكُنُ سرُّ النَّصرِ
وأعناقُ الجبَّارِينَ أَبَتْ أن تُقطفَ إلَّا بهْ
وتلوتَ على النَّاسِ كلامًا يَبْرُقُ كالرَّعدِ
اللَّه عليك.. وأنتَ بِقِنَّسْرِين
إذ الميدانُ يؤزُّ.. وأضلاعُ الفتنةِ كادتْ تعتصِرُ الجُندَ
وأنتَ تمدُّ حبالَ الثِّقةِ إلى مولاكَ
فتُطلِقُ هذا القولَ سراجًا وَهَّاجًا
أمْضَى من كلِّ سلاحٍ عَرفَتْهُ الفُرسُ على النِّيرانْ

❊ ❊ ❊

يا خالدُ
علَّمَك اللَّه بأنْ تضربَ فوق الأعناقِ
وأن تَضِربَ منهمْ كلَّ بَنَانْ
هل عرفَ العالمُ قبلَكَ هذي الحِكمةْ
«واللهِ.. لو أنَّ عدُوِّي في بطنِ سماواتِ الله
لَيَرْفَعُنِي اللَّه إليه.. أو يُنزِلهُ اللَّه إليَّ»

* * *

اللَّه عليك وأنت بِحِمْص تفوحُ كَزَهْرِ الشَّامْ
وتحلُو أحلى من فاكهةِ الشَّامْ
والناسُ حواليْك تَدورُ.. وأنت البدرُ
وقد أعلى ربِّي فيكَ العِزَّةَ والإقدامْ

* * *

اللَّه عليك.. وسيفُك يجتثُّ العُزَّى
ويُحِقُّ الحقَّ ويقطعُ دابِرَ كلِّ هَلُوكْ
يا شامةَ يومِ الفتحِ.. ويا قامِعَ مَنْ بَدَءُوكْ
أميرًا كنتَ.. وسيفكَ كان أميرا
والرُّمحُ البازغُ مِنْ كفَّيْكَ أميرا
وجوادُك كان أميرا
والقوسُ الرَّائِشُ منك السهم أميرا
يا خالدُ
يا قَصَّابَ الكُفْرِ

ويا قامِعَ وسوسةِ الكفرِ على اليرموكْ

«إذا دُعِيَ أجابَ»

«وإن نُودِيَ لَبَّى»

«وإذا سمِعَ الهَيْعَةَ طَارَ إليها»

لكنَّ الطاعةَ والسَّمْعَ جهادٌ

الفتنةُ فيه تفُوقُ القتْلَ

فكنتَ على التَّوِّ السيفَ المُغْمَدَ

في وقتٍ كنتَ عليه السَّيِّدَ

كانَ النصرُ إلى مقبضِ سيفكِ يَحْبُو

وجنودُ اللَّه بدُونِكَ تكبو

في وقتٍ كنتَ تُعِيدُ على العالمِ فيه قراءةَ قولِ اللهْ

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾

وجعلتَ الكفرَ أحاديثَ

وأضحى الباطلُ من طائف طَيْفِكَ يَخْبُو

لكنَّك تسمعُ وتطيعُ.. وإن كانَ أميرُكَ عبدًا حبشيًا

ودروس الطاعةِ ليستْ بالشيءِ الهَيِّنْ

في وقتٍ يتحدَّثُ فيه السيفُ

ولكنَّكَ كُنتَ الفارسَ

وضربتَ مثالًا لجنودِ اللهِ بأرضِ اللهِ إلى يومِ الدِّينْ

* * *

يا خالدُ

ماذا تصنعُ ورجالُكَ معذورونَ إذا فُتِنُوا في هذا السيفِ
فما عهدوا سيفًا مثْلَكَ ينطقُ بالقولِ الفَصْلِ
ويكتُبُ خاتمةَ الأشياءْ
فَتَغَلْغَلَ في أعماقِ الجندِ يقينٌ يهمسُ
«في خالدٍ.. يسكنُ سرُّ النَّصْرِ»
فخالدُ رجلٌ
ميمونُ السَّاعِدِ
ميمونُ النَّصْلِ ولا يخشى لومةَ لائمْ
فتلا الفاروقُ الدرسَ الغالبَ في التوحيدِ
وَمَنْ يَجرؤُ أن يُمْلِيَ هذا الدَّرْسَ سوى الفاروقِ
وَمَنْ يفهمُ هذا الدرسَ سوى خالدْ
يا صَاحِبَ «**نهر الدمِ**» وقامِعَ رأسِ «**الرِّدَّةِ**»
يا قارئَ في كَونِ اللهِ على العادِينْ
﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾
﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾
يا هادِمَ ما عَبَدَ أبوكْ
وناصِر ما هُدِيَ أخوكْ
اللهَ عليكْ.. يا مَنْ أخْلَيْتَ الحاجِبَ ما بين المالكِ والمملوكْ

❊ ❊ ❊

وبسيفكَ قُمتَ بِلَمِّ الأرضِ على الإسلامْ
والضوءُ السَّابِغُ من هذا البدرِ أنار مَجَاهِيلَ الكوكبِ

أخرجَهُ للنُّورِ مِن الإظلامْ
وأحالَ الآياتِ جنودًا تَزْحَمُ عينَ الشَّمسِ
وخيلًا تَهْدِرُ بالإلهامْ

* * *

اللَّه عليكَ وأنت تَميدُ على اليرموكِ وقِنَّسْرِينَ
وإذْ بالفاروقِ يُقرِّرُ
أن يُعزلَ خالدُ فورًا
أن يُعقلَ بِعمامتِهْ
أن تُنْزَعَ عنه قلنْسُوَتُهْ
ذلك حتى يُعْلِمَنَا من أين أجاز الأشعث
هل من مالهْ
أم من مال اللهْ
إن كان بمالِ اللهِ فقد خانَ الأُمَّةَ
والخائنُ لا يُؤتَمَنُ على شيءٍ بعدْ
وإذا كان بمالِهْ
فلقد أسْرَفَ
ولسوفَ نُقَاسِمُهُ المالَ مُناصَفةً
حتى نَعْلَيهْ
فابتسمَ الناسُ وقالوا: هذا لا يُصلِحُهُ إلا هذا
وبرغم قبولِ الأمرِ بصبرِ المؤمنِ وَثَبَاتِ القائدِ
وَثَبَ بِلال إليكَ

ونفَّذَ أمرَ الفاروقِ
وَنَقَضَ عِمامَتكَ الشامةَ واعْتَقَلَكَ فيها
اللهَ عَليكَ
وأنت ذَلُولٌ.. لا تمنعُ مَنْ يصنعُ ذلكَ
بل تبسطُ وجهكَ لبلال وتُعربُ
«نسمعُ ونطيعُ ولاةَ الأمْر»
وأنت الفاقِهُ معنى الطاعةِ
كان جوابُكْ
ما أنا مِمَّنْ يعصي
فاصنعْ ما يبدو لكْ
يَسَّاقطُ هذا العَدْلُ العُمَرِيُّ ثمارًا تنطقُ
يا خالدُ
«إنكَ لكريمٌ واللهِ عليَّ»
«وإنكَ لحبيبٌ واللهِ إليَّ»
«ولنْ تعتِبَ بعدَ اليومِ عليَّ على شيءٍ أبدًا»
يا تمرًا أيْنَعَ في شجر النُّصْرَةِ
والفتح الأعظمِ.. يا أملًا في كلِّ تقيٍّ
يا خالدُ
كنتَ جهادًا للإسلامِ بِطُولِ الأرضِ.. وعرضِ الأرضِ
وعُمقِ الأرضِ
وكنتَ بفضلِ اللَّه مَهِيبًا
كنت تودُّ بأنْ تُستشهدَ مِلْءَ جهادِكَ.. فوقَ جوادِكَ

في معمعةٍ تشهدُ أنَّكَ صرتَ أميرًا للشهداءِ
وأن دماءَكَ تقطرُ طِيبًا
ما بقيَ بجسمِكِ موضعُ
إلَّا وَبِهِ طعنةُ رُمْحٍ
أو رميةُ سهمٍ
أو ضربةُ سيفٍ
جسدُكَ صار كتابَ جهادٍ يَقْدَحُ في الظُّلماتِ لَهيبًا
فاهنأْ في عِلِّيِّينَ.. تُرَفرفُ روحُكَ
بحواصِلِ طيرٍ خُضرٍ
تَرِدُ مياه الجنَّةِ
تأوِي لقناديلَ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ
وتُؤويكَ إلى اللَّه مُبينًا

* * *

يا خالدُ
تحمل هذي الكلماتُ إليك.. ذراعًا من كَشْمِيرْ
وبقايا طفلٍ من بورما
وحقيبةَ طفلٍ من لبنانْ
تحملُ عينًا مِن بلغاريا
تحملُ شبحًا من قلبِ بُخارَى
تحملُ مِن بيت المقدسِ نصفَ لسانْ
تحملُ عَصَبًا ينـزِفُ فوقَ الثَّلجِ

ويُستشهدُ فوق القرآنْ
تحملُ مِن قلبِ الأزهرِ شيخًا مصلوبًا
مسلوبَ الجُبَّةِ والقفطانْ
مغلولَ السَّاعِدِ.. منزوعَ الأضلُعِ والأسنانْ
تحملُ جاريةً أُسِرَتْ في تونسَ ساجدةً
ينقرُ عِفَّتَهَا الغربانْ
تحملُ صورةَ بيتٍ منهوبٍ في وهرانْ
وفتاةٍ أكلوا عُذْرِيَّتَهَا
نَهَشُوهَا دَنَسًا
مئذنةً شامخةً من أرضِ البوسنةِ والهرسكْ
يعلوها نَجَسُ الصُّلْبانْ
يا خالدُ
خارِطَتي فاجعةٌ جدًّا
لا أذْرُعَ فيها.. لا قلبَ.. ولا سيقانْ
خارطتي فاقدةُ النطقِ
وفاقدةُ السَّمْعِ
مُسجَّاةٌ.. تُحْتَضَرِ الآنْ
قتلانا من غير قبورٍ
أبدانٌ من غير رءوسٍ.. منبرُنا يرعُفُ بالبُهتانْ
في سيفِك بعضُ البُرْءِ
لا نجدُ لموتانا لحدًا

لا نملكُ ثمن الأكفانْ

* * *

يا خَالدُ
يتصبَّبُ لحمي خجلًا وأنا أكتبُ عنكَ
وأختطفُ حروفًا من رَهَجِ الخيلِ
ولا أعرفُ كيف أصُولْ
سامحني
لا أملكُ شيئًا أبدًا في هذا الزَّمَنِ المشلولْ
لا أعرفُ كيف أُمَيِّزُ بين القاتلِ والمقتولْ
قد أضحتْ كلُّ خياناتِ الأرضِ بأرضي فاكهةً
سامحني.. نحنُ الفاعلُ والمفعولْ
يا خَالِدُ
في هذا الزمنِ المخبولْ
أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ
كي أنسبَ يومًا للصَّدإ المعروقِ على أشمالِكْ
من أسْفَلِ أسفلِ بئر الخيبةِ
أقتلعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلَالِكْ
معذرةً
ما حيلةُ منْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخْزْي
المُنْخَنِسِ الضَّائعِ
ما شَرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ.. أوْ وَطْءِ نِعَالِكْ

فاسْمَحْ لِيْ

أن أرفعَ بصمةَ حافِرِ خَيلكَ لتصيرَ شِعَارًا

لبيانٍ يُلقى في يومِ النصرِ المقبلِ إنْ شاءَ الله

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

فرسان النهار

جهاد النبيين وسيد المرسلين ﷺ
٧ ـ ٧٤

صحابة رسول اللَّه ﷺ رهبان بالليل فرسان بالنهار


تم بحمد الله